الشعر العربي في الغرب الإفريقي

خلال القرن العشرين الميلادي

الدكتور كبا عمران
أستاذ الأدب الإفريقي
جامعة سنفونيا ـ كوناكري ـ غينيا

المجلد الأول

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة . إيسيسكو . 1432هـ/2011م

تقديم

تعدُّ الآداب الإنسانية عنصراً أساساً بين عناصر الهوية الذاتية للأمم والشعوب، فهي صفوة عطائها الفكري وجذوة تألقها الشعوري، كما أنها تمثل جانباً مهماً من رصيدها الحضاري وتاريخها الثقافي، وتعمل الآداب على ربط أواصر القربى وأسباب التواصل الاجتماعي بين الناطقين بلغاتها والمتأثرين بقيمها ومبادئها. ولا شك في أن الأدب العربي في إفريقيا الغربية ظل يحمل هذه المضامين الحضارية والنفسية والاجتماعية زمناً طويلاً بعد استقرار الإسلام في هذه البيئات، فقد دخلت اللغة العربية إلى هذه المنطقة الشاسعة جنوبي الصحراء الكبرى حتى كانت اللسان المشترك بين مثقفيها، بل كانت لسان الجمهور في المدن ذات الطابع الإسلامي مثل كانو، وتنبكتو، وجني، وكانم وغيرها من الحواضر الإسلامية الإفريقية، والتي ما تزال تحتفظ بالأثر الإسلامي والعربي في مجتمعاتها وثقافتها المحلية حتى الآن.

وذلك بالرغم مما عمله الاستعمار خلال القرنين الماضين من تجسير للهوة بين العرب والأفارقة، ومحاولات للقضاء على اللغة العربية وآدابها في الغرب الإفريقي وغيره من أجزاء القارة، وخلق البدائل المتمثلة في نشر لغة المستعمر وآدابه، غير أن روح الإسلام التي ظلت قوية في هذه البلاد حمت اللغة العربية وآدابها من الذوبان، وعززت من صمود المدارس العربية والمراكز الثقافية الإسلامية في جميع أنحائها، الأمر الذي جعل الدراسة تزدهر في مجالات الثقافة الإسلامية بصورة عامة، فضلاً عن استمرار المد الثقافي الإسلامي الذي وجد في الجامعات العربية والإفريقية سنداً قوياً له.

وحين نتحدث عن الغرب الإفريقي فإننا نعني مساحة تضم خمس عشرة دولة، هي الدول المشكِّلة لاتحاده رسمياً حتى الآن، وهي : مالي، والسنغال، والنيجر، وتشاد، وبوركينا فاسو، ونيجيريا، وبنين، والرأس الأخضر، وليبيريا، وغامبيا، وغينيا بيساو، وغينيا كوناكري، وساحل العاج، والتوغو، وسيراليون. وتضاف إليها موريتانيا التي كانت عاملاً بارزاً في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في هذا الإقليم، وقد ازدهرت فيه عواصم تاريخية كثيرة أشهرها تنبكتُ وكانو، وعُرفت فيه ممالكُ قوية مثل امبراطورية غانة، وكانم، والشمال النيجيري الذي شهد مجده الإسلامي على يد الإمام عثمان بن فوديو وأسرته، وكان بذلك أنموذجاً للمقاومة الإسلامية للاستعمار في غرب إفريقيا.

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ بعنوان "**الشعر العربي في الغرب الإفريقي خلال القرن العشرين**" يكتسب أهميته من الإرث الحضاري والحاضر الثقافي الإسلامي لهذه المنطقة، ومن هذا البعد الجغرافي الشاسع. أما اقتصاره على الشعر فلا يعني قصور التراث في غرب إفريقيا عن تناول الأنواع

الأدبية الأخرى، ولا إهمال المجالات العلمية الموازية، بل يعني أن هذا الغنى للثقافة العربية الإسلامية يفرض على الباحث أن يلتزم بحدود موضوعية وزمانية ومكانية واضحة تجعله قادراً على الإلمام بفصوله ومباحثه. وقد اعتمد فيها على ثلاثة مصادر كبرى، أولها الدواوين المطبوعة في منطقة يبلغ الشعراء فيها المئات. وثانيها المخطوطات الخاصة التي اتصل المؤلف بأصحابها أو بمكتبات أقاربهم للاستفادة من محتوياتها. وثالثها: البحوث العلمية التي أنجزها طلاب الدراسات العليا في البلاد العربية، وفي دول المنطقة وعلى الأخص في نيجيريا.

ويأتي نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة أعمال نشرتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - عن الثقافة العربية في إفريقيا بعامة وفي الغرب الإفريقي على وجه الخصوص، ففي الأدب الإفريقي عقدت المنظمة ندوة دولية في الجامعة الإسلامية بالنيجر بعنوان "**من أجل أدب فاعل ومتفاعل**" ونشرت أعمالها سنة 2004، وقد تناولت الندوة موضوعات مهمة عن الشعر الإسلامي باللغة العربية في غرب إفريقيا، وعن الأدب العربي في إفريقيا بصورة عامة، وللمنظمة إصدارات أخرى عن **تطوير المنهج التعليمي وإصلاحه في إفريقيا**، و**تعليم الفتيات والنساء في إفريقيا**، وعن أعلام من أفريقيا مثل **أحمد بابا التنبكتي وعثمان فودي**، وإصدارات عن بيئات معينة مثل كتاب **انتشار الإسلام في يوغندا**، وكتاب **مِنْ تراث تنبكتْ**، أو عن مجال أوسع مثل كتاب **إفريقيا والثقافة العربية الإسلامية**. وتعزيزاً للثقافة العربية الإسلامية في إفريقيا عملت المنظمة بالتعاون مع شركائها على تأسيس مراكز للقراءة باللغة العربية، وقد أمدتها بالكتب العربية في تجربة نأمل لها النجاح والتطوير بإذن الله.

كما يأتي نشر هذا الكتاب الذي يؤلفه الباحث الغيني الدكتور كبا عمران في إطار الاحتفاء بكونكري عاصمة للثقافة الإسلامية لهذا العام 2011 عن المنطقة الإفريقية، وهي مناسبة نشيد فيها بالأثر الثقافي المهم للمردود الإيجابي من تجربة العواصم الثقافية الإسلامية، ولا يسعنا إلا أن نشكر المؤلف على الجهد الكبير الذي بذله في موضوع واسع كهذا، آملين أن يكون عمله أرضية صلبة لمزيد من الدراسات المعززة والمطورة للقضايا والظواهر التي وقف عندها أو أشار إليها.

والله ولي التوفيق.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ميّز البشر بالفكر، وزيّنهم بالنطق، وأكرمهم بالإنتاج، ونعم الصلوات والتسليمات على أفصح أهل الضاد، محمد بن عبد الله، الذي بلّغ عن ربّه بجوامع الكلم، ودافع عن دينه بالشعر، وكرّم شعراء الدعوة من صحابته ، وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار، ومن سار على نهجهم مقتديا بآثارهم من ذوي الأبصار.

وبعد /

يعد " الشعر العربي " أقدم فنون الأدب الإفريقي، وأكبرها إنتاجاً، وأعظمها وقعاً في قلوب المسلمين، وأهمّها اتصالا بالمجتمع، وذلك لأن الثقافة العربية الإسلامية أسبق إلى إفريقيا الغربية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، من الثقافة الأوربية. ولما كان الشعر أبرز فنون الأدب العربي ، فلم يجد الأفارقة بدّاً من التأثر بالشعراء العرب، والنسج على منوالهم فكرة وأسلوباً، مع إبراز أصالتهم الفكرية ومظاهر بيئتهم في روائعهم الشعرية.

ومنذ قرون شهدت المنطقة إنتاجا ضخما في العلوم العربية والدينية والأدبية، فظلّت تحتفظ بها المكتبات العامة والخاصة في جميع دولها، التي تفاوتت حظوظها في هذا الإنتاج تفاوتا كبيراً، تبعا لتفاوت مدى انتشار الثقافة العربية الإسلامية فيها.

ورغم ضخامة هذا الإنتاج العلمي والأدبي لم يتعرف المتعلمون على كنوزه سوى قليل ، ولم يقف العلماء على كثير من آثاره، لأنه ظل حبيس الحقائب والصناديق، فأكلت منه الأرضة والصراصير والفئران ما أكلت، وأتلفه الدهر بمطره وحرارته ورطوبته ما أتلف، إلى أن جاءت حركة البحث العلمي، فعزم بعض أبناء المنطقة على الوقوف عليه بالدراسة والتحقيق، فكان أبناء نيجيريا سبّاقين إلى إحياء تراثهم العربي الإسلامي.

وذلك بفضل جهود بعض الباحثين ، أمثال الدكتور علي أبو بكر في كتابه " الثقافة العربية في نيجيريا من 1750 إلى 1960م، والدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي في مؤلفه " حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من 1804 إلى 1966م. وإن كان أولهما لا يتصل بموضوعنا مباشرة، فإن الثاني في صميم موضوعنا، لكنه اقتصر على كبار شعراء شمال نيجيريا (إقليم هوسا)، وأهمل كليّاً بلاد يورُبا، بما فيهم كبار شعراء الدولة الذين اهتممنا بهم في هذا الكتاب.

أضف إليهما ما قام به بعض الباحثين في النيجر ومالي والسنغال وغانا، غير أن كل باحث اقتصر على خدمة تراث قومه.

وعليه فإن كلّ دولة تظلّ منغلقة على نفسها، لا يعرف علماؤها شيئا عن إنتاج إخوانهم في الدول المجاورة : لأن الوزير جنيد الذي لا يجهله أحد في نيجيريا، والشيخ آدم عبد الله الإلوري كذلك، مجهولان لدى المستعربين في السنغال مثلا. كما يجهل النيجيريون كبار علماء السنغال، أمثال الحاج مالك سي والشيخ أحمد بمبا. وهؤلاء المذكورون من النيجيريين والسنغاليين غير معروفين في مالي وغينيا مثلا، كما أن الغينيين الشيخ علي بُوبَدِيِمْ وكَرَامُو طَلْبِي مجهولان في الدول المجاورة...الخ.

هكذا يظهر لنا أن أواصر التواصل الثقافي واهية بين علماء دول المنطقة ومستعربيها، بخلاف ما نجده لدى المثقفين بالثقافة الفرنسية أو الإنجليزية، ومن هنا نرى حاجة ملحّة إلى ضرورة إجراء كتاب أدبي، يضمّ بين دفّتيه إنتاج هؤلاء العلماء الأدباء من دول المنطقة، لنسدّ به ثغرة ظلّت تصرخ وتنادي الباحثين فلم تجد منهم تلبية ! وهذا ما حرّك مشاعري للاستجابة علّ أدلي بدلوي في هذا الخضمّ لاستخراج بعض درره لكل من يتعطّش إلى معرفة شيء من تراث الشعر العربي في إفريقيا الغربية.

وبجانب هذا السبب الرئيس في اختيار هذا الموضوع، فإن ثمة دوافعَ أخرى وأهدافاً ظلّت تدعم إرادتي، وتغذي عزيمتي، للقيام بدراسة هذا الموضوع الواسع والصعب المراس :

۞ إن كثيرا من المراجع التي تتجه إلى هذا الموضوع ركّز على وصف إنتاج الشعراء، وسرد نماذج قصائدهم من غير دراسة تحليلية في أغراضها الشعرية وخصائصها الفنية، كـ (الأدب السنغالي العربي)، و(الثقافة العربية الإسلامية بالغرب الإفريقي)، و(الثقافة العربية في نيجيريا)...الخ، لذا نحوت نحو دراسة تحليلية ونقدية.

۞ وإذا كانت بعضها قد تعرّضت لدراسة الأغراض الشعرية : كـ (الشعر العربي في النيجر)، و(حركة اللغة العربية وآدابها بنيجيريا)، فإنها اقتصرت على تناول أشهر الأغراض الشعرية كالمدح والغزل والفخر، غير أنني فصّلتُ القول في دراسة أغراض الشعر العربي الإفريقي حتى بلغتُ في ذلك 26 غرضا، وبيّنت خصائص كل غرض من حيث عناصر موضوعها وبناء أسلوبها، بحيث تظهر أصالة الأدباء الأفارقة فيها، فتثبت بعض أوجه الجدة في هذه الدراسة.

۞ لم تُعْنَ تلك الأبحاث بدراسة الموسيقى الشعرية في هذا الشعر، وقد تناولتُ ذلك في الباب السادس، مقدّما إحصائيات دقيقة للبحور المستعملة لدى الشعراء، وإحصائيات أخرى لمعرفة حظوظ الحروف في الروي، وهي دراسة لم أُسْبَقْ إليها.

۞ اعتمد جلّ جهود الكتّاب السابقين على تناول إنتاج كبار الشعراء، من العلماء والمشائخ الصوفية، غير أنني أضفت إليهم إنتاج شعراء من الشباب المعاصرين، سواء أكانوا مكثرين أم مقلين، لأتمكّن من إبراز تفاوت مستويات خصائص الشعر العربي الإفريقي، وعلى مدى تطوّره الفكري ونموّه الفني وتنوّع اتجاهه الأدبي، وتحرّره من قيود الخصائص التقليدية، لذا زرتُ جميع دول المنطقة لجمع مادة هذا الكتاب من أيدي الشعراء أنفسهم في عقر ديارهم.

۞ إذا كانت بعض تلك الكتب السابق ذكرها تسدّ ثغرة في المناهج الدراسية الوطنية، فإنها قاصرة عن تلبية حاجة مناهج الجامعات الإقليمية والدولية، لأنها ليست شاملة لإنتاج جلّ أدباء المنطقة، ولأنها تقدم دراسة وصفية تاريخية أكثر مما تقدّم دراسة أدبية نقدية، وهذه الثغرات هي التي أحاول أن أسدّها بتقديم هذا المؤلف المتواضع.

وتلك الدوافع والأهداف هي التي تبرّر اختيار هذا الموضوع :

« الشعر العربي بالغرب الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي »

إنه لموضوع واسع، في مساره الزمني والجغرافي، وفي تشعّب موضوعاته وكثرة أعلامه، وهذا ما أكّده الأستاذ الدكتور سمبو ولي جنيد ــ بجامعة صكتو في شمال نيجيريا ــ لما أطلعتُه على الخطة المبدئية لهذا الكتاب، فجاءت ملاحظته في هذا النصّ بخط يراعه :

« يبدو لي أن الموضوع دسم ولكنه صالح لمشروع موسوعة كبيرة يقوم بها عدد من فحول علماء إفريقيا »

وقبل أن يأتي الدهر بفرصة مثل هذه الدراسة الموسوعية، التي تفتقر إلى رجال كما تفتقر إلى إمكانيات مادية، فلا بدّ أن يُمهَّد لها الطريق، لأن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، لذا قمتُ بهذه المحاولة الرائدة ، رغم ما تحفّها من مكاره ومخاطر وعراقيل مادية ومعنوية.

ومن هنا أدركت أن المهمّة لعسيرة، والطريق إليها وعرة، والعبء ثقيل، رغم ضآلة زادي وخفة معونتي، ولكن حاجة (المكتبة العربية) إلى مثل هذا التأليف الأدبي كانت تعضد عزيمتي، وكان تعطّش طلبة العلم إليها يخفّف عنّي ثِقَلَ الأمانة، وظلّ تشوّق الباحثين إليها يغذي إرادتي كلما تهيّبتُ مشقة العمل، فأصبحتُ أضع بين نصب عينيّ تحقيق عمل جدير بإحياء تراث جزء من الأمة، انقطع عن العالم الإسلامي بسبب تيارات الغزو الغربي.

فكان لا شك أن تعترضني في هذه الرحلة الطويلة صعوبات وعراقيل، بعضها تعلقتْ بصعوبة جمع إنتاج الشعراء لا في كثرة السفريات بين الدول فحسب، بل بين مدن كثيرة في

كل دولة، أقتفي خطوات الشعراء والعلماء لزيارة مكتباتهم الخاصة، وأتصل بمكتبات أقسام اللغة العربية بالجامعات الوطنية، حتى جمعت من تراث الشعر ومراجع الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة ما يندر أن تحتويه مكتبة أخرى، إذ بلغ عدد شعراء هذا الكتاب (336) شاعراً، لهم (6.438) قصيدة ومقطّعة في (163.497) بيتاً.

كما تعلقت بعض الصعوبات بغربلة هذا الإنتاج الضخم، عند تنقية سمينه من غَثّه، إذ كان لا بدّ أن أراعي أثناء الكتابة التوازن بين الدول عند اختيار النماذج من جهة، والتوازن بين نماذج الشيوخ والشباب من جهة ثانية، والتوازن بين أدباء مختلف الأقاليم والمراكز العلمية في كل دولة من جهة ثالثة، والتوازن بين مختلف اتجاهات الشعراء المحافظين والمحدثين من جهة رابعة.

ونظراً إلى تشعّب عناصر هذه الدراسة، التي شملت تناول موضوعات هذا الشعر، وقضاياه النقدية، وأغراضه الشعرية، وأساليبه الفنية، وأوزانه الموسيقية، خصّصت لكل باب ما يلائمه من المناهج النقدية : كالمنهج الوصفي، والتاريخي، والتأثّري والتحليلي، لأوَفَّق في إبراز هذا المؤلف في ستة أبواب، من واحد وعشرين فصلا ، في سبعين مبحثا :

- **الباب الأول في** : ﴿ **دراسات ممهّدة** ﴾

فيه ثلاثة فصول وتسعة مباحث : تشمل تعريفات عن جغرافية الغرب الإفريقي، بما في ذلك معلومات مختصرة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية فيه. ثم يلي ذلك التعريف بالأدب الإفريقي ، وبمكانة الشعر العربي فيه، وبالأعلام الذين سنتناول نماذجهم الشعرية. ثم أخيرا تقديم لمحة قصيرة عن مميزات القرن العشرين، التي تبرّر لنا تقييد دراسة موضوعنا بهذا المسار الزمني.

- **الباب الثاني في** : ﴿ **مضامين الشعر العربي الإفريقي** ﴾

فيه أربعة فصول مقتصرة على خمسة عشر مبحثا ، تضمّنت الأفكار التي عالجها الشعراء في الموضوعات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، ليبرز التطوّر الفكري الذي تمتّع به أعلام هذا الشعر في هذا الوقت الراهن.

- **الباب الثالث في**: ﴿ **قضايا نقدية في الشعر العربي الإفريقي** ﴾

فيه أربعة فصول منحصرة في خمسة عشر مبحثا : فيها أثرتُ قضايا نقدية، وناقشتُ فيها مسائل أدبية متعلّقة : بأجناس هذا الشعر، وببناء القصيدة فيه، وبقضية الوحدة العضوية والنفسية والموضوعية فيه، وباتجاهات الشعراء بما فيها من مثالية وواقعية وكلاسيكية ورومانسية وثورية ورمزية.

v **الباب الرابع في**: ﴿ **الأغراض الشعرية** ﴾

فيه ثلاثة فصول من تسعة مباحث : وفيها حديث مسهب عن الدوافع التعليمية والاجتماعية والشخصية والدينية التي تحفز الشعراء لقول الشعر. ثم قدّمتُ تفصيلا عن الأغراض الشعرية التي قسّمتها إلى قديمة : كالمديح والغزل والرثاء...الخ، وإلى جديدة : كالتقريظ والترحيب والمواساة والتبرير...الخ، حتى بلغت مجموعتها ستة وعشرين غرضا.

v **الباب الخامس في**: ﴿ **أساليب الشعر العربي الإفريقي** ﴾

فيه أربعة فصول احتوت عشرة مباحث لتقديم دراسة تحليلية عن التجربة الشعرية، والصور الشعرية والرمزية، والأساليب البلاغية، والسمات اللفظية والمعنوية، التي جسّدت في النهاية أهم الخصائص الأسلوبية لهذا الشعر.

v **الباب السادس في**: ﴿ **الموسيقى الشعرية** ﴾

فيه ثلاثة فصول مقتصرة على ثلاثة عشر مبحثا : إنه حديث عن الموسيقى الخارجية بما فيها من البحور والقوافي المطلقة والمقيدة والروي والأوزان المبتكرة لدى الأفارقة، وعن الموسيقى الداخلية بما فيها من جرس القوافي الداخلية وموسيقى التنوين وأحرف اللين ...الخ.

وفي هذا الاستعراض ما يبرّر ضخامة هذا الكتاب، لأن كل باب منها جدير بدراسة مستقلة، ولا نغالي إذا قلنا إن كل فصل من أبوابها يصلح أن يستقلّ بدراسة علمية.

وهذا ما سيقوم به اللاحقون من الباحثين، لأن الكتابات الرائدة ينبغي أن تكون مثل شجرة شاهقة، بأغصانها المتشعّبة، تهيّئ الفرص لكل باحث كي يتسلّق بأي غصن يروقه لقطف الثمرات التي سيغرسها في مزرعة جديدة، ليكون هو الآخر رائدا لنشر الثقافة العربية الإسلامية في منطقته.

وإن كنت أشعر بأن ما قمتُ به من محاولات في هذا المؤلَّف ، قد يكون شفاء لريّ غليل الدارسين، أو مُعينا للأساتذة في أعمالهم التربوية، أو مصباحا يستنير به الباحثون، فإنني ما زلت أرى أن القضايا المتناولة بحاجة إلى دراسات متخصّصة ومتعمقة. رغم ما أوليت هذا التأليف من وقت ثمين، وما بذلت فيه من جهد جهيد، وما خصصتُ له من اهتمام بالغ، لأن أعمال البشر مقرونة بالقصور، فلا كمال إلا لله سبحانه وتعالى.

وليس في هذه الدراسة من فضل إلا يجب أن أردّه إلى هؤلاء وأولئك الذين لولا تعاونهم معي، وتضافر جهودهم في استفادتي لما استطعت أن أحقق شيئا يذكر في هذا الكتاب

المتواضع، لأن البحث أيا كان نوعه فهو جهود مشتركة ، وفضل الكاتب يتمثل في جهوده المبذولة في الجمع بين هذه المتفرقات، فلو حذفنا النماذج الشعرية وآراء العلماء والأدباء والنصوص المنقولة فلا يبقى لي من هذا المؤلف الضخم إلاّ عشرات من صفحات تتضمّن بعض آرائي البسيطة.

وأختتم ببيان بعض المصطلحات التي استخدمتها هنا :

- الفرق بين النيجري والنيجيري : أوّلهما نسبة إلى النيجر Niger، والثاني نسبة إلى نيجيريا Nigeria.
- رقمت جميع الأبيات حسب ترتيبها في القصيدة لتنبيه القارئ بالأبيات المحذوفة ــ إن وجدت ــ بين الأبيات المذكورة.
- وضعت خطوطا تحت بعض الكلمات في أحشاء الأبيات إذا تبين لي كسر الأوزان فيها.
- أفرّق بين صفتي (الشيوخ والشباب) في وصف الشعراء، لأن أولئك من الصوفية المحافظين الذين تخرّجوا في المجالس التقليدية، وأما صفة الشباب فأطلقها على الذين تخرجوا في المدارس النظامية الحديثة أو في جامعات الدول العربية.

المؤلف

19 / 12 / 2007م

الباب الأول

دراسات ممهدة

الفصل الأول : التعريف بالغرب الإفريقي

الفصل الثاني : الشعر العربي في الأدب الإفريقي

الفصل الثالث : لماذا القرن العشرون الميلادي ؟

الفصل الأول

التعريف بالغرب الإفريقي

المبحث الأول : جغرافية الغرب الإفريقي

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية والثقافية

المبحث الثالث : الحياة السياسية والاقتصادية

المبحث الأول : جغرافية " الغرب الإفريقي "

1) – مصطلحه :

" ***الغرب*** " في اللغة ما يقابل " الشرق"، ويدل هنا على تلك المنطقة من القارة السمراء حيث تنتهي مسيرة الشمس إلى المحيط الأطلسي ، بعد طلوعها من شرقها عند البحر الأحمر.

وأما " ***الإفريقي*** " فمشتق – كما يرى ابن خلدون[(1)] – من اسم ملوك التبابعة هو "أفريقش بن قيس بن صيفي "[(2)]، وهو يطلق على أقدم قارة يسكنها مختلف الأجناس والمجموعات اللغوية، أكثرها من الزنوج جنوبا وغربا ووسطا.

ومن هنا فإن " **الغرب الإفريقي** " أو " **إفريقيا الغربية** " مصطلح جغرافي بحت، لتمييز غربيّ القارة السمراء عن شرقيّها وشمالها. وهذا المصطلح أسلم في نظري من مترادفاته التي تكررت في ثنايا مؤلفات بعض الباحثين والكتّاب :

فقد أطلق القدماء من الجغرافيين العرب[(3)] اسم " **بلاد السودان** " على المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ولكن في هذه التسمية دلالة عنصرية، علما بأن بعض الجماعات البيضان من الطوارق والعرب – بني هلال وبني سليم – يتقاسمون ديار هذه المنطقة التي لم تعد للسود فحسب، كما في مالي والنيجر. ثم قسموا بلاد السودان إلى ثلاثة أقاليم :

- *السودان الشرقي :* يمتد من البحر الأحمر إلى إقليم دار فور غربا.
- *السودان الأوسط :* ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد.
- *السودان الغربي :* ويطلق على مناطق مجرى نهري النيجر والسنغال.

وهذا الأخير منطقة دراستنا ، وهو عرف أيضا باسم منطقة حوض النيجر أو السنغال.

وقديما أطلق الكتّاب اليونان والرومان – وفي مقدمتهم المؤرخ الروماني بليني **Pline**"[(4)]– على هذه المنطقة مصطلح " **نجريتيا Nigritia** " نسبة إلى نهر النيجر، أطول أنهار المنطقة الغربية، أو إلى نهر في شرق إفريقيا ، ومعناه : " نيل الأجناس السوداء ".[(5)] ولا فرق بين هذا وسابقه سوى أن التسمية هنا من أصل لغة غريبة على أهل المنطقة.

---

(1) – هو عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م)، مؤرخ شهير، ولد بتونس ومات بالقاهرة. (الأعلام للزركلي، ص 330/3).

(2) – ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر مؤسسة عبد الكريم، 1979م ، بيروت. . 90/6.

(3) – ينظر : غيث، أمطير سعد : التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، دار الكتب الوطنية، ط 1، بنغازي 1996م.ص20.

(4) – مؤرخ روماني (23–79م)يعرف بـ بليني القديمPline l'ancien صاحب(التاريخ الطبيعي).ينظر (موسوعة Encarta2007)

(5) – غيث ، أمطير سعد : التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي. ص 25.

أما " **منطقة جنوب الصحراء الكبرى** " فلا مراء في أنها مصطلح جغرافي بحت ، إلا أن المتأمل فيه سيكشف ما وراءه من دسائس سياسية في محاولة الفصل بين شمال القارة وغربها، حتى تنمحي الآثار التاريخية والدينية والتجارية التي تربط بينهما منذ قديم الزمان. لذا يكثر استعماله في أوساط الصحافة الغربية والباحثين المستفرقين الأروبيين.

وعُرِفَتِ المستعمرات الفرنسية إبّان الاستعمار الغربي للمنطقة بـ " السودان الفرنسي " أو " إفريقيا الغربية الفرنسية Afrique Occidentale Française " لدى الغربيين. كما أطلقت على المستعمرات الإنجليزية " إفريقيا الغربية البريطانية ". ولا تدل هذه المصطلحات سوى على الفترة السوداء من تاريخ هذه المنطقة الخضراء.

وسأحاول في هذه الدراسة أن يظهر " الغرب الإفريقي " في وحدة إقليمية، محاولا تقليل شأن تلك الحدود الاستعمارية التي مزّقت دوله ، دون مراعاة الروابط اللغوية والعرقية والدينية التي بين سكان هذه الدول المتجاورة. وفي مثل هذا المنهج سنتمكن من تقريب شعوب المنطقة ، وتوحيد حضاراتها الثقافية والأدبية التي كانت عليها في سالف الزمان، إذ لا مراء في أن هذه الشعوب تنتمي إلى منبع واحد في أصالة حضاراتها القديمة.

وسنحاول أن تظهر هذه الوحدة الثقافية في هذا الشعر العربي الذي نحن في صدد دراسته من بنات أفكار علماء " الغرب الإفريقي" وأدبائه.

2)– موقعه وحدوده:

تقع منطقة هذه الدراسة شمال خط الاستواء في غرب قارة إفريقيا. ويمتد عرضها من الصحراء الكبرى لتطلّ على سواحل خليج غينيا في المحيط الأطلسي. وهذا الموقع الاستراتيجي أتاح لها سهولة التأثر بالحضارة الإسلامية العربية الوافدة من مصر شرقا، ومن المغرب العربي شمالا. كما أتاح لها السقوط بين مخالب المستعمرين الأروبيين إثر بداية رحلتهم البحرية.

وتحد منطقة " الغرب الإفريقي " شرقا بجمهوريتي كمرون وتشاد اللتين تتقاسمان الحدود مع نيجيريا ، وغربا بالمحيط الأطلسي تطلّ عليه دولتا غامبيا والسنغال ، وجنوبا بخليج غينيا على المحيط ، وشمالا بالجزائر وليبيا وموريتانيا؛ التي تتاخم معها تلك الصحراء الكبرى التي كانت بحراً لسفن القوافل التجارية.

تتمركز جمهورية بُورْكِينَا فَاسُو في قلب المنطقة ، لأن بينها وبين المحيط الأطلسي دولتي مالي والسنغال من الناحية الغربية. وليس بينها وبين نيجيريا سوى دولتي النيجر وبنين. ويفصلها عن خليج غينيا جنوبا غانا وتوغو وساحل العاج، وشمالا فإن النيجر ومالي تعترضان بينها وبين الصحراء الكبرى.

3)- دوله وسكانه ومساحته:

يشتمل الغرب الإفريقي على خمس عشرة دولة ، بعد أن انسحبت موريتانيا من اتحاداته ومنظماته الإقليمية. وتاريخ إحصائيات السكان هنا بين سنتي 2006م و2007م [1] :

م	اسم الدولة	عدد سكانها	مساحتها	عاصمتها	مدنها الكبرى
1	الرأس الأخضر	420.979	4.033	برايا Praia	غاتا، منديلو، سانتاماريا
2	غامبيا	1.600.000	11.295	بنجول Banjul	سريكندا، بيركاما، بينتان
3	السنغال	12.000.000	196.200	دكار Dakar	سين لوي، تياس، كولخ
4	غينيا بيساو	1.442.029	28.120	بيساو Bissau	بولاما، فولاكوندا، كاشو
5	مالي	11.716.829	1.240.192	بماكو Bamako	سيقو،تِنْبُكْتُو، جاو، كاي
6	غينيا	9.700.000	245.857	كوناكري Conakry	كنكان،لابي، كنديا، مامو
7	سيراليون	6.010.000	71.620	فريتاون Freetown	بابيل، كبالا، كينيما
8	ليبيريا	1.200.000	111.369	مونروفيا Monrovia	كاكاتا، هاربيل، بوشانا
9	ساحل العاج	17.000.000	322.462	ياموسوكرو Yamoussokro	أبدجان ، بواكي، كوروغو،
10	غانا	22.400.000	238.540	أكرا Accra	كوماسي، تمالي، سلاغا
11	توغو	5.500.000	56.785	لومي Lomé	لاماكارا،سوكودي،أنيشو
12	بنين	7.086.000	112.622	كوتونو Cotonou	باراكو،بورتونوفو،جوغو
13	بوركينا فاسو	13.900.000	274.200	واغادوغو Ouagadougou	بوبوجولاسو، كودوغو
14	النيجر	12.500.000	1.267.000	نيامي Niamey	أغاديز، مرادي، زندر،
15	نيجيريا[2]	132.000.000	923.768	أبوجا Abuja	لاغوس،كانو،إلورن، إبادان،
	المجموع :	**254.474.858**	**5.104.063**		

يلاحظ أن هذه الدول تختلف مساحة وسكاناً، وأكبرها مساحة هي النيجر، تليها جمهورية مالي، وأما أقلّها مساحة فهي الرأس الأخضر، تليها غامبيا. وإذا تأمّلت في عدد السكان فإن نيجيريا تحتضن نصف مجموع سكان المنطقة، بل إن سكان عاصمتها الاقتصادية – لاغوس التي تزيد

---

(1) – يراجع موسوعة: Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe , Microsoft, USA

(2) – في العربية نفرق بين دولتي النيجر ونيجيريا في النسبة كما يلي : "نيجري" بلا ياء بعد الجيم نسبة إلى النيجر، "ونيجيري" نسبة إلى نيجيريا مع وجود ياء بين الجيم والراء. ويلاحظ هذا الفرق كذلك في كتابة اسميهما.

عن عشرة ملايين نسمة – يفوق أحيانا عـدد سـكان بعـض دول المنطقـة. وأقلها نـسمة الرأس الأخضر تليها غامبيا، فتوغو.

ومن هنا فلا غرو أن تفوق نيجيريا سائر الدول في عدد علمائها وأدبائها ومراكزها الإسـلامية العربية، هذا من حيث الكم. أما من حيث نوع الشعر وجودة خصائصه الفنية فإن هذه الدراسـة ستصل إلى نتائج واضحة في هذا المضمار عند المقارنة بين أعمال الشعراء في ثنايا الفصول.

4)– مناخه وتضاريسه :

تمثل مناخَ المنطقة مظاهرُها تمثيلا صادقا، تبعا لمواقعها الجغرافية، أو تبعا لمواسـمها الفصلية. فالصحراء الرملية الكبرى التي تتاخمها نيجيريا والنيجر ومالي والسنغال شمالا تهـبّ منها رياح هارمتان جافة وقارسة محملة بالغبار من ديسمبر إلى مارس، لتنقلب إلـى حـرارة شديدة (قد تبلغ درجتها ما فوق $45\ ^oC$) بين أبريل ويونيو، ثم تبعثها جنوبـا نحـو المنـاطق الشمالية من دول سواحل خليج غينيا. وفي تلك المناطق الصحراوية تقل الأمطار التي لا تهطل سوى ما بين يونيو وأغسطس غالبا. لقد عرفت النيجر منها جفافا خطيرا سـنة 1973م ، كمـا ابتليت ديار مالي بأطول جفاف امتد من 1970 إلى 1980م[1]، حالة نادرة وغريبة ينبغي أن تثير انفعالات شعراء الصحراء في مناطق تِنْبُكْتُو.

أما مناطق السافانا التي تتّسع من جنوب غربي نيجيريا إلى هضاب فوتاجالون بغينيـا، مرورا بشمال بنين وتوغو وغانا وساحل العاج، فمناخها حارّ في النواحي القريبة من الصحراء التي ترسل إليها حرارة جافة وذات رطوبة فيما بين مارس ويونيو، ورياحا عاصفة فيمـا بـين ديسمبر وفبراير، غير أن الحرارة تخفّ كلّما نزحت نحو سواحل المحيط فتتراوح درجتها فيها طول السنة ما بين 20 إلى $35\ ^oC$. وتتميز الأمطار فيها غالبا بموسم واحد يمتد من يونيو إلـى سبتمبر.

أما مناطق الغابات الكثيفة فمناخها متميز بموسمين من الأمطار: أحدهما ما بين أبريـل إلى يونيو، وثانيهما ما بين سبتمبر إلى نوفمبر. أو يدمج بينهما من أبريل إلى أكتوبر. وفي تلك الأثناء يتميز المناخ ببرودة وخاصة في الليل تعززها تيارات بحرية مـن المحـيط الأطلـسي. وأما الحرارة فإنها ذات رطوبة خلال شهري مارس وأبريل.

وهذه الغابات الكثيفة تمتد من غرب نيجيريا إلى غانا، مرورا بجزء دولتي بنين وتوغو في شيء من البروز ، وتبدأ كثافتها من ساحل العاج إلى ليبيريا فجنوب غينيا لتكون غابة شديدة الظلام ، كثيرة الأشجار الشامخة ، والأغصان المتضافرة ، والأوراق الملتفة حتى تغيب الشمس اللاذعة عمن فيها وهي باردة. لا شك أن لمثل هذا المنظر تأثيرا غير قليل لـذوي العواطـف المرهفة والقرائح الشعرية الفنية.

---

[1] – ينظر : Mali ou Niger : in Encyclopedie Encarta 2007 de Luxe , Microsoft, USA

إن للأودية والمرتفعات الجبلية والهضاب السهلية آثارها الطبيعية في المناخ. وهي كثيرة في هذه المنطقة وتلفت النظر بشموخها وجمالها كأنها تستنطق لوصفها كــل أديــب مطبــوع. ففي جزر الرأس الأخضر على المحيط الأطلسي يرتفع جبل فوغو البركــاني بارتفــاع 2.829 مترا، ليشرف على هضاب صخرية بسواحل غامبيا والسنغال. وفي هذه الأخيرة ترتفع أعلــى قمة فيها إلى 581 مترا لتعانق السلسلة الجبلية من مرتفعات فوتاجالون بغينيا ، المنطقــة التــي تنتهي إليها الجبهة العليا لغرب إفريقيا.

وفي غينيا تلتقي ليبيريا وساحل العاج عند جبل " نمبا" ــ 1.752 مترا ــ بسلسلته الممتدة نحو هضاب فوتجالون. وفي غربه ترى أعلى قمة في سيراليون بارتفاع 1.943 متــرا ، وفــي شرقه جبال تورا وتونكودي في أرجاء ساحل العاج. وأما في أقصى شمال المنطقة فنقف علــى هضاب باجاغارا (200 – 300 مترا) بمالي في ضواحي سيقو حيث تنتصب جبال هومبــوري (1.155 مترا). وهي غير بعيدة عن تلك الكتل الجبلية بشمال النيجر : بــاغزان (2.022متــرا)، وأغالاك (1.700 مترا)، وتامغاك (1.800 مترا)، وأعلاها جبل غريبون (2.310 مترا).

ومن غانا تنحدر السطوح الأرضية نحو الشرق لتصبح نيجيريا أدنى منطقة في غــرب إفريقيا، حيث نجد في شمال شرقي غانا " جبل توغــو (500 م) " المتــصل بكتلــة باســاري ومرتفعات لاما كارا في وسط جمهورية توغو ، وتمتد إلى كتل أتاكور في بنين. وتنحدر هــذه المرتفعات نحو نيجيريا حيث تشهد الأودية في غربها ، ثم يستأنف الارتفاع نحو الشرق قلــيلا ليظهر جبل سارا (1.690 مترا) أعلى قمة في الدولة.

إن للأنهار مناظر سحرية ، تثير مشاعر الشعراء ، عندما يتنزهــون حــول ضــفافها، فيأخذهم جمال أعشابها وزهورها ، وتتنسّم صدورهم برياح نقية كصفاء مياه عذبة تجري هونا كأعناق الجمال المثقلات. ولكي تمتع عينيك بمثل هذا الجمال الطبيعي فاصعد أعلى الكتلة الجبلية في فوتاجالون لتشاهد منبع نهر النيجر، أطول أنهار المنطقة، وثالثها في إفريقيا بعد نهري النيل وكونغو، بطول يقدر بــ (4.180) كلم، فيجري نحو شرق غينيا ليعبر بماكو إلى نواحي تِنْبُكْتُو وجاو في الصحراء الكبرى ، ثم ينحدر ــ في نصف دائرة ــ جنوبا نحو نيامي حيــث تتفــرع منها روافد إلى بنين فتشاد، ثم يتجه بأكبر مجراه إلى نيجيريا فيلتقي بنهر بنوي ــ الآتــي مــن جبال كمرون ــ عند ثغر " لوكوجا" فيتعانقان ليَصُبَّا معا في المحيط الأطلسي. رحلــة طويلــة تركتْ لهذا النهر أسماءً متباينة في المنطقة : فهو نهر جوليبا في مالي ، وسانكراني بغينيا، وبه سميت دولتا النيجر ونيجيريا، ومدينة نيجر في هذه الأخيرة.(1)

وقد ترك " نهر السنغال " بصماته على بعض شعراء منطقته ، لطوله (1.750 كلــم^2) ، ومساحة حوضه (350.000 كلم^2)، فمنبعه في فوتاجالون، ومصبه في المحيط الأطلسي، ومجراه

(1) – الإلوري، آدم عبدالله : الإسلام في نيجيريا. لا، الطبعة الثالثة 1398هــ/1978م، أجيجي ، نيجيريا.ص 13.

على الحدود الرباعية بين غينيا والسنغال فمالي وموريتانيا[2]. ومثله " نهر غامبيا" ، الذي تبلغ مساحته 80.000 كلم²، وينبع من مرتفعات فوتاجالون ليصبّ في المحيط بعد عبوره من شرق السنغال إلى بنجولْ بغامبيا. وتجري في غانا إحدى البحيرات الكبرى في العالم، هي بحيرة الفلتا بعرض (300 كلم²) التي يلتقي عندها نهر الفلتا السوداء والفلتا البيضاء على حدود بوركينا فاسو.

تلك أشهر الأنهار التي تتخطى الحدود الوطنية، وأقل منها طولا وشهرة بعض أنهار السنغال : نهر كازامانس، وسين، وتنما، وريطبا، وبحيرة غيير. وبعض أنهار ساحل العاج : ساساندرا، ونيزو، وباندا ما، وكوموي. وبعض أنهار غينيا: كونكوري، وبافي، وينابيع نهرية كثيرة تصدر من هضاب فوتجالون نحو مناطق السهل الساحلي، لذا وصفت غينيا بأنها " القلعة المائية " في إفريقيا.

وثمة أسئلة تطرح نفسها : أليس في هذه المظاهر الجغرافية من المناظر الجمالية التي تنتظر وصف قرائح الشعراء لها ؟ بلى !

وهل تأثر بها الأدباء ؟ وهل وصفوها وصفا دقيقا ؟ وهذا ما ستجيب عنها هذه الدراسة.

5) – موارده الطبيعية:

أ- *الموارد المعدنية :*

إفريقيا غنية بالمعادن الطبيعية ، وما أغنى غربيّها ، إذا ما عرفنا أن نيجيريا تحتل الرتبة السادسة عالميا في البترول والأولى في إفريقيا تليها غينيا، وقليل من ذلك في بنين والنيجر وغامبيا وساحل العاج. ويوجد الغاز بجانب البترول في أكثر هذه الدول.

والنيجر تتقدم على سائر دول المنطقة في الأرانيوم، ثم تليها مالي، فغينيا. إلا أن هذه الأخيرة تحتفظ بثلث المخزون العالمي من البوكسيت والفوسفات، تشاركها جاراتها : سيراليون والسنغال ومالي وغامبيا.

وإذا أردت رؤية أعز الأحجار وأثمنها فزر مناجم الألماس والذهب في سيراليون وغينيا وما أكثرها فيهما، تليهما غانا – ساحل الذهب سابقا – ومالي، وبنين التي تكثر فيها أيضا أحجار الجيري (كلسي) والكروم. وأما بوركينا فلا نصيب لها في كل ما ذكر سوى معدن المنغنيز.

ب – *الموارد البحرية والنهرية :*

إن المحيط الأطلسي، الذي تطل عليه جميع دول المنطقة سوى النيجر ومالي وبوركينا فاسو المحصورة، ليحفظ في أعماقه : أسماكها الوافرة والمتنوعة حتى وجدت في بعض الدول "*وزارة الصيد*" كالسنغال وغينيا بيساو اللتين يشكّل فيهما الصيد مركزا اقتصاديا.

---

(2) – انجاي، محمد بمبا: أضواء على السنغال.لا، د، الطبعة الأولى، 1411هـ /1991م، القاهرة، مصر، ص 9–11.

والملاحة تقدمت في بعض الدول بفضل البحر أو الأنهار الكبرى، بل تجد أهالي بعض المدن متخصصين في الملاحة بالسنغال ومالي وغينيا ونيجيريا التي تصدر الملح .

ج – الموارد الزراعية :

الزراعة مفخرة للإفريقي، لأنه ألفها مذ هو يافع، وعليها يعيش في إنتاج الأرز والقمح والدخن، والشعير ، والذرة والبقول (الإنيام والمانيوك) والموز الكبير، والبطاطس الحلوة.

وقد احتلت ساحل العاج الصدارة في العالم في إنتاج الكاكاو وفي إفريقيا في إنتاج البنّ ، تليها غانا ثم نيجيريا. أما القطن فمالي تفوق جاراتها تليها بنين وبوركينا فاسو. وجـاء تفـوّق السنغال وغامبيا في زراعة الفول السوداني وإنتاج زيته. وما جاء تفوق ليبيريا سوى في الخشب والمطاط الطبيعي تليها ساحل العاج، تشاركهما نيجيريا في المطاط، كما تشاركهما غانا وغينيـا في الخشب. ويأتي ذكر غينيا بيساو في مقدمة دول إنتاج الأكـاجو، تليهـا غانـا ونيجيريـا.

وتكاد السنغال ونيجيريا تتشابهان في كثرة أشجار الباوباب المنتشرة فـي أرجائهمـا. وانفردت نيجيريا بكثرة إنتاج التمر الهندي كما انفردت النيجر بكثرة زراعة البصل المصدر إلى جاراتها، وعرفت بنين بزيتها الأحمر من أشجار النخيل، كما عرفت كل من غانا وساحل العاج وغينيا بتصدير " جوز الكولا " الذي يستهلك في النيجر وبوركينا فاسو أكثر من بلدان تصديرها.

وأما الفواكه فما أكثرها: المانجو، والبرتقال،والليمون والليمون الهندي، والموز، والجوز الهندي على ضفاف المحيط ، والباباي، والأناناس، وثمرة المحامي، والبطيخ، وفواكه أخرى قد لا نجد لها أسماء في العربية لأنها ثمار خاصة بالمنطقة. وقل مثل ذلك في الخضروات المتنوعة التي أتاحت للنساء أن يتفنّنّ طهي أنواع المرق التي قد يثير بعضها عواطف الشعراء البارعين.

د – الموارد الحيوانية :

ينبغي أن نقسم الحيوانات الموجودة في المنطقة إلى الأليفة والوحشية :

1= الحيوانات الأليفة :

إن المواشي التي تعتمد عليها نشاطات الرعي هي البقر والأغنام والماعز، وتمثـل النيجر ومالي وبوركينا ونيجيريا دول الإنتاج والتصدير إلى جاراتها، وخاصة في مناسبات عيد الأضحى. أما الإبل فهي من نشاطات رعاة النيجر ونيجيريا.

وقد لعبت الأبقار دورا كبيرا في حرث الأراضي الزراعية في غينيا وسـاحل العـاج وسيرالون بدلا من الحمر في النيجر والسنغال مثلا، وأما الخيل والبغال فتكثـر فـي نيجيريـا والنيجر، وما أكثرهما في السنغال حيث تجر عربات النقل العام في كثير من مدنها. ولا أثر لهذه الحيوانات مثلا في غينيا وليبيريا وسيراليون وساحل العاج وغانا وتوغو وبنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه : هل كانت العلاقة بين هذه الحيوانات والعلماء الذين كانوا يقتنونها علاقة مثيرة حتى وجدت لها آثار في أشعارهم، إما لوصفها أو لرثائها ؟

فلنترك الجواب للدراسة في الصفحات القادمة.

2= الحيوانات الوحشية وطيورها :

إذا كان الوصف غرضا متداولا بين شعراء المنطقة فإن الطبيعة بالمنطقة قد أفسحت أراضيها لكثير من تلك الحيوانات التي كان يكثر وصفها عند الشعراء العرب : الأسد ، والنمر، والفهد، والذئب، والضبع، والدب، والثعلب، والغزال، والحمار الوحشي، والزرافة، والجاموس، والفيل، والسلحفاة البرية والمائية، وأبو القرنين، ووحيد القرن، وابن آوي، والقرود بأنواعها كالبعامة ، والقُرْدوح ، والرُبَح ، والمَكاك ...الخ.

وأما الطيور فما أجملها عندما تحلّق في الفضاء لمؤانسة المسافرين، أو تقع على الأشجار سربا سربا، فترسم الطبيعة منها لوحة فنيّة : نذكر منها الغراب الأسود، والنسر، والعقاب، والحمام، والحجل، والحدأة ، والبوم، والطيور المتلونة بالريش المتباين في ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وزرقة.

وبجانب الطيور ترى كثيرا من الحشرات، وبخاصة الجراد الذي يزحف أسرابا من الصحراء نحو غرب المنطقة فيقضم المزارع والأشجار والأعشاب.

ومن زار المتنزه الثلاثي في ملتقى حدود النيجر وبوركينا فاسو وبنين سيرى عجبا، أو المتنزه الطبيعي بين السنغال وغينيا. أو غيرها من المتنزهات الوطنية في عواصم دول المنطقة.

أضف إلى ذلك كثرة الهوام في تلك الغابات الكثيفة من حيات وثعابين وأفاع... أو العقارب، والضب، والوزغ، وغيرها من الزواحف.

هكذا تظهر لنا جميع ما تحتفظ به المنطقة من معطيات طبيعية، وذكرها دليل لنا على أن عوامل تأثير مشاعر الشعراء غنية ومتنوعة في المنطقة، فهل انفعلوا بها ؟ وهل كان الشعر العربي الإفريقي تعبيرا صادقا عن مظاهر الكون والطبيعة ؟ هذا ما نريد أن نجيب عنه في هذا الكتاب بعد دراسة نقدية تحليلية.

المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية والثقافية

1)- شعوب المنطقة ومجموعاتها اللغوية :

قبل الإشارة إلى مختلف الشعوب التي تتألف منها شعوب المنطقة، فإن الأجدر أن نذكر الطبقات الاجتماعية التي نجدها في مختلف المجتمعات الإفريقية :

1 – طبقة النبلاء من الملوك والأمراء والأعيان.

2 – طبقة الأحرار من الفلاحين والمشائخ.

3 – طبقة الطوائف المحترفة : كالشعراء ، والنساجين ، والخزافيين، والحذائيين ، والحدادين، والصيادين في البَرّ والبحر.

4 – طبقة العبيد بفرعيها : عبيد الملوك والأمراء ، وعبيد سواد المجتمع.(1)

الحديث عن شعوب المنطقة ذو شجون، لكثرة تلك الشعوب وقبائلها وتنوعها وانتشارها في مختلف الدول ، لكنني سأركز على أشهرها ثم أشير إشارة خاطفة إلى أقلها شهرة :

ربما يعدّ " الفولانيون Peuls أو الفولبي أو التكولور Toucouleur أكثر عددا بين قبائل المنطقة، ولهم أوسع مساحة استقروا فيها من السنغال إلى نيجيريا، إذ تمركزوا في فوتاطورو(2) بشمال السنغال، واشتهروا في غامبيا، وسكنوا هضاب فوتاجالون بغينيا وغينيا بيساو (20%)، وأقاموا في ماسينا بمالي، وأنشؤوا قرى كثيرة في بوركينا وفي النيجر (8.5%)، وعرفوا في شمالي بنين وتوغو، وانتشروا في ربوع نيجيريا شمالا وغربا.

وتحتلّ الرتبةَ الثانيةَ قبائلُ ماندي أو " انكو" التي لها أسماء مختلفة حسب كل دولة : فهي مانديغ في غامبيا بـ 46% وفي غينيا بيساو بـ 13%، وفي السنغال فهي صوسي بـ 12%، وهي مانيكا أو مالينكي في غينيا بـ 34%، وماندي في ليبيريا وسيراليون، وبمبارا في مالي ، وجولا في ساحل العاج وبوركينا فاسو، وفي أقصى شمال غربي غانا يطلق عليهم اسم "ولسي".

وبعد قبيلتي " الفولانيين وماندي " تأتي جماعات هوسا Hawsa المبثوثة في شمال نيجيريا ، وجنوب شرقي النيجر بـ 54% ، وشمال غانا ، وشمال توغو. وقد يكون أفراد هوسا أكبر عددا من أفراد أي قبيلة أخرى في المنطقة.

وجماعات صنغاي في مالي، وزرما في النيجر بـ 22%، ودندي في بنين، تنتمي إلى أصول قبلية واحدة ومجموعة لغوية متحدة. فلا فرق بينها سوى اللهجات في المحادثة.

وفي غرب مالي تتجمّع قبائل السوننكي أو ماراكا ، وتمتد حتى إلى شمال شرقي السنغال، وفي شمال غينيا يوجد بعض أفرادها. وهي من القبائل القديمة في المنطقة.

---

(1) – سيلا، عبد القادر محمد : المسلمون في السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل. سلسلة كتاب الأمة رقم 12، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الطبعة الأولى ، شوال 1406هـ ، دولة قطر، ص31.

(2) – فوتاطورو: منطقة الفلانيين في شمال السنغال، تأسست فيها دولة الأئمة الإسلامية في القرن الثامن عشر الميلادي.

ونجد كذلك جماعات سينوفو منتشرة بين شمال ساحل العاج، وجنوب مالي، وغرب بوركينا فاسو حيث يعدون أوائل السكان منذ قرون قبل جماعات موسي Mossi وجولا Djoula.

وجماعات " كوا Kwa" المنتشرة فروعها الخمسة (أكان، وإيوي، وغا أداغبي، وغان، وتوغوليون) بين قرى ساحل العاج وغانا وتوغو، من الجهة الجنوبية لهذه البلاد، وهي تتفرع إلى بطون وأفخاذ : منها في ساحل العاج "باولي، وآنيي، وبيتي، وأجوكرو"، وفي غانا نجد أشانتي، وأفانتي، وغا ، وغور. أضف إليها جماعات إيوي Ewé المبثوثة في غانا وتوغو وبنين. وجماعات موسي مبثوثة في بوركينا، وتوغو، وغانا حيث لها فروع تدعى أيضا بـ " داغومبا ونانومبا، وكوكومبا، ومامبروسي ، وغورزي"، وكلها تنتمي إلى لغة " موري".

وأما جماعات يوربا فإنها تتمثل في ثلاث دول : نيجيريا في جنوبها الغربي، وشرق بنين حيث يطلق عليها أيضا اسم " أناكو " ، وفي توغو كذلك.

هذه هي القبائل التي تتخطّى حدود الدول.

ولكن كل دولة تختص ببعض الشعوب لا تشاركها جاراتها في وجودها عندها :

إن الولوف Wolof، وليبو Lébou، وجولا Djôla، وسيرير Sérère ، لا وجود لها إلا في سنغامبيا. وتختص غينيا بيساو بقبائل بالات 30%، ومانجاكي 14%، وبابيل 7%. وانفردت سيراليون بقبائل ليمْبا،وتيمْني، ومينْدي، وقد تشارك ليبيريا في كرييول لأنها لغة العبيد المهاجرين من أمريكا وانجلترا. كما انفردت غينيا بجماعات نالو، وباغا، ولانْدوما، وميغيفوري، وكْبيلي أو غيريسي، وطوما، ومانو، وكيسي[*]، وكونو التي توجد بعض فروعها في سيراليون، وليبيريا. وهذه الأخيرة تختص بجماعات كروKrou، وكراه Krahn ، وفايس Vais.

وقد تستقل مالي بجماعات دونغو كادو، ومياغا، وبوصو، والطوارق والعرب اللتين توجدان في صحراء النيجر. كما استقلت هذه الأخيرة بوجود التُبو 1.2%، وكانوري 4.3% بين سكانها. وقد تشارك بوركينا فاسو دولة مالي في وجود قبائل دافي، وبوبو، لكنها تنفرد عنها بجماعات غورمانتشي، وساموغو، وبوا، وغورونسي، وغان، ولوبي التي توجد بعض قبائلها في ساحل العاج.

وقد لا يصدق المرء عندما يقف على جماعات شتى تنفرد بها دولة صغيرة مثل توغو، حيث لا يعدو أفراد كل منها آلافا محدودة : منها كوتوكولي، وتشامبا، وباسيلا، وأباغو، ويانغا، وأنوفو، وتولمبا، وباسار، وغورما، وكيسي، وأهلون، وباريبا، وإيفي، وأكيبو، ولوسو، وأكوسي[1]، وفيها فون وآجا أشهر قبائل بنين التي تنفرد كذلك بـ مينا، وبلا، وباريبا ، وسومبا، والعبيد المهاجرين من البرازيليا بأمريكا الجنوبية.

---

[*]– وفي توغو توجد جماعة يطلق عليها " كيسي" وهل هي نفسها في غينيا ؟

[1] – الأحمدي، متوكل زكريا:أثر وسائل الإعلام في الدعوة في دولة توغو.بحث مقدم في الملتقى العاشر بالمدينة المنورة،1422هـ، ص 11-12.

ونيجيريا تنفرد بقبائل إيبو إحدى القبائل الكبرى في الدولة، وبأقلية عرقية كإيدوس Edos، وإيزو Ijos ، وإيبيبيوس Ibibios، والنوبة المسلمة، وتيفTiv، وكانوري، وشوَا العرب.

إن هذا التنوع في قبائل المنطقة لا ينافي وحدتها في كثير من العادات والتقاليد كما يؤكده هذا النصّ من يراع العلامة النيجيري آدم عبد الله الإلوري :

" وكذلك فإن قبائل غرب إفريقيا إن كانت متعددة في الفروع فهي متحدة في الأصول ، متقاربة في التقاليد والعادات، متماثلة في الحروف [الألفاظ] واللهجات، متشابهة في العقائد والديانات ، متعاونة ومتحالفة في الدفاع عن الغارات والهجمات " [1].

والجدير بالذكر أن كل هذه الشعوب المذكورة مع قبائلها تشكل مجموعات لغوية، لا تفاهم بين أهاليها، وإن كان يمكن التقريب بينها وردّها إلى وحدة لغوية هي : "***النجروكوردوفانية*** " التي تنتمي إليها جميع لغات غرب إفريقيا، سوى لغة صنغاي التي تنتمي إلى النيلية، ثانية المجموعات اللغوية في إفريقيا، والأخريان : الإفريقية الآسيوية، وأسرة كوازان.[2]

ولم تعرف جلّ هذه اللغات الكتابة قديما ، إلا ما كتبت بالحروف العربية ثم باللاتينية متأخرا كالفولانية والهوسا واليوربا وبمبارا. أما الحروف الخاصة بها فلم تعرفها سوى أربع لغات: لغة فايس في ليبيريا، والتماشيك (أي أبجدية التيفينار) لغة الطوارق في صحراء مالي والنيجر[3]، و" انْكُو N'ko" لغة ماندي (أو بمبارا) في غينيا وجاراتها[4].

2) – دياناتها المحلية والسماوية :

أ)– الوثنية :

إن كلمة الوثنية تصاغ من الوثن ــ بالتحريك ــ أي الصنم، ووثَن كضرب بمعنى ثبت على عهده، ويجمع الوثن على الأوثان والوُثُن والأُثُن بالضم[5]، قال تعالى : ﴿*فاجتنبوا الرجس من الأوثان*﴾ [6] . ولكن اشتقاق " الوثنية " لم يرد في المعاجم القديمة. وترادفها " الفتشية Fétichisme " التي أطلقها البرتغاليون الرحالة عندما وقفوا على " عبادة الأنصاب" عند التقليديين بسواحل خليج غينيا.

إن التدين راسخ في المجتمعات الإفريقية ، وهذه شهادة أكّدها المستفرق " ديلافوس De Lafosse " قائلا : *" لا وجود لأية مؤسسة في إفريقيا السوداء، سواء أكانت في الميدان الاجتماعي أو السياسي، بل حتى في مجال النشاط الاقتصادي، لا تنبني على تصور ديني* "[7].

---

(1) – الإلوري، آدم عبدالله: الإسلام في نيجيريا. لا، د، الطبعة الثالثة، 1398هـ/1978م، أجيجي، نيجيريا، ص 14.

(2) – ينظر موسوعة : Langues d'Afrique : in Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

(3) – كلوتشكوف، جان كلود : النيجر اليوم، ترجمة المكتب العربي، فرنسا، منشورات جون أفريك، ط 1 ، 1982م، ص 33.

(4) – كبا، عمران : الحياة الأدبية في غينيا، رسالة الماجستير، بكلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1996م،ج 1، ص 138.

(5) – الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة، لبنان، الطبعة الثانية، 1407هـ/1987م، " مادة الوثن ".

(6) – الآية 30 من سورة الحج.

(7) – نقلا عن كتاب " المسلمون في السنغال " : عبد القادر محمد سيلا، ص 37.

الفكر الديني يتمثل لدى الجماعات التقليدية الوثنية في الإيمان بإله واحد خالق للأكوان، وبالبعث حيث يعيش الأسلاف في جناب رب السماء يشفعون عند ربهم لجلب الخير إلى أبنائهم ودفع الشر عنهم. وقد تتمثل معتقداتهم بعد ذلك في ثلاث :

1. آلهة من درجة دنيا،من أصنام وأوثان وأقنعة وأشجار وأنهار وجبال أو حيوان أو أسماك: كصنم " لولو" عند صيادي ماندي بين مالي وغينيا ، كعبادة شجرة " بمبوربورا" لدى سكان " كنو" بنيجيريا خلال القرن العاشر[1]، وعبادة نهر " زيري" عند غيرزي في غينيا. ومن الأقنعة الوثنية : "*نومو*" عند قبيلة دونغو في مالي، و"كوما" و " دو" عند جماعات ماندي في مالي وغينيا.
2. أرواح الأسلاف من أجداد الجماعات التي تحفظ المجتمع من كل سوء، وبخاصة عند جماعات موسي، وبوبو في بوركينا فاسو. وهي عقيدة منتشرة عند الوثنيين الآخرين.
3. قوة خفية تتمثل في التعاويذ ، والتمائم ، والسحر ، والطوطم في تقديس بعض الحيوانات والطيور التي لا يمسها أي فرد من أفراد القبيلة: كطوطم "التمساح" عند عشيرة "كوليبالي" في مالي، وطوطم الثعابين عند يوربا في نيجيريا.

والجدير بالذكر أن الوثنية منتشرة في جنوب دول سواحل المحيط الأطلسي من نيجيريا إلى السنغال، وليبيريا أكثرها تدينا بها لأن ثلثي السكان وثنيون،فلكل قبيلة في هذه المناطق وثنها أو صنمها الذي يشرف عليه كاهن القبيلة، كما لكل عشيرة وأسرة أصنام يتقربون إليها بالذبائح في قضاء حوائجهم المتعلقة بالسفر والزواج والأمراض. وفي النيجر تكثر الوثنية في أوساط الفلانيين بورورو، المحافظين على عاداتهم وأزيائهم التقليدية من تأثير التحضر والمدنية.[2]

ولا تخلو المجتمعات الوثنية من جمعيات سرية، قد تكون خيّرة أو شريرة، كجمعية بورو للرجال وساندي للنساء في سيراليون، وكجمعية " غبو " للساحرات عند كيسي في جنوب غينيا. وأعضاء مثل هذه الجمعيات يجتمعون في " الغابات المقدسة " بعد أن ينسلخوا من أشكالهم البشرية ــ حسب زعمهم ــ إلى أشكال حيوان أو طائر يعد (بديلا) لهم.[3]

وربما تعد ديانة " فودو Vaudou" في بنين أوسع نطاقا، لأن طقوسها أكثر تنظيما وانتشارا خارج الدولة والقارة، فهي معروفة لدى بعض الجماعات في الجزر الأمريكية.[4]

وقد وصلت الطقوس الوثنية اليورباوية إلى برازيليا والكاريبي عندما نقل كثير من نيجيريا عبيدا إلى أمريكا الجنوبية. وكانت مدينة "إيفي Ifé "مقدسة عند اليوربا في القرن 11 الميلادي.[5]

---

(1) – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، المكتبة الإفريقية، الطبعة الثانية 1414هـ/1993م.ص39

(2) – ينظر : Benin: in Atlas 3D, 1999, wonders et T.L.C, Edusoft,Université College London 1994,

(3) – Sierra Leone & Guinée : in Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

(4) – ينظر : audou : in Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

(5) – Nigeria: in Atlas 3D, 1999, wonders et T.L.C, Edusoft,Université College London 1994,

ب)- دخول الإسلام : عوامل انتشاره وآثاره :

وصل الإسلام إلى المنطقة من البابين : الشرقي والشمالي، وكان له مراحل وعوامل مختلفة أسهمت في نشره وترسيخه في أوساط المجتمعات التي طالما انغمست في الطقوس الوثنية.

ومن الباب الشرقي وصل عقبة بن نافع إلى " بلما "، سنة 46هــ /666م، وتــرك فيهــا دعاة من العرب والأمازيغ والنوبة الذين حوّلوا أهالي المنطقة التي سكنوها إلى مسلمين. وتبعد " بلما " عن بحيرة تشاد نحو الجنوب إلى نيجيريا بحوالي 600 كلم. ثم توالت هجرات العــرب الهنيهيين سنة 116 هــ/ 734م، ثم جماعة من الأمويين مع أنصارهم سنة 133هــ/750م فكوّنوا نفوذا سياسيا واقتصاديا في السودان الأوسط عند بحيرة تشاد، فقامت على أيديهم مملكة كانم.[1]

أما من الناحية الشمالية فقد عبر الإسلام صحراء المغرب العربي متغلغلا إلى صـــحراء مالي ، تحمله القوافل التجارية التي نشطت من نواة التجارة الصامتة القديمة بين شمال الصحراء وجنوبها. ويمكن أن نعد البربر الصنهاجة نواة حملة الإسلام إلى غربي المنطقة، إذا علمنـــا أن اثني عشر ألفا منهم أسلموا على يد الفاتح موسى بن نصير، وتعلموا على العرب المسلمين سنة 101هــ/719م[2]. وأن ابن عبد الحكم يحدثنا عن حملة قادها حبيب بن أبي عبيدة الفهري، حفيد عقبة بن نافع، نحو الجنوب حتى صحراء موريتانيـــا وأرض الـــسودان.[3] ويبـــدو أن أوائـــل المسلمين من لمتونة صنهاجة الملثمين ، لأنهم في أقصى شمال الصحراء، ثم ناولوه إلى قبيلـــة مسوفة القريبين منهم نحو الجنوب، وهؤلاء استطاعوا أن يؤدوا أمانة الدعوة إلى أقاربهم جدالة التي تسكن قرب "نهر صنهاجة"الذي حرفه الأروبيون إلى"نهر السنغال"في القرن 15 الميلادي[4] وهكذا وصل الإسلام إلى الدول المتاخمة للصحراء قبل أن يتغلغل إلى بلدان أخرى: فأسلم ملك مملكة كانم أومي جلمي سنة 1085م/478هــ[5]، وبرمندانه أول أمير مسلم في إحدى مقاطعات مالي سنة1050م/442هــ[6]وعثمان زمنقاوىأول ملوك كنو بنيجيريا إسلاما سنة1300م/700هــ[7]

وقد كان انتشار الإسلام في المنطقة بفضل عوامل كثيرة يمكن تلخيصها في ما يلي :

1= القوافل التجارية :

لقد شق التجار طرقا كثيرة إلى المنطقة عبر الصحراء حاملين إليها البضائع النافعة من

---

(1)–راجع:الماحي،عبدالرحمن عمر:"مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي"، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد 4، سنة 1419هــ/1998م. ص162. نقلا عن القلقشندي: صبح الأعشى، ص 116/8.

(2) – غيث، أمطير سعد: التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ص 43-44.

(3) – ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، لا ت ، بغداد. ص 218.

(4) – غيث، أمطير سعد: التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، ص 34.

(5) – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص27.

(6) – طرخان، إبراهيم علي: قيام إمبراطورية مالي، ص 50.

(7) – الإلوري، آدم عبدالله: موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، لا ط، 1965م، بيروت، لبنان.ص 82.

كتب إسلامية، وأقمشة عربية. ويقال إن جمال هذه القوافل قد يبلغ عددها في رحلة واحدة إلى ستة آلاف جمل. فتصوّر عدد رجالها وما ستنتجه بضائعهم وإقامتهم من آثار إسلامية في البلاد الإفريقية. هكذا تأثر أهالي المنطقة بحسن سلوك هؤلاء التجار المسلمين، فانتشر الدين إلى أعماق البلاد. ثم عنيت قبيلتا ماندي والسونيكي بهذه التجارة، فشقوا طرقا تجارية إلى مختلف القرى والمدن في المناطق الجنوبية، وخاصة من مالي إلى شمال دول غانا، وتوغو، وبنين لينتهوا إلى بلاد اليوربا في نيجيريا، حتى عرف الإسلام بين هؤلاء بدين " أهالي مالي ".[1]

2= الهجرات العربية :

إن بني هلال من العرب الذين هاجروا إلى صحراء النيجر ومالي من شمال إفريقيا. وفي تاريخ العبيديين لابن حماد أن أبا يزيد الخارجي (ولد 272هـ/883م) قد ترعرع والده في جاو.وقد هاجر العرب البرابيش إلى"تاو ديني"على حدود مالي بموريتانيا، في القرن الثامن الهجري.[2]

وعند عودة منسا موسى من رحلة حجه الشهيرة اصطحب معه كثيرا من العلماء العرب كأبي إسحاق إبراهيم الساحلي [3]، وعبد الرحمن التميمي [4]، وغيرهما فأقاموا في مالي حتى الوفاة. وأشار ابن بطوطة في كتابه إلى وجود جارية دمشقية، وإلى ابن الفقيه الجزولي، الذي كان صهرا لمنسا سليمان ملك مملكة مالي ومترجمه [5].ورحلة محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني[6] إلى نيجيريا مشهورة. وقد لاحظ الأوروبيون سنة 1455م/860هـ شيوخا برابرة وعربا من تلمسان، في قصور ملوك كاجور وجولوف وسالوم، يصحبون الأمراء ويعلمونهم.[7]

3= المراكز التعليمية :

تكونت المراكز العلمية في المحطات التجارية التي أقامها التجار، فتأسست مدائن تِنْبُكْتُو[8]، وجني[9]، وجاو[10]، وكنو[11] ، والتي أصبحت كعبة طلاب العلم بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلادي، يقصدونها من كل فج عميق. وقد أشاد ابن بطوطة بمواظبة الرعية في مملكة مالي على الصلاة، وعنايتهم بحفظ القرآن الكريم، فيقيدون أطفالهم حتى يحفظوه.[12]

---

[1] – راجع : طرخان، إبراهيم : إمبراطورية غانة الإسلامية. الهيئة المصرية، 1970م، د. ط، القاهرة. ص53. وكذلك الإلوري، آدم عبد الله : موجز تاريخ نيجيريا، ص 35-36.

[2] – العربي ، إسماعيل : الصحراء الكبرى وشواطئها.المؤسسة الوطنية،1983م الجزائر، ص317.

[3] – ولد بغرناطة، وتوفي بتنكتو سنة747هـ/1364م، شاعر ومهندس، بنى جامع جني وقصر الملك. (نفح الطيب 194/2-195).

[4]– منهدس كان مساعدا لإبراهيم الساحلي (ت1346م) في البناء، وتوفي في تِنْبُكْتُ ومازال قبره يزار. (تاريخ السودان ص 51).

[5] – ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.دار الكتاب اللبناني، د.ط، د.ت، بيروت. ص444 ، و452.

[6] – فقيه ومفسر (ت909هـ)،ومن طوارق تلمسان بالجزائر،زارالسنغال وتِنْبُكْتُ وكنو، توفي في توات. (الأعلام للزركلي 216/6).

[7] – راجع : سيلا، عبدالقادر محمد : المسلمون في السنغال ، ص 125.

[8] – أسسها الطوارق المسلمون، فأصبحت عاصمة الثقافة الإسلامية بمسجدها سنكرى، وكثرة فقهائها وطلابها في القرن 14م.

[9] – أسست في القرن الثاني الهجري،وبعد إسلام ملكها كنبر،أصبحت مركزا تجاريا وعلميا في المرتبة الثانية بعد تِنْبُكْتُ.تقع بمالي

[10] – جاو أو كاغو أو كاوكاو كانت عاصمة مملكة صنغاي بعد سقوط إمبراطورية مالي، وهي قريبة من تِنْبُكْتُ، في مالي حاليا.

[11] – كنو : إحدى المدن الشمالية في نيجيريا على الحدود مع النيجر، كانت وما تزال إحدى عواصم الثقافة الإسلامية قديما وحديثا.

[12] – ابن بطوطة : تحفة النظار، ص450.

ثم اشتهرت في جميع الدول مدن دينية يشيع منها نور الإسلام إلى سائر أخواتها : أمثال "كِجلُن " و " بُكِجَو" و "سان لويس " في السنغال، وصكتو[1] وزاريا[2] في نيجيريا، وجوغو[3] في بنين، وتشاوجو[4] في توغو، وكوماسي[5] في غانا، وكونْ وسماتيغيلا[6] في ساحل العاج، وتمبو مدينة وكنكان[7] في غينيا. فشيدت المساجد الجامعة فيها، وأقيمت المدارس الحديثة بجانب المدارس القرآنية التقليدية، واشتهر فيها المسلمون بجلابيبهم البيضاء والنظيفة ، يباهون بها الوثنيين، الذين بدؤوا رغم أنفهم التخلص من بعض عاداتهم السيئة كتقديم القرابين البشرية.

4= الحركات الدعوية :

إن الحركات الإصلاحية التي قام بها المرابطون، وقبلهم قبيلة لمتونة الصنهاجة، قد رسخت دعائم انتشار الإسلام بين رعايا مملكة غانة. وبعد ذلك قام العلماء في ظل إمبراطوريتي مالي وصنغاي بمجهودات جبارة، وبخاصة في عصر منسا موسى ، وأسكيا محمد. ثم واصل الخلف المسير بعدهم : فأسس سليمان بال[8] دولة الأئمة الإسلامية في فوتاطورو بحركات جهادية. وأقام الشيخ عثمان بن فودي[9] على أنقاض ولايات الهوسا الوثنية دولته الإسلامية بشمال نيجيريا، ووسع الحاج عمر تال الفوتي[10] حملته الدعوية للقضاء على الوثنيين في مالي وأعالي غينيا، واشتهر الشيخ ما به جاخ[11] بالدعوة الدفاعية في سين سالوم بالسنغال.

5= الطرق الصوفية :

إن القادرية[12] أول الطرق التي انتشرت في المنطقة بفضل تنقلات الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في القرن الخامس عشر الميلادي، فأخذتها عنه قبيلة "كُنْـتَ"[13] في مالي ونشرتها في سائر بلاد غربي إفريقيا، ومن هنا يعدون حملة الدين ودعاته في المنطقة خلال أربعة قرون، قبل أن تقوم التجانية بدورها الفعّال في القرن 19 على يد الحاج عمر الفوتي.

---

(1) – صكتو: هي عاصمة الدولة الإسلامية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي سنة 1218هـ/1804م بشمال نيجيريا.

(2) – تقع شمال نيجيريا، سميت باسم الملكة زاريا التي ملكتها في القرن السادس عشر الميلادي، وهي أخت الملكة أمينة.

(3) – جوغو في شمال بنين، أسستها قبيلة يوبا،دخل الإسلام فيها بسبب التجار، وكثرت فيها العلماء ومجالس القرآن الكريم.

(4)– كانت تشاوجو شمال توغو مملكة إسلامية في عهد جوبو سيمو منذ القرن 18م. ينظر "أثر وسائل الإعلام "لمتوكل زكريا،ص16.

(5) – هي مدينة أشانتي بقلب غانا، نزل فيها المسلمون من الهوسا وأنشؤوا حي زونغو بإمارة إسلامية، فانتشرت فيها مجالس التحفيظ.

(6) – هما مدينتان شماليتان:أقامت قبيلة كوليبالي مملكة إسلامية في كون، كما أنار قبيلة جابي سماتيغيلا بالعلوم الإسلامية.

(7) – تمبومدينة عاصمة العلوم في فوتاجالون، وكنكان عاصمة الدين في غينيا العليا، وذلك في القرن السادس عشر الميلادي.

(8) – ولد سنة 1730م، درس في جامعة بير،وقام بالجهاد سنة 1776م ضد دولة دانياكي. (الأدب السنغالي العربي، ص 21/1)

(9) – عاش ما بين (1744–1817م)قادري الطريقة، زهد في الإمارة، وتفرغ للتأليف والوعظ. (الثقافة العربية في نيجيريا، ص68)

(10) – ولد بفوتاطورو حج وزار صكتو،أخذ التجانية في مصر ونشرها بالمنطقة (ت1864م). (موسوعة ألكسو 369/4)

(11) – استشهد سنة 1867م بعد نشر الإسلام في ريب سالُوم،ومقاومة الاستعمار والوثنيين. (الأدب السنغالي العربي، ص 21/1)

(12) – هي الطريقة التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (471–562هـ) ببغداد، كان شافعيا.منها البكائية ووالاثة وأدرار.

(13) – ويعد سيدي الختار الكونتي الكبير(1730–1811م) أشهر من انتشرت القادرية على يده في بلاد المنطقة.

وأما الشاذلية[1] فأخذها الشيخ علي الصوفي[2] عن الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي[3] في المغرب، ونشرها بين علماء فوتاجلون، ومنها انتشرت إلى الدول المجاورة[4].أضف إلى ذلك دور السنوسية[5]التي انتشرت من ليبيا إلى فزان وكانم وبرنو،واشتهر صيتها في سائر البلاد [6]. وقد حل الشيوخ الصوفية محل الوثنيين في قضاء حوائج الناس بالأسرار القرآنية وصنع التمائم.

6= المدارس والجمعيات الإسلامية :

بعد تلك الأدوار التي أداها القدامى جاء المعاصرون في القرن العشرين فأسسوا المدارس النظامية ، والجمعيات والاتحادات الإسلامية التي أدت دورا إيجابيا في الصحوة الدينية، وما أكثرها إذا أردنا إحصاءها ، وحسبنا أن نشير إلى أشهرها كنماذج في بعض الدول :

فأقدم المدارس في مالي مدرسة سبيل الفلاح لسعد توري في سيقو، وفي السنغال مدرسة الفلاح للحاج محمود باه. وفي بوركينا مدرسة جينيبولا ، أسسها باموي جينيبو في بوبوجولاسو. وفي نيجيريا مركز آدم الله الإلوري بلاغوس، وفي غانا مدرسة النورية لأحمد نور الدين بكوماسي. ومركز ساكيتي في بنين لشئث ثاني. وفي ساحل العاج دار الحديث لموري موسى.

وأما الجمعيات في الدول فأعظمها هي " المجلس الأعلى الإسلامي " الذي تم تأسيسه في كل من غامبيا، ومالي، وغانا، وساحل العاج، وتوغو، وبنين، وبوركينا، ونيجيريا. وفي غينيا أطلق عليه اسم " وزارة الشؤون الإسلامية " سنة 1975م. وفي السنغال يعرف بـ "الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية الإسلامية في السنغال"سنة 1962م. وبجانبها " جمعيات أهل السنة " في كل هذه الدول، وهي معروفة في نيجيريا والنيجر بجمعية إزالة البدعة وإثبات السنة.

ونتيجة هذا الانتشار الهائل بفضل الجهود السالف ذكرها أن غلبت نسب المسلمين على غيرهم: إذ قدرت في النيجر بـ 85% ، وفي مالي بـ 90% ، وفي غامبيا بـ 95% ، وفي السنغال بـ 90% ، وفي ليبيريا بـ 60% ، وفي غينيا بـ 85% ، وفي نجيريا بـ 48% ، وفي بوركينا 50%، وفي سيراليون بـ 30 % ، وفي غينيا بيساو بـ 30%، وفي ساحل العاج بـ 20%[7]، وفي غانا 16% ، وفي بنين بـ 15% ، وفي توغو 12% [8]، وفي الرأس الأخضر 1%.

وقد تساعدنا معرفة نسب المسلمين على معرفة مدى انتشار التعليم العربي وأدبه بين أوساط علمائهم. ونؤكد أن في كل دولة مناطق إسلامية ومدنا تشع منها منارات مجالس العلم.

---

[1] – الشاذلية : أسسها في مصر الشيخ أبو الحسن علي الشاذلي (593–656هـ)الذي ولد في سبتة، ينتمي إلى الأدارسة في المغرب.

[2]– ينحدر من قبيلة فلانية بفوتاجالون (1828–1912م) زار مدنا كثيرة حتى وصل إلى فاس. (L'Islam en Guinée , p56)

[3] – متصوف مغربي من أهل فاس(ت 1275هـ/1859م) له مؤلفات منها المناجاة الفردية. (الأعلام للزركلي ص 103/1)

[4] – ينظر: باري، عثمان برايما:جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي.دار الأمين، الطبعة الأولى2000م، القاهرة،.ص231

[5] – أسسها سيدي محمد علي السنوسي(ت 1589م)،وكان لزواياها فضل كبير في نشر الدين،والصمود أمام موج الاستعمار الأروبي

[6] – الإلوري، آدم عبدالله: الإسلام في نيجيريا، ص 45.

[7] – والإحصائيات في هذه الدول الثلاث الأخيرة غير دقيقة، ولا نغالي إذا قدرنا لساحل العاج بـ 40%، وللأخيرتين بـ 30%.

[8] – ينظر : Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

ج)- الميلادية :

تعدّ الميلادية ، بعد الوثنية والإسلام، الديانة الثالثة التي يتدين بها الأفارقة. وما وصلت إلى المنطقة إلا برفقة الاستعمار الغربي، خلال القرن الخامس عشر الميلادي، الذي مهد لها الطريق للانتشار، ودعم وسائل الإرساليات التبشيرية في القرن التاسع عشر الميلادي.

وأوائل المبشرين كانوا من البرتغال، الذين وصلوا إلى سواحل لاغوس سنة 1472م. ثم تابعهم سائر المبشرين الأروبيين ، فتمركزوا في المدن الساحلية للمحيط قبل توغلهم إلى أرجاء البلاد، فبعد استقرار المبشرين الفرنسيين في سواحل السنغال أسسوا أول مدرسة سنة 1819م باسم " مدرسة أخوات سين جوزيف دوكلوني ".[1]

ثم جاء المبشرون الإنجليز، فنزلوا مدينة بداغري سنة 1841م ليبدؤوا التعليم التبشيري ، قبل أن يؤسسوا كلية تبشيرية سنة 1930م.[2] وتعد الرأس الأخضر أكثر دول المنطقة نسبة من الميلاديين إذ تقدر بـ 99 %، لأنها دولة بقايا الرقيق الذين خلفهم المستعمرون بعد إلغاء تجارة النخاسة، تليها غانا بـ 63%. وفي غينيا كان وصولهم سنة 1842م إلى بوفا، وبنيت أول كنيسة أنجليكانية في كوناكري سنة 1877م. وفي ساحل العاج بنيت أخيرا ثانية كبريات الكنائس الميلادية في العالم بمدينة " ياموسوكرو " سنة 1990م.

وفي هذا العصر كثرت مذاهبها : من الكاثوليكية، والبروتستانية، والإنجليكانية، وشهود يهوذا. كما كثرت وسائلها التبشيرية : من مدارس خاصة، ومعاهد تدريبية، وجمعيات إرسالية، ومستشفيات، وكنائس...الخ. وقد ترجم "*الكتاب المقدس*" إلى اللغات المحلية المشهورة : كالولوف في السنغامبيا، والمانيكا في غينيا، وبمبارا في مالي، وزرما في النيجر، والهوسا واليوربا في نيجيريا، وموري في بوركينا فاسو. لكن مازالت نسبهم قليلة حتى الآن : في مالي تقدر بـ 1%، وفي غينيا بـ 2%، وفي النيجر بـ 2%، وفي السنغل بـ 3%، وفي غينيا بيساو بـ 5%، وفي ليبيريا بـ 10% ، وفي سيراليون بـ 10% ، وفي بوركينا فاسو بـ 10%، وفي بنين بـ 20%، وفي ساحل العاج بـ 20%. [3]

---

[1] – انجاي، محمد بمبا : أضواء على السنغال، لا د، الطبعة الأولى 1411هـ/1991م، القاهرة،مصر. ص45.

[2] – الإلوري ، الشيخ آدم عبد الله : موجز تاريخ نيجيريا، ص 57.

[3] – ينظر : Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

3)- من حضارات المنطقة :

تتمثل الحضارة الإفريقية في وجود قبائــل متخصــصة فــي الحــرف، أي الطوائــف المحترفة، وهذا ما هيّأ التقدم لكثير من الحرف التي أتقنها سكان المنطقة:

- ***كالبناء المعماري:*** وقد بنى سواد الناس أكواخا من القش والطين، ومسقفة بأحــدهما، وفي غانفي ببنين تعيش بعض الأسر على الماء في أكواخ خشبية. ولأغنيائهم مبان من الطوب المحروق، ولملوكهم قصور محكمة البناء كقصر ملوك غانة على ضفة نهر النيجر[1]، كقصور ملوك داهومي التي دمرها الفرنسيون سوى اثنين منها، ولعواصمهم حصون منيعــة كحــصن مملكة صوصو الذي أعيا سونجاتا قبل أن يفتحه، وحصن سيكاسو الذي أعيا فتحــه ســاموري توري. ولمساجدهم الطراز المغربي من بناء إبراهيم الساحلي الذي استقدمه منسا موسى.
- ***الحياكة :*** في نسج الأقمشة والدثار من القطن المــزروع فــي الأراضــي الخــصبة، ونتج من تنوع المهارات اختلاف منسوجات تتميز بها كل دولة عن جاراتها في أزيائها التقليدية.
- ***الصباغة :*** في صبغ الثياب من مخططات ملونة يرسمها الذوق الشعبي التقليــدي، لــذا تميزت الأزياء التقليدية لكل قبيلة حتى في دولة واحدة.
- ***الخزافة :*** في صنع قدور من أنواع الطين اللازب المحروق، وما يرسم على ظهورها من أشكال، تروق الأنظار، وتدل على المهارات الفنية للنساء المتخصصات فيها.
- ***الحدادة:*** في صنع أدوات الزراعة والحرب من محراث،وعتلة، وفأس، وسيف، وسهم.
- ***الصيد البري:*** لحيوانات الغابة، وما يترتب على ذلك من معرفة أسرار طبية للحوم تلك الحيوانات وجلودها، وأوراق الأشجار وجذورها وثمارها.
- ***الصيد البحري:*** وما يلزمه من صنع القوارب والشبّاك، وما يترتّب على ذلك من معرفة أسرار كنوز البحر والأنهار من أنواع أسماك وصدف ولآلئ.
- ***الملاحات :*** بعد أن ظلوا يشترون الملح في "التجارة الصامتة" بالذهب ردحا من الزمن.
- ***الصياغة:*** صاغوا من الذهب والفضة والنحاس أنواعــا مــن الخــواتم، والأســورة ، والخلاخيل، والأطواق، وعصي الملوك. وخاصة عند طوارق النيجر، وأشانتي غانا.
- ***النحاتة :*** التي ظهرت فيها مهارتهم النادرة في فن تصوير تماثيل الآلهــة والأســلاف، والأقنعة – تمثل رؤوس الحيوانات والطيور- من الخــشب، والــصخر، والعــاج، والحديــد، والبرونز.ومازال هذا يجذب إعجاب السياح الغربيين،كما نال قديما مكانة عند الفنانين الأروبين.

وتمثل حضاراتهم جانبا آخر من العلوم والفنون الأدبية، ومن القوى السحرية :

- ***الطب :*** عرفوا الأمراض المختلفة وأسبابها، فعالجوها بأعشاب منتشرة في الغابات.
- ***البيطرة :*** عنوا بحيواناتهم الأليفة في معالجة جروحها وأمراضها بتلك الأعشاب.

---

[1] – الإدريسي، الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس.لا.د، لا.ط، 1894م، ليدن. ص6.

- ***النسابة*** **:** يعد الشيوخ والشعراء مكتبات حية، يحفظون في ذاكرتهم دقائق الأخبار عن أنساب القبائل وتاريخها، وعن قيام الممالك وتاريخ ملوكها وأبطالها، وعن إنشاء القرى والمدن.
- ***الفنون الشعبية*** **:** لقد برعوا في حذق الموسيقى والغناء والرقص وشتى صنوف الشعر المطرب،[1] والأدب الشعبي التقليدي غني بفنون شعرية : من أغان وأناشيد وقصائد الطوائف، وبفنون نثرية : من قصص، وأمثال، وحِكَمٍ، وملاحم، ومسرحيات، وخطب. أضف إلى ذلك بعض الألعاب الثقافية كـ " أوالي" عند قبائل سواحل خليج غينيا، ومثله عند الطوارق، وقد توصل أولادهم إلى أنواع من الملاهي الشعبية، وشبابهم إلى مختلف النشاطات الثقافية التقليدية.
- ***الزجر*** **:** اهتموا بطيران الطيوروأصواتها،كالتفاؤل بالحمامة،والتشاؤم من الغراب والبوم
- ***العِرافة بالودع ، والحصى، والرمل*** **:** كان ذلك من عمل السحرة والكهنة في محاولة كشف أسرار المستقبل لتعجيلها، ومصائبه لدفعها ، في كل ما يتعلق بحياتهم اليومية.
- ***السحر والشعوذة*** **:** انتشر السحر في حياتهم الاجتماعية، وضروا أعداءهم بـ "السحر الأسود" لهلاكهم، ونفعوا أشياعهم بـ "السحر الأبيض" في ذب الأرواح الشريرة. وعرفت جمعيات سرية من المشعوذين، أكثرهم من الشيوخ والعجائز، إما للخير في حفظ المجتمع وعمل التمائم، وإما للشر في الفتك بالأولاد والشباب، لذا لا تؤمن جماعات " أكان " بالموت الطبيعي.

4)- التقاليد والعادات القبلية :

◆ ***البناء الأسري :*** للأسرة صورتان ، ضيقة وممتدة . فالأولى مقتصرة على الزوجين وأولادهما، والثانية تمتد من الأولى لتشمل القريبين من أسر الإخوة والأعمام والأخوال، لأن شخصية الأفراد تذوب في نفوذ العشيرة التي يشرف عليها أكبرهم سنّاً ، علما بأن السكنى يتم في دار أسرية، ولذا ليس للبنات أولياء عند زواجهن سوى أعمامهن.

◆ ***الممازحة الأسرية :*** لقد شرعت التقاليد ممازحة ودعابة بين الأحفاد والأجداد ، وبين الزوج وإخوة حليلته وأخواتها، وبين الزوجة وإخوة بعلها وأخواته، وبين الأبناء وزوجات أخوالهم. وليس لها حدود، إذ يقال فيها ما لا يمكن أن ينطق به المرء في حق غيرهم.

◆ ***الممازحة القبلية :*** لتعزيز العلاقات الوديَّة القديمة التي قامت بين القبائل في سالف الزمان، فإن المجتمع ما زال يحافظ على إحياء دعابة بين أفراد بعض القبائل: كما بين موسي وساموغو في بوركينا، وبين بوصو وكادو في مالي، وبين السيرير والفلانيين في السنغال. وأحيانا بين عشائر قبيلة واحدة كما بين عشائر ماندي : بين كمارا وكوناتي، وبين تراوري وكوني، وبين توري وكوليبالي، وبين كيتا وكابا. ولا تعرف هذه الدعابة حدودا ولا أسبقية التعارف بين أصحابها، إذ يقع مثل هذه الدعابة في المكاتب الوزارية، والقاعات الدراسية، وبين سائق وسيده، وبين مدير وعامله،وبين طالب وأستاذه. وما أكثرها بين سواد الناس في الشوارع.

---

(1) – القلقشندي : صبح الأعشى، 224/3.

♦ ***التضامن الجماعي :*** من مظاهر هذا التضامن تناوب اجتماع أهالي القرية في الأعمال الجماعية لإصلاح مزارع جميع الأسر عند البذر والحصاد. ولا ملك للفرد بعد الحصاد إلا ما يأكله، لأن على رب العشيرة مسؤولية جميع أعضائه من إخوته مع أبنائهم ونسائهم.

♦ ***مكانة الشيوخ في المجتمع :*** يعظم الناس الشيوخ لأنهم خلف الأسلاف، فهم رؤساء الأسر والعشائر، وصناع القرارات مع الكاهن، وحماة العادات والتقاليد، ومنفذو نذور الأسلاف، ومبرمو المواثيق بين القبائل، وأذهانهم موسوعات حية للسكان. لذا نصائحهم مقبولة، والتقصير في حقهم جرم شنيع يجلب اللعنة على صاحبه.

♦ ***مكانة المرأة في المجتمع:*** يظهر شرف المرأة في الزواج المعظم بين الأسر، لأن الزواج يتم بين العشيرتين لا بين الزوجين فحسب. ومن شرفها أن اسمها يضاف إلى أسماء أولادها مراعاة التفرقة بين الذين لهم أسماء مماثلة، وينسبون إلى آبائهم في الوقت نفسه. وقد ظهر شرفها في الوراثة الملكية من نظام الأمومة، حيث لا يرث الملك إلا ابن أخته من الأم. وكانت للملكة الزوجة والملكة الأم نفوذ في السلطة. وحري بالذكر وصول المرأة إلى السلطة كمملكتي ولاية زاريا بنيجيريا "أمينة وزاريا" في القرن السادس عشر الميلادي، وبقي اسم الثانية على الولاية، وملكة والو بالسنغال "انداتي يالا " ، وملكة قبيلة باولى "بوكو" بساحل العاج.

♦ ***الشعائر والطقوس الدينية :*** إنهم يقيمون طقوسهم الوثنية المهيبة سنويا وموسميا وفي المناسبات، يقدمون فيها الضحايا والقرابين لآلهتهم التي يتضرعون إليها بألوان من الأدعية، يشرف عليها كاهن القبيلة إن كانت شعبية، أو شيخ الطائفة إن كانت خاصة بطائفة معينة من الصيادين والحدادين مثلا. وأسبابها متنوعة : كاختلال ظواهر الطبيعة، وانتشار المحن من قحط ومجاعة وأمراض، وعند البذر والحصاد...الخ.

♦***الاحتفالات الشعبية :*** المجتمع الإفريقي ذو ولع بالاحتفالات التقليدية التي تقام في مناسبات الزفاف، والولادة، والختان، والجنازة، في رقص وغناء تحت دوي الطبول والتصفيقات، أو صراخ نواح وولولات عند الجنازة ، وقد هذّبها الإسلام من طابعها الوثني. ومن أشهرها "كونسي" لدى الصيادين في ماندي، و"وسانكارا" في زندر بالنيجر، و"ياكي روم" و"غيروول" عند الفلانين برور في النيجر أيضا. أضف إليها المولد النبوي الذي أدخلوا فيه عادات قبلية.

♦ ***ضرب الطبول :*** إن لنقرات الطبول وأصواتها معاني يفهمها أهالي القرية، لذا تنقر الطبول لإعلان أخبار الولادة والوفاة والاجتماع والأعياد. ولم تخل الاحتفالات الشعبية من نقر الطبول، ولشدة ولعهم بها أدخلها البعض في حلقات الأذكار لبعض جماعات القادرية والتجانية.

♦ ***الوشم على الخدود :***لقد فرضت بعض القبائل على أفرادها الوشم على خدودهم، لتميزهم عن غيرهم، بل كان ذلك "بطاقة" المرء في القرون الماضية، لكنها ما زالت سارية المفعول عند المحافظين أمثال قبائل الهوسا، والزرما، وموسي، واليوربا، وأشانتي، ونقوش الوشم قد تختلف من بطن إلى بطن في قبيلة واحدة، كوشم بطون قبائل اليوربا، والهوسا مثلا.

وبعض القبائل الإفريقية أهملته كالولوف بالسنغال، وقبائل ماندي في مالي وغينيا، على سبيل المثال لا الحصر.

♦ ***أنماط تبادل التحيات :*** كانت تحية ملوك مملكة غانة مثلا أن يجثو الناس غير المسلمين على ركبهم وينثروا التراب على رؤوسهم، وكان سلام المسلمين تصفيق باليدين[1]. وكان مورو نابا Moro Naba ملك موسي في بوركينا لا يرى أحدا قائما على قدميه. وقد تميزت قبائل اليوربا والهوسا، ودندي بشمال بنين، وقبائل شمال توغو، وسكان شمال غانا، بانحناء عند تبادل التحيات فيما بينهم، وخاصة أمام الكبار، وقد تمس أيديهم أقدامَهم عند اليورباويين، ولا فرق بين الرجال والنساء في ذلك عندهم إلا عند جماعات في مالي وشرق ساحل العاج والفولانين في السنغال فقد اختص هذا الانحناء بالنساء دون الرجال.

♦ ***الأزياء التقليدية :*** كان زي سلاطين مالي وصنغاي جبة حمراء ، عليها الطيلسان أو شاشية ذهبية. وكان أهل الصحراء من الطوارق يتلثّمون بلثام أسود أو أزرق، والعلماء يتعممون أو يلتثمون أحيانا، ويلبس سواد المجتمع ملابس بيضاء في المناسبات الدينية. وترى أجساد الوثنيين شبه عارية سوى ما يستر عورتهم، لذا يُسْلِمُ بعضهم إعجاباً بنظافة ملابس المسلمين.[2]

وفي العصر الحاضر يتميز الوثنيون في مناسباتهم بلبس رداء "كينتي" مثلا عند جماعات "أكانْ Akan" الوثنيين في سواحل دول خليج غينيا. وأما غيرهم من المسلمين فيعرفون بجلابيبهم الفضفاضة في نيجيريا وقلنسواتهم الهوساوية واليورباوية. ويعرف أهالي موسي بزي منسوج من القطن المحلي، ومثله عند سينوفو بشمال ساحل العاج.

♦***الفضائل والرذائل :*** كان الضيف معظما والغرباء مكرمون، وحسبنا شهادة الرحالة ابن بطوطة في ما ناله من إكرام لدى الملك والمجتمع في ظل إمبراطورية مالي، فوصفهم :« *وهم أبعد الناس عن الظلم، وشمول الأمن في البلاد* » [3] ، كما أشاد بهم توماس أرنولد بقوله:« *وهم من أعظم أجناس إفريقيا رقيا* » [4]. وحتى في المجتمعات الوثنية كانت بعض الرذائل تعد جريمة يعاقب عليها كالزنى، والسرقة، والقتل، والقرض غير المسدد. وإن كانت لم تخل من بعض العادات السيئة كشرب الخمور المحلية، ووراثة أصغر الأولاد زوجات أبيه في نيجيريا مثلا، والتقرب بالقرابين البشرية عند بوبو في بوركينا وغيرزي في غينيا مثلا، وتقديم ملكة باوْلي "بوكو" ابنها لجنية النهر قبل عبورها مع أصحابها من غانا إلى ساحل العاج. وقد هذب الإسلام هذه العادات من القبائل المسلمة ، ولكن بعضها ما زالت قائمة لدى الجماعات الوثنية.

---

(1) – ينظر : البكري : المغرب في أخبار إفريقيا والمغرب، المطبعة الحكومية، لا.ط، 1858م، الجزائر. ص 16.

(2) – ينظر : ابن بطوطة : تحفة النظار، ص 446-450.

(3) – المصدر نفسه، ص 450.

(4) – أرنولد، توماس:الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية،د.ط،1970 القاهرة.ص356.

أولا- الإمبراطوريات والممالك القديمة، نظامها وأيامها :

قامت في الغرب الإفريقي إمبراطوريات اتسعت رقعتها على مساحات كبيرة شملت كثيرا من الدول المعاصرة، كما قامت بعض الممالك القبلية ركزت سيطرتها على بعض أقاليم الدول المعاصرة، لذا ينبغي أن نفرق بينهما في بيان عصورهما المختلفة :

1)-إمبراطورية غانة:

تعد أقدم إمبراطورية عرفتها القارة السمراء على الإطلاق. يطلق على ملوكها لقب " كَيَمَغَ " بمعنى "*ملك الذهب*[1] " في لغة السوننكي ، أو السراخولي، الذين كانوا ملوكها آنذاك. تم تأسيسها على أيدي بعض البيضان منذ القرن الأول الميلادي، فقيل هم الفلانيون، وقيل من البربر الذين اختلطوا بالزنوج، وأرى مرد هذا الاختلاف إلى تعاقب قبائل متباينة على سلطتها، لأن عدد ملوكها أربعة وأربعون كما يقول السعدي : *" قيل إن سلطتهم كانت قبل البعثة، فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكا، وهم بيضان في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمون إليه في الأصل "*[2].

وكان ملكها "كنسعى" معاصرا لنبي الله ﷺ[3].ومنهم "بسي" الذي تولى العرش بعد 85 سنة من عمره، وبعد وفاته خلفه "تنكامينين" سنة 455هـ/1063م. وعلى الرغم من وثنية ملوكها فكان لهم مترجمون ووزراء وأمناء بيت المال من المسلمين. وهل أسلم ملوكها ؟ لم ينص الباحثون على أسماء ملوكها المسلمين سوى وارجاي بن رابيس، بل اكتفوا بالإشارة إلى كونهم مسلمين،بل بالغ أحدهم فنسبهم إلى العلويين قائلا: " *وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب*"[4]، ومن هذا الأسلوب "فيما يوصف" نفهم أنه زعم شائع لا أصل له.

يصف البكري موقعها بقوله: *" وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون*"[5]، لأن أكثر سكانها أسلموا قبل ملوكها ، فسكنوا في إحدى مدينتيها والوثنيون في الأخرى[6]. وكان للمسلمين فيها اثنا عشر مسجدا، واثنتا عشرة مدرسة قرآنية، مكتظة بحملة العلم والفقهاء[7].

---

(1) – كعت، محمود: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، تحقيق هوداس،لا.د، لا.ط، 1913م،باريس.ص41.

(2) – السعدي: تاريخ السودان، تحقيق هوداسي، لا.د، لا.ط، باريس 1964م، ص9.

(3) – كعت، محمود: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس،.ص41.

(4) – الإدريسي، الشريف:المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص6.

(5) – البكري: المغرب في أخبار إفريقيا والمغرب، المطبعة الحكومية، لا.ط، 1858م، الجزائر. ص175.

(6) – القلقشندي، صبح الأعشى ، 284/5.

(7) – البكري : المغرب في أخبار إفريقيا والمغرب، ص175.

ولم تبلغ عظمتها إلا ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين، أي بين التاسع والحادي عشر الميلاديين، فكانت ممتدة لمسافة كبيرة: تبدأ من منحنى النيجر جنوبا وتنتهي إلى مدينة أركي شمالا غير بعيدة عن مضارب قبيلة لمتونة قرب وادي نون سوى بضعة أيام، وعن عظمتها يقول ابن خلدون : «*كانوا أعظم أمة وأضخم ملك* »[(1)]. وأما عاصمتها فتنقلت من "كومبي صالح" إلى "أودغست" في القرن الثالث الهجري، ثم إلى "أوكار" سنة 350هـ/961م.

وقد استولى الزعيم اللمتوني تيولتان بن تبكلان (ت 222هـ/836م) على أودغست للمرة الأولى في القرن الثالث الهجري، وللمرة الثانية سنة 350هـ، وفي كل مرة يستردها جنود غانة بعد ذلك ، إلى أن تم فتحها على يد المرابطين سنة 460هـ/1067م، فأخذ الضعف يدب فيها إثر ذلك، حتى انهارت على يد ملك صوصو سنة 600هـ/ 1203م.

2)– *إمبراطورية صنهاجة:*

أسست قبيلة لمتونة الصنهاجية مملكة إسلامية بعد حسن إسلام زعيمها ، تيولتان بن تبكلان (ت 222هـ) ، الذي وسّع رقعة إمبراطوريته الفتية باستيلائه على عاصمة غانة "أودغست"، أكبر المراكز التجارية عبر الصحراء الكبرى. واستمر توارث الملك في عقبه حتى سنة 306هـ/918م، حين تفرقت قبائل لمتونة أيدي سبأ، فانتهزت غانة الفرصة لاسترداد عاصمتها[(2)]. ولما جاء عهد الأمير بروتان بن وبسنو (961–971م) لمّ شعث الملثمين، واستولى على عاصمة غانة من جديد،ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان كلهم يؤدون إليه الجزية[(3)] ولكن غانة استردتها مرة أخرى بعدما تفرقت قبائل الملثمين، ودب الضعف في دولتهم إلى عهد ملكهم "تارسينا أو تارشينا" الذي حج، وأبلى بلاء حسنا في حملاته الجهادية ضد الوثنيين حتى استشهد في إحدى فتوحاته سنة414هـ/ 1023م، ومن هنا انهارت دولته، بعد أن ترك آثارا طيبة في تطوير الثقافة الإسلامية، ومهّد الطريق للمرابطين لينطلقوا إلى حركاتهم الإصلاحية[(4)].

من هم المرابطون؟ :

عبد الله بن ياسين زعيمهم الذي اتخذ مدينة اندار (سان لويس) بالسنغال رباطا له، مدة تناهز سبع سنوات، لإصلاح عقيدة الملثمين الإسلامية، فاتسع أنصاره من جبال درن في الشمال حتى منحنى نهر النيجر في الجنوب. وكان هذا الفقيه متشددا في قبول مريد برباطه، إذ كان يقيم الحد الشرعي على من شرب الخمر، أو زنى، أو قتل، قبل أن يقبله، ولو أتاه تائبا[(5)]. وإن كان هذا التشدد يعرقل سرعة نشرالدين،وخاصة في أوساط السودانيين الوثنيين،إلا أن كل من يرضى

---

(1) – ابن خلدون : العبر في ديوان المبتدأ والخبر، مطبعة بولاق، لا.ط، 1284هـ، مصر.149/6.

(2) – ينظر : المصدر نفسه جـ 6 ص17 و181–182.

(3) – ينظر : البكري : المغرب ، ص 159.

(4) – ينظر : ابن خلدون : العبر في ديوان المبتدأ والخبر، مطبعة بولاق، لا. ط، 1284هـ، مصر. ص 182/6.

(5) – ينظر : المصدر نفسه ، ص 169.

بهذه الشروط فإنه مريد مخلص، ومن هنا جمع أتباعا مخلصين له، "*فتوجهوا شمالا صوب المغرب بعد خروجهم من الرباط حيث أسسوا مملكة امتدت إلى الأندلس ينهض لنا دليلا آخر على أنهم لم يعتبروا نشر الإسلام بالسودان الغربي مهمتهم*"[(1)]. أما الذي قاد حركة فتح غانة فهو الأمير أبوبكر، وبعد استشهاده قادها يحيى بن عمر، فاستولى جنوده على العاصمة أودغست سنة 447هـ/1067م، والذي استشهد في المعركة نفسها. ثم ظهر يوسف بن تاشفين فجمع ألفي رجل، وجندهم، لبسط الدين وسلطانه في شمال غربي إفريقيا على حدود غانة وموريتانيا (مراكش)[(2)].

3)- إمبراطورية صوصو:

لم يهمل المؤرخون إمبراطورية إهمالهم هذه الإمبراطورية التي قامت على أنقاض غانة، والتي بسطت نفوذها على جل قبائل ماندي في عصرها الذهبي عندما كان سوماوورو (سومانغورو) كانْتي ملكا لها، بعد حملته الشرسة على مملكة كَيْتا التي كان دانكارا توما، أخو سونجاتا للأب، سلطانا لها[(3)]. وربما يبرر هذا الإهمال منهم قصر عمر هذه الإمبراطورية (1203-1232م) ما بين سقوط غانة وقيام إمبراطورية مالي. ولكن الجدير بالذكر أن قبيلة كانتي الحدادة كانت تابعة لمملكة "واغادو" التي كانت ـ على ما يبدو ـ تخضع لسلطنة غانة. ولكن بعد أن قويت شوكة صوصو انقلبوا على سادتهم في واغادو، وقاموا بثورات متلاحقة للانفصال عن سيطرة غانة، إذ كانت تغير عليها من الجنوب عندما تتعرض لها هجمات الملثمين من الشمال[(4)]. كان ملكها وثنيا، يتقرب إلى جنياته بالقرابين البشرية، بل إنه كان يجلس على جلود الملوك التسع الذين سقطوا ببطشته، واحتفظ بجماجمهم في حجرته السحرية.[(5)] لكن وثنية الملك لم تمنع إسلام شعبه، إذا عرفنا أن قبيلة "كانتي" من قبائل ماندي القديمة التي أسلمت مبكرا وأسهمت في نشر الدعوة الإسلامية بالمنطقة. وأصبحت قبيلة "صوصو" الآن من الأقلية القبلية تتحصر في قراها بغينيا الساحلية، ولغتها فرع من لغة مانيكا بغينيا العليا.

وربما من الصعب أن نقدر بالتحديد حدودها التي كانت في طور توسعتها، ولكنها لا تخرج عن أن تبدأ من أعالي مجرى نهر النيجر (بغينيا الشرقية حاليا) جنوبا إلى ما بعد كِيتا (بمالي حاليا) شمالا، ومن جبل كوليكورو (بمالي أيضا) شرقا إلى قرب نهر السنغال غربا. وكانت عاصمتها مدينة " صوصو" التي خرّبها سونجاتا ودمر مبانيها ،عندما هزم ملكها سوماوورو كانْتي في معركة " كِرينا " الشهيرة سنة 630هـ/1232م[(6)]. فانهارت صوصو ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

---

(1) – أبوبكر، علي: الثقافة العربية في نيجيريا، ص24-25.

(2) – أشياخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص479. (نقلا من الثقافة في نيجيريا ص26)

(3) – Niane, Djibril Tamsir : Soundjata, ou l'épopée manding. Présence Africaine,1960, p 73

(4) – محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين، ص 73.

(5) – Niane, Djibril Tamsir : Soundjata , p74 -76

(6) – Ibid, p 111

4)- إمبراطورية مالي :

كانت هذه الإمبراطورية مملكة صغيرة لأهالي " كيتا"، وإحدى مقاطعات دولة غانة، تقع عاصمتها "نياني" على منحنى النيجر في شرق غينيا. وكان ملكها آنذاك ناري ماغا ، ثم خلفه ابنه دانكارا توما الذي هرب من بطش ملك صوصو إلى الغابات الجنوبية بغينيا ــ حاليا ــ ليؤسس مملكة في كيسيدوغو. وظلّت مالي إحدى مقاطعات صوصو ردحا من الزمن قبل أن يستردها سونجاتا (أو ماري جاطة) ابن ناري ماغا (ت 1255م) من صوصو إثر انتصاره الباهر في معركة كرينا التاريخية[1]، فدانت له جميع ممالك ماندي آنذاك : كمملكة تابو وانا، ومملكة كِيتا، ومملكة سيبي. ومن هنا قامت أعظم إمبراطورية في المنطقة، واتخذ ملوكها لقب " منسا" بمعنى الملك بلغة ماندي أو مانيكا، واتسعت رقعتها فيما بعد على أيدي خلفه، فامتدت حدودها من بلاد التكرور بالسنغال غربا إلى دندي شرقا، ومن ولاته بموريتانا وتِنْبُكْتُو بمالي شمالا إلى مرتفعات فوتاجالون بغينيا جنوبا. ويشهد ابن خلدون بأن عهده كان عهد "*انتشار الإسلام وتشجيع علمائه على نشر علومه بين سكان المناطق الساحلية لغرب إفريقيا* "[2].

وجاء خلف بعد سونجاتا لم يبلغوا مبلغ صيته، فأولهم ابنه "منسا ولي" الذي يعد أول ملك يحج سنة 658هـ/1259م[3].ومنهم "*سكورا*" في أوائل القرن الرابع عشر الذي استولى على مدينة جاو شرقا. وبعده جاء عهد حكم *منسا موسى* (1312–1337م) أعظمهم ملكا، لتوسعته رقعة الدولة إلى مساحات مترامية الأطراف، لقيامه برحلة شهيرة إلى الأراضي المقدسة سنة 1324م، بلغ جنوده ستين ألفا، يحمل كل عبد من خمس مئة راكب 500 مثقال من الذهب، والذي استقدم في إيابه كثيرا من العلماء والمهندسين، منهم: أبو إسحاق الساحلي، وعبدالرحمن التميمي، والفقيه عبد الله البلبالي، كانت لهم أياد بيضاء في تطوير التعليم العربي الإسلامي بالمنطقة.

ثم خلفه ابنه منسا ماغا الذي حكم ما بين (1337–1340م)، ولم يبلغ مبلغ سلفه. وأتى بعد ذلك عهد ثاني كبار ملوكها منسا سليمان (1340–1362م) الذي اتصل به ابن بطوطة في رحلته التفقدية فجاء وصفه كشاهد عيان لا مخبر: " *فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا*[4]" ثم صوّر مواظبتهم على الصلاة، وعنايتهم الشديدة بحفظ القرآن الكريم، الأمر الذي يدل على نضج الثقافة الإسلامية في هذا العهد.

وتعد ما بين (1362–1390م) فترات الضعف والاضطراب، تناوب ستة ملوك على العرش، منهم منسا جاتا (ت 1373م/775هـ)ومغامران اغتصبا العرش من الأسرة الملكية.وربما كان ذلك سبب هجرات وفود من شعب مالي نحو بلاد الهوسا شرقا،حيث أسلم على أيديهم ملك كانو

---

(1) – Ibid.

(2) – ابن خلدون: العبر، ص 5 / 434

(3) – المقريزي:الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، تح جمال الدين الشيال،مكتبة الخانجي،لا.ط،1955،القاهرة.ص110.

(4) – ابن بطوطة : تحفة النظار، 200/2.

"*ياجي علي*" (ت 1385م/787هـ) وعرف الإسلام هناك بدين مالي أو بدين أهل ونغارا، فعين منهم قاضيا وإماما وأقام الملك مسجدا مكان شجرتهم الوثنية[1].

وانتهز صنغاي فرصة الاضطراب فاستقل بجاو، واستولى الطوارق على مدن أوران وولاته، وتِنْبُكْتُو، وانفصل عنها الولوف بالمناطق الغربية، وانطوى موسي على المنطقة الجنوبية. وما وصلنا إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حتى أصبحت مالي قطراً من مقاطعات إمبراطورية صنغاي.[2]

5)- إمبراطورية صنغاي:

أسسها "*علي كلن سنّ*" عندما هرب من بلاط مملكة مالي ، وأعلن استقلال منطقة جاو عن مالي. ولم تتّسع رقعة الدولة إلا من بعده، وبعد عهد أخيه سليمان، فشملت تِنْبُكْتُو في عهد علي سن الثاني (1464-1493م) ، الذي أغار على الطوارق الذين استنجدوه ضد الوثنيين، فجرّ إليهم جيشاً عرمرماً لفتح تِنْبُكْتُو ونكل بالفقهاء، وعذب الأمراء، حتى لجؤوا إلى ولاته. واستطاع أن يستولي على مدينة جني بعد حصار طويل. وبهذا أصبح صاحب الأمر في منحنى النيجر. وكان كبير الطموح إذ زحف على صنهاجة الجنوب، ووسع رقعة إمبراطوريته إلى بلاد النون شمالا، وتوجه شرقا فاستولى على ولاية كَبِ في نيجيريا. وأخضع له مملكة موسي بعد معركتين عنيفتين.[3]

وما حال الحول على خلافة ابنه أبي بكر بعد وفاته، حتى اغتصب قائده محمد بن أبي بكر العرش، وتلقب بـ" أسكيا "، واستمر الحكم في أعقابه من 1494م إلى 1591م. وتميز عن أسلافه بتكريم الفقهاء، واتخاذ المستشارين من العلماء، وببناء جامعة سنكوري، وبتنظيم الجيش، وبازدهار التجارة في مراقبة الأسعار في الأسواق. وسرعان ما قام برحلة شهيرة إلى الأراضي المقدسة سنة 1497م/903هـ، وعند عودته أخذ اعتراف الخليفة العباسي له بالخلافة في القاهرة، واستفاد بتوجيهات العلماء العرب كالإمام السيوطي في السياسة الإدارية. [4]

وفي عهده – أي أسكيا محمد – كثرت حركات الاستقلال من قبل إقليم مالي، ومملكة موسي، وولايات الهوسا، فحاربها واحدة تلو أخرى حتى بسط نفوذه عليها جميعا. وقد أظهر الرجال بطولاتهم الحربية، شهدت لها مدائح الشعراء التقليديين.

وبعد ست وثلاثين سنة من الحكم، عزله ابنه موسى بعد أن كف بصره، لكنه لم يفلت من سياسة اغتياله لإخوته خوفا منهم، فأغتيل سنة 1533م/940هـ. وخلفه عمه بنكوري. وليس من بين ملوك صنغاي الخمسة الباقين من يستحق الاهتمام سوى أسكيا داود الذي حكم ما بين (1548-1582م).

---

(1)– The Kano Chronicles in Palmer: Sudanese Memoirs,Vol. III, pp. 104 -5

(2) – باري، عثمان برايما: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 46.

(3) – السعدي : تاريخ السودان، ص 64.

(4) – المصدر نفسه، ص37-73.

وما أن تولى أسكيا إسحاق العرش سنة 1582م/990هـ،حتى أصبحت الدولة مهددة بالخطر من ملوك المغرب الذين أرادوا الاستيلاء على واحة تغازة، حيث يستخرج الملح، لذا لم يلبث السلطان المغربي المنصور أن أرسل إليه سنة 1590م جيشا من الأسرى الإسبان بقيادة جودار باشا، ففتح جاو، وجرد تِنْبُكْتُو من علمائها في تنكيل شرس، وكبل كثيرا منهم إلى المغرب كأحمد بابا التمبكتي.كان ذلك نهاية إحدى الحضارات الإسلامية التي طورها ملوك هذه الدولة.[1]

6)– إمبراطورية كانم وُبْرنو :

وإن كانت أراضي هذه المملكة ليست من أقطار الغرب الإفريقي، إلا أن علاقتها بنيجيريا، وتأثيرها فيها، يدفعنا إلى الإشارة إليها ولو بنظرة خاطفة. نشأت في بحيرة تشاد قرب منطقة كوّار التي وصل إليها عقبة بن نافع في زحفه. وقيل إن أصل ملوكها من البربر، ولكنهم يزعمون أنهم من سلالة سيف ابن ذي يزن، وأن مملكتهم التي أنشؤوها سنة 850م/236هـ امتدت، بعد غزوة جنوب الصحراء، إلى النيجر غربا وإلى وداي شرقا، ومن فزان شمالا إلى نهر البينوي جنوبا.[2]

وأول من أسلم من ملوكها أومي جلمي الذي ولي (1085–1097م)، وكان ابنه دونمه أول من حج منهم، وقد غرق في البحر من رحلته الثالثة للحج. وكان عبد الجليل، بعد عبد الله وبير بن حمي، أول ملك أسود، وكان أسلافه بيضا كالعرب، إلا أنه لم يوفق بنجاح، فخلفه دونمه أحمد الذي ولي (1221–1259م) فأخضع قبائل التبو ومناطق فزان. وكان خلفه ضعافا فيما بين 1225م و1385م، فتحالفت قبائل السو والبلالة على محاربة الدولة، فقتلوا أربعة من ملوكها. فحول علي دونمامي ملكه إلى مدينة برنو بنيجيريا، وحكم ما بين (1472–1504م)،[3]فأطلق عليهم اسم "سلاطين برنو"، ولم تسترد منطقة كانم إلا سنة 1507م/913هـ على يد الأمير إدريس. وفي عهد محمد بن إدريس (1526–1545م) اتسعت رقعة الدولة غربا إلى بلاد الهوسا.

ولم تزل ثورات البلالة مضطرمة إلى تولية دونمة بن محمد،الذي خلف علي بن إدريس، فأخضعهم لنفوذه، وجاء عهد ابنه عبد الله (1564–1570م) ليفتح باب المملكة لقدوم أول أفواج الفلانيين[4]. وربما يعد إدريس ألوما(ت1603م) أعظم من ذكر من الملوك، لانتصاراته الباهرة على قبائل السو،وعلى البربر في آهير بالنيجر، وقبائل المندارا وباغرمي،حتى دب الخوف في نفوس صنغاي إذ كان قد جند جيشه بالبنادق التي لما يعرفها السودانيون،وبعده ضعفت الدولة في عهد علي بن عمر(ت1684م) بثورات الطوارق والكوررفا،وبالمجاعة في عهد دونمة(ت1722م)، وبإهمال السياسة في عهد أحمد بن علي بن دونمة(ت1810م)،[5] حتى انهارت بجهاد ابن فودي.

---

(1) – المصدر السابق.

(2) – العمري: مسالك الأبصار جـ القسم الثالث من الجزء الثاني ص 194.

(3) – القلقشندي : صبح الأعشى، 116/8.

(4) – Barth : Travels, Vol. II. p. 649

(5) – Ibid. p. 659

لقد أرجأت ذكر إمبراطوريتي الحاج عمر الفوتي، وساموري توري، إلى الحديث عنهما في مقاومة الاستعمار، لأنهما لا تشبهان الإمبراطوريات السابقة، إذ لم تقم لها قوائم راسخة حتى يتوارث على عرشها الملوك، لذا فهي حركات لم تكلل بنجاح تأسيس إمبراطورية صحيحة.

7)- الممالك القَبَلِيّة:

وأما الممالك التي كانت قبلية، ومحدودة المساحة، فأهميتها قليلة مقارنة بتلك الإمبراطوريات التي كانت مترامية الأطراف، وإن كانت بعضها أوسع رقعة من بعض. ولكونها كثيرة، إذ إن كل قبيلة شكلت لنفسها نظاما ملكيا، أو على الأقل، مجلسا مؤلفا من الشيوخ وأرباب الأسر من طبقة الأجداد. وحسبنا أن نشير إشارة خاطفة إلى أشهر تلك الممالك.

أ)- ممالك حوض السنغال :

- ***مملكة جلوف Djolof:*** تقع في الوسط الغربي، أسسها "انجاجان أنجاي" في القرن الثالث الميلادي، تسكنها الولوف وبول، وعاصمتها "يانغ يانغ" ولقب ملوكها بوربا Bourba. وهي التي تحولت في عصرها الذهبي إلى شبه إمبراطورية، تخضع لها ممالك والو، وكاجور، وباوْل، وسين سالوم"، قبل أن تنفصل كل منها سنة 1555م/963هـ[1].
- ***مملكة والو Walo:*** تقع بين بودور واندار، تقطنها الولوف، عاصمتها اندارْ. و"براك" لقب ملوكها.فرضت الإتاوة على فرنسا سنة 1659م/1070هـ، واستعمرت سنة 1856م/1273هـ.
- ***مملكة كاجور Cayor :*** كانت تسيطر على أقاليم "جولوه" و"سين" و"سالوم" وكانت لامباية مقرّ بعض ملوكها،تقطنها الولوف،و"دميل" لقب ملوكها، و"لتجور" أشهر ملوكها وأعظمهم.[2]
- ***مملكة باول Baole:*** "تينج" لقب ملوكها،وآخر ملوكها تانوروب غوج مات مسموما سنة1894م
- ***مملكة سين سالوم :*** " بور" لقب ملوكها الذين بلغ عددهم 49 ملكا، آخرهم فودي نغوي[3].

ب)- ممالك فوتاطورو:

قامت في هذا القطر الشمالي من السنغال خمس ممالك رئيسة[4] :

أ - دولة جا أوقو Jaaoogo من رهط أتى من الشام حوالي (850-1000م/236-391هـ).

ب- دولة منّا Manna (1000-1300م)، عاصمتها تشكيتي،ملكها وارجاب حالف المرابطين.

ج - دولة أسرة تونجوق Tonjong (1300-1400م) من قبائل مانديغ جارا وجاوارا وسيرير.

د - دولة تاقا Taaga (1400-1537م) من الفلانيين الأقحاح، عاصمتها ميري.

ه - دولة "سلتيغ" الذين حكموا ما بين 1534 - 1776م/941-1190هـ،وكان "باه" لقبهم القبلي.

و - دولة الإمامة الإسلامية التي قامت من 1776 إلى 1891م.و"عبد القادر كنْ" أول أئمتها.

---

(1) - انجاي، محمد بمبا:أضواء على السنغال، لا.د، الطبعة الأولى، 1411هـ/1991م، القاهرة، مصر.ص 13.

(2)- Diouf, D.Lamine: Khaly Amar Fall fondateur de l Université de Pire, NIS, 1988, p 47

(3) - سيلا، عبد القادر : المسلمون في السنغال، ص 34-36.

(4) - صالح، عمر محمد: الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي.لا.د. الطبعة الأولى1413هـ/1993م.ص43-52.

ز – مرحلة الفوضى التي دامت من 1881 إلى 1891م، حيث سقطت بين مخالب الاستعمار.

أضف إلى ذلك الممالك الإسلامية التي أسسها الفلانيون في ماسينا بمالي حاليّا، وبفوتاجالون في غينيا حاليّا، وبصكتو في نيجيريا. وهناك دول أخرى أقامتها قبائل سودانية فما أكثرها منها: ممالك موسي في بوركينا فاسو حاليا، وولايات الهوسا السبع في شمال نيجيريا وولايات يوربا في جنوبها الغربي، وممالك أبومي وداهومي وبنين وأشانتي في سواحل خليج غينيا، وممالك دوغومبا وغوانجا وغرونشي بشمال غانا حاليا، ومملكة كون ساحل العاج، ومملكة باتي بغينيا.

وقد عرفت هذه الممالك غزوات دامية، أبلى فيها الأبطال بلاءهم الحسن، وسجلوا أسماءهم بمدائح شعبية ، يتغنى بمآثرهم الشعراء التقليديون، وكان من بينهم زعماء الجهاد الإسلامي. ألا تتيح أيام هذه الممالك مادة غنية لمن له قريحة فنية في قرض الشعر العربي.

ثانيا – استعمار المنطقة، ومقاومته :

لقد عانت منطقة الغرب الإفريقي اضطهاد الاستعمار الأوروبي من البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز. ويمكن أن نقسم هذه الفترة البائسة إلى ثلاث مراحل قبل أن تنال الدول استقلالها :

1)- مرحلة المفاوضات والمصالحة مع المحليين (من القرن 15 إلى 19 الميلاديين) :

لقد دفعت الأزمة الاقتصادية، التي حلّت بأوروبا في القرون الوسطى، بعض المغامرين إلى رحلات بحرية قاسية. وكان البرتغال أوائل الذين وصلوا إلى سواحل غينيا بيساو سنة 1440م وتفاوضوا مع سكانها لإبرام صفقات تجارية للحصول على العبيد والمطاط الطبيعي، ثم استقروا في جزر الرأس الأخضر التي لم تكن مسكونة سنة 1456م. واستمرت الحال هكذا مدة أربعة قرون قبل أن يبسطوا نفوذهم على الدولتين لاستعمارهما[1]، ثم واصلوا السير فرست بواخرهم على سواحل لاغوس سنة 1482م، وبنين سنة 1485م قبل غيرهم من الأروبيين[2]، وكان بينهم وبين جماعات أشانتي بغانا تجارة ناجحة في الذهب.

وجاء الفرنسيون إثر هؤلاء فأقاموا في جزيرة غوري ومدينة روفيسك سنة 1677م بالسنغال.ثم واصلوا السير فأقاموا في كوناكري بغينيا لإبرام معاهدة تجارية مع المحليين.

أما الإنجليز فـ" *في سنة 1553م وصلت أول حملة إنجليزية إلى (شواطئ نيجيريا) بقصد التجارة، ولكنها لم تنجح في هذه المرة بل مات كثير منها. غير أن الإنجليز لم يهنوا ولم يستكينوا بل استمروا في إعادة الكرة، وهكذا دواليك إلى أن كتب لهم النجاح سنة 1577م وأنشؤوا فيها أسواقا إلى جانب البرتغاليين والهولنديين الذين سبقوهم إليها. وكانت تجارتهم في*

(1) – Guinée-Bissau & Cap Vert :Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

(2) – الإلوري، آدم عبد الله: موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، لا.ط ، 1965م ، بيروت، لبنان. ص 84.

بادئ الأمر مقتصرة على العاج والفلفل وزيت النخيل وبذوره والنخاسة التي ظلت زمنا أكبر مورد للثراء الإنجليزي حتى سنة 1807م التي ألغوا فيها النخاسة"[1]. وكان قبطان وندهان الإنجليزي أول من وصل إلى سواحل بنين سنة 1553م لإنشاء صلة تجارية بين الطرفين[2].

2)- مرحلة الصراع والمقاومة (في القرن التاسع عشر الميلادي) :

منذ سنة 1808م بسطت إنجلترا سيطرتها على سيراليون، ولم تلق فيها مقاومة كبيرة.
وفي شمال غربي غانا كانت دولة غرونشي الإسلامية، التي أسسها الفقيه غزاري (تـ1880م) من الزبرما النيجرية ، تقف أمام الزحف الإنجليزي المتوغل في أرجاء الدولة، بقيادة خليفته محما طن باباتو الذي جمع جميع القبائل الشمالية ليقوموا بانتفاضة ثورية ضد المستعمر، إلا أنه وجد نفسه بين مخالب المستعمرين الألمان شرقا، والفرنسيين شمالا ببوركينا، والإنجليز من الجنوب، فضعفت قواته أمام هذه الجبهات الثلاث، فاستشهد على أيديهم[3].

وفي نيجيريا كان كوسوكو ملك لاغوس صامدا ضد نفوذ الإنجليز وسياستهم الماكرة في السيطرة على المدن، فلم ينتصروا عليه إلا بإيقاد نار الفتنة بينه وبين أخيه أكنتويى، فتنازعا على العرش، وكان النصر حليف عميل الإنجليز، ومن هنا سقطت لاغوس تحت أقدامهم سنة 1862م، فانفتح أمامهم الباب ليتغلغلوا في أرجاء البلاد[4]، حتى أخضعوا سلطنة صكتو بالشمال.

وبدأ الفرنسيون الاستعمار العسكري سنة 1816م[5] ضد المقاومين المحليين، في مختلف الممالك السنغالية، وربما كان لتجور(1842-1886م) ملك كجور أكبر من أذاق الفرنسيين هزائم كثيرة قبل أن يقضوا عليه. أضف إليه الشيخ المجاهد الإسلامي ما به (تـ1867م)، وأحمد شيخو التجاني (تـ1875م)، كلهم أبطال استحقوا إشادة الشعراء السنغاليين بجهادهم ضد الفرنسيين.

ومن غينيا العليا إلى ماسينا في مالي كانت انتصارات الحاج عمر تال الفوتي (1795-1864م) متواصلة. قاتل بالسيف وناضل بالقلم، حتى فتح مدينة سيقو، وماسينا، ونشر التجانية بعد عودته من الحج في ربوع المنطقة التي زارها من نيجيريا إلى غامبيا. إلا أن الحظ لم يحالفه لكي يؤسس إمبراطورية ذات قوائم ثابتة.[6]

وبعده أخذ ساموري توري (1835-1900م) لواء المقاومة، فانطلق من جنوب شرقي غينيا لتشمل سيطرته شمال ساحل العاج، وضواحي سيكاسو بمالي، واستمر الصراع بينه وبين الجيش الفرنسي18 سنة(1880-1898م)،قبل أن يؤسر وينفى إلى غابون سنة1898م حيث مات سنة1900م

وقد سجل كثير من الزعماء أسماءهم في سجل البطولات ، أمثال محمد الأمين درامي في

---

(1) – المصدر السابق، ص 38-39 (2) – المصدر نفسه، ص 70.

(3) – باري، عثمان برايما: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي،دار الأمين، الطبعة الأولى2000م،القاهرة. ص37

(4) – الإلوري، آدم عبدالله : موجز تاريخ نيجيريا، ص 39. (5)– انجاي،محمد بمبا:أضواء على السنغال،ص13.

(6) – باري،عثمان برايما:جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي،ص188.

صحراء مالي،وبَهانْزي في بنين،وملكة أشانتي في غانا،وجماعات باوْلي وبيتي في ساحل العاج.

وانتهت هذه المقاومات بين المحليين والمستعمرين إلى صراعات دامية بين الأروبيين أنفسهم، وكادت تخمد نيران هذا الصراع بينهم بمؤتمر برلين في ألمانيا سنة 1884م بين الدول الأروبية المستعمِرة، فقسّم زعماؤها أراضي المنطقة بين أنفسهم كأنهم ورثوها عن آبائهم. لكن الصراع استمر بينها : فتقاتلت فرنسا وإنجلترا على غامبيا سنة 1889م، كما كانت بينهما مناوشات في سيراليون وغينيا. وكانت توغو ساحة خلاف مرير بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، انتهى إلى أن قسمتها الأخيرتان بينهما بعد هزيمة ألمانيا سنة 1918م. ومن هنا أعلنوا الاستعمار التام على المنطقة بعد أن قسموها حسب أهوائهم إلى دويلات دون مراعاة المجموعات العرقية والدينية.

وأصبحت سيراليون سنة 1787م، وغامْبِيا سنة 1889م، وغانا سنة 1898م، ونيجيريا سنة 1914م مستعمراتٍ إنجليزية. كما أصبحت غينيا سنة 1893م، وداهومي سنة 1900م، والسودان الفرنسي سنة 1904م ــ مالي حليا ــ ، وساحل العاج سنة1904م، وتوغو سنة1918م، والفلتا العليا سنة 1919م، والنيجر سنة 1921م، مستعمَراتٍ فرنسية.

وما حلّ القرن العشرون إلا وقد استُعمِرت جميع دول المنطقة سوى ليبيريا التي كانت مستقلة منذ سنة 1841م بعد هجرة العبيد المعتقين إليها من أمريكا سنة 1821م.

3)- مرحلة الاستقرار والاضطهاد (في القرن العشرين الميلادي) :

عرف هذا العصر بعصر الأعمال الشاقة في مزارع الفول السوداني بالسنغال مثلا، وحقول الكاكاو بساحل العاج مثلا، وفي مناجم الذهب بغانا وغينيا مثلا، وتعبيد الطرق والسكك الحديدية من دكار إلى بماكو، ومن آبدجان إلى واغادوغو، وداخل غينيا وبنين ونيجيريا. كما عرف بالاستهتار بالنساء، وبالتجنيد المفروض على الرجال للقتال تحت لواء فرنسا خلال الحربين العالميتين الأولى (1914-1918م) والثانية (1939-1945م)، وفي الحربين الجزائرية والإندونيسية سنة 1954م. وما زال المحاربون القدماء يطالبون بحقوقهم،وقد كان جزاء بعضهم "جزاء سِنِمّار" في تياروي - مثلا - بالسنغال بعد أن أبلوا بلاء حسنا في تحرير فرنسا من مخالب النازية.

وبعد استقرار الفرنسيين في السنغال،جعلوا هذه المدن الأربع:غوري،وروفيسك،وسان لويس، ودكار، بلديات فرنسية، يتمتع أهاليها بجميع حقوق الفرنسيين،[1] ثم أصبحت دكار عاصمة المستعمَرات الفرنسية في غرب إفريقيا، فيها حاكم المستعمَرات، وفي كل دولة حاكم تابع له.

وفي هذه المرحلة أنشأ الفرنسيون مدرستين ، إحداهما في "سان لويس" لتكوين إداريين من الأفارقة ، والثانية في "كايْ" بمالي لتكوين القضاة والمترجمين، مع احتفاظهم بالمحاكم الإسلامية المنتشرة في البلاد قبل مجيئهم، وكانت اللغة العربية مستعملة في الدواوين آنذاك.[2]

(1) - المصدر السابق، ص17.

(2) - المصدر نفسه، ص17.

وفي سنة 1914م تم انتخاب أول إفريقي في البرلمان الفرنسي وهو السنغالي بلاز جانج Blaise Diagne (1872-)، وجاء بعده غلاندو جوف سنة 1934م. وفي أواخر هذا العصر اتحدت المستعمرات الفرنسية تحت " *التجمع الديمقراطي الإفريقي Rassemblement Democratique Africain* " سنة 1946م لمطالبة فرنسا بالاستقلال ، وكانت له فروع في جميع الدول المستعمَرة الفرنسية، وفي الوقت نفسه كانت فرنسا تقترح الانضمام إلى " الوحدة الفرنسية " التي تشمل فرنسا ودول ما وراء البحار، فنظمت انتخابا استفتائيا بالخصوص في جميع مستعمَراتها.

وأما انجلترا فاهتمت بالتنظيم القضائي والإداري حيث كان القانون البريطاني شاملا لنيجيريا إلا في الإقليم الشمالي، ثم أسست "مجلس الشورى الحكومي " سنة 1920م، كما اهتمت بالتعليم بجانب تلك الحياة البائسة من الأعمال الشاقة، فأنشأت أولى جامعة في سيراليون. وفي نيجيريا كان التعليم الإنجليزي قد بدأ على أيدي المبشرين منذ 1841م، ثم أنشئت أول مدرسة عالية، هي كلية يابا الحكومية سنة 1934م، قبل إنشاء أول جامعة في نيجيريا بمدينة إبادن سنة 1948م، وما حلت سنة 1957م حتى بلغ عدد المدارس 16708 مدرسة.

وكانت البرتغال تفرض الأعمال الشاقة في الحقول والمزارع على مستعمَراتها ، لأن تجارة الرقيق ألغيت منذ 1848م، ولم تكن لها في المنطقة سوى مستعمَرتين، ولم يكن التعليم من أولويات اهتماماتها.

ثالثا- استقلال دول المنطقة وظروفها السياسية :

بعد مؤتمر برازافيل بين فرنسا ومستعمراتها سنة 1944م، أنشأت فرنسا ما أسمته "الاتحاد الفرنسي " لتكون مستعمراتها تابعة لها تحت جمهورية واحدة، فأسس زعماء الدول الإفريقية في مؤتمر بماكو 1946م " *التجمع الديمقراطي الإفريقي*"، وكثرت الأحزاب السياسية في جميع المستعمَرات، تتعارض بين الانضمام إلى " الاتحاد الفرنسي " وبين الاستقلال التام، فاضطر الجنرال ديغول سنة 1958م إلى إنشاء " الوحدة الفرنسية "بدلا من" الاتحاد الفرنسي" لتمنح الدول الأعضاء شيئا من الاستقلال الذاتي، ولتبقى السياسة العامة تحت قيادة فرنسا الأم، فنظمت انتخابات استفتائية بالخصوص سنة 1958م، فحظيت أصوات "نعم" للانضمام بالفوز في جميع المستعمرات سوى غينيا التي انتصر "الحزب الديمقراطي الغيني PDG " بأصوات " لا " تحت قيادة أحمد سيكو توري، فأصبحت الدولة أول المستعمرات الفرنسية استقلالا سنة 1958م[1]. ثم بدا لفرنسا سنة 1960م عدم صلاحية "الوحدة الفرنسية" ففتحت باب الاستقلال للمستعمَرات ، فاستقلت سائر الدول في السنة نفسها : مالي برئاسة موديبو كيتا (1960-1968م) ، والسنغال برئاسة الميلادي ليوبولد سيدار سينغور (1960 - 1980م) ،

(1) – Communauté Française :Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA

وساحل العاج برئاسة فيليكْس هوفوت بوانيي (1960–1993م)، وتوغو برئاسة سيلفانوس أوليمبيو (1960– 1963م)، والفلتا العليا برئاسة موريس ياميووغو (1960–1966م) قبل أن يعدل اسمها إلى بوركينا فاسو سنة 1984م في عهد رئيسها السادس توماس سنكارا (1984–1987م)، وداهومي على يد هوبير ماغا (1960–1963م) قبل أن يعدل اسمها إلى بنين سنة 1975م في عهد رئيسها التاسع ماتيو كيريكو،والنيجر برئاسة هماني ديوري (1960–1974م).

واستقلت عن بريطانيا: غانا سنة 1957م، ونجيريا سنة 1960م، وسيراليون سنة 1961م، وغامبيا سنة 1965م. كما استقلت عن البرتغال : غينيا بيساو مع الرأس الأخضر سنة 1975م تحت جمهورية واحدة، قبل أن تنفصلا سنة 1980م.

استقلت جميع هذه الدول بنظام رئاسي ، سوى نيجيريا التي أخذت بالنظام الفيدرالي، واتخذت لغة المستعمِرين لغات رسمية في مختلف القطاعات الإدارية، وإن كانت اللغات المحلية ما زالت تغلب على تلك اللغات الأوروبية في الأسواق والشوارع إلا في ساحل العاج.

وألغى جميع رؤسائها الأوائل تعدد الأحزاب السياسية التي كانت معروفة قبل استقلال الدول، فعرفت الجمهوريات الأولى نظاما استبداديا، يزج في السجن كل معارض، فلا حرية للصحافة، ولا للشعب. ومن هنا كثرت الانقلابات العسكريّة، والثورات الشعبية، والحروب الأهلية، كرد فعل لمثل هذه السياسات الدكتاتورية. واتجه بعض الرؤساء إلى أنظمة سياسية متباينة من اشتراكية في غينيا، ومالي، وشيوعية لينية في بنين، ورأسمالية في ساحل العاج مثلا.

ففي الستينات شهدت كل من توغو، وبنين، وغانا، وبوركينا فاسو، ونيجيريا، وسيراليون ومالي، انقلابات عسكرية ضد رؤسائها الأوائل، وتوالت هذه الانقلابات بعد ذلك في بعض الدول كثرة، حتى لتشبه السلطة بلحم بين الكلاب، مثل بنين وبوركينا ونيجيريا وسيراليون، التي سجل تاريخها السياسي أكثر من سبعة أو عشرة رؤساء تناوبوا على العرش، وبالعكس نجد على غامبيا الآن رئيسها الثاني، وعلى غينيا رئيسها الثاني. وكانت أكثر هذه الانقلابات تقضي أحيانا على أرواح كثيرين من الجنود والأبرياء، كما أدت بعضها إلى حروب دامية كحركات انفصالية لاستقلال منطقة عن الدولة، كحرب "بيافرا" (1967–1970م) في نيجيريا، وحرب كزامانس في السنغال التي اندلعت منذ سنة 1980م. وقد تفاقمت بعض تلك الحركات إلى حروب أهلية خربت البلاد ، وكثرت مجزرة القتلى في جميع المدن والقرى التي يمر بها الجنود كالحروب الأهلية في ليبيريا سنة 1990م، وفي سيراليون سنة 1991م.

ولم تخمد نار هذه الانقلابات إلا في التسعينات، بعد أن فرضت الدول الغربية المستعمرة على دول المنطقة الاعتراف بالأحزاب المعارضة، وتطبيق الديمقراطية الصحيحة بتنظيم انتخابات حرة، وغير مزيفة، على مستوى الرئاسة والبرلمان، هكذا عرفت هذه الدول ما أسمته بالديمقراطية التي أثمرت أولا في بنين، ثم مالي، والسنغال، والنيجر، ونيجيريا، وغانا، ومازالت

بعضها يطالب فيها المعارضون حتى الآن بانتخابات صحيحة، ورؤساؤها يحكمون الشعب ظلما باسم الديمقراطية،حتى عرفت مثل هذه الأنظمة في الصحافة العالمية بـــ "الديمقراطية الإفريقية".

وعلى الرغم من ارتفاع نسب المسلمين في بعضها، إلا أن دساتيرها نصت على علمانية نظامها السياسي، واعتمدت الأعياد الميلادية كأعياد وطنية رسـمية، قبـل أن تحـصل سـائر المناسبات الإسلامية ترخيصها كعيد وطني في بعض الدول. كما تنص المادة الأولى من دستور السنغال، وفيها نسبة 90% من المـسلمين : " *إن جمهوريـة الـسنغال علمانيـة وديمقراطيـة واجتماعية تكفل المساواة أمام القانون لجميع المواطنين...*"[1].

أما في السياسة الخارجية فإن كثيرا من الاتحادات والمنظمات الإقليمية أنشئت بين الدول:

- فيدرالية بين السنغال ومالي والفلتا العليا وبنين فلم تعش طويلا،
- اتحاد السنغال ومالي ما بين (1959–1960م).
- اتحاد السنغال وغامبيا ما بين (1981–1989م).
- اتحاد غانا وغينيا ومالي سنة 1960م، والذي بدأ باتحاد غانا وغينيا سنة 1958م.
- الوحدة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا (CEDEAO) سنة 1975م بـين جميـع دول المنطقة، ولها دور أساسي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية.
- البنك المركزي لدول غرب إفريقيا (BCEAO) الذي يشرف على العملـة الموحـدة ــ فرنك سيفا Franc CFA ــ بين الدول المستعمرة الفرنسية سوى غينيـا، وهـي: السنغال، ومالي، وبوركينا فاسو، وساحل العاج، وتوغو، وبنين، والنيجر. وانضمت إليها غينيا بيساو، المستعمرة البرتغالية، سنة 1997م.
- الاتحاد الاقتصادي والنقدي لغرب إفريقيا (UEMOA)، لكن أعضاءها محصورة بين الدول ذات (الفرنك سيفا) عملة.
- وجميع دول المنطقة أعضاء في الاتحاد الإفريقي منذ 1963م، وفي الأمم المتحدة.

رابعا – الحياة الاقتصادية في المنطقة :

من المعلوم أن بعض القبائل الإفريقية احترفت ببعض الحرف اليدوية : كالحدادة والخزافة والحياكة والسكافة والصيد، ويدل هذا على عناية الرعية بحياتها الاقتصادية، وعلى نظام اقتصادي في الحياة اليومية التي كانت "المقايضة " نظامها التجاري في تلك الأسواق الأسبوعية التي تتناوبها القرى المجاورة خلال أيام الأسبوع. وبجانب المقايضة كانت هنا عملات محلية من ذهب غير مختوم[2]، مع تداول الدنانير المصرية والمغربية بين الناس في مملكة مالي. كما عرفوا النقود الفضية والنحاسية[3]والحديدية[4]،والودع والمنسوجات القطنية كانت عملات شائعة.

(1) – إنجاي،محمد بمبا: أضواء على السنغال، ص 20. (2) – البكري :المغرب في أخبار إفريقيا والمغرب، ص 181.
(3) – ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ،ص 453. (4) – الوزان:وصف إفريقيا،دار المغرب،ط2،لا.ت،بيروت.163/2

وبتوفر مثل هذا النظام المالي عرفت المنطقة حركة نشطة في التجارة الصحراوية التي بدأت بالتجارة الصامتة في المقايضة بين الذهب والملح ، قبل أن تشق القوافل التجارية طرقا إلى مناطق كثيرة ، ومن هذه الطرق :

1.- طريق المغرب الأوسط من تلمسان في الجزائر إلى توات فتِنْبُكْتُو وجاو.

2.- طريق لمتونة من المغرب الأقصى على سواحل المحيط الأطلسي إلى حوض نهر السنغال.

3.- الطريق الغربي ويمتد من سجلماسة إلى ولاته ثم إلى تِنْبُكْتُو وجني وجاو.

4.- طريق طرابلس الغرب إلى غدامس، ومنها فرع إلى إقليم آهير في النيجر، وفرع آخر إلى فزان ينتهي إلى بُرنو.

5.- طريق من مصر مارا بواحة سيوة، وزويلة، فتادمكة، فجاو، إلى تِنْبُكْتُو.

6.- طريق القيروان بتونس إلى نكيدة ، ومنها إلى كنو Kano في بلاد الهوسا بشمال نيجيريا.(1)

ومن السلع التي كانت تحملها القوافل إلى المنطقة : الأقمشة، والزرابي، والسيوف، والمرايا، والكحل، والسكر، والبهارات، والعطور، والتمور، والزبيب، والكتب،والورق، والخيوط، والإبر، والأصداف،والخرز، والأسورة، والخواتم، والودع، والفخار، والأدوات الخزفية، والتحف المعدنية.ثم تعود بتصديرات المنطقة: كالتبر، والنحاس، والحديد، والعاج، وريش النعام، والجلود،والعسل، والقطن، والصمغ، والفول، والكولا، والدخن، والأبنوس، والمواشي، والزبد.(2)

وهذا ما يؤكد أن المنطقة غنية بالمعادن الطبيعية التي ذكرناها آنفا، والتي كشفتها الأبحاث العلمية حديثاً، فظهرت نيجيريا في الترتيب السادس في البترول دوليّا، وقيلت عن أراضي غينيا أنها تحوي ثلث المخزون من البوكسيت عالميّاً، وكانت غانا تدعى باسم "ساحل الذهب" لكثرة مناجم الذهب فيها قديماً، وعرفت سيراليون وغينيا بألماسهما الثمين كثيرا، وعرفت النيجر بثرائها في الأرانيوم دوليّاً.

واعتمدت الحياة الاقتصادية كذلك في دول سواحل المحيط على الزراعة لخصوبة أراضيها، وغزارة الأمطار فيها، فنالت أسواق ليبيريا رواجا في الخشب والمطاط الطبيعي، وتوجت ساحل العاج بالرتبة الأولى في إنتاج الكاكاو بالأسواق العالمية وفي إنتاج البن على مستوى القارة، وما زالت السنغال تصدر آلاف من الأطنان من الفول السوداني سنويا، وتعدّ مالي الآن أول دول المنطقة في زراعة القطن ، تليها بوركينا فاسو، ثم بنين.

وكانت للمواشي في بوركينا، ومالي، والنيجر أسواق رائجة في الدول المجاورة على مدار السنة: من أبقار وأغنام وماعز ودواجن. أضف إلى ذلك صيد الأسماك في دول سواحل المحيط.

(1) – راجع:زيادية، عبد القادر:مملكة سنغاي في عهد الإسيفيين1493–1592م. الشركة الوطنية ، د.ط، د.ت،الجزائر، ص214. وعوض الله، الشيخ صالح: العلاقات بين المغرب والسودان الغربي،دار المجمع العلمي، 1979م، جدة، ص125.

(2) – الماحي، عبدالرحمن عمر:مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي، مقالة في حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد 4، سنة 1419هـ/1998م.

وقد أثرت حرية التجارة بين دول المنطقة تأثيرا كبيرا في تنشيط حركة التجارة بين سواد الناس، خاصة بين النساء اللائي لا يقعدن عن التجارة إلا لثراء أزواجهن، وقد تعاب المرأة على قعودها بلا تجارة بين جماعات يوربا مثلا، ورجال الهوسا والسوننكي والولوف ومانيكا وزرما مولعون بالتجارة أكثر من جماعات موسي الفلاحين ببوركنيا، وأشانتي الصياغين بغانا، وبوصو الصيادين بمالي مثلا.

وفي العصر الحديث نشطت التجارة العالمية، عند ظهور رجال الأعمال الذين تخصص بعضهم باستيراد البضائع من الخليج العربي، أو من أمريكا، أومن دول آسيا كالصين واليابان، أو من الدول الأوروبية المختلفة. وأكثر ما يستوردون يتمثل في الأزياء، والأقمصة الأوروبية المستعملة، والأجهزة الإلكترونية، والسيارات المستعملة، بل من المحصولات الزراعية كالأرز، والمعلبات والمشروبات وسائر المستهلكات اليومية.

وهل رفع هذا النشاط التجاري مستوى اقتصاد الدول؟ بلى ، وذلك في نيجيريا وساحل العاج وغانا والسنغال، تلك التي يهاجر إليها تجار الدول المجاروة. ورغم كون اقتصاد هذه الدول في نمو محمود، إلا أنها تعاني مع سائر الدول من ثقل الديون العالمية، ومن سوء الظروف المعيشية لرعاياها، لأن الفرد يعيش يوميا على ما دون دولار واحد، ولكونها تستورد أكثر مما تصدّر. وتعدّ النيجر وليبيريا وسيراليون وغينيا بيساو، وبوركينا فاسو، من أفقر دول العالم.

ورغم هذا النشاط المزدهر من التجارة فإن الشعب ــ على تفاوت بين الدول ــ ما زال يعاني من الفقر والأمراض والقحط ، بل ومن الأزمة الاقتصادية التي تعم البلاد أحيانا، كما شهدت نيجيريا سنة 1983م أزمة خطيرة اضطر رئيسها آنذاك "الحاج شيخو شغاري" إلى طرد الأجانب وإجلائهم من الدولة.

وعلى الرغم من تفشي الفقر بين الرعية، فإن بعض رجال الأعمال ابتسمت لهم الدنيا فأصبحوا أثرياء على مستوى دولهم والقارة، بل منهم من يستطيع أن يصطف في صفوف أثرياء العالم كرئيس ساحل العاج الأسبق فيلكس هوفوت بوانيي، الذي بنى ثانية كبريات الكنائس على مستوى العالم على نفقته الخاصة حسب زعمه. وفي نيجيريا يكثر أمثال هؤلاء الأثرياء.

وإن كانت السنغال وغينيا بيساو ومالي وبوركينا فاسو والنيجر وتوغو وبنين قد اشتركت في عملة واحدة، كالفرنك سيفا"، فإن غيرها انفردت بعملات خاصة : كالفرنك الغيني في غينيا، والدالاسي في غامبيا، والدولار في ليبيريا، والليون في سيراليون، والسيدي في غانا، والنيرا في نيجيريا. ويجد التجار حرية الصرف في البنوك وفي ا لأسواق العامة بين هذه الأوراق النقدية.

وخضعت كل هذه الدول الآن لنظام الرأسمالية بعد سقوط الجبهة السوفيتية، وبعد أن ذاقت بعضها مرارة التخلف الاقتصادي تحت تجربتها للنظام الاشتراكي، أمثال مالي وغينيا. فإن عنان النظام الاقتصادي في المنطقة بيد البنك العالمي، وصندوق النقد الدولي.

الفصل الثاني

الشعر العربي في الأدب الإفريقي

المبحث الأول : التعريف بالأدب الإفريقي

المبحث الثاني : التعريف بالشعر العربي الإفريقي

المبحث الثالث : أعلام الشعر في هذه الدراسة

المبحث الأول : التعريف بالأدب الإفريقي

أولا – مصطلحه ومراحله :

قبل تعريف " الأدب الإفريقي" اصطلاحا، يستحسن أن نقدّم تعريفا لغويا عن كلمة الأدب، دون كلمة " الإفريقي" التي سبق تعريفها آنفا في الفصل الأول.

والأَدَب في اللغة بمعنى الظَّرْفُ، والعَجَبُ ، وحُسْنُ التَّناوُل.[1]وأصله الصنيع الذي يدعى إليه الناس، ومنه المأدبة أي المدعاة، وفي الحديث عن ابن مسعود: ﴿ *إنَّ هذا القرآنَ مَأْدَبةُ اللهِ في الأَرض فتَعَلَّموا من مَأْدَبَتِهِما ان استطعتم...*﴾ [2] والآدب أي الداعِي إلى الطعام. قال الشاعر:

نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعُو الجَفَلى ** لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِر[*]

وأَدُبَ الرَّجلُ يَأْدُبُ أَدَباً، فهو أديب. والأَديبُ من الناس من يَأْدِبُ الناسَ إلى المَحامِد، ويَنْهاهم عن المقَابِح. وقولك : أَدُبْتُ آدُبُ أَدَباً حسناً، وأَنت أَدِيبٌ.[3]

وتعريفه الاصطلاحي قريب من معناه اللغوي، لأنه كما يقول محمد النويهي :« *هو الإنتاج البشري الذي يعبر بواسطة الكلمات اللغوية عن عاطفة منتجه نحو الوجود وموقفه منه تعبيرا منظما مقصودا يثير في متلقيه نظير ما أثاره الوجود في منتجه من عاطفة وموقف*» [4]

وأما تركيب "*الأدب الإفريقي*" فكأنه يدل على " أدب القارة الإفريقية " مع ما فيها من شعوب متباينة من سودانية وعربية لا تنتمي لغاتها في الأصل إلى وحدة لغوية ، وهذا ما لا يقوله به أحد من الباحثين الأفارقة والمستفرقين[6]. وربما هذا لمن يعطي للمصطلح مفهوما جغرافيا عاما، وكأنه يقابل قولنا : أدب أوروبي، وأدب آسيوي.

وأما إذا أردنا الدقة ، والميل إلى ما أجمع عليه المولعون بهذا الميدان فإنه يقتصر على إنتاجات أدباء المناطق الواقعة جنوبَ الصحراء الكبرى حتى التقاء القارة بالمحيط في أقصى جنوبها ــ من السنغال إلى جنوب إفريقيا ــ وأدب زنوج الكاريبي بأمريكا الجنوبية.[5] وإن كان في هذا ميول عصبية، إلا أن الانتماء الأصلي إلى الوحدة اللغوية والعرقية والعقلية والحضارية القديمة هو مبرر هذا التعريف،الذي يمكن أن أصوغه بقولي : *إن الأدب الإفريقي هو كل ما أنتجه أديب ينتمي إلى بيئات إفريقيا الغربية والوسطى والجنوبية والكاريبي من أدب شفهي أو كتابي، يعبر عن أفكاره في قضايا الحياة بأسلوب مؤثر في نفوس المستقبلين له.*

---

1) – الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، مادة " أدب ". (*) – البيت لطرفة بن العبد الشاعر الجاهلي المعروف.

2) – رواه الدارمي في سننه، تحت رقم 3181، في باب فضل من قرأ القرآن، من كتاب فضائل القرآن.

3) – ابن منظور: لسان العرب، مادة "أدب".

4) – أبوبكر، محمد أول: محمد النويهي والنقد الأدبي، دار أبا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، كانو، نيجيريا.

5) – شلش،علي: الأدب الإفريقي، ص 12. (6)– المستفرق: هو المتخصص في الدراسات الإفريقية.

واقتصرنا على شعوب إفريقيا الغربية والوسطى والجنوبية وأمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي لأنها تنتمي إلى وحدة لغوية تسمى " الكونجو كردفانية "، ثم إن العادات الاجتماعية والظروف التاريخية تجمعها في ظل مواقف فكرية متشابهة. وابتعادا عن إثارة (العنصر العرقي) في التعريف يفضل الباحثون (الأدب الإفريقي) على " الأدب الزنجي"، كي لا يكون " اللون الأسود " هو أساس هذا الأدب، علما بأن التصاهر بين أهالي الدول المتاخمة للصحراء الكبرى قد جعل اندماج السوادين مع البياضين أمرا شائعا في كثير من العشائر.

وأما عن المراحل التي مرّ بها الأدب الإفريقي في هذه الحقبة التاريخية فيمكن أن نجملها ـ من غير تفصيل ـ في ثلاث مراحل أساسية :

1. ***مرحلة الآداب الشفهية التقليدية :*** هي الآداب الشعبية التقليدية التي عاشتها الشعوب قبل وصول الإسلام والاستعمار الأوروبي إلى المنطقة، وما زال يعيشها الأفراد في القرى حتى العصر الراهن، وهي غنية بالفنون الفُلْكُلورية المتباينة من أغان وأناشيد وأشعار شعبية، ومن قصص ومسرحيات وأمثال وحكم وألغاز نثرية.
2. ***مرحلة ما بعد وصول الإسلام إلى الآن :*** وإن كان من الصعب أن نحدد بدايتها بسنة معينة إلا أن القرن الثاني الهجري الموافق للقرن الثامن الميلادي هو انطلاق " أدب إفريقي إسلامي " يدون باللغات المحلية أو باللغة العربية، والشعر جل إنتاج هذا الأدب، الذي منه موضوعنا الرئيسي في هذا المؤلّف.
3. ***مرحلة استعمار دول المنطقة إلى ما بعد استقلالها :*** وذلك من القرن التاسع عشر الميلادي إلى الآن . وفي هذه المرحلة شهد الأدب الإفريقي مؤثرات أدبية وافدة في فنونه، فأصبح الأدباء يكتبون آدابا إفريقية باللغات الغربية (كالإنجليزية والفرنسية والبرتغالية) من قصة قصيرة وأقصوصة ورواية ومسرحية وشعر، لذا يمكن أن يتفرع "الأدب الإفريقي" إلى " أدب إفريقي إنجليزي، وأدب إفريقي فرنسي، أدب إفريقي برتغالي "، أو أن نجملها في مصطلح " الأدب الإفريقي باللغات الأروبية".

وسنقف على تفاصيل الأجناس الأدبية لهذه المراحل لاحقا، وأسماء الأعلام الذين أدوا دورا رياديا في هذه الميادين المختلفة.

ثانيا – أجناسه، وموضوعاته، وأعلامه :

سيرا على الأقسام التي تفرع إليها " الأدب الإفريقي " عبر مراحله التاريخية يمكن أن نقف على كل قسم بغية الكشف عن تطوره، وفنونه المختلفة، وموضوعاته المتباينة ، وأعلامه الذين أسهموا فيه . وها هي الأقسام الأربعة :

1)- الأدب الإفريقي الشفهي التقليدي **2)- الأدب الإفريقي باللغة العربية.**

3)- الأدب الإفريقي باللغات المحلية **4)- الأدب الإفريقي باللغات الأوروبية.**

1) –الأدب الإفريقي الشفهي التقليدي :

يعد هذا الأدب أقدم الأنواع الأدبية في إفريقيا ، وهو أدب شفاهي خالص، يرجع تاريخه إلى بداية وجود الإنسان الإفريقي في بيئته الأصلية الحافلة بنشاطات أدبية، وهي في صورتها الفطرية الشعبية التقليدية،وهذا ما يعرف اليوم بالفلكلور، وأنواعه ذات كثرة نذكر منها ما يلي:

1. الشعر الشعبي :

هي تلك العبارات الشاعرة في ألفاظها ومعانيها،تجري على إيقاع تقليدي، تعبّر عن مفهوم الجماعة التي ينسب إليها مثل هذه الأشعار.ولا اعتبار للفردية في الجماعات القبلية في إفريقيا. أما موضوعه فيستقى من الموروثات الثقافية والعادات الشعبية التي يعيشها أفراد القبيلة منذ قرون متعاقبة. والجدير بالذكر أن أنواع الشعر الشعبي كثيرة يصعب إحصاؤها في هذا الفصل،فضلا عن أن نحاول بيان الظروف التاريخية التي نشأ فيها كل صنف من هذه الأنواع:

أ – ***الأغاني الشعبية:*** هي تلك الأناشيد التي يتغنى بها الأفراد في الحياة اليومية في المجتمعات التقليدية بالمنطقة، في لغة سهلة سلسة، يفهمها كل من يجيد لغتها، وينشدها كل من يميل إليها، مضمونها الإشادة بالفضائل الاجتماعية القبلية، غرضها تسلية الناس من كبت الأعمال اليومية، غايتها تربية المجتمع بالأعراف التقليدية. وأنواعها متباينة، يمكن أن نجملها في : أناشيد الهدهدة من الأمهات لتنويم الأطفال، وأناشيد الأولاد في ألعابهم التقليدية، وأغاني المناسبات الشعبية من زفاف وعقيقة وجنازة وحصاد وبذر. ومنها :

* لوحة من الشعر الشعبي السنغالي تعكس رؤى العامة للشيخ العالم من آل سيسي :

"أنت سيسي، درست كل العلوم ،
تصلي ليلا وتسهر كل الليالي ،
ترص صفوف جموع المصلين،
في كل يوم تصلي، وكل جمعة تؤم ،
أنت مبجل، تصوم وتخرج الزكوات ،
عند مسألتك، لا تجيب إلا بما يقول المليك" [1]

* ومنها هذه الأغنية لأطفال قبيلة صوصو في غينيا :

" في هذه الدنيا شيء،
يزيد في الحلاوة ... على جميع الأشياء الأخرى،
هو أحلى من الشهد... أحلى من الملح ... أحلى من السكر،
أحلى من كل شيء، هذا الشيء هو النوم[2] ".

---

(1) – سيلا، عبد القادر : المسلمون في السنغال، ص 123

(2) – شلش، علي: مختارات من الأدب الإفريقي،سلسلة عالم المعرفة العدد171،الطبعة الأولى، 1993، الكويت. ص 119.

ينشد الأولاد مثل هذه الأناشيد في القرى والليالي مقمرة، بأصوات لهو ولغو في رقص وطرب، تعبيرا عن مشاعرهم وعواطفهم نحو "جنة الطفولة" التي يتمتّعون بها في حياتهم مثل النوم.

ب – ***القصائد الشعبية:*** هي تلك الأشعار التي لا ينشدها سوى شعراء تقليديين في المجتمع، لأن ألفاظها جزلة، ومعانيها فخمة، ومكانتها عظيمة، وإلقاؤها محدد بمناسبات شعبية معينة، وأنواعها كثيرة، منها: قصائد التشريف كقصيدة "تارا" لمدح الحاج عمر تال الفوتِيّ، وقصيدة جانْجو في مدح فاكولي كوروما في مالي وغينيا، ولا يرقص على مثل هذه القصائد إلا عليّة القوم. ومنها الملاحم الشعبية التي يصاغ مضمونها من الأحداث البطولية،ولا يرويها إلا أديب تقليدي في لغة فنية رائعة : كملحمة سونجاتا مؤسس إمبراطورية مالي القديمة التي ترجمها إلى الفرنسية جبريل تامسير نيانْ من شاعر تقليدي سنة 1960م، فنقلتُها إلى العربية.

ومنها قصائد كل فئة من طوائف الحدادين والصيادين والحذائيين والخزافين والنساجين، ولكل فئة شعراؤها يتولون إنشاد قصائدها في المناسبات الشعبية، كقصائد " فاراكورو" للحدادين، و"جاسا " للصيادين في ماندي بمالي وغينيا. وإليك نص " فاراكورو" بمعنى الصخرة :

تحرك يا " فاراكورو" ،

بيدك يتحول الحديد، والقصدير، والبرونز، والذهب،

طرق الحديد يا " فاراكورو"، والفضة، والرصاص ،

بدونك لا فأس، ولا عتلة ، ولا محراث، ولا سكين ".

ج – الأشعار الابتهالية :

هي تلك الأشعار التي يتوسل بها إلى القوى غير العادية ، وهي شائعة بين سواد المجتمع، لا تكاد تجد لألفاظها طلاوة الشعر، ولا فصاحة الأسلوب، ولا يقوم بإنشادها غير أصحابها، ومن أنواعها : الأشعار الرعوية التي ينشدها الرعاة عند غدو المواشي ورواحها حفظا لها من الأرواح الشريرة، ومنها أشعار الرقي التي يرددها الكهنة للتداوي وللحرز من الأشرار، ومنها أشعار التعزيم لمناسبات الختان والخفض التي ينشدها الفتية والفتيات في الغابات المنعزلة، فيها تعاليم التقاليد القبلية، والعادات الاجتماعية. ومنها شعر الجمعيات السرية التي ينتمي إليها السحرة والساحرات في المجتمعات التقليدية على حد زعمهم.

فلنورد نموذجا من الفلانيين رعاة المواشي في إفريقيا :[1]

الرئة هواء، الطحال ورقة يابسة،

هيا ! ارعوا يا ثيران يا بقرات ،

هيا! ارعوا يا أتبعة، يا بقرات معجلة،استعجلوا! لقد طلعت الشمس...واختفى الندى،

هيا ! إلى جوانب التلال، إلى جميع الجهات ،

---

(1) – Soumah,Malick: Littérature orale, revue Notre Librairie, N°88/89 (Juil-Sept)1987, Paris. P23

د – *الأشعار المقدسة :*

إن المعتقدات السائدة في أوساط الوثنيين متمثلة في تقديس أرواح الأسلاف والجبال والأنهار والأصنام والأوثان. فإن للكاهن الذي يشرف على هذه الطقوس الوثنية أشعارا يتضرع بها إلى معبوداته لنيل الرضا والفضل، عرف مثل هذه الأشعار عند يوربا بـ " أيغنغن، وإغونو، وأوغن " التي يتغنون بها في طقوسهم وأعيادهم الوثنية.

انظر ماذا يقول بعض العرافين في مدح أدوات تنبؤاته من الحصى قائلا :

" حصاة ملتقى الطرق الملساء ...، حصاة حبين الخندق الملساء... ،
مبدع خفايا الأشياء... ،
الذي لا يجد خطأ من المتهم البريء،
ولا يخفى عليه أثر من كان في خطأ...، "[1]

2. *الأمثال والحكم الشعبية :*

الأمثال عبارة موجزة تقصد معاني بليغة مستمدة من واقع حياة موجودات الكون والطبيعة. ولها في الغالب مورد ومضرب كالأمثال العربية، ولكن أكثر الأمثال الإفريقية تخلو من المورد الذي يجعل المثل ذا طابع حدثي له جذوره التاريخية. لذا أفرق بين تلك الأمثال التي لها المورد والتي لا مورد لها إلى : أمثال حدثية ، وأمثال ذهنية، وتكاد جميع الأمثال الإفريقية تكون من النوع الأخير :[2]

- ***القط الأحمر، والقط الأبيض، والقط الأسود كلها خطر على الفئران. (صوصو بغينيا)***
- ***إن شجرة الكذب تبدي الزهرة لكنها لا تعطي الثمار (مثل هوسا بنيجيريا)***
- ***من وقع عليه بصاق الجميع فلا شك أن يتبلل. (مثل ولوف بالسنغال)***
- ***لا تجمع الأصبع الواحدة الدقيق. (مثل موسي ببوركينا فاسو)***
- ***الدجاجة لمربيها، والبيضة للدجاجة (مثل بمبارا بمالي)***
- ***الأعور ملك في بلاد العميان (مثل يوربا بنيجيريا)***
- ***لا يقال للدجاجة حافظي على ذرتي.(مثل باولي)***
- ***إنما الحية برأسها (مثل مالينكي في غينيا).***

ويلاحظ أن القبائل الإفريقية لا تفرق بين الأمثال والحِكَمِ،لأن أكثرها تطلق كلمة واحدة عليهما مثل لفظة " تيندي Tindi " عند الفلانيين ، و" ساندا Sanda " عند قبائل ماندي ، و " ياسي Yacè " عند صنغاي، و"غومْبُنْدي Goumboundi" عند موسي، كلها بمعنى المثل والحكمة.

ولكن الحقيقة أن الفرق دقيق في بعض نماذجها وإن كانت الإشكالية بينهما غير غامضة،

---

(1) – Lay, Camara: Le maître de la parôle, imp. Brodard et Toupin, 1980, Paris. p 104

(2) – يراجع : M, Florence : Dictionnaire de proverbes et dictons.

لأن الأمثال تصوّر لنا مظاهر واقع الموجودات ، والحِكَمُ تقرر حقائقها وطبائعها الصحيحة . والأمثال تبحث في العلاقات التي تربط بين أحياء المجتمع والكون، والحِكَمُ تعطينا نتائج تلك العلاقات في عبارات منطقية. والأمثال تحتكم إلى واقع الحياة ، والحِكَمُ تحتكم إلى منطق العقل السليم. ومن نماذج الحِكَم الشعبية لدى شعوب المنطقة :[1]

- ***الكلام أطول عمرا من صاحبه (حكمة شائعة لمختلف قبائل ماندي بمالي وغينيا).***
- ***اربط نفسك في الطريق ليفك أسرك المارة (حكمة موسي ببوركينا فاسو).***
- ***من لم يسافر فلا يعرف أفضل المدن (عند الولوف في السنغال).***
- ***لا تقبل ما يعضك أن يشمك (حكمة صنغاي بمالي والنيجر).***
- ***لا أحد يتكرر له طلوع الشمس (حكمة يوربا بنيجيريا).***
- ***ما لم تدخره لن تجده أمامك (حكمة سوننكي في مالي).***
- ***الصبر دواء أمراض الدنيا (حكمة هوسا بنيجيريا).***

إن جميع أفراد الشعب يشارك في إيراد الأمثال والحِكَم في محادثاتهم اليومية، لذا سجل لها البقاء والشيوع أكثر من الفنون الشعبية الأخرى، إذ لا يتعلق إيرادها بأي مناسبة من المناسبات الشعبية كسائر الفنون.

3. ***الألغاز أو الأحاجي الشعبية :***

تعرف الألغاز بأنها عبارة يدل ظاهرها على خلاف ما عليه باطنها. وهي أشد إيغالا في الرمزية الأدبية من الأمثال والحكم.[2] وهي لدى الشعوب مما يولع بها الأولاد، فيجلسون في حلقة، والليل مقمر، يأتي دور كل واحد منهم ليلقي لغزا على من بجانبه، فإما أن يجيبه هذا الأخير فيلقي هو لغزه لمن يليه، وإما أن يعجز فيجيب السائل عن لغزه، وهكذا دواليك إلى وقت النوم. وهي تؤدي دورا في تنمية ذكاء الأطفال.

ويمكن أن نقسم الألغاز الشعبية إلى ثلاثة أنواع : منها تلك الألغاز المطلقة التي تسرد في أساليب استفهامية ، كالمجموعات الآتية :[3]

- ما هي الثيران التي خربت القرية ؟ البعوض. (عند صنغاي بمالي والنيجر)
- ما هي الدولة التي يلبس ملكها الثوب الأحمر، وسكانها الثياب البيضاء؟ اللسان والأسنان. (عند موسي ببوركينا فاسو)
- شيخ حوله الطلاب ؟ الإبريق والكؤوس (عند الولوف في السنغال)
- أي شيء أسرع من كل سريع ؟ العين والريح. (عند يوربا بنيجيريا)
- ذهبت إلى الخؤولة، فسلمت على الأحياء فلم يجيبوا، وسلمت على الأموات

---

(1) – Ibid.

(2) – الرافعي، مصطفى الصادق: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي،الطبعة الثانية، 1974م/1394هـ، بيروت.ص 403/3.

(3) – ينظر: الإلوري ، آدم عبد الله : موجز تاريخ نيجيريا، ص 31.

فأجابوا ؟ الأوراق الخضراء والأوراق اليابسة. (من قبائل ماندي بمالي وغينيا).

- صرع القصير الطويل ؟ الفأس والشجرة. (عند بوصو بمالي).

ومنها الألغاز القصصية :

يتلخص في توأمتين كانتا في كل شيء سيين. وقبل أن تتزوجا حملت إحداهما من شاب دون علم صاحبتها، فخشيت على نفسها أن تفتضح في المجتمع، واستشارت في ذلك عجوزا كانت تسكن خارج القرية.

فقالت لها العجوز: لي قدرة سحرية على نقل هذا الحمل منكِ إلى هذه الشجرة، بشرط ألاّ تفشيَنَّ السرّ لأحد من الناس وأن تزوريني وحدكِ كل يوم جمعة برفقة هدية من جوز الكولا. ومتى تخالفي أحد هذه الشروط يرجعْ إليك الحمل المنقول كما كان. فقبلتْ، فنقلت العجوز منها الحمل، فأصبحت بكرا. ثم تزوجت بعد ذلك وأنجبت تسع أولاد، وهي ملتزمة بشروط العجوز طيلة هذه السنوات.

وذات يوم جمعة زارت العجوز كعادتها الأسبوعية، فرافقتها توأمتها لأول مرة، ففوجئت العجوز بأمرها، وظنت أنها أفشت السر، فأوصتها عند توديعها بحفظ السر، فاضطرت توأمتها أن تسألها ذلك مع إلحاح شديد، فذكرت لها، وعندئذ رجع إليها ذلك الحمل من الشجرة. والسؤال الذي يطرحه هذا اللغز القصصي: ما رتبة هذا الجنين بين أولادها التسعة ؟ آكبرهم هو أم أصغرهم ؟ (1)

4. القصص :

إن الأدب الشعبي ثري بالفنون القصصية ، فيها الأسطورة ، والحكاية الخرافية ، والخرافة الحيوانية، والحكاية التاريخية ، وحكاية الجان...الخ. وكلها تتناول أحداثا خيالية من رسم الروح الاجتماعية، التي تمدّها العادات والأعراف القبلية بالتعاليم التقليدية.

وأكثر موضوعاتها: الغَيْرَةُ بين الزوجات، والحسد بين أبناء الرجل، والتضامن الاجتماعي، واحترام الكبار والإحسان إليهم، والرفق بالأولاد وتقدير ذكائهم، ونبذ الظلم ، وكراهية الخيانة. يتم ذلك في عبارات عادية سلسة في متناول فهم الصبيان الذين يصغون إلى العجائز، أو يتسامرون في إلقائها على التناوب في الليالي المقمرة. ولكل قصة أنشودة رائعة تختص بها.

وأبطالها: من الإنس غالبا صغار الأولاد، وتأتي العجائز فيها كحفظة على أسرار الحلول للعقد التي يسعى البطل إلى حلها. أما من الحيوانات فإن الأرنب تحتل الصدارة في البطولة. وتكثر فيها الذئب، والأسد ، والثعلب، والسلحفاة، والفيل، والحمار، والخيل...الخ.

---

(1) – ينظر: كبا، عمران: الحياة الأدبية في غينيا، رسالة الماجيستير،كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا. 306/1.

هذه قصة شعبية من " الخرافة الحيوانية " لإحدى قبائل النيجر:

يزعم أن الذئب وقع ذات يوم في بئر عميقة، فلم يستطع الخروج حتى يئس من الحياة، فإذا بماعز ظمآن يرد البئر، فيستنجده الذئب للإنقاذ. استطاع الماعز برجليه الطويلتين أن ينقذه من الموت. ولما خرج حمد الله الذي أنقذه ورزقه غذاء بعد أن أنهكه الجوع أياما، فقال الماعز مستغربا : أبهذا تشكرني ؟!! أهكذا تردّ إلي جميلي ؟!!!

وبينما هما كذلك،فإذا بأرنب تمر بهما وتسألهما عمّا جرى بينهما، فقصّ كل واحد قصته عليها ، فقالت الأرنب : إني لأستطيع أن أحكم بينكما بالعدل، لكن بشرط أن يرجع كل منكما إلى حالته السابقة. فلما نزل الذئب في البئر ، ووقف الماعز على حافة البئر، قالت الأرنب حاسمة المشكلة : فليبق كل منكما على حاله، وتنتهي المشكلة. ومن هنا تأخذ القصة ختامها.

5. ***الرواية التقليدية :***

هي تلك القصة المطولة التي تقابل " الرواية الحديثة "، كما تقابل القصة الشعبية القصة القصيرة الفنية. وهي تتخذ غالبا بطلها من البشر، وتصويرها للحياة اليومية الاجتماعية دقيق، وأسلوبها رصين جزل، لأنها من نتاج أديب تقليدي إذ لا يرويها غيره. وأحداثها متباينة لتعدد شخصياتها ومواقفها، تستغرق روايتها أكثر من ساعة، وإذا ما ترجمت فتتسع إلى ما يزيد عن مئة صفحة غالبا. ومن أنواعها :

- الرواية التاريخية كرواية الملك غيزو[1] Guezo عند التقليديين في جنوب بنين، وأوسي توتو Ossei Toutou [2] عند أشانتي بغانا.
- الرواية البطولية كبطولات سني علي عند صنغاي بمالي، وسونجاتا لدى قبائل ماندي بمالي وغينيا، ولتجور عند ولوف بالسنغال، وفولي بيبي[3] عند قبائل "غا" في تو غو.
- الرواية الشعبية كرواية " تابارا " عند قبائل مانيكا بغينيا، و" الصياد الجريء في غابة العفاريت " عند يوربا بنيجيريا.
- الرواية الأخلاقية: كرواية "الصبر" لدى بمبارا في مالي، و" البركة" عند مانيكا بغينيا.
- ورواية الصيادين : التي تتحدث عن بطولات الصيادين مع وحوش الغابة.

6. ***المسرحية التقليدية :***

إذا كانت المسرحية محاكاة للفعل الإنساني، كما يعرفها أرسطو[4] ، فإن الشعوب الإفريقية كانت لها طقوس دينية تحاكي أفعال الناس في المجتمع، وقد أجمع الباحثون على نشأة هذا الفن في أحضان الطقوس الدينية في جميع الحضارات.

---

[1] – هو ملك مملكة داهومي (1818–1858م) الذي استرد مملكة يوربا وقام بإصلاحات كثيرة في عهده.

[2] – هو الملك الذي وحد قبائل أكان بين أشانتي في القرن 17 الميلادي، ودان له الملوك لعرشه الذهبي قيل بنزوله من السماء.

[3] – عاش هذا الملك في القرن 17 الميلادي، وأقام إمبراطورية جينيي واصطدم مع المستعمرين فأسر ونفي عن بلده.

[4] – فن الشعر : أرسطو، ترجمة عبدالرحمن بدوي، دار الثقافة، الطبعة الثانية،1973م، بيروت، لبنان. ص3

وقد يصعب تحديد أنواعها، لأن لجميع الطوائف والقبائل أنواعها حسب مناسباتها الشعبية، التي في إحيائها تأتي تمثيليات مسرحية، يختلف بعضها عن بعض في الخصائص والموضوعات، ومن هنا يجدر بنا أن نقسمها إلى أصناف، ولكل صنف أنواع كثيرة :

- **مسرحيات الترفيه والملاهي** : منها ما يقوم به القصاصون الممثلون، والأولاد في ملاهيهم وألعابهم.
- **مسرحيات الاحتفالات الشعبية** : كاحتفالات العقيقة، والختان، والزفاف، والجنازة، والبذور، والحصاد، وتولية الملك على العرش، وتوديع المقاتلين واستقبالهم عند عودتهم.
- **مسرحيات الطوائف المنبوذة** : كرقصات الحدادين، والخزافين، والنساجين، والحذائيين، والمداحين، والصيادين في مناسباتهم الشعبية.
- **مسرحيات الطقوس الوثنية** : وذلك في مختلف المناسبات التي تخرج فيها الأقنعة، وتقدم فيها القرابين للأصنام، أو لأرواح الأسلاف استرضاء لهم، أو لطرد الأرواح الشريرة.
- **مسرحيات الجمعيات السرية** : كجمعيتي "دو" و "كوني" عند قبائل ماندي، وجمعيتي "بورو" و " ساندي" في سيراليونُ.[1]

وقد ألف الباحث السنغالي بكري تراويه في خمسينات القرن العشرين كتاباً بعنوان "المسرح الزنجي ووظائفه الاجتماعية Le théâtre négro-africain et ses fonctions sociales "، وتتبع فيه جذور المسرح التقليدي منذ إمبراطورية مالي القديمة، وتوصل إلى نتائج معقولة بعد دارسة مستفيضة، منها : أن المسرح الإفريقي القديم كان كوميدي النزعة يميل إلى نمط واقعي في معظمه،وكان ذا طابع تعليمي في خدمة القضايا الاجتماعية، يملأ فراغ الشعب بالمتعة [2].

2)–الأدب الإفريقي باللغة العربية:

كانت اللغة العربية برفقة الإسلام أثناء دخوله وانتشاره في المنطقة، وما اعتنق إفريقي هذا الدين إلا وقد عرف شيئا من الألفاظ العربية. والذي يحرص على الاغتراف من ينابيع تعاليم هذا الدين ينتهي إلى الإفادة من الثقافة العربية الإسلامية، فتتأثر بها ثقافته الأدبية ، ومن هنا يلبس " الأدب الإفريقي " على يده ثوبا جديدا من الظواهر الأدبية المستمدة من الشعر العربي، وقد خصصنا المبحث اللاحق لدراسة هذا النوع من الأدب الإفريقي.

ولم يستطع الأديب الإفريقي ــ طيلة القرون الماضية ــ أن ينتج شيئا من الفنون النثرية في العربية غير الخطب والرسائل الديوانية والإخوانية. فكان المسلمون أمناء دواوين الملوك الوثنيين في المنطقة، وكانوا مترجمين لدى المستعمرين الذين اضطروا إلى مراسلة الملوك

---

(1) – Sierra Leone: Encyclopédie Encarta 2007 de Luxe, Microsoft, USA.

(2) – كبا، عمران: الحياة الأدبية في غينيا، ص 533/2

والقبائل بالعربية إبان قدومهم وقبل استقرار المنطقة تحت سيطرتهم. وأما الرسائل الإخوانية فكانت متداولة بين العلماء الكبار، الذين تميزت أساليبهم بشيء من الخصائص الفنية.

وأما الخطب فقد برع فيها علماء المنطقة، إذ كان بعضهم ينمّقون خطبا في كل جمعة، أو في المناسبات الدينية، وقد حظيت بعض الخطب إعجاب الأئمّة فأخذوا يلقونها على منابرهم أسبوعيا مثل خطبة الأمير محمد بللو، التي تخطت شهرتها حدود نيجيريا إلى أئمة مساجد غانا وغيرها. ومن يقف على الرسائل الديوانية التي تداولت بين دولتي كانم وصكتو الإسلاميتين في شأن الفتنة التي اندلعت بينهما، سيدرك مدى تطور فن الرسالة أسلوبا وفكرة لدى هؤلاء.[1]

وفي ظل الحضارة الإسلامية بتِنْبُكْتو ازدهرت الرسالة بين علمائها، فوصلت إلينا مئات من تلك المراسلات العلمية في فتاوى المسائل الفقهية وغيرها، وما زالت مكتبة تِنْبُكْتو تحفظ كنوزا منها تنتظر الباحثين للتحقيق والدراسة.[2]

وإن لم يكن أدب الرحلات شائعا إلا أن بعض العلماء أولعوا به، فسجّلوا زياراتهم وسفرياتهم متأثرين بأسلوب ابن بطوطة، فهذا الشيخ ألفا علي[3] من علماء غينيا بيساو يصف البرتغاليين عند زيارته لدولتهم خلال الاستعمار :

«*وكانوا يرغبون في إطلاعنا على جملة من تركات المسلمين الحضارية فيها متمثلة في المساجد وبعض البنايات القديمة. وكلها ناطقة : هذه آثارنا تدل علينا، وأخذونا في جولات سياحية لرؤية المعالم الأثرية والمدن السياحية.ولقد راعني سيادة ظاهرة الانضباط والنظام في كل أمر من أمورهم الحياتية. وتمنيت أن لو كان المسلمون هم الذين اتصفوا بتلك الصفات*[4]»

وتطورت الكتابة لديهم إلى تسجيل بعضهم وصاياهم لبنيهم عند دنو الأجل، وربما كان ذلك شائعا عند علماء تِنْبُكْتو، انظر إلى أحدهم يكتب بعد المقدمة : «*هذه وصية أوصى بها المدان بن بص بنيه وأوكرها عليهم من صحته إلى مرضه حتى ليلة وفاته وهي أن يستروه ويستروا جميع ماله عن إحضار الجماعة بعد موته ولا يطلعوا أحدا على شيء من أمواله إلا وارثوه وكاتبوه الثلاثة في حياته من جن إلى تِنْبُكْتو وهم أبوبكر صنف وسليمان ــ ابني ألفا شيخ ــ وألفا المختار ابن ألفا سنوسي وأزواج بناته وأما غير هؤلاء فلا.*» [5]

وما زالت هذه الفنون النثرية تتطور لدى الكتاب المعاصرين الذين نشطت على أيديهم

---

(1) – ينظر إلى ذلك في : أبوبكر، علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 475

(2) –بعض الباحثين:كشافات مخطوطات مكتبة مركز أحمد بابا بتبكت،مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،لا.ط،1998،لندن.724/5

(3) – هو ابن عبدالكريم سيدي، ولد عام 1912م في نياكو،درس بكزمانس في السنغال، وله شعر غير قليل، ومقالات علمية.

(4) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 432.

(5) – مخطوطة بمكتبة أحمد بابا بتِنْبُكْتو ، تحت رقم التصنيف : 8965. وهي من القطعة الصغيرة في صفحة واحدة.

حركة المقالة في الصحف والمجلات التي سنشير إليها بعد قليل. أما الكتابة في التأليف فقد بذل العلماء جهودا مشكورة في جميع ميادين العلم، دلت عليها مؤلفات علماء نيجيريا ومالي وغينيا وغانا والسنغال، وفيها من الاجتهادات والفتاوى ما يبهر العقول ويوقظ الهمم.

وأما القصة والرواية والمسرحية فلم يتناولها الأدب الإفريقي باللغة العربية إلا في الوقت الراهن. ربما لأن الثقافة العربية لم تحمل شيئا من نماذجها إلينا طيلة تلك القرون سوى مقامات الحريري التي لم تثر فيهم ملكات الإبداع كما كان الحال في الشعر العربي الجاهلي. وما زالت الكتابة الأدبية للنثر الفني غير الرسالة والمقالة والخطبة متعثرة في جل هذه البلدان إلا نيجيريا، التي قطع أدباؤها قصب السبق إلى إنتاج القصة القصيرة والرواية والمسرحية في اللغة العربية خلال العقد الأخير من القرن العشرين، وربما جاء ذلك من سياسة إدراج كتابة القصة والرواية والمسرحية ضمن البحوث الجامعية للتخرج في الليسانس، كما وقفت على آثارها في جامعة عثمان دان فودي بصكتو، وجامعة بايرو بكنو.

ومن نماذج بحوث التخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة صكتو :

في الرواية :

- الأسرة أساس التربية : إسماعيل أبوبكر، سنة 1996م.
- ما وراء السر : مصطفى إسحاق، سنة 1998م.
- التجارة البائرة : عثمان إدريس الكنكاوي، سنة 1998م.
- حل القحط وانسكب الدمع : صلاح الدين منير الدين، سنة 2000م.
- القدرة الإلهية في المحبة الزوجية : عثمان عبد السلام، سنة 2000م.

في المسرحية :

- آسية امرأة فرعون : حواء أبوبكر شريف، سنة 1998م.
- العلم أصل كل خير : طاهر شعيب سليجا، سنة 1998م.
- شطر الحسن : حبيب محمد تلارابي، سنة 1999م.
- جزاء سيئة سيئة مثلها : شاب عمر رابه، سنة 2000م.

ثم بادر بعض أساتذة الجامعات إلى نشر بعض تلك الفنون النثرية، ومن ذلك : قصص خط الاستواء سنة 1999م، ومسرحية " العميد المبجل " سنة 1994م كلاهما للنيجيري زكريا حسين[1]. ورواية " فانْتا عذراء كوناكري " للغيني محمد الأمين جابي[2].

وبجانب الكتابة الحرة ارتأى بعض المثقفين أهمية ترجمة بعض الأعمال الأدبية ذات الغناء الفني في الأدب الإفريقي، لربط ثقافة المستعربين ببيئتهم: ومن هذا الإنتاج "أعشاب

[1] – عيّن وزيرا لأمير أونتشي وأستاذ بجامعة إلورن.

(2)– أستاذ علم النفس التربوي، تخرج في الرياض.

ملتهبة " رواية فلانية من نيجيريا الشمالية ترجمها إلى العربية مسعود راجي[1]، سنة 1997م. و" الصياد الجريء في غابة العفاريت " ترجمها من يوربا مشهود محمود محمد جمبا[2]، سنة 2002م. و" قصب المخيم " تأليف دي. أو. فاغونوا وترجمها من يوربا الدكتور أحمد شيخ عبد السلام[3] ، سنة 1994م. و" ملحمة سونجاتا " تأليف جبريل تامسير نيان[4] وقد ترجمتُه من الفرنسية إلى العربية سنة 2003م. وصدرت عن وزارة الإعلام بالكويت ترجمتان عن مسرحيتي الأديبين، من سلسلة "من المسرح العالمي" تحت رقم 231، إحداهما بعنوان "الجمعية الأدبية " لهنري أوفوري[5] ، والأخرى " جواهر المعبد" لجيمس إين هنشو[6]، ترجمهما الدكتور نايف خرما من الإنجليزية إلى العربية. وفي جامعة صكتو وقفت على بحوث كثيرة من أبحاث التخرج في ترجمة الروايات والمسرحيات من الإنجليزية واليوربا إلى العربية.

وقد شهدت المقالة نوعا من الازدهار في بعض الدول، التي شمّر المستعربون فيها للكتابة في المجلات والصحف الشهرية. فتأتي أقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية في الجامعات النيجيرية في مقدمة الصفوف، وخاصة في جامعات صكتو وكنو وزاريا وإلورن، إذ لا يترقى أساتذتها إلا بكثرة نشر بنات أفكارهم، وهي ظاهرة تميز مكانة المستعربين النيجيريين عن نظرائهم في سائر بلدان المنطقة. أضف إلى ذلك ما في نيجيريا من كثرة المجلات والصحف ــ أولها الرسالة ــ يحررها أعضاء الجمعيات والاتحادات الإسلامية. وفي هذه الأخيرة يشاركها بعض المستعربين في السنغال ومالي والنيجر: كمجلات " الصحوة" و"بريد إفريقيا " و " المسيرة" في السنغال، ومجلتي " التواصل " و " الواحة " في النيجر، وفي مالي "الصداقة " و"المستقبل" و "التواصل" و "الوفاق" و"الوظيفة" ولكن الأخيرتين توقف صدورهما منذ سنوات.

وأما سوى هذه الدول فلم تظهر فيها تجربة في نشر الصحف العربية، أو ظهرت فلم تلبث أن توقفت في أعدادها الأولى كما كان الحال في غامبيا وغينيا لصحيفة " الحرية ".
فلنقتطف من عدد 35 لصحيفة الصداقة الشهرية (ص5) في مالي نموذجا للمقالة الاجتماعية بعنوان "أوضاع المستعربين":«إن الطلبة الأفارقة مع كل ما يواجهون من عراقيل وعقبات أثناء طلب العلم إلا أن معظمهم يكملون دراساتهم ...ثم يعودون إلى الوطن الأم، وهنا تبدأ مرحلة جديدة تعتبر أشد وأصعب...فإذا هو يصطدم بغلق كل أبواب التوظيف أمامه، فالحكومات...لم تكن تحتاج إلى هذا الكم الهائل من الخريجين...لاسيما وأن أكثرهم لا يتقنون اللغة الرسمية التي تجري بها الأعمال الإدارية »

---

(1) – أستاذ في جامعة زاريا بنيجيريا بقسم اللغات النيجيرية والإفريقية، له مؤلفات أخرى.
(2) – أستاذ جامعي بإلورن، خريج الأزهر سنة 1987م، أديب ناقد، ومدير أول مجلة عربية في نيجيريا"الرسالة".
(3)– تلميذ الشيخ آدم الإلوري،تخرج في الرياض،ونال الدكتوراه بالخرطوم،أستاذ بماليزيا بعد أن درس في زاريا بنيجيريا.
(4) – مؤرخ غيني وكاتب ومسرحي، ولد في بارو بغينيا، وعاش كثيرا في السنغال حتى وهم كثيرون أنه سنغالي.
(5) – ولد سنة 1925م بشمال غانا، عمل مدرسا ثم صحافيا ثم موظفا، كتب أكثر من ألفي مقالة وقصة ومسرحية في المجلات.
(6) – مسرحي غاني، ولد1924م، تخصص في الطب بإيرلاندا، وأقام في نيجيريا كثيرا، جميع نشاطاته الأدبية في المسرحية.

3) الأدب الإفريقي باللغات المحلية :

كان على الذين عنوا بتدريس القرآن الكريم في الكتاتيب وزوايا المساجد، بعد دخول الإسلام وانتشاره، أن يهتموا بدراسة اللغة العربية وآدابها من القصائد الشعرية ــ في المدائح النبوية ــ والمنظومات العلمية. ومن هنا توخّوا التعمّق في لغة الضاد ليصبحوا روادا في معرفة الكتابة لتسجيل ما يحتاجون إلى حفظه وتوثيقه. ومن ثَمّ تولد فيهم شعور نحو لغاتهم المحلية في محاولة كتابتها بالحروف العربية، وخاصة أن حاجة سواد المجتمع إلى معرفة مبادئ الإسلام قد أصبحت ضرورة ماسة، لأن غالبيتهم لن يتقنوا اللغة العربية كالعلماء، وهكذا فرضت هذه الفكرةُ نفسَها على بعض العلماء فوضعوا " منظومات شعرية " في اللغات المحلية أسوة بإخوانهم العرب في نظم العلوم العربية والإسلامية.

إن رواد هذه المحاولة هم الفولانيون، الذين ما زالوا يتراسلون بالفولانية المكتوبة بالأحرف العربية، ثم اقتدى بهم جماعات ماندي، وهوسا، ويوربا. ولما جاء المستعمرون أغروا تلك القبائل وغيرها بكتابة لغاتها بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية.

وفي نيجيريا ألف الشيخ عثمان بن فودي[1]، وأخوه العلامة عبد الله بن فودي[2] منظومات جليلة ، فتأثر بهما الأتباع ، ونسجوا على منوالهما في نظم الأشعار الفولانية حتى اشتهروا بها، أمثال الشيخ صالح بن محمد الفلاني[3]، الذي يرجع إليه فضل نشر الإسلام في إلورن، فكانت قصائده مؤثرة، من أشهرها " طي كنتوب" ، وندجومم".[4]

وفي غينيا يعد الشيخ محمد صمبا مومبييا[5] أول من ابتدع هذه المحاولة بديوانه الشهير" معدن السعادة " من (566) بيتا في التوحيد والعبادات والمعاملات، جاء فيه :[6]

من طب كلا آب كشك علا ** عمعمر يع جنف بلر جر فرل

وتبرنت ولسد طـا يـورا ** سب مجر عم عـوفرد مـلـل

وتدر طن دار كـريتم كـع ** سك فوف جبا طورآ عد دل

بل جع عد طي نجد يداميب ** وعيب يعر ترى هـو ود ول

سع هيطي عردن عند نفل ** كنفل الإيمـان عـداد لجـل

---

(1) – سبق الحديث عنه في الفصل الأول. انظر صفحة 17.

(2) –عاش ما بين(ت 1244هـ/1828م)تبحر في العلوم فله تفسير للقرآن، وله ألفية في الأصول وفي الصرف، منها:ضياء التأويل فيا لتفسير،وألفية الأصول، والبحر المحيط في النحو، والحصن الحصين في التصريف. (الثقافة العربية في نيجيريا ، ص 264).

(3)– من أتباع ابن فودي(ت 1236هـ/1820م)،وحامل لوائه إلى إلورن لنشر الإسلام بالوعظ والدرس، فتخرج عليه كبار العلماء.

(4) – جمبا، مشهود محمود:واكا إلورن فن أدبي إسلامي شعبي، مطبعة حسن ألبي، لا.ط، لا.ت، إلورن، نيجيريا.

(5)– عاش ما بين (1765– 1850م) في دالابا بغينيا، ألف في العربية لكنه اشتهر في فوتاجالون بديوانه، التقى به الحاج عمر تال.

(6) – كبا، عمران : الحياة الأدبية في غينيا ، ص 115/1–116.

ترجمتها: *من أراد الفهم غير مشوب، فليقرأ ما نظمه هذا الرُجَيْل من أبيات فولانية*

لا تعجب بفضلك ولا تتغافل، وقد يوجد في جهلي " معدن السعادة ".

لا تنظر إلى جهلي بل تأمل في قولي، واعمل به إن كان صدقا في العبادة.

عسى أن تنجو من الذين يقولون ، " ربي ارجعني أعمل صالحا ".

إذا ما احتلمت فقدم التعلم ، بكلمة التوحيد قبل حلول الأجل.

وتابعه تلميذه جرنو سعد دالين[(1)] ، ثم الشيخ علي بوبديم[(2)] بقصائد طريفة.

وبعد الفلانيين اهتم علماء ماندي بمثل هذا الأدب، فوضع العالم الغيني كرامو طلبي[(3)] ديوانين، أحدهما بعنوان " معدن العلوم والإسلام " في 332 بيتا، والآخر بعنوان " ترثية الصالحين" في 122 بيتا. وفي بوندوكو بشرق ساحل العاج اهتم بذلك العلماء.

ثم جاءت محاولات في لغة الهوسا، ابتدعها أتباع الشيخ عثمان بن فودي، بل كانت ابنته أسماء[(4)] شاعرة في الهوسا والفولانية والعربية. وكانت الأشعار الهوساوية أكثر انتشارا من غيرها، لكونها لغة سائدة لدى سكان شمال نيجيريا.

ولم يلبث مسلمو بلاد يوربا أن نسجوا على منوال أهل الشمال، فوضعوا أشعارا دينية في لغتهم، فأقبل الناس على هذه المحاولات إقبالا كبيرا، حتى أصبح وسيلة أساسية في المواعظ الدينية، ومنها أضحت ضرورية في جميع الأفراح والاحتفالات الاجتماعية لدى المسلمين، وعرفت باسم " واكا "، وعرف بعض المولعين به أمثال الشيخ صالح أوكي أبومي، وعبد الرحمن بكاتا وغربا أبومي، وأشهرهم على الإطلاق هو "دود أغباريري" وتلميذه "لبيك".

وهذا شعر " واكا " من نتاج الشيخ بدماصي الأبجي[(5)] :

كادبا لد عبا القادر	***عبا تو لغو تسي شغور درا***
عشغو عشوا عوجا ملى	***عشوا إر غو علمى وجا كافرا***

ومعناهما :

لنشكر الله الرب القادر	***مالك القدرة***
بقدرته جعلنا مسلمين	***وجعل الآخرين كافرين***[(6)]

إن جميع تلك اللغات كتبت أشعارها بالحروف العربية، سوى لغة مانيكا في غينيا التي ابتكر لها أحد علمائها حروفا متميزة عن الحروف العربية واللاتينية. ذلك العالم هو الشيخ

---

(1) – عالم وشاعر (ت 1853م) يعد من شهّر بديوانه شيخه في فوتاجالون، واشتهر بقصائده. (موسوعة ألكسو، ص 56/9)

(2) – عاش مابين (1847–1927م) في لابي، عالم وشاعر، له ثلاثة دواوين. ينظر (ديوان شعر، ص 9).

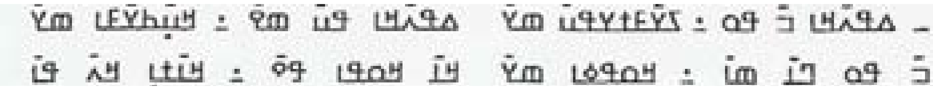
(3) – اسمه عمر بن محمد (1870–1962م) عالم وله ديوان شعري عربي،عاصر الشيخ فانتا مادي شريف (الولي) وكان صديقه.

(4) – كانت عالمة وأديبة لها قصائد طريفة في العربية في مرثيات صديقاتها. ينظر : (الثقافة العربية في نيجيريا، ص 291)

(5) – ما وقفت على ترجمة هؤلاء الشعراء التقليديين.

(6) – جمبا، مشهودر محمود : واكا إلورن ، ص 18–19.

سليمان كانتي[1] الذي خلف ديوانا من المنظومات الدينية، إليك هذا النموذج منها:



معناهما :

هذا الملك هو جبـــريل الذي يعد سيد الملائكة

هو الذي جاء بالرسالة وأمر الرسول بالقراءة[2]

4) .الأدب الإفريقي باللغات الأوروبية :

هو كل ما أنتجه الأدباء الأفارقة في إحدى اللغات الأوروبية الوافدة (الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية) في جميع الفنون الأدبية. وقد ظهر هذا النمط في الأدب الإفريقـــي بعـــد اســـتيلاء المستعمرين الغربيين على إفريقيا عسكريا وثقافيا، وفرضوا على أبنائهـــا مدارســـهم التعليميـــة لتشويه الثقافة الإسلامية فيها ، وطمس الحضارة الإفريقية الأصيلة أو لتغريـــب هـــذا التـــراث العريق بصبغة غربية، فعلموا الشباب الأفارقة لغـــتهم الفرنـــسية أو الإنجليزيـــة أو البرتغاليـــة فأتقنوها، وأطلعوهم على آدابهم الفنية فأعجبوا بها وتأثروا، ولقنوهم أفكارهم الغربيـــة فـــانبهر بعضهم بها، ووجّهوا قرائحهم إلى نماذج إنتاجاتهم الأدبية فقلدوهم في جميع فنونها : من شـــعر وقصة ورواية ومسرحية، فتأثر الأدب الإفريقي من خلال ذلك بهذا النمط الأدبي الوافد.

ومن هنا بدأت المحاولات الأولية في تجربة الإنتاج الفني على خـــصائص هـــذا الأدب الغربي في فنون أدبية مختلفة[3] :

◈ ***في الشعر :*** من رواد الشعراء بالفرنسية يمكن تسجيل فوديبا كيتا [4] Fodéba Keïta أول شاعر غيني بالفرنسية في ديوانه المسمى " قـــصائد إفريقيـــة Poèmes Africains " ســـنة 1950م. وكان برنارد بيلين باديي[5] Bernard Binlin Dadié أول شاعر عاجي بالفرنـــسية فـــي ديوانه " إفريقيا قفي Afrique debout " سنة 1950. ويعد كوفي أوونور [6] Kofi Awoonor أشهر شعراء غانا. وأضحى ليوبولد سيدار سينغور[7] Léopold Sédar Senghor أحد حاملي رآية الشعر في المنطقة باللغة الفرنسية.

---

[1] –هوابن عمر (ت1987م)وضع هذه الحروف عام1948م التي اشتهرت في أكثر دول المنطقة.(الحياة الأدبية في غينيا،ص138/1)

[2] – كبا ، عمران : الحياة الأدبية في غينيا، ص 141/1

[3] – Littératures d'Afrique : Encyclopédie Microsoft Encarta 2007, Microsoft Corporation

[4] – هو شاعر ومسرحي(1921–1969م) مثل مسرحياته في أكثر من 20 دولة. أعدم وهو وزير بتهمة التآمر.

[5] – كاتب وشاعر ومسرحي عاجي ولد سنة 1916م، كان وزيرا للثقافة سنة 1970م، نال جائزة الأدب الإفريقي بفرنسا.

[6] – شاعر غاني ولد سنة 1936م، اشتهر بقصائده الشعرية خارج وطنه، لتناوله قضايا إفريقية وإنسانية في أعماله.

[7] – ولد عام1906م، أول رئيس للسنغال(1960–1980م)، زعيم حركة الزنوجة، وعضو الأكاديمية الفرنسية (ت2001م).

◈ ***في القصة :*** بدأت محاولات أدباء المنطقة في فن القصة بترجمة بعض القِصص الشعبية المحلية إلى اللغات الأروبية، فمنذ سنة 1947م كان الأديب السنغالي[1] بيراغو جوب Birago Diop جمع قِصصا شعبية بعنوان "حكايات أمادو كومبا Contes d'Amadou Coumba" فنسج آخرون على منواله أمثال الأديب المالي أمادو أمباتي باه[2] Amadou Hampaté Bâ الذي نشر في سنة 1969م قِصصا فولانية بعنوان "كايدارا Kaïdara". ونشر جبريل تامسير نيان الأديب الغيني سنة 1992م مجموعته بعنوان "حكايات غينيا Contes de Guinée".

ومن هنا جاء الاهتمام بفن القصة القصيرة ـ Les Nouvelles ـ وخاصة في الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية التي كانت مسرحا لأقلام الكتاب في تصوير الحياة اليومية والظروف السياسية بطرائف قصصية في جميع دول المنطقة. وفي غينيا مثلا نشر جبريل تامسير نيان مجموعته بعنوان " ميري Mery ".

◈ ***في الرواية :*** وكان أدباء اللغة الفرنسية سبّاقين إلى التجرية الروائية في الأدب الإفريقي بالمنطقة ، إذ نشر الأديب البينيني بول هازومي[3] Paul Hazoumé أول رواية سنة 1935 بعنوان " دوغيسيمي Doguicimi "، مع السنغالي عثمان سوسي[4] Ousmane Socè الذي نشر في السنة نفسها روايته بعنوان "كريم Karim". ثم تتالت إنتاجات الكتاب بعد ذلك :

فأول رواية عاجية للأديب بيير دوبري[5] Pierre Dupré في روايته "المحتطب Le coupeur du bois" سنة 1946م. وأول رواية غينية كتبها الأديب كمارا لاي[6] Camara Lay سنة 1953م بعنوان " الطفل الأسود L'enfant noir ". ولأشهر كتاب سيراليون وليام كونتون[7] "William Conton إفريقي Africain " سنة 1960م.

وقد حظيت بعض هذه الروايات بشهرة عالمية في العصر الحديث كرواية النيجيري[*] أموس توتيولا[8] Amos Tutuola المنشورة سنة 1956م بعنوان " السكير في الغابة L'ivrogne dans la brousse "، التي تقارن برواية الكاتب البريطاني جون بونيان[9] John Bunyan بعنوان " رحلة الحاج Le voyage du pélerin ". وكذلك رواية نيجيري آخر هو

---

(1) – عاش مابين(1906–1989م)مترجما أربع مجموعات قصصية شعبية دفعا لحركة الزنوجة.درس البيطرة في باريس.

(2) – عاش ما بين (1901–1991م)كاتب عني بالتاريخ الشفوي،كان سفيرا ماليا في ساحل العاج،له روايات وقصص فلانية.

(3) – عاش ما بين (1890–1980م) كاتب من أحسن أدباء بنين في العصر الحديث، له أعمال أدبية رائعة.

(4) – عاش ما بين (1911–1978م) يعد رواد كتاب الأدب الإفريقي باللغة الفرنسية.

(5) – لم أعثر على سنوات الولادة لهذا الكاتب ، ولكنه عاش ظروف الاستعمار والاستقلال تحت ظل الحكومات الأولى.

(6) – عاش ما بين (1928–1980م) رحل لباريس للدراسة، كان مهندسا، وخلف أربع روايات، فهو أشهر كتاب غينيا.

(7) – يعد الكاتب أشهر أدباء سيراليون، إذ احتل مكانة بين صفوف رواد الأدب الإفريقي منذ بداية تطوره لروعة أعماله الأدبية.

(*) – **تنبيه : النيجيري نسبة إلى نيجيريا بتوسط الياء بين الجيم والراء، خلافا للنسبة إلى النيجر فالياء محذوفة بينهما.**

(8) – ولد عام1920م واهتم بأدب الرواية حتى اشتهر بها عالميا وتفوق، له عمق الفكر ودقة التصوير في أسلوبه الكتابي.

(9) – أديب إنجليزي (1628–1688م)، كان وزيرا للطقوس، وتجند فترة ما، ثم تخصص في الكتابات الدينية التي منها هذا العمل.

شينوا أتشيبي[1] Chinua Achebe بعنوان " العالم ينهار Le monde s'éffondre " سنة 1958م. وقد نال النيجيري وولي سوينكا[2] Wole Soyinka جائزة نوبل في الآداب سنة 1986م ، وهو شاعر ومسرحي وكاتب، ولروايته " المترجمون Les interprètes " شهرة عالمية. وإن كانت الأعمال الأدبية نادرة في البرتغالية إلا أن الكاتبين بالتاسار لوبس[3] Baltasar Lopes وجيرمانو ألميدا[4] Germano Almeida من أشهر أدباء الرأس الأخضر.

◈ ***في المسرحية :*** كان لأدباء اللغة الإنجليزية الأسبقية في التأليف الدرامي كأعمال الأديبين الغانيين هنري أوفوري وجيمس إين هنشو، وأعمال وولي سوينكا النيجيري كـ " رقصة الغابة La danse de la forêt " سنة 1960م. ولكن الغيني فوديبا كيتا يعد أول من أنشأ فرقة تمثيلية بالمنطقة في أربعينات القرن العشرين الميلادي. ونشر كل من المالي سعيد باجان[5] Seydou Badian " موت شاكا La mort de Chaka " سنة 1961م، والبينيني جان[6] بلييا Jean Pliya " كوندو القرش Kondo le requin " سنة 1966م، والعاجي برنارد بيلين داديي "السيد توغو ييني Monsieur Thogo-Gnini" سنة 1970م.

وبتلك الإنتاجات التفت كثير من المثقفين الأفارقة إلى الفنون الأدبية، واتخذوها سلاحا في مكافحة الاستعمار فكريا وثقافيا، لكونها أداة صالحة في إيقاظ وعي الشعب في سبيل مطالبة المستعمرين بالاستقلال والتحرير الكامل من ضغوطات الدول العظمى المستعمرة. وهذه الصحوة الجديدة في العقلية الإفريقية كانت نتيجة ظهور حركة أدبية ــ في أوساط المثقفين ــ عرفت بـ " حركة الزنوجة La négritude "، فكثرت إنتاجات الكتاب تلبية لتيارات هذه الحركة في إثارة قضايا كثيرة تتمثل في :

1- الإشادة بالتراث الإفريقي وبالتقاليد القبلية القديمة :

كديواني الرئيس الشاعر ليوبولد سيدار سيغور: "القرابين السود Hosties noires" سنة 1949م، و "الحبشيات Ethiopiques " سنة 1956م. وكرواية الكاتب الغيني كمارا لاي " نظرة المَلِك Le regard du roi " سنة 1954م، ورواية السنغالي شيخ أَمَدو كَنْ Cheik Amadou Kane " المغامرة الغامضة L'aventure ambiguë " سنة 1960م. ورواية " الشجرة الوثن L'Arbre fétiche " للكاتب البينيني جان بلييا سنة 1971م. ورواية " دم الأقنعة Le sang des masques " للكاتب

---

(1) – ولد سنة 1930م ، ودرس في جامعة إبادن بنيجيريا ثم في لندن، ورجع إلى بلده أستاذا جامعيا، وكاتبا بارعا.

(2) – ولد سنة 1934م بأبيكوتا في نيجيريا،درس في إبادن،وتخرج في إنجلترا، وأنشأ بعد عودته فرقة تمثيلية،عارض النظام بقلمه.

(3) – ولد في بداية القرن 20الميلادي، كانت مجلة كلاريداد Claridade تنشر له أعماله في سنة 1936م في وطنه.

(4) – عاش في عصر الاستعمار، وكان رائد كتاب وطنه لبراعة قلمه في تأليف رواية أساسية صارت نموذجا مثاليا للكتاب بعده.

(5) – ولد عام 1928م بمالي، ونالت رواياته إعجاب التربويين حتى سجلت في المناهج الدراسية الوطنية ببلاد المنطقة.

(6) – ولد سنة 1931م، ويعد من أقدم المؤلفين المسرحيين في المنطقة، وصاحب لواء الأدب التمثيلي في وطنه.

المالي سعيد باجان سنة 1976م. و" الشاعر الغاني أرماتو[1] الذي بلغ به التعصب إلى حد الهوس فأصبح يرى كل فضيلة في هذا الوجود سوداء ...قال :

إلهنا أسود... نادى عليه من الغابات

من التلال إلى الأحراج

دع الأحراج تسترجع الصدى... إلهنا أسود ".[2]

2- تصوير معاناة الأفارقة في ظل الاستعمار الغاشم :

كعثمان سامبان[3] Ousmane Senbène في " يا بلدي ! يا شعبي الجميـــل O pays ! mon beau peuple " سنة 1957م، والبُرْكِينِي نازي بوني[4] Nazi Boni في " غسق العصور القديمة : وقائع بوامو Crépuscule des temps anciens : chronique du Bwamu " سنة 1962م. والغيني محمد عاليوم فانتوري[5] في "حلقة المدارات Le cercle des tropiques " سنة 1975م.

3 – التنديد بالغزو الفكري الغربي لتشويه الثقافة الإفريقية :

من ذلك : رواية " كليمبيي Climbié " للعاجي برنارد داديي سنة 1956. وروايـــة " فـــخ لا نهاية له Un piège sans fin " للكاتب البينيني أوليمب بيلي كينوم[6] Olympe Bhêly-Quénum سنة 1960م ورواية "سهم الله La flèche de Dieu " للنيجيـــري شـــينوا أتـــشيبي ســـنة 1964م. ومسرحية " أبناء الآلهة " للغاني جيمس إين هنشو سنة 1964م.

4- انتقاد سياسة الحكومات الإفريقية بعد الاستقلال والمجتمع :

من ذلك : رواية "شمس الاســتقلال Les soleils des indépendences" للعـــاجي أمـــادو كروما[7] Amadou Kourouma سنة 1968م. ورواية " قدر واغران الغريب L étrange destin de Wagrin " للمالي أمادو أمباتي باه سنة 1973م، ورواية " كْسالا Xala " للـــسنغالي عثمـــان سامبان سنة 1973م. ورواية " غوغاتي Démagogue " للنيجيري شينوا أتـــشيبي ســـنة 1966م. ورواية " العصر الذهبي ليس لغـــد L âge d or n est pas pour demain " للغـــاني أيـــي كـــوي أرماه[8] Ayi Kwei Armah سنة 1968م. ومسرحيتي " دواء الحب " و " رجل ذو شخصية متميزة " للغاني جيمس إين هنشو. و"ضفادع الغابة Les crapauds brousse" للغيني مونينبو.

---

(1) – شاعر غاني، لم أقف على ترجمته.

(2) –امباي،لو بشير: قضايا اللغة والدين في الأدب الإفريقي: دار جامعة إفريقيا العالمية، لا.ط،1416هـ/1995م، السودان،ص80

(3) – ولد سنة 1923م،وعاش في فرنسا محترفا ومناضلا في النقابات،ثم توجه إلى كتابة الرواية،وصار أول سنمائي بالمنطقة.

(4) – ولد عام 1921م، ولا نعرف عنه كثيرا غير أنه كاتب غير مشهور بأعماله الأدبية في الدول المجاورة.

(5) – ولد عام 1938م، درس الاقتصاد في فرنسا وبلجيكا، وعاش في منفاه منتقدا استبداد حكومة وطنه برواياته الكثيرة.

(6) – ولد سنة 1928م، وهو تصدى بأعماله الأدبية للتيارات الفكرية الغربية التي تسعى إلى طمس أصالة الثقافة الإفريقية.

(7) – عاش ما بين (1927– 2004م)درس في باريس، وحارب مع فرنسا في إندونيسيا،ونفي من بلده لروايته،مات في فرنسا.

(8) – ولد سنة 1939م، كانت أعماله موجهة إلى انتقادات الظروف السياسية في عهد الرئيس كوامي انكروما خاصة.

المبحث الثاني : التعريف بالشعر العربي الإفريقي

1)– مصطلحه :

الشِّعْرُ لغةً بمعنى العِلْم ، وهو مصدر شَعُرَ به شعورا إذا أحس به وعلــم ، لأن قولــك : أشعره الأمر أي أعلمه. ويقال : ليت شِعْرِي أي ليتني أعلم. وشعُر الرجلُ إذا طُبِع على قــول الشعر. ويجمع الشعر على " الأشعار"، وشَعَرَ الرجلُ صاحبَه إذا غلبه في الشعر.[1]

وفي الاصطلاح نجد آراء الباحثين متضاربة ومتباينة في تعريفه، بل جاءت أكثر تعريفاتهم قاصرة على جوانب معينة مع إهمال عناصر أخرى أساسية فيه، ويظهر ذلك في ما يلي :

♦ ***رأي القدماء العرب :***

1– نقل ابن رشيق[2] عن القدماء ما نصّه : « *الشعر يقوم من بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والمعنى، والوزن ، والقافية، فهذا هو حدّ الشعر* » .[3]

♦ ***رأي الكتاب المحدثين :***

*2*_ قال صاحب "معجم المصطلحات الأدبية " ما نصّه: «*الشعر هو التعبير الخيالي عن وجدان عارم، إيقاعي في المعتاد وهو التدفق التلقائي لمشاعر قوية يتم تذكّرها عند الهدوء*».[4]

3_ يذهب طه حسين[5] إلى أن « *المثل الأعلى للشعر هو هذا الكلام الموسيقي الــذي يحقّق الجمال الخالد، في شكل يلائم ذوق العصر الذي قيل فيه، ويتصل بنفوس الناس الــذين ينشد بينهم، ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقا،فيأخذوا بنصيبهم النفسي من الخلود*».[6]

♦ ***رأي الغربيين :***

4_ وفي معجم " روبير الصغير Petit Robert " الفرنسي هو : فنّ الكلام الذي يهــدف إلــى التعبير أو الإيحاء بأمر في أسلوب (وخاصة في وزنه) وإيقاع. [7]

5_ وفي موسوعة"هي مجموعة الإنتاجات المكتوبة أو الشفهية المنظمة في أهمية جمالية".[8]

---

(1) – ينظر : الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، مادة " شعر".

(2) – هو الحسن القيرواني(ت 456هـ) وأديب وناقد اشتهر بكتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه. (موسوعة ألكسو، 337/10).

(3) – القيرواني، ابن الرشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه"، ص 245/1.

(4) – فتحي ، إبراهيم: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى 1986م،تونس. ص 215.

(5) – أديب وناقد مصري (ت 1393هـ/1973)، أثار كتابه " في الشعر الجاهلي" ضجة كبيرة. (موسوعة ألكسو، 422/6).

(6) – حسين،طه:حافظ وشوقي،دار الخانجي ، لا.ط، لا.ت، بيروت، ص 31.

(7) – ينظر المعجم الفرنسي (Petit Robert ، مادة (Poème)

(8) – Littérature : Encyclopédie Microsoft Encarta 2007 , Microsoft Corporation

يتبين للمتأمّل أن هذه التعريفات متباينة ومتفاوتة في القصور، لأن الأول يفتقر إلى الخيال والمشاعر، كما أهمل الثاني مكانة الوزن والموضوع في الشعر، ورأي الغربيين يركز على المتعة والجمال الفني مهمِّشا الفكر، ولولا طول تعريف طه حسين لكان تعريفا جامعا مانعا، لذا أطمئن إلى قولي : ***بأن الشعر تصوير وجداني عن الحياة في عبارات إيقاعية موزونة، يعبر بها الشاعر قصدا بغية التأثير في غيره بجماله الفني ومعانيه العميقة والخيالية.***

ويظهر من تعريفي وما سبق أهم الأسس الشعرية التي تميزه عن النثر :

- ***العاطفة*** : يعد الشعر تعبيرا وجدانيا عاطفيا، لذا لا بد أن يكون الشاعر مرهف الأحاسيس.
- ***الفكرة:*** يرى المازني[(1)]: «*لا غنى للشعر عن الفكر*» [(2)] الذي استمده من ظروف الحياة الواقعية وتأثر به، هذا ما أسموه بالتجربة الشعرية،كي لا يبتعد الشعر عن قضايا العصر.
- ***الخيال:*** إنه وسيلة لغة العاطفة المتأثرة، إنه لوحة فنية يرسمها الذهن بالكلمات تجسيدا للأفكار في استنطاق الجمادات وتحريكها، وهذا ما يسمى بـ " الصورة الشعرية ".
- ***الإيحاء:*** يتميّز الشعر عن لغة التخاطب المباشر بإشارات لطيفة ودالة على معانيه.
- ***الأسلوب:*** يتميز الشعر بجمال خصائصه التعبيرية المستقاة من أساليب بيانية وبديعية فنية.
- ***الغرض:*** هدفه التأثير والتثقيف، «*لا يمتعنا تراثنا الشعري، بل هو يرينا أيضا صور الحياة عند أسلافنا،وكيف كانوا يعيشون، وكيف كانوا يفكرون، وكيف كانوا يتناولون الحياة* » [(3)]
- ***الوزن:*** إن العنصر الموسيقي والإيقاعي أساس في الشعر،أيا كان نوعه في الآداب العالمية.
- ***الذاتية:*** إن الشعر يتميز بالنظرية الفردية ــ فكرة وأسلوبا ــ والتي تجعله أكثر حيوية من الرأي والألفاظ المعجمية،وإذا فقد الشاعر هذه الأصالة تذوب شخصيته في نقل الرأي العام.[(4)]

وبهذه العناصر يمكن أن نفرق بين الشعر والنظم، لأن الثاني يفتقد إلى العاطفة، والخيال، والإيحاء، والذاتية، فهو يقتصر على الوزن والأسلوب التقريري والفكرة العلمية، ومن هنا يظهر لنا نوعان أساسيان من الشعر: شعر فني غنائي وآخر تعليمي.

وبعد ذلك علينا أن نقف على مصطلح " الشعر العربي الإفريقي " أو " الشعر الإفريقي العربي "، كلاهما سيان عندي ، فلا فرق بين الصياغتين إلا من الناحية اللفظية. وإذا حاولنا أن نحددهما بتعريف فلن يكون بينهما فرق يذكر. وفي تعريفه أقول :

" هو الشعر الذي نظمه الأديب الإفريقي بمنطقة السودان الغربي على نسق أوزان الشعر العربي الأصيل للتعبير عن رؤيته الخاصة في الحياة كي يتأثر به الآخرون ".

---

(1) – هو إبراهيم عبد القادر أديب مصري مجدد، عاصر العقاد وشكري، له مؤلفات في الأدب والنقد.(الأعلام للزركلي 72/1).

(2) – موافي، عثمان وآخر:دراسات في النقد العربي الحديث،دار المعرفة الجامعية، لا .ط، لا.ت، الاسكندرية، مصر، ص129.

(3) – ضيف، شوقي : فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف، لا.ط، لا.ت، مصر، ص9.

(4) – إسماعيل، عزالدين: الأسس الجمالية في النقد العربي،دارالفكرالعربي، لا.ط، 1421هـ/2000م، القاهرة، مصر،ص295.

2)– نشأة الشعر العربي الإفريقي :

إنه لمن الصعوبة بمكان أن تكشف دراستنا هذه عن اسم أول من قال شعرا بالعربية في المنطقة، وإن كان في مقدوري أن أدلي بدلوي في محاولة تحديد تلك الدوافع التي أدت إلى نشأة هذا الشعر في أوساط العلماء، وأن نحدد المسار الزمني والمكاني اللذيْن تمّت فيهما نشأة هذا الشعر العربي الإفريقي وازدهاره.

إن هناك ثلاث ظواهر تعد من مبشرات وجود الشعر العربي بالمنطقة ، هي : وجود اثنتي عشرة مدرسة في مملكة غانة القديمة منذ القرن الثامن الميلادي، ووجود نخبة من العرب المترجمين في بلاط الملوك، والتجار العرب والبربر المسلمين الذين كانوا يزورون عاصمة غانة من حين لآخر.

فلا شك أن الإفريقي المسلم قد يقف على نماذج شعرية في الكتب التي كان يدرسها، ولا شك أن بعض هؤلاء المترجمين أو التجار كانوا شعراء أو حاولوا قول الشعر في مدح الملوك والأمراء ــ وإن لم يفهموه ــ إحياء لمثل هذه الظاهرة عند العرب.

وإذا كنا نفتقد إلى نصوص شعرية لتعزيز دعوانا في احتمال نشأة الشعر العربي الإفريقي منذ القرن الثامن الميلادي الموافق للقرن الثاني الهجري، فإن لدينا في القرن الثاني عشر الميلادي دليلا ملموسا في شخصية أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الشاعر الأسود الذي نبغ في الشعر بمملكة كانم، والذي عبر المناطق الغربية للوصول إلى السلطان يعقوب المنصور الموحدي الذي حكم ما بين (1184–1199م) ليمدحه بقصيدة أجازه عليها، ورد فيها ما يلي:

أزال حجابه عني وعيني ** تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفضله ولكن ** بعدت مهابة عند اقتراب[1]

وكانت ماسينا، وجني، وبينا، وكنتي، وكمن، في منطقة حوض النيجر، مدنا مكتظة بالعلماء والطلبة في القرن الحادي عشر الميلادي، ودلت سياحات عبد الرحمن السعدي[2] على ذلك، إذ وصفها في الباب الثاني والثلاثين من كتابه " تاريخ السودان، لا أشك أن بعض هؤلاء قد حاولوا قول الشعر تأثرا بالمدائح النبوية.

ومن هنا يمكن القول إن الشعر العربي الإفريقي قد نشأ منذ القرن التاسع الميلادي، وبدأ ازدهاره في القرن الحادي عشر الميلادي. ولكن الذي يمكن أن يكشف تناقضا في الرأي هو ما يقف عليه المرء من عدم نضوج الشعر في القرن السابع عشر الميلادي ببلاد

---

(1) – الماحي،عبدالرحمن عمر:مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي، مقالة في حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد4 سنة 1491هـ/1998م، نيامي ، النيجر، ص162.

(2) – هو ابن عبدالله السعدي(ت1655م) ألف(تاريخ السودان)أعظم ما كتب في تاريخ المنطقة(الثقافة الإسلامية في تشاد، ص188)

شنقيط[1]، ولكن عدم النضوج لا يعني عدم بروز الشعر وانتشاره بين العلماء، بل كان الذي يحول بينه وبين تطوره هو شدة المراقبة الفقهية التي حددت الشعر في نطاق ضيق، حتى إن بوادره الأولية كانت مقطّعات شعرية في المديح والتوسل ينشئها بعض الفقهاء.[2]

لم تكن نشأة الشعر العربي الإفريقي غير بعيدة عن هذه البواكير الأولية في نشأة الشعر عند الشناقطة. وذلك لارتباطه الشديد بالمراكز العلمية التي احتضنت الشعر ووجّهته نحو الموضوعات الدينية، وضيّقت الخناق على أغراض الغزل والهجاء والوصف، فتطور الشعر في قوالب المدائح النبوية والمنظومات العلمية (الشعر التعليمي). الأمر الذي يجعلنا نفهم علة كثرة هذين النوعين في الشعر العربي الإفريقي.

وبعد قدوم بعض العلماء الشعراء مع الملك منسا موسى سنة 1325م إلى تِنْبُكْتو التي بدأت مع جني وغيرهما من المدن العلمية تزخر بالأدب الشعري حتى القرن السادس عشر الميلادي – عصر احتلال المغاربة لتِنْبُكْتو – فانتشر العلماء غربا نحو ولاته بموريتانيا، وشرقا نحو بلاد نيجيريا، ومن بين هؤلاء المستقدمين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي الغرناطي، وسيدي يحيى بن عبد الرحمن الأندلسي، وكلاهما أديبان عالمان.

ويعد الساحلي أول من عارض البردة في المنطقة ، فجاء مطلع قصيدته :

تألق البرق مجتازا على إضم ** فبتّ أعشو لوقد منه مضطرم[3]

وتشير المصادر إلى تشطيره للامية الطغرائي، وله مدائح كثيرة كرائيته في مدح أبي الحسن المريني ، وكان لإنتاجه صدى في الحياة الأدبية.[4]

وجاب أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي من توات بالجزائر (ت909هـ /1504م) بلاد المنطقة من السنغال إلى نيجيريا، كان شاعرا بارعا، إذ خلف منظومات في المنطق، وعلم الميزان، وعارض بردة البوصيري[5]. وقد أجمع المؤرخون على أنّ رحلته ومنظوماته تركت آثارا عميقة في الحركة العلمية ونهضة الشعر العربي لدى العلماء الذين اتصلوا به، واقتدوا به وبآرائه واتخذوا مؤلفاته مناهج دراسية لطلاب العلم.[6]

إذاً من الأحرى أن نقر بنشأة الشعر في صحراء مالي، وفي كانم كذلك، ولكن بلاد هوسا بنيجيريا لم تشهد الشعر إلا على يد الذين أَتَوْا من مالي إلى كنو، وأدخلوا فيها لأول مرة كتب

---

(1) – الحسن، أحمد ولد : الشعر الشنقيطي، ص 82.

(2) – المصدر نفسه، ص 84.

(3)–جالو،سعيد أبوبكر:أثر القصيدة الأندلسية في السودان الغربي،بحث التخرج،بقسم اللغة العربية في جامعة بماكو،1999م،ص11

(4) – ينظر : ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله القرطي : الإحاطة في تاريخ غرناطة، لا.ط، لا.ت

(5) – هو محمد بن سعيد الصنهاجي(ت695هـ/1296م) أديب ومتصوف عاش في مصر. (الأعلام للزركلي، ص 139/6).

(6) بدري،محمد فهد: أثر الإسلام في انتشار العربية في إفريقيا، مقالة في حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد4، 1419هـ /1998م، نيامي، النيجر، ص 187–191.

اللغة والتوحيد، وكانت الدراسة مقتصرة على كتب الفقه والحديث بعد القرآن الكريم، في عهد الملك يعقوب بن تساقي والد محمد رمفا.[1]

3)- عوامل التجربة الشعرية :

أما العوامل التي مهدت الطريق للأفارقة ودفعتهم إلى التجربة الشعرية فهي كما يلي :

- إن المدائح النبوية احتلت مكانة مرموقة في المناهج الدراسية لدى جميع علماء المنطقة.
- كثير من الكتب الدراسية كانت منظومات شعرية كما سنرى لاحقا.
- إقامة الحفلات في بيوت العلماء لقراءة المدائح النبوية.[2]
- اتخاذ بعض العلماء عادة قراءة المدائح في يوم الجمعة في بيوتهم، أمثال عشرينيات لأبي زيد الفازازي[3]، وتخميسها لابن مهيب [4] بعنوان " الوسائل المتقبلة". [5]
- وكانت قراءة المدائح شائعة في ليالي رمضان بعد العشاء[6].
- إقامة الحفلات الختامية بعد قراءة بعض الكتب المشهورة[7].
- من أول شهر صَفَر إلى اليوم الثامن عشر من ربيع الأول كانت العشرينيات تتلى في جميع مساجد تِنْبُكْتو، استقبالا للاحتفال بالمولد النبوي وتوديعا له.[8]

4)- أطوار الشعر العربي الإفريقي وعصوره :

من عادة الأدباء محاولة تقسيم مراحل تطور الأدب العربي إلى عصور، على الرغم من رفض البعض ذلك[9]، وإذا كانت الظروف غير مهيَّأة للقيام بمثله ، لأن التجارب الأدبية بين مناطق هذه الدراسة لم تكن موحدة، ولم تتحكم فيها سياسة واحدة إلا في مرحلة من تاريخها.

ولكن مثل هذه الظروف لم تمنع بعض الباحثين الأفارقة من أن يتسابقوا إلى تقسيم مبدئي لأطوار الأدب العربي الإفريقي بصفة عامة، أو الشعر العربي الإفريقي بخاصة، فربّما يعدّ الشيخ آدم عبد الله الإلوري سباقا إلى هذا الميدان قبل غيره،فحاول تقسيمه إلى خمسة عصور:

1- العصر البرنوي من القرن الخامس إلى السابع الهجري.
2- العصر الونغري من القرن السابع إلى التاسع الهجري، هو العصر الذهبي بتِنْبُكْتو.
3- عصر المغيلي من القرن التاسع إلى الحادي عشر الهجري.

---

(1) – غلادنثي،شيخو أحمد سعيد:حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 64.

(2) – المصدر نفسه، ص 198.

(3) – عبد الرحمن بن يخلفتن،ولد بقرطبة وتوفي بمراكش عام627هـ/1230م،أديب فقيه ومتكلم.(الأعلام للزركلي، ص 342/3)

(4) – هو الإمام أبو بكر محمد بن مهيب من صحراء المغرب، اشتهر بتخميساته لقصائد الفازازي، لم أقف على تاريخ وفاته.

(5) – كعت، محمود : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان، (هوداس) لا.ط، 1964م، باريس، ص124.

(6) – بدري، محمد فهد : أثر الإسلام في انتشار العربية في إفريقيا ، ص 216.

(7) – المصدر نفسه، ص 216.

(8) –جالو،سعيد أبوبكر:أثر القصيدة الأندلسية في السودان الغربي،بحث التخرج،بقسم اللغة العربية في جامعة بماكو،1999م،ص19

(9) – الكيلاني،نجيب: آفاق الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1406هـ/1985م. ص 19.

4- العصر الفلاني من قيام الدولة الإسلامية بصكتو إلى سقوطها.

5- العصر الإنجليزي من سقوط الدولة الإسلامية إلى الآن.[1]

يبدو أن المقترح صالح في حق الأدب العربي بنيجيريا، ولا يمكن تعميمه على سائر بلاد المنطقة، لأن المؤلف قد تأثر بعصور الأدب التونسي فطبقها على وطنه ثم أراد تعميم ذلك ، ولأسباب أخرى : كان دخول الإسلام في مملكة غانة قبل القرن الخامس الهجري، ولا مبرر لاستقلال الشيخ المغيلي بعصر معين! لأن العصر الونغري يشمل عصر المغيلي، وازدهار تِنْبُكْتو امتد إلى القرن السادس عشر الميلادي، وإن تأثير المغيلي كان متفاوتا من بلد لآخر، إذ لم يؤثر في السنغال وغينيا تأثيرَه في نيجيريا. وأما تحديده لعصر الدولة الإسلامية بصكتو فتختص به نيجيريا والنيجر وبنين، ولم تعرف غير هذه البلاد أي تأثير لإصلاحات الشيخ عثمان بن فودي. ثم إن المؤلف لم يول اهتماما لما بعد استقلال الدول، والنهضة العلمية التي قامت بفضل بعثات الأفارقة إلى جامعات الدول العربية.

وبعد الشيخ آدم الإلوري، يأتي زكريا حسين ليدلي بدلوه في تحديد "عصور الأدب العربي في غرب إفريقيا " :

1/ عصر الاستهلال : أو عصر كانم وبرنو والموحدين (1000-1300م)

2/ عصر الاسترشاد: أو عصر الدعاة الوافدين (1300-1804م)

3/ عصر الاستقرار: أو العصر الفودي (1804-1903م)

4/ عصر الاستعمار: (1903-1960م)

5/ عصر الاستقلال: (1960-1999م)

6/ عصر الازدهار: (2000- إلى ما شاء الله تعالى)[2].

لا شك أن القارئ يلاحظ معي أن صاحبنا ركّز على نيجيريا مدّعيّاً التعميم لبلاد المنطقة، ومهملا ممالك غانة ومالي وصنغاي التي كانت أكبر وأوسع من كانم وبرنو، مهمّشا سائر المراكز العلمية الكبرى في المنطقة، وخاصة تِنْبُكْتو وجني اللتين ازدهرتا وشهدتا تطورا من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر الميلادي. ولا يمكن أن نحدد هذه العصور بالسنوات إذا أردنا أن تكون صالحة لغرب إفريقيا، لأن نيجيريا بدأ استعمارها بعام 1903م بخلاف سائر البلدان، وتاريخ استقلالها يختلف عن سائر الدول. ولماذا يحدد عصر الازدهار بسنة 2000م، ربما تأثر بنظرية الألفية الثالثة التي يزعم البعض أنها ثورة عالمية بالعولمة الثقافية، إذ لا نجد فرقا بين العقدين الأخيرين من القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة لدى الأدباء الأفارقة.

---

(1) – الإلوري، آدم عبدالله:مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، الطبعة الثانية، د.ت، لاجوس، نيجيريا، ص 29-30.

(2) –حسين،زكريا:المأدبة الأدبية لطلاب العربية في إفريقيا الغربية، دار النورللثقافة العربية والإسلامية، الطبعة الأولى،1421هـ /2000م، أوتشي، نيجيريا. ص 174-181.

ولم يورد اسما من علماء المنطقة غير نيجيريا عند شرحه لهذه العصور في كتابه، وهذا يدل على عدم إلمامه بالأدب العربي وأعلامه في سائر البلدان الإفريقية. وكان صاحب "حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا " أسلم من الخطإ لما حدد تقسيمه للعصر الأدبي النيجيري من غير تعميمه للمنطقة.[1]

والحري بالذكر أن بعض بلدان المنطقة مرت بظروف مختلفة في سنوات متباينة، الأمر الذي يصعب على المرء أن يحدد عصورا للحركة الأدبية أو العلمية، ويمكن أن نوفق في ذلك إذا جمعنا البلدان تحت ظروف عامة وتحديد حركتها العلمية بالقرون لا بالسنوات، ومن هنا ارتأيت هذا التقسيم :

1.= ***<u>عصر دخول الإسلام وبداية التعلم</u> :*** ويبدأ هذا العصر باعتناق الأفارقة الإسلام وبواكير تعلمهم على أيدي العرب المهاجرين والتجار منذ القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي إلى القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي بقيام حركة المرابطة. كما سبق أن أشرنا إلى ذلك عند دخول الإسلام في المنطقة.

2.=***<u>عصر ازدهار العلوم الشرعية واللغوية والأدبية</u>:*** وذلك من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وهو عصر نضج العلماء الأفارقة بتأسيس " تِنْبُكْتو " التي كانت كعبة لجميع طلبة المنطقة، حيث التقى فيها طلبة السنغال مع طلبة نيجيريا. وشهد هذا العصر استقدام منسا موسى للعلماء العرب إلى تِنْبُكْتو وجني، كما حظي العصر بزيارة بعض العلماء العرب في المنطقة كالإمام السيوطي والمغيلي وابن بطوطة، ولمعت أسماء العلماء الأفارقة المتبحرين في آفاق المنطقة. وانتهى هذا العصر باحتلال المغاربة تِنْبُكْتو وإجلاء العلماء منها وأسر بعضهم إلى المغرب.

3.= ***<u>عصر وفادة العلماء والحركة القادرية</u> :*** وذلك من القرن السادس عشر إلى الثامن عشر الميلادي، أي بعد سقوط تِنْبُكْتو وفد العلماء والطلبة إلى سائر البلدان ، فأنشؤوا فيها قرى جديدة، ونشروا فيها ما لديهم من العلوم. وقد وصل بعض العلماء الونغارويين من مالي إلى نيجيريا. كما كانت بداية حركة التصوف وانتشار القادرية في المنطقة على يد الكنتيين أمثال سيدي المختار الكنتي وسيدي أحمد البكاي، فوصل بعضهم إلى نيجيريا والآخرون منهم إلى السنغال لإنشاء زواياهم فيها، حتى لم يبق عالم من العلماء في هذين القرنين إلا وله صلة بالقادرية.

4.= ***<u>عصر الدول الإسلامية بالمنطقة</u> :*** وذلك من القرن الثامن عشر إلى التاسع عشر

[1] – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا (1804–1966م)، ص 31.

الميلاديين. ومن هذه الدول : الدولة الإسلامية في فوتاجالون بغينيا عام 1730م، ودولة الأئمة في فوتاطورو بالسنغال سنة1776م، والدولة الإسلامية في شـمال نيجيريـا عـام1804م، والدولـة الفولانية في ماسينا بمالي سنة 1818م، والإمارات الإسلامية بشمال غانا ووسطها. ويعـد هـذا العصر عصرا ذهبيا للقادرية التي ازدهرت على يدها العلوم والمدائح الشعرية للنبي ﷺ وعبـد القادر الجيلاني والشيوخ الصوفية.لأن كل هذه الدول كانت تدين بالطريقة القادرية.

5.=***عصر الاستعمار ومقاومته بالحركة العلمية :*** يبدأ هذا العصر بالربع الأخير من القـرن التاسع عشر إلى ما بعد منتصف القرن العشرين الميلادي. لم يكن عصر الاسـتعمار عـصر ركود وتخلّف، بل كان عصر يقظة ووعي، إذ أفاق العلماء من سـبات الاطمئنـان لـشعورهم بالخطر المهدد للثقافة الإسلامية، فشمّروا عن ساعد الجدّ لتأسيس مراكز علمية، وتخريج علماء لإنشاء قرى علمية، بخلاف الذين تسلحوا لمقاومة المستعمرين. وشهد العصر حركـة صـوفية جديدة ، هي الطريقة التجانية ، بزعامة الشيخ عمر تال الفوتي. بل كانت دار كل عالم مجلـسا علميا يرتاده أبناء الحي والقرى المجاورة. وفي هذا العصر أنشئت مدارس نظامية جديدة فـي المنطقة، وفي ظلها نمت ثورة ثقافية، بعثت تياراتها الهمم والقرائح الأدبية للتنديد بالاسـتعمار، والإشادة بمكانة العلماء الأجلاء في المنطقة، كما سنذكرهم لاحقا.

6.= ***عصر النهضة بالاستقلال وبالبعثات العلمية :*** تنفست الحركة العلمية العربية الصعداء منذ سنة 1957م باستقلال جمهورية غانا ثم سائر البلدان في الستينات، ونهضت بكثرة البعثـات العلمية التي وفدت من كل دولة إلى جامعات الدول العربية في الخليج العربي والشرق والمغرب العربيين. وهناك درسوا " الأدب العربي " دراسة أدبية معاصرة، وألمـوا بعـصوره الأدبيـة وأعلامه النجباء وغِنى تراثه الشعري والنثري، فعرف " الأدب العربي الإفريقي" من جراء ذلك تطورا في مضمونه وأفكاره وأساليبه الفنية.

5)– قيمة الشعر العربي الإفريقي و أجناسه :

ليس بدعة أن يشتمل الشعر العربي الإفريقي على أجناس أو أنواع، لأن الشعر إذا ازدهر عند قوم يتنوع إلى فنونها ا لرئيسية المعروفة في مختلف الآداب. وغنى هذا الشعر يعرف بكثرة أعلامه، وثراء موضوعه، ونماء أسلوبه، وتنوع أفكاره، وإيقاع أوزانه، وتباين قضاياه، لذا لـم يغال الشيخ آدم عبد الله الإلوري عندما قال :

« وإني لأعتقد أن بلادنا هذه لا تقل شأنا في ميدان الأدب عن بقية بلاد العـالم الإسـلامي كالهند والسند والترك والفرس. ولولا أن كنوزنا الأدبية بقيت مطمورة في خبايا الخفايـا، ولـو اطلع العالم على هذه الكنوز لاعترف بها لنا » [1].

[1] – الإلوري، آدم عبد الله : مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ص 19.

لمعرفة قيمة هذا الشعر يمكن أن نقف على بعض آثاره من أعلامه القدماء ، أمثال أحمد بابا التِنبُكْتي، الذي حن إلى بلدته بعد أسره فقال :

أيا قاصدا كَاغَوْ فَعُجْ نحو بلدتي ** وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي
سلاما عطيرا من غريب وشائق ** إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي[1]

ويقول محمد بللو سلطان صكتو بعد أبيه ابن فودي في تائية يمدح بها السيد المختار الكنتي :

ومن هو العلم المشهور سورته ** ومن هو المـورد المعسـول للآت
ومن تبلج من أضواء طلعته ** نور الهداية عن سبـل الضـلالات[2]

لذا يشيد أحد شعراء الدراسة ــ هو ذو النون السنغالي[3] ــ بمكانة الأسلاف في الشعر قائلا:

لقد نظموا قصائـدهم عقودا ** فـدان لهـم فرزدق أو جـرير[4]

ولله در ابن قتيبة إذ قال « *ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمـن، ولا خص به قوما دون قوم* » [5]. وكما أن لكل عصر ذوقه ومذهبه في الشعر[6]، فـإن لهـذا الشعر ذوقه اللغوي وتصويره الذاتي،وأسلوبه الشعري، وقيمه الفكرية، ومضمونه الاجتمـاعي. ولا بد من تقدير هذه المقومات الخاصة بهذا الشعر أثناء دراستنا النقدية لنماذجه، إذ لا يمكن أن نزنه بمعايير شعر آخر في عصر آخر، وإلا لن يحالفنا النجاح للوصول إلى حقائقه الفنية.

وأما أجناسه فقد وجدناه متفرعا إلى هذه الأقسام الشعرية الأربعة :

1.= ***الشعر الغنائي :*** وهو شعر وجداني فني، يتميز بصبغة نفسية لأنه نتاج تأثير انفعالي، كما يتميز بأغراضه المتباينة وأوزانه الموسيقية على نمط الشعر العربي.
2.= ***الشعر التعليمي :*** هو الأدب التعليمي الذي يتمثل في المنظومات لمختلف العلوم الشرعية واللغوية، وهو ذو كثرة لدى العلماء الشعراء في المنطقة.
3.= ***الشعر الملحمي :*** من المعلوم أن " الملحمة " فن وافد وطارئ على الأدب العربي، ومـا نقصده هنا قد لا تتوفر فيه خصائص الملحمة اليونانية، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نطلق عليـه هذا المصطلح، لأنه شبيه به في بعض خصائصه، كي نميزه عن غيره من أنواع شعرنا.
4.= ***الشعر القصـصي:*** وهذا أقل أنواعه كمية وغناء، إذ لم يول شعراء المنطقة اهتمامهم بـه قديما إلا حديثا، فهو من تأثير الأدب العربي الحديث في طلبة البعثات العلمية.

وسيتناول الباب الثالث دراسة هذه الأنواع ومناقشة خصائصه في هذا الشعر الإفريقي.

---

(1) – الوفراني،محمد الصغير:نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.مكتبة الطالب،ط2، د.ت، هوداس، الرباط،ص315.
(2) – غلادنثي، شيخو أحمد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 107.
(3) – ولد عام1877م أخذ العلم عن أحمد أنجنك بعد أن تنقل للعلم في فوتاطورو وموريتانيا، توفي 1927م في تياس بالسنغال.
(4) – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ج 1 ص267.
(5) – نقلا عن هلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث، دار العودة،لا.ط، 1987م، بيروت/لبنان، ص 172.
(6) – المصدر نفسه، ص 408.

6)- مراكز الشعر العربي الإفريقي وأعلامه القدماء :

قبل الحديث عن هذا الشعر في القرن العشرين لا بد من الوقوف على مراكزه الكبرى في المنطقة ، والمناهج الدراسية التي نمت عليها قرائح الشعراء القدماء الذين يجدر بنا أن نقف على أسمائهم ونماذجهم الشعرية التي ستفتح لنا آفاق الثراء الشعري في هذا التراث الإفريقي.

وتتمثل هذه المراكز في قصور الأمراء ومنازل العلماء والمساجد والكتاتيب :

❊ ***تِنْبُكْتو:*** هي المدينة التي« *ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها لغير الرحمن*» [1] بلغت مدارسها 150 مدرسة في القرن السادس عشر الميلادي، أكبرها " جامع سنكورى "، لذا أصبحت أكبر مركز ثقافي في المنطقة، وأزخرها بالعلماء والطلبة، وأحبها للعلماء الوافدين، وأزهاها انتشارا للغة العربية في الشوارع والأسواق، وكانت الكتب أكثر السلع رواجا في أسواقها. ومن علمائها الأفذاذ : محمد بن محمود بن أبي بكر[2]، وأحمد بن أحمد أقيت[3]، عبدالعزيز التكروري[4]،وعبدالرحمن السعدي[5]،القاضي محمود كعت[6]،وأحمد بابا التنبكتي[7]

❊ ***جنّي :*** تأتي بعد تِنْبُكْتو في توجه العلماء والطلبة إلى مجالسها العلمية، أسست في القرن الثاني الهجري، وأسلم ملكها في القرن السادس الهجري على يد 204 عالم، إن صح هذا الرقم فإن المدينة تعد أهم مركز علمي وتجاري في المنطقة عصر ازدهارها. ومن علمائها: موري ماجانا[8]، ومحمد سانو[9]، والعباس كبى[10]، وأحمد طورفو[11].

❊ ***ماسينا :*** أصبحت سنة 1825م مركزا ثقافيا بفضل استقرار الدولة الإسلامية التي أقامها أحمد لوبّو (ت 1858م)، وبفضل امتداد نفوذها إلى الكونتيين القادريين في تِنْبُكْتو، فكانت شعلة للقادرية والعلوم الإسلامية[12].

❊ ***جامعة بير :*** أسّسها القاضي عمر فالْ [13] بالسنغال، وفيها درس سليمان بالْ (ت 1769م) ــ مؤسس دولة الأئمة في فوتاطورو ــ والحاج عمر الفوتي ووالده ، فكانت كعبة للطلبة حتى

---

(1) – السعدي : تاريخ السودان، ص 21.

(2) – عرف ببَغيُغُ، فقيه (ت 1002هــ/1593م)، كان يقتني مكتبة غنية، كان أستاذا لأحمد بابا التنبكتي. (نيل الابتهاج، ص 600)

(3) – والد أحمد بابا التنبكتي الشهير، فقيه محدث بياني، حج (ت991هــ/1583م). (نيل الابتهاج:141، إزالة الريب والشك:82).

(4) – رحل إلى المشرق، وأقام في مصر مدرسا مسائل مختصر خليل، عاش في القرن التاسع الهجري. (نيل الابتهاج، ص 275).

(5) – عبد الرحمن بن عبد الله (ت 1065هــ/1655م) ولد ومات بتنبكتو، أشهر مؤرخ بمؤلفه"تاريخ السودان".(السعادة الأبدية:73)

(6) – مؤرخ المنطقة (ت 936هــ/1529م) له " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش".(الثقافة الإسلامية في تشاد:189).

(7) – نسبه في جدالة البربرية،من علماء تِنْبُكْتو الكبار، أسر إلى المغرب،(ت1016هــ/1607م. (الثقافة الإسلامية في تشاد:191).

(8) – شهد له السعدي أنه فقيه ومفسر،وبارع في التدريس، كان بيده إشراف مسجد المدينة في القرن 15 الميلادي.

(9) – تولى القضاء في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي.

(10) – هو الذي خلف محمد سانو في القضاء حتى سنة 1552م/960هــ،

(11) – يعد أحد قضاة المدينة، ومن علمائها الأجلاء، ولد بالمدينة، ولم أقف على تحديد العصر الذي عاش فيه.

(12) – باري، عثمان برايما: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 167-175.

(13)–ولد سنة 1555م في فوتاطورو حيث درس،أبوه باتي فال من أصل كجور،ثم رجع إلى موطن جده لتأسيس مجلسه عام1611م

القرن 19 الميلادي،عندما دمّرها المستعمرون وأفرغوها من علمائها وطلبتها.[1] وبجانبها ***مدرسة كوكي*** التي أسسها في القرن السابع عشر الميلادي مختار اندمب ديوب، خريج تِنْبُكْتو.

❋ ***طوبى:*** أسسها الحاج سالم جابي الأكبر[2]سنة1231هـ/1815م بمنطقة فوتاجالون بغينيا، ولم يلبث أن قصده الطلاب من الدول المجاورة، وكانت مناهجها غنية بالعلوم اللغوية، الأمر الذي كثر فيها الشعراء الفحول:منهم محمد التسليمي[3]،وقطب عبدالقادرجابي[4]وغيرهما

❋ ***فوتاجالون:*** بعد قيام الدولة الإسلامية فيها على يد الفولانيين في القرن الثامن عشر الميلادي، كثرت فيها دور التعليم في أكثر مدنها، وخاصة في فوغومبا، وتمبي مدينة، ولابي. وكان لقب " الإمام " يطلق على ولاة المدن، الذين لا يختارون إلا من الفقهاء. وكان لسائر العلماء ألقاب " ألفا" و "جرنو" بمعنى الفقيه. ومن علمائها : ألفا إبراهيم موسى باه(ت1751م)، وإبراهيم سوري، وعلى يدهما تأسست الدولة، وكان ذريتهما يتناوبون على الإمامة في كل سنتين[5]،ومن العلماء الشيخ محمد ملل.[6] ومن هذه المنطقة جلّ شعراء غينيا.

❋ ***كنكان:***كانت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر الميلادي تزخر بالأسر العلمية التي وفدت إليها، واتخذت ديارها مركزا علميا يقيم الطلبة فيه : منها جانيلا، وشريفولا، وكمارالا، وكانتيلا، وجيكونو التي منها أجلة العلماء والصالحين أمثال ألفا كابني[7] كَبا، وألفا محمود كبا[8]. والشيخ فانتا مادي شريف[9] من شريفلا، إبراهيم تباري صوري من جانيلا[10].

❋ ***بُنْدوكو:*** هي المدينة الشرقية في ساحل العاج، كان بها مجلس كبير لآل "تيميطي". وأسهمت عشيرتا " واترا " و "كَمَغَتي" في نشر الثقافة العربية فيها[11]. فاشتهر من علمائها الشيخ أبوبكر تيميطي[12] في القرن 19 الميلادي. وبجانبها اشتهرت بعض مدن شمال الدولة: مثل سماتيغيلا، وكون، وطوبى أخرى تقع في غرب الدولة.

---

(1) – Diouf, El-hadj Demba Lamine: Khaly Amar Fall fondateur de l Université de Pire, p 13

(2) – ولد سنة 1722م، في بندو بالسنغال، ثم زار مدنا في مالي وليبيريا وغينيا الوسطى لتأسيس مدينته العلمية. ينظر كتاب (الكنز الأوفر في سيرة الحاج سالم الأكبر للحاج عمر السالمي، البستان، الطبعة الأولى، 1992م، باريس، ص76.)

(3) – ابن الحاج سالم، وخليفته بعد وفاته (1803–1858م)، أوصى له أبوه بالخلافة رغم كونه أصغر إخوته.(المرجع نفسه:139)

(4) – هو ابن محمد التسليمي، ورث عن أبيه الولاية والصلاح، فكان عالما وشاعر، له عدة قصائد في آبائه. (المرجع نفسه:149)

(5) – باري،عثمان برايما:جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي،ص162–163،و(P. Marty:l'Islam en Guinéé)

(6) – نزيل لابي من جافونا بمالي في القرن18م، فبنى بها مجلسا علميا تخرج فيه علماء. (P. Marty:l'Islam en Guinéé)

(7) – عابد متنسك ورع، من حي جيكونو، اتخذ السكان مصلاه جامعا كبيرا ، عاش حوالي القرن 17 الميلادي. (مقابلة شخصية)

(8) – عاش في القرن 19م، له ديوان " بحر الأنوار"، كان ابنه كرمو موري(1828–1916م)وليا ورعا. (مقابلة شخصية)

(9) – اشتهر بالولاية والصلاح،(ت 1955م)، اشتهر بإجابة دعواته وكراماته ، تخطت شهرته حدود وطنه. (مقابلة شخصية)

(10) – كان تلميذا لألفا محمود الذي استقدمه من دنغراي، أقام في سوبيلا قرب كنكان، وبنى أول مسجد فيها، وطار صيته، فطلب منه شيخه الإقامة في كنكان، فقبل مؤسسا مدرسة جانيلا، وصار كثير من أولاده وأحفاده كبار العلماء في الدولة. (مقابلة شخصية)

(11) – وترا، محما: اللؤلؤ المسلوك في تاريخ بندكو، بحث التخرج بالجامعة الإسلامية في النيجر،1998م،ص 17.

(12) – هو شيخ علماء المدينة في عصره، كان غزير العلم متبحرا في العلوم الشرعية واللغوية، لم نعلم إن كان له مؤلفات.

❋ ***جوغو:*** هي العاصمة الدينية لديندي في شمال بنين،دخل الإسلام فيها بفضل التجار الهوساويين والفولانيين، ووفدت إليها بعض قبائل ماندي "جارا وسانو" فأقامت فيها.فأصبحت كعبة للدراسات القرآنية، فلا تخلو دار فيها من مجلس قرآني، وبها مجالس متخصصة للدراسات اللغوية(1)من العلماء الكبار أمثال : ألفا طاهر كوتوكورى، وألفا الزبير، وألفا توكورو(2).

❋ ***مراكز تكدة وآهير وأكدز***(3): تقع هذه المدن في صحراء النيجر، وكلها كانت مدنا تجارية وعلمية، تكتظ بالعلماء ، ويقصدها طلبة العلم، وينزل فيها تجّار الكتب، وكانت مجالسها العلمية تحت إشراف علماء كبار أمثال:الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصماني(4)، والنجيب بن محمد شمس الدين التكداوي(5)، وسيدي محمود البغدادي(6)، والحافظ البلبالي.(7)

❋ ***مراكز كانم وبرنو:***(8) عني سلاطين هذه المملكة بتكريم العلماء، والإشراف على دور التعليم، فكثرت فيها أنواع من مجالس العلم، وأمّها العلماء والطلبة. ومن علمائها : في كانم عمر بن عثمان(9)، وأبوبكر الباركوم(10)، ومحمد الوالي(11). وفي برنو الشيخ ولديد(12).

❋ ***مراكز بلاد هوسا :*** لم تكن فيها مدينة إلا وكان بها مجالس علمية، ولا عالم إلا وقد حول داره إلى دهليز تعليميّ، فكثر فيها العلماء أكثر من أي دولة أخرى في القرنين 18 و19 الميلاديين. وسبب ازدياد الشعراء يرجع إلى تخصّص بعض العلماء في تدريس الكتب اللغوية والأدبية. نذكر من علمائها في كشنة : عبد الله الثقة(13)، ومحمّد موطّأ(14) ، ومحمد مود (15). وفي كنو : محمد بن مسنى(16) ، وعائشة المفسرة(17). وفي زاريا : الشيخ هارون الزكزكي(18).

---

(1) – الرابع، تميم محمد: حضارة مدينة جوغو، ص 85.

(2) – لم أقف على سير هؤلاء العلماء، غير أنهم أولعوا بتدريس الكتب اللغوية على الطلاب الوافدين من الدول المجاورة.

(3) – الإلوري، آدم عبدالله : الإسلام في نيجيريا، ص 58–59.

(4) – أخذ العلم عن المغيلي، وعن السيوطي، وخلف مؤلفات وفتاوى، توفي سنة 950هـ/1543م.(الإسلام في نيجيريا،ص 58)

(5) – تلميذ أحمد سحوليه،وشيخ تكدة في عصره،وعلق على الفازازي والسيوطي(ت1006هـ/1597م) (الإسلام في نيجيريا:59)

(6) –كان صوفيا مشهورا بالكرامات حتى ادعى له أتباعه بالمهدية،فكرهه العلماء فأغروا به السلطان فقتله.(الإسلام في نيجيريا:59)

(7) – الحافظ مخلوف:كان معاصرا للعاقب الأنصماني، نزل بكنو وكشنة فأفاد أهله، وأزكى العلم بأكدز. (الإسلام في نيجيريا:59)

(8) – الدكو،فضل كلود:لثقافة الإسلامية في تشاد...لإمبراطورية كانم، كلية الدعوة،ط1، 1998م، طرابلس. ص181–193.

(9) –عالم فولاني،نزل بكانم من فوتاطورو في القرن 16م،فأكرمه السلطان علي(ت1580م)عيّنه إمام قصره. (المصدر نفسه:186)

(10) – معروف بابن آجروم،درس على البكري،كان إمام جامع برنو، وتداخلت ترجمته مع الطاهر بن إبراهيم.(المصدر نفسه:184)

(11) – ابن سليمان،أخذ عن البكري،له نظم النقاية للسيوطي والمنهل،وله قصيدة يحفظها كل طالب بنيجيريا.(المصدر نفسه:192)

(12) –ولد في برنو 939هـ وتوفي في باغرم1002هـ،رحل لطلب العلم في أكدز وتِنْبُكْتو وولاته. (المصدر نفسه:192)

(13) – تعلم بأكدز وفزان وتكدة ثم عاد لكشنة لتأسيس مجلسه،حفظ الصحاح الست،وله ديوان في1500بيت(الإسلام في نيجيريا:61)

(14) – شيخ علماء عصره في القرن 19م،حفظ الموطأ فنسب إليه،أخذ عنه كثيرون، وتوفي سنة 1850م. (المصدر نفسه ص63)

(15) –عالم جليل ولغوي بارع من أهل كشنة بشمال نيجيريا،ألف " صرف العنان " سنة 1186هـ/1772م. (المصدر نفسه ص 62)

(16) –أخذ عن ابن الصباغ،شرح العشرينية والعشماوية،له أزهار الربا في أخبار يوربا(ت1078هـ/1667م) (المصدرنفسه ص62)

(17) – بنت مالم كبر أحد أحفاد عم أحمد بابا التمبكتي،كانت تفسر القرآن في قصر سلطان كنو في رمضان(المصدر نفسه ص63)

(18) – كان شيخ شيوخ زمانه، وأخذ عنه عدد ما لايحصى من العلماء. (المصدر نفسه ص 62).

وفي صكتو: جبريل بن عمر[1] وعثمان بن فودي وابنه محمد بللو [2] وأخوه عبد الله بن فودي ووزيرهم غطاط بن ليم[3]. وهذا قليل من الكثيرين الذين لا يسع المكان لذكرهم.[4]

❋ ***مراكز بلاد يوربا :*** إذا كان الإسلام قد تأخر دخوله في هذه البلاد، من جنوب غربي نيجيريا، إلى القرن التاسع عشر الميلادي، بعد قيام الدولة الإسلامية في صكتو، فإن هذا التأخر لم يعق حركة الثقافة العربية وتطورها بداية من إلورن حتى لاغوس، ففي كل مدنها الكبرى كإبادن وإسيين التف طلبة العلم حول ديار العلماء. ومن هؤلاء الذين تجاوز صيتهم آفاق بلادهم[5]: أبو بكر بوبي[6]، وإبراهيم الهوساوي[7]، و محمود ابن الأمير شئث[8]، وبوصيري بدر الدين[9]،وأبوبكر صاحب الكرسي[10]،الشيخ داود[11]، وأبوبكر في لاغوس[12].

❋ ***مركز كوماسي :*** يقع في قلب غانا، وشيخ علمائها الشيخ عبد الله داتانو.

❋ تلك هي بعض المراكز الكبرى في المنطقة،ولا يسع المكان لذكر نظرائها في سائر البلدان،مثل مراكز كنتورو وجارومي كوتا في غامبيا،ومعاهد العلماء في كزامانس وفي فوتاطورو وفي بندو بالسنغال، ومجالس كوماسي وتمالي بغانا،ومعاهد قابو وواكابا بغينيا بيساو،ومراكز بوبوجولاسو و"رحمة الله" في بوركينا، ومعاهد تشاوجو وتشوكوسي في توغو.

7) – المناهج الدراسية :

لمعرفة طبيعة هذا الشعر العربي الإفريقي ينبغي أن نقف على المصادر التي عوّل عليها شعراء المنطقة، وتأثروا بها، ونسجوا على منوالها، واتخذوها معيارا لنتاجهم الأدبي :

♦ ***في اللغة:*** الأجرومية للإمام ابن آجروم [13]وشرحه"التحفة السنية"لمحمد محيي الدين[14] وملحة الإعراب للإمام الحريري[15]، وقطر الندى وشذور الذهب لابن هشام [16] ،

---

[1] – هو شيخ أهل صكتو، وأستاذ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله، رحل إلى الحج مرتين. (المصدر السابق ص62).

[2] – خليفة أبيه في الدولة الصكتية،أخذ عن أبيه وعمه عبدالله ،له مؤلفات:أشهرها إنفاق الميسور.(الثقافة العربية في نيجيريا:285)

[3] – وزير سلاطين صكتو،له مؤلفات:الكشف،والبيان،وأنيس الجليس في مناقب عثمان،والمواهب الربانية(الإسلام في نيجيريا:65)

[4] – الإلوري، آدم عبد الله : الإسلام في نيجيريا، ص 61–67.

[5] – المصدر نفسه ، ص 67–72.

[6] – استقدمه أمير إلورن من صكتو،فعلم الأمراء والعلماء، وخلف أولادا نجباء.(ت 1270هـ/1853م).(الإسلام في نيجيريا:67)

[7] – شيخ العلماء بعد بوبي، لقب بقبر العلوم،وكان صالحا فظهرت بركاته للناس، ورثه أبناؤه في العلم. (المصدر نفسه، ص 68)

[8] – ابن أمير إلورن،زهد في الملك وأقبل على العلم فأصبح متبحرا، له تخميس دالية ابن فودي.(المصدر نفسه، ص 68)

[9] – تخصص في تدريس النحو، فكان شيخ زمانه،وهو أستاذ محمد الأمين السارمي،توفي سنة 1915م. (المصدر نفسه، ص 69)

[10] – شيخ علماء إبادن، أخذ عن الشيخ تاكتي في إلورن، استشهد على يد قطاع الطرق في رحلته للحج. (المصدر نفسه، ص71)

[11] – شيخ علماء إسيين،إذ كان أول من فسر القرآن الكريم في رمضان، وقصده الطلبة، توفي 1900م. (المصدر نفسه، ص 72)

[12] – كان نزوله بها سنة 1780م، فيرجع إليه فضل نشر الإسلام فيها، وتولى ذريته إمامة جامع العاصمة(المصدر نفسه، ص72)

[13] – أبو عبد الله محمد بن محمد ابن آجروم الصنهاجي (672–723هـ/1273–1323م)، نحوي ورجّاز، له فرائد المعاني.

[14] – كاتب مصري معاصر، عني بتحقيق وشرح الكتب اللغوية كأوضح المسالك، وغيره.

[15] – جمال الدين القاسم بن علي الحريري (ت516هـ/1122م) له المقامات برواية أبي زيد السروجي.(معجم المؤلفين 108/8)

[16] – جمال الدين عبدالله بن يوسف الأنصاري، عاش في مصر معاصرا لأبي حيان (ت761هـ) (معجم المؤلفين 163/6)

والألفية ولامية الأفعال لابن مالك [1].وانفرد أهل السنغال بدراسة احمرار الألفية لابن بونـــه[2]، والمقدمة الكُكيِّة للشيخ مور خجّ كمب[3] ، وسعادة الطلاب للشيخ أحمد بمبا الخديم[4].

كما انفرد أهل نيجيريا بدراسة منظومات الشيخ عبــد الله بــن فــودي : كــالبحر المحــيط (في النحو)، والحصن الحصين (ألفية في الصرف)، واللؤلؤ المصون، وفتح اللطيــف الــوافي لعلمي العروض والقوافي. وبعض مؤلفات الشيخ عثمان بن فودي وأتباعه.

♦ ***في الأدبيات:*** الشعراء الستة الجــاهليون للــشنتمري أو المعلقــات[5]،ولاميــة العــرب للشنفري[6]،ولامية العجم للطغرائي[7]، ولامية الورد لابن عمر[8]، وقصيدة "بانت سعاد" لكعــب بن زهير[9]، ومقصورة ابن دريد[10]، ومدائح البوصيري[11] في ديوانيه : البــردة والهمزيــة، ومدائح أبي زيد الفازازي في ديواني العشرينيات والوسائل المتقبلة، وتخميس هذا الأخير لابــن مهيب، ونيل الأماني المعروف بالدالية للإمام أبي علي الحسن [12]، والخزرجية في العــروض لعبد الله الخزرجي الأندلسي[13] ، ومقامات الهمذاني [14]، ومقامات الحريري، وعقود الجمــان للسيوطي، وتحفة النظار للرحالة المغربي ابن بطوطة[15]، والأرجوزة الشمقمقية لأبي العبــاس أحمد الونان[16]. وعند أهل غانا : البدر المنير في علم التعبير لأبي العباس أحمد ابن نعمة[17]. وانفرد أهل السنغال وما جاورها بــ : تبصرة الأذهان في نكت علم البيان لابن بونه، وعقــود الجمان للإمام السيوطي، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني[18] (وكلها في البلاغة).

---

[1] – أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك الطائي (600–672هــ)، قد أبهرت ألفيته النحاة. (الأعلام 233/6).

[2] – المختار بن بونه الجكني(ت1220هــ/1805م) أبرز نحاة بلاد شنقيط، أخذ عن المختار بن بابا وخديجة بنت العاقل، له عدة مؤلفات في العقيدة والمنطق والأصول. ينظر: النحوي،خليل: بلاد شنقيط،منظمة ألكسو، لا.د، لا.ط،1987م،تونس. ص530.

[3]– ولد سنة 1832م،وجده مختار اندمب ديوب مؤسس مدرسة كوكي،والمقدمة مؤلّفة من 469 بيتا(الأدب السنغالي العربي70/2)

[4]– أسس الطريقة المريدية(ت1927)،نفاه الاستعمار مرتين إلى غابون وموريتانيا،متصوف وشاعر.(المصدر نفسه، ص 218/2)

[5]–هم:امرؤالقيس،وزهيروالنابغة،وطرفة وعنترة، وعلقمة.وزد عليهم سوى الأخير ما يلي:لبيد،والحارث ،وعمرو،وعبيد،والأعشى

[6]– عمرو بن مالك الأزدي،يماني،ومن الشعراء الصعاليك في الجاهلية (ت 70ق.هــ/554م) قتله بنو سلمان. (الأعلام 85/5)

[7] – الحسين بن علي الأصبهاني(ت515هــ/1120م)ولد في أصفهان وعاش في بغداد قتله السلطان محمود(الأعلام 246/2)

[8] – هي قصيدة " نصيحة الإخوان ومرشد الأنام" التي وضعها عرم بن أبي ورد الذي لمّا أقف على ترجمته.

[9] – شاعر مخضرم أسلم أخوه بجير،فهجاه والرسول،ثم تاب بهذه القصيدة،فكافأه النبي ببردته(ت24هــ) (الأعلام 226/5)

[10] –هو أبوبكر محمد بن الحسين(ت321هــ/933م) لغوي البصرة وأستاذ الأصبهاني وأبي العلي القالي.(الأعلام 338/2)

[11]– شرف الدين محمد بن سعيد(ت696هــ/1297م) صنهاجي مصري،مغربي الأصل.له "الكواكب الدرية" (الأعلام 139/6)

[12]– هو الحسن ابن مسعود اليوسي مغربي الأصل(ت 1102هــ/1691م)، فقيه مالكي، وأديب، وقد حج. (الأعلام 223/2)

[13] – هو أبو محمد ضياء الدين من المالكية،(ت 549هــ/1154م)،لغوي عروضي، اشتهر مؤلفه بالرامزة. (الأعلام 124/4)

[14]– أبوالفضل أحمد بن الحسين الهمذاني ببديع الزمان(ت398هــ/1008م)،مبتكر فن المقامة،خلف 52مفامة. (الأعلام 115/1)

[15] – محمد بن عبد الله ولد بطنجة بالمغرب،ومنها جاب إفريقيا والشام والحجاز حتى الصين(ت779هــ/1377م)(الأعلام235/6)

[16] – هو أحمد بن محمد بن محمد بن الونان الحميري، الفاسي الدار، أديب وشاعر، (ت1187هــ/1773م) (الأعلام 243/1)

[17] – شهاب الدين بن عبد الرحمن النابلسي فقيه ومعبر الرؤيا(ت697هــ/1298م)تعلم في نابلس ومصر ودمشق(الأعلام147/1)

[18] – جلال الدين محمد بن عبدالرحمن(ت739هــ)خطيب دمشق،وقاضي قضاتها،شرح مفتاح السكاكي ولخصه(الأعلام192/6)

◆ ***في الشرعيات:*** تأثر علماء المنطقة ببعض المنظومات العلمية من الكتب الشرعية كألفية العراقي[1] في مصطلح الحديث، ونظم مقدمة ابن رشد للشيخ عبد الرحمن الرقعي[2]، والحبل المتين على نظم المرشد المعين لابن عاشر[3] ، ومنظومة يحيى القرطبي[4] في الفقه، ونظم أسهل المسالك للشيخ محمد البشار.[5] هذه أهم ما تدرس من المنظومات التعليمية في المنطقة.وفي غير المنظومات:مختصر الأخضري[6]، ومتن العشماوية[7]، والرسالة للقيرواني[8]، ومختصر خليل[9]وكلها في الفقه. وتعليم المتعلم طريق التعلم للإمام الزرنوجي[10] (في آداب التعلّم).

وانفرد أهل نيجيريا بدراسة كتاب الزهد والوصيّة للإمام علي زين العابدين [11]، وضوء المصلي وضياء السند لعبد الله بن فودي، والفواكه الساقطة لآدم عبد الله الإلوري[12].

كما اختص أهل السنغال وغامبيا بدراسة كتابي الحاج مالك سي[13] : فاكهة الطلاب أو جامع المرام وقنطرة المريد (في التصوف)، ومنظومات الشيخ أحمد بمبا الخديم : تزود الصغار وتزود الشبان (كلاهما في الفقه)، ومواهب القدوس (في التوحيد)، ومسالك الجنان (في التصوف).

ندرك ، بعد شيء من التأمل في هذا المنهج التقليدي، أن الشعر كان آلة من آليات التعليم، ووسيلة إلى معرفة الشريعة الإسلامية. ومن المستبعد ـ في الحالة هذه ـ أن يلم المتعلم بكنه الأدب العربي، وأن يحيط بالشعراء العرب في مختلف العصور الأدبية، فلم يقفوا على إنتاج أعلام الشعر الإسلامي من المخضرمين سوى كعب بن زهير، ولم يحيطوا بشعراء العصر الأموي، ولم يغترفوا من العصر الذهبي للأدب العربي العباسي، سوى أفذاذ من العلماء والأدباء، الذين توسع اطلاعهم فعرفوا الكثير من هؤلاء الأعلام. لذا ينبغي من الآن أن نقدر لهذا المنهج مكانته في مقومات هذا الشعر الإفريقي، والاعتداد به في المعايير النقدية التي سنحلل هذا الإنتاج على ضوئها.

---

(1) – الحافظ أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين الكردي (ت806هـ/1404م)محدث من الشافعية. (الأعلام 344/3)

(2) – كنيته أبو زيد، يعد من فقهاء المالكية، كان حيا عام 853هـ/1449م،عرف بتبحره في الفقه والشعر.(معجم المؤلفين 138/5)

(3) –هو عبد الواحد بن أحمد بن علي عاشر،والكتاب مشهور بالمرشد المعين أو بابن عاشر(ت1040هـ/1631م)(الأعلام175/4)

(4) – هو يحيى بن عبد الله بن محمد القرطبي، نحوي ولغوي وشاعر، توفي عام 362هـ/973م. (معجم المؤلفين 209/13)

(5) – الكتاب في فقه المالكية ، وشرحه الشيخ عبد الوصيف محمد بعنوان : مصباح السالك إلى أسهل المسالك.

(6) – عبد الرحمن بن محمد بن محمد الأخضري، من فقهاء المالكية في المغرب، (ت 983هـ/1585م).(معجم المؤلفين 187/5)

(7) – للفقيه المالكي عبد اللطيف بن شرف الدين العشماوي،(ت 1086هـ/1675م)، وله منظومة أخرى في الفقه.(الأعلام 59/4)

(8) – هو أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ/996م)، عالم مغربي فقيه مالكي. (معجم المؤلفين 73/6)

(9) –للشيخ خليل بن إسحاق بن موسى في الفقه المالكي، فقيه مصري(ت 776هـ/1374م)شرحه كثير من العلماء(الأعلام315/2)

(10) – هو برهان الإسلام الزرنوجي، لم أقف على ترجمته في أمهات كتب التراجم، يبدو أنه مجهول لدى علماء العرب.

(11) – هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت 94هـ/712م)، ينسب إليه هذا الديوان إن صح ذلك. (الأعلام 277/4)

(12) – هو أشهر علماء بلاد يوربا في نيجيريا، مؤلفاته عديدة،تخرج على يده علماء كثيرون في مركزه بلاغوس، (ت1992م).

(13)–توفي 1922م،بعد أن خرج علماء في زاويته التجانية بتواون،له ديوان وأولاده وأحفاده شعراء،يعد شيخ التجانيين في وطنه.

المبحث الثالث : أعلام الشعر في هذه الدراسة

من هو الشاعر في هذه الكتابة ؟ :

من أهداف مثل هذه الكتابة الأولية أنها ترمي إلى التعريف بهذا الشعر، وبيان وضعيته الراهنة، ومعرفة ما فيه من أساليب فنية متباينة، وإبراز ما فيه من كنوز الأدب الرفيع عند بعض الأعلام الفحول ، ووضع الأيدي على العيوب الفنية التي ما زال يتّسم بها إنتاج بعض العلماء المعروفين بأوساطهم أنهم (شعراء) كي نميّز سمين الشعر من غَثّه.

الأمر الذي جعلني أجمع مادة هذا الشعر من كل عالم ومتعلّم، ومن شيخ وشاب، ومن شاعر مبدع ومبتدئ، لتكون الدراسة شاملة لجميع شرائح الإنتاج الشعري، لأن أهمّ مستهدفات هذه الدراسة التحليلية النقدية غربلة إنتاج شعراء هذه المنطقة، لبيان سمينه من غَثّه، وهذا ما جعلنا نأخذ بعين الاعتبار جهود جميع الشعراء على تفاوت أساليبهم الشعرية.

لو ركّزت على المشهورين من الشعراء لكان الشيوخ الصوفية ـــ مثلا ـــ في مقدمة الصفوف، ولأصبح كثير من الشبان المبدعين مهمشين مغمورين. ولو اعتمدنا على أصحاب الدواوين لأهملنا بعض القصائد النادرة من بعض الشعراء المقلّين الذين ما وقفت على ترجمتهم، إذ نجد أكثر هذه الدواوين في المدائح النبوية والصوفية.

والجدير بالذكر أن دول المنطقة تتفاوت في وجود الشعراء فيها. بل بعضها تخلو من الشعراء مثل الرأس الأخضر، وسيراليون، وليبيريا. وبالعكس نجد بعضها الآخر لا يمكن لباحث أن يحصي شعراءها، كنيجيريا، تليها السنغال أو مالي فالنيجر، لأن شعراء هذه الدول تعد مئات. وبين المجموعتين دول أخرى ، يتفاوت شعراؤها على الترتيب كثرة وقلة: غينيا وغامبيا وغانا وبنين وغينيا بيساو وبوركينا وساحل العاج، وتوغو.

وستأتي ترجمة الشعراء لاحقا عند ما أورد لأول مرة نموذجا من شعرهم.

مصادر هذا الشعر:

جمعت هذا الشعر من ثلاثة مصادر مختلفة خلال رحلة ميدانية قمت بها في دول المنطقة :

1. المطبوع من الدواوين الشعرية، ومن مؤلفات بعض الباحثين في تاريخ الثقافة الإسلامية بالمنطقة، ومن الدوريات الشهرية أو الأسبوعية في بعض الدول.
2. البحوث العلمية التي تقدم بها طلاب الجامعات لنيل درجات الماجستير والدكتوراه، والتي ما زالت حبيسة الرفوف في مكتبات أقسام اللغة العربية في جامعات دول المنطقة، وخاصة في نيجيريا.
3. المخطوطات الشعرية لدى أصحابها من الأدباء، أو في مكتبات أقاربهم. فاتصلت بهم شخصيا للحصول عليها.

شعراء نيجيريا (Nigeria)

ما أكثر شعراء هذه الدولة! يرد سببه إلى الحركة العلمية التي شهدتها الدولة الإسلامية في صكتو. وإن كنت أهملت ذكر بعض المقلين هنا، إلا أن هذه الدولة تظل في مقدمة الدول :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
.1	إبراهيم عبد الله (نألقاضي كنت غورا)	1	4	0	267	
.2	إبراهيم ليرى أمين آل عمر الإيووي	0	2	0	49	
.3	أبو الحسن بقاء هاشم إسماعيل	0	1	0	97	
.4	أبو الفتح أحمد علي اليرواوي	0	39	6	688	
.5	أبو بكر عتيق (الشيخ)	1	46	0	2623	
.6	أبو حنيفة حامد ابن زبير	0	30	0	634	
.7	أحمد أكوكورو الفلاني(الشيخ)	0	3	2	33	
.8	أحمد التجاني عبد القادر	1	10	1	637	
.9	أحمد التجاني عثمان الكنوي	1	4	0	365	
.10	أحمد جاوندو أيندي	0	5	0	126	
.11	إسحاق أيوب بابا أويي	0	3	1	41	
.12	إسماعيل أبوبكر اللحمي	0	3	0	119	
.13	إسماعيل علي زين العابدين	0	2	0	56	
.14	تاج الدين أمين الله آل عمر	0	3	0	76	
.15	جميل عبد الله	0	9	0	223	
.16	الحاج سليمان أديبايو أحمد	0	3	0	32	
.17	داود أحمد أديكيليكن	0	11	0	840	
.18	داود عبد الباقي	0	18	5	254	
.19	زكريا حسين (الوزير)	0	1	–	38	
.20	سليمان أديبايو عبد الرشيد محمد	0	9	27	338	
.21	سليمان عبد الرحيم أيغورو	0	21	0	392	
.22	سمبو ولي جنيد	0	2	0	45	
.23	عبد الباقي شعيب أغاكا	0	10	0	241	
.24	عبد الحكيم عبد الكريم	0	7	0	141	

.25	عبد الحمد أنيفووشي	0	3	3	102	
.26	عبد الحي عبد القادر أولوين	0	7	0	109	
.27	عبد الرحمن عبد العزيز الزكوي	1	51	5	1393	
.28	عبد الرحيم حمزة	1	74	97	2128	
.29	عبد الرزاق بن الشيخ أحمد	0	1	0	140	
.30	عبد الرشيد مدثر	0	1	0	27	
.31	عبد الرفيع عبدالرحيم أسليجو	0	7	1	153	
.32	عبد السلام أحمد عبد السلام بمديلي	0	1	0	114	
.33	عبد الصمد الماهر	0	1	0	106	
.34	عبد العزيز محمد سلمان الإلوري	0	5	0	134	
.35	عبد الغني أتندا راجي	0	5	0	79	
.36	عبد الكريم عيسى الصارمي	0	3	0	60	
.37	عبد الله آدم جنغطو	0	2	0	85	
.38	عبد الله سليمان جبريل الأدبي	0	3	0	42	
.39	عبد الله موسى دظو	0	15	10	525	
.40	عبد المؤمن أجيبو عبد الرفيع	0	6	0	89	
.41	عبد الواحد جبريل سليمان	0	1	0	24	
.42	عبد الواحد جمعة أريبي	3	54	4	2261	
.43	عبد الواسع مدثر إيليينكي أبو أحمد	1	87	5	1720	
.44	عبد الوهاب عبد السلام الإباجوي	1	19	1	1276	
.45	عثمان أبوبكر يوسف أيليينلا	0	5	5	96	
.46	عثمان إدريس الكنكاوي	1	14	0	261	
.47	عثمان القلنسوي	1	34	0	1370	
.48	عثمان عبد السلام الثقافي	0	11	1	286	
.49	علي أبولاجي عبد الرزاق	1	10	0	200	
.50	علي عبد القادر العسلي	0	5	0	91	
.51	عيسى ألبي أبو بكر	1	126	3	3078	
.52	محمد أكوار	0	5	0	149	
.53	محمد الأمين القاري	1	5	0	309	
.54	محمد الرابع بن معاذ	0	1	0	39	
.55	محمد السعيد بللو	0	1	0	46	

56.	محمد السنوسي المنذوي	0	10	0	377	
57.	محمد القسوي	0	2	0	410	
58.	محمد الكامل عبد الرحمن	0	2	0	94	
59.	محمد المصباح إبراهيم الزنتوني	1	29	1	815	
60.	محمد ثوبان آدم عبد الله الإلوري	6	59	9	1516	
61.	محمد سلغ	1	8	11	155	
62.	محمد شيخ علي	0	2	0	41	
63.	محمد غبريم الداغري	0	2	0	350	
64.	محمد كبير (عشرونيا)	0	4	1	85	
65.	محمد كبير يونس	0	19	1	434	
66.	محمد مدثر عبد الوهاب أومومي	0	6	0	167	
67.	محمد ناصر الكبرى	2	63	14	2085	
68.	مرتضى عبد السلام الحقيقي	0	4	0	62	
69.	معروف مصطفى أحمد الرصافي	0	10	0	431	
70.	معلم يحيى جبيا	0	1	0	45	
71.	ممد الأمين بن ممد الماهر الدمغراوي	1	6	0	1104	
72.	موسى بابا تندي محمد عثمان	1	13	7	169	
73.	موسى عبد السلام مصطفى أبيكان	0	2	0	50	
74.	موسى محمد سُنغ	0	16	0	633	
75.	نور الدين أولاوالي عبد الرؤوف	0	7	0	103	
76.	نور الدين عبد العزيز أديكنلي	0	1	0	38	
77.	الوزير جنيد	1	35	1	705	
78.	يحيى محمد النفاخ	1	35	17	1550	
79.	يهوذا بن سعد	0	3	0	244	
80.	يوسف أديوالي مرتضى	0	4	0	56	
81.	يوسف عبد الله التجاني اللكوجي	0	1	0	70	
82.	يوسف مرتضى	0	3	0	58	
83.	يونس عبد الله (القاضي)	1	10	1	160	
	المجموع	**31**	**1166**	**225**	**36854**	

شعراء السنغال (Sénégal)

أهملت كذلك إدراج شعراء القصيدة الواحدة في هذه القائمة، والشعراء المجهــولين، إلا الذي يظهر أنه من فحول الشعراء ولم نعثر على سوى قصيدة واحدة منه :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
.1	أبا بكر سيسي	0	1	0	130	
.2	إبراهيم انجل سِهْ (جيرنو)	0	6	0	109	
.3	إبراهيم برس كانْ	0	2	0	210	
.4	إبراهيم جوب المشعري	1	160	5	4795	
.5	إبراهيم نياس (الحاج)	17	369	85	7995	
.6	أبو بكر سه (الخليفة)	1	106	30	2209	
.7	أحمد إبراهيم دات (الحاج)	0	5	4	128	
.8	أحمد أسيه	0	1	0	43	
.9	أحمد الصغير بي	1	5	0	200	
.10	أحمد امبك	0	2	4	38	
.11	أحمد بمبا الخديم	12	435	50	12094	
.12	أحمد بن أبي بكر آن	0	1	0	23	
.13	أحمد جاك الدكني	0	0	2	9	
.14	أحمد دم سُكونْ	0	3	5	60	
.15	أحمد عبد الله انْجَايْ	0	5	1	193	
.16	أحمد عيان سِهْ	1	27	9	702	
.17	أحمد محمد جي	3	175	1	7703	
.18	أحمد مختار سيك	0	5	9	95	
.19	ابن العربي لِهْ	0	1	0	52	
.20	جبريل غايْ	0	5	0	110	
.21	جيرن الشيخ بن ببكر دومق	0	2	1	97	
.22	الحاج بنب جك نيانغ	0	2	0	27	
.23	حامد آن أحمد تِلِرْ (جرن)	0	6	4	248	

.24	دود سك (ابن المقداد الابن)	0	0	20	56	
.25	سرين امباكي عبد الرحمن	1	85	21	1284	
.26	سعيد ألفا محمد دم (الحاج)	0	1	0	31	
.27	سعيد الشعراء (جرن)	1	9	0	332	
.28	الشريف محمد شمس الدين	0	4	1	69	
.29	الشيخ أحمد التجاني سي	1	43	20	1114	
.30	شيخ تجان غايْ	1	80	1	2253	
.31	عامر صامب	0	18	6	328	
.32	عباس صل (الحاج)	3	215	7	6474	
.33	عبد الرحمن صَلْ البناجي	0	5	1	214	
.34	عبد العزيز سار	1	29	3	498	
.35	عبد العزيز سي (الخليفة)	2	351	107	10501	
.36	عثمان أحمد سو	0	3	3	54	
.37	عثمان جَخَتِ بن مَجَخَتِ كَلَ	0	3	0	32	
.38	علي باه	1	11	0	251	
.39	عمر أحمد انجايْ	0	7	0	455	
.40	عمر مالك الدرامي	0	1	0	24	
.41	لامين دِيانْغ	2	35	2	685	
.42	مالك جوبْ	0	2	0	92	
.43	مالك سي (الحاج)	2	107	11	5622	
.44	مَجَخَتِ كَلَ (القاضي)	1	23	12	428	
.45	محمد الأمين إبراهيم نياس	0	3	0	97	
.46	محمد الأمين بن زبير	0	17	3	439	
.47	محمد الأمين عاجْ	1	45	0	899	
.48	محمد الأمين عباس صَلْ	0	10	0	277	
.49	محمد البشير أحمد بمْبا	0	1	2	18	
.50	محمد البشير تيام	0	15	0	181	
.51	محمد التسليمي الطوبوي	0	1	0	23	
.52	محمد الخليفة انياس	3	227	39	8842	
.53	محمد الفوتي الكجلني	0	1	0	19	

.54 محمد المصطفى آن	0	9	2	144	
.55 محمد المنصور سي	0	4	0	103	
.56 محمد المنصور سي (الحاج)	1	31	0	1111	
.57 محمد الهادي توري	1	21	1	378	
.58 محمد جولد سيدي	1	18	3	528	
.59 محمد حبيب محمد الأمين كانْ	3	31	0	721	
.60 محمد زينب عبد الله انياس	0	3	0	177	
.61 محمد عباس آنْ	0	1	0	15	
.62 محمد محيي الدين كَشَمَهْ	0	6	1	148	
.63 محمود بَهْ (الحاج)	0	1	0	108	
.64 المصطفى امبكي	0	2	0	21	
.65 مَمَّرْ صَاصُمْ جَخَتِ	1	13	0	180	
.66 موسى كمرا	0	2	0	47	
.67 يونس ذو النون محمد لِهْ الفوتي	0	35	18	1001	
المجموع	**63**	**2853**	**494**	**83544**	

شعراء مالي (Mali)

كانت عاصمة الأدب العربي متمثلة في تِنْبُكْتو بمالي قديما. ولكنها في هذا العصر قد فقدت مكانتها في مقدمة الدول، وهذا ما يبرّر ترتيبنا لها في الرتبة الثالثة بعد نيجيريا والسنغال. أما شعراؤها في الصحراء فما زالوا يتميزون بشاعرية نادرة، لكونهم ورثوا ملكة الشعر عن أكابرهم من فحول شعراء المنطقة.

لقد أهملتُ ذكر بعض المقلين، لكثرة ما جمعت من نتاج شعرائها، وهم الذين ما عثرت سوى على عشرات الأبيات من نتاجهم، وذلك إما لكونهم متطفلين على الشعر إذا ما قورنوا بغيرهم، وإما لضياع نتاجهم الشعري.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	أبو بكر بن حماد الأنوكندري	0	1	0	33	
2.	أبو بكر تِيام	0	8	3	171	
3.	أبو بكر عمر جارا	0	3	0	41	
4.	أبو جعفر محمد جَباتي	0	11	2	264	
5.	أبو محمد الهادي محمد علي	0	9	1	131	
6.	أحمد بابا بير الإرواني	0	1	0	30	
7.	أحمد بن عمر	0	1	0	20	
8.	أحمد عبد الله بولي	0	14	0	295	
9.	أحمد عثمان بَهْ	0	1	1	176	
10.	أحمد ماقاسوبا	0	2	0	41	
11.	أحمد محمد حَيْدَرَ	0	20	1	266	
12.	بشير جاوُ	0	33	3	892	
13.	التجاني بن الشيخ محمد الأمين	0	3	0	87	
14.	التجاني سيد محمد محمد	0	2	0	112	
15.	حبيب عبد الله كانْ	3	47	0	1492	
16.	حمّاها بن محمود	0	2	0	42	
17.	حمتأ بن الصادق	0	1	0	18	
18.	سيد المختار	0	2	0	61	
19.	سيدي علي الأجهري	0	1	0	17	
20.	سيدي مختار بن وديعة الله	0	6	0	131	
21.	شرنو محمد بن عبد الله	0	1	0	41	
22.	الشيخ بن سيد عالْ	0	1	0	34	
23.	طاهر دُكُرِي	0	2	0	58	
24.	عادل محمود محمد	1	13	0	917	
25.	عبد الله بن بدر المنير العلوي	0	7	0	81	
26.	عبد الله بن محمد بن عبدالله	0	2	0	17	
27.	عبد الله دِنْبَ واكي (الشيخ)	0	9	17	172	

28.	علي سيدبي	0	9	0	316	
29.	علي مكر	0	1	0	34	
30.	عمر بارو	0	2	0	72	
31.	عمرو عبد اللطيف ساغو	1	51	4	1929	
32.	عيسى بن محمد	0	2	0	38	
33.	محمد إسماعيل كوليبالي الذكي	0	28	7	499	
34.	محمد الحبيب الأنوكندري	0	8	1	169	
35.	محمد العاقب السوسي(الشيخ)	0	9	2	238	
36.	محمد العربي جرا (الشيخ)	0	1	0	18	
37.	محمد المبارك بن حمتال الأنصاري	0	1	0	19	
38.	محمد الهاشمي منصور حيدر	0	37	5	483	
39.	محمد بن إبراهيم الأنصاري	0	2	0	36	
40.	محمد بن عبد الله سعاد	0	20	1	558	
41.	محمد بن عمر المرجي	0	0	2	4	
42.	محمد حمّاد بن إملت	0	0	17	59	
43.	محمد شفيع جرا	0	33	15	637	
44.	محمد مختار امحيمدات	0	1	1	19	
45.	محمد موسى بن عيسى	0	1	0	21	
46.	محمد ناجم شيباني	0	1	0	18	
47.	محمود محمد ددب (حَمُّو)	0	10	0	227	
48.	مدني تيام أبو رضوان	0	26	9	356	
49.	يعقوب دوكوري (الشيخ)	1	61	38	981	
50.	يوسف مختار جغوراغا	0	20	1	518	
المجموع		**6**	**527**	**131**	**12889**	

شعراء النيجر (Niger)

تميز هذا البلد بكثرة شعرائه في جماعات الهوسا وطوارق الصحراء، لأن المراكز العلمية في أكدز وتكدة وآهير خرجت كثيرا من العلماء الشعراء، حتى إن بعض علماء كانم وبرنو وشمال نيجيريا قصدوا هذه المراكز العلمية للاستزادة. وعلى الرغم من كثرة هؤلاء الشعراء فقد أوردنا في هذه القائمة ما عثرنا عليه من شعرهم :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	إبراهيم بن إمام موسى جراتاوا	0	1	0	19	
2.	أبو بكر المثني	0	1	0	50	
3.	أحمد بن محمد بن بهرام	0	1	0	11	
4.	أحمد تَوْجَهْ	0	5	0	94	
5.	أحمد غوبيري	0	4	0	106	
6.	إسماعيل بن الشيخ السيد	0	1	0	14	
7.	أغلس بن اليماني	0	1	0	59	
8.	أمد بن محمدا	0	13	0	296	
9.	الحسن الكوجيري	0	4	0	99	
10.	زكريا الرباني	0	28	0	760	
11.	الطالب محمد	0	1	0	23	
12.	عبد الرزاق أحمد ملمي	1	10	0	200	
13.	عبد الرحمن القاسم	0	5	0	93	
14.	عبد الرحمن جنيد	0	1	0	23	
15.	عثمان بن عثمان وندباغي	0	1	1	129	
16.	علي إدر الخطاب	0	1	0	20	
17.	علي تاسع	1	25	0	435	
18.	محمد أحمد شفيع	0	14	0	204	
19.	محمد أحمد عبد الرزاق	0	1	0	46	
20.	محمد الإمام تاسع	0	9	0	468	
21.	محمد الأمين بن الحاج ممد الماهر	0	2	0	170	
22.	محمد الحاج محمد أحمد السوقي	0	13	0	369	
23.	محمد بتي بن الفاق	0	6	0	135	
24.	محمد بن سوس السوقي	0	1	0	98	
25.	محمد توجه محمد أحمد السوقي	0	1	0	113	
26.	محمد صغير	0	1	0	141	
27.	محمد عبد الرحمن خليل الرحمن	0	1	0	66	

.28	محمد عثمان محمد ألاغ	0	1	0	27	
.29	محمد علي السوقي	0	1	0	17	
.30	محمد مالم موسى	0	2	1	38	
.31	محمد يتن بن إبراهيم	0	2	0	68	
.32	محمد يوسو السوقي	0	1	0	15	
.33	المرتضى بن محمد	0	1	0	52	
.34	معلم آدم موسدي فند	0	2	0	61	
.35	معلم الحاج خضر	0	1	0	75	
.36	معلم محمد الثاني	0	1	0	30	
.37	منير محمد السوقي الأنصاري	0	1	0	30	
.38	مهدي الحاج معاذ	0	20	0	391	
.39	يعقوب عثمان ديوان	1	5	2	213	
	المجموع	**3**	**191**	**4**	**5281**	

شعراء غينيا (Guinée)

فوتاجالون عاصمة الشعر في غينيا، بشعرائها تأثر سائر شعراء الدولة سوى علماء مدينة طوبى جاكانكي، حيث كانت هي الأخرى نشطة في الحركة العلمية.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
.1	إبراهيم الدامي	0	2	0	125	
.2	إبراهيم صوري جاني	0	1	0	55	
.3	إبراهيم محمد التسليمي	0	1	0	103	
.4	أبو عمر محمد التسليمي	0	1	0	37	
.5	أبو مروان بكر عثمان	1	23	0	241	
.6	أحمد زروق جابي	0	1	2	25	
.7	أحمد شريف	0	1	0	40	
.8	ألفا عمر الرافع الداري	0	2	0	14	

.9	ألفا محمود محمد كبا	1	1	0	168	
.10	جرنو سعد دالين	0	6	0	444	
.11	جرنو محمد سمْبَ	0	5	0	377	
.12	سالم بن جمّور	0	1	0	12	
.13	عبد الرحمن باه	3	100	1	3452	
.14	عثمان كوصا	0	2	1	118	
.15	علي بوبديم	4	137	2	4371	
.16	عمر أحمد الداري	0	3	0	154	
.17	عمر رافع جالو	0	16	0	543	
.18	عمر ساخو	0	16	0	214	
.19	عمر علي كبا	0	2	0	73	
.20	فنتا مادي بن إبراهيم	0	1	0	112	
.21	فودي سيدي كانتي	0	5	0	215	
.22	كرامو طلبي كبا	0	27	0	974	
.23	كرمادي جابي	0	1	0	18	
.24	كرمكو طورا (الأبيض)	0	0	1	5	
.25	كرمكو فوديبا (الشاعر)	0	1	0	14	
.26	محمد الأمين جابي	0	31	3	1098	
.27	كرامو سَنْكُنْ (محمد التسليمي)	0	3	2	81	
.28	محمد السنوسي (الحاج)	0	5	0	160	
.29	محمد اليدالي	1	10	1	179	
.30	محمد كاسو جابي	1	15	12	411	
.31	مختار الكبير جابي (الحاج)	1	19	14	308	
المجموع		**12**	**439**	**39**	**14141**	

شعراء غانا Ghana

ورثت غانا شعرها العربي عن نيجيريا، لأن " عمر كركي " يعد شيخ علمائها، وهو نيجيري تعلم في كنو ثم رحل إلى غانا وتنقل للتدريس والوعظ في مختلف مدنها، توفي سنة 1934م.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	إبراهيم غشيغ	1	15	0	931	
2.	أحمد الموسوي	0	0	2	7	
3.	إدريس أبو بكر باقو	0	1	0	8	
4.	أيوب صالح هارون	0	1	0	24	
5.	جبريل صالح	0	1	0	10	
6.	الحسين زكريا	0	1	0	23	
7.	حمزة الحاج محمد المنتقى	0	3	0	66	
8.	عبد الصمد حبيب الله المختار	0	1	0	15	
9.	عمر كركي (الحاج)	1	13	0	1453	
10.	عيسى الحسن بك	0	6	1	117	
11.	مالم آدم	0	0	1	3	
12.	محمد الأمين بمبا الفرضي	1	11	2	419	
13.	محمد الثاني بن يوسف	0	3	0	101	
14.	محمد المنتقى	0	1	0	27	
15.	محمد بل الفوتي	0	1	1	13	
16.	محمد رشاد (الشيخ)	0	1	1	27	
17.	محمد كامل الأمين سعد	0	1	0	12	
18.	مرتضى محمد معاذ	0	2	0	32	
19.	موسى عبد القادر محمد	0	1	0	28	
20.	نوح بن عباس	1	2	0	105	
21.	هارون الرشيد مادغو	0	1	0	62	
22.	يحيى محمد الأمين	3	28	0	1091	
	المجموع	**7**	**94**	**8**	**4574**	

شعراء غامبيا (Gambie)

يلاحظ أننا قد أثبتنا في القائمة بعض شعراء القصائد الفريدة، وذلك لأنهم من العلماء الكبار وهم شعراء كذلك، إما أنهم مقلون، أو أننا لم نعثر إلا على هذه النماذج اليتيمة، فإننا نريد تنبيه القارئ إلى وجودهم عل تصل إليهم أيدي بعض الباحثين لتتناولهم بالدراسة خاصة.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	امباي كيبا كبا	0	11	0	300	
2.	باكر كبا (الشيخ)	0	1	0	21	
3.	بامين محمد سري جايتي	1	36	0	638	
4.	بلكّ كه (الشيخ)	0	1	0	58	
5.	سرنج مودو كاه	0	3	0	338	
6.	عبد الله بن إبراهيم محمد جوبْ	0	5	0	42	
7.	عبد الله غوث الدين كبا	0	1	0	29	
8.	علي بن عمر ساغ (القاضي)	0	19	1	590	
9.	علي في بن حان	0	12	4	300	
10.	عمر ساغ (الشيخ)	0	2	0	20	
11.	غوث كبا كنتور (الشيخ)	0	1	0	47	
12.	محمد الإمام سامبو غساما	1	17	1	319	
13.	محمد الأمين كرنلا	0	4	0	80	
14.	محمد الأمين كيمورن كبا	0	3	0	75	
15.	محمد السنوسي غوث فاس جابي	0	15	0	546	
16.	محمد مصطفى كبا (الشيخ)	0	1	0	130	
المجموع		**2**	**132**	**6**	**3533**	

شعراء بنين (Benin)

كاد الشعر العربي ينعدم في هذه الدولة لولا تأثر علماء مدينة " جوغو" بنظرائهم في نيجيريا، حيث كانت حركة التجارة متواصلة بينهم، ودرس أكثرهم في بلاد يوربا بنيجيريا.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	إدريس عبد الله إدريس	0	2	1	28	
2.	الحسن سليمان ميسونا	0	1	3	20	
3.	داود الحسن صالح يري	0	1	0	7	
4.	سليمان محمد داود ميسونا	1	5	0	369	
5.	سليمان محمد آل هارون	1	7	0	115	
6.	شئث ثاني	0	1	0	20	
7.	شعبان الحسن لواني	0	2	0	16	
8.	محمد السادس هارون	0	3	1	80	
9.	مصطفى يونس أولاريواجو	0	2	0	33	
10.	معروف شئث	0	1	0	25	
	المجموع	2	**25**	**5**	**713**	

شعراء غينيا بيساو (Guinée-Bissau)

قلّت المراكز العلمية في هذه الدولة، لذا درس أكثر علمائها في السنغال أو غينيا. ولقلة هؤلاء العلماء قلّ إنتاج الشعر في هذا البلد، وانحصر عدد شعرائها في هؤلاء :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	إبراهيم فال	0	2	3	97	
2.	أحمد سعيد بالدي	0	3	0	72	
3.	ألفا أحمد كاتبا	0	2	1	42	
4.	سراج بن معزور امبالو	1	15	2	310	
5.	عبد الرحيم بن محمد	0	5	0	49	
6.	هارون الرشيد جلو	0	8	0	146	
	المجموع	**1**	**35**	**6**	**716**	

شعراء بوركينا فاسو (Burkina Fasso)

يقر كثير من المستعربين في هذه الدولة بعدم وجود شعراء فيها، وذلك لعدم قيام مراكز علمية كبرى فيها قديما، ولتأخر الحركة العلمية فيها حديثا. وبعد محاولات جادة في البحث عثرت على آثار الشعراء الذين تنفرد بهم هذه الدولة :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
.1	بشير بيري	0	1	0	20	
.2	ساليفو غانامي	1	7	0	260	
.3	محمد مرحبا سانوغو	0	5	5	83	
.4	محمود سانوغو (الحاج)	1	16	11	318	
.5	يوسف أبوبكر تال (الشيخ)	0	1	0	20	
المجموع		**2**	**30**	**16**	**701**	

شعراء ساحل العاج (Côte D'Ivoire)

كاد الشعر ينعدم في هذه الدولة لولا الشيخ محمد واترا، الذي نشر ديوانيه، لكنه غير معروف حتى لدى مواطنيه المستعربين. لأن مادة " الأدب " لم تدرج في المناهج الدراسية إلا مؤخّرا.

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1	فودي كيتا	0	2	0	49	
2	محمد بدر الدين واترا	2	2	0	326	
المجموع		**2**	**4**	**0**	**375**	

شعراء توغو (Togo)

وقد تبين لي أن ليس للمتعلمين فيها أدنى اهتمام بالأدب العربي، قديما وحديثا، ومن المفارقة أن تقع توغو بين دولتي بنين وغانا، لا يقل فيهما الشعراء :

م	اسمه الكامل	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1	أوكيجو سيد محمد كاولو	0	3	0	87	
2	مصطفى غلاديما	0	7	0	89	
المجموع		0	10	0	176	

❁ ❁ ❁

نتاج شعراء المنطقة حسب الدول

م	اسم الدولة	عدد الشعراء	عدد الدواوين	عدد القصائد	عدد المقطّعات	عدد الأبيات	ملاحظة
1.	نيجيريا	83	31	1166	225	36854	
2.	السنغال	67	63	2853	494	83544	
3.	مالي	50	6	527	131	12889	
4.	النيجر	39	3	191	4	5281	
5.	غينيا	31	12	439	39	14141	
6.	غانا	22	7	94	8	4574	
7.	غامبيا	16	2	132	6	3533	
8.	بنين	10	2	25	5	713	
9.	غينيا بيساو	6	1	35	6	716	
10.	بوركينا فاسو	5	2	30	16	701	
11.	ساحل العاج	2	2	4	0	375	
12.	توغو	2	0	10	0	176	
المجموع		333	131	5506	934	163497	

الفصل الثالث

لماذا القرن العشرون ؟

المبحث الأول : مميزات هذا القرن

المبحث الثاني : الأدب الإفريقي في رحاب هذا القرن

المبحث الثالث : وضعية التعليم العربي والأدب العربي الإفريقي

المبحث الأول : مميّزات هذا القرن

إذا كان الأدب مرآة للحياة لما فيه من تصوير لظروفها وأحداثها، وإذا كان الأديب ابن بيئته لتفاعله بعواملها وأحداثها ، فإن هذا القرن يعدّ لهما ينبوعا كبيرا لا ينضب، ووعاء من العوامل لا يمتلئ، وقالباً من الأفكار يوقظ الهمم، وبحرا من التقلبات الاجتماعية يثير المشاعر.

كل ذلك فرصة للأديب لكي يستقي منها رؤيته الخاصة نحو الحياة والكون. وتحقيقا لهذه الدعوى تناولت هذا الفصل الموجز لتشخيص بعض الحقائق من خلال هذه الأمور :

1- *أحداث تاريخية وسياسية :*

إذا كان القرن التاسع عشر الميلادي قد شهد مسرحا من مقاومة زعماء المنطقة للاستعمار، فإن القرن العشرين بدأ بسقوط جميع دول المنطقة في مخالب الاستعمار الأروبي، وخاصة تلك الإمارات الإسلامية : الصُكُتيّة في شمال بنيجيريا، والفلانية في فوتاجالون بغينيا والإمامية في السنغال ، وغير ذلك. لا شكّ أن هذا لحدث عظيم وكبير على النفوس المؤمنة، ومثير لمشاعر الخوف واليأس من المستقبل، وموقظ لثورة النفوس الأبية لاسترداد أمجاد الأسلاف ومآثر الآباء، إما بالسيف أو بالقلم. فهل أوقد ذلك شعلة في قرائح شعراء المنطقة ؟

وبعد ذلك وقعت حربان عالميتان في النصف الأول من هذا القرن ! أولاهما في ما بين 1914م و1918م ، والثانية من 1939م إلى 1945م. تيتم فيهما الأولاد، وترمّلت النساء، وخلت الديار من رجالها وشبابها. وأصبحت ساحات الوغى مجاري الدماء، والوديان قبورا لملايين الأبرياء، فكانت الغابات أسلم للنفوس من المدن، وكان قرب السباع أحب إلى الرجال من قرب الأعداء، بل خرج الإنسان من إنسانيته إلى شراسة حيوانية، يتفنن في قتل أخيه. وقد جند الاستعمار أبناء المنطقة كرها رغم أنوفهم، كم من آباء ودّعوا أبناءهم لسفر بلا عودة، والأمهات يبكين خلفهم في ولولة. فخسرت المنطقة آلافا بل ملايين من شبابها النجباء في تحرير فرنسا من مخالب النازية بأوروبا ، وفي الحروب الدامية في إندونيسيا، وفي الجزائر.

وعقب هذه الحروب العالمية، قامت "دولة إسرائيل " سنة 1948م، فهاجر إليها ملايين اليهود من أوروبا وأمريكا، ومن هنا دخل العالم الإسلامي في مطالبات مريرة لتحرير القدس، ولم يكن ذلك غريبا على شعراء المنطقة.

وكان من نتائج هذه الحروب العالمية أن أنشئت " الأمم المتحدة " سنة 1945م التي ستضع قيودا سياسية على دول المنطقة، كما تضع منظمة " صندوق النقد الدولي " قيودا اقتصادية على اقتصاد الدول، بتعزيز من البنك الدولي. ومن هنا لم تجد الجمهوريات الحديثة

إثر استقلال دولها إلا أن تفصل بين السياسة والدين، نزولا عند تلك القيود السياسية العلمانية والاقتصادية. كان هذا حدثا عظيما آخر على زعماء الدين، الذين طالما تمتعوا بالجاه والهيبة في المجتمع، فأصبحوا الآن مهمَّشين لا كلمة لهم إلا على أتباعهم، اللهم إلا ما يعترف لبعضهم بالقضاء الشرعي في نيجيريا وغامبيا مثلا.

وبعد استقلال جل دول المنطقة في الستينات، قامت الجمهوريات الأولى بتسيير الأمور على منع تعدد الأحزاب السياسية، فنتج من ذلك انقلابات عسكرية متلاحقة في كثير من الدول ، وبخاصة في نيجيريا وبوركينا. واندلعت حركات انفصالية لبعض الأقاليم عن الدولة المركزية كحرب بيافرا في نيجيريا (1967–1970م)، وحركة المستقلين في كازامانس بالسنغال سنة 1980م، وحركات الطوارق في مالي والنيجر في السبعينات والثمانينات. وقامت ثورات من الحروب الأهلية في ليبيريا وسيراليون سنة 1990م. أضف إلى ذلك إثارة إضرابات متلاحقة من الطلبة، ومن نقابات المدرسين والعمال داخل جميع هذه الدول، وحتى خارجها كاحتلال الطلبة السنغاليين المستعربين سنة 1963م ــ في الرباط بالمغرب ــ سفارتهم مطالبين من حكومتهم بالمنح الدراسية التي يستفيد منها زملاؤهم من الطلبة المتفرنسين.[1]

ولم يصمد الرؤساء أمام تلك الثورات إلا بالاستبداد السياسي، فشدّوا الخناق على شعوبهم طيلة الستينات والسبعينات بالسجن والاضطهاد ، وخاصة في مالي وغينيا والنيجر وبنين. وكم من علماء الدين، والكتّاب، والموظّفين المثقفين قضوا بقية حياتهم بين جدران السجون ، وعانوا مرارة البؤس والظلم قبل أن يُجَرَّعوا بشاعة القتل والموت.

وفي هذه الستينات تأثر العالم الإسلامي بانتصار إسرائيل على الدول العربية في حرب 1967م وباحتلالها بعض مناطق فلسطين.

وفي العقد الأخير من القرن العشرين : شهدت المنطقة حركات السياسة المعارضة لمطالبة الأحزاب الحاكمة بتعدد الأحزاب، في ظل نظام الديمقراطية الحديثة، والتي أصبحت من شروط الحصول على مساعدات الدول الغربية، فنجحت بعض دول المنطقة في إقرار هذا النظام بإجراء انتخابات رئاسية نزيهة، ومن تلك الدول : مالي وبنين والنيجر والسنغال وغانا، وما زالت الدول الأخرى تدعي نظاما ديمقراطيا في استبداد سياسي ظاهر. وهل كان شعراء المنطقة على وعي بهذه الظروف السياسية ؟ سيأتي هذا المؤلف بجواب شاف .

وانتهى هذا القرن بسياسة نظام العولمة ، التي تتزعمها أمريكا ، والتي تفرض تبعية عمياء على الدول النامية في اتخاذ أمريكا نموذجا مثاليا في النظام السياسي والاقتصادي والثقافي.

ألا تكفي هذه الأحداث أن يكون لهذا القرن مميزات توقظ همم الشعراء والأدباء ؟!

---

(1) – سيلا، عبد القادر : المسلمون في السنغال ، ص 152.

2- تقلبات اجتماعية :

يتميز هذا القرن بتأثير جذري في الحياة الاجتماعية الإفريقية بالمنطقة. وكان للاستعمار دور أساسي في هذا التغيير، لفرضه التعليم الأوروبي على بعض أبناء المنطقة، وجذب الآخرين إلى الميلادية بسياسة ماكرة، وسبي المستعمرين الأبكار الكواعب، فأنجبن على كره منهن أولادا لم يعترف بهم آباؤهم، فأصبحوا في المجتمع الإفريقي شبه الخلعاء.

شهدت المناطق الإسلامية شيوعا من أنواع الخمور والكحول، نال إعجاب سفهاء من أبناء المسلمين. وشهدت شوارع العواصم ، بعد استقلال الدول، الحوانيت العامة تكتظ بالشباب في الليالي يتمايلون في الطرقات بعد سكر وذهول. وإذا كانت الخمر أم الخبائث، فإنها أنتجت انحلال الأخلاق وانتهاك الحرمات، وكثرت بيوت الدعارة بجنب الحوانيت، وعرفت بعض نساء غانا بهجرتهن إلى الدول المجاورة للارتزاق بالبغاء. ولم يلبث بعد ذلك أن ضعفت محافظة البنات على " البكارة " التي كانت التقاليد الإفريقية تعدها شرفا وحرمة لا تنتهك ، لأن اكتشاف فقدانها ليلة الزفاف فضيحة شنيعة للأسرة بل للقبيلة برمتها.

في ظل هذا القرن فقدت المجتمعات الإفريقية كثيرا من فضائلها، وصارت الرذائل تحظى بمبررات التقدم الثقافي والتأسي بالحداثة. لذا لم يعد ينكر على الشباب ارتكاب بعض المنكرات، بل أصبح بعض ما كان فضيحةً للأسر مفخرة لبعض الشباب كاتخاذ الخليلات.

وفي هذا القرن فقد الشعراء التقليديون مكانتهم الشريفة في المجتمع، وناب عنهم هؤلاء المغنون الموسيقيون، الذين نقلوا إلى إفريقيا أنماط الأغاني الغربية : كالديسكو Disco من أمريكا، والروك مع الرولْ Rock and roll، والريغي Reggae من جاميْكا Jamaïque، وغيرها من التيارات الموسيقية التي جنت على المنطقة بتخلي شبابها عن الأخلاق، والتحلي بأنماط الحياة الغربية بدعوى التمدن الحديث ، وما يعقب ذلك من فساد خلقي عام واستخفاف بالآداب الدينية، وخاصة على أيدي الفتية والفتيات.

إن شعراء المنطقة لم يسكتوا عن هذه الظواهر الاجتماعية الطارئة على المجتمعات الإفريقية، فانتقدوها ، وصوروا أنماطها وأسبابها.

3 - مخترعات علمية وإلكترونية :

لقد توج هذا القرن ، على مدار تاريخ البشرية كله ، بتاج تفجر العلوم الطبيعية والإلكترونية، لما وجد فيه من مخترعات هائلة، وكشوفات علمية باهرة، حولت العالم بين عشية وضحاها إلى قرية صغيرة، قرّب ملايين المسافات بين الداني والقاصي، ولو بُعث الأولون اليوم لشهدوا لهذا القرن بأنه قرن المعجزات وأن علماءه سحرة ومشعوذون، لأن المرء يتحيّر أحيانا بين هذه المخترعات الحديثة في أيّها أكثر أعجوبة من الآخر :

أهي الدراجات العادية التي استغنى بها شعب بوركينا فاسو عن الخيول والحمر؟! أم هي الدراجات البخارية التي تزدحم بها شوارع عاصمتي بنين وتوغو (كوتونو، ولومي)؟! أم هي السيارات التي انبهر بها رجال المنطقة ؟! وكلها من مخترعات هذا القرن ، فكان الأفارقة يندهشون لأول احتكاكهم بها ووقوفهم عليها بدهشة عجيبة، لم يتمالكوا أن شبّهوا الأوروبيين بالسحرة المهرة. أليس ذلك مثيراً لمشاعر الأدباء والشعراء ؟!

وقد أكره مئات رجال المنطقة على أعمال تعبيد السكك الحديدية للقطارات، التي أطلق عليها الأفارقة في أول مشاهدتهم إيّاها بـ " السفن الحديدية "، والتي لم تكن تمر بقرية إلا ويزحف إلى مشاهدتها أهالي القرية بأسرها، أليس في ذلك ما يثير مشاعر الشعراء المرهفة ؟

والأغرب من القطار تلك الطائرات، التي بدأت محاولات إبداعها منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وما حل القرن التالي إلا وقد شهد العالم أنواعا منها المدنية، والحربية، والفضائية التي وصلت إلى سطح القمر سنة 1969م بريادة خبراء أمريكا. وربما تكون نيجيريا أول دول المنطقة هبطت على أرضها الطائرة سنة 1926م.[1]

وإذا تركنا وسائل النقل إلى وسائل الإعلام الحديثة، فإن المرء لينبهر أمام هذه المخترعات من الإذاعة المسموعة والمرئية والسينما والهاتف التي أبدعت في العقد الأول من القرن العشرين ، وإن تأخر دخولها في إفريقيا إلى ما بعد استقلال الدول التي اقتنت معظمها الإذاعات الوطنية في الستينات أو السبعينات ، فقضت برامجها على الآداب الشعبية التي كان يحييها الأطفال في كل ليلة. علما بأن تلك البرامج من الأفلام والأخبار العالمية مستوردة من الدول الغربية، وأن وراء بعضها سياسة مدبرة وموجهة لتغريب أصالة الحياة الإفريقية الاجتماعية. كما شغلت الإذاعات العالمية اهتمام الكثيرين من المثقفين ، كإذاعة فرنسا العالمية RFI وإذاعة لندن BBC وإذاعة الغابون Africa N° 1.

وبجانب هذه الوسائل الإعلامية كانت الأشرطة المسجلة والفيديو والأسطوانات، تسهم بدور فعال في ترويج تلك الأغاني الموسيقية التي تزعّمها كثير من المغنين الأفارقة، فأصبح الفتية والفتيات والنساء يضيعون أعمالهم بولعهم وانشغالهم بهذه الأغاني المسموعة.

وشهدت المنطقة في نهاية القرن أكبر المعجزات الإلكترونية : ألا وهي الحاسوب أو الكمبيوتر، والإنترنت، والهواتف النقالة، كلها أعجوبة الزمان ومعجزة العصر، يحق للشعراء أن يطلقوا عنان قرائحهم في وصف هذه المخترعات التي أراحت الإنسان المعاصر من تعب أعمال الأيام في ثوان محدودة.

وقبل ذلك كله كان عجب الأعاجيب للكهرباء التي كان لوصولها ضجة كبيرة في المنطقة.

---

(1) – أبوبكر، د. علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 135.

المبحث الثاني : الأدب الإفريقي" في رحاب هذا القرن

1- العوامل المؤثرة :

وقفنا في الفصل السابق على تاريخ الأدب الإفريقي في القرون الماضية، التي لم ينتج فيها الأفارقة أثرا أدبيا إلا بالعربية. وأما إنتاجهم باللغات الأوروبية فقد تأخر إلى القرن العشرين، ولكن هذا التأخر لم يكن عائقا أمام هؤلاء المثقفين باللغـات الأوروبيـة أن يطـوّروا الأدب الإفريقي بالفرنسية والإنجليزية في شتى الفنون الأدبية ، وتفوّقوا على زملائهم المستعربين في الإنتاج الأدبي نوعا وكمّا في مختلف الفنون الأدبية : من قصة ورواية ومـسرحية، وبقـي هؤلاء المستعربون متشبثين بـ " أدب الشعر" الذي ورثوه عن أسلاف القرون الماضية.

وإذا بحثنا عن عوامل هذا التطور السريع لـ" الأدب الإفريقي باللغـات الأروبيـة " لوقفنا على " العامل السياسي" الذي خطّطه المستعمرون في تعزيز لغـاتهم وترسـيخها فـي المنطقة. ومن آثار هذا العامل : إدراج " الأدب " ضمن المواد الدراسية الأساسية، وتوجيـه الطلبة الأفارقة في القاعات الدراسية إلى تسجيل آدابهم الشعبية، وتـشجيعهم علـى الكتابـة والتمثيلية في تصوير التقاليد الإفريقية بالمسابقات. وبعد تخرج هؤلاء الطلبة تـسلحوا بتلـك التوجيهات الأدبية لمحاربة الاستعمار، ولتصوير معانـاة الأفارقـة فـي ظـل دكتاتوريـة المستعمرين، فأصبحوا بذلك روادا في صناعة الكتابة باللغات الأروبية.

وأسسوا في أوروبا ، وخاصة في فرنسا، جمعيات أدبية لنشر أعمالهم الأدبية، وكـان التنديد بالاستعمار محور قضاياهم، فلم يعرقل ذلك نشر أعمالهم، إذ كان الأوروبيون يـرون في سياستهم أن نشر هذه الأعمال باللغات الأروبية نجاح كبير للغاتهم الأوروبية، وباب واسع لانتشارها، وتشجيع للأفارقة على تعلّمها. ولم تخطئ تلك السياسة خططهـا، فكثـر إنتـاج الأعمال الأدبية التي شُرِّفَ بها كتّابُها، وتوجّهت الجمهوريات الحديثة إلى إدراج تلك الأعمال في البرامج الدراسية الوطنية، فاشتهر الكتّاب بأعمالهم على مستوى المنطقة.

وأصبحت هذه الشهرة، التي تُوِّجَت بها بعض الأعمال الأدبية، عاملا آخر في ازدهار الأدب الإفريقي باللغات الأوروبية، وشيوعه لدى المثقفين، فأقبل الطلبة الأفارقـة علـى دراسة الفرنسية والإنجليزية أكثر من إقبالهم على دراسة اللغة العربية.

وعامل آخر يتمثل في الظروف السياسية والظواهر الاجتماعية المستحدثة التي كانت أهم مؤثر ووقود في إذكاء أقلام الكتّاب في تصوير دكتاتورية الجمهوريات الأولى لـدول المنطقة،والإضرابات الشعبية،ورشوة الموظفين، وتفشي الفقر والمجاعة والانحلال الخلقي.

2- قضاياه الكبرى :

من هذه العوامل المؤثرة نستقي أهم القضايا التي تميز بها هذا القرن عن غيره، وهي:

أ. التنويه بالتقاليد الإفريقية التي اشترك فيها الكتاب باللغات الأروبية والشعراء المسلمون.

ب. تصوير قسوة المستعمرين وبشاعة معاملاتهم، وقضائهم على ضياع التقاليد القبلية.

ج. الظروف السياسية في المطالبة بالاستقلال، وانتقاد استبداد الرؤساء الأوائل بعد الاستقلال.

د. معاناة الشعب في البؤس والفقر والجوع ، وتفشي انحلال الأخلاق، وضياع الفضائل.[1]

لم توفّر لنا القرون الماضية مثل هذه القضايا التي أوقدت روح البعث والحركة في إنتاج الكتاب والشعراء في المنطقة، لذا انفرد هذا القرن عن سائر القرون بكثرة الظروف المتباينة والمعقدة، فظل ينبوعا لا ينضب للأدب الإفريقي ، وساحة لا تجدب، بل ما زالت تلك القضايا خصبة لدى أدباء المنطقة وشعرائها.

3- اتجاهاته :

في هذه القضايا قلد الأدباء باللغات الأروبية اتجاهات المذاهب الأدبية في كتابة أعمالهم، فوجد منها :

1 -الاتجاه السياسي الذي اهتم به بعض كتاب الروايات والمسرحيات : أمثال الكاتب العاجي أمادو كروما، والأديب النيجيري وولي سوينكا، والغيني تيرنو مونينيمبو، وغيرهم.

2 – الاتجاه الاجتماعي الذي صوّر فيه الأدباء الظواهر الاجتماعية، أمثال الغيني عاليوم فانتوري، والغاني جيمس إين هنشو، والبركيني نزي بوني، وغيرهم.

3 – الاتجاه القومي الإفريقي : الذي ينوّه فيه الكتّاب بالتقاليد الإفريقيّة وبالزعماء القوميين الأفارقة أمثال العاجي برنارد دادِيي ، والمالي أمادو أمباتي باه ، والسنغالي بيراغو جوبْ ، والغيني كمارا لاي، والمالي سعيد باجان، وغيرهم.

4 – الاتجاه الواقعي : الذي يرى فيه الكتّاب خطورة الثقافة الغربية على الحضارة الإفريقية بل على العالم، ومن رواده السنغالي شيخ أَمَدو كَــنْ، والنيجيري شينوا أتْشِبِي وغيرهما.

أليست هذه الاتجاهات الأدبية خاصة بأدباء هذا القرن، وقد تأثر بهم بعض الشعراء المستعربين من الشبان ، وإن قل عددهم ، فتنوعت اتجاهاتهم نحو تلك القضايا الكبرى، وهذا ما يبرر قيمة الإنتاج الأدبي والشعري في هذا القرن دون سائر القرون.

---

[1] – ينظر إلى صفحتي 56 و 57 من الفصل السابق في هذا الكتاب.

4- عالميته :

إن الأعمال الأدبية التي أنتجها الكتّاب باللغات الأوروبيّة تخطّت شهرتها حدود أوطان كتّابها إلى سائر دول المنطقة كـ " الطفل الأسود " لكمارا لايْ، و " المغامرة الغامضة " لشيخ أمدو كن، و" العالم ينهار" لشنوا أتشبي، وشمس الاستقلال لأمادو كروما، وغيرها من الأعمال التي أعجب بها التربويون موضوعا وأسلوبا فأدرجوها ضمن البرامج الدراسية الوطنية.

وقد نال بعضهم شهرة عالمية، فتُوِّجوا بجائزة النوبل الأدبية مثل وولي سوييِنكا، أو بالجائزة الكبرى للأدب الإفريقي كعاليوم فانتوري وغيره. وقد أثارت رواية كمارا لاي " نظرة الملك Le regard du roi " ضجة كبيرة في أوساط النقاد الفرنسيين سنة 1954م.[1]

وقد تميّز هذا القرن بهذا التواصل الثقافي والأدبي بين أدباء المنطقة باللغات الأروبية، وجلّ هؤلاء الكتّاب الذين أشرت إليهم معروفون خارج بلادهم ، وأعمالهم مشهورة في أوساط المثقفين باللغات الأروبية وطلبة العلم في المنطقة قاطبة.

أما أعلام الشعر العربي فلم ينالوا مثل هذه الشهرة خارج بلادهم، بل أكثرهم غير معروفين لدى عامة الناس في أوطانهم ، حتى لدى طلبة العلم إن لم يكونوا من شيوخ الطرق الصوفية أو العلماء ذوي المكانة الرفيعة في المجتمع. لذا تسعى هذه الكتابة للتعريف بهؤلاء الأعلام وبإنتاجهم، وتحقيقا بأن القرن العشرين أنجب شعراء من الفحول، يندر أن يأتي الزمان بأمثالهم.

وإن انعدم التواصل الثقافي بين المثقفين المستعربين في المنطقة، فإن كثيرا من أعلام الثقافة العربية الإسلامية قد اصطفّوا بين علماء العالم الإسلامي في (موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين)، التي تشرف على إعدادها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو ALECSO) بتونس، ففيها تراجم مئات من أعلام الأفارقة المسلمين.

أضف إلى ذلك إدراج أعلام الشعر العربي الإفريقي في موسوعة أخرى، تشرف عليها مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطيْن للإبداع الشعري في الكويت، تحت عنوان : (معجم البابطيْن لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين).

وقد أسهمتُ شخصيا في كلتا الموسوعتين بترجمة أكثر من مئة عالم وشاعر، كما أسهم فيهما كثير من الباحثين في السنغال وغامبيا ومالي وبوركينا ونيجيريا، الأمر الذي يدل على عالمية هذا الأدب العربي الإفريقي خلال القرن العشرين الميلادي.

---

(1) – ينظر : كبا ، عمران : الحياة الأدبية في غينيا ، 438/2

المبحث الثالث : وضعيّة التّعليم العربيّ والأدب العربيّ الإفريقيّ

1- التعليم العربي تحت قيود ومراقبة :

لقد شدّ الاستعمار إزاره، بعد بسط سيطرته، لشدة مراقبة التعليم العربي، ووضع قيوداً أمام ازدهاره. وكانت قيود الاستعمار الفرنسي أشد من غيره. وتتمثّل هذه القيود في ما جاء في قرار عام 1906م : أن فتح المدارس العربية منوط بإذن من الحاكم العام الفرنسي، ولا ينال هذا الإذن إلا بعد توفر شروط قاسية منها : تبني التعليم الفرنسي، واجتياز امتحان شفوي عن أهداف المدرسة، وتقديم تقرير شهري، وعدم قبول أي تلميذ إلا بعد 15 سنة من عمره[1].

ولكن ذلك لم يمنع من ازدياد الطلبة في بعض مدارس السنغال، كمدارس كوكي وطوبى وتواوون،[2] كما شهد بذلك المستفرق الفرنسي بول مارتي[3] سنة 1918م، ولكنه كتب سنة 1930م ما شاهده من تحول جذري في ازدياد تلامذة المدارس الفرنسية فأعلن في صرخة : " لقد انهزمت المدرسة القرآنية "!! وكانت مواد التاريخ الإسلامي والجغرافيا والحساب ممنوعاً تدريسها في مدارس بعض المدن الكبرى في المستعمرات الفرنسية. ومن هنا غلب " الجمود والتقليد " على المناهج الدراسية، فلم يجد أمثال الحاج محمود با[4] سبيلا إلى التجديد الذي كان يرمي إليه في مدارسه التي فتحها في مالي والسنغال بعد إيابه من السعودية.

ولم ينته الربع الثاني من القرن العشرين إلا وقد سادت اللغتان الفرنسية والإنجليزية على حساب اللغة العربية التي انعزلت مع رجالها في الزوايا والمساجد كلغة خاصة بالدين.[5]

ومن ثَمّ جاءت فكرة إنشاء المدارس النظامية العربية التي يدرس تلامذتها على السبورة الكتبَ المصورة الحديثة ، فقام صراع مرير من جراء ذلك بين أصحابها وأنصار الدراسات التقليدية في الدهاليز والكتاتيب، كأي صراع بين الحديث والقديم، حتى أدّى الأمر إلى تكفير التقليديين لهؤلاء المحدثين المجدّدين، بدعوى تأثرهم بالكفار في التدريس على السبورة. ويعد الشيخ اللبيب محمد بن عبد القادر[6] أول من ابتدع التعليم الحديث في نيجيريا.[7]

---

(1) – انجاي، محمد بمبا : أضواء على السنغال ، ص 23.

(2) – ينظر: سيلا، عبد القادر : المسلمون في السنغال، ص 91.

(3) – رحالة أروبي من أقطاب الاستعمار،جاب إفريقيا الغربية لدراسة أوضاع المسلمين فيها، فخصص لكثير من دولها كتابا.

(4) – عاش ما بين 1906م و1978م، درس في غربي إفريقيا قبل أن يلتحق بمدرسة الفلاح في مكة المكرمة، ورجع سنة 1940م لتشمر في فتح مدارس كثيرة بمالي والسنغال، وما زالت تلك الآثار تثمر حتى الآن. (الأدب السنغالي العربي ، ص 85/1)

(5) – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 143.

(6) – يلقب بتاج الأدب (1885–؟) كان صوفيا مجذوبا ذا كرامات عديدة، و أستاذ محمد كمال الدين الأدبي.(لمحات البلور،ص56)

(7) – الإلوري، الشيخ آدم عبد الله : الإسلام في نيجيريا، ص 70.

وقد حاول كثيرون من هؤلاء المحدثين إحياء التواصل الثقافي بينهم وبين العالم العربي، بغية إصلاح وضعية التعليم العربي. وذلك بشقّ طرق الرحلات العلمية إلى الجامعات العربية. وربما كان أهل نيجيريا سباقين إلى ذلك، لقربهم من السودان ومصر؛ وقد أورد صاحب " حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا " قائمة بأسماء طلبة البرنو والولايات الأخرى بنيجيريا الذين كانوا يدرسون في جامع الأزهر في فترة ما بين 1889م و1890م.

ولكن الاستعمار عرقل استمرار هذه الرحلات العلمية طيلة النصف الأول من القرن العشرين، وخاصة في نيجيريا [1] ، كما كان يعوق عن رحلات زعماء الدين إلى الأراضي المقدسة لقضاء فريضة الحج.

2- اللغة العربية وآدابها بين تدهور وتطور:

وبعد أن ذاق التعليم العربي جميع أنواع المراقبة والعراقيل في النصف الأول من القرن العشرين. كانت القيود لا بد أن تنكسر يوما، بعون الله ، وبفضل جهود أفراد تحمّلوا مشقة السفر إلى الشرق والمغرب العربيين. كان ذلك في الخمسينات التي تعد بداية عهد جديد يبعث الأمل في النفوس، فبدأت رحلات متلاحقة إلى مصر والسعودية والسودان أفرادا. ولم تتبنّ الحكومات تلك البعثات العلمية رسميا إلا في الستينات، ولم يكن ذلك إلا في بعض الدول التي تتمتع بأكثرية المسلمين، مثل نيجيريا والنيجر ومالي والسنغال وغينيا وغامبيا.

وكانت حكومة نيجيريا قد تبنّت مشروع البعثات العلمية العربية منذ الخمسينات، إذ أرسلت بعثات متلاحقة إلى السودان وإنجلترا سنة 1954م، ثم توالت البعثات إلى كل من مصر والسعودية والعراق وليبيا منذ 1962م.[2] وكانت حكومة السنغال قد بدأت إرسال بعثاتها إلى المغرب والجزائر منذ فجر الستينات، ولم تحل السبعينات إلا وقد وجد في جميع دول الشرق العربي والمغرب العربي طلاب من بلدان غرب إفريقيا، إما بواسطة الحكومات أو بواسطة الجمعيات الإسلامية والمدارس العربية.

ولم تنتظر الدول الإفريقية طويلا أن رأت تيارات التجديد بعد إياب روّاد هذه البعثات، يحملون إلى بلدانهم مختلف التيارات الفكرية والدينية. فأنشأ كثيرون منهم مدارسهم العربية الأهلية على طراز المناهج الدراسية واتجاهات المذاهب الدينية من إحدى الدول العربية التي

---

(1) – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا ، ص 207.

(2) – المصدر نفسه ، ص 210-214.

درسوا فيها. ومن هنا اختلفت مناهج المدارس في الدولة الواحدة بل في الإقليم الواحد. فكثرت المدارس العربية الحديثة ، وكان أمل الرحلة إلى الدول العربية عاملا في رغبة إقبال الطلبة على الدراسة العربية في السبعينات والثمانينات. وقد حق للغة العربية آنذاك أن تتنفس بروح التطور والتقدم.

<u>ومن مظاهر هذا التطور :</u>

- إنشاء أقسام اللغة العربية في كليات الآداب بجامعات نيجيريا منذ 1961م، وبالسنغال في السبعينات، وفي غانا في الثمانينات، وفي مالي وغينيا وبوركينا فاسو في نهاية التسعينات، بخلاف سائر الدول التي في سبيل إنشائها أيضا مثل توغو وغامبيا.
- تبني بعض الحكومات الدراسةَ العربية في مدارس ما قبل الجامعية، إما بإدراجها في مدارسها كمواد دراسية كما في السنغال وبوركينا فاسو ومالي، وإما بإنشائها " المدارس الحكومية العربية " كما في النيجر ونيجيريا وغينيا.
- مواصلة بعض الحكومات إرسال البعثات العلمية إلى جامعات الدول العربية المختلفة.
- توظيف الخريجين المستعربين في تدريس المواد العربية والإسلامية في المدارس الوطنية، وهذا بالتحديد في نيجيريا، والنيجر، ومالي، وغينيا، والسنغال.
- انتداب المدرسين العرب من السودان ومصر وليبيا والمغرب للتدريس في بعض المدارس الأهلية أو في الأقسام العربية بجامعات المنطقة الوطنية.
- تعيين بعض المنظمات العربية الخريجين الأفارقة للتدريس في المدارس الأهلية العربية أو في الأقسام العربية بالجامعات الوطنية، كوزارة الأوقاف السعودية مثلا ، وخاصة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية التي تحمّلت مرتّبات المدرسين عن المدارس الثانوية بتعيين الخريجين ببرنامج ما بعد كنو، وكذلك بتعيين الأساتذة الجامعيين في فروع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد وبنين والسنغال وفي الجامعة الإسلامية بالنيجر.
- انتشار الكتب العربية المطبوعة والدوريات العربية من مجلات وجرائد وصحف يومية.
- تيسير الرحلات إلى الدول العربية، إذ في كل سنة يحج ملايين المسلمين في المنطقة.
- اهتمام بعض المنظمات العربية بقضايا الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، كمعهد الدراسات الإفريقية في المغرب ، والمنظمة الإسلامية (إيسيسكو ISESCO) في المغرب، والمنظمة العربية (ألكسو ALECSO) بتونس، وجامعة إفريقيا العالمية بالسودان، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالجماهيرية العظمى.
- اهتمام بعض الكتاب العرب بقضايا الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة، أمثال نعيم قدّاح، والدكتور علي شلش، والدكتور عبد الله عبد الرزاق ، وإبراهيم طرخان ، والدكتور الهادي المبروك الدالي، والدكتور عبد الحميد الهرّامة.

3- مستقبل الأدب العربي بين يأس وأمل :

من اليأس أن تظلّ جهود الأسلاف من المخطوطات والأعمال الأدبية حبيسة الحقائب والصناديق، من غير أن يعرفها الجيل المعاصر، فضلا أن تنال شيئا من الدراسة والتحقيق. ومما يبعث اليأس في النفوس أن تظل دول غرب إفريقيا إلى هذا العصر لا تواصل ثقافي بين علمائها المستعربين بخلاف الكتاب والأدباء الذين يكتبون باللغات الأوروبية.

ومما يبعث اليأس أيضا فقدان " نقد بنّاء وجادّ " في الكتابات الأدبية والعلمية حول تراث الأسلاف، فأنى يكون التطور والتجديد حليفنا إذا ظللنا نتغنّى بكلّ ما قدّمه الأسلاف دون تقويم ليستفيد منها الجيل الحاضر. إذ لا يكاد يتجرّأ الباحث ، وخاصة في السنغال ونيجيريا، على تقويم أعمال الشيوخ بالنقد الجاد إلا ويتصدّى له الناس بالتهديد والاضطهاد. إذ ما زال الكثيرون يعتقدون أن أهل تِنْبُكْتو في مالي، وابن فودي وأتباعه في نيجيريا، والحاج مالك سي وأحمد بمبا الخديم وعلماء انياس بكولخ في السنغال، قد ذهبوا بجميع سبل التجديد في العلم والفكر والدين. وبمثل هذه المعتقدات الخاطئة تموت روح النهضة والتجديد في قلوب الناشئة.

وحتى الآن لم تصبح اللغة العربية لغة ثقافية وصحافية واجتماعية في ربوع المنطقة، كما أن عدم إمكانيات نشر أعمال الشيوخ الصوفية والعلماء والأدباء يبعث في النفوس شيئا من اليأس وفتور العزيمة.

ولكن الدراسة العربية بخير.. على كل حال،

إذ كثر حملة شهادات الإجازة العالية (الليسانس)، كما يزداد عدد حاملي شهادات الماجستير والدكتوراه. إذ لا يمكن إحصاء حملة الإجازة العالية في نيجيريا والسنغال مثلا. علماً بأن نيجيريا تتميز بوجود فرص التعليم العربي من المرحلة الابتدائية إلى الدكتوراه.

أضف إلى ذلك أن إنشاء الجامعة الإسلامية بالنيجر، وإقامة فروع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد وبنين والسنغال، وفتح كلية الهدى وكلية التربية بواغادوغو في بوركينافاسو، وفتح جامعة الإعمار في كوناكري بغينيا، وكليات الشيعة في آبدجان بساحل العاج وفي أكرا بغانا، كلها من الإنجازات التي تطمئن لها النفوس على أمل ازدهار التعليم العربي في المنطقة مستقبلاً، ويبشر بالتطور رغم العراقيل والعوائق، التي ستزول عن قريب عاجل إذا ما تضافرت الجهود وتوطدت المثابرة في العمل الجاد المنظم.

الباب الثاني

مضامين الشعر العربي الإفريقي

الفصل الأول : موضوعات دينية

الفصل الثاني : موضوعات اجتماعية

الفصل الثالث : موضوعات سياسية

الفصل الرابع : موضوعات ثقافية

الفصل الأول

موضوعات دينية

المبحث الأول : أصول عقدية

المبحث الثاني : شعائر تعبدية

المبحث الثالث : مواقف في قضايا دينية

توطئة :

ينبغي أن نقف وقفة متأنية على التمييز بين موضوعات الشعر وأغراضه ، إذ يبدو في كتابات كثير من الباحثين ومؤرخي الأدب ا لعربي تداخل بينهما عند الحديث عنهما، دون أدنى اهتمام بالتفرقة بينهما، فإذا تناولوا الحديث عن " موضـــوع الـــشعر" مـــثلا فيتحدثون عن المديح ، والهجاء ... الخ، كأنهما مترادفين، على رغم ما بـــين موضـــوع الشعر وغرضه من تباين واضح.

يقصد بموضوع الشعر مضمونه الفكري، الذي يكون جزءا من موضوعات المجال الاجتماعي أو الديني أو السياسي أو الفكري أو التاريخي. غـــير أن غرضـــه في تنـــاول موضوعات هذه المجالات قد يكون من مستهدفات التنويه فيكون مدحا، أو التنديد فيكون هجاء ، أو التصوير فيكون وصفا ... الخ.

وبهذا يظهر لنا بوضوح ، أن موضوع ما يوجهه الشاعر إلى ملك مـــن الملـــوك سياسي، فإن نوه بعدالته فغرضه " مدح "، وإن انتقده في ظلمه وبطشه فغرضه " هجاء ". أما إذا ما انتقد إماما خطيبا في خيانته فإن موضوعه يصير " دينيا " ويظل غرضه " هجاء " لا غير.

ومن هنا يتبين أن الغرض يقتصر على العلل والأسباب التي من أجلها يقول الشاعر قصيدته، أو الدوافع التي حركته ، أو المقاصد التي يستهدفها وراء قول الشعر، الذي تسوقه قوة من حالاته النفسية أو من مشاعره الفياضة.

وأما الموضوع فإن صلته بالفكرة وطيدة، بل هو محور الفكرة الرئيسة ولب المجال الذي استقى منه الشاعر حديثه، لأن " حرية الصحافة " مثلا موضوع من المجال السياسي، وإن تناول "مآسي اليتيم" فإن ذلك موضوع من المجال الاجتماعي، وهكذا دواليك... الخ.

وسأتحدث في هذا الباب عن موضوعات الشعر العربي الإفريقـــي، أي مـــضامينه الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية، أما أغراضه فسأتناولها في الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول : أصول عقدية

1. مفهوم الدين :

من الفضول ، أو التطويل، أن نتناول قضية " ديانة " أدباء هذا الشعر، بعد أن أصبح واضحا لنا في الباب الأول أن " الإسلام " دينهم وعقيدتهم ، وبتعاليمه يتعبدون. ولم أقف على شاعر مسيحي أو علماني في هذه المنطقة، وإن كان في بعض جامعات نيجيريا أساتذة مستعربون من الميلاديين[1].

لكنه ليس من الفضول أن يتغنى شاعر بدينه " الإسلام "، ويشيد بتعاليمه، ويبوح بمفهومه له، ويثني على رجاله، ويفتخر بتاريخه المجيد، ويعتز بشموليته على جميع مظاهر الحياة البشرية، كما سأسرد لاحقا بعض النماذج من كل هذه الموضوعات الفرعية. وقبل ذلك يجب أن أقرّ بقلة تناول الشعراء " مفهوم الدين الإسلامي " موضوعاً رئيساً لقصائدهم ، لأن ذلك كان مسلّما به، ولم يكن قضية تشد الانتباه.

وفي هذه *الحالة «فلا يمكن ، إذن ، أن نحدد موضوعات لتكون شعرية بطبيعتها، وأخرى لتكون خارجة عن نطاق الشعر، فقد ينفذ الشاعر ببصيرته ليرى ـ خلال ما يبدو تافها في بادئ الأمر ـ ما ينم عن مسألة نفسية أو مشكلة اجتماعية، أو يرى فيه مجالا لتصوير فني رائع يبين عن مشاعره أو عواطفه »*.[2]

نجد شاعرا سنغاليا ، وهو الشيخ أحمد جي[3] ، يعنون قصيدته البديعة المعروفة بـ " ما الدين عندي " من 48 بيتا. وفيها يحاول أن يضفي على هذا الدين الحنيف بعض الخصائص العامة ، وقبل ذلك ينفض غبار بعض التقاليد الصوفية عن "الدين " بتكراره جملة " ما الدين عندي " في أوائل عشرين بيتا. ثم يعود إلى تكرار "الدين عندي " في بداية خمسة وعشرين بيتا، لتصميم مفهومه اللامذهبي للإسلام. وفي هذا الأسلوب تظهر ثقة الشاعر بأصالته الفكرية، لإشعار مخاطبيه برؤيته الخاصة لهذا الدين الحنيف : [البسيط]

24 الدين عندي إيمان ومعرفة ** وعزة النفس إذ للنفس تكريم[4]

25 الدين عندي قرآن أرتله ** ودرس علم وتذكير وتعليم

26 الدين عندي برّ الوالدين مع ال ** إحسان للناس إن البر معلوم

---

[1] – أمثال الأستاذ إسحاق غنبيه في جامعة ولاية لاغوس، وآخر في جامعة عثمان دان فودي في صكتو.

[2] – هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، لا.ط، 1987م، دار العودة، بيروت، لبنان.

[3] – من كبار الشعراء السنغاليين، إذ له أكثر من أربعة دواوين شعرية، ولد في لوغا سنة 1934م، أسس مدرسة ابن تيمية.

[4] – سألتزم بترقيم الأبيات حسب ترتيبها في القصيدة، كي أشعر القارئ بإسقاط بعض الأبيات التي جاوزتها فيما بينهن.

27 الدين عندي اتّباع الأوامر من ** غير ابتداع وللقرآن تحكيم

28 الدين عندي توحيد وتجربة ** والبعد عن كل تعطيل وتعظيم[1]

وستكون لنا وقفات أخرى مع هذه القصيدة الفريدة من نوعها، لأنها ثورة عارمة على التصوف الذي يتمسك به جل شعراء المنطقة.

ويأتي شاب نيجري ــ زكريا محمد الرباني [2] ــ بقصيدته من أربعين بيتا، في بحر " البسيط " مثل سابقه ، ملتزما بتكرار " الدين " في أوائل تسعة عشر بيتا. والذي يهمنا هنا أن نسوق ما يشهد لنا بتعريفه لمفهوم الدين : [البسيط]

22 الدين قول وإقرار بوحدة من ** له يسبح ذو عقل وحيوان

23 الدين عَمَلٌ وإخلاص يقوم به ** من وحد الله في سر وإعلان

25 الدين تقوى وتوزيع الزكاة على ** من يستحق زكاة دون حرمان

26 الدين بر وتوجيه العباد إلى ** حب الرسول منير الكون ذي الشان

27 الدين بذل لنفس والنفيس معا ** كي يعلو الحق في علن ووجدان

32 الدين ذكر وتفكير يراد به ** فهم الخلائق موصولا بإيمان[3]

" الإسلام كدين " عنوان لرائية من قريحة الشاعر النيجيري[*] عبد المؤمن أحمد التجاني، يتناول فيها صفات اليسر والنظام والشمولية والاستقامة لشرائع هذا الدين الحنيف :[الطويل]

2 لقد كان قدما للسلامة داعيا ** أتى الناس بالإسلام خير مبشر

3 وفيه النظام الكامل المترتب ** كما فيه صفو ليس بالمتكدر

4 ويطرق هذا الدين كل أمورنا ** ولم أر ما ألغاه غير مدبر

5 صراط قويم سالكون مصيرهم ** إلى كل خير في الجنان محضر

7 وذلك دين أصله غير زائف ** وذلك دين شرعه غير منكر[4]

وقد صدّق أحد مواطنيه هذه الخصائص، فصاح صيحة حق بكمال الإسلام في دالية: [الطويل]

لقد أكمل الرحمن دين محمد ** وأكد أن الدين صار مؤيَّدا[5]

---

(1) – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ص 375/2.

(2) – ولد عام 1966م، في جوت بالنيجر، له دكتوراه السلك الثالث من علم الاجتماع الحضري من المغرب حيث نال الشهادة الثانوية أيضا، أما الإعدادية والابتدائية فدرس مراحلهما في كولخ بمعهد الشيخ إبراهيم انياس الذي ينتمي إلى سلكه في التجانية.

(3) – الرباني، زكريا : قصيدة الدين، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(*) – **تنبيه : النيجيري نسبة إلى نيجيريا بتوسط الياء بين الجيم والراء، خلافا للنسبة إلى النيجر فالياء محذوفة بينهما.**

(4) – التجاني، عبد المؤمن أحمد الإويي : الإسلام كدين ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، مدينة إيوو، ولاية أويو، نيجيريا.

(5) – الأدبي، عبد الله جبريل سليمان الفلاني: التحفة الكمالية في الأشعار المثالية، ط 1، 1424هـ/2003م، إلورن، نيجيريا.

ويمكن القول بأن شعراء نيجيريا أكثر من أطلقوا كلمة "الإسلام" على عناوين كثير من قصائدهم : كقصيدة " الإسلام وشموليته " لعبد المؤمن أجيبولا عبد الرفيع[1]. وقصائد " أعداء الإسلام " و" إسلام الأمس" و " إسلام اليوم " و " إسلام الغد " و " النظم الإسلامية " لعبد الواسع مدثر[2].

ونختم هذا الحديث بقصيدة " هذا هو الإسلام " من أشهر أدباء غامبيا : محمد الإمام سامبو غساما[3]، وفيها يدعو إلى التنديد بالطائفية التي لم يعرفها دين الله الحنيف : [الطويل]

1 *دعوا عنكم الأوهام يا قوم جانبا ** وداووا جمود الفكر بالبحث لا الوهم*
2 *ولا تركنوا للجهل تبنون دينكم ** على كل ما نادى به الشيخ من زعم*
3 *لماذا رضيتم بالتباغض مذهبا ** وأنكرتمو دين التعايش في سلم ؟*
6 *أليس الإله المبدع الخلق واحدا ** ودينكمو دين التوادد والحلم ؟*
7 *فكونوا عباد الله طرًّا وحاربوا ** جميعا دعاة الطائفية والخصم*[4]

2. صفات الله تعالى وأسماؤه :

لقد احتلت أسماء الله تعالى مكانة جليلة وكبيرة في دواوين شعراء المنطقة، وبخاصة إذا عرفنا انتماءهم إلى التصوف، وترتّل الصوفية الابتهالات الشعرية، التي تشتمل على كثير من المناجاة الربانية والتوسلات الدينية، وسنفصل القول في ذلك عند تناول الباب الرابع في أغراض " المناجاة " و " التوسل " و " الدعاء ".

ولا أريد من وقفتنا هنا أن أثبت غناء هذا الشعر بهذا الموضوع فحسب، بل أودّ أن أشير إلى فحول الشعراء الذين استطاعوا أن يجمعوا بين الشاعرية الفنية والعقيدة الدينية في قصائدهم البديعة.

ومن هؤلاء : الشيخ محمد مرحبا سانوغو[5]، أكبر علماء بوركينا فاسو تأليفا، والذي وضع مئة بيت، خصص كل اسم من أسماء الله الحسنى ببيت شعر، فعنون القصيدة بعنوان " الاستعانة بأسماء الله الحسنى".

---

(1) – شاعر مقل ومغمور، من إسيين مسقط رأسه، ولاية أويو، ولد عام عام 1979م، خريج جامعة إفريقيا العالمية بالسودان.

(2) – له ديوان كبير، مازال مخطوطا. ولد في إسيين، ولاية أويو، سنة 1976م، خريج جامعة الحكمة بإلورن، نيجيريا.

(3) – ولد ببنجول عام 1947م. تخرج في جامعة أم درمان بالسودان، ودرس الإنجليزية بإنجليترا، ثم عمل موظفا دبلوماسييا في ليبيا وإنجلترا، وهو مترجم في الاتحاد الإفريقي منذ 1986م. له مقالات، وهو رئيس تحرير مجلة " الفوروم" من موظفي الاتحاد.

(4) – غساما، محمد الإمام سامبو: بنات القريحة، لا.ط، لا.ت، لا.دار، ص 21.

(5) – عاش ما بين 1896م و1979م، ولد بيوبو جولاسو حيث تعلم حتى تبحر، وأقام طويلا في غانا، ثم عاد إلى وطنه فرارا من بطشة الاستعمار،وزار الدول المجاورة،وحج،وله مؤلفات في الدين والتاريخ الإفريقي،في مكتبة المخطوطات العربية بجامعة نيامي.

وفي غانا يضع محمد الأمين بمبا الفرضي[1] الأسماء الحسنى في قصيدة، من مجزوء الرمل، بتكرار ألفاظ تمتاز بموسيقاها، يصغي إليها الصوفي وهو في رياضة عميقة يتــدرج إلى الحضرة الربانية. جاءت أبياته على النمط الآتي : [مجزوء الرمل]

1 حــضرة البــاري الكــريم ** حــــضرة البـــر الـــرحيم
2 حـــــضرة الله العظـــــيم ** حـــــضرة الله العلـــــيم
3 حــضرة الحـــي القيـــوم ** حـــــضرة الله الــــسلام
23 حــضرة الوهــاب مــدّي ** حــضرة الفتــاح جــودي
24 حــضرة الــرزاق جئــت ** حــضرة الجبــار فهــت
25 حــضرة البــاقي الحكــيم ** هــاك عبــدا فــي الغــرام[2]

وقد عدد كثيرون صفاته الواجبة والمستحيلة في منظومات تعليمية، لا هدف يرجى من مثل هذه المنظومات سوى دروس في التوحيد للمتعلمين، كمنظومة الشيخ سليمان بــن أبــي بكر[3] من النيجر بعنوان " التوحيد " إذ يقول : [الرجز]

1 يجب عشرون من الصفات ** لله خــذ بــي فيمــا يــأتي
2 منها الوجود صفة نفــسية ** وخمسة من بعــدها ســلبية
3 توحيده القدم والبقا القيام ** بنفسه الخامس خلقه الأنام[4]

ولكن أسلوب مواطنه أحسن منه عند ما يناجي ربه بصفاته وأسمائه في شــيء مــن جــودة التعبير، ألا وهو محمد مالم موسى[5] ، في قصيدة تائية من الطويل : [الطويل]

1 شهدت بأن الله رب البريــة ** ولم يك ربــا غيــره للخليقــة
2 إله قديم واحد لا شريك له ** وباق صمد ذو كمــال ونعمــة
3 إله أزلــي فــلا مبــدأ بــه ** تقدس عن مثل محــال وتــرة
4 إله أبدي فلا منتهى له ** ورب تعالى عن صفات البرية[6]

---

(1) – عالم جليل في علم الفرائض،ومدير مدرسة في مدينة إجرا قرب كوماسي في غانا.له ديوان شعر مخطوط ومؤلفات متنوعة أحسنها وأشهرها كتاب " فتح المنان في تفسير آيات المواريث في القرآن " تحت الطبع. وهو من أتباع الطريقة التجانية الإبراهيمية.

(2) – القصيدة مخطوطة عند الشاعر، وهي من 47 بيتا.

(3) – ولد عام 1937م في زرمغندا،درس في دوسو بالنيجر،وموريتانيا،وصكتو بنيجيريا،له ديوان بعنوان "روضة الصبيان"

(4) – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 124.

(5) – ولد بطاوا سنة 1930م.شاعر فقيه، درس في أكدز بالنيجر، وفي كنتشة بنيجيريا،تخرج في زاويته بطاوا علماء أجلاء، له ديوان ضخم بعنوان " مفتاح الرحمة ". وهو تجاني الطريقة، ومالكي المذهب، وأشعري العقيدة.

(6) – المصدر نفسه ، ص 129.

وإذا ما وقفنا على قصيدة "الله الباقي وبعض صفاته"، فإن صاحبها يعقوب دوكوري[1] يبوح ببراعته الشعرية ، لما في تعبيره من سلاسة لطيفة : [الوافر]

8 هو المدعو في كل الجهات ** هو المرجو معطي السائلين
11 هو الجبار قهار البرايا ** هو الخلاق منجي المؤمنينا
12 هو الملك المكون للوجود ** يصور نطفة تغدو جنينا
14 هو المنان محبوب القلوب ** هو المذكور عند الذاكرينا[2]

لقد استقينا هذه النماذج من غير كبار الصوفية في المنطقة، ليدل ذلك على مدى اهتمام جل الشعراء بهذه الحقيقة الكبرى. وأما الزعماء الصوفية فإن وقفتنا معهم ستطول عند تناول غرض " المناجاة "، ونعني بذلك أمثال : الشيخ أحمد بمبا والحاج مالك سي والحاج إبراهيم انياس بالسنغال، أو أمثال زعيم القادرية بنيجيريا الشيخ محمد الناصر كبرى[3]، وغيره من الكبار التجانيين كالشيخ محمد الأمين الدمغراوي[4] صاحب ديوان " نفحات الباري".

3. يوم القيامة :

نحن الآن أمام القضية الكبرى التي تهم الجميع ، مؤمنا كان أم كافرا، لأن إنكار الملحدين له لم يمنع من تصديقهم بالموت الذي يعد مصير جميع الأحياء إلى هذا اللقاء المحتّم. ويشدو الأديب المالي، حبيب عبد الله كان الفولاني[5]، هذه النهاية الحتمية التي تضع حدا نهائيا للحياة، مهما كانت حظوة صاحبها في متاع الدنيا : [الكامل]

4 والمرء مهما حاظ دنيا واعتلى ** أجواءها كالنسر والعقبان
5 لو نال تاج الملك فيها واستوى ** فوق العروش ودال بالسلطان
6 لا بد يهوي في الحضيض وينتهي ** وكأنه ما كان في الأكوان
7 لا بد يوما يوضعن بآلة ** حدبا يشد عليه بالخيطان
8 والجسم يدفن لا محالة في الثرى ** يغدو أديم الأرض والديدان
9 لا بد يحويه التراب وينمحي ** آثاره وكأنه ما جد في الوجدان
10 ويعود حتما أعظما منخورة ** حتى يعاد الروح في الجثمان[6]

---

(1) – أكبر كاتب معاصر في مالي، ولد سنة 1946م في كايْ حيث درس، ثم زار موريتانيا والسنغال وغيرها ثم أقام في سيكاسو بمالي وأسس بها مدرسة "الأم"،وهو إمام جامع،وصاحب أكبر مكتبة عربية خاصة،تربو مؤلفاته ورسائله على مئة،وشاعر موهوب.

(2) – من قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، هي 45 بيتا.

(3) – هو زعيم القادرية بنيجيريا، مركزه في كنو، ومنظوماته كثيرة، ومؤلفاته مشهورة.هو صنهاجي الأصل، ولد عام1914م، وتوفي 1996م. ترجم له كثير من الباحثين، ينظر تقديم قريب الله محمد الناصر للديوان المبارك، ص هـ .

(4) – هو ابن ممد الماهر ، يعد أحد زعماء التجانية الإبراهيمية، وضع ديوانه هذا سنة 1973م الذي مازال مخطوطا حتى الآن.

(5) – ولد في كاي سنة 1952م. لم يكمل دراسته الجامعية بالمدينة المنورة،فانخرط في تجارة رجال الأعمال. له ديوان كبير.

(6) – كان، حبيب عبد الله: الوردة على نهج البردة، لا.ت، لا.ط، ص 55. __تنبيه :__ **الصواب من (حاظ) حاز،ومن (يحواه) يحويه.**

ولهذا اليوم الرهيب أمارات تدل على قربه، حاول شاعر غاني أن يصوّرها في قصيدة صادية من 55 بيتا، وركّز على أمارات انحلال السلوكيات الاجتماعية : [المتقارب]

8 *وقد كان غصب كربح التجـارة ** وظلـم العبـاد كـشرب اللـواص*

9 *وليس لهم من يـرد الأمانـة ** وأكـل الوديعـة حلـو رخـاص*

10 *أصاليتهم من يـبص بالخيانـة ** وأجبنهم من يـدص عـن وبـاص*

11 *قلوبهم كقلوب الذئـاب ** وحيلتهم كاحتيال القناص*[1]

وكثيرا ما تأتي أوصاف القيامة، تصويرا لنعيمها في جنانها، خلال ثنايا المراثي التي يدبّجها الشعراء لمن عظم عليهم موتهم. وهذا سيدي الأمين بن سيد كج[2]، أحد شعراء تِنْبُكْتو بمالي، يرثي أحد شيوخه العلماء : [الوافر]

8 *سألت الله بالأسـماء كـلا ** ليعفو عنـك بـالعفو الجميـل*

9 *وينعمك العليم بشرب كأس ** من العين المـسمى "سلـسبيل"*

10 *ويسكنك المنازل والقصور ** مع الولدان والحور الجميل*[3]

ونجد شيخ شعراء بنين سليمان محمد ميسونا[4] يدلي بدلوه في تقسيم الخلائق في هذا اليوم " يوم الموعد " كما يسميه في داليته من 74 بيتا : [الكامل]

53 *أرأيت أخبرنـي أُخَـيّ لأعلمـا ** في <u>أي فئة</u> كنـت يـوم الموعـد*

54 *وخلائق قسمان قـسم مـسعد ** يمـشي رويـدا للجنـان مخلّـد*

55 *بخلاف ذلك قسم مُشقي يا أخي ** بل يسحبونهم لمأوى سمّد*[5]

4. الملائكة :

لا شك أن " الملائكة " تكررت الإشارة إليها في ثنايا القصائد، وتداول اسم "جبريل"عليه السلام في المدائح النبوية أكثر من غيره.ولكن الشعراء لم يهملوا في المنظومات التعليمية والتوسلات الصوفية ذكرَ الملائكة كركن أساسي في العقيدة الإسلامية. وربّما من التطويل غير المفـضل أن نحاول تصنيف منظومات شعرائنا وتوسلاتهم بهذا الخصوص، ولكن حسبنا أن نشير إلـى أحد أقطاب المنظومات والتوسلات في الشعر العربي الإفريقي ، ألا وهو الشيخ أحمد بمبا

---

(1) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : ديوان شعري، مخطوط مكتبة أبناء الشاعر.

(2) – من العلماء المتأخرين الذين لم تتوفر لنا الفرص للوقوف على ترجمته. أما شيخه فهو محمد الطاهر بن شرف توفي 1968م.

(3) – كتاب مجموع المراثي على محمد الطاهر بن شرف، ص 6 ، مخطوط المكتبة الخاصة للشاعر محمود حمو بتِنْبُكْتو.

(4) – أصله من الهوسا في برنو، لكنه ولد في غانا وعاش في بنين حيث توفي (1924–2001م). يعد من كبار علماء جوغو أشهر مدينة علمية في بنين، وأكثرهم تأليفا. التقى بعمر كركي في غانا، وتخرج على يده كثير من العلماء. كان يميل إلى السلفية.

(5) – ميسونا، سليمان: درة الواعظين، مخطوط مكتبة المؤلف في جوغو، بنين، ص 12. <u>تنبيه:</u> **كسر الوزن في ما تحته الخط.**

السنغالي، الذي قد يعيي إحصاء توسلاته الباحثين ولكن منظومته في التوحيد والفقه والتصوف أسماها بـ"*تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار*"،وفيها فصل عن الملائكة من ثمانية أبيات:

1 أمـــا الملائكـــة فالإيمـــان ** بهــم هــو التــصديق والإيقــان
2 بـــأنهم لا شـــك موجودونـــا ** ثـــم مـــن الـــذنوب معـــصومونا
3 وأنهــــم لا يتغوطونـــــا ** ولا يبولـــــون مطهرونـــــا
4 ليست ملائـــك الإلـــه يـــأكلون ** عليهم السلام ليـسوا يـشربون
5 بل هم عباد مكرمـــون ســـرمدا ** والكل منهم ليس يعصي الـصمدا
6 والكل يفعل الـــذي قـــد أمـــرا ** به ولِـــي قـــادوا بـــأمن بـــشرا
7 وأنهـــم خلقهـــم مـــن نـــور ** ربهـــم البـــاقي بـــلا تكـــدير
8 تسبيح ربهـــم هـــو الـــشراب ** تقديـــسه الطعـــام لا ترتـــابوا(1)

[الرجز]

وأما إفراد القصائد لبعض الملائكة فإن "جبريل" عليه السلام هو الذي حظي بهـذه المكانـة المتميزة عند شعرائنا. ومن ذلك قصيدة يعقوب دوكوري (المالي) بعنـوان "*التـسليم علـى الروح الأمين جبريل والملأ الأعلى في السموات* "، وذلك في عشرة أبيات فقط.[مجزوء الرمل]

1 أيهـا الـروح الأمـين ** في الـسموات سـلام
2 إننـــا أمـــة محمـــد ** مهبط الـوحي الإمـام
3 أنت في العلـو هـواك ** عنـدنا فـوق الرغـام
4 يا أمين الله يـا حـب ** النبـي عـالي المقـام
5 جئت من فوق الـسماء ** بالهدى نـور الظـلام
6 فغدا الأعمى بصير ** والبرايا في وئام(2)

5.القدر والقضاء :

ربما إن هذا القدر من أبعد الموضوعات عن مضامين الشعر العربي الإفريقي، إلا في تلك المنظومات في التوحيد. وربما يأتي الحديث عنه في المراثي عند تعزيـة النـاس فـي مصائبهم، كقصيدة " *عبد الجليل* حمزة *والقدر*" لعبد الواسع مدثر ذلك المكثار في التنوعـات الشعرية. لكن مثل هذه المرثيات لا تعرف القدر مثل ما تولي المنظومات اهتمامها بذلك.

وقد جعل أحد الشعراء الشباب من مالي " القدر " محور مقطوعته الشعرية، لبيان موقفه

(1) – بمبا، أحمد الخديم: تزود الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار، لا.ط، لا.ت، طوبى، السنغال، ص 5. **تنبيه: التفات في البيت6.**

(2) – دوكوري، يعقوب : البستان، لا.ط، لا.ت ، المكتبة الإسلامية ، بماكو، مالي، ص 67.

من القدر الذي لا يعني سوى علم الله السابق لأفعال العباد، يقول أبو رضوان المدني تيام[1] :

1 يا من يــرى عربيــة كتعرقــل ** على منهج المستقبل بها ترتجــى
2 ألا إنـــه قــول مقــول مقــدّر ** كذا الناس للقدر المقــدّر تنتجــى
3 إله بنــا اختــار كــلا لمــدخل ** هناك هنــا إمــا هنالــك تنتهــي
4 أليس من الله علم أواخرٍ ** من الجن والإنس بنا منه نرتمي

وقد شذ هذا الشاعر عن نظرائه في المنطقة بتحرره من الالتزام بالبحور العروضــية المعروفة وإن التزم بالروي. لذا لا يخفى على القارئ ما في الأبيات من اعوجاج في الوزن وركاكة في الأسلوب.

6.الأنبياء والرسل :

أ. النبي محمد ﷺ بين صفاته الخَلقية والخُلقية :

يعد هذا المحور أكثر ما تناوله الشعر العربي الإفريقي، إذ نجد لكبار الشعراء دواويــن فيه، ولصغارهم كثيرا من القصائد، بل لا تنضج قريحة الشاعر إلا وهو يحاول مــدح خيــر البرايا. وتتمثّل أعمالهم في تصوير شخصية محمد بن عبد الله ﷺ في شمائله البشرية وأخلاقه النبوية، وإن تفاوتت أساليبهم بين البساطة والرصانة، وبين المعاني التقريرية والموحية.

وقد فصل الشيخ محمد واترا العاجي[2] القول في شمائله من 57 بيتا، لم يترك شيئا من صفاته الخَلقية إلا صورها، بداية من شعر جبهته إلى أخمص قدميه، وهذا شيء منه:[البسيط]

97 فقد بدا أنجل العينين واسـعها ** وأدعــج المقلتــين النــور بــالأدم
98 أقنى بنور أَزَجّ الحاجبين معــا ** جبينه واســع أبهــى ضــليع فــم
100 وذا الذراعين والرجلين عبْلَهما ** حسنا وسهلا لخد أخمــص القــدم
101 وربعة سائل الأطراف مرسلها ** وأنور الجسم مثل البدر في الظلم[3]

ومن قارن بين هذا العاجي وصاحب " نيل البغيا " النيجيري يجد بينهما تقاربا شديدا في الأسلوب عند استخدام الكلمات نفسها،ولا غرو في ذلك إذا كانت مصادرهما التاريخية واحدة. انظر كيف يصف هذا النيجيري شَعْرَ رسوله ﷺ وهامتَه : [الكامل]

79 ما شاب إلا سبع عــشرة شــعرة ** من رأســه واللحيــة اســتدروا
80 هو أشعر فــي منكبيــه وأشــعر ** بذراعــه قــد زيــن الــشعر

---

[1] – هو من شعراء مدينة سيقو، بمالي، ولد سنة1960م، وتتلمذ على الشيخ أبي بكر تيام الذي ينتمي إلى أسرته.له ديوان مخطوط

[2] – هو ابن يعقوب واترا من بندوكو، شرق ساحل العاج، انفرد بين ذويه بقول الشعر، توفي سنة 1982م.له ديوان.

[3] – الوتري، محمد يعقوب: حديقة الأزهار في مدح النبي المختار، لا.ط، لا.ت، مطبعة المنار، ص 10.

81 منه أعالي صدره فعلت به ** وبدا عريضا ذلك الصدر
82 وطويل زنديه غليظ أصابع ** رحب الأكفّ لبطنه ضمر
83 عنق طويل في صفاء الفضة الـ ** ـبيضاء بل من دونه النضر(1)

وأما صفاته الخُلقية فقد تناولها غير واحد، أمثال الشيخ محمد الناصر الكبرى في " الديوان المبارك" حيث أوجز الوصف عن أخلاقه الفاضلة في أرجوزة له : [الرجز]

9 والحلم والجود والشجاعة ** فظاهر ما احتاج للإشاعة
10 كذلك الحياء والإغضاء ** حسن التعاشر كما تشاء
11 شفقة ورأفة ورحمة ** عم بالإنتهاء كل أمه
12 وفاءه وحسن عهد وصله ** رحمه فيا له ما أوصله
13 أما التواضع على علو ** فهو كما الأرض بلا غلو
14 والعدل والأمان من طبيعته ** والصدق والعفة من سجيته(2)

لكن أسلوب الشيخ أبي الفتح اليرواوي(3) أروع من سابقه في تصوير هذه السجايا :

1 محمد ناطق بالصدق والحكم ** محمد مؤيد بالوحي والكرم
2 رسول رسل إله العرش قاطبة ** وأخلاقه لؤلؤ في النفع كالديم
3 محمد خلقه كالماء في السجم ** محمد كاشف للكرب والغمم
4 محمد نافذ للأمر كالسهم ** محمد تارك المنهي بالعصم
6 محمد صاحب الحزم كالعزم ** هدية مطلقا للعرب كالعجم

[البسيط]

ب. سائر الرسل والأنبياء عليهم السلام :

وفي "روضة الصبيان " ، الذي سبقت الإشارة إليه، من نظم النيجري سليمان أبوبكر، نجد فصلا مخصّصا بالأنبياء والرسل عددهم وما يجب في حقهم وما يستحيل وما يجوز.(4) وقد عدّد صاحب " الذرابة الممدية " أسماءهم تحت قصيدة بعنوان " أسماء الرسل عليهم السلام"، جاء فيه هذا :

ويونس إلياس وذو الكفل داود ** سليمان أيوب ويحيى المبشر(5)

ومثله الحاج مالك سي الذي لم يختلف عن سابقه في الأسلوب التقريري، جاء مطلع قصيدته:

---

(1) – الشيخ يحيى : نيل البغيا، لا.ط، لا.ت، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص 38.

(2) – الكبرى، محمد الناصر: الديوان المبارك، لا.ط، لا.ت، كنو، نيجيريا، ص 71.

(3) – هو أبو الفتح أحمد بن علي اليرواوي، من كبار أتباع التجانية الإبراهيمية، له ديوان كبير غير مطبوع.

(4) – راجع : أبوبكر، سليمان : روضة الصبيان، ص 6.

(5) – القاري، محمد الأمين (غنى ممد): الذرابة الممدية ، مخطوط المؤلف، ص 4.

محمد آدم موسى وهود وإد ** ريس ويونس إلياس ولوطهم[1]

وجاء حفيده الشاعر الفيلسوف الشيخ أحمد التجاني سي[2] متوسلا بأسماء كبار الرسل في مقطوعة شعرية لامية ، متسم أسلوبه بشيء من الأناقة واللطافة : [الطويل]

1 إليك بسر الكائنات توسلي ** وسر صدى القرآن يوم التنزل

2 دعاك به في وحشة قبل آدم ** وفي إثره نوح لخوف التزلزل

3 وبعدهما خير الخليل ومثله ** كليمك في لفظ إليك معسل

4 ويعقوب من فقد الحبيبين يوسف ** وعينيه في صبر لديك مجمل

5 وعيسى وفي منوال عيسى محمد ** فقل لي نعم رب الورى وتقبل[3]

وفي نجيريا سار الشيخ عثمان سليمان التجاني[4] على النهج نفسه في التوسل بأولي العزم، في كتابه " أوراد الأنوار وكتاب النور "، وإن كان لم يبلغ مبلغ سابقه في سلاسة الأسلوب.[5]

وجاء ذكر ذي القرنين وداود عليهما السلام في أرجوزة الشيخ محمد مصطفى جايتي[6] من غامبيا، إذ يقول :

يا باسط الرزق لذي القرنين ** ثم لداوود وذي النورين

ابسط لي الأرزاق يا كريم ** بجاههم يا رب يا رحيم[7]

وقد حرك نفي الأبوة عن سيدنا عيسى عليه السلام مشاعر أحد شعراء غانا ، فدبج قصيدة بعنوان " ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام "، ففتح القصيدة بقصة نبوة المسيح وأداء رسالته في ثمانية أبيات، ثم تخلّص إلى قصة محمد ﷺ من غير عناء. وأما عن المسيح فقال :[الكامل]

1 ميلاد عيسى كان أغرب حادث ** ويعد أمرا معجبا لم يوجد

2 كان المسيح (ببيت لحم وضعه) ** حملته أم لم يجئ من والد

3 فإذا به يعظ الجموع بمهده ** ويقول إني عبد رب موجد

6 وأتى يبشر قومه برسالة ** وكتابه الإنجيل أكبر شاهد

7 فتفرقوا شيعا كمثل زماننا ** منهم أطاع وغيره لم يرشد[8]

---

[1] – سي، الحاج مالك : ملحق ديوانه الشعري، ص 23.

[2] – هو ابن أبي بكر الخليفة،ولد سنة 1924م، يعد من كبار شيوخ تواون التجانيين، له أفكار متميزة وديوان شعري ضخم.

[3] – سي، الشيخ أحمد التجاني: سلسلة المحاضرات وحدانية الله عز وجل، لا.ط، لا.ت، دكار ، السنغال ، ص 22.

[4] – يلقب بــ "زين العلماء " لأنه من كبار زعماء التجانيين في مدينة إلورن بنيجيريا.

[5] – ينظر: يوسف، شريف الدين : الأشعار الصوفية في مدينة إلورن، رسالة الماجستير، شعبة اللغة العربية، قسم الأديان، كلية الآداب ، جامعة إلورن، سنة 2001م، ص 100.

[6] – هو ابن فودي محمد كبا، يعد من كبار علماء غامبيا، كان معاصرا لأحمد بمبا الذي كان يجله.أسس مجلسا كبيرا في كَنْتَوُرُو.

[7] – قصيدة مخطوطة في مكتبة الأستاذ بامين محمد سري جايتي، مدينة بركاما، غامبيا.

[8] – بك، الحسن : سلسلة العربية لطلبة إفريقيا، ط 3، لا.ت، ص 101.

7. الكتب السماوية :

إن اقتصار اهتمام الشعراء على القرآن الكريم لكبير، وتوسلاتهم بسوره لعظيمة، ووصفهم لمكانته لكثير،لأن آياته منار أفكارهم، وتوجيهاته معالمهم في الدين والدنيا.وهذا ما يشير إليه الغاني عيسى بك : ***وفي القرآن دستور قويم ** فلو عملوا به عمّ السلام***[1]

وإن قصيدة " سلم كل جان " للشيخ عبد العزيز سي[2] السنغالي لأكبر دليل على ذلك، إذ توسل بجميع سور القرآن على هذا النمط : [الطويل]

8 يا ربنا يا ربنا بالبقرة ** توفنا مع الكرام البررة

24 بالعنكبوت ربنا والروم ** رب قنا مكائد الرجيم

25 لقمان والسجدة والأحزاب ** نج جميعنا من العقاب

44 بالانفطار رب والمطففين ** والانشقاق املأ فؤادي باليقين[3]

ولا ينساه الشاعر العاجي بدر الدين واترا في حديقته، فتحدث عنه تحت عنوان "في شرف القرآن "،فوفّق في وصفه له بمعانيه الجليلة وأسلوبه الإيقاعي، انظر إلى هذه الأبيات: [البسيط]

8 فيه الشفاء من الأسقام أجمعها ** فيه القضية بين العرب والعجم

9 نور ظواهره سر بواطنه ** به النجاة من الشيطان والصنم

10 نعم الأنيس ونعم المستضاء به ** من وحشة الكفر والإشراك والظلم

11 من يأته وهو غمر في جهالته ** يرد عنه غزير العلم والحكم

22 إن جاءه وهو بالأدناس مختلط ** يكن به طاهرا في النفس من جرم[4]

انظر إلى عناوين هذه القصائد من شعراء نيجيريا : "*هيا إلى القرآن* " لعبد الرفيع أسليجو[5]، و "*ألا إنما القرآن نور*" عبد الحي أولوين[6] ، و " تمجيد القرآن " و " القرآن الكريم " لعبد الواسع مدثر. لقد أنشدت الثانية في مناسبة وليمة ختام القرآن الكريم،جاء منها :

8 كتاب إلى التوفيق سير ** وفيه لكل الخلق خير

9 أتى كوننا بالموعظات ** وأصلح جميع المفسدات

أما سائر الكتب السماوية فوردت أسماؤها أحيانا في ثنايا بعض الأبيات، لكن تخصيصهم لها بقصائد لم تكن ملحوظة في دواوينهم الشعرية.

---

(1) – بك، الحاج عيسى الحسن : سلسلة العربية لطلبة إفريقيا، ص 102.

(2) – هو الخليفة العام الرابع للتجانيين من تواون (1904م–1997م)، تولى الخلافة عام 1957م.له مقالات وخطب مخطوطة.

(3) – سي، الحاج عبد العزيز: مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني، 1/87–88.

(4) – الوتري، بدر الدين الشيخ محمد : حديقة الأزهار في مدح النبي المختار، ص 16–17

(5) – هو ابن عبد الرحيم ، من الشباب الشعراء في مدينة إلورن، جمعت له خمس قصائد من 102 بيت.

(6) – هو ابن عبد القادر ، يعد من الشباب الشعراء في مدينة إلورن، له قصائد متفرقة لم تجمع بعد في ديوان.

المبحث الثاني: شعائر تعبّدية

1 - مفهوم العبادة :

يعرف لنا الشيخ سليمان بن أبو بكر من النيجر " الشعائر التعبدية "، في منظومته "*قواعد الإسلام والإيمان والإحسان* "، تلك الشعائر التي تجمع جميع رجال الشعر العربي الإفريقي، إذ ليس بينهم شاعر مسيحي كما سبق التأكيد على ذلك : [الرجز]

1 قواعد الإسلام خمس فاشهد ** صل وصم وزك حج تقتد
2 الإيمان ستة بالإله والقدر ** رسل وكتب ملك يوم الحشر
3 عبادة الله كأنك تراه ** إلا فهو يراك إحسان حباه[1]

وبعيدا عن هذا الأسلوب التقريري يتميز الشيخ كرمادي جابي[2] الغيني بإيجازه وسهولة أسلوبه الرائع عند ذكر هذه الفرائض في تائيته من البسيط :

4 قواعد هذا الدين توحيد ومعرفة ** بالله ربي له التقديس في الذات
5 فرض الصلاة وفرض الصوم يتبعه ** فرض الزكاة وفرض الحج بالذات
6 هذي الفرائض لا يصفو الأداء بها ** إلا بعلم بأحكام الفريضات[3]

2- الطهارة والصلاة :

لا نجد الحديث عنهما سوى في "الشعر التعليمي"، الذي تناول فيه رجال النظم مبادئ العبادة في الإسلام، ككتاب "الأخضري" في الفقه المالكي، الذي نظمه كثير من علماء المنطقة، أمثال الشيخ أحمد بمبا السنغالي بعنوان "الجوهر النفيس"، والعالم موسى محمد سنغ[4] بعنوان " اقتباس النور القمري في نظم مختصر الأخضري "، الذي قال عن شروط الصلاة :

1 شرط للصلاة أي صحتها ** تطهير كل ما نوالي ذكرها
2 للحدث الحادث أو للخبث ** من المكان وثوبه الملوث

وفي فصل الصلاة قال :***1 فرائض الصلاة قدم أولا ** نيتها ولا تكن مغفلا***
2 تكبيرة الإحرام حرم بعدها ** جميع ما يشغل عن أدائها[5]

---

(1) – منكيلا، يوسف: الشعر العربي في النيجر، ص 124.

(2) – هو ابن الشيخ أحمد زروق، عالم وشاعر موهوب في القرن العشرين الميلادي، أصله من طوبى بغينيا.

(3) – جابي، محمد الأمين: الشاعر والأديب الغيني، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي بالجامعة الإسلامية في النيجر، ص 25.

(4) – من كبار علماء الفقه بنيجيريا، وتولى القضاء في المحكمة الاستئنافية الشرعية العليا في أبوجا العاصمة.

(5) – سنغ، موسى محمد : اقتباس النور القمري، لا.ط، لا.ت، مطبعة GASKIYA ، زاريا، نيجيريا ، ص 45، و49.

وعلى هذا النمط سار كل من سجّل دروسا فقهيّة في منظومات شعريّة، وكثير ما هم.
أما في غير الشعر التعليمي فإن كلمة " الصلاة " تنصرف عند غالبية النـاس إلـى مفهـوم " الصلاة على النبي ﷺ " لغزارة إنتاج شعرائنا في المدائح النبوية. وعند القلة ترد الكلمة حشوا أحيانا في الشعر الفني ، كما قال زكريا الرباني في نونيته عن " الدين " : [البسيط]

24 الدين صوم وصلوات لخالقنا ** فغيره عاش في عجز وأحزان

إن الصلاة أصبحت ظاهرة اجتماعية بسيطة، لأنها عادية في حياة المسلمين ، فلا تكاد تثير انتباه الناس، ولا ينفعل لها الشعراء لدوامها وتكرارها في الحياة اليومية. وربما لأن النفوس لا تجد فيها شيئا من العواطف، ربما لما فيها من جد وتركيز بعيدين عن الهزل والمتعة.

ج3- الزكاة :

وفي " *معوان الطلاب في معرفة دين الله الوهاب* "، للأستاذ بامين محمد سري جايتي[1] من غامبيا، نجد فصلين مخصصين للزكاة : الثالث والعشرين، والرابع والعشرين. ومن هـذا الأخير نورد هذه الأبيات : [الرجز]

كم قد تجب فيه الزكاة من ذهب ** أو فـضة أو غيرهـا فرتـب

تجب الزكاة في نصاب الـذهب ** عشرون مثقالا صفا مـن ريـب

في الفضة فمائتان درهما ** فزك بعد حولها لتسلما[2]

وكان للحاج مالك سي السنغالي اهتمام متميز بالزكاة، لما كان له من فتاوى في زكاة الفستق، خلافا لمن أنكر زكاة الحبوب من فقهاء السلف، وسيكون لنا وقفة معه في المبحـث التـالي.
إذا ابتعدنا عن النظم التعليمي فلا نجد في غيره حديثا شاملا عن الزكاة، سوى ذكر يسير فـي أبيات تتناول الشعائر التعبدية ، كما يشير إلى ذلك أبو الفتح اليرواوي من نيجيريا:[الطويل]

1 بمكة قد نلنا جميـع المكـارم ** بفضل إله العـرش رب العـوالم

2 ونحمده حقـا بكـل الجـوارح ** ونـشكره دومـا لقيـد المنـائح

3 صلاة زكاة والصيام محامد ** لربي إله العرش نعم المحامد[3]

يمكن تعليل عدم تغني الشعراء بالزكاة بأنها عبادة بعيدة عن النشاط الاجتماعي مثـل الحج والصوم، ولأنها لا تؤدى جماعيا مثل الأخيرين، كما أن كثيرا من الأغنياء لا يعبؤون بها. لذا كان جديرا بالشعراء أن يثيروا في ممدوحيهم من الزعماء والأغنياء بهذه العبادة التي يكاد " المسلم " بالمنطقة لا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية.

---

(1) – ولد سنة 1951م في كنتورو بغامبيا،حيث درس،ثم زار فرنسا.لم ينشر ديوانه ومقالاته. يدرس الآن بالمعهد الإسلامي.
(2) – جايتي، بامين محمد سري: معوان الطلاب، مخطوط مكتبة الناظم، مدينة بركاما، غامبيا، ص 25.
(3) – اليرواوي، أبو الفتح : أرجوزة تعليمية ، مخطوطة مكتبة عبد الله موسى دظو الخاصة، كادونا، نيجيريا.

4)- **الصوم وشهر رمضان** :

إذا كان الحديث عن تعريف الصوم وأحكامه فإن المنظومات التعليمية تعطينا جوابا شافيا عن ذلك. وهذا ما تناوله غير واحد من علماء المنطقة. لتمثيل ذلك نسوق ما جاء في قصيدة العالم النيجيري أبي بكر بوبي[1] : [البسيط]

4 من ذا من اغتاب شخص ظن أن له ** فطرا وإن عليه صومه بطلا
5 كذاك حاجم شخص غير محتجم ** فذاك شيئا من التكفير ما فعلا
6 كذاك مفطرة عن ظن حيضتها ** أو عن مظنة حسن يومه أكلا[2]

ولما كانت فريضة الصوم تتميز عن نظيراتها بشهره " رمضان " المبارك، وما يتعلق بهذا الشهر من تقاليد اجتماعية، إذ تتغير مظاهر حياة المسلمين بالمنطقة، وتصنع الأسر أنواعا من الأطعمة الخاصة بهذا الشهر، وتكثر اللقاءات في الإفطار الجماعي والصلاة الجماعية في التراويح، وما يتبع ذلك من عيد " الفطر" الذي يستعد له أرباب الأسر.

ولما كانت هذه الظواهر الاجتماعية نتيجة هذه المناسبة، فإن النفوس تثار لاستقبال شهر الصوم، وتتهيج المشاعر لما فيها من تقاليد، وتتأثر القلوب بما فيها من نفحات روحية... ومن أجل هذا أو تلك لا بدّ أن تظهر مكانة الصوم وشهره المبارك في ما يتغنى به الشعراء.

وكم شاعر رحّب به كضيف كريم، وكم شاعر ودّعه كزائر عزيز، وكم منهم يحنّ له عند قربه، ولنا حديث عن ذلك في أغراض "الترحيب والوداع" من الباب الرابع.

وربما يكمن شرفه على سائر الشهور لما فيه من أفضل الليالي، كما ينص عليه الشاعر عبد الرحمن الزكوي[3]، من نيجيريا، في رائية رائعة : [الكامل]

3 ليلا يبث لمعشر الإسلام في ** كل الأراضي نفحة المعطارا
4 ليلا يسير مع الملائك زائرا ** هو خير من زار الأنام وسارا
5 ليلا يظل على الصيام ملائك ** فرحا لواء للندى ومنارا
6 ليلا من الباري كفانا جنة ** طابت بما فيها ندى ممطارا[4]

بل فضائله أكثر وأعمّ كما جاء في ترحيب الشاعر الغامبي محمد الإمام غساما به :

---

(1) – من كبار علماء صكتو، نزل في إلورن سنة 1829م باستقدام الأمير شئث له ، فصار شيخا لكثير من علمائها الكبار.

(2) – الأمين، يحيى محمد : مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن العشرين الميلادي، رسالة الماجيستير، 1997م، بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية الآداب، جامعة باير، كنو، نيجيريا، ص 264.

(3) – هو تلميذ الشيخ آدم عبد الله الإلوري، الذي لقبه بشاعر المركز. من قرية زاكي، بولاية أويو، نيجيريا. له تجديد بل ابداع للأوزان العروضية،واشتهرت بعضها حتى أخذ عنه بعض الشعراء النيجيريين. ولد عام 1965م، له حاليا مركز علمي في لاغوس.

(4) – الزكوي، عبد الرحمن : قصيدة التوسل بليلة القدر، مخطوط مكتبة الشاعر، ص 1.

15 رمضان تذكرة لنا بل إنه ** شهر الجهاد بروحنا والذات
16 زد أنه شهر التسامح بيننا ** فيه يعم الخير بالصدقات
17 فيه زكاة الفطر تعطى إنها ** مما يزيل الفقر والنكبات
18 فيه مؤازرة الفقير عبادة ** عون الضعيف يخفف الويلات
19 من لازم الإحسان في أيامه ** حاز الذي هو يانع الثمرات[1]

لذا رحّب به أكثر من واحد، فدبّج كلّ من يعقوب دوكوري المالي قصيدة " أهلا أهلا يا رمضان" [2]، والشيخ أحمد بمبا السنغالي قصيدته المشهورة بعنوان " يا خير ضيف" [3].

بل إن أكثر ما يميز شهر رمضان عن غيره ما يتلى فيه من آيات قرآنية مرتلة في التراويح وصلوات التهجد، وقد أشار صاحب "*ديوان شعري على وافرية الشاعر*" إلى ذلك في قصائده الرمضانية ، كهذه اللامية التي جاء في مطلعها : [الوافر]

1 فها رمضان يسمعنا لحونا ** من القراء في نفل الليالي
2 ويطربنا بأصوات الدعاة ** دعاة للفضيلة والكمال
3 مزامر آل داود في المصلي ** يجود بالكتاب بلا اختلال[4]

وإذا ما تولى فإن لوداعه قصائد جمّة من ينابيع محبّيه، كما جاء في ديوان الشيخ أبي بكر الخليفة سي السنغالي : [الكامل]

6 ضاقت قلوب أحبة من فرقة الـ ** ـحب الصفي لنعم ضيف مراد
7 إنا نود لقاءه في كل عا ** م رب طوّل عمرنا بسداد[5]

5)- الحجّ ومناسكه :

إن شروط الحجّ وأحكام مناسكه مما تكتظّ بها المنظومات الفقهيّة، وهي بعيدة عن أن تتقمّص بشاعرية فنية، لذا بقيت جلُّها في أساليب نثرية تقريرية، لا تنسج أبياتها سوى أوزان من الرجز.

كانت هذه الرحلة قبل عصر وسائل النقل الآلية قطعة من العذاب ؛ لذا كانت تستغرق سنوات عديدة ؛ وهذا ما جعل " الحاج " معززا في مجتمعات المنطقة، وكانت أخباره العينية ــ وإن كان أميا ــ مثل فتاوى العلماء، يبجّله العوام أحيانا أكثر من العلماء. وللحاج مالك

(1) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة، ص 37.
(2) – راجع: دوكوري، يعقوب : البستان، ص 45.
(3) – راجع: بمبا، الشيخ أحمد : يا خير ضيف، لا.ط، لا.ت، طوبى، السنغال.
(4) – ساغو، عمرو عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط مكتبة الشاعر، بماكو، مالي، ص 42.
(5) – سي، أبو بكر الخليفة: مقتطفات من بعض منظومات لأبي البركات، مخطوط المكتبات الخاصة، تواون، السنغال، ص 101.

سي قصيدتان في الحج، إحداهما وضعها أثناء سعيه نحو الكعبة، يقطع ملتويات الطرق البرية والأمواج البحرية، جاء في مطلعها ما يدل على عزيمته الجريئة :

1 وهائل زاخر الأمواج مرتكم ** قطعته قاصدا للحل والحرم

2 كمل إلهي يا رحمان حجتنا ** وخلصنها بجاه الشافع الحكم[1]

وبعد تلبية الحجّاج الدعوة الإلهية فإنهم يصيرون ضيفا للجناب الرباني، وهذا ما جعل الحاج منصور بن الحاج مالك سي[2] يفتتح به قصيدته ليمهّد به لدعواته الصالحة ، التي توسّل فيها ببعض أماكن المناسك :

1 إلهي قدمت اليوم للبيت معتمرا ** وأرجو قرى منكم يحطّ لنا الوزرا

2 وأجود من يقري الضيوف لأنتم ** لمن حل بالبيت الذي يجبر الكسرا

3 فجد أيها الوالي بأحسن مرتجى ** من الدين والدنيا وضرتها الأخرى

10 فطهر لنا الأثواب من ماء فضلكم ** وضع ما من الأوزار قد أثقل الظهرا

11 وبالحجر والبيت العتيق وزمزم ** صفا مروة رب امنح النصر واليسر[3]

لا تقتصر مناسك الحج على زيارة مكة المكرمة، التي عدّد الشعراء أماكنها، فحسب. ولكن للمدينة المنورة مكانة جليلة في قلوب الحجّاج، لما يكنّون لنبيهم محمد ﷺ من محبة مقدسة. وإليك بعض أبيات من لاميّة الشاعر الغيني الحاج عبد الرحمن باه[4]: [مجزوء الرمل]

1 زرت في " طيبة " قبر الـ ** ـ مصطفى " طه " الرسول

2 وإلى " بدر " و " أحد " ** سرت أبكي كالثكول

3 " حمزة " زرت لديه ** سيّد الشهْدا خليلي

9 بـ " بقيع " زرت " عثما ** ن " وأبناء الرسول

10 ثم زوجات نبيي ** صاحب الظل الظليل[5]

طالب من شباب مدينة باراكو ــ في بنين ــ يصف جموع عرفات بخياله الثاقب، وبعاطفته الميالة إلى الحجّ، في نونية بديعة تحت عنوان "*في عرصات عرفات*" : [البسيط]

1 وا أمتاه حماك الله من شجن ** قد أشرقت شمس تجلوك من وهن

2 هذي الجموع أتت من كل أودية ** لبوا لربك والأعداء في المحن

---

[1] – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، مخطوط ، ص 218.

[2] – توفي سنة 1957م بعد أربعة أيام من توليته الخلافة التجانية بعد أبي بكر الخليفة. له ديوان شعر من 31 قصيدة.

[3] – سي، الحاج منصور : اليواقيت العرفانية من الفيوضات الربانية، مخطوط، ص 60.

[4] – هو ابن جرنو علي بوبديم، ولد سنة 1916م، وكان وزيرا للشؤون الإسلامية في الثمانينات، هو الآن إمام جامع لابي.

[5] – باه ، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، لا.ط، 1403هـ/1982م، كوناكري، غينيا، ص 102.

3 لبيـــك لبيـــك اللهـــم مالكنـــا ** تهليلنا لـك فـي الإسـرار والعلـن
4 يا حسن سعيهم في المروة والصفا ** لا فرق بينهم فـي اللـبس والكفـن
5 لله درهـــم فـــي وحـــدة الكلـــم ** قد شابهوا عهد الأصحاب في الوطن
10 يا رب فاكتب لي سيرا إلى الحرم ** فورا أيا أملي في السر والعلن(1)

ويحمد الله تعالى الذين أنعم عليهم بهذه الزيارة، فتتهيج مشاعرهم إلى وصف شيق لمراحل المناسك التي أدوها، وللوزير جنيد (2) النيجيري، ميمية تتدفق منها مشاعر المتعة الفنية :

1 حمدت إلهي إذ قضى لي بفـضله ** مسيري إلى البيت الشريف المعظم
3 وطفت ببيت الله وقـت قـدومنا ** وقبلت ذا الحجـر المكـرم بـالفم
4 وصافحت ركنا لليماني براحتـي ** مرارا وهذا مـن مواهـب مـنعم
5 وبعد طواف البيت صليت ركعتي ** عنــد مقــام للخليــل المكــرم
7 وجاوزت من بعد الدعاء لزمـزم ** فمن مائها بطنـي تـضلع فـاعلم
8 فجاوزتها ثم انصرفنا إلى الصفا ** بباب إلى تلك الصفا كان ينتمي(3)

ويهنئ شاب بمالي(4) ــ أحمد بولي ــ أباه العائد من الرحلة المقدسة بجيمية، علما بأننا في مناسبة حافلة بجمع غفير من الزائرين تعظيما للمسافر المبارك، فيوزّع الحاج على مهنّئيه غرفة من ماء زمزم المبارك : [الوافر]

4 فجـاورتم لبيـت الله فينـا ** بكـل سـكينة والأمـن سـاج
9 بحجٍ عـدت مبـرورٍ وسـعيٍ ** فنلـت هنـاك مـا يرجـوه راج
10 سـعدتم بـالطواف وبالزيـارة ** لأتقـى العـالمين وذي الـسراج
11 بخ وبخ بكم يا من أنرتم ** مسالكـــنا وإن اللـيل داج(5)

وإذا كانت مناسبة عودة الحجاج احتفالا كبيرا، فإنها عند الأستاذ عبد الغني اتندا راجي(6) من نيجيريا مدرسة عظيمة، وقد أبلغ هذه الرسالة الشعرية إلى ذويه في حفلة تهنئته بالعودة من الرحلة المقدسة :

12 فالحج مدرسة التحمـل والتعـا ** رف كل عام بل يجـدد عهـدكم

---

(1) – آل هارون، سليمان محمد : ديوان شعر، مخطوط مكتبة الشاعر، باراكو، جمهورية بنين.

(2) – يعد الوزير جنيد (1906–1997م) أشهر أديب لعب دورا سياسيا واجتماعيا في شمال نيجيريا، إذ كان وزيرا لأمير صكتو، ومصلحا اجتماعيا، ومؤلفا كبيرا بلغت تآليفه 60 مؤلفا. وقد نال جوائز تقديرية من ليبيا والسنغال وإنجلترا، ودكتوراه فخرية من جامعة زاريا بنجيريا اعترافا بجهوده العلمية، كما سميت باسمه أكبر مكتبة علمية في مدينة صكتو، بشمال نيجيريا.

(3) – جنيد ، الوزير : ديوان شعر، مخطوط مكتبة نجل الشاعر البروفيسور سمبو ولي جنيد، صكتو، نيجيريا، ص 25.

(4) – هو السيد أحمد بولي خريج الجامعة الإسلامية بالنيجر، ومن أصل مدينة موبتي بمالي، له " ألفية بولي" في النحو العربي.

(5) – بولي، أحمد : ديوان شعر ، مخطوط مكتبة الشاعر بمدينة براوولي، مالي.

(6) – هو أستاذ النقد بكلية دار الكتاب والسنة ــ غا ــ أكنبي، إلورن، نيجيريا، وله قصائد متفرقة في بعض المناسبات.

13 عهد الخلافة إذ توحد صـوتكم ** والفرس واليونان خافوا بطـشكم
14 عهد التواضع لا تفاضل بيـنكم ** إن الخليفـة بالحيـاء يـؤمكم
15 عهد السماحة إذ يجـود بماله ** إنسا سرورا لا يمل غنيكـم[1]

وما زال كثيرون يحلمون بهذه الرحلة الروحية، ونفوسهم حسب أنفاسهم تحنّ كل سنة، وقلوبهم تبكي شوقا واشتياقا كلما آب الحجّاج منها، وربما يعد العالم الغاني ــ محمد الأمـين يعقوب بمبا ــ أحسن من عبّر عن هذه الأماني النفسية والأحلام العاطفية، في هذه البديعة التي التزم في ضربها وعروضها بصوت " ها " لتدل على ما تتهيّج به هذه القلوب من أنين، وهي من 111 بيتا : [الطويل]

1 إلى مكة شوقي شغفت بحبهـا ** وهل أظفرن يوما برؤية نورهـا
2 وهل أظفرن يوما برؤية صدرها ** وهل أظفرن يوما برؤيـة قلبهـا
3 وهل أظفرن يوما برؤية عنقها ** وهل أظفرن يوما برؤية وسـمها
4 وهل أظفرن يوما برؤية طرقها ** شـوارعها أنفاقهـا وجبالهـا
5 بكل النواحي ذي الجبال تحيطها ** وأبنية من فـوق هـذي تزينهـا
6 جسور لها رفعت تقل حجيجها ** لعلي أراني فوق متن جـسورها
7 رجالا وركبانا يسيرون فوقها ** ملبين يا اللهم إن نشوقها[2]

وهناك آخرون ملّوا من طول انتظار تحقيق تمنِّياتهم، وما زالت تعذّبهم لوعات الحنين إلى الكعبة، فعبّروا عن معاناتهم العاطفية نحو هذه الرحلة المقدسة ، كهذه القصيدة الرائية في 46 بيتا، من بنات قريحة الشيخ عمر بن الزبير[3]: [البسيط]

1 ما بال عيني طوال الليل قد سهرا ** فوجنتـاي بـدمع منهمـا غـزرا
2 إذ سألتنا فلـسان الحـال قائلـة ** ماذا السكون ، وفود الحج قد سـفرا
4 لولا الجناحان مني اليوم قد كسرا ** عن شرح حالي لكي ما تدريا الخبـرا
5 لولا قصوري، لولا قل ذات يـدي ** سايرت من قد قصد الحرمين واقصرا
6 حتى إذا حرم المكي قد حـضروا ** رأوا بما لم تـر العينـان قـد تتـرا
7 حيث المحاسن والآيات ظاهرة ** حيث العجائب تلهى كل من نظرا[4]

---

(1) – راجي، عبد الغني أتندا : قصيدة مخطوطة عند الشاعر.

(2) – بمبا، محمد الأمين يعقوب : قصيدة شوقي إلى مكة المكرمة ، مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة إجورا، جمهورية غانا.

(3) – من كبار علماء فولدو الصوفية بشمال السنغال كان معاصرا للشيخ محمد جولدي الزاهد

(4) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، الطبعة الأولى، 1413هـ/1993، لا. دار، ص 383.

المبحث الثالث: مواقف في قضايا دينيّة

1)- الحقيقة المحمّديّة :

يراد بالحقيقة المحمدية، أو (النور المحمدي)، ما يدلّ على فضل محمد بن عبد الله ﷺ على جميع المخلوقات ، وعلى أسبقية خلق نوره قبل أرواح سائر المخلوقات. وإن كان البعض أخذوا بالاعتدال في هذه الفكرة، إلا أن الآخرين أفرطوا فيها وغالوا. وعلى أية حال ، فإن جذورها تستقى من الأحاديث النبوية ، مثل حديث عمر ﷺ :

« *فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لما أصاب آدم الخطيئة ، رفع رأسه فقال: رب بحق محمد ألا غفرت لي، فأوحى الله إليه، وما محمد ؟ ومن محمد ؟ فقال : رب إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا عليه مكتوب "لا إله إلا الله محمد رسول الله " فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك فقال : نعم قد غفرت لك وهو آخر الأنبياء من ذريتك ولولاه ما خلقتك* [1] »

وربما اعتمد على مثل هذه الأحاديث أبو حنيفة النعمان[2] في بناء قصيدته " الدر المكنون" على ما تتبلور منها عناصر فكرة " الحقيقة المحمدية " : [الكامل]

أنت الذي لولاك ما خلق امرؤ ** كلا ولا خلق الورى لولاكا
أنت الذي من نورك البدر اكتسى ** والشمس مشرقة بنور بهاكا
أنت الذي لما توسل آدم ** من زلة بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره ** بردا وقد خمدت بنور سناكا
ودعاك أيوب لضر مسه ** فأزيل عنه الضر حيث دعاك[3]

ثم جاء الصوفية يتقدمهم الحلاج[4] ، الذي يعد أول صوفي يقول بنظرية النور المحمدي، وذلك حين سجّل في كتابه " الطواسين " ما نصّه : « *أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل كل شيء، وأول ما وجد الله عز وجل من خلقه ذرة محمد ﷺ وأول من حوى القلم لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ* [5]».

---

(1) – رواه الحاكم في المستدرك 615/2. وينظر كيف نظم الشاعر المالي حبيب عبد الله كان هذا الحديث في ديوانه "الوردة على نهج البردة " ص 10.

(2) – هو الفقيه المشهور (80–150هـ) عاش في العراق، وصاحب مذهب الحنفية بين المذاهب الفقهية الأربعة.

(3) – أبو حنيفة، النعمان: الدر المكنون، مخطوط المكتبة الظاهرية في دمشق، تحت رقم 10638، ورقة رقم 1.

(4) – هو أبو مغيث الحسين بن منصور (ت309هـ) من الصوفية الغلاة، ادعى الحلول والاتحاد، فعوقب بالضرب وقطع الأطراف

(5) – ابن منصور، الحلاج : الطواسين، لا.ط، 1913م، مطبعة جتنز، باريس، ص 159.

وفي القرن السادس الهجري اهتمّ بالفكرة سائر العلماء ، إذ يشارك " ملك النحاة "، أبو نزار الحسن بن صافي النحوي[1]، بخمس قصائد في المدائح النبوية، يقول في مطلع إحداها:

يا خاتم الأنبياء قاطبــه ** أتاك لفظ الثناء يستبق

كنت نبيا وطين آدم مجــ ** ــبول وتلك الأنوار تأتلق[2]

إذا كانت الفكرة قد ظهرت من الأحاديث الآحاد التي رواها السنيون ، فــإن للــشيعة دورا في ذيوعها ونشرها، إذ أضفوا عليها أبعادا جديدة لتتأقلم مع فكرة الإمامة. وأما غــلاة الصوفية فلا غرو أنهم استقوها من فلسفات الأفلاطونية الحديثة، أومن عقائــد الزرادشــتية والفيضية ،الأمر الذي يجعل عناصر الفكرة متنوعة وبعيدة أحيانا عن روح الإسلام.[3]

إذا كانت هذه الفكرة مرضية لدى بعض العلماء؛ فإن الآخرين من أهل السنة يتحفظون في فضل النبي ﷺ من المبالغات الشديدة ، التي لم ترد في الكتاب والأحاديث المتواترة.[4]

ومن الأحرى أن نؤكد ما لشعرائنا من تأثر بالشعراء العرب، وخاصــة بالبوصــيري (الشاعر المثالي) لديهم، الذي اقتدى به كل شعراء المنطقة أجمعين، إذ أعلن لهم :[البسيط]

33 وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مــن ** لولاه لم تخرج الــدنيا مــن العــدم

34 محمــد ســيد الكــونين والثقليــ ** ــن والفريقين من عرب ومن عجم

44 وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ** وانسب إلى قدره ما شئت من عظــم

45 فإن فــضل رســول الله لــيس لــه ** حــد فيعــرب عنــه نــاطق بفــم

52 وكل آي أتى الرسل الكرام بها ** فإنما اتصلت من نوره بهم[5]

بهذه الآراء استنار شعراؤنا في مدائحهم، ومنها استقوا مبادئها، وعلى منوالها نسجوا دواوينهم النبوية التي خمّسوا فيهــا " بــردة البوصــيري "، أو ربعوهــا، أو ضــمنوها، أو عارضوها ببردة أخرى، وسنقف على نماذجها في ثنايا هذا المؤلف.

وعليه ، فإن الفكرة لم تثر قضية خلافية بين الشعراء، لكن تفــاوتهم فــي الاعتــدال والمغالاة ملحوظ في تراثهم الشعري لمن يتتبّعه، وانظر كيف يفصل الشيخ إبراهيم انياس[6] القول في ما أوجزه البوصيري في هذا البيت الأخير هنا : [الكامل]

---

[1] – من نحاة بغداد ، توفي عام 568هـ في واسط، له الحاوي في النحو، وديوان شعر. ينظر: شمس الدين ، أبو العباس أحمد: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، لا.ط، 1968م، ص 93/2.

[2] – ابن عساكر : التاريخ الكبير، 168/4.

[3] – ينظر: صالح، مخيمر:المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، الدار العربية، الأردن، ط1، 1406هـ/1986م،ص103

[4] – راجع: الألباني، محمد ناصر الدين: التوسل أنواعه وأحكامه، المكتب الإسلامي،بيروت، الطبعة الخامسة، 1986م،ص126.

[5] – البوصيري، شرف الدين محمد: بردة المديح، مكتبة هاشم، لا.ط، لا.ت.

[6] – هو ابن عبد الله(1900–1975م) السنغالي، وشيخ التجانيين المعاصرين، يعرف أتباعه أنهم أهل الفيضة الإبراهيمية.

8 به آدم قد تيب من بعد وحـشة ** ونال مقاما دونه انحطت الـشهب
9 ويشكر إذ ناداه والبحر زاخـر ** أتاه سلام بان عن أهلـه الريـب
10 كذلك إبراهيم قـد حـاز خلـة ** وموسى كلاما دونه العقل واللـب
11 كذلك روح الله عيسى وإنه ** ترفع للمولى وإن جاءنا نربو[1]

وقبله جاءت المعاني نفسها في فائية ممّر صاصم جخت[2] السنغالي[3]، كما أن الشيخ محمد الخليفة [4] قد تناولها كثيرا في ديوانه " خاتمة الدرر "[5]. ويبدو أن لها عنصرين أساسيين : 1. أسبقية خلق محمد ﷺ . 2. وكونه سببا في تحقيق معجزات سائر الرسل عليهم السلام.

ويحاول كرامو طلبي الغيني[6] أن يعتدل في تناول الفكرة : [مجزوء الرمل]

1 سيد الوجود فينـا ** نوره سبب الوجـود
2 علمه بحر محيط ** لفظـه در نـضيد
3 سره سر الإله ** ظهره ظهر العباد[7]

وفي النيجر نجد هذا الاعتدال في تناول الفكرة عند الشيخ أحمد غوربيري[8]، الـذي يدلي بدلوه في قصيدة قافية من الكامل :

5 هو قبضة النور الإلهي الـذي ** مـن قبـل آدم قاسـم الأرزاق
6 هو سيد الرسل الكرام وخيرهم ** هو أصل كـل الخلـق بـالأخلاق
7 من نوره الأكوان كونت ** أصل الأصول وخاتم السباق[9]

ومن أجل مثل هذا البيت الأخير، فضل البعض مصطلح " النور المحمدي" علـى " الحقيقـة المحمدية". وعلى أسبقية هذه الصفة النورانية يركز شيخ القادرية في نيجيريا محمد الكَبَرَى :

سيد مـن نـور طلعتـه ** كانت الأعراض والذات [الرمل]
نوره أصل الوجود ومـن ** نوره انجابت غيابـات
نوره أصل الكيان ومن ** نوره تلك الكيانات[10]

---

(1) – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، 34/2

(2) – هو ابن القاضي مجخت كل (ت 1943م)، وأستاذ محمد الهادي توري، وشعره مقتصر على المدائح النبوية والتجانية.

(3) – المصدر نفسه ، 86/2.

(4) – هو أخو إبراهيم انياس للأب، (1881–1959م)، له ديوانان وبعض المؤلفات الصوفية، كان خليفة أبيه عبد الله في كولخ.

(5) – ينظر : انياس، الشيخ محمد الخليفة: خاتمة الدرر على عقود الجوهر،المؤسسة السنغالية للطباعة،لا.ط، لا.ت،ص 86، 89.

(6) – هو أكبر عالم وشاعر في غينيا (1870–1962م)، له ديوان "قدوة المولود"، وابتكر شعرا محليا على غرار الشعر العربي.

(7) – طلبي، كرامو: قدوة المولودة، المطبعة الثعالبية، الجزائر، لا.ط، 1358هـ/1939م، ص 14.

(8) – من علماء النيجر(1945–1989م)،له ثلاثة دواوين،درس في ساي وأغاديز، ثم اتخذ في كيوتا أباكر هاشم شيخه في التجانية.

(9) – غوربيري، الشيخ أحمد : ديوانه الكامل، مخطوط ، ص 15.

(10) – كبرا، الشيخ محمد الناصر: الديوان المبارك، مطبوع، لا.ط، لا.ت، ص 8.

ويأتي صوفي تجاني[1] من غانا ليضفي على الفكرة عناصر أخرى أعم وأشمل، وأغرق في المغالاة وأبعد في المبالغة، انظر إلى هذه الأبيات لتتيقن صدق الغلو في الإطراء: [الطويل]

*9 هو الكل منه الكل بطنــا وظــاهرا ** وهو ذلك الحرف الذي كان يــنقط*

*10 هو الآية الكبرى التـــي تعرفونهــا ** من اللوح والفرقان تجلـــى وتلقــط*

*11 هوا لعرش والكرسي والكون جملة ** وهو ذلــك البحــر الــذي يتحــوط*

*12 به نارت الأقمار والشمس أشــرقت ** وأينعت الأثمــار والطيــر تبــسط*

*13 به ختم الله الرسالة والهدى ** به الآي والأنوار للرسل تهبط*[2]

إن لم تكن هذه المعاني من الشطحات الصوفية، فإنها من النزعات البعيدة التي لا تتلاءم مع جذور الحقيقة المحمدية المأثورة من الأسلاف ، لأنها تتضمن معـــاني الاتحـــاد والحلـــول. ولكن شاعرا آخر[3] من جمهورية بنين يجاريه على هذا الغلو، لكنه لا يطيل الحديث فيه، بل يكتفي ببيت شعر، من قصيدة ذات خمسة وستين بيتا، ولذا يمكن أن يعد من هفوات القلم :

*52 العرش والكرسي نور نبينا ** وللوح محفوظ وقلم الواحد*[4]

وفي بيت من رائيّة محمد الشفيع جرا[5] نلتمس القول الفيصل بين الاعتدال والغلـــوّ، وكأنه يحكم بين الطرفين في فصاحة تريح الذهن والقلب :

*7 محمد سر الله والكون سرّه ** ولكن علم السرّ أمر عسير*

وفسر هذا البيت في بيت آخر، قد يكون أوضح لمن يتمادى في غلو الحلول والاتحاد :

*3 هو الحبل بين الخلق والرب والعرى ** تمسكه الناجون والناس هجّد*

ولبيان دور هذا الحبل النبوي بين الرب وخلائقه، يقول الشيخ أبو بكر عتيق[6] من نيجيريا:

*11 أنت عين الإله مجلي سناه ** أنت كنز الرحمان من سواك*

*12 أنت فيض الإله عين مفاض ** ومفيض على الأنام سناكا*[7]

وبهذا نخلص إلى أن وجهة نظر شعراء المنطقة لم تكن بدعة في الإنتاج الشعري، ولا في العقيدة،غير أنهم أضفوا على هذه الفكرة أصالتهم الفنية التي تفاوتوا في تهذيبها وبلاغتها.

---

(1) – هو يحيى بن محمد الأمين، ولد عام 1940م، تلميذ الحاج عثمان شاربوتو ونائبه في الجامع الكبير بأكرا، غانا.

(2) – الغاني، يحيى الأمين : تحفة الأحرار، مطبعة Mufazco ، نيجيريا، الطبعة الأولى ،1420هـ/2000م، ص 77.

(3) – هو الشيخ سليمان محمد ميسونا(1924–2001م)، في مدينة جوغو، له ديوانان وقصائد متفرقة، يعد أكثر علماء بنين إنتاجا.

(4) – ميسونا، الشيخ سليمان محمد: عقد ثمين في مدح النبي الأمين، مخطوط، ص 10 .

(5) – هو ابن محمد عربي،شيخ مدينة موبتي في التجانية الإبراهيمية،خلف أباه ونسج على منواله في قول الشعر،له ديوان مخطوط

(6) – أحد زعماء التجانية في نيجيريا بمدينة كانو، هو ابن خضر بن أبي بكر(1909–1974م)، من شيوخه محمــد سـلغ. لـــه 35 مؤلفا ،أذكر منها:الفيض الهامع في تراجم أهل السر الجامع نشر بمكتبة القاهرة،إتحاف الإخوة الأذكياء بسيرة خاتم الأولياء.

(7) – عتيق، الشيخ أبوبكر: هدية الأحباب والخلان، تحقيق محمد الأمين عمر، زاوية أهل الفيضة، لا.ط، لا.ت، ص 148.

2- ***التوسل بالأنبياء والأولياء :***

قضية التوسل من أهم القضايا التي أثارت ضجّة من الخلافات بين علماء العقيدة والفقه من جهة وعلماء التصوف من جهة أخرى. وما زالت هذه الخلافات تمزّق أواصر الأمة، فيرمي بعضهم بعضا بالكفر وسفه الأحلام. ولا أريد أن أفصل القول في هذه الخلافات ، لكنني حسبي أن أقدم للقارئ خلاصة عن أهم أنواع التوسل :

◈ ***التوسلات المتفق عليها بين العلماء*** :[1]

1. التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، بقوله تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2].
2. التوسل إلى الله بعمل صالح، بدليل حديث أصحاب الغار[3].
3. التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح، بدليل حديث رواه أنس بن مالك: *«أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب ، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون [4]»*
ويرى المرحوم محمد ناصر الدين الألباني أن الحديث حجة للتوسّل بدعاء الرجل الصالح، لا بذاته، مع أن النص يدل على اللفظ الذي توسل به الفاروق ﷺ، فهو توسل بشخصه لا بدعائه، ولا بأس أن يدل الحديث على التوسل بدعائه.

◈ ***التوسلات المختلف فيها*** :

1. التوسل بذات النبي ﷺ وبالأنبياء عليهم السلام، لا خلاف في ذلك إن كانوا أحياء، وأما بعد وفاتهم فقد أجازه كثير من الفقهاء كالإمامين أحمد وأبي حنيفة ، بدليل حديث توسل النبي ﷺ بإخوانه الأنبياء عليهم السلام في طلب الغفران لأم علي ﷺ فقال : *« الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»*،[5] لكن المرحوم الألباني ــ ومن حالفه ــ يضعفون الحديث لضعف روح بن صلاح عند هم، مع توثيقه عند الحاكم وابن حبان، وإن سائر رجال السند ثقات. وفي أثر آخر[6] تأمر عائشة ﷺ أهل المدينة بعد قحط شديد، أن يجعلوا من قبره ﷺ كوى إلى السماء،ففعلوا، فسقاهم ربهم، وسمي ذلك العام بعام الفتق.

---

[1] – ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين : التوسل أنواعه وأحكامه، المكتب الإسلامي، بيروت، سلسلة رسائل الدعوة السلفية 7، الطبعة الخامسة، سنة 1986م.

[2] – الآية 180 من سورة الأعراف.

[3] – رواه مسلم في باب الذكر والدعاء.

[4] – رواه البخاري في باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

[5] – رواه الطبراني في الكبير والأوسط. وينظر مجمع الزوائد للهيثمي ، 257/9.

[6] – رواه الدارمي في سننه ، 43/1.

2. التوسل بالأولياء والصالحين، فيجيزه البعض قياسا على جواز التوسل بالأنبياء. وينكره آخرون سدا لذريعة تقديس هؤلاء الأولياء، والغلوّ في رفع مقامهم إلى مقام الأنبياء.

إذا كان العلماء في خلاف مرير بين أنواع التوسل ، فإن شعراء المنطقة يكادون يتفقون عليها جميعا. إذ جاءت توسلاتهم بأسماء الله تعالى الحسنى، وبالرسول محمد ﷺ وآل بيته وأصحابه ﷺ، وبالرسل والأنبياء عليهم السلام، وبالصالحين من السلف، وبشيوخهم الصوفية القدماء والمحليين، بل جاوزت توسلاتهم الأحياء إلى سائر المقدسات من الجمادات في مناسك الحج وغيرها، حتى صارت غرضا من الأغراض الشعرية التي تفرد لها القصائد بل الدواوين. هذا ما سيجعلنا نقف طويلا على دراسة توسلاتهم في الباب الرابع.

3) – الكرامات والولاية :

لا خلاف بين علماء الأمة في صحة وقوع الكرامات لبعض عباد الله الصالحين، منذ عصر الصحابة إلى الآن. لكن كثرة ادعاء الكرامات ملحوظة في صفوف الصوفية، الأمر الذي جعل الآخرين يتحفظون قبول بعض الكرامات، أو ينكرونها على الإطلاق.

وأهم الكرامات عندهم، وأكبرها تعظيما، هي رؤية النبي ﷺ يقظة، وهذا ما أثبتها الشعراء التجانيون لشيخهم أحمد التجاني، فقال قائلهم من مالي : [الطويل]

11 وفي الناس أقوام رأوه حقيقة ** بدون الكرى نالوا مقاما محمدا

12 أشير إلى الشيخ التجاني وحزبه ** بدور الورى عاشوا دعاة إلى الهدى

13 وذلك فضل الله والله واسع ** حكيم لما يقضي وليس مقيدا[1]

لذا تمنى في ميمية له تحقيق هذه الغاية القصوى تكريما له، فأعلن ذلك في مطلع القصيدة:

أحب محمدا خير الأنام ** وأبغي أن أراه بلا منام

وفي ميمية الشيخ أبي بكر عتيق النيجيري، يتحدث عن مناقب شيخه التجاني، فيفصّل القول في هذه الرؤية التي كانت تتكرّر له كل أسبوع : [الوافر]

5 رأى المختار خير الرسل طه ** بيقظته فذا فخر صميم

6 فبشره ولقنه علوما ** وأسرارا فكان هو الزعيم

7 وفي الجمعات والإثنين رائيـ ** ـه فاز بجنة فضل عميم[2]

وفي الباب الرابع سنتحدث عن " الفخر الصوفي"، حيث يتغنّى الشعراء بكراماتهم ومقاماتهم التي بلغوها في مدارج السالكين، وإن كان ذلك يعد "حيض الرجال" عند التجاني.

---

[1] – جرا، محمد الشفيع : قصيدة دالية في مدح خير البرية، مخطوطة في مكتبة الشاعر، موبتي، مالي.

[2] – عتيق، الشيخ أبوبكر: هدية الأحباب والخلان، ص 84.

وما يتعلق ***بالولاية*** فقد تنوعت الأقاويل فيها، واختلفت الاتجاهات فيهـا، وتـضمنت الأبيات مبالغات عنها، وقصّدت قصائد لبيان مقاماتها، التي سأتحدث عنها في الأسطر التالية:

أ- مقام اليقين :

وكأين من صوفي يزعم في شعره أنه قد تخطّى أشواطا واسعة في مدارج السالكين، وتحمل مشقة الرياضة ليصل إلى الغاية القصوى، التي يحلم بها في هذه الرحلـة الروحيـة. وقد عبروا عن هذه الغاية بأسماء كثيرة : اليقين، الحقيقة، مقام الفناء، مقام الوصول....الـخ. انظر كيف يتغنى زعيم القادرية في نيجيريا بهذا المقام : [الطويل]

1 وصلت إلى حق الحقيقـة بـالحق ** بعيد مقـامي فـي حقيقـة حقـه
2 بعلـم وذوق واكتـشاف محقـق ** تعلمت علم الجمع من قبـل فرقـه
3 محقت نظـام الكائنـات بنظرتـي ** وأفنيته مـن بعـد إحكـام سـحقه
4 ومـن بعـد ذا أبقيتـه لـشريعتي ** فلولا لسان الـشارعين لـم أبقـه
5 وإن كنت تدري ما الوصول فحيهل ** إلينا لتدري كيف حالة صدقه[1]

وفي مالي يعلن الأديب أحمد حيدر[2] بجرأة أن باب الولاية ومفتاحه بيد الشيخ أحمـد التجاني، فمن لم يمر به فلا ينال شيئا من اليقين والولاية : [الكامل]

4 باب الولاية ماسك برقابه ** من مال عنه مالت الخيرات
5 يا أيها الشيخ التجاني إمامنا ** يا غوثنا قد فاضت الفيضات[3]

إذا كان مقام اليقين ــ بأسمائه المختلفة ــ يعني كشف الحجاب عن بعـض الحقـائق والأسرار، كما تبين في الأبيات السابقة وفي غيرها من شعر صوفية المنطقة، فإن هناك موقفا معارضا له ، ويراها مجرد ادّعاءات مزعومة وشطحات ملفّقة، فيقـول الـشاب المحمـود السوقي[4] ممثلا هذا الاتّجاه : [البسيط]

27 ولست معتقدا في الأولياء سوى ** محض احترام وحب خالص وصـفا
28 ولا نسمي وليـا ظـل مـدعيا ** علم الغيوب ومن للسر قـد كـشفا
29 كل السرائر لم يكـن ليكـشفها ** إلا الإله ومن لم يـرض ذا صـدفا
30 أما عقيدتنا فهي التي سلفت ** ومن عليها فسوف يحرز الشرفا[5]

---

[1] – الكبرى، محمد الناصر : الديوان المبارك ، نيجيريا، لا.ط، لا.ت، ص 17.

[2] – أحد شعراء مدينة سيقو، على بعد 400 كلم من العاصمة، وهو معاصر مازال على قيد الحياة. درس في مصر.

[3] – حيدر، أحمد : قصيدة " طريقة الشيخ أحمد التجاني "، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

[4] – هو المحمود محمد احمد، خريج الجامعة الإسلامية بالنيجر، من طوارق صحراء النيجر. وهو مقيم حاليا في العاصمة.

[5] – السوقي، المحمود أحمد : قصيدة فائية ، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

وبعضهم إذا ما وصل إلى مقام اليقين ، فيغلب عليه الحب الصادق في ما يكشف له من وراء الحجاب، ولا يلبث في الحالة هذه أن يصل إلى حال الفناء، على حد وصفهم لتجاربهم الصوفية ، كما نجد في هذه الأبيات من الشيخ عباس صل السنغالي[1] : [البسيط]

شأن المحبة شيء فيه ما فيه ** من ذاق طعما له في الناس يدريه

والمرء إن لم يكن يوما بذائقه ** يفوته من معاني الحب صافيه

من ذاق يفن، ومن لم يفن ليس له ** في حق محبوبه إلا دعاويه

"وحبك الشيء يعمى" فيه شاهده ** لكل من يتفانى في تفانيه

من ادعى للتفاني دون تصفية ** دعواه كاذبة فيما يعانيه[2]

ب- غوث الزمان وقطب العصر وشيخ الشيوخ :

لا نكاد نجد معيارا عند الشعراء في وصف ممدوحيهم بـ " قطب العصر"، وإن كانوا معاصرين له. كما نجد عند ذي النون السنغالي[3] يمدح الشيخ أحمد بمبا الخديم بذلك: [الكامل]

65 بل وصفكم يا قطب عصرك ظاهر ** معناه في آي الضحى والكوثر[4]

ووفي الحين يمدح آخر الحاج مالك بن عثمان سي بأنه قطب قومه وشيخ مشائخ عصره :

1 يا ملجأ الخائف المضطر وزري ** خليفة الشيخ والمختار من مضر

2 سليل عثمان قطب القوم مالكنا ** شيخ المشائخ من بدو ومن حضر[5]

[البسيط]

ويمكن القول إن " القطبية " المنسوبة إلى سائر الشيوخ الصوفية من باب صفات مقيدة بالمقامات الروحية التي بلغوها، أما " القطبية المطلقة " فيختص بها شيوخ الطرق الصوفية أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الشيخ أحمد التجاني أو الشيخ أبو الحسن الشاذلي...الخ. ولكنّ كلّ شاعر يزعم أن شيخه هو أكبر الأقطاب الصوفية، لذا قامت صراعات بين التجانية والقادرية ردحا من الزمن في هذه البلاد.

ويقول الشيخ محمد الناصر الكبرى على لسان الشيخ الجيلاني معبرا عن مقامه: [خفيف مجزوء]

3 أنا قطب الأقطاب ** أنا صاحب التيجان

---

[1] – هو أحد الشيوخ الصوفية في السنغال، أقام في لوغا زاويته التي تفرعت عن تواون، واستقلت عنه. له دواوين شعرية تزيد أبياته عن عشرة آلاف بيت ، توفي سنة 1990م في لوغا.

[2] – غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، مطبعة NIS ، لوغا/السنغال، الطبعة الأولى،2001م،ص149.

[3] – هويونس بن محمد ذوالنون له(1877–1927م)،من فحول شعراء السنغال،كان في تياس،وديوانه المخطوط بمكتبةجامعة دكار

[4] – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ص 253/1.

[5] – سي، الحاج عبد العزيز : مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني ، ص 466/1.

*4 أنا غوث الأغواث ** أنا غائث اللهفان*[1]

ويقول الشيخ محمد الهادي توري[2] عن مقام الشيخ أحمد التجاني :

*4 قطب يمد العارفين بروحه ** من آدم للنفخ يا مستفهم*

*5 فمثاله في الأولياء محمد ** في الأنبياء وكنهه لا يعلم*[3]

بل يجعل له أحد المغالين مقام النبي ﷺ إذ يصفه بسر الوجود، وفي ذلك إجحاف وغلوّ :

*5 عن منبع الأسرار والفيضان ** سر الوجود أحمد التيجاني*[4]

وقد يجاوز البعض في مدح شيوخهم المحليين إلى إطرائهم بـ "القطبية المطلقة"، كما نجد في مطلع قصيدة أحمد تجان انجاي في رثاء أستاذه دنب واكي[5] من مدينة براولي بمالي :

*حق البكا لذوي الإسلام للحزن ** إذا فات شيخ شيوخ العصر والزمن*[6]

ومثله عند أبي بكر صديق تفكي ترا[7] في داليته يمدح أحد شرفاء موريتانيا ــ إن صح هذا النسب ــ بما فيه هذه المبالغة الوصفية :

*9 شيخ شيوخ الدهر من فقرائه ** إذ كان من خواص خير عباد*

*10 شيخ شريف من شريف من شريـ ** ـف من شريف ينتهي للهاد*[8]

ج – الفيضة التجانية :

يعد الشيخ إبراهيم انياس، خارج السنغال، صاحب "الفيضة التجانية"، أي الذي تنبأ به الشيخ أحمد التجاني أنه سينشر التجانية إلى العالم. هذا ما يعتقده فيه أتباعه في كثير من الدول الإفريقية،ولأحدهم من نيجيريا أربع قصائد في مدحه،فيرفع قدره فوق جميع الأولياء:[الطويل]

*2 ولي جميع الأولياء بسرّه ** تولوا مقامات لهم، فيضه أروى*[9]

ثم يركّز على خلافة شيخه انياس للشيخ التجاني، وهذه الخلافة وراثة شرعية للولاية الختامية، إذ جاء ذلك في الإشارات الصوفية لمؤسس التجانية : [الكامل]

*34 فاليوم قد ورث الإله الأرض صا ** ح ومن عليها الكل ذو إطراق*

---

(1) – الكبرى ، الشيخ محمد الناصر: الديوان المبارك ، ص 122.

(2) – هو الشيخ محمد الهادي توري (ت 1979)تلميذ الحاج مالك سي، وأستاذ الحاج عبد العزيز سي، شاعر مفلق ورياضي.

(3) – غاي، شيخ تجان : هذا العبقري الشيخ محمد الهادي توري، مطبعة SIFNI ، لوغا/السنغال، لا.ط، 2000م، ص 41.

(4) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 502.

(5) – هو مدير المدرسة الاتحادية بمدينة براولي، (1903–1978م)درس في مرجا عند محمد دوكوري، وله مؤلفات أخرى.

(6) – ديارا، سيدي : شخصية المرحوم دنب واكي وآثاره، بحث التخرج بكلية الآداب بجامعة بماكو، لا.ط، 2003م، ص 21.

(7) – من علماء نيجيريا في ولاية كبي، عاش في القرن 20م، له ديوان شعر.

(8) – الأمين، يحيى محمد: مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن 20م، ص 262.

(9) – الكنوي، الحاج أحمد التجاني: مرواق العشاق في مدح سيدي أبي إسحاق، كنو، لا.ط، لا.ت، ص 10.

35 طوعا وكرها وعد ذا الختم التجا ** ني في ضمان الواهب الأغـلاق
36 فعلى يدي هذا الخليفة قـد أتـى ** تحقيـق هـذا الإرث باسـتحقاق
37 لا لا ترى شيخا سواه وقبـل لا ** فيض يقـاس بفيضـه الـدفاق
38 ورث الختام مع الختـام فختمـه ** لا ختم يختم خـتم ذا المـشراق
39 فبه يتم الفتح ثم بفتحه ** فتح البلاد وسائر الأغلاق [1]

ولا تبتعد هذه المعاني عما جاء في رائية الشيخ يوسف عبد الله اللكوجي.[2] ولنعط القوس باريها ليحدثنا عن مقامه في هذه الفيضة، لأنه ــ أي إبرهيم انياس ــ صاحب لوائها : [الطويل]

24 ومن حسد جـاروا علـيّ وإننـي ** مبـرز أقرانـي أوان صـباء
25 وقد تم فتحي عند مهدي وقد عنت ** جميع رجال الغيب تحت قـضائي
26 فما قطعوا في الشرق والغرب فدفدا ** إلـى مكـة إلا لـشم شـذاء
27 ولم لا وعيني اليوم عـين محمـد ** سرى سره فـي هيكلـي ورواء
28 وأهل زمـاني كلهـم فـاز راقيـا ** سوى من قلا نهجي أسير هـواء
29 وما قلته شطحا ودعـوا عريـضة ** وهبت جميـع الفـائزين ولائـي
30 وبي يرفع الجور العظيم وأنه ** بفيضي ينال الدين رفع لواء[3]

د- البنوة الروحية للشيخ التجاني :

" أبو العباس" كنية الشيخ أحمد التجاني، ولكن الباحثين لما يكشفوا سر لقبه بهذه الكنية، إذ ليس له ابن بهذا الاسم. إذن من أين جاءت له هذه الكنية ؟ لا جواب لأحد سوى الشيخ عباس صل السنغالي، الذي أعلن في شعره أن مقامه في الولاية هو الوصول إلى " مقام البنوة الروحية " للشيخ أحمد التجاني، ولا أحد نال هذه الرتبة في الولاية سواه، لذا أعلن هذا الشرف الرباني في غير موضع من قصائده، وأكّده كاتب ترجمة حياته[4]. يقول الشيخ عن نفسه في طويلته:

فكوني وليد الروح حقا وسـره ** يحيرني في الله مـن لـي يـشاكره
تبين لـي والحمـد لله وحـده ** حقيقـة ذا ، والفاعـل الله قـادره
لقد كان قبل اليوم ظنا ولي بـه ** دلائل صدق لا تـرى مـن يكـابره
فأصبح لي علما يقينا محققا ** فمن شاء فليؤمن ومن شا يناكره [5]

---

[1] – الكنوي، الحاج أحمد التجاني: مرواق العشاق في مدح سيدي أبي إسحاق، ص 14.
[2] – ينظر : اللكوجي، يوسف عبد الله : معجزات المدح في ذكر ومدح الفيض وصاحبه، لا.ط، لا.ت، ص 9.
[3] – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ص 2/35-36.
[4] – يراجع : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ديوان شعري، لوغا/ السنغال، لا.ط، لا.ت، ص 19.
[5] – غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص 44.

وفي صادية له يصرح في هذا البيت :

7 ***بأبي أبي العباس أحظى وارث ** سر المحيط لدره غواص***[1]

هـ - خادمية الرسول ﷺ :

نجد مبثوثا في كثير من قصائد العلماء الصوفية، من يصفون أنفسهم بأنهم " خدماء " للنبي ﷺ، وذلك مقام قد شرفهم الله به، وإليك بعض تلك النصوص :

يقول الشاعر عثمان من النيجر في مدح شيخه أبي بكر هاشم، زعيم التجانيين في النيجر،فيصفه بفضائل كثيرة جعلت الممدوح محق الوصف بهذا المقام ونيل شرفه: [الكامل]

69 ***خيط الولاية سلك أهل محبة ** في كف أستاذ الإمام الأمجد***

72 ***لم لا تكون خديمه ومريده ** كيما تنال سعادة لا يفند***[2]

ويقول آخر من غانا في شيء من التواضع عند تصغير صفة " الخادم ": [الطويل]

12 ***ألا يا رسول الله يا سيد الورى ** ويا مركز التشريع يا منبع الرضا***

13 ***خويدمكم يحيى الأمين ببابكم ** بأطيب ألفاظ الأناشيد قرضا***[3]

ويقول في ذالية له :

13 ***أتيتك يا خير الأنام وسيلتي ** أرجيك توليني المحامد والغذا***

14 ***كفاني فخرا أنني خادم لكم ** وأني مدى الأيام أشدو تلذذا***[4]

وفي نيجيريا يستعمل صاحب " نيل البغيا " الكلمة نفسها، لإشعار غيره أن ذلك من غاياته الروحية ، فيقول في رائيته : [البسيط]

9 ***يا أهل بيت رسول الله عندكم ** علم وتقوى وأسرار وأنوار***

10 ***لا تنس خادمكم يحيى بدعوتكم ** وحينما ينفع الإنسان تذكار***[5]

ولكن السنغالي الشيخ أحمد بمبا تميز عن غيره، أن جعل "خادمية الرسول ﷺ " أشرف المقامات التي لم يصل إليه أحد سواه، أو أنه يستحق هذا اللقب " خديم الرسول ﷺ أو خادمه " دون سواه، إذ لم يشتهر به غيره، وشرعيته في هذه الأحقية تكمن في تلك الفضائل التي قمّصه الله تعالى بها ليكون وحيد عصره في هذا الشرف الرباني ، لذا قال عن نفسه:[الطويل]

---

(1) – المصدر السابق ، ص 45.

(2) – وندباغي، عثمان بن عثمان: قصيدة على حروف " الحمد لله على ظهور شيخ الإسلام وبدر الظلام وسبل السلام وقبله الأنام الشيخ الحاج أبو بكر بن هاشم جوت مياك جمهورية النيجر، مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة كيوتا، النيجر.

(3) – الأمين ، يحيى : تحفة الأحرار، ص 83.

(4) – المصدر نفسه ، ص 93.

(5) – النيجيري، الشيخ يحيى : نيل البغيا، ص 54.

3 وكَوْني له عبدا سعيدا مكمــلا ** خديما لعبد الحق مختاره الحــق
4 سأرضيك بالقرآن وا لسنة التي ** لنا سنها المختار يا فائق الرتق[1]

ولكن نكاد لا نقف على حد هذا المقام في مدارج الولاية، ولا تفصيل عنه، في شعر ســواه. هل هو خدمته الفائقة للقرآن الكريم، وإحياء للسنة النبوية في التربية الروحيــة لمريديــه ؟ كما في البيت السابق، وكما يفصل أيضا في أرجوزته هذه :

أبايع اليم الرسول المــصطفى ** بخدمـــــة وأســــأل الله الوفــــا
أحق جملــة الــورى بخــدمتي ** بــالنظم والنثــر رســول الرحمــة
زهدني طلوع الشمس في نظر ** إلى النجوم فــي الــسماء والقمــر
ظهر لي أن اعتصاما بالكتــاب ** وبحديث المصطفى هــو الــصواب
ظللت عابدا خديما للرسول ** من عام " أيسش" إلى عام الرحيل[2]

ويدل لفظ " أيسش" من البيت الأخير على سنة 1311هــ الموافق 1893م، عام اهتدائــه إلــى طريقة خاصة به، أسماها " المريدية "، وكان حينئذ قد بلغ أربعين سنة من عمــره. وتتحــدد " الخدمة " في هذه الطريقة بأوراد خاصة من الاستغفار والتهليل ، ولكن الصلاة على النبــي ﷺ والتوسل به وتفصيل القول في سيرته والتحلي بأخلاقه القرآنية من العناصر الأساســية، التي يدور حولها مفهوم " خديم الرسول ﷺ" الذي اشتهر به هذا الشيخ السنغالي.[3]

والجدير بالذكر أن شيوخا آخرين قد قاموا بنفس الدور، وأيقنوا بوجود هذا المقام الذي ابتغوه برياضات روحية. إذاً فلا ابتكار من أحد، بل للمصطلح جذور في الإسلام وتاريخه.

4)- قضايا دينية متنوعة :

هل يمكن إحصاء جميع القضايا الدينية التي أثارتها قصائد شعراء المنطقة ؟ !

كلا !! إن ذلك لمستبعد إن لم يكن مستحيلا ! بل حسبنا أن نقف على أهم القضايا التي كانت محور الصراعات الفكرية ، وميدان مقارعة الحجــج والبــراهين الدينيــة، لإثارتهــا ومناقشتها. أو أن أشير إلى الفتاوى أو الآراء الدينية الشاذة التي انفرد بها أصحابها، وكان لها صدى وضجة في أوساط العلماء.

ولكي لا نطيل في هذه الوقفة فإنني سأكتفي بتناول مواقف الــشعراء حــول بعــض القضايا في الفقرات الآتية :

---

(1) – صمب ، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 264/2.
(2) – المصدر نفسه، ص 246/2.
(3) – جاو، سرين : الطريقة المريدية في قصائد المؤسس، منظمة الكتاب باللغة العربية في السنغال ، ط 1، 2005م، ص 21.

إذا كانت الجنة هي غاية الصالحين ، والنار موعد الطالحين، كما جاء في النصوص الدينية، إلا أن بعض الصوفية يرون أن الله تعالى يستحق العبادة، وإن لم يكن لهذه العبادة جزاء، لذا أنكر بعضهم أن يجعلوا لعبادتهم وأذكارهم رجاء للجنة أو خوفا من النار، فعبر عن هذا الموقف زعيم القادرية بنيجيريا، الشيخ محمد الناصر الكبرى، في قطعة شعرية: [الطويل]

1 ذكرتك لا أبغي بذلك جنة ** ولا أتقي نارا وأنت مراد
2 فإن كنت لي مولى فأية جنة ** وأية نار تتقى وتراد[1]

ولشعراء المنطقة مواقف الحذر والتحفظ والكره من الأديان السماوية الأخرى، كاليهودية والميلادية، لأنها جاءت مع الاستعمار الأروبي في القضاء على ما اصطدموا به من حضارة دينية وثقافة عربية في المنطقة، ولذا تصدى لهم العلماء بالسيف والقلم :

ويمثل هذا التصدي ما كتبه الشيخ سعد توري[2]، في مالي، عن دسائس الكنائس والإرساليات التبشيرية، بعنوان " *الصواعق الإلهية في الرد على ترهات الكنائس الميلادية* "، فقرظه معاصره العلامة دنب واكي بقصيدة حائية، جاءت فيها هذه الأبيات : [الوافر]

11 فهم قوم على علم أضلوا ** فليس لهم بعقل من فلاح
12 لذا حقت شقاوتهم ولكن ** ظهورهم تثقل بالجناح
13 فيا أعداء دين الله مهلا ** فبالمرصاد سعد بالسلاح[3]

يعتقد الأفارقة أن عقيدة أهل الكتاب في التثليث كفر وشرك، لذا دبّج السنغالي أحمد جي رائيته " التنديد بالتثليث في أفصح الحديث "، فجاء مطلعها بهذا التصريح : [البسيط]

1 من ثلّث الله أو ثنّاه قد كفرا **من شبّه الله بالأكوان قد خسرا[4]

ولم يغب عنهم تحريفهم للكتب السماوية كما سجله عمر كركي[5] الغاني في هذا البيت:

181 وقوم حرفوا التوراة حتى ** إله العرش كرر في الملام[6]

وله قصيدة طويلة من 37 بيتا ومقفاة بكلمة " النصارى"، يحذر فيها من دسائسهم التبشيرية.

---

(1) – الكبرى، الشيخ محمد الناصر: الديوان المبارك ، ص 6.

(2) – هو مدير مدرسة سبيل الفلاح بسيقو(1909–1997م)لم يقل الشعر، ولكن مؤلفاته تربو على20، أشهرها المبادئ الصرفية، والدروس النحوية. وتعد مدرسته أول مدرسة نظامية حقا في مالي، تخرج على يده كثير من مؤسسي المدارس العربية في المنطقة.

(3) – توري،الحاج سعد:الصواعق الإلهية في الرد على ترهات الكنائس الميلادية،دار الرشاد،الدار البيضاء،لا.ط،لا.ت،ص115.

(4) – جي، الشيخ أحمد : التنديد بالتثليث في أفصح الحديث، مخطوطة مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

(5) – نزح من نيجيريا لنشر التعليم العربي في غانا، فتنقل في كثير من قراها ومدنها،له ديوان شعر،عاش ما بين(1850–1934)، هو ابن أبي بكر بن عثمان من الهوسا في ولاية كبي بنيجيريا. سكن في كركي بغانا فلقب بها، درس على يد مالم عثمان، وكان صوفيا، وخطيبا واعظا، ومعلما مخلصا، وشاعرا كبيرا. من تلاميذه: مالم منتقى كوماسي، والشيخ دا تانو، وعبد الصمد حبيب.

(6) – Muhammed, Abass U : Alhaj Umar ibn Abibakri ibn Uthman Kete-krachie: a Ghanaian muslim Poet (1850-1934).a thesis submitted to dep. Of Arabic studies in partial fulfillmen of the requirements for the degree of Master of Arts , in American Univesity , Cairo, May 2003, p 129

من المعلوم أن علماء المنطقة الغربية بإفريقيا كانوا على الفقه المالكي، يرسلون أيديهم في الصلاة، قبل قيام حركة " الوهابيين" الذين كفّروا أصحاب الإرسال، وسفهوا أحلامهم، فاضطرم النزاع بينهم في بعض الدول حتى أدى الأمر إلى إراقة الدماء. ولكن الشعر لم يصوره إلا على يد قلة من العلماء ، أمثال الشيخ محمد عباس آن[1] الذي دبج لامية في الرد على القابضين في الصلاة. وهذا البيت وضح فيه موقفه في أن أصل القبض هو الإرسال :

صلاة القبض، إن ضمت يداها ** تصير لدى الركوع إلى انسدال[2] [الوافر]

فعارضه الحاج محمد زين الدين[3]، الذي تجرأ أن يأخذ بالقبض في أوساط علماء متعصبين بالإرسال ـ أو السدل ـ، وعبر عن معارضته هذه بلامية أخرى ينقض بها قصيدة الشيخ آن، موبّخاً إياه بهذا العتاب الجريء : [البسيط]

يا منكر القبض ، قد أنكرت مذهب من ** في حقه قال خير الخلق والرسل

تكاد تضرب أكباد الجمال إلى ** عليم طيبة ، أو ما قال صهر علي [4]

وبمناسبة شهر الصيام ، تظل قضية ثبوت الهلال في بدايته و نهايته تشكل معضلة كبرى، يتنازع حولها المسلمون بين يومي 29 و30 . ولكن الحاج مالك سي يفتي بما يخالف ذلك كله ، ليعلن عن إمكانية رؤية الهلال في يوم 28 من الشهر، إذ يقول ما يلي : [الرجز]

1 وما يقول الجاهلون الشهر لا ** يطلع في " كح " ضلال وبلا

2 سببه بطئان سير القمر ** لا يلحق الشمس بها فاختبر

3 إن كان مسرعا ففيها يلحق ** لذاك يخفى ربنا الموفق

4 فراجع السنوسي في ذا الأمر ** تكن موافقا لأهل الخبر [5]

كما يذهب إلى إثبات زكاة الفستق ـ الفول السوداني ـ خلافا لما ورد في " مختصر خليل" الذي لم يدرجه في الحبوب العشرين التي أحصاها، وكان ذلك جرأة فقهية من الحاج مالك، الذي لاحظ أن الفستق أكبر إنتاج زراعي في بيئته السنغالية، منذ ذلك العصر إلى الآن، فقال:

وزكّ حب الفول للسودان ** بالاحتياط مثل ذي العرفان [الوافر]

ذاك الذي يطلبه القياس ** واسلك سبيلا ما به التباس [6]

---

[1] – شيخ مدرسة نقيجلون الشهيرة بفوتاطور، وعالم جليل تخرج على يده كثير من علماء فوتا، له شعر قليل.

[2] – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 291.

[3] – تتلمذ على الشيخ ساكو،وصاحب محضر في هايري لاو بفوتاطور، تخرج عليه علماء في السنغال وغينيا بيساو،كان شاعرا.

[4] – المصدر السابق ، ص 291.

[5] – سي، الحاج مالك : ملحق ديوانه الشعري، ص 3.

[6] – صامب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 135/2.

وربما انفرد الشيخ محمد مرحبا سانوغو[1]، في بوركينا فاسو، بين ذويه بإدلاء دلـوه في حكم الخنثى ــ الذي له عضو الرجل والأنثى معا ــ في هذه الأبيات بالأسلوب التقريري :

*1 إن نبـت اللحيـة دون الثـدي ** أو نبت الثدي فقط لـيس أخـي*
*2 أو يك من أحـدهما قـد بـالا ** أو حصل الحـيض فـلا إشـكالا*
*3 فكل خنثـى مـشكل ففرضـه ** مختلف بـين الفـروض حكمـه*
*4 أفرض له نصف نصيب الذكر ** ونصف حظ امرأة مقدّر* [2]

ومن أهم القضايا التي مزقت المسلمين إلى طرفين نقيضين قضية "*التكفيـر*" التـي تبودلت بين الصوفية والسلفية " أو الوهابية " دون هوادة. وشهدت المنطقة هذا النـزاع إبـان عودة الأوائل الأفارقة من الأراضي المقدسة متأثرين بالحركة الوهابية أو بمـنهج "محاربـة البدعة وإحياء السنة "، غير أن أكثرهم كانوا متطرفين في دعوتهم ، وفي الوقت نفسه كـان العلماء المحليون متعصبين بمالكيتهم في الفقه وأشعريتهم في العقيدة، فأنى سبيل للوفاق ؟!

انظر كيف يتعجب أحد التجانيين من ظاهرة التكفير، ثم يدافع في الوقت نفسه عـن الذكر الجماعي في حلقات " الوظيفة " التجانية التي يراها السلفيون أشنع البدع الدينية:[الوافر]

*8 أرى التكفير شـرا مـستطيرا ** وخطبـا هـائلا ذنبـا كبيـرا*
*10 فأين الدين؟ أين الدين؟ أينا ؟!! ** إذا ما كان جهر الذكر شينا* [3]

وبعد ذلك يرمي بالكفر الذين يعيبون على الشيوخ الصوفية، وينكرون جهودهم في نشر الدين. وعلى غراره تغلي ثورة شاعر مالي في هذا التصريح الفني على من ينكر التصوّف: [الرجز]

*39 من قام يـأمر الـورى بتـرك ** طريقة تهـدي إلـى ذي الملـك*
*40 وقـال إن الـورد بدعـة ولا ** يخاف من رب الورى بين المـلا*
*41 فاضرب بقوله على الحيطـان ** لأنـه مـن رسـل الـشيطان*
*44 فكالحمـار يحمـل الأسفـار ** أو مثل كلب فارمـه الأحجـار* [4]

وآخر من قلب مالي يصوّر لنا أعمال الوهابيين الشنيعة في قصيدتين مختلفين، يقول في إحداها :

*2 أناس يـشتمون الأوليـاء ** ويرمـون الأكـابر بالـسهام* [الوافر]
*3 ويتهمون أشياخ الصراط ** بأهل الشرك والبدع اللئام* [5]

---

[1] – أكبر عالم في بوركينا (1896–1979م)، له أكثر من 20 مؤلفا نثرا ونظما، أقام كثيرا في غانا،وجال دولا إفريقية كثيرة.

[2] – سانوغو، الشيخ محمد مرحبا: قصيدة مسألة الخنثى، مخطوطة، مكتبة المخطوطات العربية بجامعة نيامي، النيجر، رقم 341.

[3] – دظو، عبد الله موسى: المدخل إلى الأدب والبلاغة والنقد ، مخطوطة مكتبة المؤلف، مدينة كادونا، نيجيريا.

[4] – به، أحمد عثمان : ديوان ضياء العشق منظومة نصيحة الشباب، لا.ط، لا.ت، ص 19.

[5] – جرا، محمد الشفيع: قصيدة كسر السدود عن وجهة الوفود إلى ورثة سيد الوجود، مخطوطة مكتبة الشاعر، موبتي، مالي.

لما وضع العلامة محمد الخضر بن سيد عبد الله بن مايابا الجكني الموريتاني[1] مؤلفا بعنوان "*مشتهى الخارف الجاني في رد زلفات التجاني*" ، قام جرن حامد آن[2] بين التجانيين في السنغال مؤيّدا هذا الرد على التجانية ، ومقرّظا كتاب ابن مايابا، ومضمّنا فيه مواقفه الصارمة : [البسيط]

1 حيّ الإله إمامنا نجل مايابا ** من صار يرهب أهل الزيغ إرهابا
2 وسل للدين سيف الحق منصلتا ** وصير الجاهل الضليل أوابا
3 وصار يزجر أهل الزيغ عن زلل ** لم يخش من لامه في الله أو عابا
9 وقوم الأغبياء بالحق فازدجروا ** فيهم وانشب أظفارا وأنيابا
10 والدين يرفل في زي وفي حلل ** والحق ذو صولة والغي قد ذابا[3]

وقد تصدى الشيخ محمد الخليفة انياس (ت 1959م)[4] للرد على مؤلَّف ابن مايابا بأرجوزة طويلة، ثم شرحها تحت عنوان "*الجيوش الطلع بالمرهفات القطع إلى ابن ما يأبى أخي التنطع*"، الذي يعد أهم كتاب يدافع عن الطريقة التجانية خاصة ، والصوفية عامة ، في جميع معتقداتها ومبادئها.

لو كان لدعاة السلفية حكمة بالغة ، ولو كان للصوفية روح قبول النقد، لكانت حدة التكفير هادئة بين المسلمين، ولأمكن تقريب المفاهيم بينهم، لأن الشعائر التعبدية تجمعهم. ووحدة المسلمين من الواجبات الكبرى على الأمة.وإلى هذا يشير أحد شعراء نيجيريا:[الرجز]

6 أيا خيار الله بين الخلق ** أمَّا تروا ما حل بالإسلام
7 خاصم بعض البعض منا حول أمـ ** ـر تافه بسبب الأوهام
8 وكفر الأخ أخاه جاهلا ** بلا هدى من آية الأحكام
9 وشغل بعضنا جدال السوء ** من غير فهم وبلا استفهام
11 ألم تروا كيف ادّعوا علوما ** وما لهم بالعلم من إلمام
راحوا همو وغدوا على المراء ** أنى تكون وحدة الإسلام[5]

وقضية أخرى تجرّنا إلى الحديث عن إجلال العوام للشيوخ الصوفية. إجلال تحول في السنوات الأخيرة إلى بعض معتقدات، بعيدة عن التربية الروحية التي قام من أجلها التصوف.

---

[1] – من كبار علماء موريتانيا المعاصرين للشيخ أحمد التجاني، والمجاورين للحرمين.

[2] – هو ابن أحمد بن عثمان تلر(1889–1956م)، كان له اتجاه السلفية في هذا الوسط التجاني السنغالي، هو شيخ علماء كثيرين.

[3] – صامب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 184/1.

[4] – هو الأخ الكبير لإبراهيم انياس، وخليفة أبيهما عبد الله في كولخ، له ديوانان كبيران في النبيﷺ وشيخه التجاني.

[5] – أدنكيليكن، الحاج داود أحمد : قصيدة ترحيبية في مؤتمر العلماء، ولاية أويو، نيجيريا. **تنبيه : لا أدري صحة " أما تروا "!**

لأن بعضهم ينظرون إلى شخصية الشيوخ في بعض دول المنطقة ــ كالسنغال ونيجيريا ومالي خاصة ــ نظرة مقدسة، لما يعتقدون فيهم: أن لهم غفران ذنوبهم ، وتحمل أوزارهم يوم الحشر، ودخولهم الجنة بشفاعتهم. إذ تقع على أيديهم كرامات ملفقة في ما يحققون بعلم الأسرار الذي يتّجرون به في قضاء الحوائج الدنيوية لأتباعهم. وفي رائية محمد السراج[1] من غينيا بيساو، الذي عاش في سنغامبيا، تصوير مفصّل لهذه الظواهر العقدية : [الكامل]

1 قل للذي اتخذ المشيخة حرفة ** أقصر فلق الدين ليس بمتجر
2 أجعلت اسم الله سلعة تاجر ** متصرفا فيها تبيع وتشتري ؟
19 يا من يبيع شجاعة في قومه ** هل أنت مالك أمرنا في المحشر؟
20 كلا وربك إنها أكذوبة ** والأمر يومئذ لرب المعشر
21 أنجوت من هول القيامة آمنا ** حتى تبيع الأمن للمستأسر؟
22 وتغر باسم الدين أو بشفاعة ** أفما قرأت مقالة للأخضري؟[2]

ولنتحقّق من شيوع هذه المعتقدات في الشيوخ، قف على ما يتغنّى به شعراؤهم على آذان أتباعهم الصاغية ، لتدرك كيف يمكن أن تتأثّر قلوب العوام بما يرد في المدائح من مبالغات، كما في دالية عثمان النيجري في مدح شيخه أبي بكر هاشم خليفة إبراهيم انياس في النيجر:[الكامل]

61 أرجوك يا شيخي إمامي سيدي ** فوق الصراط وبعده يوم الغد
62 أنت الذي تنجي جميع عياله ** يوم القيامة أنت أسعد مسعد
64 أنت الذي تعطى الشفاعة في غد ** من بعد رسل الله أنت المنجد[3]

إذا كان هذا يعتقد في خليفة من خلفاء الشيخ إبراهيم انياس، فما مدى ما يعتقد في غيره من الشيوخ الصوفية،الذين جعلوا اتخاذ المسلم شيخا من الواجبات الدينية. ألا يكفي الرسولﷺ قدوة مربيا،ووسيلة روحية،لمن يريد أن يبرئ دينه وعقيدته،مع الاعتراف بجهود الشيوخ في الدين، دون أن يصغي إلى زلاتهم المسمومة في التبشيرات المعسولة، كما يحذرنا شاعر غامبيا :

2 ولا تركنوا للجهل تبنون دينكم ** على كل ما نادى به الشيخ من زعم[4] [الكامل]

ويعد *الاحتفال بالمولد* من القضايا التي صارت محور خلاف مرير بين الشيوخ المحليين والدعاة الوهابيين. غير أن الشعر لم يثره كقضية دينية،بل اكتفى بما يتغنى به من ترحيب لشهره [5]

---

[1] – هو ابن معزوز أمبالو،ولد سنة 1943م،نشأ في منطقة فولدو في حدود غينيين، وتعلم في السنغال ثم أقام في بيتس في وطنه.

[2] – صالح، محمد عمر: الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 475–476. **تنبيه : كسر الوزن فيما تحت الخط.**

[3] – وندباغي، عثمان بن عثمان : قصيدة مقيدة بحروف " الحمد لله على ظهور شيخ الإسلام ..."، مخطوطة، كيوتا، النيجر.

[4] – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 21.

[5] – كدالية غوربيري النيجري، وكهمزية محمد الزنيوني ولامية الزكوي من نيجيريا، ودالية أحمد تجاني سي، ورائية عمرو عبد اللطيف من مالي.

وما أكثرهم الذين دبجوا دواوين في فضل هذه المناسبة وصاحبها ﷺ ، دون أن يولوا اهتماما بالطرف المعارض، لا دفاعا عن موقفهم ولا احتجاجا عليه. ولكن الجبهة المعارضة ، على قلتها، ترى بدعا كثيرة في الأهداف التي تنظم من أجلها هذه المناسبة، أو تنتقد ما فيها من إسراف لا طائل من ورائه في الناحية التربوية،لذا قال الشيخ أحمد جي في ميميته المشهورة:

11 ما الدين عندي مولود أعد له ** بالشتّ والجمع أموالا وتعظيم [1]

وهناك قضية "***وحدة الوجود***" التي لم تكن مطروحة على الصعيد الجماعي. إلا أنها بقيت في نطاق ضيق بين بعض الشعراء، الذين تناولوها كموضوع "حوار شعري". وهذا الحوار يمكن تصوره بين الشاعرين الماليين[2]، يقول أحدهما مؤيدا للفكرة :

1 تجليت لي في كل شيء مخاطبا ** وجودي ألا إني المنير الكواكبا

2 أنا الظاهر الفرد الحكيم بصنعه ** خبير رحيم قد خلقت العجائبا [3]

ويحاوره الثاني في معارضة شديدة في دالية أطول من قصيدة مواطنه، كأنه ينقض أدلته :

8 وذات الله جلت عن حلول ** وجل كلام ربي عن نفاد

9 إلهي بالمظاهر ظاهر لا ** ظهور الذات ربي خير هاد

10 ولكن بالتجلي والظهور ** وبالآثار ذا نهج السداد [4]

ويؤيد الشاعر النيجري محمد مالم موسى في هذا البيت من الرجز :

12 علا عن حلول واتحاد بخلقه ** وعن كل ما يأتي بعقل وخطرة [5]

وقد يكون شيخ القادرية بنيجيريا قد انفرد بالنزعة الأفلاطونية في نفي وجود المظاهر :

4 كل ذا الوجود ظلال ** لا وجود إلا الله

5 كل ذا الوجود هباء ** ليس غير من نهواه [6]

حسبنا هذا، إذ لا يمكن أن نتناول جميع ما حوى شعرهم من المواقف : كوجوب الوضوء لمن يقرأ جوهرة الكمال من الأوراد التجانية.[7] وكالذي يؤيد زواج المتعة لتأثره بالشيعة التي بدأت تتغلغل في إفريقيا[8]، وكتضارب آرائهم في تحريم شرب " الشاي الأخضر" وجوازه.[9]

---

[1] – صامب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ص 375/2.

[2] – هما: الشيخ يعقوب دوكوري في سيكاسو، وأبو جعفر محمد جباتي في بماكو العاصمة.

[3] – جباتي، أبوجعفر محمد : قصيدة العرفان في وحدة الوجود، مخطوطة مكتبة الشاعر، حي مصر2، بماكو، مالي.

[4] – دوكوري، يعقوب : قصيدة وحدة الموجد لا وحدة الوجود، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيكاسو، مالي.

[5] – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 130.

[6] – الكبرى، الشيخ محمد الناصر : الديوان المبارك ، ص 104.

[7] – ينظر : النفاخ، الشيخ يحيى بن محمد : نيل البغيا، ص 58.

[8] – وجدت هذه النزعة في شعر أبي رضوان المدني تيام من سيقو، ومواطنه أبو جعفر محمد جباتي.

[9] – راجع : درامي، الشيخ قاضي : شعر صحراء مالي ، مخطوطة مكتبة المؤلف، بماكو، مالي، ص 202–205.

الفصل الثاني

موضوعات اجتماعية

المبحث الأول : القصيدة ورسالتها الاجتماعية

المبحث الثاني : صور من جمال الطبيعة والبيئة

المبحث الثالث : صور من القيم والتقاليد الاجتماعية

المبحث الرابع : مواقف في ظواهر اجتماعية

المبحث الأول : القصيدة ورسالتها الاجتماعية

هل من المنطق أن يعيش الأديب على هامش مجتمعه ؟! مستقيا مضمون أدبه خارج بيئته الاجتماعية ؟ إذ لا بد أن يكون ما يتناوله وينتجه قضية من قضايا حياة البشر ! لكن أصالته ستظهر من خلال صياغته الفنية ورؤيته الخاصة في تلك القضايا التي يعالجها.[1]

وإذا ثبتت حتمية صلة الأديب بواقعه المعيش من خلال هذا المنطق ؛ فإن لأدبه ــ حينئذ ــ رسالةً ضروريّة حتى ولو كان من أنصار " الفن للفن" ، لأن تصويره لعالمه الخاص يستهدف إشعار غيره بوجوده، الذي لن يتجاهل مضمونه الصلة بينه وبين المجتمع، وفي ذلك تكمن رسالته الأدبية. لذا يعنى النقد الحديث العربي المعاصر بثلاث مسائل : تصوير الكاتب عالمه، ورسالته فيه، ثم تقويم هذه الرسالة.[2]

هذا ما جعل العقاد[3] يقول عن حافظ إبراهيم[4] «*فهو شاعر الحياة القومية في كلامه عن اللغة الفصحى، وعن السفور ، وعن الحجاب، وعن فاجعة دنشواي، وعن أزمات المال والسياسة، وعن مضاربات الأغنياء في سوق القطن، وإضرار الشركات بالبلاد*» [5]

ويستدل على ذلك بهذه الأبيات التي بدا فيها حافظ شاعرا مصلحا للأوضاع الاقتصادية في معاناة الشعب من غلاء أسعار السلع بالأسواق العامة : [الخفيف]

أيها المصلحون ضاق بنا العيــ ** ــش ولم تحسنوا عليه القياما

عزت السلعة الذليلة حتى ** بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت في يد الناس كاليا ** قوت حتى نوى الفقير الصياما

يقطع اليوم طاويا ولديه ** دون ريح القتار ريح الخزامى

ويخال الرغيف في البعد بدرا ** ويظن اللحوم صيدا حراما [6]

وقد أدرك هذا التفاعل الدائم بين الفنان والمجتمع كبار الشعراء أنفسهم، إذ لا معنى لإنتاجهم إذا لم يتصل بالبيئة، لكون الأديب ابن بيئته ، ويقول الشاعر الألماني جوته[7] في هذا الصدد :

---

(1) – راجع : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت / لبنان، لا. ط، 1978م، ص336.

(2) – ينظر المصدر نفسه ، ص 343. وإسماعيل، عز الدين : الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، لا.ط، 2000م/ 1421هـ، ص 86.

(3) – هو عباس محمود العقاد (1889–1964م)كاتب شهير بمصر، وأديب ناقد، له 83 مؤلفا في مختلف الفنون. (الأعلام 266/3)

(4) – أديب مصري(1871–1932م) ولد بذهبية بالنيل وتوفي بالقاهرة، نشأ يتيما وصار ضابطا، ولقب بشاعر النيل.(الأعلام76/6)

(5) – العقاد، عباس محمود : شعراء مصر وبيئاتهم، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، لا. ت، ص 16.

(6) – حافظ، إبراهيم : ديوان حافظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، لا.ط، 1980م، ج1 ص 316.

(7) – هوجوهان ولفغان فو جوته (1749–1832م) كاتب وشاعر ألماني، تزعم أدباء عصره توجت أعماله بالآداب العالمية.

ما ذا أكون بدونك ،

يا صديق الشعب. [1]

«*فالفن إذن ظاهرة اجتماعية من الطراز الأول، والعمل الفني الناجح هو الذي يقدم إلـى المجتمع شيئا يتفاعل معه ويفيد منه. وطبيعي أن التفاعل يكون في أقوى صوره حـين يكـون العمل الفني مصورا ومسايرا للاتجاه العام، وروح العصر السائدة في بيئة من البيئات* [2]»

ولم تغب هذه الحقيقة عن رجال الشعر العربي الإفريقي، الذين جعلوا لإنتاجهم الشعري رسالة موجهة إلى المجتمع، بل لا بد أن تكون للشعر رسالة ــ مباشرة وغير مباشرة ــ إذ لا يعتد بإنتاج من لم يعالج قضية مفيدة للمجتمع، لذا قال أحد الشباب الشعراء من مالي : [الوافر]

7 ***وما قلـت القـصائد للتبـاهي ** ولكـن للتـآنس بـالكرام***

8 ***أراعي العرض في نثر وشعر ** وأشعاري جواهر للأنـام*** [3]

ويعلن شيخ تجان غاي[4] على مسمع حضور إحدى المناسبات الثقافية، أن لشعره رسالة :

24 ***وقصيـدتي هذي تعبر عن مدى ** تأثيرها بكيانها الإفريقي*** [5]

وله قصائد كثيرة يمتلئ بها ديوانه، جعلها أهم وسيلة دعوية لأفكاره الإصلاحية لحل الظروف السياسية والأوضاع الاجتماعية، يلقيها في المناسبات الدينية والثقافية التي يشارك فيها أحيانا.[6]

ويقرظ أحد الشبان ديوان " من وحي المجتمع" للمرحوم محمد الأمين عاج، فيشير إلى ما يستفيد منه المجتمع في إصلاح أمراضه الاجتماعية ، فيقول في نونيته : [البسيط]

3 ***قصائد الشاعر الموهوب موهبة ** لنـا لنمـدد إليهـا حـلّ أيـدينا***

7 ***هي الدواء لداء الجهل تطـرده ** عن العقول فيبقـى المـرء عرنينـا***

8 ***تروي الغليل بعذب من مناهلها ** وتكشف الجوع بل تشقى المجانينا*** [7]

أما عثمان الكنكاوي[8] فيجعل لشعره دورا مهما في أزمة إدارية، لذا عنون قصيدته بـ "أعط زمام الأمر للخبراء "، ويفتحها بأبيات يؤكد على ضرورية الرسالة الشعرية: [الكامل]

1 ***دأبي دعاني دعـوة الـشعراء ** لا شك أنـي أقـول كالفـصحاء***

2 ***وفصاحة الشعر بعيد المنتهـى ** صعب المنـال لفرقـة الـضعفاء***

---

(1) – إسماعيل، د.عز الدين : الأسس الجمالية في النقد الأدبي، ص 258.

(2) – المصدر نفسه ، ص 88.

(3) – ساغو، عمرو عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط ، ص 74. وكل قصائده في بحر الوافر.

(4) – شاعر سنغالي، تلميذ الشيخ عباس صل وكاتبه وحفيده، له ديوان " من وحي الواقع" بلغ فيه إنتاجه 83 قصيدة في 2253 بيتا.

(5) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ديوان شعري " ، لوغا، السنغال، لا.ط، لا.ت ، ص 99.

(6) – ينظر في المصدر نفسه مثلا: السياسيات في 12 قصيدة، والاجتماعيات في 15 قصيدة، والثقافيات في 13 قصيدة.

(7) – با، بنعمر بن محمد سعيد: تقريظ الديوان، مخطوط في ملحق ديوان "من وحي المجتمع" لمحمد الأمين عاج، ص 53.

(8) – ولد سنة 1972م بمنطقة غنمرى، خريج جامعة صكتو بنيجيريا، والماجستير بجامعة إلورن.وهو أستاذ في كلية التربية بإلورن. له منشورات كملامح النقد لدى الخليفة عمر، ومخطوطة كأساليب بلاغية في نوابغ الكلم للزمخشري، وديوان شعري.

3 إلا لمطبوع القوافي منحة ** أين مقامي بجانب الشعراء
4 فأقول قول الشعر منقذي الذي ** قد كان قبلي شاعر السوداء [1]

إن الشعر العربي الإفريقي ، في أغراضه المختلفة وموضوعاته المتباينة، لم يهمل أعلامه شيئا من ارتباطاتهم بالبيئة الاجتماعية، بل تقمّصت بعضُ قصائدهم ثوبَ "الأدب الملتزم" الهادف إلى تربية الشعب، أو توجيهه، أو تثقيفه ، أو عتابه، وانتقاده ؛ فيستفتحون أبياتهم بأدوات النداء، وتكثر في أساليبهم أفعال الأمر والنهي، مما لا يترك مجالا للشك في التزام الشاعر ببعض الأفكار الهادفة.

انظر إلى هذه الأبيات من قريحة الشاعر الغيني محمد الأمين جابي : [الوافر]

1 ألا يا أمة الإسلام كنتم ** بأعباء الخلافة قائمينا
2 وكنتم سادة الدنيا ، وكنتم ** بناة للحضارة فائقينا
3 وكنتم سابقين الغرب فيها ** وكنتم قادة ومعلمينا [2]

وفي قصيدة " شمّروا"، التي ينم عنوانها عن رسالة شاعرها، الأستاذ غانامي[3] من بوركينافاسو، الذي يخاطب بها ناشئة وطنه ليجدّوا في التحصيل العلمي لأنهم أمل الغد :

15 أيها النشء خذ يدي ** أنت ذو الحق لا جرم
16 شمروا ثم شمروا ** كاشفات دجى الغمم
17 إربا قطعوا الونى ** قيموا اللفظ والقلم [4] [الخفيف المجزوء]

وبهذه الرسالة الشعرية التي التزم بها بعض الأدباء، أصبحت لبعض قصائدهم ضجة اجتماعية، بل حاولوا ــ وإن أخفقوا ــ أن يثيروا في المجتمع ثورة عارمة، أو في مخاطبيهم ضغائن شنيعة : كقصيدة " إلى أبناء يوربا أجمعين" لعبد الرحمن الزكوي، حيث يعاتب الشعب اليورباوي في عدم المطالبة بحقوقهم الوطنية في نيجيريا، و" مشاكل العالم الإسلامي وعلاجها" لمدثر عبد الوهاب[5] الذي يصور معاداة الغرب للإسلام ليغتاظ المسلمون ضد الغرب والمستشرقين والشيوعية. ونجد في السنغال محمد منتقى جاو في قصيدته " تنبيه المغرورين وإيقاظ النائمين [6]" معلنا انتقادات صريحة لاستغلال الشيوخ الصوفية الشعب في جمع الأموال، خلال مناسبات ذكرى المولد النبوي التي تنظم سنويا. وسنقف في المبحث الرابع من هذا الفصل على مواقف الشعراء من بعض تلك الظواهر الاجتماعية.

---

(1) – الكانكاوي، عثمان إدريس : أعط زمام الأمر للخبراء، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، إلورن، ولاية أكوارا، نيجيريا.
(2) – جابي، الدكتور محمد الأمين : خلفاء الأرض، قصيدة في ديوانه المخطوط، قرضها بتاريخ 1988م.
(3) – هو ساليفو بن آدم غانامي، ولد عام 1951م في وحيغويا، درس على الحاج محمود سانوغو مؤسس مدرسة السلام بمدينة بوبو جولاسو، وخريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، له مؤلفات مخطوطة، وديوان شعري غير مطبوع.
(4) – غانامي، ساليفو: شمروا، قصيدة مخطوطة مكتبة شاعرها، مدينة بوبو جولاسو، بوركينا فاسو.
(5) – ولد عام 1983م في كابا، ونشأ في لاغوس، درس في مؤسسة الشيخ عبد الجليل إسحاق الألاوي. له محاولات شعرية جيدة.
(6) – ينظر : صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 413.

المبحث الثاني : صور من جمال الطبيعة والبيئة

رأينا في الباب الأوّل حديثا عن جمال طبيعة المنطقة ، بصحرائها مترامية الأطراف ، وغاباتها الكثيفة، وأنهارها الواسعة، وما في مناخها من حرارة، وبرودة، واعتدال استوائي. وما يتفاعل بهذه الطبيعة من حيوانات بيئية : بطيورها، ووحوشها، وأنعامها، وحشراتها، ... الخ.

ولا نريد من الشاعر الإفريقي الوصف الحرفي لهذا الجمال السحري، الذي يحيط بالحياة الاجتماعية، إذ براعته لا تتحقق بهذا التصوير التقريري إلا إذا أضفى على فنه تفسيرَه النفسي وتنظيمه الخيالي لهذه الطبيعة ومظاهر البيئة التي أبهرته وأثارت مشاعره الفياضة.[1]

وفي قصيدة " أزهى الصور" للمرحوم محمد الأمين عاجْ السنغالي، نلتمس هذا الجمال الفني:

1 *ترسم في ذهني أزهى الصور ** عصفورة في الروض في الشجرْ*
2 *تشدو طليقة مع الأحرار ** قريرة العين ملاك السحرْ*
3 *تطير حيثما تريد في الهوا ** دون تهديد ودون حذرْ*

4 *وضحكة الطفل بحضن أمه ** في جولة منها إلى ألعابهْ*
5 *يلهو ويمشي مائلا كالثمل ** وفجأة يحبو إلى حليبهْ*
6 *في لهجة تفهمها تلك الدمى ** وبهجة تلمع من لعابهْ*

7 *وبسمة الصباح في ثغر الذكا ** داعية ـ بعد الكرى ـ للحركهْ*
8 *فيبرز الخلق إلى معاشه ** لمعهد أو مكتب أو شركهْ*
9 *وتظهر الحياة في الأرياف ** وفي العواصم فكانت بركهْ*

10 *ونزهة المحبوب مع حبيبه ** في جنة غناء في وقت الأصيل*
11 *يستسلمان لمناجاة الهوى ** بالهمس أو باللمس والشعر الجميل*
12 *حتى إذا ما الشمس غابت في الفضا ** قاما وقد فازا بذا الحب النبيل*

13 *وعودة القطيع من مرعاه ** في موكب يختال جنب الراعي*
14 *فيخرج الحي على ثغائها ** ملبيا نداء هذا الداعي*
15 *وفي صراع للحليب يلتقي ** أولادها بكف ذاك الساعي*

---

[1] – راجع : إسماعيل ، د.عز الدين : الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 24.

وقطعة مــن وحــي فــن شــاعر ** قد نظمــت بــالفكر والعواطــف
وزودت بـــــأرهف المـــــشاعر ** وبالخيــال الخــصب والمعــارف
وقدمت في ثوبها الأسلوبي ** بنغمة الوقع ولحن العازف [1]

[الرجز]

وقد فهم شاعرنا، خلال هذه الأبيات الثلاث الأخيرة، ما يؤكّده النقاد أن الفنان لا بــد أن يفسّر ما يجد في الطبيعة من جمال بعد تأمل عميق، وإلا فلا فرق بينه وبــين العــوام الــذين يشاهدون الطبيعة من غير فهم. وفي فهمه الخيالي، وتفسيره التحليلي، تثري قريحتــه "الفكــر الإنساني للجمال " الذي يدرسه علماء "الإسطاطيقا Esthétique" علم الجمال الفني. وهذا ما قام به الشاعر الفيلسوف، أحمد التجاني سه السنغالي، في هذه القطعة الشعرية من بحر الطويل :

1 أحب من الــدنيا طبــائع أهلهــا ** وفي حبهــا حــب الــذي خلــق الــدنيا
2 ففي كل شيء للمفكــر حكمــة ** تقــود ذوي الألبــاب للحكمــة العليــا
3 إذا ما أصاب البرد فالبرد حكمة ** وإن ما أصاب الحــر فــالحر مــا أحيــا
4 ترى الشمس نورا بالحياة تمدنا ** وريح الهــواء الطلــق يورثهــا الغنيــا
5 ففي حشرات الأرض ألف عجيبة ** وجدت عقول الناس عن حصرها تعيى [2]

ومن هذه النصوص يلتقي الشاعر الفنان بالرسام الفنان، لأنهما يضفيان على الطبيعة معاني من الفكر الإنساني، وفي عملهما نجد فرقا بين الجمال الطبيعي والجمال الفني، لأن « *الطبيعة هــي العمل الفني لله* »[3] ، أما الشعر والرسم فهما العمل الفني للإنسان الفنان، وقد أودع الله الخــالق البارئ في هذه الطبيعة آياته البديعة، التي يريد من الخلق أن يتدبّروها ليفهموا آيــات بدائعــه، قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [4] .

وهذا يجرنا إلى الحديث عن تأثير الطبيعة في إنتاج الشاعر، وأن يظهر أثر البيئة فــي أعماله الفنية. وقد صدقت هذه الحقيقة النقدية على شعرائنا، إذ قلما نجد آثار الصحراء في أعمال شعراء الغابات والسافانا، الذين تنعدم لديهم صور الطبيعة الصحراوية كذلك، انظر مصداقية ذلك في رائية الشاعر النيجري محمد أحمد شفيع ، اقتصرت على أبياته التسعة الأولى: [الطويل]

1 أصحراءنا الكبرى فــداك نفوســنا ** فأنت لنا مهــد حمتــه جــدودنا
2 أيا قلعة الأحرار فــي كــل فتــرة ** أيا وطنــا تهفــو إليــه قلوبهــا

---

(1) – عاج، محمد الأمين: من وحي المجتمع .. ديوان الشاعر، ص 24.
(2) – سه، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 28.
(3) – إسماعيل، د. عز الدين : الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 37.
(4) – الآية 3 من سورة الرعد.

3 نحييـــك إجـــلالا لأرض عزيـــزة ** علينا ولا تهوى سواك نفوســـنا
4 أصحراءنا الكبرى أيا وطن الفخر ** أيا مجد أجداد حموه مدى الـــدهر
5 أيا قلعة الأحرار فـــي كـــل فتـــرة ** ومنطلق الأبطال والأنجم الزهـــر
6 نحييـــك إجـــلالا لأرض عزيـــزة ** ونهدي نحوهـــا غـــرر الـــشعر
7 فإفريقيـــا تهـــديك آيـــة حبهـــا ** فأنت لها رمز اتـــصال لـــشعبها
8 توحدهم صحراؤهم حول نفـــسها ** كأم حنون همهـــا جمـــع أهلهـــا
9 فصحراؤنا أم نمجد ذكرها ** ولا نرتضي شيئا يدنس فخرها [1]

إن شاعرنا هذا من طوارق صحراء النيجر، التحمت نفسه بروح الصحراء، فاستنطقها وصـــوّر ما لها من معان سامية يقدّرها سكانها، وأدوار فعّالة يسجلها تاريخها. ولا شـــك أن مثـــل هـــذا التفسير والتحليل النفسي لمستبعد أن يأتي من شعراء الدول المطلة على المحيط الأطلسي، الذين لا يعرفون من الصحراء إلا اسمها، أو رسمها من الصور. وإذا انعدمت صور الصحراء فـــي عمل شعراء هذه الدول، فإن لهم صحراء بحرية، صوّروها لإبراز ما فيها من أفكـــار إنـــسانية لتحتلّ مكانتها في الآداب العالمية، يقول أحد شعراء السنغال وهو على حافة البحر يخاطبه :

1 أخي إن أردت الخير فاذهـــب إلـــى البحـــر ** فإن مياه البحـــر تـــشفي مـــن الحـــر
2 وتشفي من أمـــراض ثقـــال أليمـــة ** بجسم عـــراه كـــل قـــن مـــن الـــضر
3 وحسبك مـــن فـــضل البحـــار بأنـــه ** إذا هاج مـــوج البحـــر تلفـــظ بالـــدر
4 وتزخـــر بـــالملح الـــذي إن فقدتـــه ** وجـــدت شـــهيات المطـــاعم كـــالمر
5 فـــأكرم بخلـــق ســـخر الله بحـــره ** لهم فغدوا يـــسعون بالـــسطح والقعـــر
6 وأعظم ببحر زرتـــه اليـــوم عارفـــا ** ببعض الذي يحوي من الخير والـــضير
7 فلمـــا رأيـــت المـــوج تبـــدو كأنهـــا ** جبال عليها القطن أو ناصـــع الزهـــر
8 همست وكفـــي نحـــو ذاك مـــشيرة ** إلا أن هذا الـــسر مـــن أجمـــل الـــسر
9 فوجهت طرفي فـــي الفـــضا متـــأمّلا ** أرى كل ما في الأرض من ذلك البحـــر
10 فحين رأيت الأفـــق بالمـــاء لاصـــقا ** وخيل لـــي أن الـــسماء مـــن القمـــر
11 هتفـــت وقلبـــي بالمهابـــة خـــافق ** ألا إن هذا الأمر مـــن أعجـــب الأمـــر
12 وأطرب نفـــسي إن رأيـــت مـــواخرا ** تشق عباب الماء يمنـــا علـــى يـــسر
13 تغـــوص وتطفـــو تـــارة وكأنهـــا ** على البحر ذي الأمواج خيل على البر
14 فقلـــت ونفـــسي للجمـــال أســـيرة ** ألا أن هذا السحر من أخلـــب الـــسحر
15 فحين بدت تلك السنين رواجعا ** وفيها من الخيرات ذخر على ذخر

[1] – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 107.

16 حلفت لهم بالله فـي الحـال قـائلا ** ألا أن هذا الفضل جـل عـن الـشكر
17 وقد غاص قلبـي عنـد ذاك مفكّـرا ** ببحـر عميـق لا يحـدّد بـالقعر
18 فحـين أفـاق القلـب قلـت مؤكـدا ** ألا أن هذا الخلـق مـن ذالـك البـر
19 إلى أن بدا جـنح الأصـيل وأقبلـت ** حثاثا جنود الليل من شـرقها تجـري
20 تحـارب شمـسا لا تـزال مليكـة ** على عرشها المرفوع في حلـل زهـر
21 ولمـا رأت أن الجنـود تريـدها ** ولـيس لهـا جنـد يـدافع بـالكر
22 بكت من زوال الملـك ثمـة أدبـرت ** وألقت دموع الحزن في ذالـك البحـر
23 وفـضلت الـشمس المليكـة أنهـا ** تبدل ثـوب النـور بالحلـل الـصفر
24 إلى أن تـوارت بالحجـاب طريـدة ** تحـاذر أن تغتـال بالقتـل والأسـر
25 فقلـت وإنـي بالهزيمـة شـاهد ** إلى أن ذات الملك مالـت إلـى الفـر
26 فصارت عيون الغرب تبكي حزينـة ** على ملكها المسلوب بـالأدمع الحمـر
27 فقلت وقلبي بالعواطف زاخر ** ألا كل ما في الكون في مثل ذا يجري[1]

[الطويل]

نعم ، إن كل ما في الطبيعة يجب أن يجري على هذه المعاني ، بعد وقفة متأمّلة، لـذا أسـمى العالم الشاعر سراج امبالو[2] قصيدته هذه بـ " وقفة على ساحل البحر". وقد لبّى دعوته أحـد نظرائه من الشعراء المعاصرين في مالي، الذي زار البحر في ساحل العاج، أو أبهره منظـر نهر النيجر(أو جوليبا بمالي)،فقال تحت عنوان "شاطئ البحر" قصيدة مليئة بإيحاء معان سامية:

1 يا منظر البحر يا أبهى المنـاظر يـا ** طبّ الأسى والشجى يا راحـة العـاني
2 أتيت أنظر صـنع المبـدع البـاري ** أهـاج قلبـي ميـاه ذات سـيلان
3 صفاؤها بـل نقـاء بـل برودتهـا ** نـسيمها وهـي دومـا ذات جريـان
4 يا زائر البحر سـرح معجبـا نظـرا ** إلـى جمـال جلـي فـاتن دان
5 انظر إلى سفن فـي الـسير آمنـة ** وانظـر لـصياد أسـماك كنـشوان
6 اسمع أخي صوت جري الماء مندفعا ** بين الصخور وبين العشب يـا رانـي
7 انظر إلى خضرة الأشـجار سـاحله ** والـريح مالـت بـأوراق وأغـصان
8 علـى رمـال وأشـجار وأحجـار ** سرب وفي الجو سرب طار فـي الآن
9 سبحان مجري مياه طاب مشربها ** روح حياة قوام روح أكوان [3]

[البسيط]

---

[1] – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 481.

[2] – هو ابن معزوز، ولد عام 1943م في فولدو بغينيا بيساو، لكنه درس في اندر (سين لويس) شبه الجزيرة المطلة على المحيط الأطلسي بالسنغال التي زار مناطقها، واستقر في كازمانس. ربما فاق أقرانه في الوصف، حسب ما يظهر من ديوانه المخطوط.

[3] – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 64.

إن البراعة الفنية لدى هؤلاء الشعراء تكمن في قدرتهم الفائقة على تجميل ما في الطبيعة من قبح وهول وحزن، واستخراج كنوزها الروحية والنفسية التي تخاطب مشاعرهم كلما تأمّلوها، وتدبّروا أسرار وجودها، وأشكالها، وألوانها.

ولكن خطاب الطبيعة لا يقتصر على هذه المظاهر الجامدة، إذ فيها أشجارها وطيورها وحيواناتها الأليفة والوحشية، التي تتحرك على لوحات الطبيعة الفنية التي نشاهدها كل يوم. وكانت قلوب رجال الشعر العربي الإفريقي واعية لمعانيها، وآذانهم تفقه معاني أصواتها، وأبصارهم تكشف ما وراء صورها من أفلام إنسانية، وأنوفهم تشم منها روائح جمال الكون.

ومن هنا تتحتّم ضرورة تأثير البيئة والطبيعة في الشاعر، إذا كانت مشاعره مرهفة وعواطفه حسّاسة، لذا علّل ابن سلام الجمحي(1) لين شعر عدي بن زيد(2) بأنه كان يسكن الحيرة ومراكز الريف.(3) وهذا ما جعل أبا العتاهية(4) يوجه نقدا لابنه محمد : « *اخرج إلى الشام ! لأنك لست من شعراء العراق، أنت ثقيل الظل ، مظلم الهواء، جامد النسيم* » .(5)

ويصور الأستاذ عبد الرحيم حمزة(6)، صاحب ديوان كبير، المظاهر التي أفادتها البيئة البشرية من الطبيعة، فأسمى قصيدته بـ " العلم" الذي سخر الطبيعة لخدمة البشر، فاستفادوا من أشجارها في صنع لوازم البيوت، وسخر هواءها للاتصالات الإلكترونية : [البسيط]

76 أخشاب تؤخذ للأبواب والسكن ** وللشبابيك ، والأبواب قد نجروا
77 منام منها ، ومنها مكتب سطح ** مستخدم العقل والإحساس يشتهر
82 وناظر في فضاء الأرض طائرة ** أسماك حيتان ، أنعام هم ظهروا
89 مقاعد أريحت زربى مصففة ** مدارك نعمة بل طاول طوروا
90 دولاب نضد أحيانا مجدرة ** ثلاجة غاز شقق الوحد منحجر
109 خضت الهواء وصال العين حيث نوى ** بالسلك إن شئت دون السلك يا خبر
110 بهذه النعرة دنيا موصلة ** غرب لشرق جنوب فوقه إبر (7)

إذا كان للأخشاب الفضل الكبير للبيئة، فإن جلّ الفضل لتلك الأشجار التي زَيّنت شوارعَ البيئة، وأثّرت أوراقُها في الأمراض،وأفادت ثمارها الأجسام،لذا يصفها أحد شعراء مالي بقوله:

---

(1) – أحد النقاد القدماء صنف "طبقات فحول الشعراء"،(150–232هـ/767–836م) من أهل البصرة ومات في بغداد.

(2) – هو عدي بن الرقاع بن مالك ،معاصر لجرير، من أهل دمشق (ت 95هـ/714م) ، (الأعلام 221/4)

(3) – راجع : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، ص 172. الجمحي، طبقات الشعراء، ص 681/2.

(4) – هو إسماعيل بن القاسم (131–211هـ) شاعر مشهور في العصر العباسي، من المولدين في طبقة بشار وأبي نواس، نشأ في الكوفة وتوفي ببغداد، كان مفضلا لدى الخليفة المهدي الذي سجنه لانقطاعه عن الشعر مدة، أجاد شعر الزهد والحكمة والمدح.

(5) – راجع : إسماعيل، د.عز الدين : الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 225.

(6) – هو أحد شعراء مدينة إسيين،تخرج في مركز أغيغي في لاغوس، وسافر إلى مصر للدراسة. قصائد ديوانه بلغت 1803 قصيدة.

(7) – حمزة، عبد الرحيم : شعر مفتوح، مخطوط مكتبة الشاعر، مدينة إسيين، ولاية أويو، نيجيريا، ص 11–14.

1 تأصل في جوف الرغام عروقهـا ** تميل مع الأرياح ميلا غـصونها
2 ترى ناظريها منظر الحسن بـارزا ** بأوراقها الخضرا وثمـر تزينهـا
3 ألا فانظروا الأغصان كيف تمايلت ** فطورا لها ميل وطورا سـكونها
4 جناهـا كـذا أفياؤهـا ووقودهـا ** فوائد لا تحصى لمـن يـستبينها
5 وكم أودع الرحمان طـب عبـاده ** بحكمته فيها فجلـت شـؤونها
6 فسبحان باريها لنـا فهـي نعمـة ** منافع نجنيها وقد طاب حينهـا (1)

[الطويل]

ومن الأشجار يجرنا الحديث إلى القرى والأرياف، لأن فيها أكبر مظهر للأشجار، وأكثر البيئات ارتباطا بالطبيعة، وقد حاول بعض الشعراء تسجيل ذكرياتهم في وصف تلـك القـرى: كتائية الشيخ عباس صل السنغالي الحافلة بكثرة أسماء القرى التي طغت على معانيه الوجدانية، لكنه أودعها رموزا تاريخية. وكان أحسن براعة منه مواطنه القاضي مجخت كـل(2)، زعـيم الشعراء السنغاليين، الذي دبّج رائية في رسم الحياة البيئية بإقليم كجور في السنغال : [الوافر]

1 بـلاد الله أطيبهـا كجـور ** وأهلوهـا لهـم خـصب كثيـر
2 ليـاليهم سـرور قـد تـوالى ** ويـوم فـيهم عيـد كبيـر
3 غني ضـيفهم عـن حمـل زاد ** وعن حمل السلاح لمـن يجـور
4 جفـانهم مـلاء كـل حـين ** بمـا تهـوى ومـرجلهم يفـور
5 فعيـشهم وكسكـسهم كثيـر ** غنـيهم سـواء والفقيـر
6 ميـاههم أخـي عـذب فـرات ** وزين كـل مـا يرنـو البـصير
7 ففيهـا كـل ملبـوس ثمـين ** تقاصـر دونـه حـسنا حريـر
8 وأشـجار طـوال عاليـات ** ظـلال زانهـا ثمـر كثيـر
9 وعلـم ثـم ديـن ثـم أمـن ** وفـضل ثـم مـصباح منيـر
10 فإن كـانت لدنيـانا جنـان ** فجنتـها بلا ثنـيا كجـور (3)

وأما حيوانات البيئة فربما يعد الشيخ يعقوب دوكوري أسبق من أولى اهتمامه بتصويرها في بستانه، وإن لم يكن طويل النفس في وصفه لتلك الوحوش التي زارها في حديقة الحيوانات ببماكو؛ وربما لدوافع تعليمية تكلّف بهذه القصيدة لا لتجربة فنية، لذا لم يترجم لمعانيه النفسية، بل اقتصر على الأوصاف الظاهرة القريبة إلى أذهان التلامذة للتعريف لهم بالحيوانات: [الطويل]

(1) – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 50.

(2) – هو قاضي مملكة داميل لتجور (1835–1902م)، وأستاذ أحمد بمبا في الشعر، فقد أبدع في الوصف والحماسة، تخرج على يد والده موسى، كان ذكيا جريئا وبليغا، ظهرت هذه الصفات في شعره، الذي لما يجمع في ديوان. يعد رائد الشعر العربي في السنغال.

(3) – صامب، عامر: الأدب العربي السنغالي، ص 79/2.

1 أميــل أخـــي حبـــا إلـــى الحيـــوان ** وأرحمـــه دومـــا ولـــست أصـــيد
2 خطوط حمــار الــزرد بــيض وســود ** يفـــوق جمـــالا غيـــره ويزيـــد
3 وأعجــب منـــه جيـــد تلـــك الزرافـــة ** فسبحان باري الخلق فهــو وحيــد
4 ولست أحب الضبع، فالــضبع أحمــق ** وذو شـــره إن جـــاع تـــاه مريـــد
5 سررت بــشكل النمــر فهــو جميــل ** ومـــع ذا بنمـــر خلـــوة لا أريـــد
6 ولست بطبــع الــذئب أرضـــى فإنـــه ** إذا جـــاع مكـــار خـــدوع يكيـــد
7 وأنت رئيس الوحش يا ليث ذو القوى ** وذو السطوة العظمى مهوب شــديد
8 شغفت بطــرف الظبــي فهــو ملــيح ** وديـــع ألا طبـــع الظبـــاء حميـــد
9 وذا القرد أصـــلا أخبــث الكــل إنـــه ** لعين الورى ممسوخ ســبت عنيــد
10 يـــداعب ولـــدانا كـــإنس ويـــرقص ** فيعطـــــون مـــــأكولا فيميــــــد
11 ولـــست لخنزيـــر خبيـــث بمـــادح ** محـــرم لحـــم فهـــو حقـــا مبيـــد
12 وأكبـــرهم جـــسما وحلمـــا وقـــوة ** هو الفيل ذو الخرطوم مرعاه بيــد
13 وذا فـــرس البحـــر القبـــيح ، وإنـــه ** كبير قصير الرجــل ســبحا يجيــد
14 وذلـــك تمـــساح تحجـــر ظهـــره ** كضب كبيـــر فـــي الميـــاه مـــصيد
15 وأنت أيـــا طـــاووس حـــسنك ســـاحر ** وذيلك من أبهـــى الـــذيول جديـــد
16 وتلكم حمامـــات على الجـــو رفـــرفت ** لهن هبوط تارة وصعود [1]

أما الطيور فظهرت صورها في مطالع القصائد، التي استبدلت بالبكاء على الأطلال تغاريد الأطيار. كمطلع قصيدة المرحوم عمر ساخو، وهو يلمح إلى المغنين الغينيين: [الطويل]

1 تذكرنـي أوتـار "كنجا" و "ســنجلو" ** طيور الفلا إذ في الفـــلا أترجّـــل
2 عصافير أغصان بتغريد "سيسكو" ** وتشدو كذاك العندليب وبلبل [2]

وللحاج مختار الكبير، من طوبى بغينيا، أرجوزة في أسماء الطيور وأصنافها وفصائلها من الشعر التعليمي.[3]

وأما الذين حافظوا على مقدمات النسيب فلهم ذوق ذكر الخيول والنوق، وفي أساليبهم البيانية يكثر ذكر سباع الغاب، دون رسم الصور الشعرية من لوحات الطبيعة والبيئة.

رغم تلك النماذج الرائعة، فإنني أرى في الشعر العربي الإفريقي قصورا، لعدم التحام رجاله بمظاهر الحيوانات في أعمالهم، التي تخلو من رسم جمال الوحوش ودواجن الطيور والأنعام والزواحف والأسماك والحشرات ... الخ. وذكر أسمائهم في ثنايا الأبيات لا تكفي، فلم يحبروا قصائد فنية لتصويرها، كما تغافلوا عن استنطاق جمال الجبال والهضاب، وألوان الغاب الكثيفة، والقصور الشامخة في العواصم... كلها لم تثر مشاعرهم لغلبة ظاهرة التقليد عليهم في أغراض الشعر وأساليبه.

---

(1) – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 79–82. **تنبيه : الصحيح مهاب في بيت 7، وكسر في وزن عجز البيت رقم 10.**

(2) – ساخو، الشيخ عمر : قصيدة النصيحة والوعظ، مخطوطة من 37 بيتا في مكتبة الشاعر الخاصة، حي أنتا، كوناكري، غينيا.

(3) – ينظر: جابي،محمد الأمين:الشاعر والأديب الغيني الحاج مختار الكبير، مقالة ندوة بالجامعة الإسلامية بالنيجر، 2002م،ص 51.

المبحث الثالث : صور من القيم و التقاليد الاجتماعية

1)- من القيم الإنسانية :

المقصود من هذا الموضوع تلك الفضائل السامية، التي تتفق البشرية جمعاء على أصالة خيريتها،وتسعى إلى تحقيقها، وإن اختلفت مفاهيم الناس أو تقاليدهم في تطبيقها من بيئة لأخرى. ولكن الأديب الذي يحقق تلك في إنتاجه، هل تراه قادرا في تحقيق رغبته في الجمال الفني ؟ فأجاب على ذلك سان توماس[1] بقوله : *«إن الجمال والخير لا يمكن انفصالهما ... ولكن من الممكن التمييز بينهما ... فمن الواضح أن الجمال يقدم إلى قدرتنا على المعرفة شيئا منظما فوق الطيّب ويعلو عليه. لهذا فإن ما يكفي لأن يلبي الرغبة يسمّى طيبا، ولكنّ ذلك الذي يمتع فهمه يسمّى جميلا»* [2]

والغرض من معالجة هذا الموضوع إبراز حقيقتين : أولاهما في كشف ما في كنوز هذا الشعر من قيم إنسانية، وفضائل سامية، لإثبات غَنائه وثرائه بالموضوعات الاجتماعية المتنوعة. والثانية تكمن في محاولة إبراز مدى تأثر الشعراء بمثل هذه المعاني الاجتماعية، التي تعد أقرب إلى العقل منه إلى الوجدان.

وقد حث الخليفة عمر الفاروق على تعلّم الشعر، موجّهاً أبا موسى الأشعري بقوله: *«مر من قبلك بتعلّم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب».*[3]

ولم تغب هذه التعاليم والتوجيهات عن رجال هذا الشعر، الذين حاولوا أن يترجموا تلك الأفكار الإنسانية في أعمالهم الأدبية.

إذا كان جلّ هؤلاء الشعراء من العلماء المربّين والشيوخ الصوفية، فلا غرو إذن أن تتّسم آراؤهم الأخلاقية بالدين، لذا كثرت على أيديهم منظومات في الآداب، وفي آداب المريد خاصة، يمكن أن نقرأ كثيرا، من تلك الآداب التي لا تخلو من القيم الإنسانية، عند شعراء السنغال: كديوان "*فاكهة الطلاب*" الحاج مالك سي (ت 1922م)، وقصيدتي الشيخ أحمد بمبا (ت 1927م) "*إلهام الودود في جواب محمود، ووصية سخن بند جوب* "، وديوانه "*نهج قضاء الحاج فيما من الأدب إليه المريد يحتاج* "، وديوان الشيخ عباس صل " *كفاية الطلاب في الحث على العلم والآداب*"، وديوان "*نوادر الحكم لصاحب جوامع الكلم في وصايا المريدين وطلاب العلم*" للشيخ إبراهيم انياس، وعند غيرهم من أعلام السنغال قصائد كثيرة في الموضوع نفسه.

---

(1) – هو سان توماس من أكين (1225–1275م) فيلسوف لاهوتي كاتوليكي من إيطاليا، درس في جامعة نابولي.

(2) – نقلا عن : إسماعيل ، د. عز الدين : الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 81.

(3) – القيرواني، ابن الرشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص 4/1..

وفي غينيا اشتهر الشيخان : جرنو سعد دالين بلاميته المسماة "نصيحة الإمارة"، وعلي بوبديم بديوانه " الدرة الثمينة". وفي نيجيريا اشتهر الشيخ محمد الناصر الكَبَرى بقصائده التربوية لمريدين القادرية في "ديوانه المبارك"، وعند الشيخ أبي بكر عتيق نجد آداب التجانية للمريدين. وفي "درة الحافظين"، للشيخ محمد إسماعيل " الذكي "ـ صاحب محضر كبير في فانا بمالي ـ آداب المريد.

ولا تعدو أساليب هذه الدواوين من سمات تقريرية، بعيدة عن الذوق الفني الذي تألفه النفوس المرهفة. ومن حيث الموضوع فهي تكرار لبعض القيم الإنسانية:الالتزام بالصدق والاستقامة والأمانة والوفاء...

يوصي الشيخ أحمد بمبا الخديم مريديه بهذه النصائح : [البسيط]

1 ***عود لسانك قول الخير تحظ به ** إن اللسان لما عودت يعتاد***

2 ***في كل شيء تعاطى ما سننت له ** في الخير والشر فانظر كيف تزداد***

3 ***وامش لأجل حاجة دون اختيال ** فالاختيال جالب إلى نكال***

4 ***لا تضحكن الدهر من غير عجب ** ولا تمل للمشي من غير أرب*** (1)

ولكن تلك القيم تظهر جليّاً في المدائح النبوية والصوفية والفنية، وفي مرثياتهم تتحلى الشخصيات بتلك القيم السامية، ومواعظهم الشعرية لم تخل منها.

انظر إلى هذه الدالية من شاعر غامبي ـ بامين محمد سري جايتي(2) ـ في مدح أخيه العلامة الحاج سالم كرمبا جابي ماسنب ببعض ما كان يتحلّى به من القيم الإنسانية :[الطويل]

وحاز من العرفان ما أدهش الورى ** مع البر والإحسان للناس والأسدا

له راية الإحسان والعلم والندى ** بـ "جاقا "فاق الغير فعلا إذا عدا

ولم لا وقد أرضى أباه وأمه ** وأعمامه طفلا وكهلا فقد جدّا

وأرضى إله الناس والناس في الدنى ** فلا أن يختاره الله لا بدا (3)

وفي لامية أحد شباب نيجيريا يلبس أستاذه ثوب الحلم والإخلاص والعدل والتواضع، فما أكثر مثل هذا في شعرهم.(4) وعلى غرار هذا النمط نجد قصيدة الحاج محمد البشير تيام(5) ـ الشاعر السنغالي ـ في رثاء جيرنو علي بوبديم شيخ علماء فوتاجلون في عصره بغينيا(6) ، ولا حصر لتلك المدائح والمراثي الحافلة بمثل هذه القيم الإنسانية.

وفي وصف البلاد وأهلها من القبائل نلتقط بعض القيم التي يرسمها الشعراء، فهذا شيخ علماء غانا عمر كركي(7) يصف وصفا دقيقا لما في قبيلة داغومبا بشمال غانا من قيم إنسانية :

---

(1) – الخديم، الشيخ أحمد بمبا : نهج قضاء الحاج فيما من الأدب إليه المريد يحتاج ، ص 16.

(2) – هو ابن الشيخ الولي محمد سري (بباتو جايتي)، ولد 1951م، نشأ متعلما في المجالس التقليدية، له ديوان مخطوطة ونثر مؤلف.

(3) – جايتي، بامين محمد سري: قصيدة مدح سالم كرمبا جاب ماسنب، مخطوطة مكتبة الشاعر، بركاما، غامبيا.

(4) – راجع : إسماعيل، بقاء هاشم : القصيدة المدحية، مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة أويو، نيجيريا.

(5) – ولد سنة 1911م، وبدأ دراسته عند الشيخ أحمد مختار سندق وأكمل عند غيره، وتنقل في البلاد، وقرض شعرا كثيرا.

(6) – صالح ، محمد عمر : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي ، ص 499 .

(7) – أصله من نيجيريا (ت 1934م) وتوفي في كركي بغانا، بعد نشر العلوم الإسلامية في بلاد غانا، فعلم علماءها ووعظ عوامها.

1 أصغوا لوصف دغومبا ** تـأتيكم الأنباء
2 وفي بلاد دغومبا ** لكل داء دواء
3 أم القرى هي "ينـدي" ** وأهلهـا صلحاء
13 يعظمون الضيوف ** لأننا غرباء
15 فأهل " يندي " عدول ** رجالهم ونساء [1] [الخفيف المجزوء]

وربّما كانت الأشعار المدرسية مقام فرض على الأدباء أن ينسجوا من أفكارهم ما يمكن تعلّمه من القيم في القاعات الدراسية، لذا جاء تكلّف بعضهم بذلك لسدّ فراغ، أمثال الشاعر المالي يعقوب دوكوري في ديوانه " البستان"، وموسى باباتندي[2] من نيجيريا في ديوانه " الأناشيد المدرسية " الذي يتضمن قصيدتي " الكذب قبيح " و " أحبّ الصدق "، ومن هذه الأخيرة نسوق هذه الأبيات : [الوافر المجزوء]

1 أحب الصدق في قولي ** وفي شأني وفي فعلي
3 أنا للصدق منتصر ** لأن الصدق فوز لي
4 وفيه فلاح إخواني ** به نصحي لمن حولي
5 وإن العز في صدقي ** به أزداد في فضلي
6 ويبعد ذلة عني ** وعن علمي وعن أصلي
7 حياة الأمن في الصدق ** لذا أرجوه في قولي [3]

2- من التقاليد الاجتماعية :

إن للشعر رسالةً اجتماعيةً يقرّرها النقد الأدبي الحديث، ويؤكّدها أحد الكتاب المعاصرين بقوله: « *لا يمتّعنا تراثنا الشعري، بل هو يرينا أيضا صور الحياة عند أسلافنا وكيف كانوا يعيشون ... وهو لذلك يعد وثائق تاريخية مهمة، لما ينقل إلينا من أحوال أجدادنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية* »[4].

ولم تغب هذه الحقيقة عن هؤلاء الشعراء، وإن كانت محاولاتهم التصويرية ضيّقة الأفق، إذ لم تنقل إلينا كثيرا من التقاليد القبلية التي ما زالت حيّة في المناسبات الشعبية الإفريقية. أما تلك المناسبات ذات الصبغة الدينية فقد صوّروها، وتغنّوا بفضائلها، وبآثارها الشعبية، وأشهر هذه المناسبات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، لأنه يتاح لجلّ هذه المدائح النبوية أن

(1) – كركي، عمر أبوبكر عثمان : قبيلة دغومبا قبيلة صالحة، قصيدة مخطوطة ، غانا.
(2) – هو ابن محمد عثمان،درس في مركز ساكيتي في بنين، وتخرج في جامعة الإمام بالرياض، ثم سجل فيها للدراسات العليا.
(3) – باباتندي، موسى محمد عثمان: الأناشيد المدرسية في مزايا الحنيفية، مركز أغيغي، لاغوس، نيجيريا، لا.ط،2001م، ص 17.
(4) – ضيف، شوقي : فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، مصر، لا.ط، لا.ت، ص 9.

تحيى في أفواه المرتّلين، فكم من شيخ صوفي تظهر مكانته عند إحياء أتباعه ليالي المولد بإنشاد قصائده! وكم من شاعر رحّب بشهر الربيع الأول ؟! وإن كان وصف نشاط الناس فيه سطحيا، وتصوير حركاتهم فيه ضعيفا، سوى أن الشاعر النيجري زكريا الرباني حاول في تائيته أن يكون دقيق الوصف والتصوير لما يجري في هذه المناسبة من تقاليد الناس بمدينة " جوت مياكي"على مقربة 30 كلم من نيامي،عاصمة النيجر،عند الشيخ إبراهيم الهاشمي: [البسيط]

1	***اليوم ثاني عشر شهر بركات*** **	***شهر الرسالة إجماع لرحمات***
2	***أفراحنا فيه حالات يترجمها*** **	***مدح الكريم يشارك فيه ساداتي***
18	***بنين جاءت تشارك جوت فرحتها*** **	***بشرى لأهل بنين قوم الكرامات***
19	***نيجيريا لم تضع جهدا لنصرتنا*** **	***بشرى لنيجيريا بلد الحضارات***
20	***غانا أتت جوت كي تبدي سعادتها*** **	***بشرى لغانا ومن لبى النداءات***
21	***سنغال عزمت على إحياء حفلتنا*** **	***في جوت بشرى لأصحاب المقامات***
22	***بوركينا تعود أن يشاركنا*** **	***في فرحة العيد بشرى للرجالات***
23	***من ساحل العاج من مالي أتى قوم*** **	***يهدي التهاني نصافحهم ببهجات***
24	***بشرى لأمة دين الحق أجمعهم*** **	***ذا اليوم عيد لذي سر النبوات***
25	***إذ يلتقي فيه أحباب على علن*** **	***في حب أفضل من ينعت بصفات***
26	***الله أكبر ، كلمات نرددها*** **	***حمدا لربي ملبي كل طلبات*** [1]

لم أعثر على مثل هذا الوصف في شعر السنغاليين ، وإن لم يكن دقيقا وشاملا إلى أبعد الحدود، إذ يكتفون بذكر الفضائل لا وصف مظاهر نشاط الناس، كدالية المرحوم محمد الأمين عاجْ[2]. وقد فاق الشعب السنغالي شعوب الدول الأخرى في شدة التزامهم بهذا المولد ــ أو غامو في التعبير المحلي ــ ، لأن لكل قرية تاريخها السنوي غير شهر ربيع الأول، بل يقيم كل "مقدّم تجاني" لنفسه المناسبة في تاريخ خاص به، وأما في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول فتقام في تواون ، المركز العام للتجانية، وفي زوايا كولخ وفوتاطورو وكزامانس غير التابعة لتواون، حيث يتوجّه الأتباع إليها في قوافل من الحافلات العامة ، حتى تبدو العاصمة كمدينة ميتة.

ويعد عيدا الأضحى والفطر من أشهر مظاهر التقاليد الاجتماعية. ويأتي عيد الفطر بعد أيام ظل الناس يحيون لياليها بالصلوات والمفطرات، من الأطعمة التقليدية الخاصة بشهر رمضان، ولذا يمكن عدّ عيد الفطر أكبر مظهر لعيد الأضحى، لأن لغة الشعراء أولت اهتمامها

(1) – الرباني، زكريا محمد : نداء جوت ، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، نيامي، النيجر.

(2) – يراجع : عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 19.

بترحيب رمضان وتوديعه بخلاف ذلك لعيد الأضحى، لذا جاء وصفهم لعيد الصيام في مثل هذه الرائية، التي أبدع فيها الشاعر السنغالي محمد الأمين عاجْ الوصف : [البسيط]

*2 لقد أتى العيد، فالإفطار طاب لنا ** والابتهاج بهذا اليوم مأمور*
*3 فهب فيه جميع المؤمنين لهم ** ـ نحو المصلى ـ وجوه كلها نور*
*4 وهم جلوس سوى من يستكف بهم ** رزق المليك ، فهذا الدين منصور*
*5 جاء الإمام فصلى ركعتين بنا ** وقال وعظا ودمع البشر مسجور*
*6 كأن ذا المشهد الميمون كان لنا ** جنات عدن ودورا ملؤها حور*
*10 وكلهم يوم عيد الفطر مبتهج ** هذا هو السر في إخراجنا " مور[1]"*
*11 إن الزكاة تزكينا بأنفسنا ** والمال ـ بعد حقوق الله ـ موفور*
*12 قد زرت فيه "عليا" و"العيان" كذا الـ ** ـعباس"عم النبي و "الحاج ماجور"*
*13 همو مصابيح "اندر"[2] في الدين نيرة ** لا زال يسطع ـ في أعمالهم ـ نور[3]*

ومن تقاليد السنغاليين ، بإقليم انْدَرْ، تقديم هيئة مصنوعة من الخشب في صورة حيوان أو إنسان، يهنّئون بها أحد أعيان المجتمع، تعظيماً له بهذه الهدية المسماة "فنالا"، وبالمقابل فإن المهدي إليه يكافئهم ببذل عطاء كريم لهم، ومن العار رفضها أو الإمساك عن العطاء، لأنها عادة شعبية عظيمة. فهذا ابن المقداد (الابن) يعاتب بهذه القطعة الشعرية ابن عمه الحاج بكاي سيك، الذي أعرض لزهده عن المهديين له "فنالا" :

*رد هذا الفتى " فنالا " فنالا ** كل عار إذ رد ذاك " الفنالا "*
*ترك العرض نهب كل لسان ** وانثنى نحو ماله ثم مالا*
*فالفتى من يصون عرضا بمال ** ما الفتى من يصون بالعرض مالا [4]*

وهناك مناسبات دينية خاصة ببعض الطوائف، فهي أكبر عندها من تلك التقاليد السابق ذكرها، ومن تلك التقاليد مناسبة " ماغال " للطائفة المريدية بالسنغال، وهي إحياء لذكرى اليوم الذي سينفى مؤسسها ، الشيخ أحمد بمبا ، إلى جزيرة بغابون. ولكنني ما وجدت في إنتاج شعرائهم وصفا لهذه المناسبة، التي تعد أكبر مناسبة دينية في السنغال على الإطلاق، حيث تشهد مدينة طوبى جموعا غفيرة تبلغ ثلاثة ملايين من الزائرين.

ومن تقاليدهم الزواج، الذي لا يتمّ عندهم إلا بعد إجراءات طويلة، يتولاّها بعض الشيوخ من الطوائف المنبوذة، والتي يحتل فيها جوز الكولا ــ أو الطنبول ــ أهمية. وهذه ظاهرة شعبية عامّة بدولة هذه المنطقة الغربية، لم يستطع الإسلام طمسها من التقاليد الإفريقية.

(1) – كلمة ولفية محلية في السنغال، بمعنى زكاة الفطر.

(2) – اندر اسم محلي لمدينة سين لويس Saint-Louis " العاصمة الأولى للسنغال، ومعسكر المرابطين قديما، فهي شبه جزيرة

(3) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، ص 17.

(4)– صامب،عامر:الأدب العربي السنغالي،ص95/1.

والحقيقة أن شعراءهم لم يصفوا لنا مظاهر هذه التقاليد، وإن كانت كلمة الزواج قد تكررت في ثنايا أبياتهم، أما كلمة " الطنبول" (رمز الزواج الشعبي) فأشار إليها الشاعر المالي أبو رضوان:

1 *غريـب الاشـتراك والفـصال ** لهـذا الحـب ذي ثقـل عجيـب*
2 *بطنـبول دقيـق للوفـاق ** أتت به من مرابـط غريـب*[(1)]

ومن تقاليدهم الزواج من " بنت الخال " ، بخلاف بنت العم عند العرب، ويعد الشاعر السنغالي الشيخ محمد جولد زعيم شعراء المنطقة في تناوله هذا الموضوع في أربع قصائد من شعره ، فجاء في مطلع لاميته مخاطِباً خاله أن يزوجه إحدى بنتيه "بركة أو حواء" : [الوافر]

1 *حوت قلبي المتيم بنـت خـالي ** أشـبه مرطهـا ببـرود خـال*
2 *حوا أحوى هـواي ولا كحـوّا ** خذولـة ربـرب بقفـا الرمـال*
3 *أحـن لحبهـا كحنـين بكـر ** مـصقلة تـزمم للرحـال*
4 *سـأخطبها كمجنـون ليلـى ** وغـيلان لميـة فـي الأيـال*
5 *إخـال بأن خـالي لا يبالي ** خيالي في المقال وفي الفعال*[(2)]

ويذكّر خاله بقرابته التي تفرض عليه أن ينقاد لطلبه، وذلك في هذه الهمزية التي نسوق منها خواتمها : [الوافر]

12 *يقربني لـك الـرحم المرجـى ** ومعرفـة التجـاور والـولاء*
13 *إذا الخطـاب ازدحمـوا وزاروا ** وضـاق علـى كفيـتهم إنـاء*
14 *هناك أغوص دستك بالقوافي ** إذا الخطاب أعوزها الهجاء*[(3)]

وعند شعراء نيجيريا يعثر الباحث على قصائد التهاني في حفلات الزفاف، ولكـن جلهـا فـي التوجيهات والأدعية للعروسين، بدلا من أن تكون تصويرا للمناسبة، ووصفا للمشاركين علـى عـادة البروفيسور عبد الباقي أغاكا[(4)] ، الذي يهنئ العريس سليمان يوم زفافه بالآنسة "مدينة" بحارة أكلمبـا، في مدينة إلورن : [الوافر]

1 *تحايانـا تهـان لا نغـالي ** تـزف إلـى أكالمبـا حـلالا*
2 *تسير ريـاح نـشركم نـسيما ** ويضحي زهـر عرسـكم ظـلالا*
5 *وجوه صـفوها ذهـب أصـيل ** يـشاركن الوليمـة والفعـالا*
6 *يواسطهن عقـد فـي الجمـال ** يفـوق سـياؤها بـدرا جمـالا*
7 *" مدينة " بنت أحمد شيخ إيفو ** ويا عذراء تحسبها غزالا*[(5)]

---

(1) – تيام، أبو رضوان المدني : الحب الغريب في الانفصال ، قصيدة مخطوطة، مدينة سيقو، مالي، بتاريخ 1989م.
(2) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 323/1.
(3) – راجع: المصدر نفسه ، ص 324/1. وصالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 380.
(4) – أحد أساتذة البلاغة في جامعة صكتو، بنيجيريا، تخرج في ليبيا، له قصائد رائعة ، إلا أنه انقطع عن قول الشعر بعد شبابه.
(5) – أغاكا، الأستاذ الدكتور عبد الباقي شعيب : تهنئة السيد سليمان، قصيدة مخطوطة عن الشاعر، صكتو، نيجيريا.

ومراسيم الجنازة من التقاليد الإفريقية العريقة، وطويلة المدى من ثلاثة أيام إلى أربعين، وما زال كثير من المسلمين يحيون ذكرى " الجنازة " في اليوم السابع والأربعين، والسنوي عند الآخرين. ولكنني افتقرت إلى وجود آثارها في أشعارهم. أضف إلى ذلك زيـاراتهم للقبـور، وخاصة ضرائح الأولياء والشيوخ في مالي ونيجيريا وغينيا والسنغال خاصة، لذا يغري جيرنو سعد دالين ذويه بزيارة ضريحة الشيخ سالم الأكبر[1] ، بمدينة طوبى في فوتاجلون : [الوافر]

44 فزوروا قبره فيهـا ورومـوا ** بما شـئتم تنـالوا لـيس شـرا

45 لـه غفـر الإلـه لقـول طـه ** بنو التسعين نالوا منه غفرا [2]

ربما تشهد مناسبات ذكرى الجنازة ظاهرة إسراف وتبذير ما لا تشهدها مناسبات الزفاف مثلا، لذا يندّد بها النيجيري محمود بن الحسن، لأنها مبتدعة من بعض علماء السوء للتكـسب، وأسموها مناسبة (صدقة الميت)، في أيام الثالث والسابع والأربعين من وفاته : [الوافر]

تصدق يا أخـي للميـت سـرا ** بمالـك إن تكـن نفعـا تـروم

ولا تقرب إذا لم يـوص ميـت ** مـن المتـروك شـيئا فـالعليم

نهى عن أكل أمـوال اليتـامى ** وفي هـذا أتـى زجـر عظـيم

تصدق يا أخـي فـي أي يـوم ** تريـد تـصدقا دع مـن يهـيم

يؤقتها لثالث يوم موت ** وسابعه وذا غلط ذميم [3]

ومن تقاليدهم الاجتماعية ظاهرة الانحناء عند تبادل التحيات، وذلك عند قبيلـة يوربـا خاصة في نيجيريا وبنين، وأهل الشمال بغانا، رجالا ونساء. وهي ظاهرة مخصوصة بالنـساء في مالي وشرق ساحل العاج والسنغال.

وفي همزية الشيخ آدم عبد الله الإلوري ما يكفي لتصوير مثل هذه التقاليد عنـد شـعبه اليورباوي، وهو انتقاد لهذه المظاهر التي لم يستطع هو نفسه أن يحاربها بين ذويه : [الرمل]

1 ليت قومي يجهلوا معنى الحياء ** وأسـاؤوا فيـه حتمـا وابتـداء

2 هكـذا قـد جهلـوا التواضـعا ** وبنـوه فـي سـجود وانحنـاء

4 خلـع نعـل جعلـوه واجبـا ** لهـم قبـل وصـول للفنـاء

5 وانبطاح لـه عنـد السـلام ** وبروك لهـم عنـد اللقـاء [4]

تلك أهم التقاليد والقيم التي اكتفينا بتناولها، عند بعض هؤلاء الشعراء، إيجازا غير مخلّ.

---

(1) – شيخ علماء جانكاكي(1722–1836)، بمدينة طوبى التي أسسها، وهي أقدم من مدن "طوبى" في مالي وساحل العاج والسنغال. وقد تخرج على يده علماء أجلاء، وأبناؤه وأحفاده من كبار الشعراء في غينيا، وكان عالما متفننا في البيان وعلوم الأسرار والحروف.

(2) – دالين، جيرنو سعد : رثاء شيخ الشيوخ سالم، قصيدة مخطوطة بمكتبات فوتاجالون، غينيا.

(3) – أبوبكر، الدكتور علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 310.

(4) – الإلوري، الشيخ آدم عبد الله : موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لا.ط، 1965، ص 29.

المبحث الرابع : مواقف في ظواهر اجتماعية

إذا كانت براعة الشاعر دالة على أصالته، التي تنبع من رؤيته الخاصة لفهم التجربة الشعرية التي مر بها، فإن إنتاجه الأدبي تعبير عاطفي عن هذه التجربة، ولا تثبت أصالته إذا لم يضف على هذا العمل طابع فكري، تظهر فيه شخصيته، بكل ما تحمل هذه الكلمة من أحوال الإنسان. وإذا ما فقد الشاعر هذه الأصالة فإن أعماله تكون معارة من غيره، مصبوغة بمشاعر الآخرين، تقليدية عمياء بآراء سابقيه.

لذا أشار بعض النقاد إلى أن الشعر قد يأتي أحيانا مزيجا من الفكر والوجدان[1] ، ويؤكده المازني بقوله : « *ولا غنى للشعر عن الفكر... ولكن سبيل الشاعر ألا يعنى بالفكر ذاته ... ، بل من أجل الإحساس الذي فيه أو العاطفة التي أثارته ، فربما كان الفكر أصلا فروعه الإحساس* [2]».

وهل كان شعراء المنطقة يتخذون مواقف فكرية في تجاربهم الشعرية ؟!

وهل عالجت أعمالهم قضايا من الظواهر الاجتماعية ذات ارتباط بالمجتمع الإفريقي؟

وهل كانت مواقفهم ذات أبعاد تتخطّى حدود المنطقة إلى قضايا إنسانية عالمية ؟

هذه بعض التساؤلات التي قد يحتاج إليها من يشغف بمعرفة كنوز هذا التراث الشعري، واتجاهات شعرائه، وأهم القضايا الاجتماعية التي طرحت بينهم، وحصائد فكرية لآرائهم التي يمكن التقاطها في ثنايا الأبيات الشعرية.

1)- ظاهرة الانحلال الخلقي :

إن أكبر ظاهرة شدّت انتباهَ الشعراء إليها، تتمثل في هذه الانحرافات السلوكية، من الانحلال الخلقي، التي توغلت في المجتمعات الإفريقية جراء تيارات الثقافة الغربية : كشيوع أنواع القِمار والميسر، وانتشار التدخين، وتعاطي الكحول والمخدرات، ... وما إلى ذلك مما طرأت على تقاليد المجتمع الإفريقي، وهذا ما يشير إليه أحد علماء بنين ، مالم سليمان داود ، من جوغو العريقة في الدعوة الإسلامية : [الخفيف المجزوء]

13 ***استباحوا الجرائم ** كالمياسر والربا***

14 ***ثم غليون والحشيش ** يورث الكل ناقبا***

15 ***والدخان ووسكه ** والنبيذ مقطبا***

16 ***ثم إحياء ملعب ** بالمعازف والربا***

---

[1] – راجع : موافي، عثمان وآخر: دراسات في النقد العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر ، لا.ط، لا.ت، 47.

[2] – المصدر نفسه ، ص 48.

17 والـــدفوف وهيلكـــون ** خليلـــــي فاعجبـــا
19 الزنــــيم اللقيطـــة ** كـالشـريف يرجـبا [1]

ثم يأتي جاره من غانا ليصول على شباب المجتمع متشددا فــي لهجتــه بإنكــار هــذه الظواهر، شباب وقعت على قلوبهم غشاوة من الغزو الثقافي الغربي، وذلك في قصيدة رائيــة تفوح منها روائح الروعة من قريحة الحاج محمد الأمين بمبا الفرضي : [الطويل]

1 ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ** رأيت أمورا في زمــان لنــا تتــرى
11 فهذا عجيــب فـــي الزمــان لمبــصر ** فكيف بمن يأتون من بعــدهم دهــرا
29 فمطلـــبهم مـــال وإن كـــان ســحتة ** فـــدنياهم قـــادتهم للـــردى قهـــرا
30 وصـــار الزنـــا زيـــا لـــديهم كأنـــه ** حلال فمن لم يستحل الزنـــا يـــزرى
73 رأيت أســـاتيذ المـــدارس قـــد طغـــوا ** بتعليم رقصا بـــدل تعلـــيمهم خيـــرا
80 بنـــاتهم دومـــا مثيـــرات شــــهوة ** فأمرهم هـــذا حـــوى العـــار والعـــرا
81 تـــراهن دومـــا كاشـــفات رؤوســـهن ** فهل ذا هو الشرع الذي يرفض الشرا
82 ومن قد كست منهن ظن كـــأن كـــست ** ولكنها في العاريـــات التـــي تـــدرى
83 تـــراهن فــــي ثـــوب رقيـــق محـــدد ** قصير فمن يكساه في حكم من يعرى
99 فها هـــي ذا قد ترقص الرقـــص كلـــه ** تحرك ثدييها كذا العنق والدبرا [2]

لطول القصيدة، في 158 بيتا، جاءت موضوعاته متنوعة أثرت في ترتيب أفكار الــشاعر، إذ جاء منها الوعظ بالاستتاب، وترهيب علماء السوء بالنار، وتذكير المنحرفين بالقدوة الحسنة من النبي ﷺ وصحابته الأبرار، وإن كان لم يركّز على انحراف الفتية، فإنه صوّر موقفه ممّا وقعت فيه بنات العصر، ليشاطر غيره من شعراء المنطقة، أمثال محمد الأمين عاجْ السنغالي الــذي أسمى إحدى قصائد ديوانه بــ "*بنت الزمان* " : [البسيط]

1 بنت الزمان جلبت العار للعـــين ** لمـــا خرجـــت علـــى التقليـــد والـــدين
2 هتكت سترك في ثوب خرجت به ** عريانة الصدر والساقين قـــل "مينـــي" [3]
3 غدوت في ذلك الفستان كاشـــفة ** مـــا كـــان مختبئـــا مـــن غيـــر تخمـــين
5 فتاة يومي غدت ولا احتشام بها ** ولا التعفـــف عـــن شـــرب وتـــدخين
8 تبدي مفاتنهـــا للنـــاس مغريـــة ** حمقى الخنافس والمعـــدود فـــي الـــدون
11 لها شقيق ضعيف لا يحاســـبها ** بـــل إنهـــا منـــه تلقـــى كـــل تمـــرين
12 والخال والعم خافا من وقاحتهـــا ** وفضلا الـــصمت عـــن بنـــت المـــساكين

(1) – ميسونا، الحاج سليمان محمد داود : قصيدة مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة جوغو، بنين.

(2) – الفرضي، محمد الأمين يعقوب بمبا : رائية الشبان ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، مدينة إجورا ، غانا.

(3) – تعريب كلمة " Mini-jupe " الفرنسية بمعنى التنورة، وهو ما تلبسه البنات من الخصر إلى ما قبل الركبتين.

*13 تعينها عمة ــ في اسر ــ فاسقة ** تقول : لا تلبسي هذا ، خذي " الميني"*
*14 و"بنطلونك " عندي إن أردت فذا ** لبس الزمان ومختار العناوين*
*15 في كل يوم لها حفل ستشهده ** والليل للرقص دوما دون تعيين*
*20 هذا تحضرهم يا صاح ما أخذوا ** في " الغرب" إلا قشورا دون المجانين*
*21 واللب يكمن في علم وتقنية ** وحسن ضبط وتنظيم وتزيين* [1]

يتسع موقفه إلى تحميل جميع أعضاء الأسرة مسؤولية هذا الانحراف. وفي هذا التنديد يرى أن بنات العصر لم يحسنّ الاستقاء من الثقافة الغربية، فظننّ أن التحضّر يكمن في هذا القشور الذي يضيّع التقاليد ويقضي على الدين، بإهمال كنوز ما عند الغرب من علم وتنظيم. وقد جاءت طويلة عبد الوهاب عبد السلام[2]، التي عنونها بـ "***أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي***"، لتصوير هذه التيارات الغربية التي قلبت "المجتمع الإفريقي" رأسا على عقب، فأضحى كأنه دهر المرجفين بما جرت على البنات من مخزيات المكارم.[3]

وقد نصّت بعض الأبيات الشعرية على انحرافات العلماء، ظاهرة تزيد الطين بلة، إذا ما أصبح أطبّاء القلوب في حالات يرثى لها من الأمراض الروحية، وهذا ما جرح مشاعر أحد علماء شمال غانا، وهو الشيخ إبراهيم غشيغ[4]، فرفع صارم التوبيخ على انحرافاتهم، وكان أولى بهم لو أبلوا بلاءهم في محاربة هذه الأمراض الاجتماعية : [متفعلن فعولن فعولن]

*8 يختلطون بالمسلمين ** لكي ينالوا صيد العباد*
*9 ويحجون في كل عام ** لنيل عزة عند العباد*
*11 ويقرؤون لا للثواب ** لكن لجلب جب العباد*
*13 ويفخرون بالعلم جهلا ** طلب الإزالة دين العباد*
*14 ويعظمون بالناس طورا ** بطيب لفظ مثل شهاد*
*15 لا يعلمون علما بحق ** بل بلسان لا بالفؤاد*
*16 ويأكلون مال الحرام ** غصبا وغدرا مثل الجراد*
*17 وكل ذلك رياء القوم ** ونيل قصد عند العباد* [5]

هكذا حاول الكثيرون إبراز النقاط السوداء من هذا المجتمع الإفريقي، الذي وقع ضحية الغزو الفكري الغربي، رغم وجود المحافظين على الدين والتقاليد الحسنة من رجال الخير.

---

(1) – عاج ، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 22.
(2) – أحد الشباب الشعراء في لاغوس، خريج مدرسة عباد الله، له أسلوب سلس في الشعر الوجداني والتعليمي، منشوراته كثيرة.
(3) – راجع : الإباجوي ، عبد الوهاب عبد السلام : أفاعي الغرب ..، دار المنهل ، الطبعة الأولى ، 1423هـ/ 2002م، ص 12.
(4) – توفي سنة 1998م، بعد أن خلف شعرا كثيرا لم يخل من أخطاء نحوية وأوزان مكسرة، من شيوخه علي بروا، أحمد دمغر.
(5) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : قصيدة مخطوطة بمكتبته الخاصة، مدينة تمالي بشمال غانا.

2)- ظاهرة شيوع الفقر :

ربما تعدّ هذه الظاهرة تعليلا لما تفشّى بين الناس من انحرافات خلقية، كما يظهر ذلك في مواقف بعض الشعراء ، الذين يشيرون ببنانهم إلى تقلبات اجتماعية حتى أصبح الفقر أكبر عار على المرء ، يفقد في ظلّه شرفه ودينه وعقله وعلمه، فإذا قرأنا شيئا من رائية الشيخ إبـــراهيم غشيغ الغاني ــ بعنوان " إعاذة من لظى الفقر" ــ نجد ما يلفت أنظارنا إلى كثير من آثار الفقر السلبية، وجاءت القصيدة في الوافر مع عيوب كثيرة في أوزانها الشعرية : [مجزوء الوافر]

9 فـــإن الفقـــر كـــالجرب ** ســـريع العـــد للبـــشر
11 له أضـــرار لا تحـــصى ** يعيـــد المـــرء ذا طمـــر
12 ويجعل مـــن لـــه جـــاه ** يطـــرده علـــى أمـــر
13 ويجعل مـــن لـــه عقـــل ** يطـــرده عنـــد مـــؤتمر
14 يفـــرق ولـــد مـــن أب ** بـــلا ســـبب ولا عـــذر
22 كـــذا إن كنـــت ذا علـــم ** وقـــد مزجـــت بـــالفقر
23 فلا أحد من الناس ** يريد العلم فاعتبر [1]

وفي هذه الركاكة من التعبير التقريري تظهر صورة أخرى من أنماط أساليب الشعراء فـــي المنطقـــة. وحسبنا أنه حاول أن يرسم ما وجد في مجتمعه من آثار هذا الفقر الذي عاش فيه. لذا فإنه ينتقد هـــؤلاء الأغنياء في إمساك أيديهم عن الزكاة في لامية له من 65 بيتا.[2]وهذا التجاهل عن واجباتهم الدينية يجر على بعضهم نقمة الله تعالى فيسلط الله عليهم الفقر بعد طول ثراء، وهذا ما علل به الشاب أبو رضوان ذوبان ثراء أحد أغنيائهم في مدينة سيقو بمالي في بائية له.[3] وفي سيكاسو جنوب سيقو نجـــد الـــشيخ يعقوب دوكوري يعدد لنا هذه الواجبات،التي تخلى عنها الأغنياء، فانتشر عدوى الفقر بين الناس:

2 يـــا ذوي الأمـــوال جـــودوا ** لليتـــــامى والفقيـــــر
3 إرحمـــــوا أرملـــــة مـــــع ** طفلها العـــاني الـــصغير
4 إمـــــسحوا رأس اليتـــــيم ** قـــــابلوه بالـــــسرور
8 فـــي ســـبيل الله قومـــوا ** أنفقـــوا فكـــوا الأســـير
9 واذكروا المرضـــى وعـــودو ** هم وجـــودوا للـــضرير
10 لا تنـــاموا الليـــل والجـــا ** ر بجـــــوع وكـــــدور
11 ســـاعدوا الجـــار الفقيـــر ** حقـــــه حـــــق كبيـــــر
12 بـــادروا بالصـــدقـات ** بقليـل أو كثـير [4] [الرمل المجزوء]

---

(1) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : ديوان شعر، مخطوط مكتبة الشاعر، تمالي، غانا، ص 16-17.

(2) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : قبل النزول لدار حبك فاسأل ، قصيدة مخطوطة، تمالي ، غانا.

(3) – تيام، المدني أبو رضوان : الفقير بعد التمول، قصيدة مخطوطة، سيقو، مالي.

(4) – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 53.

وفي هذه الدعوة حاول الشاعر أن يعدّد لنا أكثر الناس فاقة، والحاجة ماسّة إلى جــود الأغنيــاء، الذين قد أطبق البخل قلوبهم على الجفوة، لذا عيّرهم كثير من الشعراء بهذا الــداء الاجتمــاعي[1]، وإن كان مثل هذا الهجاء لا يصل إلى آذانهم، إلا أنه رسم فنيّ لما في لوحة المجتمع الإفريقي مــن ألــوان حمراء مؤلمة وسوداء مخزية.

وأمام مثل هذه الفاقة، والحاجة ملحة، فإن البحث عن المال يكون في طرق ملتوية، لأن سد ثغرات الفقر أصبح واجبا اجتماعيا، بل ضرورة حتمية لمن يريد أن يعيش، فنتج من اللف والدوران وراء المال كثير من الظواهر الاجتماعية، تعد أمراضا بيئية مخزية : ختم المستعربين القرآن الكريم لقضاء حوائج الكفار والساسة غير المسلمين[2] ، تفضيل الأغنياء في الزواج على الفقراء كما صوّر ذلك محمد الأمين عاجْ السنغالي في قصيدته " البضاعة "[3] ، وعدوى الرشوة في القطاعات الحكومية كما صورها لامين ديانغ السنغالي[4] في رائيته الرائعة التي أسماها بــ " كن مخلصا مع السنغال"[5]، وفي الحين تظهر عناوين " الغش والرشوة خطر" لدى نيجيري[6] و" شيوع الزنى" عند سنغالي[7]. وإن كانت ظاهرة البغاء قليل البروز في قصائدهم رغم تكسب نساء أشانتي في غانا ونساء إيبو في نيجيريا بها. حتى أدى التكسّب الحرام ببعض العلماء أن يزوّروا المنح الدراسية للجامعات العربية كما يصوره الرصافي النيجيري[8]، وأن يطلبوا من الهيئات الخيرية الإسلامية لبناء المدارس والجوامع فإذا بالمال يصرف في اقتناء الديار للكراء، كما جاء تصوير أحدهم في نونية محمد مصطفى آن[9]: [البسيط]

2 قالوا بنــى قــصر لكثــرة ثــروة ** من غشّــه وأشــاد فــي ذاك البنا

4 والعرب قد دفعـت إليــه معونــة ** لثقافــة تعــزى لهــا لا مــا عنــى

5 أخبــث بــه وبــسعيه وبفعلــه ** ولقــد أبتــه أرضــه وأتــى هنــا

6 كم جاب بــين مكاتــب ومتــاجر ** يبغي الفلــوس بخفيــة لــن تعلنــا

7 يريد منــا العــار وهــو حليفــه ** وكم ادعــى ببنــاء فــصل عنــدنا

8 كذابا بــه وبجهلــه أهــدافــنا ** أهدافنــا تثقيــف أقــوام لنا[10]

وقل مثلها في استغلال الشيوخ للشعب، كما صوّرها الأديب أحمد جي[11] في همزيته، ونونيته

---

(1) – راجع : الرصافي ، معروف مصطفى أحمد : مائة بيت ونيف، ورقة منشورة في نيجيريا، لا.ط، لا.ت، ص 4.

(2) – راجع : فازازي، أحمد فوزي هادي : المختارات من الأغراض الشعرية العربية لعلماء مدينة إيادن، رسالة الماجستير، شعبة اللغة العربية في قسم الأديان، بكلية الآداب، جامعة إلورن، نجيريا، أغسطس 1998م، ص 79. وفيه قصيدة الشيخ أحمد الرفاعي.

(3) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 31.

(4) – ولد عام 1965م بدكار،وتخرج في الأزهر،وسجل في الدراسات العليا،نشر شعره في بعض المجلات بالقاهرة،له ديوان مطبوع.

(5) – راجع : ديانغ، لامين : ديوان الشباب، القاهرة ، لا.ط، 1992م، ص 24-25.

(6) – ينظر : إيليينكي، أبو أحمد عبد الواسع مدثر: الغش والرشوة خطر، قصيدة مخطوطة، إسيين ، نيجيريا.

(7) – راجع مثلا خماسية في : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، لوغا ، السنغال، ص 83.

(8) – راجع : الرصافي ، معروف مصطفى أحمد : مائة بيت ونيف، ورقة منشورة في نيجيريا، لا.ط، لا.ت، ص 6.

(9) – ولد سنة 1924م في كجلن بفوتاطور في السنغال، سافر إلى مكة للحج والدراسة، له شعر غير قليل، وآراء إصلاحية في الدعوة

(10) – صامب، عامر: الأدب العربي السنغالي ، ص 205/1.

(11) – هو شاعر موهوب ومجدد بمدينة كولخ في السنغال، معارض للتصوف رغم صداقته مع كثير منهم، له أكثر من 4 دواوين.

التي نسوق منها هذه الانتقادات الجريئة التي تصور مدى تفشي الجهل في التصوف لدى الشعب السنغالي : [البسيط]

1 *هل أنت غاد إلــى زرع البــساتين ** أم رائح أنت من سوق المجــانين*
2 *أم أنت تهــتم بــالأحزاب محتفيــا ** بساسة ـ في فساد ـ كالشياطين*
3 *إنا لنشكو من أحوال هنا شــغلت ** كل الجماهير عن علم وعن ديــن*
4 *إن البــساتين للأشــياخ زاخــرة ** بكل وغد بليــد الــنفس مغبــون*
5 *في كل يوم بلاغات الإذاعــة فــي ** كل الجهــات بهــزات وتــرنين*
6 *إن عينوا اليوم هب الحشد مزدحم ** نحو البساتين جري الماء للطــين*
7 *لا علم ،لا دين ، لا إصلاح يجمعهــم ** سوى محبــة أشــياخ مــساكين*
14 *ويحسبون هدايا الشيخ فديتهم ** من كل نار وتعذيب وتسجين* (1)

3)- ظاهرة تعاطي المنبهات والمنشطات :

وقد نتج من ظاهرة الفقر والبطالة فراغ، احتاج ذوو الفاقة إلى زجّه بكل مــا تــسلو بــه النفوس، وخاصة تلك المنبهات والمنشطات التي تذهل العقل عن الهموم، وتسطو على مــشاعر الغموم فتسلو عنها النفوس. وأول خطوات الشبان في هذا المضمار يطأ على تعاطي الــدخان، ظاهرة يراها الغلمان تحضرا، وعليها يحسد الريفيون المدنيين ، فكثر حتى انتشر عدواها إلــى أولاد دون عشرة سنوات من أعمارهم ، ولا يستطيع الهرم الخَرِف التخلي عنها، لذا لم يغــب عن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا نتاجهم رسالة اجتماعية، أمثال الشيخ محمد المنتقى(2) من غانا، الذي قفّى أبياته بكلمة " الدخان " إيحاء لما في عاطفته من كره كبير للسجائر: [الوافر]

1 *إيــاكم أيهــا الإخــوان طــرا ** بتــرك مــا يقــال لــه الــدخان*
12 *ثــلاث مــصائب مترادفــات ** على من كان يــشرب ذا دخــان*
13 *ذنوبا ثــم فقــرا ثــم مرضــا ** على من صــاب يلــزم بالــدخان*
14 *تحــرق قلبــك بالنــار دأبــا ** حتى صارت سوادا مــن دخــان*
16 *وكيف تشتري داء عضالاً ** بمالك يا أخي تب من دخان* (3)

إذا تلطف هذا في بيان موقفه بالنصيحة الأخوية، فإن الشيخ أبا بكر عتيق النيجيري شديد اللهجة في التصريح بتحريم الدخان، أو التبغة Tabac كما يسميه ، في أسلوب احتجاج لم يترك

---

(1) – جي، الشيخ أحمد : قصيدة مخطوطة ، كولخ، السنغال.

(2) – أحد علماء مدينة تمالي في شمال غانا، له شعر قليل، كما له تلامذة تخرجوا على يديه.

(3) – المنتقى ، الشيخ محمد : نصيحة الإخوان في الزجر عن شرب الدخان ، قصيدة مخطوطة، تمالي ، غانا.

لخصمه سندا يعتد به، جاءت أبياته بيانا شافيا : [الطويل]

7 ***يقولون لا نص يحرمهـــا لنـــا ** فو الله قد قـــالوا بـــأعظم فريـــة***

8 ***فكيف وأهل العلم قالوا بمنعهـــا ** كما ذكروه فـــي فنـــون الأدلـــة***

9 ***ومن قال إنها حلال فقل له ** فو الله قد أتيت يا ذا بكذبة*** [1]

ولم تختلف نونية أحد شعراء صحراء مالي في ذمه للدخان[2]، ولكن الجدير بالـــذكر أن هنـــاك دخانا تقليديا في إفريقيا، كان يتعاطاه الريفيون، وما زال وضع دقيق بعض العشب في أفواههم أو أنوفهم كالمنشطات شائعا، لم يظهر شيوعه في الشعر، شيوع الحديث عن الشاي ــ أو الأتاي ــ لدى بعض الشعراء ، أمثال الشاعر الصحراوي محمود بن محمد عبد الله[3] الذي دبج قطعة شعرية وصفه على نهج الخمريات، بل هو خمر الصحراء، لما له من منادمة : [الطويل]

1 ***خليلي ما في القلب من لوعة الجـــوى ** يداوى برشف م الأتاي المنعنـــع***[4]

2 ***فإتنـــــأ عنـــــه حقبـــــة لا تمـــصه ** فما قيل لم تسمع وما قلت لـــم تـــع***

3 ***لــــنعم الفتـــــى يعتـــــاده ويديمــــــه ** لــضيف أتـــاه أو لقـــصد التمتـــع***

4 ***لــــه آلـــــه كالبـــدر عنـــد اطلاعـــه ** وبرق الدجى كالفجر عنـــد التلمـــع***

5 ***فـــإن خـــامرت قلـــب الكئيـــب كآبـــة ** وناجـــاه يومـــا آذنـــت بالتقـــشع***

6 ***تسل به عما تقاسي فإنـــه ** لسلوة مكروب الفؤاد المـــروع*** [5]

على رغم من إدمان سكان الصحراء على شرب الشاي، حتى أصبح محور الاجتماعات في النوادي والجلسات، وأصبح الرجل لا تجري دماؤه في شرايينه إلا برشـــفات الـــشاي، وإلا فيصاب بصداع وشلل في جسمه، ربما هذا ما جعل صوتا ضئيلا يرتفع بدوي في نونية رائعة، يلقيها محمد أيوب[6] في ذم الشاي، ردا جميلا على نظيره أبي بكر بن حمادى : [البسيط]

3 ***وقل لمن ظل في الأتـــاي معترضـــا ** يـــرى بمـــشربه جـــودا وإحـــسانا***

4 ***فمن يقول إنها في الشاه مـــصلحة ** للعــــالمين ونفـــــع قــــال بهتانــــا***

5 ***فليس يروي ولا يغنيك مـــن شـــبع ** بل قد تصير بـــشرب الكـــأس جيعانـــا***

7 ***نعـــم فـــإن حبانـــا الـــشاه جـــائزة ** لكن حرمته قد جاءت في النص أفنانـــا***

11 ***أو لم يكن مسكرا حـــسا فـــإن بـــه ** معنـــى يبـــين كأنـــه الـــشاه فتانـــا***

12 ***إذ يشتري بكنوز دون منفعـــه ** فـــي كل يـــوم ولا يسقيك ظمانا*** [7]

---

(1) – عمر، محمد الأمين : الشيخ أبو بكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، كانو، نيجيريا، لا.ط، لا.ت، ص 53.

(2) – مجهول : التباكة، قصيدة مخطوطة بمكتبة مركز أحمد بابا بتنبكت، مالي، رقم التصنيف 3018.

(3) – لم نعرف عنه سوى تصنيفه بين شعراء الصحراء من الطوارق، كما أنه من الذين لم نجد من شعرهم إلا قليلا.

(4) – حذفت نون "من " للضرورة الشعرية، وكلمة " المنعنع" تعني ذلك العشب "نانا" الذي يوضع في الشاي لتطييب طعمه.

(5) – درامي، قاضي : صحراء جمهورية مالي وشعرها العربي، مخطوط مكتبة المؤلف، بماكو، مالي، ص 200.

(6) – أحد شعراء الصحراء، لم نقف على ترجمة حياته التفصيلية في المصادر، إلا أن قاضي درامي أشار إليه في كتابه المخطوط.

(7) – أيوب، محمد : ذم الأتاي، قصيدة مخطوطة بمكتبة مركز أحمد بابا في تنبكت، مالي، رقم التصنيف 2267.

إذا كان هذا موقفه من الشاي، فماذا عسى أن يقول في القهوة والخمر؟! فالحديث عن الأول قليل، لأن الشاي قد طغى على القهوة عند الكثيرين ، وإن كان قليلا من الناس من يهتم بها، أمثال الشيخ أحمد التجاني سي الذي يتبرأ ممن يعيب شرب القهوة في هذا البيت اليتيم :

قهوة البن لا تعاب لدي ** كنت من قول عائبها بريئا (1)

وأما الخمر وأنواع الكحول التقليدية والحديثة، والتي تعاطيها يعد مفخرا لدى شباب المدن، وحتى من بعض أبناء المسلمين، وكم من حانوت تطل على شوارع المدن! وكم من سكران يتمايل في الطرقات ! وكم من مال يسرف إسرافا في الكحول في الاحتفالات. وقد أجاد الشاب النيجيري عبد الرفيع أسليجو تصويره لأحد السكارى يتبعه صبيان الشوارع، حتى إذا ما أصبح طريح الأرض متمرغا في الغبار يتكأكؤون عليه ساخرين منه، ومستهزئين به: [الرمل]

2 قد رأيت العجب من أمر فتى ** مدمن الخمر إلى حد غلا

3 قصة مما رأته أم عيـ ** ـني، فاجلس كي تعيها بالهنا

4 إذ يطوف حوله الولدان مسـ ** ـتهزئين ساخرين لا مرا

5 ينشدون يصفقون فاسمعوا ** " من الخمر شقي " هكذا

6 حالة نكراء لا أرضى بها ** للعدى فضلا لأهل الأصدقا

21 فتعاطي الخمر والمخدرا ** ت لعمري أم آثام الورى (2)

4)- مشاكل زوجية :

في المشاكل الأسرية، وتعدد الزوجات سنة المستعربين، فقد احتلت "المرأة " حيزا غير قليل في قصائدهم: فيتعوذ زعيم شعراء سيقو المعاصرين بمالي، محمد البشير جاو، من زوجة السوء التي لخص حياتها الزوجية في هذا البيت من نونيته من البسيط :

2 نهارها فتنة وليلها فتن ** شيطانة إن مسحت الجسم تضربني (3)

وعن مكر النساء وكيدهن يقول ما يلي في ميميته من الطويل :

2 طبيعتكن المكر والكيد في صحا ** بكن فإن الغدر فيكن خيم

3 فتكسرن قلب صاحب دون حيرة ** وتهجرن من هو الحبيب الحميم

4 وتكفرن إحسان الذي كان أحسنا ** إليكن ، خلقكن خلق ذميم (3)

وفي قصيدة نونية يؤيد الشيخ أحمد حيدر ما ذهب إليه معاصره الشيخ جاو، فيتحير بين طلاق وحيدته والزيادة عليها بأخرى، معاناة عاطفية تصور لنا حيرة قلوب أرباب الأسر الإفريقية:

2 وسوف أعيش مع الواحدة ** وكيف الحياة مع الجمرتين

---

(1) – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 7.

(2) – أسليجو، عبد الرفيع عبد الرحيم : كيف تسعى في جنون يا فتى !! ، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، إلورن، 2004م.

(3) – جاو، الشيخ محمد البشير : قصيدتان مخطوطتان بمكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

3 ولكــن إذا مــا تعــدت عليــا ** فــسوف أزيــد علــى الاثنتــين
4 أرانــــي أميــل إلــى الثالثــة ** عــــساها تقبلنـــي قبلتــــين
5 وتغسل عنـــي همــوم الحيــاة ** فأقــضي ليــالي فــي جنتــين[1]
[الرمل]

هذا نزر من كثرة المشاكل الزوجية التي يستحيل تسجيلها، كما لا يسع المكان الإحاطة بكل ما جمعنا من هذا الصدد، فهذا آخر يحذر من كثرة الجماع[2]، وآخر من غامبيا يحكي لنــا قصة سيطرة زوجة على بعلها.[3]ولكن المرأة تظهر محمودة في شعر الغزل والتهاني بالزفاف.

5)- ظواهر مختلفة ومتنوعة :

ولولا الخوف من الإطالة، والإطناب المسهب، لقدمنا حديثا مستفيضا عن كثيــر مــن الظواهر الاجتماعية، التي تناولها شعراء المنطقة، فما أكثرها، وأكثر بهم. لذا سنقف وقوفا غير متأن على ظواهر مختلفة، قد انفرد بها شاعرها ، أو أشار إليها في بعض أبياتها :

فهذا الشيخ أحمد جي السنغالي يبرر موقفه في تسمية أولاده بأسماء عربية، لا بأســماء محلية تقليدية، في قصيدة طويلة من واحد وستين بيتا، تضمنت فقراتها : هجوم الخصم، وبيــان دفاعه، وتبريره ، نقتطف منها ما يلي : [البسيط]

7 قال المعارض لي "استعربت" مذ زمــن ** وأنت "عربت" هذا النشء مذ حــين
14 سميت أهلك بالأسماء مــن "عــرب" ** محمــد وعلـــي مثـــل مــأمون
16 ألم يكن "كورة" أو "ذونكو" بموطننــا ** أو "سامبا" أو "دمبا" أسماء الميامين
26 فقلت: يا ذا اتق الرحمان فــي كلــم ** وجهتها لــي، فــي لــوم وتــأمين
46 أطلقت أسماء من أهــوى بقــدوتهم ** علــى معاشــر أولادي ليرضــوني
49 أما الأصالة فالإسلام أنفع لي ** منها ، وما كل أصل أهل تمتين [4]

وفي هذا البيت الأخير إشارة إلى قضية "الهوية الإفريقية" بين أصالتها التقليدية البيئيــة وبين أصالتها الروحية الإسلامية، لذا يجرنا ذلك إلى الحديث عن " العصبية أو العنصرية" التي استأصلها النبي ﷺ في دولته الإسلامية كما نجده مصورا في "الخماسيات المحمديــة" لمحمــد الأمين جابي من غينيا : [الطويل]

---

(1) – حيدر، اشيخ أحمد : خديجة شكرا ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، سيقو، مالي.
(2) – تيام، أبو رضوان المدني : الاحتذار ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، سيقو، مالي.
(3) – جايتي، بامين محمد سري : قصيدة مخطوطة، بمكتبة الشاعر، بركاما، غامبيا.
(4) – جي ، الشيخ أحمد : قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

66 ***إذا قيل من ألغى الفوارق عندما ** دعا الناس للإسلام قلت محمد ﷺ***

67 ***بنى دولة آوت نماذج لم تكـن ** تعيش معا في الحق لولا محمد ﷺ***

68 ***بلال وسلمان، صهيب وحمـزة ** عناصر شتى لمهـن محمـد ﷺ***

69 ***تحقـق فيـهم عالميـة ديننـا ** وما كان يوما عنصريا محمد ﷺ***

70 عليه من الرحمن أزكى صلاته

يليها سلام مـن إلهي موبـد (1)

لذا يُعَنْوِن أحمد بولي قصيدته بـ " *العنصرية خرافة قديمة وجديدة* "، وجاءت معانيه على غرار هذه الخماسية. ولكن المجتمع الإفريقي المحافظ على تقاليده، لم يستطع أن يتخلّى عن اشمئزازه من الفئات المنبوذة ، كقبيلتي " كوياتي وجباتي" بين قبائل ماندي، لذا يثور أبو جعفر جباتي على من يفاخرونه بعدم شرف نسبه، ويتعجّبون بترقيته إلى صفوف العلماء، على خلاف آبائه القوّالين المدّاحين، والقصيدة في " الوافر المجزوء " لم تخل أوزانه من الكسر:

2 ***يقولـون أ جابـاتي ** يؤتى دينا حتى علما***

3 ***كـأنهم شـجاعة ** نالوا أنسابهم رغما***

5 ***كفى " إنـا خلقنـاكم " ** للأكـرم وإن قزمـا***

6 ***فـلا أنـساب تنفـع ** أحدا تحمـل جرمـا***

7 ***أريحونا مـن الفخـر ** زوروا المقابر فهما***

16 ***بني "جباتي" " كوياتي" ** يحقـرونكم رجمـا***

17 ***بغيـب فريـة فـلا ** تبيعوا دركم فحما*** (2)

ومن الظواهر التي تتّسم بحياة المستعربين، علما بأنّ أكثرهم معلّمون وطلبة العلم، هي ظاهرة الغش في الامتحانات، فيحاول عثمان الكنكاوي، الأستاذ بكلية التربية في إلورن بنيجيريا، أن يحارب هذه الظاهرة بشعره في بيان تحريمه،(3) ولأحد مواطنيه بائية في تصوير ما يجري في قاعات الامتحانات من تصرفات غير لائقة كالنظرات السارقة.(4)وربما يرد سبب شيوعها في نيجيريا من إهمال الانضباط في تنظيم الامتحانات في مثل هذه الدولة ذات الكثافة السكانية.

ولا يمكن أن نختتم دون إشارة إلى ظاهرة انتشار الأمراض الفتاكة مثل الإيـدز، الـذي مازال يتشكّك البعض في وجوده، ويتجرّأ آخرون عليه في تماديهم على الفاحشة، فهـذا أبـو رضوان مدني تيام المالي يتناول الموضوع من هذا البعد الاجتماعي :

---

(1) – جابي، محمد الأمين : الخماسيات المحمدية، قصيدة مخطوطة بمكتبة المؤلف، بالجامعة الإسلامية في النيجر.

(2) – جباتي، أبو جعفر محمد : قصيدة مخطوطة، بمكتبة الشاعر، حي مصر 2، بماكو، مالي.

(3) – الكنكاوي، عثمان إدريس : محاربة الغش في الامتحان، قصيدة نونية مخطوطة، ولاية إلورن، نيجيريا.

(4) – الأويي ، عبد المؤمن أحمد التجاني: سوء التصرف وقت الامتحان طرد، قصيدة بائية مخطوطة، ولاية أويو، نيجيريا.

1 إن "سيد" يؤدي إلى عصيد ** لمصاب كأنه في انتظار[1]
2 سم سينه وياءه يأس ** وداله يدنو منك عجل دمار
3 فكيف ينجي أنا وأنت وكلا ** ألا وهو التمسك عن فجور
8 لقد قيل للصين ينكر سيدا ** فأصبحوا منه معلني أخطار
9 حتى إيران أعلنت بوجوده ** أكبر ضد أمريكا عن شعار
10 إجعل قول من يناكر سيدا ** دبر أذن فليس ذا أبصار[2]

إن الزيارات ظاهرة اجتماعية محمودة بين الأحباب، وقد تكررت زيارات البابا بولس الثاني إلى إفريقيا، وإن كان في ذلك أهداف إنسانية سامية لسيادة السلام والوفاق بين أصحاب الديانات السماوية، إلا أن بعض العلماء يتحفّظون من المكائد التي يدسّها أهل الكتاب، كالسم في العسل، لما لهم من مخططات تنصيرية محكمة وطويلة المدى وبعيدة التأثير، لذا باح الشاعر المجدد أحمد جي السنغالي بتبرمه من زيارات البابا لنيجيريا وغابون وغيرهما، في قصيدتيه الميمية والدالية، لكن الثانية أطول من الأولى وأوسع شمولا، لذا نسوق منها هذه الأبيات التي لم تخل من كسر أوزانها بسبب كثرة النسخ على أيدي أبناء الشيخ :

1 فانهض من القبر وانظر ما دهى البلدا ** عثمان دانفوجو إن الشرك قد ولدا
2 أتى لنيجيريا البابا يبشرها ** بالكاثلوكية يغوي كل من وجدا
5 هذي مظاهر إغراء وتفرقة ** للمسلمين وتنصير بها قصدا
8 وأين " أحمد بللو" في شهامته ** أو قل: "تفاوابليوا " حينما شهدا
19 ويا " غابون " إليك الحبر متجه ** وأنت منفى لـ"بمبا" حينما اضطهدا[3]
30 يا بولس الثاني دع إفريقيا لذويـ ** ـها وارجعن لأروبا، هديها نفدا [4]

ولا شك أن هذه الظواهر قد قلبت المجتمع رأسا على عقب حتى أصبح المرء حيرانا كما تصوره نونية الشاعر الكبير النيجيري الوزير جنيد في ديوانه :

1 هذا الزمان يحير الإنسان ** جدا ويمسي قلبه ولهان
3 زمن بدا المعروف فيه منكرا ** والمنكر المعروف فيه بان
5 زمن يموت به الحي مذلة ** ومهانة ناهيك منه هوان
6 زمن تعز به الأباطل عزة ** ويذل فيه الحق مهمي كان
10 زمن تتيه به العراة بعريهم ** يا قبح من تلقى به عريان [5]

[1] – كلمة "سيد" تعريب للمصطلح الفرنسي SIDA الدال على مرض "الإيدز" الذي هو الآخر تعريب للمصطلح نفسه بالإنجليزية.

[2] – تيام، أبو رضوان المدني : سيدا، قصيدة مخطوطة، سيقو، مالي.

[3] – يقصد بـــ "بمبا " الشيخ أحمد بمبا (ت 1927م) مؤسس الطريقة المريدية بالسنغال، والذي نفي في جزيرة بغابون لسبع سنوات.

[4] – جي، الشيخ أحمد محمد : زيارة البابا بولس الثاني لإفريقيا"، مخطوطة بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

[5] – جنيد، الوزير : ديوان شعر، بمكتبة نجله البروفيسور سمبو ولي جنيد، صكتو، نيجيريا، ص 70.

الفصل الثالث

موضوعات سياسية

المبحث الأول : صورة الاستعمار في القصيدة

المبحث الثاني : السياسة الوطنية ... قضايا ومواقف

المبحث الثالث : السياسة الإفريقية ... قضايا ومواقف

المبحث الرابع : السياسة الدولية ... قضايا ومواقف

من المعلوم أن الظروف السياسيّة في المنطقة تتّسم بالاستعمار الأوروبي، الذي توغّل في البلاد منذ فجر القرن التاسع عشر الميلادي. ولتأثيره البالغ في جميع مظاهر السياسة يجعلنا نفرد له هذا المبحث، الذي سيبرز لنا مواقف شعراء المنطقة في هذا الاحتلال، والذي شملت تياراته أوضاع السياسة الوطنيّة، والإفريقيّة، والدوليّة.

ويمكن، إذا حاولنا تناول مواقف الشعراء ، تقسيمها إلى فئات ثلاث :

1. موالاة الاستعمار: وربّما من الغريب إذا ما عرفنا وجود مثل هذا الموقف عند بعض العلماء الشعراء، وعند غيرهم من شيوخ الطرق الصوفية وزعماء الدين، في المنطقة. وفي شعر أمثال هؤلاء تنويه بوجود الاحتلال الأجنبي، فيتغنون بعظمته على غرار الشاعر السوداني، عبد الرحمن شوقي[1]، المؤيد للمستعمر : [الطويل]

ملكتم جميع الأرض شرقا ومغربا ** فطوعا وكرها كل شيء لكم يجبى
وكنتم لهذا الكون شمسا منيرا ** وقطبا لهذي الأرض إن ضلت القطبا
وفي الغرب أم في الشرق أرض وما بها ** لكم مخلص إما دعوتم له لبى [2]

2. كراهية الاستعمار وبغضهم وتكفيرهم ومن والاهم من المسلمين. ولهذا الاتّجاه أنصار كثيرون من شعراء المنطقة، تتّقد أشعارهم ثورة على المستعمرين وتنديدا بأعمالهم.

3. وإن كان بعضهم ظلّت مواقفهم غامضة معقّدة، إذ لم يعلنوا كراهيتهم للمستعمر، لا بالقلم ولا بالسيف. كما أنهم لم يظهروا موالاتهم لهم في اتخاذ مواقف التحالف. وقلما تجد إشارة في شعر أمثال هؤلاء إلى الاستعمار، كالشيخ علي بوبديم ، الذي تقلد القضاء في فوتجالون خلال عصر الاستعمار، ثم استقال.

ويمكن أن يتناول حديثنا موضوعه عن الاتجاهين السابقين :

1)- اتجاه التنويه :

إن العلماء والشعراء الذين نحَوْا منحى هذا الاتجاه في معاملاتهم أو مواقفهم مع المستعمر قد أثاروا جدلا بين المؤرخين ، الذين حاولوا تعليل أغراضهم، وتبريرها، أو تبرئتهم من تلك النصوص التي يدعون فيها المسلمين قاطبة إلى موالاة المستعمرين الكفرة ، في مثل هذه

(1) – من أشهر شعراء جمهورية السودان، كان محالفا للاستعمار الإنجليزي يدافع عنه وينوه بأعماله بشعره .

(2) – بدوي، د.عبده: الشعر في السودان، سلسلة عالم المعرفة 41، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، جمادى الآخرة / رجب 1401هـ – مايو (أيار) 1981م. ص 148.

الوصية التي ينسبها إلى الحاج مالك سي (ت 1922م) الكاتبُ الفرنسي بول مارتي[1] :

« *اقبلوا الحكومة الفرنسية بالكلية، لقد خصّ الله تعالى الفرنسيّين بالانتصار والنعمة والمنّة. قد اختارهم كي يحموا أنفسنا وأموالنا ... وقبل وصولهم إلى بلادنا كان بعضنا يسبي بعضا، ويقتله، ويسلبه، سواء كنا مسلمين أو كافرين* [2]».

إذا كان بعض المؤرخين يشكّون في مثل هذه النصوص، فإن الآخرين يرون صحّتها مع تعليلٍ مفاده: عدم وجوب الجهاد ضد المستعمر، وإن الجهاد بالتعليم والتربية أكبر جهاد في مثل هذه الظروف، وهذا ما انتهجه الحاج مالك سي والكاتب الكبير موسى كمرا، الذي أعلن ما نصه « *فمحبة فرنسا قد صارت طبعي* [3]». لكن قلما نجد مثل هذه الأفكار في شعر هذين العالمين الجليلين.

وأما في شعر غيرهما فنجد تأييدا للاستعمار من غير تردّد، فهذا الشيخ أحمد بمبا الخديم يدعو الله لهم بخير، لأنه قد حظي بالمسالمة معهم بعد إطلاقهم سراحه من ضيق المنفى والإقامة الجبرية : [البسيط]

3 قد أصبح المسلمون اليوم في نعم ** لما تولى أمورا من حووا رشدا
4 الله أسأل أن يرعى لنا رؤسا ** قد أخرجوا في الأرض كل ما فسدا
6 إن البلاد استراحوا اليوم مذ ملكت ** جماعة نشروا خيرا محا أودا [4]

وتأييده مبني على بعض تلك الإيجابيات للاستعمار: مثل قضائهم على اللصوص المعروفين بـ "تيدو"، وتنظيمهم للمحاكم الإسلامية...الخ. ولم يكن ذلك بدعة منه، إذ نلتقي بأحد شعراء صحراء مالي محمد بن الشيخ يشكر للاستعمار بفضل إنجازاتهم المادية:[الكامل]

3 تلك الفرنسا دولة مطبوعة ** بالخير في الأعلان والأسرار
4 وعدالة وسياسة وأمانة ** وسماحة الرفق والإيثار
6 وبلادنا كانت قبيل ورودها ** فوضى بحال الشؤم والأكدار
7 والأمن كان بها محالا عادما ** والظلم كان طبيعة الكبار
8 سكانها كانوا بضيق كامل ** في غاية الأحزان والإعسار
9 وتقاتل وتناهب وتحارب ** والسبي للآهال والأذرار
10 والغصب للأموال قهرا واغتصا ** بنسائنا والبيع للأحرار
15 ساق الفرنسا للخلائق رحمة ** فأنت لكشف الضر والأضرار
16 منعوا البلاد من العدو ونهبه ** كفوا يد الغصاب والأشرار

---

(1) – مؤرخ ومستفرق فرنسي، له دراسات كثيرة ومخصصة بدول غربي القارة : الإسلام في السنغال، والإسلام في غينيا، ... الخ.

(2) – نقلا عن : صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 133/2.

(3) – المصدر نفسه ، ص 175/1.

(4) – المصدر نفسه ، ص 289/2. تنبيه : **هكذا وجدت " إن البلاد استراحوا " ، والصواب " استراح " بدون واو الجماعة.**

17 لـــم يمنعـــوا أحـــدا إقامـــة دينـــه ** للـــدين هـــم مـــن أكبـــر الأنـــصار
18 بنـــوا المـــساجد للـــصلاة إعانـــة ** لذوي الـصلاة علـى مـدى الأعـصار
19 جعلـــوا الرواتـــب للقـضاة ليحكمـــوا ** بعوائـــــد القـــــرءان والآثـــــار
20 فتحـــوا المـــدارس للعلـــوم تبرعـــا ** برواتـــــب لمعلـــــم ولقـــــار
21 قـــد ســـهلوا كـــل العـسير وقربـــوا ** كـــل البعيـــد بنـــاقلي الأخبـــار
22 وبجـــالبي الأصـــوات مـــع قطراتهـــا ** ســـــيارة جـــــرار الطيـــــار
23 وبـــواخر مـــشحونة مـــن كـــل مـــا ** نـــوع الحـــوائج فـــسحة التجـــار
24 أمـــراض قبـــل طبيـــبهم فـــي كثـــرة ** وتبـــوء غالـــب وقتهـــا ببـــوار
26 مـــن كـــل وجـــه أتقنـــوا طرقاتـــه ** منـــــسدة بكثيـــــرة الآبـــــار
27 أحيت جميع الأرض حتـى قـد غـدت ** منـــشقة مـــن أنهـــر وبحـــار
30 فاستوجبت شكر القلوب من أجل ذا ** من شيـب وشبابنـا وصغـار [1]

وإن كان لا بدّ أن نقدّر إيجابيات المستعمرين إلى حدّ ما، لكن فلا نبالغ في مثل هذا التنويه الأعمى ، الذي يدّعي لهم بناء المساجد ! فأنّى لهم ذلك...؟!! ثم إن البلاد كانت تفتخـر، ومـا زالت تفتخر، بأدويتها الشعبية التي تُستخدَم فيها جميعُ أوراق الأشـجار وجـذورها وثمارهـا، ولحوم الحيوانات الوحشية وعظامها، في مداواة مختلف الأمراض المعروفة في المنطقة.

وعلى أيّة حال، فإنّ الشعر لغة عاطفية من قلب الشاعر ورؤيته الخاصة لظروف الحياة. لذا فلا حرج أن يتغنّى بما تنفعل به نفسه وإن كان يخالف ما عليه واقعه المعيش !!

واهتمّ الآخرون بمدح رجال الاستعمار، قوّادهم وحكّامهم على أقـاليم المنطقـة، وأحيانـا يرثونهم بعد موتهم. فنجد في شعر أحمد عيان سي السنغالي مدائحَ مدبّجة لمرشال[2] والجنـرال ديغول[3]، وفي كافيته للأول يُظْهِر رجاءَه لانتصار فرنسا في الحرب العالمية الثانية: [البسيط]

2 هاذي فرنـسا وذي أولادهـا زمـرا ** حفـوا بمغنـاك لا يبغـون إلاكـا
3 هم الأحبـة إن سـادوا وإن غلبـوا ** تفدي نفوسهم فـي الـروع إياكـا
5 أبطال "وردان" مـا زلنـا نمجـدهم ** مهما لنفسك كان اليـوم أهـداكا [4]
7 لبيك يا مرشال الحـرب فـزت بمـا ** ترجوه فينـا وقـد فزنـا بمحياكـا
8 منعت من جريان البحر من دم مـن ** لولاكا قطـع منـه الـدهر أسـلاكا

---

(1) – درامي، قاضي: صحراء جمهورية مالي وشعرها العربي ، مخطوط ، ص 99–100. **تنبيه: كسر الوزن فيما تحته الخط.**

(2) – فيليب بتين Philippe Pétain(1856–1951م) مرشال ورئيس فرنسا الذي لعب دورا كبيرا في تاريخ النصف الأول من القرن العشرين وطنيا وعالميا، فانتصر في الأولى وانهزم في الثانية من الحروب العالمية.

(3) – شارل ديغول Charles de Gaule(1890–1970م) جنرال فرنسي، حرر فرنسا من النازية في الحرب العالمية الثانية، وترأس لها في الجمهورية الخامسة، وبه يرتبط تاريخ استقلال المستعمرات الفرنسية في إفريقيا.

(4) – وردان Verdum: هواسم موضع نشبت فيه حرب مضطرمة بين الفرنسيين والألمانيين، وانتهت بانتصار الجيش الفرنسي.

11 **مستعمرات فرنسا أبشروا سيرى ** ما كان يأمله هذاك أو ذاكا** [1]

وفي نونية السنغالي عامر صامب[2]، لرثاء ديغول، نلتمس منه تقديرا فائقا لشخصية هذا الجنرال، الذي لا شك أنه ترك بصماته السياسية في التاريخ المعاصر للمنطقة : [غير موزون]

15 **قام دغول رسول الوفاق عام زغضظينا ** وصار لفلكهم في يم هائج ربانا**
16 **وأرسى في شطآن أضحت لنجوهم خلجانا ** ولفرنسا دول جمة في العالمينا**
17 **وبعضها لاستقلاله شحذ سكاكينا ** ومن مواطني دغول من أطلق نيرانا**
18 **فدغول والمجاهد قاوما المستعمرينا ** ثم كافحا كالرئبال وسرحا السجينا**
20 **وأتي بالاستقلال من إفريقيا سودانا ** وأضحوا بأمر له من المشط أسنانا**
21 **أي ظلوا متساوين وأحرارا وإخوانا ** فأصبح الملوك ورعاياهم متآخينا**
23 **ومنذ كونا فرنسا لم نر مثله قرينا ** ولم يجعل دغول حدا في حبه الأوطانا**
25 **وبمآثره رادفت فرنسا العمرانا ** من لي براد كتلة ما وكونه مذعانا** [3]

لا شكّ أن هناك تناقضاً فكريّاً قد مسّ مشاعر هذا الكاتب، الذي يرى إعجابا بديغول في صدّه لأمواج الألمان المستعمرين، ولا يرى مثل ذلك في المقاومين الأفارقة للاستعمار الفرنسي!! بل يرى الاستقلال تفضلا من ديغول لا واجبا عليه ولا حقّاً لإفريقيا !! ويطلق على الأفارقة المحاربين في الجيش الفرنسي كلمة " المجاهدين " التي يستحقّها الأفارقة المقاومون لفرنسا !! هل يعدّ هذا مجاملة منه لجامعة السربون وهو يتقدم لها بأطروحته للدكتوراه ؟! فأين الأصالة من الشاعر؟! وأين الأمانة العلمية ؟! لأنّ له قصيدة حماسية للجزائرين المقاومين للجيش الفرنسي، كما سيأتي لاحقا.

2- اتّجاه التنديد :

في ظلال هذا الاتّجاه ترتفع أصوات كثيرة من مختلف شعراء المنطقة لتصوير فساد المستعمرين في البلاد، وتذكير الأجيال بمعاناة الأجداد تحت الأعمال الشاقة، وإبراز مدى تأثير الغزو الثقافي الاستعماري.

إن الشاعر النيجري، أحمد محمد شفيع، يرى التفريق بين الشعوب المستعمرة أكبر جرم اقترفه الاستعمار، وما زال يسعى على النهج نفسه في ما يعرف الآن بالاستعمار الجديد. لذا يندّد هذا الشاعر ــ من طوارق النيجر ــ بهذه السياسة الغربية التي كادت تمزّق الوحدة النيجرية:[البسيط]

---

(1) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 113/1.

(2) – كان رئيسا لمؤسسة IFAN بجامعة دكار، تعد أطروحته بجامعة سوربون عن الأدب العربي بالسنغالي أشهر مرجع للباحثين.

(3) – المصدر السابق،ص222/1. <u>تنبيه:</u> **عرف الكاتب بقوله " عام زغضظ " بمعنى 1958، والخطأ أنه وضع الغين في العشرات، ثلاثه يساوي في الحساب الشرقي (900) وإن أراد بها العين (70) سيصير 1877، وفي ذلك خطأ. والقصيدة غير موزونة رغم الالتزام بالروي، وربما يمكن عدّها من الشعر المرسل، أو أن أصلها شعر فرنسي فترجمها إلى العربية بوضع الروي فيها.**

19 ولم ينفع الغرب الحقود نـــداؤه ** لتمزيق شعب قد غـــدا يـــستفزه
20 فأصبح في جهد لتفريق صـــفنا ** وتشتيت هذا الشعب ما هو همـــه
21 فهذا شـــمالي وأبـــيض لونـــه ** وهذا جنـــوبي وأســـود وصـــفه

22 ولكنه قـــد خـــاب ظنـــا لأنـــه ** تخيل هذا اللـــون يفـــصل بيننـــا
23 وما عرف الغرب الحقود بأنـــه ** يثير اعتبـــارا لا يفـــرق صـــفنا
24 أخوتنا أعلى مـــن اللـــون إنها ** نتاج نضال قد توحد فـــي العنا (1)

وأما الشاعر الغيني محمد الأمين جابي فهو يحرص على الحفاظ بأعزّ كرامة إفريقيـــة، ألا وهي الهوية. لأن المستعمر يستهدف بالمصالح الماديّة أن يسلخ الإفريقيّ من هويته البيئيّـــة وعزته التقليدية، لذا أطلق عنان شاعريته في طول نفسه حتّى بلغت أبيات رائيتـــه 79 بيتـــا، فأسماها بـــ " الهوية المفقودة " التي دلّ مطلعها على براعة الاستهلال : [الكامل]

1 الحـــرب ليست بالذخائـــر وحـــدها ** حرب الحضارة والثقافة أخطر

ويتابع بعد ذلك تعداد المخططات الغربية الخبيثة :

3 لا ســـيما حـــرب تـــدار بحكمـــة ** ووراءهـــا عقـــل يعـــي ويفكّـــر
5 درس تلقـــاه العـــدوّ فخطّطـــوا ** ليـــشوّهوا إســـلامنا ويـــدمّروا
8 عـــادوا بغزوتنـــا حـــضاريا وللـــ ** ـــفكر المجهّـــز النـــصيب الأكبـــر
9 كـــرّوا علينـــا، والـــدهاء ســـلاحهم ** ووســـائل التـــضليل فيـــه أظهـــر
10 من بعدما أحصوا مـــواطن ضـــعفنا ** جاســـوا خـــلال ديارنـــا، وتـــأمروا
11 سرقوا تراث المـــسلمين، وأنفقـــوا ** فيه مـــن الأمـــوال مـــا لا يحـــصر
13 فغـــدت متـــاحفهم بمخطوطاتنـــا ** مملـــوءة مـــن كـــل نـــوع ينـــدر
14 وبه استعانوا فـــي دراســـة ديننـــا ** فجنوا على تاريخنـــا ، بـــل زوروا
15 مـــا ضـــاع منـــا مفخـــر إلا وهـــم ** سبب الضياع، وأيـــن ذاك المفخـــر
16 ضاعت جزيرة زنجبار ولـــم تكـــن ** إلا مكانـــا بالمعـــارف يزخـــر
17 وكذاك تمبكتو التـــي ضـــمت مـــرا ** كـــز للعلـــوم ، وبالثقافـــة تفخـــر
18 من قبلها الأندلس ضـــاعت بعـــدما ** فيها ، أقـــام المـــسلمون وعمـــروا
25 أضحت دماء المـــسلمين رخيـــصة ** حـــرب الإبـــادة ضـــدهم تتطـــور
26 من أرض كوسوفو إلى الشيشان في ** أقـــصى الـــشمال، مـــذابح تتكـــرّر
53 طمست هويّتنـــا فأصـــبحنا ، كمـــا ** قال الرسول، غثـــاء ســـيل يغمـــر

(1) – شفيع،أحمد محمد: الصحراء الكبرى، قصيدة ألقاها في ملتقى شباب الدول المتاخمة للصحراء في مرزق بليبيا، 1995/12/30م.

58 رسموا الحدود بـصورة مدروسـة ** تغـري الأهـالي بـالنزاع وتنـذر
59 فنمـت لغـاتهم، وزاد ثراؤهـا ** وإذا بنـا نزهـو بهـا ونعبـر
60 وإذا تقاليـد الـبلاد تخلّـفٌ ** وتزمّـتٌ، وتطـرّفٌ، وتحـضّرٌ
68 تاريخهـم أضحـى مدار حياتـنا ** وبـه نقـدّم شأنـنا ونؤخّـر(1)

وللأديب الغامبي، الدكتور امباي كاه، قصيدة لم يختلف في عنوانها عن السابق ذكرها، فأسماها بــ" العقد المفقود"، ولكنه اختبى وراء الستار مشتكيا لمن يسمعه عن المجـد التليـد، ومتمنّـيا عودة من ملأ الوجود عدالة وسعادة وكرامة، ومختتما بثلاثة أبيات تـشير إلـى دور الاستعمار في فقدان هذا العقد الثمين الغالي : [الكامل]

25 علموا الخلافة أنّهـا مجـد لكـم ** فتكـالبوا مـن خبـثهم وتـشدّقوا
26 هجمـوا عليهـا هجمـة كفريـة ** أرضـوا بهـا حقـدا دفينـا يحـرق
27 واستعمروا أمما وكم ضـرّوا بها ** من أرضها الخيرات ظلّـت تسـرق(2)

وربما يعد السيد حبيب عبد الله كانْ الفلاني أكثر تنديدا بأعمال المستعمر فـي شـعره، وربما لطول إقامته في الغرب، حيث وقف على خبث نواياهم، وتماديهم على تـشويه صـورة إفريقيا في وسائلهم الإعلامية، لذا نجده في قصائد أربع يعلن عن كراهيته الشرسة على الغرب المستعمر: في أولاها " أين الدعاة ؟ " يحمّس الثوّار على وضع بنانهم على حِيَـل المـستعمر الغاشم، وفي ثانيتها "الاستعمار وملاحقة الأبرار" يرسم لنا صورة شنيعة من الأعمال الـشاقة التي عانى منها الآباء، وفي ثالثتها " كربلاء فرنسا " يرثي الشهداء في مقاومة الجيش الفرنسي، وفي الأخيرة " حبات السبحة " حيث يطلق عنان دعوته على هلاك المستعمر.

انظر كيف يصور لنا مساوئ المستعمر في " أين الدعاة " : [الكامل]

20 كيف التبـادل بـين ذئـب جـائع ** فـي قفـرة وقطـائع الخرفـان
21 باسـم التقـدم والنمـو تحـايلوا ** وبما يسمى وحدة الأهداف في الأزمان
22 ساموا العذاب على العباد ودمروا ** عليـا المبـاني بأرضـها التحتـاني
23 نهبوا الأراضي في المدائن والقرى ** وأدوا كرائـم كـل فكـر بانـي (3)

وانظر إلى مأساة الأفارقة تحت اضطهاد المستعمرين في ميمية "الاسـتعمار وملاحقـة الأبرار" التي صدرها بهذه اللعنة العاطفية : [البسيط]

1 تبّت يدا دولة المستعمر الغشم ** من سور ماضيها المشؤوم في الأمم

ثم يمضي إلى تصوير هذه المآسي المؤلمة والمخزية من معاملات المستعمر للأفارقة:[البسيط]

(1) – جابي، محمد الأمين : الهوية المفقودة ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كنديا ، غينيا.
(2) – كاه ، الكتور امباي : ديوان شعر، مخطوط مكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا، ص 17.
(3) – كان، حبيب عبد الله الفلاني : الوردة على نهج البردة والنفث العنبري في المأتم العمري، لا.ط، لا.ت، ص 77.

14 يؤتى له بالويل أضعافا مــضاعفة ** ظلما وليس له الشكوى وإن يصم
15 أضحى التلاميذ والطلاب في محــن ** كل يشار له في الحــي بالــسلم
16 للضيم بيضتهم، للــسوم ســادتهم ** للرعي عامتهم، والخاص كالبهم
17 هم كالعبيــد ولا شــيء يناســبهم ** إلا العصا لكسور الضلع والعظــم
18 هم للهراوات والأسواط أجدر مــع ** طوق العناق وصفد الأيد والقــدم
19 هم كالدواب وفي الأحكام هم همــج ** سرب قطيع من الأنعــام والــبجم
20 هم كالبهائم في الأعراف ليس لهم ** حق الكلام فما الأعــراب للعجــم
21 هم كالخراف من المعلــوم حكمــهمُ ** للذبح والسلخ والإجهار للبــرم[1]

ويشاركه في هذه المشاعر بعض نظرائه في المنطقة : أمثال القاضي يونس عبــد الله، من نيجيريا، الذي لا ينسى في أرجوزته المدحيــة النبويــة أن يفــرد أبياتــا تحــت عنــوان "المستعمرون على المستعمرين "[2]، والحاج عبد الرحمن باه في ميميته التي ألقاها في المؤتمر الإسلامي بدكار سنة 1957م[3]. ومحمد كاولو من توغو في سينيته التي تــصور ســلوكيات السلب والنهب والغدر من تسعة أبيات فقط[4]. و عامر صامب في رائية له[5] ، وقد سبق حديثنا عن رثائه للجنرال ديغول، فيها تمجيد ببطولة الشعب الجزائري فــي إجلائــه الثــوري ضــد الاستعمار الفرنسي، لكنّه يحاول ألا ينال من فرنسا إلا ما يفهم تعريضا في أسلوبه الكنائي عن وصف جهود رجال المقاومة: كالقائد عبد القادر[6] والشيخ ابن باديس[7]. وكقــصيدة القاضــي مجخت كل (ت 1902م) التي تشاطرت لغتا العربية الولفية أبياتها. وكالمالي يوسف جغوراغا، الذي يتميز غيظا كلما تذكر مأساة ظاهرة النخاسة في قصيدته " السود والاستعمار" : [الكامل]

3 ونسيتم مينــاء بحــر الأحمــر ** تجـــارة الأحـــرار يـــدمعني
5 باعوا أسود جنودنــا بــدراهم ** كادت جــوى الأحــشاء يقتلنــي
6 قتلوا الجهابذة الكرام وشنقوا ** عمرا وقومي في الكــرى وهــن
7 كم أرملوكم ، يتمــوا أشبالــنا ** إكبــال ساموري[8] يكمدنـي [9]

---

(1) – كان ، حبيب عبد الله الفلاني : الاستعمار وملاحقة الأبرار، قصيدة مخطوطة بمكتبة أخيه إبراهيم كان الخاصة، بماكو، مالي.

(2) – راجع: عبد الله،القاضي الأستاذ يونس:الكسوة المنشورة في المعجزة المنثورة،مطبعة شيبأوتيمي،الطبعة الأولى،2001م، ص26.

(3) – باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 42.

(4) – أوكيجو، محمد كاولو بن أبو بابا : قصيدة مخطوطة عند الشاعر، قرية تشامبا، بشمال توغو.

(5) – ينظر : صامب، عامر: الأدب العربي السنغالي، ص 228/1.

(6) – هو من كبار رجال الإصلاح في الجزائر، اتخذ قسنطينة مركزا له ، ومسجده منطلقا لدعوته الإصلاحية.

(7) – هو عبدالحميد بن محمد(1889–1940م)علمه حمدان لونيسي بقسنطينة،وابن عاشور ومحمد النخلي بتونس. من رجال الإصلاح

(8) – هوالإمام ساموري توري البطل الغيني (ت 1900م) قاوم المستعمرين الفرنسيين خلال 18 سنة، ومات في منفاه بغابون.

(9) – جغوراغا، يوسف : السود والاستعمار، قصيدة مخطوطة ، بماكو، مالي.

ومن المعلوم أن الاستعمار تعاون مع الإرساليات التبشيرية في القيام بحملة الغزو الفكر والديني معا، وهذا لم يخف على بعض الشعراء، الذين لم يروا أيَّ فرق بين المستعمرين والنصارى، بل لهؤلاء حقد دفين ودسائس مسمومة أكثر خطورة من أولئك، لأنهم يشوّهون روح الدين في النفوس، كما يؤكّد ذلك صاحب قصيدة "مائة بيت ونيف" من شعراء نيجيريا [(1)].

وأما الغاني عمر كركي فيُعَدّ أكثر الشعراء اهتماما بموضوع النصارى : ففي ميميته الطويلة يحكي لنا قصّةَ وصول المستعمر في المنطقة، وخطواتِ اتصالاته بالمحليين في السِّلم، ثم تآمرَهم على الأمراء قبل أن يفرضوا سلطتَهم قهرا على البلاد، والقصيدة الثانية مقفّاة بكلمة "النصارى"،وفي هذا التكرار إعلان هامّ عن كراهيته الشنعاء لهؤلاء المحتلين الجائرين:[الرجز]

1 نعوذ بالله يا برايـــا .... ** من الذي يذكره النـــصارى

5 ومن أشـــد فتنـــة عظيمـــة ** قعوده في أرضنا النصارى

12 ونجني يا رب مـــن إبلـــيس ** ومن لقاء ماكري النصارى

22 إذا سئلنا مـــن وكيـــل شـــر ** فقل وكيل الفتنة النصارى

28 ومن أحب أن يرى الشيطان ** بعينه فلينظر النصارى [(2)]

وانتهج بعض الشعراء أسلوب التعريض في التعبير عن كراهيتهم للاستعمار، فينحون منحى التفاخر ببطولة المقاومين : كرائية مَجَختِ كَلَ الحماسيّة في تمجيد بطولة " لتجور" وقوادهم المغاوير،فيقول في هذا البيت الذي يوحي إلينا بما في أعماق قلبه من بغض للأروبيّين:

29 والله يعلم أني لم أكن أبدا ** أهوى أناسا أحييهم ببونزور [(3)]

وكقصيدة "صدى التاريخ" التي يحكي لنا فيها محمد عاجْ مقاومة الحاج عمر تال الفوتي للمستعمر.[(4)] وكقصيدتي شيخ تجان غاي "بمبا" و "كلنا لتجور"[(5)]، يشيد في إحداهما بدور الشيخ أحمد بمبا في مواجهة الاستعمار بالتعليم والتربية الروحية، وفي الثانية إحياء لذكرى ذلك البطل الشعبي في السنغال، المنتصر على الجيش الفرنسي كثيرا. ورائية أحمد حيدر المالي أعم شعورا وأوسع فكرا، لما فيها من التعبير الجماعي عن الروح الحماسية لدى الأفارقة[(6)]:[البسيط]

1 تبّ التسلط، فـــك القيـــد وانـــدثرا ** بالسيف والفأس ثار الشعب فانتـــصرا

2 دقّوا الطبول فشهر المجد قد طلعـــا ** إني أرى النور في أفق السما انتـــشرا

4 نحن البناة بنينا المجد مـــن عـــرق ** نحـــن الحمـــاة إذا مـــا خـــائن غـــدرا

---

(1) – راجع: الرصافي، معروف مصطفى أحمد: مائة بيت ونيف، أموكوكو، نيجيريا ، لا.ط، 2001م، ص 2.

(2) – كركي، مالم عمر بن أبي بكر : قصيدة النصارى، مخطوطة بمكتبة جامعة ليغون، أكرا، غانا.

(3) – صامب، عامر: الأدب العربي السنغالي، ص 55/2. و" بونزور" كلمة فرنسية Bonjour بمعنى : صباح الخير.

(4) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 41.

(5) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، ص 37، و79.

(6) – حيدر، الشيخ أحمد : إفريقيا أرض البطولة، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر الخاصة، سيقو، مالي.

5 تبّت يدا سارق وتبّ ما كسبت ** يداه من عمل وكل ما ادخرا
6 نهبت مواردنا، أفنت مناجمنا ** وأتت كرامتنا، قلنا : كفى وترا
8 واسأل فرنسا،وسل من رام عزتنا ** نحن الدمار ، ونحن السلم ، مقتدرا

وقد ينهج البعض في أسلوب تعريضهم الكنائي عن كراهية المستعمر منحى النزعة الوطنية، التي تظهر في مثل هذا النتاج الشعري : كميمية الشيخ أبي بكر غومي[(1)] في غرس "النزعة الوطنية " في مواطنيه للنجاة من مخالب الاستعمار[(2)]. ولم يختلف عنه أحمد عيان سهْ في ميميته ورائيته اللتين تذوبان دعوة صادقة إلى الوطنية من غير أن يمسّ بالاستعمار تصريحا.[(3)] بخلاف الشاعر محمد الأمين عاجْ الذي لا يخفض صوته بأن ينال من الاستعمار وهو يتغنّى بوطنيّته في "ذكرى الاستقلال".[(4)] وفي مرثية أحمد سيكو توري، رئيس استقلال غينيا ــ من نتاج العالم الغامبي الحاج كرنلا جيت[(5)] ــ نجده جامعا بين الوطنية الإفريقية وبغض الاستعمار في هذين البيتين من القصيدة : [الكامل]

5 بطل عظيم قائد للثورة ** ضد فرنسا إذ هي المستعمره
6 فقاد غينيا إلى الحرية ** بعد زمان الرقّ والعبوديّه [(6)]

وأحيانا يترجم بعض الشعراء هذه الكراهية إلى لعنة بالغة تنمّ عن ثورة روحية، لينتقم الله تعالى منهم، لما ذاقوه من مرارة الضيم، وقساوة الظلم. ومثل هذا الشعر يصدر من أرباب القلوب: أمثال الشيخ أحمد بمبا الذي انتقم القهار له على أروبي كان يضايقه كثيرا فقال:[الرجز]

1 ظلمي امحى بنصر قاهر، كسر ** سلاح من كان يباهي فانكسر [(7)]

نعم ، لأن أعمال الاستعمار تتلخّص في الظلم والاستغلال، وهذا ما أكّده السنغالي أحمد جي برائيتيه : " الاستعمار الأروبي المقنع والسافر لإفريقيا " و " استغلال الرجل الأروبي "، ينكر في كلتاهما على المستعمر الذي ترك أوروبا ليستغل أرض أجدادنا فليرجع من حيث أتى :

2 دعوا أفريقيا للسود إنّا ** حكمناها على مرّ العصور [(8)]

ولا يعترف بأيّ عمل إيجابي للاستعمار في جميع الأحوال : [الوافر]

5 والاستعمار ظلم بل تعدّ ** لحقّ الغير في كل العصور [(9)]

---

(1) – كان قاضي قضاة شمال نيجيريا، مقيما بغومي في ولاية صكتو(1922–1992م)، تتلمذ على سعد ياسين، وزار الدول العربية، وله مؤلفات كثيرة منها : ترجمة معاني القرآن الكريم في لغة الهوسا، والعقيدة الصحيحة، وديوانه الشعري.

(2) – عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، رسالة الدكتوراه، جامعة إلورن، 1997م، ص 330.

(3) – راجع : صامب، عامر: الأدب العربي السنغالي، ص 121/1–122.

(4) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 16.

(5) – هو ابن موسى كبا، ولد عام 1934م في كنتورو بغامبيا، علمه محمد كيمورين، كان معلما وشاعرا، وإن كان شعره قليلا.

(6) – جيت،الحاج محمد الأمين كرنلا: مرثية سيكو توري، قصيدة مخطوطة بمكتبة الأستاذ بامين محمد سري جايتي، بركاما، غامبيا.

(7) – صامب، عامر:الأدب العربي السنغالي،ص253/2. ولفظ "جيبش" هنا من الأعداد الأبجدية المغربية يساوي 1313هـ/1895م.

(8) – جي، الشيخ أحمد : الاستعمار الأروبي المقنع والسافر لأفريقيا، مخطوطة مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

(9) – جي، الشيخ أحمد : استغلال الرجل الأروبي، مخطوطة مكتبة الشاعر ، كولخ ، السنغال.

إذا كان ارتباط الأديب بالمجتمع ضرورة حتمية، فإن تدخّله في الأوضاع السياسية يصبح عاملا أساسيا في تفاعله مع المجتمع، لأن السياسة تعدّ من العوامل الكبرى في التغيّرات الاجتماعية، لذا لم يهمّش كبارُ الشعراء المعاصرين تلك القضايا السياسيّة في أعمالهم الأدبيّة، كقول أحمد شوقي في الأحزاب السياسية التي ما فتئت تتنازع في الوصول إلى الوزارة، وهي تزعم أنها تسعى لتحرير البلاد وبنائها:[1] [الوافر]

وفيم يكيد بعضكم لبعض ** وتبدون العداوة والخصاما

وأين بالفوز لا مصرُ استقرت ** على حال ولا السودان داما ؟[2]

ولم يخلّ هذا الالتزام بشاعرية الفن الأدبي، بل إنّ " *الشعر الحق هو الذي يرتبط بالكفاح لتحرير الشعوب* "[3]، وهذا ما فهمه شعراء الجيل الثاني لهذه المنطقة، الذين أخذوا قسطا وافرا من تاريخ الاستعمار، وعاشوا الظروف الوطنية من سوء السياسة منذ استقلال الدول الإفريقية في الستينات إلى نهاية القرن العشرين، كما سيتّضح لنا في هذه القصائد الكثيرة التي سنتناولها في هذا المبحث، الذي أود تقسيمه إلى محاور آتية :

1)- المطالبة بالحرية والاستقلال :

لم يصوّر الشعر العربي الإفريقي أدوار ساسة المنطقة في السعي وراء الاستقلال، لخلوّه من الإشارة إلى إنشاء "التجمع الديمقراطي الإفريقي R.D.A"، وإلى مؤتمر برزافيل سنة 1946م، وتناحر الساسة في تأسيس الأحزاب السياسية التي طالبوا بها استقلال الدول...الخ. ولكنّه لم يخل من الحثّ على الوحدة الوطنية في تحرير المنطقة، لذا يختم الشيخ أبوبكر غومي، من نيجيريا، ميميته بهذا البيت بعد أن باح بشكاواه في الذلّ الذي ذاقه الشعب من هوان الاستعمار:

9 قصدنا وحدة البلاد جميعا ** وانفصال عن العدو انفصاما[4]

وربما كان أحمد عيان سِهْ السنغالي أفصح منه في تحريض الشعب على مطالبة الحرية، بعد أن رأينا ميله إلى التنويه بالاستعمار في المبحث السابق : [الطويل]

6 أرى الأرض لم تخلق لسفك دمائكم ** فإن إلهي بالبرية أرحم

7 ولا تتركوها للأجانب فرصة ** فللحر رأي في المواطن أحزم

8 فحق لأوطان الفتى أن يصونها ** ويبني فيها ما غدا يتهدم[1]

---

(1) – ينظر: جمعة، د. حسين: جمالية الخبر والإنشاء، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، لا.ط، دمشق، 2005م، ص 1 / 165.

(2) – شوقي، أحمد : الشوقيات ، دار الكتاب العربي ، بيروت، لا.ت، لا.ط، ج 1 ، ص 67.

(3) – هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 485.

(4) – عثمان، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 331.

وهذا ما جعل بعض الزعماء يكرهون التعاملَ مع المستعمر، فيشيد بموقفهم بعض شعراء وطنهم، لما في ذلك من خطوات نحو الحريّة والاستقلال، فالشاعر النيجيري أبو بكر صـــلاح الدين يشيد بموقف الإباء الذي أبداه الأمير عبد القادر في الدولة الإسلامية بصكتو: [الطويل]

8 أبيت إلى الغرب رجوع الحكومـــة ** كذاك أبوا مــن بالعبـــادة يعمـــل

9 رمينا على الأضداد كانوا زنادقا ** بالدعوة كيلا نرجع يا مؤمل [2]

وللآخرين لغة أخرى، غير مباشرة، هي الإشادة بمكانة الملوك القدماء وببطولة المقاومين للاستعمار، وفي هذا الإيحاء دعوة استعادة المجد المفقود الذي سلبه المستعمر عنوة، وفي رائية الشيخ إبراهيم غشيغ الغاني إشادة بهؤلاء الملوك القدماء، وقبله مواطنه الشيخ عمر كركي الذي مجّد تاريخ الأسلاف وبسالة الأبطال في المعارك، كأنّه يقول بهذه الإشادة إن للمستعمر حسن الحظّ أنه لم يلتق بهؤلاء الرجال المغاوير، وإلا لولّى دبره[3]، وأَحْسِنْ بشعر مَجَخَتِ كَلَ في الإشادة بعَلْبُورِ[4]، وبلَتْجور ملك كَجور غلاَّب المستعمر في عدة المعارك[5].

2)- الاستقلال ومناسبات ذكراه :

لم أعثر على النماذج الشعرية التي رحّبت بالاستقلال في حينه، وتغنّــت علـــى لـــسان الشعب باستعادة الحرية المفقودة، والتنديد بالأيام السوداء التي خلت في تاريخ هـــذه المنطقـــة الخضراء، سوى ما أنتجه الحاج عبد الرحمن باه الغيني والشيخ أحمد جي السنغالي.

فوقف الأول مع رئيسه سيكو توري، منوّها برفضه التاريخي لإعلان كلمة " لا " فـــي وجه الجنرال ديغول، عندما خيّر الدول الإفريقية عام 1958م بين الانضمام إلى فرنسا وبـــين الاستقلال التام عنها، فأقيمت انتخابات الاستفتاء بهذا الخصوص، ففازت " نعم" فـــي جميـــع الدول سوى غينيا التي اختارت " لا "، فيقول الشاعر الحاج عبد الرحمن باه : [المتقارب]

2 وقـــد كـــان أمـــس لأسيـــادنا ** لمـــستعمرينا بظـــل القنـــا

3 وكان لنا اليوم فـــي أرضـــنا ** وكان لنا اليـــوم بعـــد العنـــا

6 فآب "دقـــول" خائبـــا خاســـرا ** وعاد الهـــدوء إلـــى شـــعبنا

7 دعا "شيخ توري" إلى محفـــل ** سنى الانتخابات أبـــدى لنـــا

8 دعانـــا لفقـــر وحريـــــة ** ونطرح رقا ولو في الغنـــا [6]

---

(1) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 121/1.

(2) – يوسف، يعقوب : دراسة تحليلية لحركات المدح وتطوره في مدينة إلورن من 1960 إلى 1989م، رسالة الماجستير، شعبة اللغة العربية بقسم الأديان، كلية الآداب بجامعة إلورن، نيجيريا، فبراير 1990م، ص 135.

(3) – اقرأ مثلا أراجيزه : ذكر سلاطينهم ، وذكر المشاجرة، وذكر خروج الغزو، وكلها مخطوطة،

(4) – هو علبر انجاي كان أمير جلف في السنغال، ومقاوم الاستعمار بمالي والنيجر حيث استشهد ودفن في مدينة دوسو عام 1902م.

(5) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 2/ 52-60.

(6) – باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 50.

وأما الثاني فوقف ضدّ رئيسه لِيوبولْد سيدار سنْغورْ، الميلادي، منـددا بـشيوخ جميـع الطرق الصوفية الذين والوه وأيّدوا حزبه حتى فاز بالانتخابات السياسية ضد منافسيه المسلمين السيد لامين غي والسيد محمد جَهْ. وقد رمز إلى هذه الطرق بأسماء مدنها المركزية: طـوبى للطريقة المريدية التي كان يتزعّمها آنذاك الشيخ محمـد الفاضـل (1889-1968م)، وتـواون للخلافة التجانية التي كان يتزعّمها الخليفة أبوبكر سِهْ (ت1957م)، وكاولاك ترمز إلى زاويـة الشيخ عبد الله انياس (ت 1922م) والتي كان خليفتها آنذاك الـشيخ محمـد الخليفـة انيـاس (ت 1957م)، وأما كلمة "لايين " فهي ترمز إلى التجانية اللايينية التي كان يتزعمهـا مـاجون لاي، و"غران" ترمز إلى إحدى الزوايا القادرية، و"بقية الأشياخ" ترمز إلى سعيد نور تالْ حفيد الحاج عمر تال وخليفته في دكار، وخليفة القادرية في انجاسان سيدي لامين كونتا وغيرهما.

وقد كسّر الشاعر حواجز الخوف، و لم يبال بعواقب معارضته، في هـذه القـصيدة النضالية التي عرّضت حياته للخطر، فلم تزعزع جرأته ولـم يتـدنّس إيمانـه لا بالتهديـدات ولا بالمغريات السياسية، ومن الأمانة أن نسوق جزءا كبيرا من هذه الرائية اللاذعة :

1 *ضـلّوا الـصواب وأخطـأوا التقـديرا ** إذ عيّنـوا رأس الـبلاد سـنغورا*
2 *نـصبته حبـا للظهـور مـشائخ ** ووجـوه تقليـد بـه تغريـرا*
3 *مـا راقبـوا مـولاهم فـي حبـه ** كـلا ! ولا فـي نـصبه الجمهـورا*
4 *جعلتْـه " طـوبى " للـبلاد موجهـا ** لبنـاء مـسجدها فظـلّ أميـرا*
5 *و " تـواوُنٌ " لحرائـق وحـوادث ** وقعـت بهـا فأحَلْنَهـا تـدميرا*
6 *أبـدى خليفتهـا الـولاء لشخـصه ** وسـليله قـد أتقـن التزويـرا*
7 *وخليفـة فـي " كـاوْلاك " لخلافـه ** وأخـوه ناصـره ، فظـل نـصيرا*
8 *وزعـيم " لايـينٍ " لبدعـة دينـه ** قـد سـاند التـدجيل والتنـصيرا*
9 *أمـا " غِـرانُ " ففيـه شـيخ فـارغ ** مملّـق يبـدو لـه مـأجورا*
10 *قـد بـاع فـي تأييـده دينـا لـه ** فيُكيلـه الأمـداحَ والتقـديرا*
11 *وبقيّـة الأشـياخ فيـه تهـافتوا ** كـل يريـد لرأيـه تقريـرا*
12 *والـشعب لا علـمُ ولا وعـيُ لـه ** وذكيّـه يبغـي لـه التخـديرا*
13 *وعميـل الاسـتعمار أتقـن كيـده ** وبدينـه قـد أيّـد التبـشيرا*
14 *يـا أيهـا الإسـلام أيّ مناضـل ** يبديـه باسـمك للـورى تحريـرا*
15 *مـا عشـت لست مواليـا إن لـم يتب ** لرئيس من قـد أخطـأوا التقديـرا* (1)

ولكن الشعراء لم يهملوا التذكّر بتلك الأيام التاريخية كلمـا جـاء الحـول بمواعيـدها، فيدبّجون القصائد للترحيب بذكراها، وللإشادة برجالها، أو للتبرّم من سوء عواقبها لما جرّ على الشعب من سوء سياسة محلية، ويكثر الاهتمام بهذه المناسبات عندما يكون الـشعراء خـارج

(1) – جي، الشيخ أحمد محمد : خطأ التقدير في ترئيس ليوبولد سيدار سنغور، مخطوطة مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

دولهم الموقرة، حيث تشدّهم شدة الشوق والحنين، فهذا السيّد شيخ تجان غاي السنغالي يهنـئ زملاءه في الاتحاد الوطني للطلبة السنغاليين، في ليبيا، بذكرى استقلال بلادهم، من خلال لغـة شعرية في قصيدة يائية من 27 بيتا في 4/04/ 1977م، جاء منها هذا الخطاب الرومانسي:

*1 صحوت، فهل ترضى لغيرك صـاحيا ** قبيلـك نهـضا للمعـالي مـساميا*

*2 رفـضت قـديما أن تكـون مـذللا ** وحاربـت ظلمـا ، باسـلا متفانيـا*

*3 وأنجبت شـعبا مـستميتا محافظـا ** إمامة أجـداد محـوا لـي مخازيـا*

*5 أيا أرض أجـدادي بـوعي تحركـي ** إعـادة مجـد ظـل دهـرا معاليـا*

*6 لقد كنـت أرضـا للبطولـة دائـما ** فكونت جيلا ساد في الأرض عاليا* [1]

وقد ركّز على إبائية هذا الشعب، وعلى نضاله الطويل وراء الاستقلال حتى توّج بأول دولـة استقلت في المنطقة عام 1957م. وهذه الروح الأبية تعد من الفضائل التي تغنّى بهـا شـعراء المنطقة. وفي النيجر نلتقي بالسيد أحمد شفيع الذي يشدو ببطولـة جيبـو بكـاري[2]، زعـيم الاستقلال الوطني، سنة 1960م، في هذه البائية التي نقتطف منها ما يلي : [الكامل]

*1 يا قائد التحرير يا أمل الشعوب ** يا بسمة التاريخ يا ضوء الدروب*

*2 يا قمة العصر الحديث ومجـده ** يا رائد استرداد ماضينا الخـصيب*

*3 إنـا نهنـئ قائـدا أفكـاره ** قد مهدت لتفجر الحـدث العجيـب*

*5 فمضى يحرر شعبـه فـي عزة ** ليحرر البلد الحبيب من الغريب* [3]

وتعد ذكريات الاستقلال عيدا وطنيا في جميع هذه الدول، لذا يغرّد الـشاعر الـسنغالي محمد الأمين عاجْ بشدة الفرح، كما يشدو غيره في سائر البلاد، في هذه الدالية : _[الوافر]

*1 ألا هبـوا فـصبحكمو سـعيد ** وهذا اليوم في " سنغال " عيـد*

*2 بـه كـان التحـرر مـن قيـود ** بهـا كـادت مـساعينا تبيـد*

*6 سلوا التاريخ ـ و الماضي جميل ** أيرضى الشعب يوما أن يعودوا*

*10 أرى علم الـبلاد يطيـر شـوقا ** إلى الـذكرى ورافعـه شـهيد*

*12 خذوا المجـد التليـد وطـوروه ** بطارفكم كـما فعل الجدود* [4]

وهل استطاع الساسة أن يطوّروا هذا المجد التليد ؟!

وهل أفادوا من هذا الاستقلال لتوفير لوازم الحياة للشعب ؟

وهذا ما سيجيب عنه الشعراء أنفسهم في هذه الصفحات اللاحقة.

---

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، ص 67.

(2) – كان زعيم الحزب المعادي لسياسة الانضمام إلى فرنسا الأم في الاستفتاء الذي نظمه ديغول عام 1958م لنيل الاستقلال.

(3) – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 173–174.

(4) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، ص 16.

3)- استبداد الحكومات وطغيانها وعلمانيتها :

بدأ هذا الاستقلال بإلغاء تعدّد الأحزاب في الدول الإفريقيّة، وبانفرادها بالحزب الحاكم في السلطة، فكانت المعارضة تهمِس أصواتَها تحت ستائر البيوت، أو ترفعها في البلدان المجاورة، وفي الوقت نفسه تسوس الأحزاب الحاكمة بقمع كل الثورات ضدّها، لأنّ الانقلابات تدبّر ضدّها، فتتّهم رجالا ثمّ تزج بعضهم في أعماق السجون، فتصير نهاية بعضهم إلى المقابر، ونتج من ذلك فقدان الحكومات مسؤولياتها تجاه الشعب، فشقي الشعب بهذا الفساد مشتكيا من طغيان السلطة، وكم منهم من بكى في شعره بهذه المآسي المؤلمة. ولنقف مثلا مع الشيخ أحمد التجاني سي،المناضل السياسي أيام شبابه،فينقل لنا طغيان حكومة السنغال عصر سنغور:[كامل]

2 *طغت الحكومة والحكومة إن طغت ** يوما تقابل بالفؤاد كما جرى*
3 *مست بكل كرامة أعضاؤها ** وبمسها تمشي الحكومة قهقرى* (1)

وإن كان لا يغوص في تفاصيل هذا الطغيان، فإنه يثير حوافز الثورة على هذه الحكومة في قلوب أئمّة الدين عندما يدعوهم إلى مقاومتها، كما يدعو الناشئة المسلّمة في همزيّته الوعظيّة إلى إزالة الفساد الذي غرسته هذه الحكومة الطاغية.

وبهذا الفساد لا يمكن للشعب أن يسعد، بل إنه يعيش في شقاوة الفقر والتفرّق، كما تقرّ بذلك همزيّة الأستاذ عبد الباقي أغاكا من نيجيريا.(2)وهذا ما يجعل مواطنه الدكتور داود أديكيلنكن يصف الحكومة بالعمياء، فأطلقها على طويلته الهمزية من 92 بيتا، ذات الفقرات المتعددة، فنسوق الفقرة الفاتحة من سبعة أبيات : [الرجز]

1 *ما هذه الحكومةُ الصماءْ ؟! ** حكومةٌ تحكم بالأهواءْ*
2 *يا عجبا لهذه الحكومةْ !! ** حكومةٌ يكرهها الجمعاءْ*
3 *يا قوم ما لهذه الحكومةْ ؟! ** تقودنا فكأنها عمياءْ*
4 *حكومة ليست تميز بين الـ ** ـبيضاء والسوداء والغبراءْ*
5 *حكومة تحكم في البلاد ** كما تشاء لا كما نشاءْ*
6 *حكومة تجود لا بالمال ** لا بالهدايا بل ولا بالماءْ*
7 *لا مرحبا بهذه الحكومةْ ** حكومة تجود بالبأساءْ* (3)

وبعد هذه الفقرة تتوالى فقرات النقد اللاذع في سوء السياسة بالمماطلة في حل المشاكل، وبالرشوة، وبتعطيل العاملين والمدارس، وبتفشي الفقر والجوع، وبتهميش الدين والمواعظ، ثم يختتم بفقرة لعنة الحكومة، مناجيا رب العالمين أن ينجي الشعب من مخالب مثل هذه الحكومة

---

(1) – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 8. والأدب العربي السنغالي، ص 170/2.

(2) – أغاكا، أ.د عبد الباقي شعيب : الخدمة الوطنية N.Y.S.E، قصيدة مخطوطة، ألقاها 1982/03/20م بجامعة صكتو.

(3) – أديكيليكن، د. داود : حكومة عمياء، قصيدة مخطوطة، إبادن، ولاية أويو، نيجيريا.

العمياء سنة 1993م. وكأنها رسالة إلى أعضاء الحكومة النيجيرية تحت قيادة الجنرال أباشا[1]. كما أرسل مثلَها الشاعر الشاب عبد الواسع مدثّر إلى أمراء بلاد يوربا، الذين يحكمون الحكومات المحلية في الولايات، علما بأن نيجيريا فيدرالية في نظامها السياسي.[2]

وأمام هذا الطغيان الذي لم تسلم منه الحكومات الأولى، كما لم يسلم كبار المثقفين من الاعتقال والاضطهاد، فلا نجد تصويرا دقيقا في شعر أدباء المنطقة، إذ خلا إنتاجهم من تصوير كبريات الأحداث السياسية، سوى القليل النزر الذي نجده عند شعراء السنغال ونيجيريا.

فلقد اعتُقِلَ أحد المعارضين البارزين ضد الرئيس سنغور، هو محمد جه، مع رفقائه المتَّهمين بتدبير انقلاب السلطة، فرثاه الشيخ عبّاس صل بهائية لا يمسّ فحواها بشيء من الأوضاع السياسية، لأنه أقام القصيدة على روح صوفية بحت في رد أمره إلى الله تعالى.[3]

وربما يعد " القانون العائلي" أكبر قضية سياسية أثارت ثورات الشعر بالسنغال في الستينات، حيث رد عليه كثير من الشيوخ الصوفية : وقد ألف الشيخ أحمد المصطفى امبكي كتاب " وكلمة الله هي العليا " ردا عليه، فقرّظه المصطفى آن بثمانية أبيات ليدلي بدلوه في الكفاح.[4] كما دوّن الخليفة العام للتجانيين، الحاج عبد العزيز سي، رفضَه في مذكّرة مرفوعة إلى الحكومة، ومذيّلةٍ بأرجوزة يدعو فيها إلى التمسّك بكتاب الله لكون أحكامه عادلة.[5]

الأمر الذي جعل الشيخ أحمد التجاني سي يضع مجهره على علمانية السلطة الحاكمة في تائيته المشهورة، ويحضّ على مقاومتها لرفضها للدين : [البسيط]

1 يا سادة الناس غرتكم ظنونكم ** بدولة شأنها رفض الديانات

2 إن لم تقوموا فموت الدين مقترب ** أن القيام لكم أولى العبادات

6 لا تتركوا يد ذي الطغيان أو هتكت ** ستر الإله بأصناف المكيدات

21 يا أمة الدين قوموا للكفاح ولا ** تجفوا فتجفوا، ولا تلووا لذلات [6]

وكانت الانقلابات أكبر ظاهرة سياسية شهدتها دولُ المنطقة على تفاوت، ونيجيريا أكثرها إصابة بها،وما زالت نفوس مسلمي نيجيريا تتألم باغتيال الحاج أحمد بللو كما تصوّره ميمية محمد أحمد بوصيري[7]. وأما مالي فالانقلاب فيها كان أكبر شعبية، لأن انقلاب سلطة موديبو كيتا على يد موسى تراوري أثار ضجة كبيرة عام 1968م، لا في مالي فحسب بل في المنطقة كلها، وأُعْظِمْ بانقلاب توماني توري على موسى بعد ذلك سنة 1990م، فيقول محمد الأنصاري التِنْبُكْتُوي في الأول:[الطويل]

---

(1) – هو رئيس نيجيريا في ما بين (1993– 1998م) الذي جاء إلى السلطة بانقلاب عسكري، فقتل معارضيه واضطهد الشعب.

(2) – إيلينكي، عبد الواسع مدثر : رسالة إلى أمراء بلاد يوربا، قصيدة ميمية مخطوطة، إسيين، ولاية أويو، نيجيريا.

(3) – غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص 211–212.

(4) – ينظر : صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي ، ص 204/1.

(5) – ينظر : سي، الحاج عبد العزيز: ديوان شعر أو مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني، ص 522.

(6) – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 24.

(7) – عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 342.

4 فذلك موسى كـــالهزبر بأخــذه ** فراعنة في البحر جنب السواحل
5 وأظهر حق الله فينـــا بــضربه ** طموسا لحق مود كيت الأباطـــل
11 فحاكمنا موسى رضينا بحكمـــه ** لنزولـــه حـــق اللعـــين كـــسافل
15 ويا مود كيت قد علتـــك مذلـــة ** وصوت لنا جدبا بنهب المآكل [1]

وفي الثاني يصوّر أبو رضوان نبأ القبض على موسى تراوري في قصة صديق له.[2] وكم منهم من انتهت سلطتهم بهذه الانقلابات الدامية، التي وقعت من جرائها حـــروب أهليـــة. أو تنتهي بالاستقالة، كرئيس الفلتا العليا موريس ياميغو عام 1966م، والرئيس السنغالي سنغور عام 1980م الذي يعلّل شيخ تجان غاي أسباب استقالته برؤيته المتشائمة: [الطويل]

1 عزلتـــك بـــاريس اعتـــزل ** ســـلم مهامـــك وارتحـــل
4 عـــشرون عامـــا حكمكـــم ** عشرون عامـــا فـــي الغلـــل
5 في الجوع في المرض العضا ** ل بجنبـــه فقـــر ثقـــل
6 وتفـــــرنس، وتخلـــــف ** وعمى يقوده إلـــى الخطـــل
13 ســـيظل رعبـــا ذكـــركم ** ذكـــر الـــسفالة والفـــشل
14 لا عـــاد مثـــلك حـــاكـــما ** إن كان يوجـــد مـــن مثل [3]

أو تنتهي سلطة بعضهم بالميتة العادية،كموت الجنرال أباشا في نيجيريا، وبدلا من أن يرثى فإن الشعر يهديه توديعا مريرا كأنه مطرود،وهذا واضح في مطلع حائية داود أديكيلنكن: [المتقارب]

1 أ قد أفلت شمس هذا الـسفاح ** أ حقـــا هبـــت روحـــه بالريـــاح
2 أ قد انتهت عهـــد يـــأس كـــذا ** أ قـــد ذهبـــت حيـــرة بالنيـــاح
3 وهل نحن في الحلـــم أم يقظـــة ** أ حقـــا جفانـــا مـــشيع الجـــراح
4 إذا صحت القـــول عـــن موتـــه ** لتظفـــر أنفســـنا بانشـــراح [4]

وكأنّ هذه الوفيات تضع حدّاً لطغيان الحكومات، لذا لا يزال الشعراء في مثل هذه التوديعـــات يذكّرون بالأيام البائسة التي نتجت عن عهد هؤلاء الرؤساء، وفي ذلك تعبير آخر عن اســـتبداد السلطات الحاكمة، التي فرضت عليها ظروف الديمقراطية الغربية أن تتبنّى تعـــدّد الأحـــزاب وتنظيم الانتخابات الرئاسية والبرلمانية، وذلك في غرة التسعينات. وما زالت السلطات الحاكمة تحتاج إلى عقود أخرى قبل أن تترقّى إلى " النزاهة السياسيّة " في تطبيق هذه النظم السياسيّة. لذا تلجأ إلى المكر والخدعة تارة، كما يصوّر أبو رضوان رؤساء مالي بعد موديبو كيتا بالدبّ

---

(1) – الأنصاري، محمد علي بن بن حام: مدح الرئيس موسى تراوري وانقلابه على موديبو كيتا،مركز أحمد بابا، تِنْبُكْتُو،رقم 5442.

(2) – تيام، أبو رضوان المدني: لعثمان بن أبي بكر، قصيدة نونية مخطوطة، سيقو، مالي. وهي من سبعة أبيات.

(3) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 63. **تنبيه : والهاء من كلمة "يقوده" في البيت 6 ينبغي أن يزال ليستقيم الوزن.**

(4) – أديكيليكن، د. داود : توديع السفاح ، قصيدة مخطوطة، إبادن، نيجيريا. **تنبيه : من الخطأ تأنيث فعل(صحت) في البيت الرابع.**

موسى تراوري (1968–1990م)، والثعلب هو ألفا عمر كوناري (1991–2001م) والذئب هو أمادو توماني توري (2001 –).[1] أو تلجأ إلى التزوير، وما أكثرها ، كما تـصوّره لنـا بائية الشاعر جميل عبد الله[2] في رمزيته الأدبية التي أسماها بــ " لحم بين الكلاب"، فـصوّر فيها الساسة الأفارقة بوحوش تتكالب على لحم، كل ينتهش منه نصيبه. وسنقف طويلا عند هذه القصيدة الرائعة في التعبير الرمزي الشعري من الباب الخامس.

4)- فساد الحياة الاجتماعية في الدولة :

إذا ساءت السياسة الوطنية فماذا ينتظر من الحياة الاجتماعيـة ؟! وشـكاوى شـعراء السنغال ونيجيريا ما فتئت تدوّي أصواتها على المنابر الشعرية، كل يتضجّر ممّا يعظم في عينه من مظاهر هذا الفساد الاجتماعي السياسي.

وأعظمها انتشارا ظاهرة الرشوة، التي أصبحت لعبة يتقنها كلّ موظّف في الدوائر الحكومية، ويتمثّل وقودها في حرص العوام على قضاء حوائجهم بطرق ملتوية، وقد وفق السنغالي لامين ديانغ في رائيته الطويلة حين أطنب القول في تهويل هذا المرض السياسي: [الطويل]

1 *يقولون كسب المال فينا هو الفخر ** ولكن سبيل الكسب فينا هـو النكـر*
2 *فلا فخر في كسب يدنس دولتـي ** ويجعل أهل الحكـم ينتـابهم جـور*
3 *أترضى بدولار من العرض يا أخـي ** وما لك فيما أنـت راض بـه عـذر*
4 *ألست ترى عارا بأن تشترى الغنى ** بسمعتنا يا صـاح هـذا هـو الـشر*
17 *وقدم مصالح الجميع علـى مـصا ** لح الفرد يوجد فـي قيادتـك الـسير*
18 *فرب عميل بائع عـرض شـعبه ** فأحرقـه حـر الخيانـة والجمـر*
20 *قبيح علينـا أن نطالـب منصـبا ** وليس لنا الإخلاص فيه ولا الصبر* [3]

وتلي هذه الظاهرة سياسة نقص الرواتب أو تأخيرها، والمماطلة في توفير حقوق المـوظفين، وقد أوفى شيخ تجان غاي تصوير ذلك في قصيدته " سحق المساكين أو نقـص الرواتـب"[4]. ونجد التقصير نفسه في حقّ أساتذة الجامعات النيجيرية،حتى أضحى أكبر أزمة تجتاح الأوضاع السياسية، وهذا ما تناولته رائية الأديب عيسى ألبي[5]، ذلك الشاعر الذي لا تفتر عزيمته في نقد الحياة النيجيرية، وهو في همزية أخرى يتضجّر من سياسة انقطاع الكهرباء يوميا في وطنـه لبضع ساعات، فتسطو على المدن ظلمات داجية، تعطّل المصانع وتذعر الناس: [الخفيف]

---

(1) – تيام، أبو رضوان المدني: آه يا شعبي، قصيدة قافية مخطوطة، مدينة سيقو، مالي.

(2) – طالب تخرج في الجامعة الإسلامية بالنيجر، له أكثر من ديوان في شتى الأغراض والموضوعات. مدينة كنو، نيجيريا.

(3) – ديانغ، لامين: ديوان الشباب، ص 24–25.

(4) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 85–86. قرضها بتاريخ 1993/08/16م.

(5) – راجع : ألبي، عيسى أبوبكر : الرياض، ص 170. والقصيدة بعنوان:خفف الوطء يا معالي الوزير، من 24 بيتا في الخفيف.

2 واختفى حسنها أمام ظلام ** دامس مثل ظلمة الدأماء
4 هي في الليل في حداد كمن فا ** رقها الزوج في لظى الهيجاء
11 فإذا ما أتت بنور فيبدو ** كيراع يطير في الظلماء
13 عطلت عندنا المصانع حتى ** دفعتها إلى سبيل الفهاء
20 سئم الناس من مواعيد عرقو ** ب فمن عز في الورى بافتراء؟ (1)

حبذا لو أشار شعراء غينيا إلى هذه المشكلة التي تعاني منها مدن الدولة من تحقيقها ! ولكن شعراء نيجيريا يمضون حتى تصوير الوحل والوسخ في شوارع المدن من سوء سياسة عدم المبالاة، كما نجده في هائية عبد الواسع مدثر المسماة بـ " لاغوس والمطر".

5)- النزعات الوطنية أو الإقليمية أو العرقية السياسية :

لا غرو أن تترسّخ النزعة الوطنية في قلوب الأفارقة، الذين ذاقوا مرارة الاحتلال الأجنبي لأراضي أجدادهم المضحّين بحياتهم في سبيل مقاومة هذا الاستعمار الغاشم، وتوحّدت أواصر الأخوة الوطنية حول تحرير أنفسهم من أغلال التبعية المفروضة عليهم، وفي سبيل هذا النضال التاريخي شارك الشعراء بألسنتهم في تعزيز القوة المعنوية الداخلية(2)، حتى نالت الأوطان استقلالها بجميع الشعارات الدولية التي تمتاز بها كل دولة، كالعَلَم والعملة والنشيد الوطني،وفي هذا الأخير تكمن"الأهداف الشعبية"،وهذا ما يبرر ترجمة مثل هذه الأناشيد الوطنية إلى العربية في ساحل العاج(3)،وفي مالي حيث نجد ترجمة السيد يعقوب دوكوري:[غير موزون]

1 وطني فداك دمي ** نفسي فدى مالي
2 إنا مدى الأزمان ** لإفريقيا لمالي
3 هذي تحياتي ** علمي على مالي
4 رفرف أيا علمي ** رمزا للاستقلال
5 قل شعبنا واحد كذا ** نيتنا وكذا الهدف
6 العز والمجد في مالي ** السعي والسعد في مالي
7 يا مالي اليوم ** يا مالي الغد
8 قلْ شعبنا واحد، كذا ** نيتنا وكذا الهدف (4)

---

(1) – ألبي،عيسى أبوبكر:"المدينة المظلمة!"،مجلة الحكمة،للمنظمة الوطنية لطلاب العربية والإسلامية،إلورن، العدد2، 2002م، ص 4.

(2) – ينظر صفحة 180 من هذا المؤلف، وميمية أبي بكر غومي في "الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا " أطروحة عبد السلام محمد عثمان ، ص 331.

(3) – لم أقف على من ترجم النشيد الوطني في هذه الدولة، رغم شهرته في المدارس العربية الإسلامية بأرجاء الوطن.

(4) – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 37.

ولتعزيز النزعة الوطنية في مشاعر الشعب يتجه بعض الشعراء إلى الرؤساء والأمراء لمدحهم، وخاصة في المراسم الرسمية، كي تتوطّد الرابطة الوطنيّة حول قائد واحد، وإن كان له سوء التصرّف في سياسته، كما نجد الحافظ محمد السنوسي المنذوي[1] يمدح الجنرال أباشا في قصيدته التي يرحب فيها بالعقيد القذافي عند زيارته التاريخية لنيجيريا : [الكامل]

جنرال " أبث " حازم في أمره ** مثل العقيد فلا يخاف ويخفق [2]

أو كما في تائية المرحوم عمر ساخو يمدح بها الجنرال " لانْسانا كونتي" بقائد السلام والحرية وإمامة المسلمين: [الخفيف]

7 غينيا أصبحت به في قرار ** مطمئن ، وما بها من بليه

8 قد رأيناه قائدا وإماما ** في الأمور الدينية الدنيويه [3]

إنها لغة رجاء وتفاؤل، وإلا فمن الغريب صدور هذا الإطراء المبالغ من مثل هذا العالم الجليل، ولا شك أن روح الوحدة الوطنية هي مبرّر هذه الأبيات، كي يحافظ الشعب على الرابطة الأخوية، كما ينادي بها السنغالي لامين ديانغ في هذه الأبيات من قصيدة طويلة: [الكامل]

16 سنغالنا متماسك أفرادها ** ولها إلى جو المعالي سلم

17 سنغالنا لا تعرفن تفرقا ** يا ليتنا لته الحقيقة نفهم

18 سنغالنا لا تعرفن تعصبا ** وإذا دعوت له فإنك مجرم [4]

وفي تكرار "سنغالنا" تأكيد أيما تأكيد على المطالبة بهذه الوطنية التي تكاد تتمزق بثورة انفصال الجنوبيين في إقليم كازمانسا عن الوطن الأم، ثورة دامت أكثر من عشرين سنة، ولمّا تفشل مثل ما فشلت ثورة "بيافرا" في نيجيريا تحت نيران الجيش الفيدرالي المنتصر، فأثنى محمد الطاهر ليمان[5] على جنود الوطنية في نونية حماسية طويلة من 140 بيتا، مفتتحا إياها بتهنئة : [لطويل]

سلامي إلى الأبطال من جيش أرضنا ** فمن ذا الذي أولى به في بلادنا

هم قهروا الأعداء نصرا لعزنا ** فتم لنا عيش الكرام جميعنا

جهادهم قد صان توحيد أرضنا ** ودمر شر الانفصال بشرفنا

وقد هب ريح الانفصال بأرضنا ** فأيدها الناقمون لمجدنا [6]

ومن النزعة الوطنية يستقي البعض الروح الإقليمية، فيحرصون على الرابطة السياسية في إحدى مناطق الدولة ، ويكثر هذا الاتجاه عند شعراء نيجيريا، الذين يمدحون أمراءهم المحليين بما تثير

---

(1) – هو محمد السنوسي المنذوي، من حفظة القرآن الكريم، خريج الجامعة الإسلامية بالنيجر في دفعة الباحث، له قصائد كثيرة.

(2) – المنذوي، محمد السنوسي: العقبى للعقيد معمر القذافي والإسلام، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، كنو، نيجيريا.

(3) – ساخو، الشيخ عمر: قصيدة في الجنرال لنسن كنتي، مخطوطة عند ابنه عبد الله ساخو، حي حمد الله ، كوناكري، غينيا.

(4) – ديانغ، لامين : ديوان الشباب، ص 30. تنبيه : **لا شك أن تحريفا وقع في قوله " يا ليتنا لته ".**

(5) – درس الجامعة والماجستير في مصر، والدكتوراه في لندن،وعين أستاذا في جامعة بايرو كنو، ثم وزيرا فيدراليا للتربية والتعليم.

(6) – عثمان، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 353.

فيهم عصبية إقليمية، كمدائح أمراء الولايات ووزرائها على يد شعرائها المحليين، ومن ذلك: مدح العالم يحي بن الوزير عبد القادر[1] للحسن بن معاذ (ت 1938م) أمير الدولة الإسلامية في صكتو[2]، وتائية أحمد ينما لتهنئة أمير إلورن شعيب عند توليته سنة 1915م[3]، ونونية العلامة أبي بكر بوبي في مدح أمير كشنة[4]، ومدح عبد الحي عبد القادر لأمير إلورن الحاج إبراهيم ذو القرنين غنمبر[5]، وتهنئة عثمان عبد السلام الثقافي لأمير آخر في إلورن[6]، ومدائح كثيرة لوزير أوتشي في ولاية أيدو أ.د. زكريا حسين[7]. وفي النيجر يمدح أحمد السوقي إمام سلطنة تكريت بمنطقة طاواه في أوائل القرن التاسع الهجري، كي يعقد به روابط الروح الإقليمية.[8] وإذا وقفنا على ميمية عثمان الثقافي فإنها يهنئ بها أميره بالعيد متسائلا عن ظاهرة خبيثة، تكاد تطغى على الروح الإسلامية في إقليمه : [لطويل]

25 ***وما لي أرى في بلدة الشيخ عالم ** كنائس لا تحصى ولا تتهدم***
26 ***أمام مصلى العيد أعلى كنيسة ** أؤخر عن تقديرها وأقدم***
27 ***كنائس تبنى حيث تبنى مساجد ** يصبرنا الدستور عنها فنفحم***
28 ***لماذا نبيع الأرض والأرض أرضنا ** لكل مسيحي يضل ويظلم***
29 ***يقال : كفور أو جهول يبيعها ** وكم مسلم حبر يبيع ويكتم*** [9]

ومن النزعة الإقليمية تشد الرابطة العرقية ميول بعض الشعراء، فيرفعونها شعارا للوطنيّة، وكأنّ ضمائرهم تقرّ بأن الوطنيّة الحقيقيّة تختلّ إذا ما هُمِّشَت قبيلة في البناء الوطني مثل قبيلتهم، وخاصة إذا حرمت نصيبَها في الثروة الوطنية، علما بأن العصبية أو القومية تعدّ من أسس إقامة الدول والإمبراطوريات، كما أقرّ بذلك علماء علم الاجتماع. ومعنا في هذا الصدد عبد الرحمن الزكوي، من قبيلة يورُبا في نيجيريا، يحثّ قومه على اليقظة الوطنية قبل أن تفوتهم خيرات البلاد وهم في سبات عميق، والقصيدة من 62 بيتا، طول دل على شدّة حرصه: [الوافر]

1 ***نعيش بأرضنا عيشا أسيرا ** إلى كم نشتكي وحيا ثبورا ؟***
2 ***ومن أنهارنا نسقى حميما ** ونطرد من مساكننا جبورا !***
3 ***نقهقر في اسيادة كل يوم ** ألم نشعر بأحداث شعورا ؟!***
12 ***مناصبنا أروني في بلادي ! ** فلا تجدوا، وإن تجدوا قشورا !*** [10]

---

[1] – عالم جليل في صكتو، عين واليا ثم قاضيا قبل أن يتقاعد في بيته لمتابعة التدريس في بيته حتى الوفاة.
[2] – ينظر: غلادنثي، د. شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 148.
[3] – ينظر: بخاري،شعيب: الأدب العربي في بلاد اليوربا، قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا،ص 249.
[4] – ينظر: الأمين، يحيى محمد: مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن 20م، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا،ص275.
[5] – أولوين، عبد الحي: ترحيب الأمير في حفلة العيد الخمسين على عرش إمارة د.علي مصطفى في يولا ، إلورن، نيجيريا.
[6] – الثقافي، عثمان عبد السلام: تهنئة الأمير علي وإخوانه في الإسلام بعيد الفطر، مخطوطة عند الشاعر، إلورن، نيجيريا.
[7] – الثقافي، عثمان عبد السلام: الوزيريات، شركة Published in Nigeria، إلورن، ط 1، سنة 2003م، ص 7–49.
[8] – ينظر: منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 31.
[9] – الثقافي، عثمان عبد السلام: تهنئة الأمير علي وإخوانه في الإسلام بعيد الفطر، مخطوطة عند الشاعر، إلورن، نيجيريا.
[10] – الزكوي، عبد الرحمن عبد العزيز : إلى أبناء يوربا أجمعين، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، لاغوس، نيجيريا. قرضها 1986.

هنا نلتقي بالشعر الذي تخطت نظراته الحدودَ الوطنية، واستوعب فكرُ رجالــه قــضايا القارة السمراء، ليكون لصوتهم موقفٌ في حلٍّ القضايا السياسيّة التي عمّت شعوب هذه الــبلاد الخضراء.

أُعْجِبْتُ ببيتين من قصيدة الشاعر الغامبي، محمّد الإمام سامبو غساما، استحسنتُهما فــي فاتحة هذا المبحث، لما فيهما من إشادة بالسيادة التليدة في هذه القارة مع تحذيره من فقدانها إذا ما قصّرنا عن واجباتنا القيادية لتقرير المصير : [الكامل]

31 بالأمس كنا ســادة فــي أرضــنا ** مــا ضــرّ أن جلودنــا ســوداء

32 لكــن إذا مــا أمــة قــد قصــرت ** ذلت وصار يهينها الغوغــاء[1]

نعم كنّا سادة في تلك الإمبراطوريات التي أسّسها ملوك غانة ومالي وصونغاي، وفــي تلك الممالك التي تأسّست في جميع القبائل التقليدية القاطنة في أقاليم هذه المنطقة، لذا يجب أن نذكّر بأبطال التاريخ، الذين كانوا قدوة لرؤساء ضحّوا بحياتهم لقضيّة حريّة القارة كما تجــود بذكر بعضهم هذه الأبياتُ في دالية زكريا الرباني من النيجر: [البسيط]

25 فهــؤلاء هــم الأحــرار فــي وطنــي ** من حرّروا مهــبط الإنــسان بالجــسد

26 "مارتن لوثر" و "لومومبــا" أقــول لكــم ** " نيرير" و"إنكورما" قــوّاد إلــى الأبــد

27 "نلسون مانديلا" ما زال الــزعيم علــى ** قيــد الحيــاة يحــرّر كــلّ ذي قيــد

28 "سانكارا توماس" أعني صاح أصــغرهم ** سنّا وفي الجــد أمثــال هــم عنــدي

29 ســلني عــن القائــد الأعلــى لثورتنــا ** أي ثورة الشعب من يسعى إلى الحمــد

30 قذافي أنت أمــين القــوم أنــت منــى ** لولاك ما زلت محتاجا إلى النجــد[2]

ربما قضية "تحرير القارة " تحريرا تاما أعقد القضايا السياسية، التي ما زالت القارة تحاول أن تحطم قيودها، رغم تحديات هيمنة الدول الكبرى سياسيا واقتصاديا. وإن كان الصراع عويصا والطريق وعرا، فإنّ الأمل كبير والعزم سديد، كما يتحفنا أحمد شفيع النيجري ببلاغته:[البسيط]

إن الصراع يدور اليــوم فــي قلــق ** بين الحضارات كــل يبتغــي الغلبــا

وفــي ثقافتنــا ضــمان نــصرتنا ** فقــوة الــذات تحميهــا ولا عجبــا

فلنبذل الجهد كل الجهد في عمــل ** منظم نجهل الإهمال والتعــبا[3]

ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا بوحدة الاتجاهات السياسية، وهذا ما يدعو إليه جــل المنظّــرين بتوجيهاتهم، والأدباء بتحليلاتهم. فيوجه المرحوم العاقبُ سوسو مثلا نداءه إلى بني جنسه أجمع :

---

(1) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 2.

(2) – الرباني، زكريا: ديوان شعر، مخطوط مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(3) – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 149.

2 *بني إفريقيا اجتهـدوا ولبـوا ** على رغم العدو صـوت المنـادي*

3 *وكونوا كتلة بيضا وسـودا ** ولا تتفرّقوا طوع القيـاد*[1]

[الوافر]

وينبغي أن نتغلّب على عصبيّات الألوان والأقاليم والحدود الوطنية، ولغرس هذا الـوعي فـي أذهـان الناشئة يهنّئ المالي يوسف جغوراغا ألفا عمر كوناري بعد تعيينه أمينا عاما للاتحاد الإفريقي:[الكامل]

7 *إفريقيا بيـضا وسـودا هـم همـو ** أولـى بتوحيـد المواقـف أجـدر*

8 *لـولا تفكّـك أهـل قارتنـا لـسا ** دوا رغم أهل العـصب ظلمـا أحـسروا*

9 *قوموا إلى التوحيـد، توحيـد المـوا ** قـف بالحجـا توحيـدنا مستنـصر*

10 *فلندفـن الآلات ، آلات الوغـى ** وكذا الحدود ، حدود جَور أجـور*[2]

وأَعْظِمْ برأي محمد شفيع في رائيته[3] عن " الصحراء الكبرى" ــ السابق ذكرها ــ حيث يعهد لها دورَ التوحيد بين شمال القارة وجنوبها، لا دورَ التمزيق كما يدّعي ذلك الغربيون. وقبل تحقيق هذا الأمل الكبير بدأت اتحادات إقليمية بين الدول، فما أكثرها، وقلّما أشاد بها هذا الشعراء، سوى عثمـان جا الذي رحب في هائية له بالكوفيدراليّة السياسيّة بين السنغال وغامبيا، فأسماها بـ "ولد السنغامبيا".[4] وقد هنّأ مهدي الحاج معاذ من النيجر ميلاد "الاتحاد الإفريقي" في مدينة سِرْت في ليبيا بهمزية رائعة[5]

وهل سيتحقق هذا الحلم؟! وهل ستستردّ القارة مجدها ومكانتها بين الأمم المتقدمـة ؟! نعـم !! إذا ما أنقذنا هذا (الاتحاد) من الحروب الأهلية بين قبائل دولة واحدة : كما وقع في روانـدا وليبيريـا مثلا، والحروب الدامية بين الدول:كما وقع مثلا بين موريتانيا والسنغال، ومالي وبوركينا، وخاصة بين إثيوبيا وإريتريا، اللتين يشير إليهما الغامبي محمد غساما في رائيته " قالوا هي الحرب " : [البسيط]

1 *قالوا هي الحرب قلت السلم أهـون مـن ** بدء اقتتال عنيـف فـاتقوا الـضررا*

2 *هزيمـة وانتـصار فـي سـجالكما ** سيّان في الشكل ما من خاسر انتصرا*

6 *بـالأمس حلفـاء كنـتم ثـائرين معـا ** ضد الطغاة فكنـتم خيـر مـن ظفـرا*

8 *ماذا جرى اليوم حتـى صـار بعـضكما ** يقاتل الـبعض زاد الخلـف فـانفجرا*

9 *وإن يخاصـم صنـو صنـوه سفـهاً ** ففي الحوار دواما مخـرج ظهـرا*[6]

لذا يحقّ لمصطفى غلاديما من توغو[7] أن يبكي على قارته في قافيته " وا إفريقاه !": [الكامل]

7 *أمـن العدالـة أن نفـرّق جمعنـا ** فنعـيش دومـا كالـدم المهـراق*

8 *أمـن العدالـة أن نبـادل غيرنـا ** حبّـا ونقطـع حبلنـا بطـلاق*

9 *أنا إن بـكيـت فلـن ألام علـى البـكا ** فالوجـد حـولـي آخـذ بخناقي*[8]

---

(1) – السوسي،محمد العاقب:حوار مع الأستاذ محمد العاقب السوسي، مجلة "ميدان الجمهورية"، وزارة الإعلام،دكار، رقم58،ص 37.

(2) – جغوراغا، يوسف : وحدة إفريقيا، قصيدة مخطوطة ، بماكو، مالي.

(3) – ينظر إلى نصوص هذه الأبيات في صفحتي 145– 146 من هذا الكتاب.

(4) – جا، عثمان : ولدت السنغامبيا، قصيدة هائية مخطوطة، من 30 بيتا، دكار، السنغال.

(5) – معاذ، مهدي الحاج : ميلاد الاتحاد الإفريقي، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(6) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، 34. قرضها بتاريخ 1999/2/14م في أديس أبابا عاصمة إثيوبيا.

(7) – هو ابن موسى ، درس الثانوية وقسم التربية بالأزهر الشريف، ولد 1976م في ديباغو في توغو.وموظف في مكتب المنتدى.

(8) – غلاديما، مصطفى : وا إفريقاه، مخطوطة مكتبة الشاعر، لومي، توغو.

1)- مواقف في أوضاع سياسية :

لم يستطع بعض الشعراء ــ السنغاليين خاصة ــ أن يتمالكوا أمام بعض الأوضاع السياسية، التي أصبحت من قضايا الساعة، فسرعان ما يبوحون بمواقفهم المعادية للطغيان السياسي أو لاتجاهات بعض رؤساء القارة. وأعظمُ طغيانٍ جَرَحَ النفوسَ وأدمعَ العيونَ ما ذاق السود في جنوب إفريقيا من إبادة وإهانة، لذا دبّج صاحب "من وحي الواقع" قصيدتين في هذه المأساة المخزية، التي كانت أمريكا تؤجّجها، وتشعلها إنجلترا كلما خمدت، وأولاهما " نِلْسُنْ مانْدِلا " إشادة بهذا البطل الحازم، والثانية بعنوان "أخي الفدائي في جنوب إفريقيا " تحميس للمناضلين في قمع العدو الأبيض بالسيف والرصاص، وهو متشائم من المفاوضات السياسية، التي جاءت بالحل المطلوب الآن.هكذا يحمّس الشاعر أخاه الفدائي بقوة صوت رويّ الضاد :

1 *طعنات سيف فوق عنق الأبيض ** بضراوة ، تلك التي أنا أرتضي*

2 *فإذا رميت فصوّبنْ بعناية ** نحو العدى رشاشة بتروض*

3 *جلْ فيهم جولان أسد في الفلا ** بين الظباء بحالة من مرمض*

4 *لا تكترث قولا بأنّك عاند ** يغدو لإرهاب البري المتعرض*(1) [الكامل]

أما الآخرون فقد يبرزون مواقفهم المعادية لاتجاهات بعض الرؤساء، وخاصة إذا كانت معارِضة للدين الحنيف، فهذا الشيخ أحمد جي يودّع رئيس تونس بورقيبة بعتاب لطيف منتقدا سياسته المعادية لتطبيق الشريعة في إلغاء تعدد الزوجات، وإيثاره اللغة الفرنسية: [البسيط]

3 *ففرنس الشعب حكما وابتنى نظما ** غريبة عن ديار الدين مرتبطا*

4 *وألزم الشعب في تزويج واحدة ** نهجا جديدا عن التعداد منخرطا*(2)

2)- مواقف مع رجال السياسة :

إن الذي حظي باهتمام كبير من شعراء المنطقة هو الثائر المسلم، معمّر القذّافي، لأن شهرته بين الشعوب عالية، حتى يلقّب بعض الشبان والشيوخ بـ " القذافي" إذا ما لوحظ في سلوكه تماديه في قول الحق. وعلّة هذه الشهرة تكمن في ما جعل الأخ القذافي قضايا الأمة الإسلامية والقارة أكبر مسؤولياته السياسية، لذا احتلّ مكانة الصدارة في اهتمام الشعراء برجال السياسة، فمدحه جلُّ شعراء دول غربي القارة، وأشادوا بثورته التاريخية : ففي السنغال يهتمّ الشيخ أحمد جي ببطولته في حماية الملة الغراء في ثلاث قصائد له، بينما يعطينا شيخ تجان غاي ملحمة عن نضاله في رائية من 66 بيتا، ويقف الشيخ عباس صل على إنجازاته ليدعو الله بحسن العقبى.وفي النيجر: لأحمد شفيع قصائد كثيرة منها بائيته المتضمنة تحرير شعبه، وأما علي تاسع فله ثلاث قصائد في إطرائه أنه صانع الأفكار ومحطم القيود أمام الدين الحنيف.

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، ص 71.

(2) – جي، الشيخ أحمد محمد : سقوط بورقيبة، قصيدة مخطوطة من 15 بيتا، كولخ، السنغال.

وفي غانا يتغنى الحسن عيسى بَكِ[1] بكلمة " القذافي" التي قفّى بها قصيدتيه، بينما يراه إدريس عبد الله إدريس[2] رسولا للسلام في ميميته التي مطلعها:

*رسول سـلامٍ أقـرئك السلامـا ** فإن السلـم قـد أضحـى وئـاما*

وفي غينيا لم تفتر عزيمة محمد الأمين جابي من أن يدبج له أربع قصائد من روائع شعره، شدا فيها بذكرى ثورة الفاتح وإنجازاتها، لذا بدا في القصائد تكرار المعاني في الأبيات. وفي مالي : نظم عادل محمود ــ من صحراء تِنْبُكْتُو ــ الكتابَ الأخضرَ، ومدحه كلٌّ من الشيخ محمد الهاشمي حيدر وأحمد حيدر وأبو رضوان مدني تيام، وكلهم من شعراء مدينة سيقو على 400 كلم من العاصمة بماكو. وفي نيجريا رحّب به محمد السنوسي المنذوي، وأشاد بفضله شعراء ديوان " البنينيات " من شبان نيجيريا الدارسين بفرع كلية الدعوة الإسلامية في بنين.

لا أريد هنا أن أستقري القصائد[3] في حق الثائر المسلم بقدر ما أريد أن أبرهن كثرة اهتمام الشعراء بهذا القائد ، الذي ما زال يثير إعجاب آلاف المسلمين بمواقفه السياسية في العالم الأجمع، لذا لم يغال الشاعر السنغالي أحمد جي في هذا الإطراء : [البسيط]

*1 لو قيل: من بطل الدنيا وفارسـها ** وناصر الملة الغراء ، وحارسـها؟*

*2 ومن هو القائد المرضي منهجـه ** ومهدي العصر، في دنياه دراسـها؟*

*3 من بعد يأس وإفلاس البرية مـن ** عدالة الحكم ممـن قـد يمارسـها*

*4 لقلت فوراً بإخلاص: معمّرنـا الـ ** ـقذّافي ، قاذف أعدائي وفارسها*[4]

وبعده تظهر أهمية "جمال عبد الناصر" لدى شعراء سنغامبيا، ولا أدري علة هذا الاهتمام الخاص من هؤلاء ؟ بينما الرجل كان ذا توجه ثوري أعجب شباب عصره، حتى نال شرف إطلاق اسمه على الجامعة الوطنية في عاصمة غينيا، كما سميت عدة شوارع العواصم الإفريقية باسمه، فربما جاء موته مفاجئا للجميع فرثاه الشاعر الغامبي محمد غساما، وثلاثة من شعراء السنغال : هم الشيخ المصطفى آن ومحمد الأمين عاج وعامر صامب ، ولعلّ في لامية هذا الأخير بيان عن منهجه السياسي حيث يقول : [البسيط]

*12 لولاه لم يعـرف المـستعمرون فـرا ** راً من سويس ببأس القوم مفـضال*

*13 قد أبعد الخزي عن مصر وعن عرب ** وتقهقر الفقر من فوق السد العـالي*

*14 وهو في الصلـح مشهـور بمغفـرة ** وهو في الحرب معروف كرئبـال*[5]

---

[1] – كاتب وشاعر،له بعض مؤلفات في الكتب المدرسية، وشعره غير قليل، يقيم في شمال غانا حيث يكرس جهوده في نشر الإسلام.

[2] – خريج دولة الكويت، ومدير المعهد العربي الإسلامي في مدينة باراكو بقلب بنين، له قليل من الشعر. فهو من مواليد 1952م.

[3] – ربما ستتسنى لي فرصة أخرى بأداء مثل هذه الدراسة في مؤلف آخر إذا ما أنهيت هذا الكتاب.

[4] – جي، الشيخ أحمد محمد : القائد، قصيدة مخطوطة مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

[5] – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 221/1.

وربما يعدّ سيكو توري، رئيس غينيا الأسبق، من هؤلاء الثوريين الذين نالوا اهتمام بعض الشعراء الأفارقة، فرثاه الشيخ الحاج كَرَنْلا الغامبي، ومدحه أحمد جي السنغالي بنضاله الفكري ضدّ الإمبريالية الغربية. وكأن هذا الشعر لا يختار بين رجال السياسة إلا هؤلاء الذين تبنّوا نظام الثورة كاتّجاه سياسي ؟! نعم ...!! لأنّ هؤلاء يثلجون صدور القلوب الجريح بآثار الاستعمار الغربي، لذا لم يلتفتوا إلى الرؤساء الموالين للغرب، وإن كانوا قد أجادوا في بناء دولتهم أمثال فيلكس هوفوت بوانيي.

وليست الثورة هي العلة الوحيدة لاهتمام الشعراء بالرؤساء، فقد نجد انفتاحا سياسيا بين السنغال ودول شمال القارة، وانعكس هذا التوجه السياسي على ميول شعرائها فراحوا يدبّجون روائع شعرهم لهم، وخاصة جمهورية موريتانيا، التي تعد جسرا روحيا وأدبيا بين السنغال والمغرب العربي، فمدح الشيخ المصطفى آنْ رئيسَها المختارَ ولد دادهْ بحسن القيادة في حكمة ورزانة وتبصُّرٍ وتقدّم وإيمان، وبإبرام علاقات دبلوماسية مع جيرانه في القارة ومع الصين واليونان[1]. ورحّب به عبد الرحيم بن محمد فالْ[2] عند زيارته مدينة كيهدي في فوتاطور عام 1960م، ولم يشر إلى توجهه السياسي إلا إذا استوحيناه من هذه الصورة الشعرية: [الطويل]

6 *فإنّك ظلّ والرعية كلها ** تظلّل في تلك الظلال اللوازم* [3]

وأما الجزائر فكان رئيسها الشاذلي بن جديد ممن نال بين نظرائه اهتمام شيخ تجان غاي في دالية من 68 بيتا، ولكنه لم يتناول من سياسته سوى أنه قائد لشعبٍ أثبت للعالم نضاله وثورته ضد القوى المحتلة ، ونصرة هذا الشعب بقضايا المسلمين في فلسطين وحرب الخليج ...الخ.[4]

إن هناك روابط روحية بين المملكة المغربية والصوفية التجانيين، لتعلقهم بزاويتهم في فاس، ولإيمانهم بشرف أنساب ملوكها، أنهم من أهل البيت النبوي، وكان ينبغي في هذه الحالة أن تُدَبَّج لهم كثرة ساحقة من القصائد ! فلم يقع شيء من هذا القبيل !! إلا أن للشيخ عباس صل قصيدتين للملك محمد الخامس ولابنه الملك الحسن الثاني، يتحدث عنهما بطيب الأصل والفرع وببناء مجد على مجدهما التليد، ليؤكد أن شرف النسب علة لشرعيتهم السياسية.[5] ولم تغب هذه الأحقية الشرعية عن دالية الأستاذ عثمان جا في الملك محمد السادس، دون أن يتناول شيئا من مواقفه السياسية، فلم ندر أملك روحي هو أم ملك سياسي ؟! : [الطويل]

1 يحيّيك بالإجلال يا سادس المجد ** هواة لسان الضاد والمغرب المهدِ
2 يحيون بدرا لاح في الأفق باسما ** ينير ربى السنغال وهو على بعد
3 فحل، وحل السعد والجود والتقى ** حفيد الرسول المصطفى سادس المجد
7 روابطنا دين وضادّ وقارّة ** وودٌّ لمشكاة النبوّة والجِدّ [6]

---

[1] – ينظر: صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 205/1.

[2] – من كبار علماء السنغال،له محضرة كبيرة تخرج فيها كثير من العلماء،وأما شعره فكثير وبليغ،كتب سيرته الذاتية في النثر الفني

[3] – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 442.

[4] – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، ص 55.

[5] – ينظر : غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص 223–224.

[6] – جا، عثمان:هواة الضاد والمغرب يحيون أمير المؤمنين محمدا السادس،قصيدة مخطوطة،دكار،السنغال،ألقاها في 2005/6/25م.

لعلّ توجّه هذا الشعر إلى القضايا العالمية أكثر بكثير من توجهه إلى القضايا الوطنية أو الإفريقية، وعلة ذلك تكمن في أن ما يتمتع به الشعراء من الحرية المطلقة في تناول القضايا الدولية قد لا تسمح لهم ظروف السياسة الوطنية بمثلها.

وهذا الثراء الأدبي في مثل هذه القضايا الدولية ليؤكّد عالمية هذا الشعر، ويتوّج أعلامه بأبعاد إنسانية خالدة، وأن مشاعرهم لموحدة في آلامها وآمالها، ولا غرو في ذلك لأن الدين واللغة العربية والهويّة الإفريقية لتوحدهم منذ قرون من التاريخ.

1)- السياسة الدولية والإرهاب العالمي:

تناول هذا الشعر النظم السياسية الدولية بالنقد والرفض والتهكم، فيراها دساتيرَ مزيّفة ينادي بها الغربُ ليبدّلها بالشريعة السمحة، مع أنّها لم تقدم شيئا للعالم سوى سلب المروءة من الإنسان بفساد العقيدة والسلوك، كما تناولتها لامية أحمد حيدر من مالي في ذم الاشتراكيين والشيوعيين واليهود والنصارى [(1)].وصوّرت تائية شيخ تجان غاي "الدين البريء" (الشريعةَ) في صورة موءودة، وأدتْها بطشةُ الرأسمالية والاشتراكية في كثير من دول العالم[(2)].وفي قصيدة عبد الواسع مدثر "الرأسمالية " تصوير لتكالب الحياة على الملكية الفردية بالربا:[الرجز]

1	***الرأسمالية نظام مقتصد***	**	***ذو فكرة لمجمع ومعتمد***
8	***ورأس مال لا يزال يدخل***	**	***على شعوب الأرض تبغي تقتل***
17	***تقديس ملك الفرد وهو مقصد***	**	***بفتح طرق للكثير مرصد***
18	***تزاحم تنافس تفاوق***	**	***يبيح سعرا مطلقا تسابق***
26	***إن الربا جوهرها فقد هوت***	**	***بها شعوب إذ حراما قد حوت***
33	***ومذهب لا دين دان بالحياةْ***	**	***مخالف طباعنا على حياةْ***
35	***لا بأس في الخمر لنيل ربحها***	**	***إسلامنا نهى، وجلّ قبحها*** [(3)]

وإنّ هيمنة هذا النظام على بلدان المجتمع الدولي ليبعث في النفوس التشاؤمَ من مستقبل هذا القرن لسوء النظام السياسي الاقتصادي، الذي حوّل حياة البشر إلى نظام الغابة، حيث يأكل الكبير الصغير، وهذا ما برّر به مدثر عبد الوهاب النيجيري تسمية قصيدته بـ "جاهلية القرن العشرين" [(4)]. وتهكّم الشاعر المالي حبيب عبد الله كانْ في قصيدته " أين الدعاة ؟! " من

---

(1) – حيدر، أحمد محمد : رمضان ..ثورة القرآن ، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، سيقو، مالي، قرضها في جدة 1412/9/14هـ.

(2) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 16-18.

(3) – إيلبينكي، أبو أحمد عبد الواسع مدثر: الرأسمالية، أرجوزة مخطوطة، من 46 بيتا، إسيين، نيجيريا.

(4) – ألقاها يوم السبت 2004/2/21م في حفلة ثقافية بإحدى المراكز الإسلامية في لاغوس، نيجيريا.

الأنظمة السياسية الأوروبية بهذا الأسلوب من الاستفهام التهكمي : [الكامل]

2 *أين الدساتر من فرنسا وهديها ** من هدينا الموحى مـن القـرآن*

3 *أين الفلاسف في ريائب علمهم ** من علمنا المبني علـى الإيقـان*

7 *كم قنّنوا في برلمـان بلادهـم ** ما أودع الأحرار في الإمـحان*[1]

نعم، لقد نهبت هذه الأنظمة السياسة حرية الشعوب باسم الحريـة، فالحريـة ضـائعة والهوية مفقودة تحت ما يفرض على شعوب العالم من نظام سياسي عالمي، وهـذه الـصرخة يصيح بها جميل عبد الله ، الشاعر النيجيري، بقصيدته " الحرية " التي نسجها في قالب قـصة رمزية بين فأرتين، إحداهما تعيش في الغابة بكل أمان، والأخرى تعيش في المدينة بـين قلـق وحذر لأن أهل الحاضرة تهيمن عليهم سلطة جبارة.[2] ومن يقف على منظومة عادل محمـود للكتاب الأخضر يجد كيف تنهار الديمقراطية الغربية أمام النظرية الخضراء، التي صاغها هذا الشاعر المالي بلباقة وسلاسة مع كل أمانة علمية وفكرية.[3]كما يفنّـدها الـشاعر الكنكـاوي بقصيدته " عولمة الإرهاب "، حيث أن أمريكا تريد أن تؤمرك العالم بقوّتها السياسيّة ونظامهـا الاقتصادي، كما جاء في هذا البيت :

19 *تمركة العالم بالمكيدة ** لمنتهى بغيتهم الوحيده*[4]

وأما الإرهاب العالمي فعني به شعراء بلاد يوربا في نيجيريا دون سواهم، وعلّة هـذه الظاهرة يصعب تحديدها، وإن كان الأقرب إلى الصحة توجه ضغوطات الدول الغربية علـى نيجيريا، لما فيها من ولايات مسلمة في بلاد الهوسا، التي لم أعثر على كثرة اهتمام شـعرائها بهذه القضية المعاصرة.

لذا حاول أكثر من شاعر أن يبرئ الإسلام من تهمة الإرهاب العالمي، وأن ينفض عنه غبار شبهات الدعوة إلى الفساد، وهذا ما أكّدته رائية عبد الواحد أريبي التي أسماها " الإسـلام دين السلام"[5]، وكان الشاب مصلح يوسف أوضح تصويرا لهذا التشويه، كما كان أشدّ حـرارة في بيان مستهدفات هذا الدين إلى السلام والخير، فقال في جرأة دون هوادة : [الوافر]

2 *وشاعت في العـصور مـؤامرات ** وصـاحبها مـن الأمـم الكفّـار*

3 *وصـار البـر متهمـا بـضيم ** وشـرّ النـاس ضـيما لا يعـار*

4 *ألالإرهـاب فـي الإسـلام دار ** أم الإسـلام موقفـه ضـرار*

5 *حوى كل المكارم من خصال ** وما يرجو انتفاع بـه الخيار*[6]

---

(1) – كانْ ، حبيب عبد الله الفلاني : الوردة على نهج البردة والنفث العنبري في المأتم العمري، ص 75.

(2) – سنسوق نصها في الفصل الثالث من الباب السادس.

(3) – ينظر: محمد، عادل محمود : المسك الأذفر في نظم الكتاب الأخضر، لا.ط، لات، ص 13 في " أداة الحكم ".

(4) – الكنكاوي، عثمان إدريس : عولمة الإرهاب، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، إلورن، نيجيريا.

(5) – أريبي، عبد الواحد جمعة : الإسلام دين السلام، دار الهلال، نيجيريا، 1422هـ/2001م، ص 6.

(6) – نخبة من الشعراء الشباب : البنينيات ، دار KEWUDAMILOLA ، ط 1، 2005م، ص 3.

وقد بكى الغامبي امباي كيبا كاه من هذا الظلم الفادح في قافيته التي مطلعها :[الكامل]

ما لي أرى الدمع الغزير يراق ** ماللبريء إلى الهلاك يساق[1]

ثم يمضي يصوّر كيف يُذَلُّ أهل الإسلام الأبرياء، وتُسْلَب منهم الحرية، ويُرهَبُون بتهمتهم بالإرهاب، من يقوم بهذه الأقاويل ؟ فلا نجد جوابا في قصيدة الدكتور امباي كاه. فتجيب قصيدة بقاء هاشم من نيجيريا في عنوانها " الإرهاب نهج أمريكي "، فتبيّن كيف انتهجت أمريكا هذا النهج لمحاربة هذا الدين الحنيف، فتشنّ الغارات على العراق، وتغمض عينيها على طغيان إسرائيل، ظلما لتبديد المسلمين، كما تنصّ على ذلك أبيات هذه القصيدة التي بلغت ستين بيتا[2]، فتثور عليهم مشيدا فيها بفعل أذيقوا في حادثة أحد عشر سبتمبر : [البسيط]

3 كفى بأمريك خزيا أن أصابهمو ** خسر هجوما وهم في موج غفلان

4 لو كان ليلا لقالوا متشاسنة ** وكان برهانهم لسنا بيقظان

5 لكن أتاهم ضحى ألهاهمو لعب ** ما كاد ينفعهم جمع لسلحان

6 بكى أشداؤهم ضعفاؤهم ندموا ** وليس ينفع قطّ دمع أجفان[3]

ومن خطتها في محاربة الدين عرقلة أعمال المؤسّسات الخيريّة الإسلاميّة بتجميد حساباتها في البنوك، أو إقفال مكاتبها في بعض الدول، كما تشير لامية داود عبد الباقي[4] إلى قفل مكتب مؤسسة الحرمين في نيجيريا.

2)- هيمنة الغرب ومشاكل العالم الإسلامي :

إن واقعية هذا الشعر يجعل رجالَه يقرّون بهذا الوضع الأليم من هيمنة الدول الغربية على العالم الإسلامي، اعترافاً بالواقع في لغة تفوح منها ثورة عارمة وتبرّم يجرح القلوب. وإن كانت هذه المشاعر باردة في نونية عامر صامب التي تشيد بفرنسا من خلال رثاء ديغول[5]؛ فإنها ملتهبة في نونية الشخ أحمد التجاني سي التي تضع مجهرها على جنون الغرب في سيطرته العمياء على الفنون والبنوك[6]. وأشد التهابا عند عبد الوهاب عبد السلام النيجيري في قصيدة " أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي" من 452 بيتا، والتي تعد أحسن ما تناول سياسة الغرب وسمومه الفتاكة ودسائسه الخدّاعة التي بها قهروا العالم الإسلامي : [الوافر]

48 بكل الأرض حل الغرب قهراً ** حلول الغاصبين القاهرينا

49 فكم أرض حرام ملّكوها ** نفوسَهم وليسوا آهلينا

---

(1) – كاه، الدكتور امباي : البريء المتهم ، قصيدة مخطوطة في مكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا، ص 21.

(2) – إسماعيل ، أبو الحسن بقاء هاشم: الإرهاب نهج أمريكي، مخطوطة مكتبة الشاعر، إوو، نيجيريا.

(3) – نخبة من الشعراء : البنينيات ، ص 4-5.

(4) – شاعر في إوو بنيجيريا، تخرج في المعهد الإسلامي بموريتانيا، والماجستير في جامعة الإمام السعودية. وله قصائد متفرقة.

(5) – ينظر : صمب ، عامر : الأدب العربي السنغالي ، ص 221/1.

(6) – سي، الشيخ أحمد التجاني: سلسلة المحاضرات، لا.ط، لا.ت، ص 14.

50 وكـــم دار بأهليهـــا أتوهـــا ** بتخريـــب ومـــا هـــم آثمينـــا

51 وكم ألغـوا شريعتـــهم بكيـدٍ ** بحجّـة أنـــّهم يتصالحـــونا [1]

ثم يمضي ليتحدث عن فرنسا وإنجلترا وألمانيا وغيرها من الدول الغربية، التي جنت على العالم الإسلامي البريء المظلوم، وما زالت تجني عليه. ولم ينفرد بهذا الحديث الجامع عن الغـرب، ولكن قد لا يبلغ غيرُه شأوَه في هذا التناول المستفيض، ولا بأس من الإشارة إلى دالية الشيخ طاهر إمام أكرى في التنديد بدسائس الغرب لهدم الدين.[2]

واتّجاه آخر لبعض الشعراء أن تُخَصَّص بعض الدول بقصائد التنديد بهيمنتها. وتكمن علة ذلك في استعمار تلك الدول الغربية لبلادهم، أو أن دورها العالمي أكبر من أخواتها. ولـذا تأتي ميمية حبيب عبد الله كانْ لتمتاز بتركيزها على مكر سياسة فرنسا ومماطلتها في أداء الحقوق، فعنون قصيدته هذه بـ "فرنسة والعرقوب" بل إن مواعيدها طيف وشبح وسراب لا غير[3]. ونظيره المالي أبو جعفر محمد جباتي يقتصر على غطرسة أمريكا في بائيته التي كرّر لفظ " أمريكا " تهكّما وتوبيخاً في مثل هذه الأبيات : [البسيط]

3 أمريكـــا نلعنهـــا دون بـــضائعها ** ما النوك عنك بنـــاء صـــادك العطـــب

4 أمريكـــا تـــصفعنا ثـــم ذخائرنـــا ** تهدي مفاتحهـــا صـــهيون يـــا عجـــب

5 أمريكـــا تـــضفرنا دون مقاومـــة ** يبكي لها النفطفي "أوبك" كـــذا الـــذهب

6 أمريكا بطرا على أشلائنا رقصت ** وردنـــا خطـــب تظاهـــر شغـــب [4]

وربّما يعد شعر عبد الواسع مدثر النيجيري أكثر توجُّهاً إلى أمريكا، إذ خـصّص لها ثلاث قصائد، ناهيك عن إشارات مستطردة إليها في أبيات كثيرة من سائر قصائده، وأمـا ما يهمّنا هنا فهي قصيدته " أمريكا... ماذا فعل المسلمون في العالم كلّه ؟! " التي عمّ فيها بطش أمريكا في إيران والعراق وكشمير وفلسطين وسوريا والصومال والسودان ومصر وتركيا والشيشان...الخ، وبهذا تكون هي " الدولة الإرهابية "وليست تلك الدول الإسلامية التي صنّفتها في قائمتها السوداء، وبروح التشاؤم يهدّدها أن تزيد في فسادها قبل يوم عقابها : [الكامل]

15 زيدي فسادا سوف يأتي ذو الجزا ** وإذا أتى لا ينفع لو من خلوق [5]

وأحيانا لا ينسى بعض الشيوخ غيّ أمريكا وهم غارقون في المدائح النبوية، كهذا البيت الذي توسل فيه الحاج علي الكوماسي من غانا بالرسول ﷺ في حرب أمريكا : [الرمل]

هذه أمريكا باغية ** فارمها بالذل والندم [6]

---

[1] – الإياجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام: أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي،دار المنهل،لاغوس، ط 1، 1423هـ/2002م، ص 7.

[2] – ينظر:أكرى،محمد ألفا:شخصية طاهر إمام أكرى وإسهامه في نشر ثقافةاللغة العربية،بحث التخرج،بجامعة صكتو،1997م،ص50

[3] – كانْ، حبيب عبد الله الفلاني: فرنسة والعرقوب، مخطوطة من 23 بيتا، بمكتبة ابن عمه إبراهيم كانْ، بماكو، مالي.

[4] – جباتي، أبوجعفر محمد: "غطرسة أمريكا على العالم الإسلامي"، صحيفة الصداقة، عدد 43، يونيو 2003م، ص 7.

[5] – أيليينكي، عبد الواسع مدثر: أمريكا ماذا فعل المسلمون في العالم كله، قصيدة مخطوطة، إسيين، نيجيريا.

[6] – أبوبكر،محمدالأول:شعرالحاج علي الكماسي،مجلة دراسات عربية،لقسم اللغة العربية،جامعة بايرو،كنو،عدد2، 1976م،ص121.

وإذا كانت شعوب العالم الإسلامي تتبرّم علنا من هذه الهيمنة الغربية، فإن أكثر حكوماته تجاملها بموالاتها، وقد تجرح مثل هذه السياسة قلوب المناضلين الشعراء، فيصوّبون إلى تلك الدول الموالية للغرب سهام العتاب لتوبيخ ملوكها ولوم رؤسائها : [الخفيف]

1 يا ملوكاً لم يملكوا صرف حالة ** من أمور الرعاة إلّا العمالةْ
2 عملاء للغرب ليسوا ملوكاً ** يحكمون الأوطان باسم العدالةْ
3 إنّما العدل لا يملك شخصٌ ** حكم شخصٍ بدون حقّ الوكالةْ
16 علموا أنّ شعبهم غير راضٍ ** وانفجارا يجيء بالاستحالةْ
17 فاستعانوا ببعض مستعمريكم ** واستجاروا لهم ولو بالعمالةْ[1]

ويظهر الشاعر أحمد جي في هذه القصيدة ثائرا يحرّض الشعوب في كل قطر من بقاع العالم الإسلامي على استرداد السلطة بالشورى، بدلا من أن يوجّه ثورته في تحريض الشعوب ضد الدول الكبرى التي تفرض هيمنتها على العالم الإسلامي بالتهديد.

لذا تأتي ميمية الغامبي امباي كيبا كاه ليضع الزيت على النار كي يغلي في النفوس غليان الغضب على الغرب : [الكامل]

24 هبّوا نجدّد ما بناه جدودنا ** صرح الهداية هل يهان ويهدم
25 فإلامَ لا نمضي نبوح بقوّة ** (الله أكبر) في الوغي لا نُهزَم
26 حتّى متى يبقى العدوّ يغيظنا ** هل عند باغٍ مجرم نتظلّم
27 حتّى متى لأشهرنّ صوارما ** ومدافعا نغزو العدوّ ونقدم
28 آن الزمان لظعنهم من أرضنا ** فإذا أبوْا بصرامة نرديهم[2]

وكأنّ صدى هذه الأبيات يُسمَع في نيجيريا فيلبّيه دويُّ هائيةِ عبدِ الواسع مدثّر "أعداء الإسلام"، وكانت أشدَّ منها دويّاً نونيةُ نيجيري آخر – هو كبير يونس[3]– التي تفتح مطلعها ببكاء على ذلّ أمّة الإسلام قبل أن يحثّها على الاستنهاض : [الكامل]

1 يا أمّة الإسلام والإيمان ** ما لي أراكِ كسيرة الأركان
2 ما لي أراكِ خضعتِ تحت سنابـ ** ـكِ الكفّار في ذلّ وكل هوان
5 هبي وقومي طال نوم غافل ** فالكفر طال عناده والجاني
6 هبي وكفّي طيشة الأوثان ** كفّي العدوّ وعابدي الصلبان
12 هل تتركون تراثكم ودياركم ** فتدوسها الأوغاد ، ويح زماني
16 يا لهفتي، يا لوعتي، يا فجعتي ** يا مسلمون فأين عزّ جنان[4]

---

(1) – جي، الشيخ أحمد محمد: ملوك الإسلام والدول الإسلامية الأخرى، كولخ، السنغال، قرضها سنة 1966م.

(2) – كاه، امباي بن كيبا: ماذا تُرى لو بالمدافع يهجم ؟، قصيدة من ديوانه المخطوط بمكتبته، سريكوندا، غامبيا، ص 19.

(3) – أحد أساتذة جامعة بايرو في كنو،درس من الابتدائية إلى الدكتوراه في نيجيريا، له قصائد كثيرة وإن كان غير مشهور بالشعر.

(4) – يونس، محمد كبير: يا أمة الإسلام، قصيدة مخطوطة، كنو، نيجيريا.

أليس إلى هذه الهيمنة الغربية تُرَدُّ جذور مشاكل العالم الإسلامي ؟!

نعم ! هكذا نجد الجواب شافيا في الأبيات السابق سردها، وتعليل ذلك واضح في رائية محمد الأمين جابي التي أسماها " الهوية المفقودة "، والتي تضع المجهر على أسباب هذه الهيمنة الغربية في محاربة الشريعة، وفَرْضِ نُظُمِها على العالم الإسلامي، فتصير تلك النُظُم مقاييس التقدّم ، ومن هنا قامت نزاعات فكرية ومناوشات دامية بين "الأخذ والردّ "من الغرب:[الكامل]

63 أضحى مصير المسلمين قضيّة ** باسم النظام العالمي تقرَّر
64 وغدتْ مقاييس العلاقة لعبة ** وفق المصالح تُنْتَقى وتبرَّر
65 فإذا مفاهيمٌ تسود ، وتختفي ** أخرى ، وأفكار تشاع وتنشَر
66 وغدت مطالبة الشعوب بحقّهم ** في العيش إرهابا يدان ويُنكَر
67 وشريعة الغابات أضحت منطقاً ** من بعد ما صار القويّ يقرِّر[1]

ولكن أكبر مشكلة في العالم الإسلامي يلخّصها هذا البيت : [الوافر]

59 نجاري الغرب في كل النواحي ** وأيم الله إنّا خاطئونا[2]

يرمى الذين يجارون الغرب بالكفر والنفاق، وهؤلاء يرمون غيرهم بالجمود الفكري، ولا أحد من الفريقين استطاع أن يتوسّط في هذه المجاراة بين الأخذ والرفض، وخاصّة في قضيّة النّظام السياسي التي تعدّ من مشاكل دول العالم الإسلامي، فيتّهم الشعوب الحكومات بالتقصير في تطبيق حكم الله كما تنصّ على ذلك أبيات من ميمية مدثّر عبد الوهاب : [الطويل]

3 ويبدل حكم الله فيهم بغيره ** فصاروا عبيد الكون ما ليس يكرم
4 يعيشون عيش الوهن بالوهن أُذْلِلوا ** مناكر فيهم يزدهر ويقدم
5 ويلغى بأرض الله سنّة مصطفى ** فيبقى الورى فحشا ويطغى ويجرم
19 وأوّل مطلوب لوجهتنا ترى ** فوحدتنا أصل الأصول لنلزم[3]

وفي آخر هذه القطعة يرى الشاعر أنّ حلّ هذه المشاكل يكمن في "وحدة المسلمين"، التي تعدّ أصلا من أصول هذا الدين ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [4]، وهذه ينبغي أن تتحقّق في علاقاتنا الدولية بين المسلمين قاطبة، وخاصة بين بيضهم وسودهم كما تدعو إلى ذلك قصيدة " التعاون الإفريقي العربي" من قريحة شاعر سنغالي يعلّل تلك الروابط التي تجمعنا في هذه الأبيات : [الكامل]

5 تاريخنا خير الدليل على مدى ** صفو الوشائج حاكها القدماء
6 من شرقكم سطعت أشعّة ديننا ** فتلألأت من نورها الأرجاء

---

[1] – جابي، محمد الأمين: الهوية المفقودة ، قصيدة مخطوطة ، كنديا، غينيا.

[2] – الإباجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام : أفاعي الغرب أو غر الأفاعي، ص 11.

[3] – سيبويه، مدثرعبد الوهاب: مشاكل العالم الإسلامي وعلاجها، قصيدة مخطوطة، لاغوس، نيجيريا.

[4] – الآية : 10 من سورة الحجرات.

8 ومرارة المستعمرين وضـيمهم ** ذقنا معـاً، مـا بيننـا اسـتثناء
17 واليوم يربط بينـنا أمراضـنا ** جهل يجـدّ لمحـوه العلمـاء (1)

ولا يقتصر حلّ المشاكل على الوحدة ! فلا بدّ من توفّر رجال العلم والعمل، كما تنبّـه رائية القاضي علي ساغُ الغامبي قادة الإسلام في مؤتمر القيادة الـشعبية الإسـلامية العالميـة المنعقد في قبرص بتاريخ 21 نوفمبر 1994م : [الطويل]

14 وكونوا رجال العلم والعمل الرضى ** وأبطال عزم واتّحاد على المجرى
15 ألا وتعاونوا على البـر والتقـى ** ومحو خرافات المضلّين والجورا
16 فمهما تروا وضعا يخالف شرعكم ** فذلك وضع جائر تركـه أحـرى
17 ومهما تروا وضعا يضرّ بمسلـم ** فذلك وضع جائر رفضه أحرى(2)

لأن هذا الدين لم يفرّط كتابه في شيء، فنُظُمُه شاملة لجميع ما تحتاج إليه الحياة البشرية، كما تستعرض ذلك لامية عبد الواسع مدثر في قصيدته " النظم الإسلامية " من 39 بيتا.(3)

3)- أزمات حربية سياسيَّة :

إن آفاق هذا الشعر لتتّسع إلى أن تشمل أهمّ الأزمات الحربية الدولية، وخاصّة تلك التي تضطرم في دول العالم الإسلامي. ولكن أكبرها على مستوى العالم هي الحرب العالمية الثانية، التي تناولتها رائية القاضي عمر إبراهيم بحديث مستفيض، منددا بالخسائر الفادحة التي لم تقتصر على البشر فحسب، بل شملت الوحوش البريئة في أدغالها، والمظاهر الكونية صارت تتناحر بينها، إنها خسائر لن تستعيضها الحياة مدى الدهر : [الكامل]

9 الحرب تتلو إثـر مـا ذهبـت ** فتـدمر الأمـصار بـالجمر
10 بالطـائرات وبالبنـادق أو ** دبابـة وبمـدفع تجـري
11 ببـواخر ممـا تغـوص إلـى ** عمـق البحـار مثيـرة الـشرّ
14 زر هيروشيا إذا جحـدْتَ تجِـدْ ** عينـاً أبيـد بهـا بـلا أثـر
15 أو ناغَسَاكي تر النـواطح قـد ** صـارت لـسوء الحـظّ كـالقفر
16 وارجع ببصْرك في الوحوش فلا ** تلقـى سـوى ذا الكـرّ والفـرّ
27 لفهمتَ أن الحـرب دائمـة ** بين الهـواء وهيـكل النـصـر
28 وكذلـك الأمـطار أحسبـها ** ترمي التلال عمائـق البحـر (4)

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 76.

(2) – ساغ، القاضي علي عمر: قصيدة إلى قادة الإسلام في مؤتمر قبرص، مخطوطة مكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا.

(3) – إيليينكي، عبد الواسع مدثر: النظم الإسلامية، مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة إسيين، نيجيريا.

(4) – عثمان، عبد السلام محمد:الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا،ص 335–336. وينظر حركة اللغة لعربية وآدابها في نيجيريا للدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، ص 164.

وتظهر حرب بِيافَرا في نيجيريا، في نونية محمد ليمان، في صورة أزمة عالمية، حيث تلتقي القوى العالمية، حينما كانت الحرب الباردة مشتعلة بين الجبهتين الروسية والأمريكية، فيقف الاتّحاد السوفيتي مع الحكومة الفيدرالية، وتساند إنجلترا وأمريكا المتمرّدين – متستّرة بحجاب النفاق مع الحكومة الفيدرالية – من أجل فصل ولايتهم عن الدولة الفيدرالية : [الطويل]

70 حكومة لندن راجعت خطّ سيرها ** لمــصلحة كـــادت تهـــدّد أمننـــا
71 وأمريكا قد أسقطت نفسك عندنا ** بدور الذي اخترتِ عنـــد نـــضالنا
73 وكانت تعادينا فتُظهِــر عكــسَه ** فبان علينا الأمــر أيـــام حربنـــا
76 أيا روس قلّدناكِ تاج صداقـــة ** لنا مبدأ نشكر كرمل لدعمنا[1]

وإن أهمّ أزمة سياسية شغلتْ بالَ الشعراء، وأكبرها نصيبا في إنتاجهم، هـــي **(قــضية فلسطين)**، أو بتعبير أشمل : هي أزمة إسرائيل والعرب في الشرق الأوسط، تلك الأزمة التـــي أثارت غليان مشاعر الشعراء ، فراحوا يصوّرونها، ويتهجّمون على اليهود الصهاينة، ويحمّسون روح الثورة عليهم، ويندّدون بمواقف حلفائهم من الغربيين، وخاصة إنجلترا وأمريكا، ويرثـــون شهداء تحرير القدس، والفدائيين الفلسطينيين...الخ.

هذه هي أهم موضوعات هذه الأزمة التي احتواها إنتاج الشعراء، الذين يؤكّدون بـــذلك ثقافتهم العالمية، ومشاعرهم الروحية، في الاهتمام بقضايا المسلمين في العـــالم أجمـــع، وفـــي قصائدهم تتوارد خواطرهم في معان متقاربة، ليدلّ ذلك على ما يربطهم من روح دينية واحدة.

من أقصى غربي القارة، في غينيا بيساو، يجاهد الشيخ محمد السراج[2] ضدّ اليهود بسلاح الاستغاثة الربانية في أرجوزة كلها دعاء مرير على اليهود : أن يبدّد الله شملهم بزلزلة الأرض تحت أقدامهم لأنّهم استحلّوا محارم الله في الأرض، وهمّهم في الأرض يُغيظ الصالحين:[الرجز]

9 ما لهم همّ سوى الإفساد ** في الأرض والتضليل والإلحاد[3]

وفي السنغال يرفع عبد العزيز سار[4] صرخته في وجه اليهود، شاهرا سيفه لدعوة ذويه إلى الجهاد ضد اليهود، الذين يعدّهم ألدّ أعداء المسلمين ومنبع الفتن في الشرق الأوسط:[الطويل]

3 دواؤنـــا لـــدائنا ** أن نردي اليهـــود
4 ســـلّوا ســـيوفكم ** لهامـــة اليهـــود
5 أعداؤنا اليهـــود ** لدينـــنا لـــدود[5]

---

(1) – المصدر نفسه، ص 356.

(2) – ولد عام1943م،أبوه معزوز أمبالو علمه القرآن ثم قام برحلة علمية إلى مدن السنغال.له الشعر في الوصف والرثاء والمدح.

(3) – صالح ، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 483.

(4) – خريج الجامعة الإفريقية بالسودان،من تلاميذ الشيخ منصور سي في تواون. وله ديوان مخطوط، شعره متعدد الأغراض.

(5) – سار، عبد العزيز : صرخة في وجه اليهود، قصيدة مخطوطة، تواون ، السنغال.

بعد هذا التناول العام عن اليهود، يأتي دور الذين نصبوا أنفسهم بقضية فلسطين وتحرير القدس، ففي قصائدهم وحدة موضوعية واتّجاه ثوري وروح أبية لا تنقاد للذل والإهانة. يمــثّلهم في نيجيريا جميل عبد الله، الذي تقمّص معاناة فلسطين، فاستعار منها لسانها في هــذه البائيــة "أنّات من القدس ": [الوافر]

*1 أنادي القوم هلا مــن مجيــب ** يخفّف ما غشاني مــن مــصيب*
*2 أواجه من عــدوّي كــلّ يــوم ** رصاصــات وصــاروخا لهيبــي*
*3 ومذبحـــة تطــيح بكـــل رأس ** شهيدا صــار للمــأوى النجيــب*
*4 وجيــشا لا يميّــز بــين طفــل ** وشــيخ والمحلــي بالخــضيب*
*9 فلا أنا إن صرخت أرى معــينا ** ولا أنا إن شكوت أرى طبيبي*[1]

وطويلة عيسى ألبي " فلسطين تناديكم" تسير على الدرب نفسه، وإن كان لم يلتزم بهــذا الاتّجاه الرومانسي، فإنه قد أطنب في الحديث بما يروي غليل العشّاق ويخفّــف آلام الجرحــى. ومن قرأ عينية مهدي معاذ في النيجر فلا يجد فرقا بينها وبين هذه البائية، من حيث معانيها، إلا ما ورد في آخرها من إشارات خاطفة إلى مأساة المسلمين في العراق وأفغانــستان والــسودان، يكفيك هذان البيتان دليلا على دعواي : [الطويل]

*3 صواريخ صهيون كذاك مــدافع ** قــواذف طيــار لتلــك مواقــع*
*4 مذابح تترى الشيوخ كذا النسا ** مقابر أطفــال ولم يبــد رادع*[2]

وفي شعر عبد الواسع مدثر نجد قصيدة "أمريكا ماذا فعل المسلمون في فلسطين؟" تنــدّد بتحالف أمريكا مع إسرائيل، الأمر الذي زاد الطين بِلّة، لذا لا يجد الشاعر فرقا بــين شــارون وبوش[3]، فيردّ على سياسة الأول في سياسة اغتياله لقادة حزب الحماس في فلــسطين أمثــال الشيخ ياسين ونائبه عبد العزيز[4]، ويبكي على تحالف الثاني ظلما وجورا.

وأمام هذه المأساة تدر العيون دموعا من الأبيات لرثاء الشهداء الفدائيين : فيرثي عبــد العزيز سار السنغالي أحدهم في دالية أسماها بــ" رثاء أبي المجاهدين"، وفي غانا يرثي موسى عبد القادر محمد[5] الشيخ ياسين بميمية فيها هجاء شارون وتحميس المجاهدين: [الوافر]

*7 وقد تمّ اغتيال الــشيخ ياســين ** بــــضربات صـــواريخ زنـــيم*
*8 جحــود للـــسلام وكـــلّ أمـــن ** محـــب للقتـــال وســـفاك دم*
*12 دماء فقيــدنا الــشيخ الــشهيد ** تمثـــل وقـــدة نـــار الحمـــيم*

---

(1) – عبد الله ، جميل : أنّات من القدس، قصيدة مخطوطة، كنو، نيجيريا.

(2) – معاذ، مهدي الحاج : مأساة فلسطين، قصيدة مخطوطة، نيامي، النيجر.

(3) – أريال شارون هو رئيس وزراء إسرائيل الذي عاصر رئاسة جورج بوش (الابن) للولايات المتحدة الأمريكية (2000–2004).

(4) – الشيخ أحمد ياسين زعيم حزب الحماس الذي اغتاله شارون عام2004م، فخلفه الدكتور عبد العزيز فاغتيل بعد بضعة أسابيع.

(5) – خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة في الماجستير، وهو نائب الأمين العام للمجلس الأعلى الإسلامي في غانا، شعره قليل.

13 ***وتبعث في الشباب حياة جدّ ** لتحرير الأراضي من اللئام***

14 ***ينادي المسجد الأقصى نداء ** يهيب لنجدة كل الكرام***[1]

وفي" نداء المسجد الأقصى إلى تحريره " يربط الشعراء قضية فلسطين بتحرير القدس، كما تختص بعض القصائد بهذا الموضوع: كقصيدة معروف مصطفى " القدس" في نيجيريا[2]، ونونية أبي جعفر جباتي " شذى المودّة " التي ألقاها في مؤتمر علماء المسلمين تحت شعار : " إنقاذ القدس ونصرة الشعب الفلسطيني تكليف شرعي وواجب جهادي" في 8-2002/01/9م ببيروت[3]. والجدير بالذكر أنّ مضمون مثل هذه القصائد لا يختلف عن قصائد قضية فلسطين، من حيث ذكر مأساة الشعب المسلم الفلسطيني ، وطغيان الصهاينة، ودعوة جميع المجاهدين إلى تحرير المسجد الأقصى.

تأتي **قضيّة حرب الخليج**، أو هجوم صدّام حسين[4] على الكويت، لتثير خلافا في مواقف الشعراء : أكثرهم عاتبوا صدّام وتهجّموا على تصرّفاته المخالفة للإسلام ، وبرّر آخرون هذا الهجوم لكونه بمثابة عقوبة على الكويت التي حالفت العراق في محاربة إيران، وتساءل آخرون عمّن ترجع إليه مصلحة هذه الحرب المخزية في العالم الإسلامي.

ومن الفريق الأول : لامين دِيَانْغ السنغالي الذي يخاطب في قصيدته " يا جابر أنت مظلوم" ملكَ الكويت ليواسيه ويمسح دموع الشعب خلفه، ويهجو في الوقت نفسه غازيَه، وفي هذين البيتين يكمن محور هذه الميمية التي نلاحظ فيها اضطرابا في ترتيب الأفكار: [البسيط]

1 أفّ وتُفّ فيا تياه صدّام ** اعلم بأنك للإسلام هدّام

3 وإن جابر ـ حقا ـ فارس بطل ** مجاهد بكتاب الله علاّم[5]

ويبتهج الشاعر الغيني عمر ساخو بالعواقب المرة التي باء بها هذا الغازي العدوّ:

5 وقد باء العدوّ بمخزيات ** غزاك بها ليهدم ما بنيتِ[6]

وتعد رائية حبيب عبد الله كانْ المالي أطول قصيدة في تناول هذا الموضوع، إذ بلغت أبياته 344 بيتا، وكلها تهجم لاذع على صدّام، فإنه يستنكر هذا الهجوم الشاجب، وإذا أمعنت النظر في نكتة أسلوب التكرار في الأبيات المقتطفة تشعرْ أنه في حالة نفسية مؤلمة، كأن جرحاً يتّسع في أعماق قلبه : [الكامل]

1 ***قف بالخليج مزلزل الأقطار ** وانظر (قضاء الله) باستعبار***

---

(1) – محمد ، موسى عبد القادر: رثاء القائد العظيم الشيخ أحمد ياسين، قصيدة مخطوطة، حي نيما، أكرا، غانا.

(2) – أحمد ، معروف مصطفى : القدس، قصيدة دالية مخطوطة بمكتبة الشاعر، لاغوس، نيجيريا.

(3) – جباتي، أبوجعفر محمد: شذى المودة، صحيفة الصداقة، عدد 35، أغسطس 2002م، ص .

(4) – هو رئيس العراق الذي وصل إلى السلطة بانقلاب وظل عليها رئيسا 35 سنة(1968-2003م)قبل أن تسقطه أمريكا قهرا.

(5) – ديانغ، لامين : ديوان الشباب، ص 6.

(6) – ساخو، الشيخ عمر : في الكويت ، قصيدة مخطوطة بمكتبة ابن الشاعر عبدالله ساخو، حي حمد الله، كوناكري، غينيا.

3 وانشر رثاء ثَمّ في عرصـاتها ** واتل العـزاء لـشعبها المنهـار
6 مستنكراً ومشجّباً مـن خرّبـوا ** ما شـيّدوه مـن البنـا بـدمار
7 مستنكراً ومشجّبا من أحرقـوا ** ما أينعوها مـن جنـان خـضار
8 مستنكراً ومشجّبا مـن نكّـدوا ** رغـد الحيـاة لـديهم بكـدار
9 مستنكراً ومشجّبا نكـران مـن ** بجميلـهم ردّوه بالإنكـار[1]

وإن كان أحيانا يخفّف اللهجة في معاتبة إنكارية أو وعظية إن صح التعبير :

27 ومتى تشدّ لجام خيل غوايـة ** سرّحته في السهل والأوعار
28 ماذا تقول غدا بساح المحشر ** لما الكتـاب تنالـه بيسـار[2]

وأما الذين يبرّرون هذا الهجوم فيمثلهم الشاعر المالي أحمد حيدر، الذي يـشجّع علـى تأديب الكويت لأنها موالية للغرب، موكّلة أمريكا بكنوزها[3] ، وفي الوقت نفسه يوحي أسلوبه أنه لا يقف هذا الموقف في مودّة صدام ، لأنه يشبهه بالكلب الذي سمّنته الكويت في محاربـة إيران. وفي هذه المناوشات العمياء عبرة لقوم، لم يخلصوا للّه، لو عقلوها فاعتَبَروا : [البسيط]

1 إن سمّنوا كلبَهمْ فدَعْهُ يـأكلْهمْ ** قد هزّلوا إخوة للدين ينتـصروا
2 صدّام إصدمهم دمّـرْ منـازلهم ** فإنّها الحرب لا تبقـي ولا تـذر
3 خصّوا بنوكمُ للغرب في شـبع ** والمسلمون جياع هل بذا أمروا؟!
13 دعهم لحالهم كالنسر في لهـف ** حماية القوم جرم لـيس يُغتفَـر
15 ماذا أقول "ودفع اللـه " سنّتـه ** فهذه عبرة للقـوم فاعتـبروا[4]

وبين الموقفين السابقين يقف عيسى ألبي، الشاعر النيجيري الكبير، متذبـذبا فـي هـذه السينية التي دل عنوانها "حرب الخليج في مصلحة من؟ " على حيرة العالم الإسلامي، لو عقلوا مدى الخسائر الفادحة والمفتضحة للمسلمين. نترك لأبياته تعلل لنا مشاعر صاحبها: [الخفيف]

1 إن حرب الخليج شـؤم علـى العـا ** لـم عـمّ العبـاد طـرّاً ببـؤس
2 كيف يحلو لنـا بـأن نهلـك الأنـْ ** ـفسَ هدراً كمـن أصـيب بمـسّ
7 أيّمـوا بـالحروب آلاف نِـسوا ** ن ــ بلا رحمة ــ حديثات عـرس
8 وصغار قـد حرمـوا لـذّة الـصبـ ** ـية يلقون فـي عـراكٍ ورمـس
9 قتلـوا الأرض بالـسموم فـلا تـنـْ ** ـبت إلّا نبـات نكـد ونـسّ
12 ليس حرب الخليج في صالح الإسـ ** ـلام أو في فلاح عـرب وفـرس

(1) – كانْ، حبيب عبد الله : حرب الخليج، قصيدة مخطوطة بمكتبة ابن عمه إبراهيم كانْ، وزارة التربية، بماكو، مالي.
(2) – المصدر نفسه.
(3) – والشاعر يهمش أعمال الجمعيات الخيرية التي تحتضنها الكويت،وربما يفرق بين تلك المؤسسات وبين الحكومة الموالية للغرب.
(4) – حيدر، أحمد محمد : دعه يأكلهم ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، مدينة سيقو، مالي.

13 أنسيتم ما بينكم من وداد ** كيف يلهو بنا الزمان وينسي
20 لا يرى الفرق للهزيمة والنصـ ** ـرة في مثل حربكم كل ندس
21 لا تعيدوا عهد الشعوبية الشُؤْ ** س إلينا ، انسوه في بطن أمس
22 أوقفوا الحرب رحمة للعباد ** يتحاسّون دائما كأس بؤس[1]

وإن كانت **(حرب إيران والعراق)** أقدم من حرب الخليج وأطول زمنا، إلا أن الشعراء لم يتعرضوا لها مثل تناولهم لحرب الخليج، لذا أخرتُ الحديث عنها، فقد عثرت على قصيدتين تختص بهما،وإن كانت الإشارة إليها قد كثرت في ثنايا بعض القصائد. إحداهما للمرحوم عمر ساخو الغيني الذي يتضرّع إلى مولاه أن يعفو عن الفريقين، ويرد أمرها إلى الحكمة الإلهية في ابتلاء المسلمين.[2] وثانيتهما للسنغالي أحمد جي الذي أطال في تناول هذه الأزمة، ولم يكتف بها بل حاول أن يستعرض جميع الحروب بين المسلمين فيما بينهم، أو بينهم وبين الآخرين : في كشمير، والصومال وإيريتريا، وأفغانستان. أما موقفه من حرب إيران والعراق فإنه محايد، ويرى ألاّ معنى للهزيمة والنصر بين الطرفين، ولم يخسر فيها إلا الإسلامُ والمسلمون:[البسيط]

1 أيّ انتصار من الأطراف خسران ** للدين .. إذ كلُّهم في الدين إخوان
2 قالوا: العراق تحلّى، وهو منتصر ** بـزيّ عزّته ، والشعب فرحان
3 فقلتُ: ويلكمُ هل كان يفرِحكم ** تقتيل أهلٍ ، وترويعٌ، وإحزان ؟!
4 فشعب إيران أهلوكم وإخوتكم ** ديناً ومعتقداً ، والدين وجدان
5 كما أذاع على طهرانَ مخبرُها ** فقال: منتصرِ الأطراف: إيران
6 فقلتُ : ويحَكمُ ماذا يفيدكمُ ** نصر على النفس؟! ذاك النصر بهتان[3]

وفي حربي أفغانستان: الأولى مع الاتحاد السوفيتي، التي خصّص لها عيسى ألبي حماسية شعرية حيث يجعل رثاء الدكتور عبد الله عزام محور رائيته، لينطلق إلى رثاء جميع الشهداء ويعزي أهلهم بما فيهم حليلة المجاهد عزام الذي يتعجب من قتله في مطلع القصيدة : [الكامل]

1 أقُتلِتَ عبد الله في زمن نرى ** آيات قولك حكمة الأعمار ؟[4]

وأما الثانية فهي في حرب أمريكا لسلطة الطالبان، وقد خصّص لها عبد الواسع مدثّر قصيدته بعنوان " أمريكا ماذا فعل المسلمون في أفغانستان ؟! "، وهي فائية من 23 بيتا، وكلها تهجّم على أمريكا التي دمرت البلاد، وأبادت الشعوب ظلما وجوراً.

---

[1] – عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 374.
[2] – ساخو،الشيخ عمر:حرب إيران والعراق المسلمين، قصيدة ضادية مخطوطة، بمكتبة ابنه عبد الله، حي حمدالله، كوناكري، غينيا.
[3] – جي، أحمد محمد: حرب إيران والعراق، قصيدة مخطوطة، بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.
[4] – عثمان ، عبد السلام محمد: الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 380.

وتأتي حرب العراق في إسقاط سلطة صدام حسين لتثبت ما لأمريكا من كيد مخطّط ضد الدين والدول الإسلامية، كما يذهب إلى ذلك بقاء هاشم في نونيته : [البسيط]

10 كيد اليهود وكيد البوش صـاحبكم ** علـى الحنيفيّـة العليـا لتفتـين

11 أليس من كيدهم حرب العراق وما ** أصاب أصحابها طرّا من الهـون

13 أفي العراق صواريخ كما زعموا؟ ** ما كان دعواهم سوى الأظانين[1]

قبل الحرب الدامية انتهجت أمريكا نهج الحصار، لتجميد الاقتصاد وتجويع الشعب كمـا يـنصّ عليه الشاعر المالي علي سيدبي[2] في نونية طويلة،يتعرّض فيها لهجاء بِلْ كلِنْتُونْ: [غير موزون]

1 كفاني جرما بيـد أنّـي ** عراقي الجنس والعنوان

2 حصار دائم تجويع قـائم ** تدمير اقتصاد وإنـسان

3 هجوم إثر هجوم عـلى ** أرواح أطفال ونسوان[3]

وبعد هذا الاضطهاد الذي قاسى منه الشعب العراقي، جاءت الحملة الحربيـة تـسوّقها أمريكا مع حلفائها ــ على رأسهم بريطانيا ــ من الدول الغربية في إبادة الشعب وإسقاط صدام حسين، كما تصوّرها هذه البائية المبكية لمصطفى يونس من بنين[4] : [البسيط]

1 العين تدمع، والأعصاب تـضطرب ** والناس يصرخ حزنا كيف لا يجـب

2 النار محرقة شعب العراق، فهـل ** من يوقف الحرب والنيـران تلتهـب

6 قصف الصواريخ بالتكرار ممطرة ** والقنبلات لطمـس الأرض تنـسرب

7 كم من قتيل! وكم جرحى من البرآ ** وكم سراة لأجل الضرب قـد تربـوا

9 قد قال رائـدهم : إنـي أحرّرهـا ** هل التحـرّر مـن سـفّاح يرتقـب؟

15 تقسّم النفط ؟! والأجسام داميـة ** وسلطة الأرض والأجواء تضطرب[5]

وأمام هذه المأساة تأتي همزية أبي بكر ديارا " العراق يتظلم "، لكن إلـى مـن ترفـع تظلماتها إذا صار الحكمُ هو الخصمَ !والحلّ أن يدعى إلى الجهاد لإنقاذ الشعب، هذا ما اختـاره أحمد جي في لاميته الحماسية التي تثير ضغائن في نفوس المسلمين ضدّ بوش وجيشه: [الخفيف]

7 فلتهُبّوا إلـى الجهـاد خِفافـا ** قـصد إرداء المعتـدي، وثِقـالا

8 قاتلوا الأمركـان بـرّا وبحـراً ** بل وجوّاً، واستأصـلوهم نكـالا

9 أين مليار مـسلمٍ بعـد نـصف ** يتنـادون نجـدة وابتهـالا

16 بـاحتلالٍ لأرضـهم واسـتلاب ** وعنيـف يـستقطب الأبطـالا

(1) – إسماعيل، أبو الحسن بقاء هاشم: الإرهاب نهج أمريكي، قصيدة مخطوطة، إوو، نيجيريا.

(2) – من مواليد 1963م ومن خريجي مصر، كاتب ومسرحي وشاعر، إلا أنه لا يلتزم بالبحور العروضية المعروفة.

(3) – سيدبي، علي: العراقي، قصيدة نونية مخطوطة من 30 بيتا، بماكو، مالي.

(4) – شاعر مقل من الشعراء الشبان في بنين، تخرج في كلية الدعوة بطرابلس بليبيا.

(5) – أولاريواجو، مصطفى يونس: التعبير عن الشعور، قصيدة مخطوطة من 21 بيتا، باراكو، بنين.

27 أرهبوهم بكـلّ نــوع ســلاح ** واســتعينوا بــالله فهــو تعــالى
30 لقّنوا "ألبنتغون[1]" درساً شديداً ** يخز "بوشاً "وينشــر الأهــوالا[2]

نعم لا بدّ أن يستعينوا بالله إزاء هذه القوة المادية الهائلة، ولإيمــان الــشعراء بنــصر المجاهدين ــ رغم ضعف سلاحهم ــ فإنهم يتضرّعون إلى الله تعالى لتحقيق النصر، لذا يتوسّل محمود محمد ددبْ[3] من أقصى صحراء تِنْبُكْتُو بمالي، ممتثِلا بأوامر نقباء القادرية في بغــداد، فتوسّل على الترتيب بالأنبياء والصحابة والأولياء والفقهاء وبأهل البيت في رائية رائعة.

4)- من وجهاء السياسة الدولية :

إن اهتمام الشعراء برجال السياسة خارج القارة السمراء أكثر من اهتمــامهم بزعمــاء السياسة الإفريقية، الذين أفردْتُ المبحث السابق لهم ، رغم أن بعضهم احتلّ قسطاً كبيــرا فــي قصائد الشعراء، مثل القائد معمّر القذّافي الذي لم ينازعه غيرُه في اهتمام الشعراء به.

نفذتْ أنظار هذا الشعر إلى شخصية آية الله الخميني[4] في إيران، لتأثّر رجاله بــالثورة التاريخية التي خاضها لإقامة الدولة على النظام الإسلامي. وتكمن علّة هذا الاهتمام الكبير بهذا الإمام الديني في مذهبه الشيعي الذي لا يؤيّده هؤلاء الشعراء أو يجهلونه، لكن في موقفه العدائي لإسرائيل وأمريكا التي لقبها بالشيطان الأكبر، وكان الشعراء معجبين بمثل هذه المواقف الجريئة التي لم يكن لها نظير غير أصداء لاذعة من القيادة العامة في الجماهيرية الليبية العظمى.

عثرت على نونية السنغالي أحمد جي، التي بادرت إلى الترحيب بهذه الثــورة بزعامــة الخميني. وفيها استعراض لقيام هذه الثورة، وإشادة بصاحبها، وهجاء للأمير شاه[5]: [الرمل]

13 فــانبرى الــشيخ كــسهمٍ نافــذ ** يعرض الأرض صــريحا دون مــين
14 قال : تغييــر ! وإســلام الــورى ** للإلــه الحــق ! وصــف البغيتــين
15 لا أوالـــي أو أحـــابي طاغيـــا ** بل مرادي منـــه إحــدى الحــسنيين
16 فنفـــاه الـــشاه يبغـــي قمعـــه ** ثم يخفــي أثــراً مــن بعــد عــين
17 بيـــد أنّ الـــشعب هـــذا زاده ** هيجانـــاً : إذ ســعى فـــي ثـــورتين
28 ثم عــاد الــشعب يبــدي رفــضه ** وانتمــى فــي كــل أمــرٍ للخمينـــي
30 فأتى الشيخ مــن المنفــى وقــد ** حاز نصرا وانتصارا دون شيــن[6]

---

[1] – البنتغون تعريب لكلمة Pentagone وهي وزارة الدفاع الأمريكية، التي تقود الحملة الحربية في العراق.

[2] – جي، أحمد محمد: نداء إلى الجهاد، قصيدة مخطوطة من 53 بيتا، بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

[3] – هو شاعر وكاتب ومدرس في مدينة تِنْبُكْتُو، كان موظفا في مركز أحمد بابا التِنْبُكْتُوي. له قصائد متفرقة لمّا تجمع في ديوان.

[4] – هو روح الله الخميني (1902–1989م) زعيم الثورة الإسلامية في إيران بعد أن كان لاجئا في فرنسا.

[5] – هو محمد ريزا (1919–1980م) الذي حكم إيران (1941–1979م) وكان آخر أمراء إمارة شاه البلهوية في إيران.

[6] – جي، أحمد محمد : نجاح الثورة الإسلامية، قصيدة مخطوطة من 47 بيتا، بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

كانت لإيران، منذ قيام الثورة الإسلامية، علاقات ودية مع الدول الإسلامية توطّدها روح عدائية ضدّ الغرب، لذا فكانت وفودها تُرحَّب بها في استقبال أخوي حارّ، وتدبّج لها قصائد، مثل نونية محمد الأمين عاجْ في ترحيب مفتي إيران الشيخ معاجراني، في زيارته للسنغال.[1]

وبعد وفاة الخميني في1989/06/04م رثاه شاعر آخر[2] من السنغال بعينية رائعة، وهذا يدل على انفتاح الشعراء السنغاليين على هذه الدولة الإسلامية أكثر من غيرهم، وإن كان في غامبيا من رثاه، وهو القاضي علي ساغ، بفضائل جمّة حتى إنه لينصبه زعيما للأمة: [الكامل]

3 فقدتُ زعيم المسلمين ، وكلّنا ** يبكي عليه ، وقلبه حيران[3]

وفي مالي يحيي آخر ذكرى وفاته في ميمية متضمنة كلمات فخمة وغريبة في صفة تلو أخرى، كأنه يقابل بين مكانة الإمام بين البشر بمكانة تلك الكلمات بين مفردات اللغة : [الرمل]

9 إنه السيف الإلهي الذي ** هابه أعداء ذا الدين المُدامْ

10 إنه النور المبين الكوثر ** إنه الغِطريف مقبول الكلامْ

11 إنه الفذّ المكين الشامخ ** إنه للدين حصن وحسامْ

12 وهو نحرير وحبر ألمعي ** وهو صِنْديد ويعسوب الفِئامْ

13 وهو غيداقٌ ولهموم وسام ** أريحي، خِضْرِمٌ للدين حامْ[4]

وبعد إيران يأتي مدح ملوك السعودية في الرتبة الثانية، وفي مقدمتهم الملك فيصل الذي حرّك مشاعر الأفارقة بزياراته الأخوية لكثير من دول غربي القارة، وببنائه المساجد فيها. لقد أهدى إليه قلب الشيخ عباس صل السنغالي مدحة، بمناسبة لقائه معه في الاجتماع التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وهي طويلة من 118 بيتا، فيها حديث مستفيض عنه وعن آله وبلده[5]. ولمّا زار السنغال رحّب به محمد الأمين عاجْ بدالية رائعة نسوق هذه الأبيات منها : [الخفيف]

1 طالع قد أتى بآل سعود ** "سنغال" فنال سعد السعود

2 مرحبا مرحبا بحامي حمى اللـ ** ـه أمينا يرعى لتلك العهود

8 قام بالمثل ذاك بعد أبيه ** بعده أنت كنت فخر الجدود

24 قد حللتم على القلوب فأهلا ** بين خلّ يهوى وشعب ودود[6]

واهتموا بالملك فهد، بعد أخيه فيصل، وأضفوا عليه فضائل الكرم والجود في خدمة

---

[1] – ينظر : عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 27.

[2] – هو الأستاذ عبد العزيز سار في مدينة تواون ، وعينيته هذه من 16 بيتا.

[3] – ساغ، القاضي علي عمر: تأبين الخميني، قصيدة مخطوطة من 18 بيتا، بمكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا.

[4] – دوكوري، الشيخ يعقوب: الإمام آية الله الخميني، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، سيكاسو، مالي. ومن معاني المفردات: المدام من الدوام، والكوثر هو السخي، والغطريف بمعنى الكريم، والنحرير أي الحاذق، والألمعي بمعنى الذكي، والصنديد أي الشريف، ويعسوب الفئام بمعنى رئيس الجماعة، والغيداق هو الكريم الجواد، واللهموم أي الكثير الخير، والأريحي والخضرم أي الواسع الخلق.

[5] – ينظر: غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله ، ص 225.

[6] – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 25.

الدين : وعلى رأسه خدمة كتاب الله تعالى كما عنون أحمد حيدر قصيدته "فهد خادم القرآن" لكنه رد فيها على النظم الغربية قبل أن يقتصر على سياسته بالشريعة دون إطرائه بصفة عنوان القصيدة. وكان الشاب البنيني، سليمان محمد آل هارون، أحسن منه في التزامه بوحدة موضوع بائيته الرائعة : [الكامل]

*1 يا خادم الحرمين إنك كوكب ** وعمود دين محمد لا تُجْذَبُ*
*2 نعماؤه في المسجدين وفيرة ** وحباءُه في الحلّ ذهب ذائب*
*3 خدم الحجيجَ وعمّهم برفوده ** وبنا المرافق في الحضيض مرتب*
*4 رفع المساجد والجوامع في الثرى ** وسقى الضيوف بزمزم فتشربوا*
*5 هو وحده الساعي لطبع مصاحف ** في ثوبها البراق نجم ثاقب*
*6 كم سفّر العلماء من مأواهم ** لزيارة الحرمين كي يتقرّبوا*
*7 لم يعرف التقتير إلا أنّه ** عند السباق مشرِّقٌ ومغرِّبٌ*[1]

ولم يقتصر توجه هذا الشعر على الملك فهد بل جاوزه شعر المالي حبيب كان إلى رثاء حليلته الأميرة " العنود " بلامية من 76 بيتا ، وإلى رثاء ابنه " الأمير فيصل " بدالية في 71 بيتا.[2]

إن الشيخ أحمد جي كثير الانفتاح على أخبار العالم الإسلامي، لذا يمتاز عن غيره في السنغال بهذا التفتّح، فنجد في شعره مبادرات في مثل رثائه لمؤسّس الجماعة الإسلاميّة، الشيخ أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية بباكستان ، والمناضل ضدّ الاستعمار، وله كتب قيّمة: [الرمل]

*1 انهدّ ركن الدين بعد صمود ** مذ قيل : مات أبو العلى المودودي*
*5 وإلى التحرّر والتجدّد قد دعا ** من كان أهل تخلّف بقيود*
*6 سل عنه " باكستان " قاعدة التقى ** تنبئك عنه بشأوه الممدود*
*9 حركاته ونشاطه ملحوظة ** في عالم التأليف والتوحيد*
*14 فليبكه من كان يبكي عالما ** وليرثه من يرث للمفقود*[3]

وليس فقط رجال الفكر الإسلامي الذين نالوا اهتمام الشعراء، فنجد عند أحمد التجاني سي السنغالي قصيدتين لساسة غير المسلمين،إحداهما في إظهار حسرته على اختطاف ألدو مورو Aldo Moro (ت 1978م) واغتياله ظلما في إطاليا على يد طائفة "الجنود الحمر"،والثانية في رثاء رئيس وزراء الصين الراحل"شو هنلاي Chou En-lai" (ت 1976م)[4]الذي كان الشاعر معجبا باتجاه سياسته الشيوعية :

*1 شوهنلاي لا ترحل عن العالم الذي ** تمزّقه أيدي الطغاة الأجانب*
*11 وكنت أديبا في السياسة ماهرا ** حكيما يرى الأخلاق قبل المناصب*
*13 ولولا تعاليم الرسول وأهله ** لأصبحت في أعضائه كملازب*[5]

---

(1) – آل هارون، سليمان محمد: يا خادم الحرمين...، قصيدة مخطوطة، من 12 بيتا، بمكتبة الشاعر ، باراكو، بنين.
(2) – كانْ، حبيب عبدالله: كلمات رثاء، قصيدتان مخطوطتان، بماكو، مالي. قرضهما سنة 1999م.
(3) – جي، أحمد محمد : رثاء المودودي، قصيدة مخطوطة من 20 بيتا، بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.
(4) – الدومور سياسي إيطالي كبير أغتيل لموالاته للشيوعيين. أو ما شوهنلاي فهو أشهر سياسي بعد ماو، أغتيل من جمعية سرية.
(5) – سي، الشيخ أحمد التجاني: ديوان شعر، ص 46–47. أي لأصبح في أعضاء حزب شوهنلاي.

الفصل الرابع

موضوعات ثقافية

المبحث الأول : الثقافة الإفريقية بين الضياع والإحياء

المبحث الثاني : المظاهر الحضارية في القصيدة

المبحث الثالث : آفاق ثقافية وأبعاد فكرية

المبحث الرابع : مواقف في قضايا ثقافية وفكرية

« *إذا كانت الشعوب لا تنسجم إلا مع فنونها وتراثها* »، فإن هذا الشعر العربي الإفريقي لتعبيرٌ عن الثقافة البيئية ، « لأن الأديب ابن بيئته »، وإن كان بعض الشعراء ــ وخاصة جلّ العلماء الشيوخ ــ لم يولوا اهتمامهم بهذه القضية المهمّة، التي التزم بها إخوانهم الأدباء الـذين يكتبون باللغات الأروبية : الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية، في إفريقيا.

ولكن هذا التقصير لم يلاحظ عند الشبان الشعراء، الذين يتابعون قضايا الساعة، ويعانون من مشاكل الهوية في هذا العصر، عصر الصراعِ بين الحضارات على مسرح الدول الإفريقية، وعصر الغزوِ الفكري في جميع وسائل الإعلام، التي تسيطر على عقول الناشئة وسواد الناس، وحتّى إن بعض المثقفين لم ينجوا من التأثر المباشر أو غير المباشر بهذه التيارات الحديثة.

1)- أصالة الثقافة الإفريقية أو حركة الزنوجة :

كان الشعراء على وعي بأن الشعر سجلّ مهمّ للتاريخ ، وخاصة لتاريخ هـذه المنطقـة التي تعصف بها تيارات الغزو الفكري لطمس مجد الآباء ومآثر الأجداد، لـذا يـدعو الـشاعر النيجيري عبد السلام صالح[1] نظراءه إلى أن يوظّفوا الشعر لمثل هذه المهمة : [البسيط]

1 أراك يا شعر من أوعى سـجلّات ** لكلّ حادثة ، مـأوى المهمّـات

2 سـجّلت آلاف تـاريخ منافعهـا ** كالماء تنفـع مـرّات فمـرّات

3 وكم وقائـع قد ماتـت مآثـرها ** ولست تنسى لها وقتا وعلّات[2]

إن اتّجاه رجال هذا الشعر في إقرار أصالة التراث الإفريقي قد اختلف عـن نظـرائهم الأدباء، الذين يكتبون بالفرنسية والإنجليزية، إذ تبنّـى هـؤلاء حركـة أسـموها " الزنوجـة Négritude "[3]، ربّما لم يكن شعراؤنا على وعي بوجود هذه الحركة، إذ لم يُثِرْها غير شـيخ تجان غاي السنغالي ، والعلة تكمن في فقدان الصلة بين المستعربين والكتاب باللغات الأروبية.

ولكن توارد الخواطر ظاهرة معروفة بين أبناء البيئة لأن الظـروف تجمعهـم، ولهـذا السبب استشعر بعضهم الحاجة إلى إقرار الأصالة للتراث الإفريقي، الـشامل للثقافـة الزنجيـة والحضارات القديمة وتاريخ الإمبراطوريات، وفي هذه الحالة لا فرق بينهم وبين دعاة الزنوجة، الذين يعرفونها بقولهم : أن يقرّ الأديب بواقعه البشري والبيئي مشيدا بسواده، وإحياء لتقاليده.[4]

---

(1) – من بلدة إلورن في نيجيريا، خريج فرع كلية الدعوة في بنين، له قصائد كثيرة قد تصل إلى مجموعة ديوانية.

(2) – نخبة من الشعراء : البنينيات، ص 34.

(3) – حركة أدبية وسياسية معا، أسسها الزنوج في فرنسا في القرن العشرين، ومن روادها إيميه سيزير من جزيرة مارتينيك الفرنسية، وليوبولد سيدار سنغور رئيس السنغال الأسبق، وليون دامس من غويانا الفرنسية بالكاريبي بأمريكا الجنوبية.

(4) – شطا، خليل:"الأدب الزنجي الإفريقي الحديث"، مجلة المعرفة،دمشق،العدد 235(سبتمبر د.ت)، ص 96.

ولكن انظر أولا كيف يتغنّى الشاعر غاي بسواده مفتخراً ومناجيا ربّه : [الكامل]

4 يا رب إنّي لا أريد لبشرتي الســـ ** ـــسوداء مسخا عند يـوم الموعـد

5 أسـوادنا ذنـب تحاسـبنا بـه ** ما ذنبنـا فـي خلقـة لـم نـشهد

6 أنت الـذي سـوّدتني وأنـا بـه ** والله فخـر فـي رحـاب الـسؤدد

7 أبياض أبيض ميـزة يعلـى بهـا ** أين التقى؟أين الهدى في المـورد؟!

8 يا ربّي اجعل لهجتي فـي جنّتـي ** رسمية فـي ظـلّ عـيش أرغـد

9 لا تفرضـنّ لغـة علـيّ بحالـة ** فهنـاك لا فرض لشـيء منكـد[1]

والبيت الأخير هنا يردّنا إلى قصيدة أخرى للشاعر هي " آن الأوان "، حيث يرى أن الأصالة الثقافية في حفظ اللغات المحلية والتمسّك بالأراضي البيئية، وفيها تكمن الهوية الإفريقية: [البسيط]

11 إن كان لا بدّ من دمـعٍ تفيـق بـه ** فاصببه في (وال)أو صبنه في (بـول)

12 ما دمتَ تسجد تبكـي عنـد منطقـة ** فاجعل (جلف) مسجدا في أسرع الأجل

16 آن الأوان إذا ما لـم يفـت لنـرى ** من نحن ؟ والدهر برق مفرط العجـل

17 إهمـالكم لغـة الأجـداد لـيس لـه ** مبرّر غيـر ضـيق الأفـق والخطـل

19 كن زنجيّـا مـسلماً ولا تـذب أبـدا ** من ذاب أصـبح مفقـودا بـلا أمـل

20 أيرفض الدين غير الضاد مـن لغـة ** ما قـال ذلك غـير الغمـر والوكلِ[2]

الجدير بالذكر أن هذا الشاعر السنغالي كان على وعي بحركة الزنوجة أكثر من نظرائه، ولكنه مال إلى ذكر مآثر الأجداد ليكون ذلك نمطا آخر لإثبات الأصالة الثقافية، وخاصة في قصيدته " المجد "، وفي هذا المنحى الأخير يلتقي بكثير من نظرائه في المنطقة، وخاصة جاره الغامبي محمد الإمام غاسما الذي يرد على من ينكر تلك الأصالة للتراث الإفريقي : [الكامل]

1 قولـوا لمـتّهم ينمّـق فريـة ** ويقـول إنّـا أمّـة عميـاء

2 في بطن أسفار الشعوب شمائل ** لجـدودنا برّاقـة بيـضاء

3 تحكي لك الأخبـار إنّـك واهـم ** وزعمتَ قـولا ردّه العقـلاء

33 فاستشعروا يا أمّـتي أمجـادكم ** فبكم تباهي القارة العذراء[3]

وقد يري بعض الشعراء أنّ شرف الأصالة يكمن في ردّ أنسابهم إلى النبي ﷺ أو أصحابه رضي الله عنهم، وفي ذلك تكلّف وتعسّف منهم، وأكثرهم من بعض الشيوخ الصوفية في السنغال ونيجيريا أو في القبائل العربية بالنيجر ومالي[4] ، إن مثل هذه الادعاءات من نتيجة غلبة الدين

---

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، ص 135–136. قرضها في مدينة البيضاء بليبيا بتاريخ 1978/07/21م.

(2) – المصدر نفسه ، ص 134.

(3) – غاسما، محمد الإمام سمبو : بنات القريحة ، ص 1–2.

(4) – قد يكون بعضهم يصيبون،ولكن الأكثرية زعم وافتراء،وحتى إن الشعراء الأفارقة التقليديين لم يتخلصوا من هذه النعرة الهوسية.

على الوعي بأصالة الثقافة إلى درجة الهوس، أو يبغون بذلك استغلال الشعوب.

وبعد إقرارهم لأصالة هذا المجد التليد فإن بعضهم يبكون على ضياعه، وينكرون على المستعمرين الذين طمسوه وسرقوا تراثه إلى مكتباتهم، والجدير بالتذكير أن هؤلاء لا يفصلون الثقافة الإفريقية عن الثقافة الإسلامية، بل تراث الأجداد تراث إسلامي. وربما يعدّ الشاعر الغيني محمد الأمين جابي أحسن من تناول هذه الفكرة في قصيدتيه " الهوية المفقودة" و" بنو السودان "، ومن هذه الأخيرة هذه الروائع الشعرية : [الكامل]

*4 عرّج على إفريقيا السوداء في الـ ** غـرب البعيد وربّما تتذكّر*

*5 سل عن فحول العلم في إفريقيا ** تركوا من الآثار ما لا يُنْكَر*

*6 ما مات منهم عالم إلا أتى ** بمماته نجمٌ مضيء يظهر*

*20 وتفقّهوا في الدين حتى ألّفوا ** فيه من الأسفار ما لا يحصر*

*21 وتبحروا في النحو حتى إنّه ** أضحى لديهم سيبويهٌ أقدر*

*28 إن كنت في شكّ سل التاريخ عنْ ** شنقيط حيث العلم فيها يُنْشَر*

*29 لا تنس عن فوتا وعن طوبى التي ** كانت منارا بالمعارف تفخر*(1)

2)- الهوية الإفريقية الإسلامية :

لا تكاد تفرّق في هذا الشعر الحدود الفاصلة بين الثقافة الإفريقية والثقافة الإسلامية، وإن أقرّوا بأن الثقافة الإسلامية وافدة إليهم، فإن الأجداد لم يقصّروا في تبنّي هذه الثقافة ودمجها مع تقاليدهم، وخدمتها بجهود مشكورة حتى أصبحت من المقوّمات الأساسية للثقافة الإفريقية، لذا فإن هويّتهم صارت هي الهوية الإسلامية، وذلك لدورهم في إحياء التراث الإسلامي:[الكامل]

*22 وسطَوْا على العقد الفريد فلم يعد ** عقداً فريداً، بل عقوداً تكثر*

*23 وسطوا على سجع الكلام وأُولِعُوا ** بجناسه، فأتوا بما هو أكثر*

*24 نسجوا على نسج ابن مالك وارتقوا ** مرقى الحريري عنه لم يتأخروا*

*25 وتطّلعوا شوقا إلى مرقى الغزا ** لي صاحب الإحياء، ثمّت أبحروا*

*26 بل زاحموا الياقوت في بلدانه ** فتفنّنوا ، وتعمّقوا، وتبحّروا*

*27 رغم الصعوبة في التنقّل أصبحوا ** يتواصلون، وليس ثمّت معبر*(1)

هذه الأبيات جزء من قصيدة " بنو السودان " السابق ذكرها، والتي يحاول فيها محمد الأمين جابي أن ينسج بين الهويتين الإفريقية والإسلامية نسجا متينا بخيوط لا فرق بين سوادها وبياضها. ولهذا صدق الشاعر الغامبي غاسما حين سطر :

*18 أسلافنا رواد كل تقدّم ** نحن لأعرق معشر أبناء*(2)

---

(1) – جابي، محمد الأمين : بنو السودان ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كينديا، غينيا.**يقصد " فوتاجالون وطوبى " بغينيا.**

(2) – غاسما، محمد الإمام سامبو: بنات القريحة ، ص 1.

ولكن هذه الهوية الإسلامية المشتركة صارت في حالة يرثى لها، إذا لم يعوّذها أيدي المحرّرين، لأن التغريب قد دنّس هويتنا، ومسّ ثقافتنا، وأثّر في حياتنا، فأصبحنا نقيس قيمة مجدنا بمعيار الثقافة الغربية، كما جاءت في هذه الأبيات من قصيدة "الهوية المفقودة ": [الكامل]

61 وإذا اتّباع الغرب فيه تقدّم ** وتمدّن، وتظرّف، وتحضّر

68 تاريخهم أضحى مدار حياتنا ** وبه نقدّم شأننا ونؤخّر

69 أيّامنا أسماء أوثان لهم ** وبها نؤرّخ كلّ شأن يؤثر

70 للشمس يوم الأحد، والاثنين للـ ** ـقمر المبجّل، والبقيّة أكثر

71 ميلاد عيسى ما لنا من ناقة ** فيه، ولا جمل يساق وينحر

72 أو ليس يكفي المسلمين كرامة ** ميلاد أحمد ، فهو نعم المفخر (1)

ولكن هذه المحاولات التغريبية والتخريبية فشلت أمام الصحوة الحديثة، وفي هذا الشعر كثرت الحِكَم الشريفة التي تدل من جهة على صفاء ينبوع التفكير الإفريقي، ومن جهة أخرى تدلّ على أن الهوية الإفريقية ذات طابع متأثر بالهوية الإسلامية.

وهذا ما ينتهي إليه كلّ من يقف على الأبيات الآتية التي نسوقها أولا عن ترجمة الأمثال أو الحكم المحلية في صياغة شعرية رائعة :

يقول القاضي مَجَخَتِ كَلَ السنغالي، في فخر وهو يهدّد صاحبه في دعابة : [الطويل]

7 أنا طعام مرّ من يذُقْني يمجّني ** ومن ذاقني لا بدّ أن قاء أو طاحا (2)

ويرد الشيخ إبراهيم غُشِيغُ الغاني على من ينكر التجانية ويسعى في القضاء عليها:[الوافر]

17 ومن يك حاجبا شمسا بكفّ ** فَسِمْهُ بِدُغَةٍ أو بالبهيم

18 ومن يك ناحتا جبلا بظفر ** أظنّ بعجزه دون المرام (3)

ويقول الشيخ إدريس عبد الله إدريس من بنين في حمل أعباء رسالة نشر العلم :[الطويل]

1 ألم تر أن الحرّ عبد لقومه ** وإن احتمال الناس كان ثقيلا (4)

ويصور أبو رضوان المالي مكانة القائد القذافي بين الحكام بمكانة السمك الطريء بين المجفّفات التي تباع في الأسواق العامة، وتطبخ في أنواع من الدسمة :

2 بون كبير بينك وبينهم ** كأسماكهم متجفّفات واليمّ (5)

ومن هذه الثقافة البيئية، التي حاول الشعراء من خلالها إثبات أصالة الفكر الإفريقي، يربطون هذه الأصالة بالثقافة العالمية في ما يربطهم بجميع البشر، لذا قدّموا ما في جعبتهم

---

(1) – جابي، محمد الأمين : الهوية المفقودة، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كينديا، غينيا.

(2) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 71/2.

(3) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : صلاة الفاتح، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، مدينة تمالي، غانا.

(4) – إدريس، إدريس عبد الله : مقطعة شعرية في ذيل رسالة إخوانية، مخطوطة، باراكو، بنين.

(5) – تيام، أبو رضوان المدني : يا عين ليبيا، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، سيقو ، مالي. شعره غير ملتزم بالأوزان الشعرية.

من تفكير حول " الموت "، الذي لا ينكر أحد أنه مصير كل الأحياء، وهذا ما يؤكده هذان البيتان من الشيخ أحمد البوصيري[1]من نيجيريا، يقول في قصيدتين مختلفتين:[البسيط/الطويل]

الموت والأجل يأتي على أجل ** والمرء يسهى هجوم الموت بالعجل[2]

وإن مات أهل العلم والموت عزّهم ** وما الموت إلا راحة للمجاهد[3]

وجاء في رثاء أبي بكر دوكوري (كسيما)[4] لدنب واكي ما نصّه :

فالموت سهمٌ يصيب الخلق كلّهم ** من سائس أو مسوس أو سري علا[5]

وفي ذلك كفاية ، وإلاّ فاقرأ قصيدة " حوار مع النفس " لمعروف مصطفى أحمد كي تقف على مزيد من مزايا التفكير الإفريقي[6]، وكذلك في مراثي الشعراء عن الحاج عبد العزيز سي السنغالي[7] مثلا، وعن المرحوم عثمان أبي بكر من نيجيريا[8].

وإن كانت قضية الموت، والحِكَم حولها، تراث بشري يهتدي إليه الناس أيّاً كانت جذور ثقافتهم، ومع ذلك فإن العقول تزداد نورا عندما تستنير بضياء الهدي القرآني والنبوي، لذا فإن ما سنسوقه الآن من أبيات توضّح مدى اتّسام الثقافة الإفريقية بالهوية الإسلامية :

يرى الشاعر الغيني جِرْنو سعد دالين أن المُلْك أساسه الدين : [الكامل]

دين ومُلْك توأمان، دين أســ ** ـس ملك حارسه فلا يتزلزل

مُلْك بلا دين جدار مائل ** دين بلا ملك كميّ أعزل[9]

وفي نونية عبد العزيز سار السنغالي " الإنسان والكون" تزول حيرة من يتأمل الطبيعة ليرى برهان قدرة مدبّر حكيم. وقصيدة "الحكمة" للشيخ بنيامن ماتلا غنية بروائع الفكر الإنساني.[10] وانظر كيف يندّد الشيخ البشير جاو المالي بالبخل في عفة وقناعة : [الكامل]

2 لم أدر بخل الأغنياء وإنّما ** يدريه محتاج إلى أموالهم[11]

ويقول شعبان الحسن البنيني في التواضع حكمة مستقاة جذورها من الدين :

6 ولولا تواضع الغنّيّ لربّه ** لصار لماله عدوّاً ويجحد[12]

---

(1) – ولد 1922م تتلمذ على عبد السلام يوسف، كان صاحب معهد وشاعرا، له ديوان تناوله بعض الباحثين في الرسائل العلمية.

(2) – تيجاني،فضل الرحمن:دراسة نقدية للشعر العربي لأحمد البوصيري،الماجستير،قسم اللغة العربية، جامعة إلورن،نيجيريا،ص52.

(3) – المصدر نفسه ، ص 72.

(4) – أحد تلاميذ الشيخ دنب واكي في مدينة براوولي، لم نجد له شعرا كثيرا، وسبق أن ترجمنا لشيخه.

(5) – ديارا، سيدي: شخصية المرحوم دنب واكي وآثاره، بحث التخرج لقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة بماكو، مالي،ص21

(6) – أحمد، معروف مصطفى: ق فاك وحوار مع النفس، سلسلة الكلمة الطيبة صدقة، دار المعرفة، جاكندي، لاغوس، نيجيريا.

(7) – انكوم، الدكتور محمد البشير وآخر: لمحات عن حياة الشيخ الحاج عبد العزيز سي، مطبعة بني ازناسن، ص 158 – 223.

(8) – لجنة من أصدقاء المرحوم: المرحوم عثمان أبوبكر أيلبينلا في السطور، الطبعة الأولى 1423هـ/2002م.

(9) – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 296/1.

(10) – عبدالحميد، توفيق:التحليل الأدبي لرائية بنيامن ماتلا،الماجستير،شعبة اللغة العربية،كلية الآداب،جامعة إلورن،نجيريا، ص 16.

(11) – جاو، الشيخ بشير: ديوان شعر، مخطوط، ص 35.

(12) – لواني، شعبان الحسن: التواضع، قصيدة مخطوطة، اندالي، بنين. والشاعر خريج كلية الدعوة في طرابلس، وشعره قليل.

إذا كان الشعر تعبيرا عن بيئة الأديب، الذي بقدرته الفنية يصوّر لنا جميع ما في حياته من المعطيات الطبيعية وإنجازات البشر من خلال رؤيته الأدبية، كما هو عادة الشعراء العرب في العصور الأدبية المعروفة، فإني أرى أن أتناول قضية تصوير الإنجازات البشرية في هذا الشعر ، لنعرف هل استطاع الشعراء أن يصوّروا في إنتاجهم الفني ما خلّفت الأجيال من حضارة، وما بنت لهم المدنية من مظاهر حضارية، وما لفت أنظارَهم من إنجازات علمية وتكنولوجية.

وفي هذا المضمار سنقف معاً على مدى قدرتهم الشعرية في مجاراة تطوّر بيئتهم، لنتبيّن من خلال ذلك مدى أصالتهم الأدبية، ومدى صلتهم بحياتهم الواقعية، لأن الخيول والنوق التي برع القدماء في وصفها، قد قامت مقامها السياراتُ ووسائل النقل الحديثة :

هل كانت هذه المظاهر الحديثة مثيرة لمشاعر الشعراء ؟

وهل تجدّدت أساليب الشعراء لاستيعاب أوصاف هذه المظاهر الحديثة ؟

وهل وصفوا حضارتهم القديمة ومظاهرها التاريخية، لإحيائها في تراثهم الأدبي ؟

بل وهل ظهرت هذه الإنجازات العلمية والتكنولوجية في هذا الإنتاج الشعري المعاصر؟

تساؤلات سيجيب عنها هذا المبحث، الذي ينقسم إلى المحاور الآتية :

1)- الحضارة الإفريقية والإسلامية :

لم يتغافل الشعراء عن إبراز الحضارة الإفريقية في إنتاجهم، فتجد بعض قصائدهم غنية بكثرة ذكر المدن التاريخية، وملوك الإمبراطوريات، وأبطال المعارك، وكبار العلماء ، وهذه الإشارات تعدّ رموزا شعرية يكتفي بها الشعراء عن تفصيل وصف تلك المظاهر الحضارية.

ربما تعدّ أرجوزة الشيخ عمر كركي من غانا أكثر عناية بذكر تلك الرموز الشعرية، التي قد يجهلها كثير من العلماء، ولكن له نظرة شاملة، إذ حاول أن يسلّط الضوء على أكثر المدن الحضارية الإفريقية من فوتاطورو في السنغال إلى نيجيريا : [الرجز]

8 مبدؤها من (فوت تور) لا مرى ** عمت إلى فوت جل يا سامري

12 لا تنس (ماسن) لها آيات ** وكان أهلها لهم آلات

18 بل أرض (فنت) كلها قد ملكت ** ملوكها صاروا عبيدا هتكت

19 بالغ ملكهم لأرض (أونا) ** (أغاش داحم عكو) ثم (دنا)[1]

---

(1) – Muhamed, Abass U: Alhaj Umar Abibakri ibn Uthman Kete-krachie, p 134

وفي قصيدة " صفحات من الماضي " للغامبي محمد الإمام سامبو غساما السابق ذكرها نجد لمسات حضارية في أكثر من بقاع غربي القارة : [الكامل]

9 ببنــين قامــت نهــضة فنيّــة ** فاقت أقر بـصيتها الأعـداء
10 تمبكتـــو كانـــت لكـــل مثقّــف ** دارا فأسرع صوبها القــراء
11 كانت معاهدها الـضخام منــارة ** وعلومهــا للوافــدين غــذاء
12 قد أمّها صفر الرجــال وبيــضهم ** من كلّ شبر ضمّه الأرجــاء
13 وعلى ضفاف النيل قومي أبدعوا ** فــنّ الزراعــة إنــه لمنــاء
14 مجرى الحضارة قد تغيّــر فجــأة ** بظهوره ونمت بــه الأنحــاء
15 عظمي الممالك قد رفعنا صرحها ** سنغاي لو قيمتهــا الجــوزاء
16 برنو وكانم ثــم مــالي وبعــدها ** سنار ثمة غينيــا الخـضراء
17 هي كلـــها كانت ممالـــك أمّة ** نالت علاما بعـده عليــاء[1]

ولكن الشاعر الغيني في مدينة طوبي، الحاج مختار الكبير، يميل إلى التعمق في حصر وصفه للحضارة الإفريقية بمنطقة تنك بغينيا ، لذا أسمى قصيدته " مآثر تنك "، نقتطف منها هذه الأبيات الرائعة : [الطويل]

4 لوازم مجدٍ فــي جــوا "تنْــكَ" جمّــة ** فإنكارهــا لا يستــساغ لمــشبك
5 جيـــاد وأبقـــار، أكـــاف وشـــيرة ** وأحذيـــة بالكهربـــائي تـــشرك
6 دساكر تزري عرش بلقــيس فرشُــها ** أرائك أحلاس، طنــافس دومــك
7 مخـــاد زرابـــيّ، مـــساور ســـادة ** منابذ فــي حافــات بيــت مفلّــك
8 بلاط مــن الألمــاس فــي حجراتهــا ** وأعمــدة ترســو بجيــرٍ مفلّــك
9 حرائر دُعْـــجٌ مبرقــات غــرائر ** عليهنّ أدران على كلّ مســلك[2]

ومن الحضارة الإفريقية التداوي بالأعشاب، حتى قال الصيادون في ذلك : أن ليس هناك ورقة ولا جزء من الأشجار إلا وله منافع في شفاء الإنسان، وجهلنا لمنافع الأشــجار لا يعنــي خلوّها من كونها دواء. وعلى هذا يقول الشيخ محمد البشير جاو في مدينة سيقو بمالي: [الخفيف]

5 شجرات الشفاء فاطبخ وفاشربْ ** ماءها شرب من ينال يقينــا
6 قد ترى إن لازمت ذاك معافى ** بارئا فالتــزم دواء سنــينا[3]

ويشير الشيخ محمد الهادي توري إلى مثل ذلك في قصيدته القافية الطويلة.[4]

---

(1) – غساما ، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 1.

(2) – جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي، بالجامعة الإسلامية، سايْ، النيجر، 2002م.

(3) – جاو، الشيخ محمد البشير : ديوان شعر، ص 16.

(4) – غاي، شيخ تجان : هذا العبقري الشيخ محمد الهادي توري ، ص 63.

وفي قصيدة جميل عبد الله النيجيري " مصر : المسرح العجيب ! " تلتقي الحضارة الإفريقية بالحضارة الإسلامية حيث ينقل الشاعر قارئه إلى رحلة سياحية ليشاهد معه أقدم حضارة بشرية : [الطويل]

*20 فأوّل ما شاهدت أهرام جيزة ** شيّدها قوم عمالقة أُسْدٌ*
*21 مثلّثةً تكسو المشاهد روعة ** قباب مدى الأزمان آياتها خُلْد*
*22 وإن تك أهرام بـ "كانو" لفستُق ** فهذى من أحجار تحمّلها جهدٌ*
*23 جثى بين أيديها أبو الهول قاطبا ** كليث جثى دون العرين لمن يبدو*
*24 وأهرام خوفو والسقارة ظلّتا ** مزارَ سُياحٍ لا يقاطعه الورد*
*25 وآثار طيسنْ حول نيلٍ ومعبد ** والأقصر باقٍ ما أخلّ به العهد* (1)

فلو كان الشاعر سنغاليا لأشار إلى رأي الباحث المتخصص في الدراسات الفرعونية، شيخ أنْتا جوبْ، الذي يذهب إلى إبراز دور الأفارقة السود في الحضارة الفرعونية، بل ينصّ على أن الفراعنة كانوا سودا سُمْرَ اللون بأشعارهم المجعّدة في كتابه المشهور " Nations nègres et culture "(2). ولكن الشاعر مضى إلى ربط هذه الحضارة الإفريقية بالحضارة الإسلامية، التي أقامها المسلمون منذ فتح مصر، وخاصة في عهد الفاطميين، الذين أسّسوا فيها أول جامعة عالمية، كانت مقصد الطلاب ومأوى العلماء الوافدين، ومسقط رأس عباقرة في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ذكر بعضهم في بيان جذّاب ، كقوله : [الطويل]

*33 ثواها الإمام الشافعي مربّيا ** وليث وورش والسيوطي وهم جود*
*37 وسيد قطب سيد الحبر والحجا ** وكشك وشعراوي هل لهما ندّ*
*42 ومحمود سامي رب سيف وحكمة ** وشوقي أمير الشعر بايعه الحشد*
*45 فعقّدها العقّاد بين رجالها ** وطه حسين إذ أتى احتدم النقد* (3)

هكذا تلتقي الحضارة الإفريقية بالحضارة الإسلامية في كثير من قصائد القوم، ولذا يشير بعضهم إلى المجد التليد في الأندلس مثلا عند الشاعر الغامبي الدكتور امباي كاه : [الطويل]

*14 يا دار (قرطبة) العلياء فانخفقي ** للعلم فيكِ عنايات وإحسان*
*15 مناظراتك للأفهام تصقلها ** للشعر والنقد في ناديك ميدان*
*16 وسعت كل وفود العلم راضية ** آبوا وظمآنهم بالعلم ريّان*
*17 إن الملوك وحكام البلاد سعوا ** في أن تفيدهم والكل لهفان*
*25 كانت حضارتنا في الغرب زاهرة ** والغرب قفر قليل العلم عميان* (4)

---

(1) – عبد الله ، جميل : مصر المسرح العجيب ! ، قصيدة مخطوطة، كانو، نيجيريا.

(2) – ينظر ص 155 من ترجمته إلى العربية بعنوان " الأصول الزنجية للحضارة المصرية " على يد حليم طوسون.

(3) – عبد الله ، جميل : مصر المسرح العجيب ! ، قصيدة مخطوطة، كانو، نيجيريا.

(4) – كاه، الدكتور امباي بن كيبا : خواطر عن بلاد الأندلس ، قصيدة مخطوطة، سريكوندا، غامبيا.

وكأن الشاعر الغيني محمد الأمين جابي اعتمد على هذا البيت الأخير لينسج منه نماذج كثيرة لبيان تفوّق الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية : [الوافر]

*4 ولم تك نهضة الإفرنْج إلّا ** شعاعا من تراث المسلمينا*
*5 وليسوا في مجال العلم إلا ** تلامذة لكم ومقلّدينا*
*6 يباهي الغرب بالتجريب فنّا ** لتمحيص الحقائق زاعمينا*
*7 فـ "بيكون" كما قالوا مراراً ** أبو التجريب أو "ديكارْتُ" حينا*
*8 لقد أنجبتم الرازي طبيبا ** وأنجبتم كذلك إبنَ سينا*
*9 وفي علم الرياضيات كنتم ** بلا شكّ فحولا نابغينا*
*10 وكان الصفر مجهولا تماما ** فأوجدتم به رقما ثمينا*
*11 وعلم الجبر أنتم واضعوه ** وأرسيتم له أسّا ثمينا*
*12 لكم في الكيميا باع طويل ** وكان له ابن حيّان قرينا*
*13 ولابن الهيثم المشهور فضل ** على علم الطبيعة في السنينا*
*14 له في الضوء والإبصار رأي ** أفاد به جهود الباحثينا*
*15 سبقتم في العلوم بلا نزاع ** رجال الغرب رغم المنكرينا*
*16 وإن جاءوا بديوي أو بروسو ** وغيرهما فليسوا سابقينا*
*17 وإن جاءوا بأوغُسْتٍ كفاكم ** مقدمة ابن خلدون مبينه*
*18 وسعتم عالم الأفلاك درساً ** وكنتم للكواكب راصدينا*
*19 وكنتم قبل غاليلي قرونا ** لأمكنة الكواكب دارسينا*
*20 وفي استقرار هذا الكون كنتم ** بأمر الجاذبية عالمينا*
*21 سبقتم بالغزالي بل سبقتم ** بآراء الغزالي الغابرينا*
*22 ففي ميدان علم النفس أرسى ** قواعد في سبيل الناشئينا*
*23 أقمتُم قوّة في البحر سدتُم ** بها الأندلسَ دهرا حاكمينا*
*24 وشيّدتم ممالك شامخاتٍ ** بها ازدهرتْ حضارتكم سنينا*
*25 مراكز للثقافة لا تضاهى ** فكانت قبلة المتعلمينا*
*26 وفي فنّ العمارة قد تركتم ** روائع خالداتٍ مبدعينا*
*27 سلوا غرناطة ماذا تركتم ** بها ؟ شيّدتم قصراً مكيناً*
*28 تجلّتْ روعة الإبداع فيها ** فكنتم في البناء مهندسينا* [1]

ليست هذه من لغة المشاعر فحسب، بل إن لأفكاره بصمات تاريخية، يعزّزها كتاب "*شمس العرب تسطع على الغرب*" للمستشرقة الألمانية د. زيغريد هونكة Dr. Sigrid Hunke.[2]

---

[1] – جابي، محمد الأمين : خلفاء الأرض، قصيدة مخطوطة ، كينديا، غينيا.

[2] – هي أستاذة جامعية، وزوجة للمستشرق الكبيرشولتزا، يعيشان في بون بألمانيا، ونشرت كتابها هذا سنة 1964م فثارت ضجة كبيرة في أوساط المفكرين، وتناولتها المجلات والصحف بين دفاع واعتراض، ونقله إلى العربية فاروق بيضون وكمال دسوقي.

2)- مظاهر الحضارة المدنية :

ولكن بعض الشعراء أعرضوا عن حضارة إفريقيا القديمة إلى تصوير ما عليه المدن الحديثة ، فيصفون الشوارع والقصور وكل ما يدل على أنّ إفريقيا تواكب عصر التمدّن في حضارته وتطوره الثقافي، لكي تظهر إفريقيا في صورته الجديدة.

وأول هذه المشاهد ما يلقاه المرء من قصور كبيرة، وعمارات شامخة ، وديار جميلة، لذا وضع الشيخ يعقوب دوكوري على ألسنة تلاميذه قصيدة " زرنا المدينة " : [الوافر]

3 أخي فانظر لناطحة السحاب ** وأعلِ الرأس فالمنظور عال

4 ولا تعجب أدرْ نظراً قليلا ** لأضواء الشوارع والتلال

11 تخال إذا دخلتَ أخي المدينهْ ** كأنّك في الجنان من الجمال

15 وزخرفة المباني والدكاكيـ ** ـن والأسواق تُدهش كلَّ بال[1]

ويبدو في إنتاج الشعراء عدم التعمّق في وصف هذه المظاهر، ولم أعثر على من انفرد بوصف قصر أو عمارة شامخة ...الخ، وإن كانت أبياتهم المتخلّلة لتكفي دليلا على اهتمامهم بما يحيط بهم من مظاهر حضارية. وانظر كيف يصوّر الشيخ محمد السراج ــ من غينيا بيساو ــ شوارعَ مدينة تياس Thiès بالسنغال في قصيدته " الموسم المدني السنوي" : [الكامل]

9 ضاقت بها طرقاتها فتلاحقت ** تحدو لأولى ركبها أخراها

17 غرّ لياليهم بها مشهودة ** زينت بذكر الله ما أحلاها[2]

كما اكتفى كذلك الشاب المالي يوسف جغوراغا بوصف ميناء ساحل العاج ومطارها في هذين البيتين، وكان بإمكانه أن يتحفنا بكثير من مشاهده الجميلة لهذين المكانين العظيمين : [الوافر]

وميناء بهيج في أبِدْجَنْ ** مطار العاج مزوار الأهالي

معامرها تضاحي بالبريس ** تنوّر بالمصابح في الليالي[3]

وفي ميمية كرامو طلبي نلتقط أسماء الفنادق والسينما في إشارات خاطفة لا وصف لهما.[4] وحتى في قصيدة الشيخ أحمد التجاني سي السنغالي عن "المغرب العربي" لم يستطعْ أن يطيل نفَسه في وصف ما هناك من مظاهر حضارية جميلة ، بل اكتفى بوصف مَلِكهِ الحسن الثاني وأجوائه الطبيعية.[5] وفي " بنت الزمان " لمحمد الأمين عاجْ نلقى تحوّل البنات من إهمال اللباس الإفريقي إلى الألبسة الأوروبية : كالبنطلون، والفستان القصير، والأثواب الشفّافة.[6]

---

(1) – دوكوري، المعلم يعقوب : البستان ، ص 60-61.

(2) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 480.

(3) – جغوراغا، يوسف : قطرات فؤاد من وصف ساحل العاج، قصيدة مخطوطة ، بماكو، مالي.

(4) – طلبي، كرامو : قدوة المولود، ص 64.

(5) – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 22.

(6) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، ص 22.

3)- مظاهر الحضارة العلمية والتكنولوجية :

إن القرن العشرين ـــ الذي يعدّ الإطار الزمني لدراستنا ـــ قد أتى بثورة علمية وتكنولوجية ما يبهر العقول، ويدهش الأذهان، ويثير المشاعر، ويؤثّر في العواطف. وخاصة أن أكثر الشعراء في بداية هذا القرن قد فوجئوا بهذه الإنجازات العلمية ، فعدّوه من غرائب الدهر وعجائب العصر. وما زال الشعراء المعاصرون في عجب عجيب ممّا يؤتى لهم من الصناعات التكنولوجية من جديد في وسائل النقل ووسائل الاتصال والإعلام والأسلحة النارية والذرية...الخ

إذا كان الأمر هكذا فإن المرء ينتظر من الشعراء الشيء الكثير من الإنتاج الشعري، يعبّرون فيه عن دهشتهم وإعجابهم، ويصوّرون فيه بمشاعرهم المرهفة كلّ ما تقع عليه أبصارهم من هذه العجائب العلمية والتكنولوجية.

ومع الأسف فإن الأمر لم يكن على ما يتوقّع ، وكأنّهم لم يشعروا أنّ كل ذلك من آيات الله في الكون، لا من معجزات الغربيين الذين يعدّونهم كفرة وملحدين.

وهل إهمال الشعراء يُبرَّر بأن ذلك من إنجازات الكفرة ؟

أو أنّ وصفهم لها تعزيز لإلحادهم ؟

أو أنهم عجزوا أن يطوّعوا اللغة العربية لهذه الأساليب الجديدة ؟

بل إن الشعراء العرب في هذا العصر لم يبرعوا في وصف هذه الإنجازات العلمية؟

وإن كان من العسير أن نجيب على هذه التساؤلات بجواب يشفي الصدور، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أولئك الذين حاولوا أن يبرهنوا على ملكتهم الأدبية في تصوير كلّ ما استجدّ في حياتهم من اكتشافات علمية وتكنولوجية.

إذا ما سمعتَ عن قصيدة "*في العلم والتكنولوجية الحديثة* " فتبتهج بأن شاعرها، مثل عبد الرحمن الزكوي من نيجيريا، سيتحفك بأوصاف رائعة لهذه الإنجازات الحديثة ، ولكنه هنا قد أخلف رجاء عاشقيه في هذه الحالة ؛ إذ لم يتناول إلا فضل العلم الطبيعي الذي تفوّق فيه الغرب على الشرق، وخاصة إن أبياته محدودة في أحد عشر بيتا.[1]

وأول ما أثار مشاعر الشعراء هو الطائرة ، التي ارتبط الحديث عنها بوصف رحلاتهم، وخاصة الرحلات إلى الأراضي المقدسة، علماً بأن وصف الرحلات من الأغراض القديمة التي أولع بها الشعراء، لذا وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى تناول هذه الطائرة أو " سفينة السماء أو سفينة الهواء" كما تسمّيها بعض اللغات المحلية. وفي هذا الصدد قطع الوزير جنيد النيجيري قصب السبق أمام شعراء المنطقة في ابتكاره لتصوير الطائرة تصويرا دقيقا ومتعمقا فيه:[البسيط]

---

(1) – الزكوي، عبد الرحمن : العقيان ، ص 4-5.

يا من يـــصعّد أنفاســا بأنفــاس ** شوقاً بخرطوم ذات الورد والآس
اصبر قليلا فإنّا ســوف تحملنــا ** رعادةٌ الهــوا ململومــة الــرأس
صــعادة تتبــاري فـــي تجوّلهــا ** شهب السماء التي ترمي بأقباس
طيــارة صــوتها عــال مجوّفــة ** زمكّها كذوابي الشاهق الراسي[1]
أنّانة في نزول عنــد مــا بلغــت ** إلى المحطة تمشي مشي ميــاس
مملــــوءة بكراســــي ملينــــة ** بالخيش تلبس ترويجــا لجــلاس
تنقاد طائعة في كنــف صــاحبها ** كدابة ذللت فـــي كــفّ ســواس
فاعجبْ لها إنّها عنقــاء مغربــةٌ ** جاءت تذكر عباس بن فرناس[2]
بين الجناحين منها نيط مروحــة ** تدور من حولها من غير إنكاس
تعطي الدخان وتنهى عن تعاملنا ** به عليها وهذا خلف مقيــاس[3]

وقد حاول الحاج أحمد امبكي (ت 1988م)[4] في قصيدة رحلته إلى الحــج أن يــصف الطائرة، إلا أن وصفه لم يبلغ شأو الأول، بل كان أسلوبه إنشائيا في مثل قوله: [الكامل]

1 طيري وزفي في الهواء زفيفا ** بسلامة ممّن يدوم لطيفا [5]

وإذا كان أمر الطائرات عجيبا فإن اكتشاف السفينة الفضائية التي تخطّت حدود الأرض إلى سطح القمر كان أعجب وأبهر. ربما لم يشر أحد إلى ذلك في شعره غير النيجيــري عمــر إبراهيم، والسبب يكمن في تكفير بعض الشيوخ التقليديّين والسلفيّين كلَّ من كان يعتقد وصــول الأوروبيين إلى القمر[6]، لأنهم عدّوا ذلك من خوارق العادات المتعدية على حدود الله تعالى.

يبارك الشاعرُ أولاً " جون كنيدي"[7] الرئيسَ الأمريكيَّ الذي وعد العالم بإنجاز هذا الأمل ، ثمّ يبارك الخبراء[8] المهندسين ثانيا ، ثم يطلب منهم مَقَرّاً على القمر لأنه ملّ من حياة الرذائل بين ذويه على الأرض، كان هذا الحدث التاريخي في شهر يوليو 1969م : [المتقارب]

1 نزلتَ نزلــتَ بــسطح القمــر ** وفيتَ لــ "جون" وعدَه المنتظر
4 إليـــك إليـــك نزيـــلَ القمـــر ** يسوق التحيّات شــوقاً "عمــر"
5 رفعتَ بــلادك رفعــاً عظيمــا ** وفـــي تحتهــا قمــرٌ اســتقر
7 عرضــتُ عليكــم بأن تأخــذوا ** لشاعركــم قطعـــة يعتمــــر

---

[1] – الزمك : منبت ذنب الطائر ، والمقصود به هنا ذيل الطائرة في مؤخرتها.

[2] – هو الأندلس الذي أول من حاول الطيران بصنع أرياش كجناحين طار بهما من أعلى الأرض،فسقط بعد أن رفرف ومات 887م.

[3] – غلادنثي، الدكتور شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 155.

[4] – هو ابن محمد المصطفى بن الشيخ أحمد بامبا الخديم،تعلم على أحمد دم وبعض الموريتانيين، ولد سنة 1913م. أما شعره فقليل.

[5] – صامب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 323/2.

[6] – وكذلك كانوا يكفرون كل من يؤمن بكروية الأرض وبدورانها، ربما لم يهدأ هذا التطرف في التكفير إلا في التسعينات.

[7] – أغتيل هذا الرئيس سنة 1963م قبل أن يرى ما وعد به العالم سنة 1969م، وكان أحب الرؤساء إلى شعبه،لم يعرف سبب قتله.

[8] – هؤلاء هم : نيل أرمسترنغ Neil Armstrong، وأدوين ألدرين Edwin Aldrin، وميكائيل كوللينس Michael Collins.

8 ملئتُ المقام بهذا المقام ** مقام النفاق وحقد وشر
9 رمى المال بالسم جلّ العقول ** فكاد يميت جميع البشر
11 مُناي إذاً أن أرى في القمر ** مقرّاً يصير مقرّ عمر[1]

ويبدو أن شعراء نيجيريا ، حتى الشيوخ الصوفية ، أشاروا إلى بعض هذه الإنجازات العلمية ، وإن لم يقفوا عندها في وصف دقيق :

نجد في قصيدة حائية للشيخ محمد الناصر الكَبَرَى إشارات إلى الطائرة والباخرة والسيارة ، خلال وصفه لسرعة وصول دعوة محمد ﷺ إلى كلّ دول العالم بسرعة هذه الوسائل الحديثة.[2]ويشير أحد شبّان مدينة مَيْدُغُري إلى سيادة ملوك الدنيا بصنع الطائرات والبواخر والسيارة من غير وقفة متأنية عندها.[3] وللأستاذ هارون أَرْغُنْغُ تائية في حادثة السيارة، أقرب إلى الشعر القصصي منه إلى الشعر الوجداني.[4]

وربما يعد الشاعر السنغالي الشيخ أحمد التجاني سي أبرع من وقف بشعره على الباخرة، وذلك بمناسبة وصول الباخرة الفرنسية "ريشليا" إلى ميناء دكار، وكان الشاعر من المدعويين لزيارتها، فوضع تائية طويلة ــ من 55 بيتا ــ لبيان روعتها وجمالها : :[الكامل]

4 ما في السفائن مثل (ريشليا) التي ** من محكمات الصنع والآلات
9 فكأنّها رعد يسائل إلفه ** عن مأرب يخفيه بعض سقاة
10 تعلو غوارب مائع وكأنها ** تعلو الرصيف بمحكم العجلات
11 فترى العوازل والقواطع ألصقت ** بعمودها لوقاية السورات
12 فيها لكلّ مشاور ومجالس ** قسم من الأسلاك للحارات
16 تلفى كقصر لا يطاول خيفقاً ** وتخالها بجهامة مزجاة
21 وبها صوالين تحف بنعمة ** وتحاط بالأدوات والزيات
25 بسطت عليها وفق أنفس أهلها ** سمط مزخرفة بخيط بنات
26 ومن المقاعد عوليت بنمارق ** من لينها تحبو بشخص مؤات
54 تجري وسعي الشمس يقصر دونها ** في الحين يبلغ أيمن القارات[5]

إن من يقف على الأبيات الآتية لقال في أوّل وهلة: إنه وصف رائع لخيل أو لفرس، لالتزام صاحبها ــ الحاج مختار الكبير ــ بأساليب شعراء العصر الجاهلي، ولخلوّها من إشارة إلى أنه في وصف لقطار يحمله من مدينة مامو بفوتاجلون إلى كنكان في شرق غينيا : : [المتقارب]

---

[1] – غلادنثي، شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 170.
[2] – الكبرى، الشيخ محمد الناصر : كتاب التوسلين العظيمين، طبعة محلية ، لا.ط، د.ت، كنو، نيجيريا ، ص 10.
[3] – ينظر: محمد، معاذ : الشعر العربي لدى الشباب في مدينة ميدغري، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا، ص 288.
[4] –محمد،يحيى الأمين:مساهمةبعض علماءكبي في الشعر العربي في القرن 20م،قسم اللغةالعربية،جامعة بايرو،كنو،نيجيريا،ص308
[5] – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 57-59.

1 ومنهـا أروح لــ "مـام" علـى ** متـى سـابحٍ يتّقيـه الفـلا
2 فأَعْجِـبْ بـه سـابحا عِطْفَـه ** يثيـر غبـار الكُـدى بـالكُلا
3 متى مـا استويتُ علـى متنـه ** أرى الميـل فـي حـوزلاه كـلا
4 ويبعـد بـين المسـاجد فـي ** مجـال خطـاه ويُنْئـي الكَـلا
5 فصبحي بكَنْكَنْ وظُهْرِي علـى ** قـوارع منهلِـه دابُـلا(1)

من وسائل النقل نصل إلى مخترعات وسائل الاتصال والإعلام، التي هي بلا شكّ لجديرة أن تثير المشاعر المرهفة، رغم ذلك لم يكثر عند الشعراء تناولها ، بل قلة منهم من أشاروا إليها في ثنايا الأبيات، أما القصائد فلم تستقلّ بتناولها سوى قصيدة " وسائل الإعلام ليس شرّاً " للشاعر النيجيري عبد الواسع مدثّر، كأنه يكتب تقريرا عن ذلك بأسلوب غير فني:[الوافر]

1 أخـرج العـالمُ إعـلام البيـانْ ** فيـه مسموع ومرئـيّ يبـانْ
2 مـن مجـلّات وصـحف غيرهـا ** راديـو تلفـاز منـك مستعانْ
3 يجتني العلمَ رجـال عالمـون ** في اكتثار الجهد سـرّاً وعلانْ(2)

وبمثل هذا الأسلوب التقريري أشار الأستاذ بامين محمد سري جايتي من غامبيا إلى "واعظ إذاعي "، وَصْفٌ نلتمس منه اتّخاذ الإذاعة المسموعة وسيلة دعوية، ظاهرة جديدة انتشرت في المنطقة منذ السبعينات والثمانينات(3). والآخر في نيجيريا يشير في بيت واحد إلى سماع النعي من الإذاعة. وعلى أية حال فإن مثل هذه الإشارات الخاطفة لدليل على جمود مشاعر جلّ الشعراء، واقتصارها على الأغراض القديمة.(4)

وأما الهاتف ــ التلفون ــ فمن العسير أن تلتقط إشارات إليها، ربّما لم يولوه اهتماما إلا بعد انتشار الهواتف النقّالة أو الجوّالة مع بداية الألفية الثالثة، وبهذا الانتشار تأثّر شاعران نيجيريان، أحدهما يُعَنْوِنُ قصيدته بـ " اطفئ يا مصلي آلة المكالمة "، غايته هنا بينة واضحة.(5) وأما الثاني فهو الأستاذ عثمان الكنكاوي، الذي عنون قصيدته بـ " الجوالة " يشير فيها إلى مكانتها في المجتمع وإلى آيتها في الذكر الحكيم : [البسيط]

1 وبالجوالة جـاد العلـمُ مقتـصدا ** بها الإفادة في تقريـب مـا بعُـد
2 كم من قرانا سحيق الميل موقعها ** فبالجوالة يقضى المرء مـا قـصد
3 لا تحسبنّ بأن الصنع لـيس لـه ** في الذكر أصلٌ لكلّ المرء ما صمد
4 لقد جرتْ ذبذبات القول معجـزة ** من نملـةٍ لنبـيّ ، بعـد حمـد(6)

---

(1) – جابي، محمد الأمين: الشاعر الأديب الغيني، مقالة في ندوة من أجل أدب إسلامي، الجامعة الإسلامية، ساي ، النيجر، ص 31.
(2) – إيليينكي، عبد الواسع مدثر : وسائل الإعلام ليس شرّا، قصيدة مخطوطة، إسيين، نيجيريا.
(3) – جايتي، بامين محمد سري : عشرة كاملة في رثاء مختار سك الواعظ الإذاعي السنغالي، مخطوطة، بركاما، غامبيا.
(4) – عبد السلام، محب الدين:المدح والرثاء في قصائد أبي بكر أبرغدوما، شعبة اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا، ص90.
(5) – عبد الباقي، داود : اطفئ يا مصلي آلة المكالمة، إيوو، نيجيريا.
(6) – الكنكاوي، عثمان إدريس : الجوالة ، قصيدة مخطوطة، إلورن ، نيجيريا.

إن الثقافة التي يتمتّع بها رجال هذا الشعر مستمدة جذورها من التعاليم العربية الإسلامية، التي كانت تنحصر في بعض الكتب التقليدية أشرنا إليها في الفصل الأول من الباب الأول. ولكن ثقافة بعضهم تخطّت حدود تلك المناهج التعليمية، إذ نجد لبعضهم ــ وإن كانوا قلّة ــ ثقافة شاملة لأمهات الكتب والمصنّفات في العلوم العربية والإسلامية، وثقافة عالية عن أعلام العلماء والأدباء، ولأمثال هؤلاء آفاق ثقافية ما ليس لغيرهم ، فضمّنوها في قصائدهم، كما هو واضح في رائية الشيخ إدريس محمد النيجيري المشهورة، التي يحثّ فيها الطلبة على حب العلم والتعلّم.[1]

ولكن الأفق الثقافي ينبغي أن يتّسع ، ويتخطى الإطار الديني ودائرة اللغة العربية، وخاصة في العصر الذي نعيشه، لذا اتّجه بعض الشعراء إلى وسائل الإعلام ليوسّعوا بها ثقافتهم العصرية ، فحثّ عبد الواسع مدثّر زملاءه على ذلك بقصيدته " وسائل الإعلام ليس شرّا " السابقة الإشارة إليها.

ولهذا كان شيخ تجان غاي شغوفا بالقسم العربي في إذاعة لندن، وعاشقا لأحد الصحافيين فيه هو محمد مصطفى رمضان، فجرح قلبه لما أُنْبِئَ باغتياله ظهيرة يوم 1980/04/11م فبكّاه بدالية طريفة : [الكامل]

2 قتلوا الفصاحة والبلاغة إنّهم ** ليسوا سوى قوم بهم أحقاد

4 إسلامهم قتل البرئ جهارة ** فكأنّما روح البريء مزاد

5 أمحمّد ! أنت الشهيد ، وكلّنا ** نبكي دما بتحرّق يزداد

6 قد كنت تربط ــ وا عذوبة صوتكم ــ ** قوما بلندن والثقافة زاد[2]

ولسعة ثقافته فإنه يقارن بين المعطيات الإعلامية فيجد أن إذاعة فرنسا الدولية RFI لا تثقّف بقدر ما تقلق مستمعيها، لذا لم ينثن من رفع صارم الهجاء عليها، ويكتب قبل الأبيات ما نصّه " استمع إليها وكلّ ما تسمعه ستجده : [الرجز]

1 إمّا دم إما دموع ** إما جفاف وفجوع

2 إما قتال ونزوع ** إما اختلاس ووجوع

3 إما مجاعة الشعوب ** إما تصحّر رهيب

4 إما احتلال وحروب ** إما خروج وهروب[3]

---

(1) –يونس،سليمان:إدريس بن محمد ومساهمته في نشر الثقافة العربية في مقاطعة بدّا.قسم اللغة العربية،جامعة صكتو،نيجيريا،ص 46

(2) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، مرجع سابق، ص 121.

(3) – المصدر نفسه ، ص 78.

واتّسعت ثقافة هذا الشعر إلى ميادين الرياضة، لتأكيد المثل السائر " العقل السليم في الجسم السليم "، ولا مراء في ذلك إذا ما وقفت على قصيدة لامين ديانغ السنغالي " الرياضة أخلاق "، ففيها أن الرياضة نور وشرف وخُلق : [الكامل]

1 إن الرياضة قصدها أصلا ** جمع الشباب وجعلهم شملا
2 إن الرياضة يا أخي فعلا ** شرف لمن كانوا لها أهــلا
3 باب الرياضة يا فتى نور ** ويل لمن وضعوا به قفــلا
5 بحر الرياضة ماؤه عذب ** فالإنفعال يضيــع العقــلا[1]

لذا باح الشاعر النيجيري ، أحمد إبراهيم كاكاكي[2] ، بإعجابه بأبطال وطنه في الفريق المنتخب لكرة القدم، عند ما فازوا بالوسام الذهبي في المسابقات الأولمبية بأطلنطا سنة 1996م على مستوى العالم ، وهزموا في إحدى مبارياتهم فريق الأرجنتين : [الطويل]

لقاء على الميدان جلّت حروبه ** إذا زلزلت الأرضُ بين العوالم
حبيبي حبيب العالمين ألا تــرى ** أجنطين في غمّ وهمّ ولملــمٍ
مهارتنا إن المهارة هــا هنــا ** نؤدّبهم بأديــب ذي المــتعلّم
أبى الكأس إلا للأفــارق كلّهــم ** أفارق فازوا بالنجاح المعظّــم
قياما قعودا يا أفــارق أرقصوا ** لفوزٍ وكأسٍ يا له والوسائم[3]

وكان اللاعب المنتخب من كَمِرُون ، روجيه ميلا[4]ا، رمزا لمفاخر إفريقيا، لأنه كان هدّافا ماهرا، بفضله رفع مستوى الكرة الإفريقية إلى الأعلى في دورة الكأس العالميــة ، وخاصة في سنة 1994م بالولايات المتّحدة حيث انتصر على كثير مــن الفــرق المنتخبــة العالمية، لذا صار أشهر لاعب في إفريقيا، فأعجب به السنغالي لامين ديانغ فقال: [الطويل]

1 أميلا اللعيب الفذّ أنــت القــدير ** ومثلك بالتكريم ــ حقّــا ــ جــدير
2 لقد فقت كل اللاعبــين مهــارة ** وألجمتَ "ديغو" يا عجوز الــصغير
4 وفجّرت ينبوع الفنــون بكــرّة ** ورقص جميل يا حكــيم البــصير
5 فرأسك مرفوع، وصيتك ذائــع ** وقد طبتَ نفسا يا لعيــبُ المــدير
9 فرومانيا خرّبت مرمى فريقهــا ** وكان به "هاجي" اللعيب الخطير[5]
10 وكولومبيا لاحت بأحمق حارس ** فراوغه "ميلا " العظــيم الكبــير[6]

(1) – ديانغ، لامين : ديوان الشباب ، مرجع سابق ، ص 36.
(2) – أحد الشباب الشعراء، كان طالبا في جامعة إلورن. وشعره جيد في أسلوبه ، ومتنوع في موضوعاته، إلا أنه قليل.
(3) – كاكاكي، أحمد إبراهيم : قصيدة مخطوطة ، بمكتبة الشاعر، إلورن ، نيجيريا.
(4) – يعد أشهر اللاعبين الأفارقة في التسعينات، لعب حتى 42 سنة من عمره، مما يدل على قوته الجسمانية ومهارته الفنية.
(5) – ديغو مارادونا في البيت الثاني أشهر لاعب عالمي آنذاك، وهاجى من كبار اللاعبين المنتخبين في أروبا آنذاك.
(6) – ديانغ، لامين : ديوان الشباب ، مرجع سابق ، ص 34.

ويوجد آخرون من شبّان مالي جدّدوا هذا الشعر بعنايتهم بمثل هذه الموضوعات الثقافية: نجد لعمرو ساغو قصيدتين[1]، ولعلي سيدبي قصيدة أسماها "مالي مدرسة الكرة "[2] وكلاهمـــا يشجّعان بشعرهما فريق مالي المنتخب في دورة كأس الأمم الإفريقية. وبهذا يتطوّر هذا الشعر إلى آفاق الآداب العالمية، لأنه يتنفس بأنفاس العصر الحديث.

ومن جهة أخرى تظهر قصة "المرأة" في إحدى قصائد عبد العزيز سار[3]،عند الأمم القديمة كالهند واليهود والعرب ، قبل أن يصوّر مكانتها في الإسلام، الذي أعاد لها العدالة الاجتماعية.

لا تدلّ الأبعاد الفكرية في هذا الشعر على فلسفة ونتاج منطقـــي، رغـــم ورود أســـماء فلاسفة اليونان نادرا في بعض القصائد، كذكر "سقراط" في قصيدة للشيخ أحمد التجاني ســـي.[4] وذكر " فولتير " و " بلزاك " الفرنسيين في كافية السنغالي أحمد جي.[5]

ولم يترك للعقل فرصة الطغيان على المشاعر في تلك القصائد، التي تضمّنت قضية فكرية، بل إن حسن السبك، وجودة الصياغة، كان قادرا على استيعاب بعض هذه الآفاق الفكرية.

إن ما يعيشه الإنسان من حيرة حول مصدر الخَلْق، والمصير، والغاية من وجود الإنسان على وجه البسيطة، وتحمل هذه المسائل أبعادا فكرية تهمّ الإنسان الآن أكثر من أيّ وقت مضى، فتأتي قصيدة " الإنسان والكون " من عبد العزيز سار إجابة عن ذلك : [الكامل]

1 *فلمّـــا أتـــى الإنـــسان ردّد ســـائلا* ** *عن نفسه ماذا أرى من أينـــا؟*
2 *وإلى أنا أمشي؟ وكيـــف نهـــايتي؟* ** *فسعى إلى حيث يـــرى برهانـــا*
3 *فرأى بـــأن الكـــون ظـــرف حولـــه* ** *تبعاتـــه فتعجّـــب حيرانـــا*[6]
4 *في الصبح قد وجد النهـــار يـضيئه* ** *في لحظة حضر الظـــلام ودانـــا*
5 *ورأى الـــسماء تظلّـــه فتحيّـــر* ** *وتقهقـــر مندهـــشا ومهانـــا*
6 *ورأى الطبيعـــة فنّنـــت أثوابهـــا* ** *وزهى النبات تزركشت ألوانـــا*
7 *طرب لما ســـمع الطيـــور تزقـــزق* ** *فـــي أذنـــه فأرادهـــا إيـــذانا*
8 *قد قام يطلق طرفـــه نحـــو الـــسما* ** *متفكّـــرا فيمـــا يـــرى وأبانـــا*
9 *ومـــشى ليبحـــث قـــوّة روحيـــة* ** *متعمّقـــا ثـــمّ أمعـــن إمعانـــا*
10 *فـــرأى بأنّ الكـــون فيـــه مقـــدّر* ** *منع العيون بأن تراه عيانـــا*[7]

لا شكّ أن الشاعر بنى هذه النونية على فلسفة منطقية لإثبات وجود الله، الذي أدلى كثيـــر مـــن فلاسفة اليونان بدلوهم في بيان البراهين العقلية على وجوده كواجب الوجود.

---

(1) – ساغو، عمرو عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط، مرجع سابق، ص 35 و 63.
(2) – سيدبي، علي : مالي مدرسة الكرة ، قصيدة نونية من 26 بيتا، مخطوطة، بماكو، مالي.
(3) – سار، عبد العزيز : حرية المرأة ، قصيدة بائية مخطوطة، تواون ، السنغال.
(4) – ينظر : سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعري ، مرجع سابق ، ص 19.
(5) – ينظر : جي، الشيخ أحمد : كافية مخطوطة بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.
(6) – لو قال " متعجبا " لاستقام الوزن ولدل ذلك على حالة نفسية، وهذا أبلغ من بقائه فعلا.
(7) – سار، عبد الزيز : الإنسان والكون ، مخطوطة ، تواون ، السنغال.

وينسج أحمد التجاني سي على أسس منطقية، ليوجب حب أهل الدنيا، لأنّ حبّهم حب لخالقهم، وهذا واضح في قوله :   [الطويل]

1 ***أحبّ من الدنيا طبائع أهلها ** وفي حبها حبّ الذي خلق الدنيا***

2 ***ففي كلّ شيء للمفكّر حكمة ** تقود ذوي الألباب للحكمة العليا***

3 ***إذا ما أصاب البرد فالبرد عبرة ** وإن ما أصاب الحرّ فالحرّ ما أحيا***[1]

وبالبيت الأخير يدعو إلى التفكير المعتبر في الكون وتقلباته، وإن الحكمة نتاج تفكير عميق، وإن الكون لوحة واسعة تشعّ آراء إلى أذهان من يُنْعِمون فيها النظر ويلاحظونها بدقّة. وإن أكثر ما يحيّر الإنسان ليس تقلبات الكون، بل تقلبات الحياة البشرية، التي هي بحاجة إلى أن نفهمها ومشاكلها، حتى نتمكّن من التعايش السلمي، لأن سعادتنا بأيدينا، ولكن اختلاف البشر في نظرهم إلى الحياة، يجعل هذا التعايش معقّدا عويصا، فهذا ما نلمسه في أولى قصائد أحمد التجاني سي بعد خلوته الطويلة سبع سنوات.[2] وكذلك لامية النيجري مهدي معاذ: [الكامل]

1 ***إن الحياة مواقف ومخاطر ** والحال بين تراجع وتقابل***

3 ***وإذا العقول تحرّكت وتفكّرت ** تأتي بشيء لا أبا لك نائل***

5 ***وإذا نظرتُ إلى الحياة أجد لها ** عدم الثبات لحالها المتداخل***

6 ***لولا تقلّبها لكانت حلوة ** أو مرّة عند اللبيب العاقل***

7 ***لولا تحرّكها لصارت عزّة ** أو ذلة في ثوبها المتناول***

8 ***فالأمر بين تقدّم وتطوّر ** وتأخّر وتقلّص وتضاؤل***

9 ***وتجمّع وتفرّق وتشتّت ** والمرء بين تقاطع وتواصل***

10 ***وتواضع وتكبّر وتمرّد ** وتشنّج وتفاهم وتمايل***

11 ***وتباغض وتدابر وتحاسد ** وتصالح وتعايش بتماثل***

12 ***وتجادل وتجامل وتوازن ** والقوم بين مجادل ومجامل***[3]

إن روحي التشاؤم والتفاؤل تتصارعان في هذه التقلبات التي يصعب على المرء أن يتوازن فيها، وأن يجد لمشاكله حلاًّ، وهذا ما يجعل الحاجة ماسة إلى فلسفة تربوية، تكون حبلا متينا يتمسّك به الناس للنجاة والنجاح في الحياة. وهذا ما اهتدى إليه أحد شعراء السنغال، الشيخ أحمد عيان سي،الذي وضع في بيتين فلسفةً، أسماها " فلسفة المرآة":   [البسيط]

انظر لوجهك في المرآة معتبرا ** وإن يكن حسنا فافعل مناسبه

وحيث كان قبيحا فافعلن حسنا ** إذ جمع قبحين حقّ أن تجانبه[4]

---

(1) – صامب، عامر : الدب العربي السنغالي، مرجع سابق، ص 172/2.

(2) – سي، الشيخ أحمد التجاني : سلسلة المحاضرات ، طبعة محلية، ص 2.

(3) – معاذ، مهدي الحاج : نظرة إلى الحياة ، مخطوطة بمكتبة الشاعر، حي لاكروسو ، نيامي ، النيجر.

(4) – غاي، شيخ تجان : المرشد الشاعر الشيخ أحمد عيان سي، مرجع سابق، ص 90.

وآخرون ، كثير ما هم، من الشيوخ من يوجّهون فلسفتهم التربوية في شـروط الـتعلم والتعليم، وهذا بيّن في أطول قصائد الشيخ محمد الهادي توري السنغالي(1)، كأن في العلم يكمن سرّ النجاح في الحياة، والنجاة من الرذائل، وهذا ما يؤكده الشيخ علي بوبديم في أرجوزته :

9 والعلم خير ما اقتناه المقتنـي ** واجده في كل أحوال غنـي(2)

ويبيّن قبل هذا البيت الشروط الأساسية للنجاح في الحياة ، أيا كانت الآمال والطموحات، وإن كان تطبيق ذلك في طلب العلم أحقّ وأفضل :

6 فالركن في تحصيل كل حاجة ** الجد والهمة واللجاجـة(2)

وهل في هذه الأبعاد الفكرية ما يغني المرء عن النجاة من مخاطر الحياة ؟

ما أظنّ أنها كافية ! لكنّها تعين على فهم الحياة فهما حكيما، والبـشر متفـاوتون فـي مفاهيمهم، وفي ترجمتها إلى حياتهم اليومية. وفي هذا لبّ مشاكلهم في تنوّع طباعهم واختلاف اتجاهاتهم، وهذا ما جعل الحاج مالك سي يصنّف البشر إلى أربعة : [الرجز]

1 من لم يطر عنه طيـور أربـع ** فروحه إلى العلـى لا ترفـع

2 النسر والطـاؤوس والغـراب ** والديك راعها عـداك العـاب

3 لأننـا كالنـسر والطـاؤوس ** في الأكل والزينة في المقياس

4 كما لنا حـرص الغـراب وكذا ** شهوة ديك فلتراع المأخـذا(3)

فأصحاب النسر كالبهائم لا أمل لهم في الحياة إلا ملء بطونهم، وأهل الطاؤوس هم الذين يسوقهم عشقُ المال إلى جميع الرذائل، وشبّه الملوك بالغراب في حرصـهم علـى الاحتفـاظ بالعرش ، وسواد الناس وخواصهم تسيطر عليهم شهوة الجنس، فألغى في تصنيفهم أهل العلـم والدين لأنهم قلة ، فلا يظهرون بين هذه الأغلبية الساحقة.

وعلى هذا المنطق أقام الغيني كبا عمران ــ وشعره قليل ــ قصيدته الطويلة التي تصور معركة الحياة بين هذه الطوائف : أهل المال، والملك، والعلم ، والدين. ويرى أن الحيـاة كـان يسودها السلام والسعادة عندما كان التعاون بين هذه الطوائف كاملا، وبعد موت الدين في قلوب الناس، دخل البشر في صراع مرير، فتعاون الأغنياء والملوك على اضطهاد العلمـاء، الـذين لا يتمتعون في الحياة بفضائل جهودهم العلمية ، والقصيدة من 65 بيتا : [الطويل]

1 إذِ المالُ أهدى للعلوم صداقةً ** وثالثُهم مُلْكٌ بحـسن كمالـه

2 ورابعُهم دينٌ طبيب قلـوبِهم ** فعالمُنا أحيـا زمان فِضالِـه

3 وكانت مراسيم البـلاد لمُلْكنِا ** وللمال رغدُ العيشِ رغم هُزالِه

---

(1) – غاي، شيخ تجان : هذا العبقري الشيخ محمد الهادي توري، مرجع سابق، ص 26–30.

(2) – بوبديم ، الشيخ علي : ديوان شعر، مرجع سابق، ص 77.

(3) – سه، الحاج مالك : ديوان شعر، الملحق ، ص 2–3.

4 وللعلم طيبُ العقل من سـرِّ مـسكه ** ولـلـدين صُـلْحٌ مـن دواء نمالــه(1)
5 وما أن قضى ديـنٌ قـرارَ حمامــه ** فقام صراعٌ ! هل ترى مـن مثالــه؟!
6 إلى المالِ نمّ المُلْـكُ بـالعلم كذبَـه ** فـصدّقه ظُلمــاً بنـبشِ قتالــه
7 تحيّرتُ من مـالٍ يـصارع علمَنـا ** بقـوس سياسـات لغـصب جمالــه
8 فدام صراعٌ بضعةً مـن عـصورنا ** وللمـال نجـدات لنُـضج سِـباله(2)
9 فحلّـت هـزائمٌ بعلـم بلادنــا ** وقـد كُلِّـل مـالٌ بتـاج وبالــه
10 فباركه مُلْكٌ على نهـشِ ضيمِـه ** لعقـد زواج مـن بنـات ضُلالــه(3)

ويرى أبو رضوان مدني تيام أن سبب هذا الصراع بين البشر يكمن في خفاء معرفة "الحقّ "، والدقّة في حقيقته، لذا يرى أن لكل " حقّ " شقّين. وكأنه بهذا البُعد الفكري يثير لنا خلافات الفلاسفة المناطقة في معرفة الحق من الباطل أو الخير من الشرّ : [غير موزون]

1 محمود شرق الدنيا مذموم غربهـا ** ومذموم غرب الدنيا محمـود شـرقها
2 ما الحق في الجنب الوحيد مثبَّتـا ** ففيه يولّـد مـا يسـاق لـه شقّاً(4)

وما زالت الأبعاد الفكرية تتنازع في الاختصاص بالحق والفضل، وهذا الصراع محتدم بين رجال العلم، كلّ يدّعي الفضل في رفع شأن علمه : إن العقيدة أصل العلوم، والفلسفة أمّ العلوم، والنحو أساس العلوم ، والبلاغة قمة العلوم، وهكذا ... وقد حاول الشاعر النيجيري عبد الرحيم حمزة أن يصوّر نقاشا طويلا بين الشعر والخطابة والنثر، كلّ يـدّعي الفـضل لنفسه، وما ذلك إلا رمز إلى الشعراء والخطباء والكتّاب، نقتطف منها هذه الأبيات:[الوافر]

الشعر: 17 أنا الوشـي المقلـم درع مجـد ** أنا التيجـان فـي رأس الجمـال
. 18 وأظهر منكمـا حـسن الكيـان ** فبي طيب وجودكمـا المنـال
الخطابة: 14 كفى فخراً ولستَ سوى حـروف ** وكلمـات تـنظم بـالتوالي
. 15 فبي عرف الكـلام ودون شـكل ** ولي التعبيـر لا تنـسى التغـال
النثـر: 82 إذا وافقتمـا معْكـم ولكـن ** قـرار العلـم أنْ لكمـا دلالـي
88 أنـا سـهل المآخـذ والكتابــه ** يكيف لا الـصعوبة فـي اتّكـالي
92 فبـي التدريس أجيـال الـبلاد ** فبي تخريج أصناف الخصـال(5)

وختاما فإن الألغاز من صور الأبعاد الفكرية،لكنها قليلة جدا في شعر القوم،وقد فكّ تجان غـاي رموز قصيدة لغزية في ديوانه،(6)ولمحمد الأمين بمبا الفرضي من غانا قصيدة "الغراسية"(7).

---

(1) – النِمال : جمع نملة ، وقد شبه بهن رجال الدين في حرصهم على العمل. (2) – السِبال:جمع سبلة أي الحنطة والقمح.
(3) – كبا، عمران : " المدح في الشعر العربي الإفريقي"،مجلة كلية الدعوة الإسلامية،عدد 23،سنة 2006م،طرابلس،ليبيا، ص 341.
(4) – تيام، أبو رضوان المدني : كل حق على شقين، مقطعة من ستة أبيات، بمكتبة الشاعر، سيقو، مالي.
(5) – حمزة، عبد الرحيم : شعر مفتوح، مرجع سابق، والقصيدة من 118 بيتا، ص 94–103.
(6) – ينظر: غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 126.
(7) – الفرضي، الشيخ محمد الأمين: المسألة الغراسية، مخطوطة ، إجورا، غانا. وهي مسألة لغزية في المواريث.

يمتاز هذا المبحث عن سابقه لما يتناوله من مواقف الشعراء إزاء قضية ما، من تلك القضايا الثقافية والفكرية التي تثار في أوساط العلماء والمثقفين. والشاعر في هذه الحالة يؤدي رسالته الثقافية والفكرية التي تتّسم بحياته الفكرية والعلمية.

1)- الاعتزاز باللغة العربية :

يعاني المستعربون الأفارقة من النظرة الدونية في مجتمعاتهم ، فيشمئزّ منهم ذووهم من طلبة الدارسات الفرنسية والإنجليزية، وتسفّه أحلامهم لدى موظّفي القطاعات الحكومية، لاعتقاد هؤلاء أن المستعربين قد ضيّعوا حياتهم في دراسة لغة لا توفّر لهم وسائل النجاح في بيئاتهم، ولا تفتح لهم أبواب الوظائف الحكومية مثل أقرانهم من خريجي دراسات اللغات الأوروبية.

وإذا كان بعض المستعربين الأفارقة لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هذه التيارات، فأصيبوا بإحباط شديد في خيبة الأمل، وشعروا بالنقص أمام هذه الهوية الغربية، لكنّ الآخرين ازدادوا حرصاً على دراسة اللغة الغرّاء، وتحمّلوا مشقّات في سبيل نشرها، وابتهجوا بالدفاع عنها بكتاباتهم النثرية والشعرية، ومن شعرهم قصيدة عبد الواحد جبريل، أحد طلبة نيجيريا في فرع كلية الدعوة ببنين ، التي عَنْوَنَها " لغة ألذّ فصاحة وبلاغة " ، أقتطف منها ما يلي:[الكامل]

*1 أغمض جفونك عن جهول يشتم ** لغة تحيّر نهيةً إذ تنجم*
*3 لغة تطب اللب من أسقامه ** ويُشمّ منها العرف إذ تتكلّم*
*13 يا لائماً لغة إليها أنتمي ** أجهلت أنك في ملامي تظلم*
*18 قولي أيا لغتي لمن بك يزدري ** أن لست إلا بلبلا يترنّم*
*19 لم يولِها عين احتقار غير من ** زال الحجا عنه ومن يتوهّم*
*20 هل في الورى لغة سوى العربية ** نزل الكتاب بها فصارت تزعم؟*
*21 وبكل ألسنة تخص مكانة ** بل رأسها عربية تتحكّم*(1)

ولمحاربة هذا الشعور بالنقص، الذي يجعل المستعرب خجولا في حالة نفسية ذليلة، يتقدّم النيجيري معروف مصطفى بقصيدته " لغة الضاد " لتقوية العزيمة والأمل : [البسيط]

*15 لا تخجلوا أن تمدّوها عنايتكم ** ولا يصدّنّكم عن نشرها الكسل*
*16 فإنها قوّة نردي العداء بها ** وآسيا وأروبا رغم ما بذلوا*(2)

وفي قصيدة "حوار بين الحق والزكوي"يحكي لنا الشاعر قصة هذه الظاهرة قبل أن يرد عليها(3). ولا غرو في مواقفهم هذه، لأنّ الدراسة العربية من الابتدائية إلى الدكتوراه متوفرة في نيجيريا.

(1) – نخبة من الطلبة : البنينيات ، مرجع سابق ، ص 27–28.
(2) – أحمد، مفروف مصطفى : لغة الضاد، قصيدة مخطوطة من 17 بيتا، لاغوس، نيجيريا،
(3) – الزكوي، عبد الرحمن عبد العزيز : حوار بين الحق والزكوي، لاغوس، نيجيريا، لا.ط، 2003م.

ونرى شيخ تجان غاي يؤكّد ما للغة العربية من كفاية حضارية تليدة، تجعلها قادرة على استيعاب الحضارة التكنولوجية الحديثة ، ومصطلحاتها العلمية في عالميتها الثقافية، وذلك في قصيدته " اللغة العربية "،(1)وفي قصيدته " المنهج" يستبشر بقدماء السنغاليين الذين خلّدوا ذكرهم بخدمة المحافظة على هذه اللغة ونشرها في التدريس.(2)

ويظهر موقف آخر يمتّ إلى اللغة العربية بصلة، هو بيان مكانة سائر العلوم جنب العلوم الشرعية، التي كان يقتصر عليها بعض المعلّمين في التدريس، ويذهب أحدهم في قوله:[البسيط]

1 ***إن العلوم سوى القرآن مشغلة ** إلا الحديث وعلم الفقه في الدين***

2 ***والعلم ما قال فيه قال : حدثنا ** وما سوى ذاك وسواس الشياطين***(3)

فردّ عليه الشيخ محمد السراج امبالو من غينيا بيساو بأبيات ، منها : [البسيط]

1 ***يا من يذمّ علوم العصر محتقرا ** لقد بليت بتقصير وتوهين***

2 ***تحدّد العلم بالتفسير عن عجل ** وبالحديث قصورا دون تبيين***

3 ***فالعلم في كلّ شيء ليس محتقرا ** بل شرّ ما يؤذيك في الدين***(4)

ومن ينشغل بالعلم والتدريس في هذه المنطقة سيحتاج إلى ما يغذي ضميره بالعزة والحزم، إذ قد يغريه الطمع في المال، وتفتر عزيمته بما يلقاه في محيطه من نظرة دونية غير تقديرية، لذا فإن المستعرب ليعتزّ بمكانته إذا ما حظي بموقف الشيخ أحمد جي، الذي وصل إلى اقتناع فكري، ووعي ثقافي، فلا يتزعزع ما في قلبه من فخر وتقدير للتعليم العربي: [الطويل]

1 ***رجال زماني فافهموا لي المشاعرا ** أبيّن ما عندي من العقد شاعراً***

3 ***فظن أناس أن للعلم مقصدا ** سوى هدى نفس المرء بدءاً وآخراً***

4 ***فقالوا: الذي أدركتَ كافٍ، لأنه ** غدا العلم مجهولا وحاويه خاسرا***

5 ***وقال أبي : "لا يسأل الناس علمكم ** فدعْ ، واكتسبْ مالا غدا المال باهرا***

6 ***" وإنك يوم الحاج إن رمتَ زوجةً ** تجدْ صدق قولي واضحاً لدنائرا***

7 ***" ولا الدار تبنيها ولستَ موظّفا ** ولستَ بهذا العلم تحوي الحرائرا "***

8 ***فقلتُ له: حسبي من الدهر أنّني ** علمتُ ولوجدي يصير عاثرا***

9 ***فعلمي يغذي العقل والروح دائما ** ولو ظلّ جسمي دائم الفقر فاغرا***

11 ***فإن كان جمع العلم والمال مصعبا ** فتحصيل هذا العلم أولى تبادرا***

12 ***وإن ناط غيري بالتملّك عزّة ** فبالعلم والتعليم عزّي تفاخرا***(5)

---

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، مرجع سابق، ص 122.

(2) – أمثال القاضي عمر فال مؤسس جامعة بر في كجور بالسنغال، والشيخ عمر تال الفوتي، وعبد القادر كنْ في فوتاطور. ينظر المصدر نفسه ، ص 15.

(3) – صالح، محمد عمر: الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، مرجع سابق، ص 476.

(4) – المصدر نفسه. تنبيه : **كسر في عجز البيت الثالث.**

(5) – جي، الشيخ أحمد : رجال زماني، قصيدة مخطوطة ، قرضها سنة 1966م، كولخ، السنغال.

2)- ظروف التعليم العربي :

بدأ التعليم العربي بالمنطقة في المجالس والزوايا التقليدية، ثم ارتقى إلى المدارس النظامية الحديثة، التي تقيّم " الحصيلة التعليمية " بالامتحانات، ومن هنا تعقّدت الغاية من التعليم، إذ صار حرص المتعلم على الدرجات أكثر من حرصه على الاستفادة من التعلّم، وشاعت بين الطلبة ظاهرة الغشّ في الامتحانات، وقضت هذه الظاهرة على الوعي الثقافي عند الطلبة وعلى روح الإخلاص عند الأساتذة.

وفي مثل هذه الظروف يتبرّم أحد شعراء نيجيريا من ذلك ، منددا بالطالب الغشّاش المتكاسل في مراجعة دروسه، فيقول : [الكامل]

7 غشّ الفتى في الامتحان مضرّة ** ونتيجة الخسران والخذلان

8 فاقرأ كتابك واحفظنْ ما يلزم ** إن الرسوب موجب الحرمان[1]

ومن ظروف هذا التعليم ما عليه الأساتذة من حالات الفقر، وتدني مستوى المعيشة، وذلك من نتيجة غلبة المادة على الحكومات أكثر من اهتمامهم بالظروف التعليمية في الجامعات، وهذا الخطأ في الوعي، والخلل في التفكير، ليفرض على الشعراء أن يبوحوا بمواقفهم المضادة، فكيف يمكن لإفريقيا أن تتطوّر إذا كان التعليم العام ، بما فيه التعليم العربي، على هامش اهتمامات الحكومة، وهذا ما يثيره أحد الطلبة الشعراء من نيجيريا : [الرمل]

ونظام التعليم خالفه الحظْ ** ظ مهانا أمام كلّ قدير

وسكوت القريض في موطن الظلـ ** ـل يؤدي إلى مصير خطير

حسّنوا حالة المعلّم فالعلـ ** ـم دواء يجلي سقام الصدور

وأعيدوا الحياة والعلم والعزْ ** ز إلى جامعاتنا بحبور

ينتهي بالحوار كلّ خلاف ** وشجار وفتنة ونفور

قد علقنا عليك كلّ الأماني ** يا وزير التعليم والتيسير[2]

وفي الاختلاف بين المناهج التقليدية والمدارس النظامية احتدم صراع بين المحافظين والمحدثين خريجي جامعات الدول العربية، وتولّد من هذا الصراع نقاش مرير بين أتباع الشيوخ التقليديين وبين الطلبة الخريجين، الذين أنكروا ما في المجتمع من موروثات فكرية وعقدية، وخاصة في السنغال، كما تصوّر قصيدة شيخ تجان غاي " إتجان Etidiant "ــ تحريف الطالب بالفرنسية ــ حيث تظهر مواقف هؤلاء المتحرّرين الدعاة كما يسمون أنفسهم : [البسيط]

---

(1) – عثمان، حمزة أدغن: المختارات من قصائد المناسبات في إلورن،قسم اللغة العربية،كلية الآداب، جامعة إلورن،نجيريا، ص 52.

(2) – المصدر نفسه، والباحث لم ينسب نماذجه الشعرية إلى أصحابها.

2 إمّا سألت يجبك (سَمْبَ) مرتعـدا ** أعوذ بالله ممّن وســمهم إتجـان
3 هم الزنادق فاحذر مــن نقاشـــهم ** هم ألسن سفسطت لا تقترب إتجان
4 وفي صدورهم التوراة يـصحبها ** إنجيل عيسى، يهود كلّهم إتجـان
5 قد أحضروا كتبا بيــضا قراءتهـا ** والله أصعب من أصحابها إتجـان
8 وما لهم مذهب في الفقه إن فقهوا ** وقل ما فقهوا ، هل يفقه الإتجان؟
9 وما لهم من شيوخ إن ســألتهم : ** هذي الوسائل شرك، قولهم إتجان
29 وإن ســألتهم عــن أيّ مــسألة ** قالوا : خلاف ، وتأويلان يا إتجان
30 وقد يكون بها "قولان " أو جعلــوا ** " تردد " حكمهم، واتهموا إتجان(1)

وقد زاد الطين بلّة عندما تخطّى هذا التناحر حدود الخلاف بين المحافظين والمحــدثين، إلى تشتّت هؤلاء المستعربين الخريجين، فتأسّست جمعيات كثيرة تنحصر عضويّة كل جمعيــة على خريجي دولة عربية : كاتحاد خريجي مصر، واتحاد خريجي المغرب، واتحــاد خريجــي السعودية، وهكذا دواليك في أكثر دول المنطقة ... الخ.

وقد أثارت هذه الظاهرة تعجّب الشيخ محمد البشير جاو في سيقو بمالي، فأبدى موقفــه هذا متهكّما ومنكرا عليهم هذه المواقف المخزية التي أبدع في تصويرها : [الوافر]

1 عجبتُ من الأســاتذة الــذينا ** يخاصم بعضهم بعضا سنينا
2 وهم يتشاجرون وفي يديهم ** كتــاب الله ملجــأ صــادقينا
3 يكفّــر فرقــة فرقــا بــزعم ** وقد فهموا الكتاب المستبينا
4 ويرمي بعضهم بعضا بشرك ** ويحسب بعضهم بعضا غبينا
5 ويهجر بعضهم بعضا جفاءا ** ويأخذ بعضهم بعضا مهينــا
6 فهل يتخاصمون على المزايا ** أو الجاه الذي يجدي فطينــا
7 على الدرجات هل يتنازعونا ** أو المال الذي يعلــي قرينــا
14 وكان لباسهم مكرا وغــدرا ** وقد عرفوا جزاء الماكرينــا
16 فكان الكل منهم في اعتبــار ** أنانــيّا شمــالا لا يميــنا (2)

ولم تخل دولة في المنطقة من اضطرام نار هذه النزاعات بين المستعربين، وأحيانا تتحول إلى حروب دامية، والغريب أن هوة النزاعات تتّسع بينهم، والخلافات تتفاقم ، ولا أحد من المستعربين من يحاول تقارب الاتجاهات المتباينة أو توحيد الصفوف المتناحرة، بل ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.(3)

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع، مرجع سابق، ص 102–103.
(2) – جاو، الشيخ محمد بشير : عجبت ، قصيدة مخطوطة من 17.
(3) – الآية : 53 من سورة المؤمنون.

3)- تيّارات الغزو الثقافي الغربي:

إذا عرفنا قِدَمَ الثقافة الإسلامية في المنطقة ، ورسوخَها لدى الأجيال منذ عشرات القرون الماضية، قبل وفادة الثقافة الغربية ، فإن الدهشة لتأخذ القلوب عند وقوفنا على هذا المتغيرات العصرية نتيجة الغزو الثقافي الأوروبي، الذي نجح في تغريب الثقافة الإفريقية، وفي زعزعة قلوب المستعربين بنعرات التقدّم والتطوّر، فتفتّحت أزاهير بذورها التغريبية حتى تغنّى المرجفون في الشوارع : إن كل متديّن متخلّف، وكل مستعرب رجعي، والعربية لغة الجمود الفكري ...الخ.

إن جيل هذا العصر قد أصيب بمرض الهوس في تبعية الثقافة الغربية، وخاصة جيل الفتية والفتيات، جيلٌ أصبح مغروراً به، يؤمن بأن كلَّ جديدٍ وكلَّ حداثةٍ تطوّرٌ، وأن كل قديم تخلفٌ. وفي مثل هذه الحال يحتاج الجيل المعاصر إلى تذكير كي يفيق من سباته : [البسيط]

*1 ذكّر بربّك جيلا غرّه أممٌ ** حيث المظاهر قد غرّت بها أمم*

*3 طغتْ عليه فنون الزيغ في حلل ** ذات الخديعة فيها الدهر ترتسم*

*4 زيغ تكاليفه ـ والله ـ باهظة ** في العرض والنفس والأخلاق تنهدم*

*8 جيل إذا قيل: قال الله ، أزعجه ** لغير ما أنزل الرحمن يحتكم*

*21 لفظ التقدّم معبود كأن له ** قدسية في نفوس الناس تنسجم*

*22 ذكّره ، أرشدْه، وجّهْ فكرَه ليرى ** ما فيه من جنف بالحقّ يصطدم*

*25 يا حزن قلبي، ويا دمعي، ويا أسفي ** من لي يوجه جيلا كاد ينهدم ؟*(1)

ونعود إلى قصيدة " الهوية المفقودة " لمحمد الأمين جابي الغيني، التي طالما أشرنا إليها، لنستكشف منها نماذج أخرى من تلك الأمراض الثقافية التي غزانا بها الغرب، فاتّسمت بحياتنا اليومية من غير وعي : [الكامل]

*68 تاريخهم أضحى مدار حياتنا ** وبه نقدِّم شأنَنا ونؤخِّر*

*69 أيامنا أسماء معبوداتهم ** وبها نؤرِّخ كل شأنٍ يؤْثَر*

*70 ليست سوى أسماء أوثان لهم ** عُبِدت، وما زالت شعائر تُذْكَر*

*71 للشمس يوم الأحد، والإثنين للـ ** ـقمر المبجَّل ، والبقيّة أكثر*

*72 ميلاد عيسى ما لنا من ناقة ** فيه ، ولا جملٌ يساق ويُنْحَر*

*73 أو ليس يكفي المسلمين كرامة ** ميلاد أحمدَ ، فهْو نعم المفْخَر*

*74 بوفاته الإسلام أصبح كاملا ** وأتمَّ نعمتَه الإلهُ الأكبر*

*75 حدثان ما ملأ الزمانَ سواهما ** بسواهما ، التاريخ لا يتغيّر*(2)

---

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، مرجع سابق، ص 7-8.

(2) – جابي، محمد الأمين : الهوية المفقودة، مخطوطة، من 74 بيتا، كينديا، غينيا.

نعم هكذا تتوارد الخواطر، لأن رأي الشاعر قد التقى بما سار عليه التاريخ المتّبع في الجماهيرية العربية الليبية. ولكنّ المسلمين حتى الآن لم يفيقوا من هذه التبعية العمياء.

إن جملة من اللغات المحلية كانت تكتب بالحروف العربية قبل استعمار المنطقة، كالهوسا واليوربا في نيجيريا، والمالينكية أو بمبارا في غينيا ومالي، والولوفية في السنغال، والفولانية في كثير من دول المنطقة. وكانت المراسلة متداولة بين الأفارقة بهذه الكتابات. ولكن بعد استقلال الدول، وبعد انتشار اللغات الأوروبية، كثرت الدعوة إلى كتابة تلك اللغات المحلية بالحروف اللاتينية، وأغرى الأوروبيون دعاتَها ، فأنفقوا عليهم ما أنفقوا، وفي الوقت نفسه لم تلق الكتابة بالحروف العربية تشجيعا بالمقابل، ولكن العلماء تصدّوا لذلك ، وسفّه الشعراء أحلام هؤلاء الدعاة المرجفين، كما نجده عند السنغالي الشيخ أحمد جي: [البسيط]

3 وما يقال من التبديل عن نمط ** من الكتابة " باللاتين " للحقد
7 فتلك بلبلة الأفكار مهزلة ** أثارها بيننا الأعداء للحسد
12 يا أيّها السود لا تصغوا لداعيةٍ ** إلى " التفرنج " والإلحاد واللدد
13 فلتكتبوا بحروف كان يعرفها ** أجدادكم كأداة الحفظ والسرد
14 في الطابع العربي الشكل متّسع ** لكل لهجاتنا بالخطّ في الصدد
15 وذاك يقضي بإبقاء لنا أسرا ** تقاربت بأداة الفكر والعتد
16 بالعالم العربي الصنو تربطنا ** تلك الأداة ، فنبقى ثابتي الوتد
17 قد غيّروا خطّهم عن خطّ ملّتهم ** أما كفى ما عرى الأتراك من أود
18 واستهزأ الغرب منهم بعد ما بترو ** همو عن الدين والأعراب والسدد
19 ألم تروا يا بناة المجد ما فعلت ** شعوب فرس وكرد أمة الجلد
20 بأحرف " المصحف " المحفوظ قد كتبوا ** لغاتهم وهي أهدى خطّ معتمد
21 فما لكم عن خطاهم تصرفون وقد ** أغناكم الله بالأهدى عن الزبد [1]

وكانوا يعلّلون دعوتهم هذه بإحياء التراث الإفريقي، وغربلته من غبار الثقافة الشرقية ـ أي العربية الإسلامية ـ لذا كفّرهم العلماء ، ورموا دعوتهم التغريبية بالإلحاد والمروق من الملّة، لأن بعضهم اتخذوا حركة " الزنوجة Négritude " نهجاً لطمس آثار الإسلام في التقاليد الإفريقية، وفي هذا مفارقة وانحراف كما يذهب إليه شيخ تجان غاي في قصيدته " تناقض "،[2] حيث يرد على الرئيس الأديب ليوبولد سيدار سنغور الذي حاول أن يجمع بين مثل هذه الدعوة والإشادة ببطولة الأبطال الشعبيين أمثال لتجور في السنغال، وساموري في غينيا.

(1) – جي، الشيخ أحمد : الحركات المشبوهة والمحاربة للإسلام، قصيدة مخطوطة من 35 بيتا، كولخ، السنغال.

(2) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، مرجع سابق، ص 64.

ومن تلك التيارات الفكرية الغازية ما جاء في رواية سلمان رشدي[1]" الآيات الشيطانية "، التي أثارت ضجّة كبيرة في العالم حين صدورها ، ولم يهدأ صداها حتى الآن، إذ مـــا زال دم صاحبها مهدورا لدى المسلمين، لأنه سخر من رسول ربّ العالمين ﷺ وآل بيته رضي الله عنهم وصحبه رضي الله عنهم.

وقد أدانه قادة الفكر الإسلامي، وكفّره العلماء، وردّ عليه أرباب الأقلام، ولعنـــه علـــى المنابر فطاحل الكلام، وأصلاه الشعراء بنار التنديد والتهكّم كقول عبد الله دظو النيجيري فـــي هذه الأبيات الآتية : [الوافر]

21 ***يذكرني الحديث كتاب رشـــدي ** أرى والله قتلـــك يـــا يهـــودي***
22 ***فما أطغاك حـــين كتبـــت غيـــا ** تشارك فيـــه مـــن يلقـــون غيـــا***
23 ***تحارب ديـــن خالقـــك الكـــريم ** وتعـــصيه فيـــا لـــك مـــن لئـــيم***
24 ***لحاك الله يا ضـــلّ بـــن ضـــلّ ** فنعتـــك نعـــت همـــاز عتـــل***
25 ***وبون بـــين ســـلمان الرســـول ** وســـلمان الغوايـــة والفـــضول***
26 ***وقبلك مـــن أرادوا أن ينـــالوا ** مـــن الإســـلام بالخـــسران آلـــوا***
27 ***فيا يومـــا تلاقـــى فيـــه حـــداً ** سيأتـــي لا أرى فـــي ذاك بـــدا***[2]

وإنّ الذين استقينا من نتاجهم الشعري نماذجنا في هذا الفصل كانوا من الشبان أكثـــرهم، لا من الشيوخ، فإنّ ثقافة هؤلاء ضيقة الأفق، وفكر أولئك أوسع وأشمل لأنهم يعيشون ظـــروف المتغيرات الاجتماعية والثقافية ، وإن كانوا مقصرين في إهمال بعض القضايا المهمـــة التـــي أثارت هم نظرائهم من الشعراء والكتاب باللغات الأوروبية.

---

(1) – إنجليزي وهندي الأصل، شوّه صورة رسول الله ﷺ وانتهك حرمات أمهات المؤمنين كشخصيات روايته.

(2) – دظو، الشيخ عبد الله موسى : المدخل إلى الأدب والبلاغة والنقد، مخطوطة مكتبة المركز الثقافي، كدونا، نيجيريا، ص 118.

الباب الثالث

قضايا نقدية في الشعر العربي الإفريقي

الفصل الأول : أجناس الشعر العربي الإفريقي

الفصل الثاني : بناء القصيدة

الفصل الثالث : قضية الوحدة في القصيدة

الفصل الرابع : القصيدة بين الالتزام والاتجاهات الأدبية

الفصل الأول

أجناس الشعر العربي الإفريقي

المبحث الأول : الشعر الغنائي

المبحث الثاني : الشعر التعليمي

المبحث الثالث : الشعر الملحمي

المبحث الرابع : الشعر القصصي

المبحث الأول : الشِّعْرُ الغِنَائِيّ

1. *غنائية هذا الشعر :*

من المعلوم أن نشأة الشعر العربي، في العصر الجاهلي ، نشأة غنائية لأوزانه، ومقاطعه الصوتية، ولميزان الكلمات العربية. وقد ساعدت عوامل أخرى على غنائيّته : كميل المجتمع العربي إلى الغناء، وطبيعة الحروف العربية بإيقاع موسيقي في ألفاظها،[1] وميل الشعراء العرب إلى إنشاد قصائد بألحان مطربة، حتى عرف الأعشى أبو بصير[2] بصنّاجة العرب، وفي العصر الإسلامي يقول الشاعر الكبير من المخضرمين حسان بن ثابت هذا البيت الذي يرى فيه التزام الشعر بالغناء :

تغنّ في كل شعر أنت قائله ** إن الغناء لهذا الشعر مضمار [3]

وإذا كان هذا الشعر الإفريقي قد نسج على منوال الشعر العربي، واستقى منه جميع خصائصه الفنية، وتقمّص بطابعه العاطفي والوجداني، فلا غرو في الحالة هذه أن يتّسم بخاصية الغنائية في مميّزاته العامة والخاصة.

وغنائية الشعر لا تقتصر على الشعر العربي فحسب، بل إن الشعر الأروبي يراها عنصرا مهما في خصائص الشعر،لذا قال الشاعر الألماني هردنبرك[4]في القرن الثامن عشر الميلادي: إن " *الشعر الغنائي هو التعبير الكامل عن الخلجات النفسية في أعذب لغة صوتية* ".[5]

وإذا كان الغناء والألحان متّسمة بحالات المشاعر، والشعر لغة انفعالية عاطفية ، فإن نقطة الالتقاء بينهما كبيرة، وغايتهما في متعة العواطف وإثارتها موحّدة، وخروجهما عن خطّ العقل المنطقي والاحتجاجي مستهدف منهما، فلا نجد بدّاً حينئذٍ من حتمية هذه العلاقة الطبيعية بين الغناء والشعر.

والطريق ممهّد إلى هذا الشعر الغنائي بفضل ما للغناء من مكانة عظيمة في المجتمع الإفريقي، إذ لا تخلو مناسبة تقليدية من الغناء، حتى في مناسبات الجنازة ، وهذا ما يفسّر اهتمام الشعراء الأفارقة بهذا الشعر العربي الغنائي، لشدة العلاقة بينه وبين الأغاني الشعبية الشفهية.

ويجدر بنا أن نشير إلى مظاهر الغناء التي أضفاها الأفارقة على إنتاجهم الشعري،

---

(1) – ينظر : الورقي، السعيد : لغة الشعر العربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، لا.ط، لا.ت، ص 20.

(2) – أحد فحول شعراء العصر الجاهلي وكبيرهم في عصره،عرف باستعمال آلة الصنج في إنشاد شعره الذي كان يعيش منه.

(3) – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق بدر الدين حاضري، دار الشرق العربي، ط 2، 1998م، بيروت، لبنان، ص 80.

(4) – هو Novalis Friendrich hardenberg أحد كبار شعراء ألمانيا الرومانسيين (1772–1801م)، له أغاني الليل.

(5) – هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، ص 373.

وذلك واضح في ترتيل القصائد في الزوايا الصوفية والترنيم بها في مناسبات المراكز العلمية والمدارس الحديثة، التي لم تقصّر في ذلك ولا تهاونت فيه :

- ***في الزوايا الصوفية :***

ربّما تعد الزوايا الصوفية أكثر عناية بغناء قصائد المدائح النبوية، وخاصة بردة البوصيري التي ترتّل بألحان مختلفة في احتفالات المولد النبوي الشريف لدى الجماعات الإفريقية بهذه المنطقة[1]، وخاصة زوايا القادرية في كنو، وفي انجاسان بالسنغال، التي تترنّم مع الرقص في إحياء مناسباتها الصوفية، لذا يقول زعيم القادرية بنيجيريا محمد ناصر كبرا في ذلك :[الطويل]

5 ***فلو ذاق طعم السكر يوما وشاتنا ** لطاروا به رقصاً وخافوا التشدّقا***
6 ***نعمْ ترقص الأعضاء في الذكر دائما ** إذا ذكرت عهد الحبيب تشوّقاً***
7 ***فلا تنكروا رقصي إذا ما ذكرته ** وهل ترقص الأعضاء إلا تعشّقاً***
8 ***إذا ذُكرَ الأحبابُ طارت قلوبنا ** إلى رؤية المحبوب تشدو تحرّقاً***
9 ***عكفنا على أمداحه نستطيبها ** ونهتزّ كالأغصان في ذكر من سقا*** [2]

واقرأ عنه في تائية أخرى كيف يشيد بضرّاب البنادير والصحانة وأرباب الهيام الذين أخذتهم نشوة الذكر أي مأخذ، فتحولت الزاوية إلى دار خلاعة ودار مطربة على حد قوله.[3]

أما التجانيون فلا يرتبط ترتيل قصائدهم بالرقص إلا فيما يسمع عن جماعة " الجعفرية " في نيجيريا[4]، وجماعة " فيلا " في غانا[5]، وإن كان سائر التجانيين يتبرّؤون منهم.

وفي السنغال وإن كان سائر الصوفية لا يرقصون مثل القادرية في انجاسان، إلا أن المريدية تتميز بظاهرة الغناء بقصائد الشيخ **أحمد بمبا خادم الرسول**ﷺ،والتي تشهد انتشارا فائقا في السنغال، لأنها لا تقتصر فقط على المناسبات الدينية في مناسبة "ماغالْ " ـــ ذكرى رحلة الشيخ إلى منفاه في غابون ـــ ولا على احتفالات المولد النبوي الشريف، واحتفالات مواليد خلفائهم، والزيارات العامة، لكن تشهدها جميع المساجد المريدية وديار المريديين في ليالي الأيام العادية ، يوميا في بعضها ، وأسبوعيا عند الآخرين، يتخصص فيها نخبة من المرتّلين ذوي أصوات رنّانة يكبر دويُّها في المكبّرات الصوتية إلى آفاق الحارات من بعد العشاء إلى منتصف الليل. أضف إلى ذلك أشرطة الغناء بقصائد الشيخ أحمد بمبا[6] ، التي تظلّ تغرّد بألحان مغنّيها في الحفلات العامة، وفي أسواق الأحياء. بل إن المرء ليشهد في شوارع دكار ومدن السنغال جماعةً من الشبّان يتغنّون بتلك القصائد، وهم يسألون الناس الصدقات إلحافاً.

---

(1) – وذلك قبل انتشار حركات الوهابية أو أهل السنة ـــ في النصف الثاني من القرن العشرين ـــ التي رأت في ذلك بدعة منكرة.
(2) – كبرا، الشيخ محمد الناصر: الديوان المبارك ، ص 5-6.
(3) – المصدر نفسه ، ص 13.
(4) – الإلوري، محمد حبيب آدم : التصوف الإسلامي في نيجيريا، أغيغي ، لاغوس، الطبعة الأولى،1420هـ/1999م،ص 130.
(5) –جماعة أسسها شيخ صوفي في براي بشمال غانا،وهم يمزجون بين الأغاني الشعبية والدينية،وأحيانا فيها أغان غزلية فاحشة.
(6) – كقصائد مواهب النافع، ومطلب الفوزين ، ونونيته المقيدة أوائل أبياتها بقوله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في ...الخ.

وفي زاوية تواوون التجانية فإن قصائد الحاج مالك سي قد نالت المكانة المرموقة نفسها في انتشارها في حافلات النقل العام، وفي المناسبات الدينية[1] ، وإن كان أصحابه لم يبلغوا شأو اهتمام المريدين بترتيل قصائد شيخهم، لكن الفرقة الغنائية في جماعة المسترشدين والمسترشدات[2] قد فاقت هؤلاء المريدين من حيث التنظيم والحداثة، لأن تنظيماتها في إحياء الليالي الدينية، وجذب قلوب الفتية والفتيات نحو برامجها لكبيرة وعظيمة، وهي تعنى بقصائد الحاج مالك سي، وابنه الشيخ أبو بكر الخليفة سي[3] ، والشيخ أحمد التجاني سي.

ولهذا الأخير رائية في أبيه، ازدادت روعتها على يد هذه الفرقة التي تغنّيها في عناية فائقة بأصوات حروف المدّ فيها، وبألحانها في الترنّم بإيقاعات التنوين، وهي هذه : [الطويل]

1 أبونا أبو بكرٍ وإن كان في القبر ** رضينا به شيخاً إلى آخر الدهر
2 لمن أنتمي إن لم يكن لجنابه ** بمن أقتدي إن لم يكن بأبي بكر
3 خلا لك جوّ القلب يا طير حبّه ** فبيضي بخير واصفري أسعد الطير
4 لطيف بنا في النفس والروح ذكره ** وألطف منه فيهما نكتة الذكر
5 يزيد علينا أخذة وهو غائب ** فأكرمْ به من غائب وهو ذي حجر[4]

إنّ اهتمام الطلاّب بمدائح شيوخهم في المناسبات الدينية لكبير، وخاصة في ربوع السنغال، حيث يقيم كل عالم أو الأسر الدينية مناسبات المولد النبوي في تاريخ معين خلال السنة، فيتغنّون ببردة البوصيري وبقصائد شيوخهم المحليين أمثال قصائد الشيخ محمد الخليفة انياس في كولخ، ومدائح أخيه الشيخ إبراهيم انياس أشهر ما يتغنّى بها في كولخ وخارجها في الزوايا التجانية بنيجيريا وغانا والنيجر مثلا، وقصائد الشيخ عباس صل في لوغا، وقصائد سعيد الشعراء في فوتاطورو، وقصائد الشيخ محمد الأمين بن زبير في كُلْدا بجنوب السنغال.

وإذا توجّهنا صوب ساحل العاج، على الرغم من قلّة الشعراء فيها، فإن لمدينة بونْدُكو اهتماماً بالغاً بالأشعار الدينية في اللغة المحلية وبجانبها ميمية محمد بدر الدين واترا الذي عارض فيها بردة البوصيري. أضف إلى ذلك مكانة مدائح كرامو طلْبي في شرق غينيا، ومدائح الشيخ محمد صمبا مومبيا بدالابا في غينيا. كل ذلك دليل على شيوع التغنّي والترنّم بهذا الشعر.

- ***<u>في المراكز العلمية :</u>***

ولكن اهتمام الأفارقة بترتيل الشعر غناءً لم يقتصر على الزوايا الصوفية، بل إنّ للمراكز العلمية ألحانَها تتميز بها ، إذا تغنّى أحد أفرادها بشعرٍ فيعرف الجميع المركز الذي

---

[1] – ومنها ميميته: الحمد لله ذي الإيجاد والقدم" ، ونونيته: ألا يا دعد ويحك نبّئيني،وتائيته: فلا بد من الشكوى إلى كربتي.

[2] – أسسها مصطفى ابن الشيخ أحمد التجاني سي،الذي بدأ يبرز كنائب غير منازع لأبيه الذي يعد الخليفة الثاني في زاوية تواوُن.

[3] – ومن قصائده المشهورة هائيته: الحمد لله هذا الشيخ ربّاه، وأخرى مطلعاه: وله الكمال وله الجمال .

[4] – سي، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 34. ومن قصائده أيضا نونيته: فإليك يا بن محمد ناداني.

ينتمي إليه، وهذا جليّ بين الأدبيّين والمركزيّين في بلاد اليوربا بنيجيريا. وإن كان الشيخ محمد كمال الدين الأدبي لم يقرض شعراً، فإنه خرّج كثيرا من الطلاّب الذين يحيون المناسبات الدينية بألحان شيخهم الأدبي، وأما المركزيّون فهم ينتمون إلى الشيخ آدم عبد الله الإلوري مؤسس مركز التعليم العربي في لاغوس، الذي كان شاعراً وأكبر كاتب مستعرب في نيجيريا الحديثة، فإن طلابه تميّزوا بألحانهم الصوتية في إنشاد شعره وشعر غيره المجموع في مؤلفه " الفواكه الساقطة "[1].

أضف إلى ذلك جماعة الزمرة المؤمنين[2] في إبادَنْ التي تنفرد بألحان معينة في ترتيل قصائد الشعر العربي. إن هذا التباين في ألحان مراكز دولة واحدة ليكفي دليلا على ما يتوقّع في سائر الدول من تباين بين المراكز العلمية في اهتمامها بإنشاد القصائد، وفي إبداع الألحان الغنائية، التي تكون لها أحياناً صلةٌ بألحان بعض الأغاني الشعبية.

- ***<u>في المدارس الحديثة :</u>***

إن أكثر المدارس العربية النظامية الحديثة قرّرت مادة " المحفوظات " في موادها الدراسية بمرحلتي الابتدائيّة والإعداديّة، فيغنّي التلامذة بألحانهم الرنّانة بعض الأشعار العربية ، إما لأنها مضمّنة في بعض الكتب الدراسيّة كأجزاء كتاب " التلاوة العربيّة أو التلاوة الإفريقيّة " الصادرة في المغرب. وقد اشتهرت في مدارس المنطقة من السنغال إلى نيجيريا لامية عبد الرحمن الثعالبي الجزائري المالكي، ومطلعها : [المتقارب]

تمرّ الليالي بنفسي ومالي ** فيا قوم ما لي عن الموت ما لي

نهاري جدال وليلي انجدال ** وحولي رجال على مثل حالي[3]

ولكنّ بعض مدراء المدارس رأوا ضرورة وضع أناشيد مدرسية من قريحتهم لتلامذتهم، وقد تشتهر قصائد بعضهم في مدينتهم فتتبنّاها سائر المدارس، أو قد تتخطى شهرتها حدود وطنها إلى مدارس الدول المجاورة ، كأناشيد الحاج محمود سانوغو، مؤسس مدرسة السلام في مدينة بوبو جولاسو ببوركينا فاسو، فاشتهر من أناشيده " نشيد الأربعاء " التي ما زال يتذكّره طلبة مدرسة العلوم الإسلامية في حي تريشفيل بآبدجان في ساحل العاج ، وكان التلاميذ ينشدونه في مساء الأربعاء قبل عطلة الأسبوع المتمثلة في يومي الخميس والجمعة:

1 اليوم يوم الأربعاءْ ** ما أطيب الأربعاءْ

2 يوم به نفرحْ ** ونقرأ ونمرحْ

3 إذ غدُه خميسنا ** أحلى لنا من عيدنا

4 نجول في بلادنا ** نذهب حيث شئنا

---

(1) – كتاب جمع فيه الشيخ الإلوري كثيرا من قصائد الحكمة الشريفة من الشعراء العرب.

(2) –جماعة أسسها عبد السلام البمديلي لتدريس الطلاب على منهج تقليدي معين، يشمئزون من الكتب الحديثة، وهم في بلاد اليوربا

(3) – الإلوري، الشيخ آدم عبد الله : الفواكه الساقطة ، ص 8.

5 كذاك يوم الجمعـــة ** لا نذهب للمدرسةْ
6 بل نجلس في بيتنا ** نؤنّس بأهلـــنا [(1)] [الطويل]

وفي السنوات الأخيرة نجد مطبوعات من الأناشيد المدرسية في نيجيريا. وفي مـــالي اشتهر مؤلَّف الشيخ يعقوب دوكوري المسمى بـــ " البستان " الذي يضمّ بين دفتيه أكثر من مئة أنشودة غنائية، أكثرها تتميز بتكرار جمل رائعة في أوزان قصيرة كأنشودة "أحب بلادي":[؟]

1 أحـــــب بـــــلادي ** من بين الأوطـــانْ
2 أحـــــب بـــــلادي ** من بـــين البلـــدانْ
3 سعيي واجتهـــادي ** في كـــل الأحيـــانْ
4 خدمــــــة بـــــلادي ** خدمــــة الإنـــــسانْ
5 فلـــــتعشْ والعلَـــــمْ ** بـــــالعلا والأمـــــانْ
6 حــــــرّة خصــــبةً ** في كلّ الأزمـــانْ [(2)]

وتسير أناشيد هذا البستان على أوزان موضوعة، غير عروضية. وقد راعى في أكثرها قصر الأوزان، ليتناسب مع موسيقى الألحان التي سيختار لها. ولكن غيره قد سار في أناشيده على البحور الخليلية كمؤلَّف موسى باباتندي من نيجيريا بعنوان " الأناشيد المدرسية "، التـــي نقتطف منها هذه المقطعة الشعرية تحت عنوان " ديننا " : [الخفيف المجزوء]

1 ديننـــــــا ديـــــن قـــــوّةٍ ** دينُنـــــا ديـــــن عـــــزّةٍ
2 فيــــــه يـــــسرٌ ورأفــــــةٌ ** دينُنـــــا ديـــــن رحمـــــةٍ
3 ديننـــــــا ديـــــن عفّــــــةٍ ** دينُنـــــا ديـــــن فطــــرةٍ
4 فيــــــه عــــــدل وألفـــــةٌ ** دينُـــنا ديـــن قربـــةٍ [(3)]

2. الشعر الغنائي بين القصيدة والأنشودة :

وهذه الأناشيد المدرسية تجرّنا إلى قضية ينبغي أن نقف عندها، هي قضية الفرق بـــين القصيدة والأنشودة، وإن كانتا تتّسمان بالغناء إلا أنهما تتباينان في مميزاتهما الأسلوبية، وفي مضامينهما الموضوعية، وفي أوزانهما الشعرية.

القصيدة تتضمّن جميع أوصاف الشعر الفني الوجداني، وتركيزها على القيمة الفكريـــة لموضوعها أكثر بكثير من الأنشودة التي يمتاز موضوعها الفكـــري بالتفاهـــة، وإذا كانـــت القصيدة تتّسم بطوال البحور العروضية التامة، فإن الأنشودة تميل إلى الأوزان القصيرة؛ التي تصلح في الموسيقى الغنائية أكثر من الأوزان الطوال، ولا تمنع الصور الشعرية التي تتوفّر

[(1)] – سانوغو، الشيخ محمود : نشيد الأربعاء، مخطوط بمدرسة السلام، بوبو جولاسو، بوركينا فاسو.

[(2)] – دوكوري، الشيخ يعقوب : البستان ، ص 22.

[(3)] – باباتندي، موسى محمد عثمان : الأناشيد المدرسية في مزايا الحنفية ، ص 11.

في القصيدة من غنائها ، غير أن الأنشودة بعيدة كل البعد عن الصور الشعرية في أسلوبها، ويبدو أن الأنشودة الواحدة قد تتّفق معها كثير من الألحان الغنائية بخلاف القصيدة التي لا بدّ من عناية فائقة قبل اختيار اللحن الغنائي المناسب لها.

ومن خلال هذه الفروق قد اتّضح ما بين القصيدة والأنشودة من بون شاسع في موضوعهما وأسلوبهما ووزنهما. ولكن الجدير بالذكر أن الأنشودة لا تقتصر على تلك الأناشيد المدرسية فحسب، بل إن من المناجاة الإلهية ما يرتّل في الرياضات الصوفية ، ولا تختلف في سماتها عن الأناشيد المدرسية، كهذه النونية من الشيخ عبد الله دظو، أحد أتباع التجانية الإبراهيمية في كادونا بشمال نيجيريا، ومطلعها : [الرمل المجزوء]

*1 يا إلهي يا إلهي ** يا مجيب السائلينا*
*2 نسألن منك النجاحا ** فاكتبنّ ناجحينا*
*27 يا حفيظي يا حفيظي ** يا مجيب السائلينا*
*28 نسألنّ منك الحفاظهْ ** فاكتبنّ محفَظينا*[1]

على هذا النمط من التكرار الأسلوبي تسير هذه الأنشودة الابتهالية، التي لا يمكن في حال من الأحوال أن نطلق عليها اسم القصيدة، ولا يخفى علينا اقتباسه عبارة "يا مجيب السائلين" من غيره. غير أن أحد كبار فحول الشعر في السنغال، يمزج لنا في ذالية رائعة بين القصيدة في قوّة أسلوبها وبين روح الأنشودة في نغمات أصواتها الإيقاعية المطربة، لأنها نتيجة سماع أغنية موسيقية في الإذاعة المسموعة، وكان الليل قد أسدل ستاره ، وهدأت أصوات الجوّ، لتترك هذه الأغنية تترنّم في أنغام خلجات صدره وأغوار نفسه، فطرب قائلا : [الطويل]

*1 وقد أخذ الأوتار بي كلّ مأخذ ** وأنغامها تسري إلى كلّ منفذي*
*2 بما هَلْتُها قربي احتقارا لشأنها ** وفنّانها المهذار ، بعد تقذ ذي*
*3 فطنّتْ ورنّتْ في هزيج مركّز ** أمالت أحاسيسي بها للتلذّذ*
*4 ودغدغني مستدرجاً خفقانها ** بذبذبة الصوت الرخيم المجذَّذ*
*5 طربتُ لها عن غفلة مترنِّماً ** زمانا، وطاب الوقع دون تَمَذمُذ*
*6 فقلتُ لجاري : ما رأيت كليلتي ** أ مثلي يمسي عبدَ عود مُغَذْغذ*
*7 فقال : هي الأوتار كم راح أهلُها ** ضحايا إسار للهوى عن تحبُّذ*
*8 ومن لم يكن بالعود أهل تأثّر ** ولا ذا انفعال بالصدى المتنفِّذ*
*9 فكبّر على إحساسه فهو ميّت ** وعنه مزاج الطبع قِ بالمعوّذ*[2]

ولا أحد ينكر ما لحروف الذال والهاء من جرس مطرب، غير أنه حافظ على قوّة أسلوبه.

---

[1] – دظو، الشيخ عبد الله موسى : يا إلهي، أنشودة ابتهالية ، مخطوطة بمكتبة الشاعر، كادونا ، نيجيريا.

[2] – جي ، أحمد : قصيدة مخطوطة في مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.المجذ أي المتتابع، تمذمذ أي إزعاج، مغذغذ أي ناقص.

3. الشعر الغنائي بين الوجدان والإيقاع الموسيقي :

لا تكون التجربة الشعرية صادقة إذا لم تُستَقَ من الوجدان، وللإيقاع قوّة فنية في إبراز ما للوجدان من صدق العاطفة، ومن هنا نتحقّق من مدى حاجة الشعر الغنائي إلى الوجدان والإيقاع معاً ، ليكون جيد السبك وجليل التأثير. لذا صدق النقاد إذ أثبتوا أن " عالم الوجدان هو عالم الشعر ".[1]

والإيقاع الموسيقي سلسلة من الصور الصوتية، كالتكرار والمقاطع وجرس الحروف والتلاؤم المنسَّق بين الكلمات ذات الألفاظ السلسة، ولا يتأتّى ذلك إلا على يد أديب بارع من غير تكلّف، فيحرّك شعرُه المشاعرَ ويثير الانفعالات، بفضل جمعه بين جرس الأصوات وقوّة موسيقى الأوزان الخارجية. وسيأتي إسهاب الحديث عن ذلك في الباب السادس والأخير.

ولا أحد يشكّ في براعة الشاعر الغامبي بامين محمد سري، الذي استطاع أن يوفّق بين مشاعر وجدانه وجرس إيقاع ألفاظه بالتنوين وجودة النظم : [الطويل]

1 ***هلمّوا إلى إصغاء شعر مهذَّب ** جميلٍ كعقد الدرّ في جيد زينب***
2 ***مصوغٍ على أمداح أفضل مرسَلٍ ** محمد خير العالمين المهذَّب***
3 ***هو الرحمة الكبرى من الله للورى ** فيُعفَى به في الحشر عن كلّ مذنب***
4 ***صفيّ إله الكونِ خاتم رسله ** وأفصح كلّ المنتمين ليَعْرُب***
5 ***رؤوف رحيم عبقريّ مكرَّم ** صفوح عن الأعداء عند التغلُّب***[2]

ولا تبتعد نونية عمرو ساغو الماليّ عن مثل هذا التوفيق، الذي ينمّ من عنوانها " خيالات التوداد بمداد الوداد " جرس إيقاع من صوت الدال المكرّر.[3]ولكن تكرار حرف معيّن لا يأتي دائما بجمال الإيقاع الذي يتّسم به الشعر الغنائي،[4] مثل هذا البيت : [البسيط]

10 ***أجود ذو المجد والجدوى اهتدى جُدَدا ** وجاد جوداً بجدوى جدّه وجدا***[5]

وقد يرى بعض النقاد في الروي « *أن القاف قد تجود في الشدة والحرب* »[6] ولكن الشاعر السنغالي مُمَّرْ صاصُمْ جَخَت[7] قد أبدعها في الغزل ، وهذا مطلعها : [الطويل]

1 ***ترنّم وقت السحر في البان أورق ** عليه من الخطّ السواد المعلّق***
2 ***فهيّج أشواق الفؤاد إلى الغنى ** وذكّره غيدا لها المسك يعبق***
3 ***نساء خريدات من البيض أوجهاً ** يَتَمْنَ بألحاظ تقيّاً فيعشق***[8]

---

[1] – موافي، عثمان وآخر: دراسات في النقد العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، لا.ط، لا.ت. ص 129.
[2] – جايتي، بامين محمد سري : مدح سيد البشر، قصيدة مخطوطة في مكتبة الشاعر، بِركاما، غامبيا.
[3] – ساغو، عامر عبد اللطيف : خيالات التوداد بمداد الوداد ، نونية مخطوطة من 34 بيتا، بماكو، مالي.
[4] – كبيت الشاعر العربي المشهور في البلاغة : وقبر حرب بمكان قفر ** وليس قرب قبر حرب قبر
[5] – النيجيري، الشيخ يحيى : نيل البغيا ، ص 75. والصحيح أن يقول " ذي " بدلا من " ذو " لأنه مضاف إليه.
[6] – هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، ص 470.
[7] – هو ابن القاضي مجخت كَلَ (ت 1943م)، كان معلما لابن أخته محمد الهادي توري، وقد تأثر بأبيه في مذهبه الشعري.
[8] – صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي ، ص 87/2.

4. الشعر الغنائي بين الخيال و الفكر:

علاقة الخيال بالوجدان وطيدة، لأن الخيال أيًّا كان نوعه وصورته فإنه لغة إيحائية، تتخطّى الدلالة اللغوية لتستنطق ما وراء الألفاظ وما تحت العبارات من معان وجدانية عميقة[1]. إذ كلّما تعمّق الخيال في صورها فإن معانيها الوجدانية تكون صادقة دالة على أصالة الشاعر، ومثل هذا الخيال قد يطلق عليه "الخيال الإنتاجي"،[2] وهذا يجعل الشعر أقرب قبولا في الغناء، وأدل على التجربة الشعرية التي لا بدّ منها في الشعر الرفيع، كمطلع رائية علي أبو لاجي النيجيري في صورة خيالية رائعة : [الكامل]

1 ***بحر القريض لديّ لا يتفجّر ** إلا بعاصفة تموج فيزخر***
2 ***وكذا البراعم لا تفتّق زهرها ** إن لم تنل غيثا يجود فيفغر***
3 ***سبحان من وهب القريض لشاعر ** متألّق في جوّ عزّ يبهر[3]***

والخيال الإنتاجي هو الذي يوحّد بين المعرفة الحسيّة والذهنية، ومن خلال المعرفة يصل الشاعر إلى " الفكرة " التي تكون محور شعره، « *إذ لا غنى للشعر عن الفكر ... ولكن سبيل الشاعر ألا يعنى بالفكر ذاته* » وقد صدق المازني في قوله هذا، لأن الخيال لا بدّ أن يرتكز على فكرة معينة، يعتقدها الوجدان في عالمه العاطفي، وبهذا تتكامل حيوية الشعر لأن بنيته أصبحت مُحْكَمة، وهذا جليٌّ في رائية محمد الأمين عاجْ السنغالي بعنوان " صدق التاريخ" في مدح الحاج عمر تالْ الفوتي، ورائية الإمام محمد أكوار[4] في مدح أمير صكتو أبي بكر.

وفي المقطعة الشعرية التي مزج فيها الشيخ محمد كاسو[5] بين الحوار والخيال والفكر، من خلال هذا المدح الرائع الذي أضفاه على أخيه الحاج مختار الكبير[6]: [الكامل]

1 ***قستُ البحار بعلمه فوجدتُه ** أعلى ، إذ المخزون ثَمَّ فرائده***
2 ***وبجوده فوجدته أندى يداً ** منه وقد شهدتْ بذاك مَشاهدُه***
3 ***وأتيتُ للأعدا فقلتُ ألم تروا ** أسدا يُهاب ولا تطاق مواجده***
4 ***قالوا رأيناه ولكن غرّنا ** منه سكون لا يخاف مُشاهده***
5 ***فأجبتُهم إن السكون وراءه ** حزم يواكبه الحجى ويسانده***
6 ***قالوا أيبغي؟ قلتُ لا لكنّه ** يسطو إذا يبغي عليه حاسده[7]***

---

[1] – ينظر : قطوس، بسام : وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، دار الكندي ، أربد ، الأردن، ط 1، 1999م، ص 40.
[2] – المصدر نفسه ، ص 21.
[3] – عبد الرزاق، علي أبو لاجي : مدح الشيخ عثمان ألاوي، قصيدة مخطوطة من 30 بيتا، إبادن ، نيجيريا.
[4] – هو إمام مسجد بللو في صكتو، عثرنا على أربع قصائد منه بمكتبة الوزير جنيد في صكتو، بصندوق 24/رقم 181.
[5] – ولد في طوبى عام 1912م، شعره كثير وسهل التعبير، ورث الشعر عن آبائه وأجداده في طوبى التي أصبح شيخها الآن.
[6] – هو ابن الشيخ أحمد زروق، (1902–1957م) توفي في السنغال مخلفا تراثا رائعا من الشعر الفني منه والتعليمي.
[7] – جابي، محمد الأمين : الشاعر الأديب الغيني، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي،الجامعة الإسلامية بالنيجر،2002م، ص 23.

5. *خصائص الشعر الغنائي:*

اعتمادا على ما سبق، يتّضح الوضع الذي يتميّز فيه الشعر الغنائي عن غيره من الأشعار الآتي ذكرها، وقد نجملها في النقاط التالية مع شيء من الزيادة عليها:

أ.) – إذا كانت القصيدة غنائية فلا بد أن تتميز بجزالة ألفاظها، وحسن صياغة كلماتها المتخيّرة التي توضع في مكانها المناسب من التركيب، لا يصلح فيه غيرها، بل إن القيمة الدلالية للكلمات ينبغي أن تنفرد بها دون سائر مرادفاتها من الألفاظ.

ب.) – مشاكلة ألفاظها وشدة اقتضائها للقافية وحروف الروي، حتى لا يظهر بينهن أي تنافر، ولا يتأتّى ذلك بالكلفة والتصنّع سوى بالدربة والمهارة عل يد الشاعر البارع.

ج.) – التحام الكلمات لإيجاد تعبير محكم ورصين، لأن تلاؤم الكلمة لِما قبلها ولِما بعدها من أخواتها سيؤدّي بلا شكّ إلى قوّة الصياغة وحسن السبك وجودة السلاسة.[1]

د.) – بمهارة الشاعر المطبوع يمكن أن ينسج الخيوط العاطفية التي تجمع بين الحالات النفسية ونغمات أوزان البحور التي اختارها لقصيدته، وفي هذه الحالة تتضح قوة الذوق الفني لدى الشاعر الذي يُوفَّق في مثل هذه التجربة الفنية.

ه.) – أن تكون إيقاعاتُ الأصوات في حروف ألفاظها ، وفي مقاطعها، وفي تلاؤم كلماتها في التعبير الرصين، صالحةً للغناء المؤثّر وموفَّقةً في اختيار الألحان التي يتغنّى بها، كي يكون الأثر الممتع إيقاعا جماليا ونفسيا في آن واحد. وهذا ما يسمّى بقانون الإيقاع في الشعر الغنائي.[2]

و.) – يؤدّي تكرار الكلمات والعبارات دوراً أساسيّاً في الشعر الغنائي، ويسهّل تلحينه، ويضفي عليه جمالا فنيا، ويحقّق غايته في المتعة التي هي روح الغناء.

ز.) – لا شكّ أنّ الوزن القصير صالح للشعر الغنائي، وخاصة إذا ما تحوّل إلى أنشودة غنائية. ولكنه ليس ضروريًّا في القصيدة الغنائية التي تحافظ على فخامتها في البحور العروضية الطويلة.

ح.) – يزيد أسلوب الخيال، الذي يتشكّل في عمق الوجدان قبل ظهوره، في نشوة غناء هذا الشعر، لأن الشعر كلّما توغّل في الأحلام النفسية يكبُر تأثيره في المشاعر، فتزداد المتعة العاطفية قوّة، وتتهيّج النفس إلى حدّ الفناء في نشوتها المثيرة.

ط.) – لا فرق بين الشعر الغنائي والقصيدة الغنائية إلا ما بينهما من عموم وخصوص، والشعر يتعلق بالعملية الشعرية ، والقصيدة تدل على الجسم البنائي بعد العملية الشعرية.

---

(1) – عباس، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 412–415.

(2) – إسماعيل، عز الدين : الأسس الجمالية في النقد الأدبي، ص 306.

المبحث الثاني : الشِّعْرُ التَّعْلِيمِيُّ

يتميّز الشعر التعليمي عن غيره في غايته وأسلوبه، إذ يهدف إلى صقل العقول بالحكم الشريفة والمعلومات المجردة عن المشاعر، ويعتمد في أسلوبه التقريري على التعبير المباشر، لا تتخطّى كلماته اللغويّة المعانيَ المعجميّة بعيداً عن أسلوب الإيحاء والتصوير.

ويبدو أن أوّليته كانت في المجالس العلمية في العصر العباسي الأول. ولكن كان " شعر الحكمة والزهد " قد نضج على يد أمثال أبي العتاهية[1]، وصالح عبد القدوس[2]، قبل أن تسجّل العلوم في الشعر الذي استقى جذوره من هؤلاء الشعراء، كما يراه بعض النقاد.[3] وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام قضية " النظم والشعر"، وإن كان في الصفحة السابقة ما يغني عن الفرق بينهما، فإن النظم التعليمي هو الشعر الذي يعتمد على الوزن ليستوعب المعلومات المجردة من العواطف ، والموجزة في أسلوبها العلمي، والهادفة إلى التعليم والتحفيظ.

من أغراض هذا الشعر إيجاز الدرس العلمي من الإطناب المسهب، وتسهيل حفظه، وجعله مرغوبا فيه، وتفضيل العلم على الجهل والتشجيع عليه لمحاربة الأمية ، كما ينصّ على ذلك الشاعر المالي يوسف جغوراغا في قصيدته " حوار بين الجهل والعلم "[4].

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما هي العلوم التي يتناولها هذا الشعر التعليمي ؟

فأجاب عنه محمد البشير جاو– شيخ شعراء سيقو – بسبعة أبيات ، وإن لم يكن شاملاً فإنه غطّى معظم العلوم التي تدرس في المجالس العلمية بمنطقة السودان الغربي : [الطويل]

1 ***إذا شئت أن تكون في العلم أكملا ** تعلّم لغات والحساب المفصّلا***
2 ***ونحواً وصرفاً والأصول ومنطقاً ** ورسما وتجويد الكتاب مجملا***
3 ***وفقهاً وتوحيداً عروضاً كذا البيا ** ن ثم المعاني والبديع المسجلا***
4 ***ومصطلح الحديث ثم فرائضا ** وتفسير قرآن الإله الذي اعتلا***
5 ***كذاك وأسباب النزول وناسخاً ** ومنسوخه المنسوخ حكما مرتلا***
6 ***ووصلا وفصلا واشتقاقاً وقصّة ** وأمثالهم ونقلهم متأصلا***
7 ***ومنقولهم بل ظاهرا ثم باطنا ** صلاة على من كان الرسل أكملا***[5]

وإليك الآن بعض تلك المنظومات التعليمية على ترتيب أهميتها في المناهج الدراسية :

---

(1) – هو إسماعيل بن القاسم (130-211هـ)نشأ بالكوفة يقول الشعر على سجيته،كان خزافا إلى أن أصبح فريد عصره في الشعر

(2) – أحد شعراء العصر العباسي، وكان من الرجازين، فورث عنه ابنه هذا النوع من الشعر.

(3) – ينظر : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 224.

(4) – ينظر: جغوراغا، يوسف : حوار بن العلم والجهل، قصيدة ميمية من 24 بيتا، بماكو، مالي.

(5) – الجاوي، الشيخ محمد البشير : فنون العلم، قصيدة مخطوطة، سيقو، مالي.

1)- في اللغويات :

إن أكثر الكتب التي تدرّسها المراكز القديمة لطلابها ليست سوى تلك المنظومات العلمية ، لذا كان من السهل جدّاً أن يتأثر بها العلماء في وضع بعض أشعار تعليمية في بعض العلوم. وخاصة اللغويات منها، لأنها بداية المسيرة العلمية التي يسلكها الطالب. ولاهتمامهم البالغ بعلم النحو، كثر إنتاجهم في هذا العلم الشريف الذي ينوّه به الشيخ الجاوي: [الطويل]

1 النحو روح العلوم والفهوم هو أ ** فخر الأساتيذ فاطلبوه طول ثوا

2 النحو ملْحُ الكلام إنّ عالمَه ** في العالمين مكرم وحيث ثوى[1]

نعم هو "ملح اللغة " بهذا الأسلوب الإفريقي المعرّب، لأن الكلام بدونه مُرٌّ لا يستساغ.

وأشهر ما وضع في النحو " مقدمة الكُكِي " للشيخ مورْ قُجَّ كُمْبَّ جوبْ (1832-1872م)[2]. وإن كان عصره خارج النطاق الزمني لبحثنا، فإن أثره كان كبيراً في الشعر التعليمي على علماء السنغال خلال القرن العشرين، إذ قرّره معظم المراكز التعليمية في القطر السنغامبي.

ثم توالى بعده في القطر السنغالي بعض الأراجيز في نظم مباحث النحو، منها سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب للشيخ أحمد بمبا من 19 قصيدة في 317 بيتا، وعليه عوّل علماء المجالس التعليمية في طوبى، فيقول في بابه الأول " باب الإعراب " : [الرجز]

1 حقيقة الإعراب تغيير يُرى ** أواخر الكلم عند من درى

6 أقسامه رفع ونصب عُمّما ** جزم وخفض خصّصا لتفهما

8 كالله يرحم ويكرم المطيع ** فلن أزال قافيا نهج الشفيع[3]

والشطر الثاني من البيت الأخير هنا يدلّنا على أن الشيخ حاول أن يلتزم بالروح الصوفية في هذا المؤلّف، الذي يبدو عند غيره أنه بعيد كل البعد عن التصوّف. وتليه أرجوزة الشيخ أحمد بن أبي بكر[4] في الشهرة، لدى علماء فوتاطور بشمال السنغال، وهي في 29 باباً، يبدو فيه ميله إلى الإسهاب في التفصيل أكثر مما أتى به ابن مالك في ألفيته في مثل قوله : [الرجز]

إن الكلام عندهم لفظ مفيد ** مركّب بالوضع صن يا مستفيد

قد فسّر الوضع بوضع العرب ** بعض ووضع العجم عنده أبي

وبعضهم فسّره بالقصد ** مخرج نائم بهذا القيد[5]

ولمواطنه الحاج محمد السنوسي[6] في "مكة كلبنتن " أرجوزة مثلها بعنوان " هداية الطلاب إلى منهج الإعراب " ألفها سنة 1986م، في 31 فصلا من 394 بيتا.

وغيرهم قد مال إلى الإيجاز الشديد مثل الشيخ محمد الأمين بن زبير، الذي جاء مؤلَّفه

---

(1) – المصدر السابق.

(2) – يتألف من 469 بيتا،ويبدو تأثره بألفية ابن مالك جليا، وربما غربله مما رأى فيه من التكرار والحشو، فأغنى الطالب بإيجازه.

(3) – بمبا، الشيخ أحمد الخديم : سعادة الطلاب وراحة لطالب الإعراب، طبعة محلية ، لا.ت، ص 3.

(4) – جده عبد القادر آن من سادات عشيرة آنْهانْب في فوتاطور ، كان أديبا لغويا ونحويا، لكن لم يؤثر عنه غير هذه الأرجوزة.

(5) – صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 196/1.

(6) – هو ابن الحاج عمر كسما، عالم جليل له مؤلفات كثيرة، ألف في لنحو كتبا أخرى وفي الطريقة القادرية.

في قصيدة رائية من 76 بيتا تحت عنوان " يوانع البسر والأعناب في بعض ما يحتاج من حقائق الإعراب "، وربما عني به علماء جنوب السنغال في كُلْدا.[1]

وفي غامبيا فاق الشيخ علي فَيْ ابن حان[2] معاصريه بكثرة نظمه في العلوم، إذ له في النحو ثلاث منظومات: مراقي التبشير في منبع الصعود في 92 بيتا، وقنطرة الطلاب في 254 بيتا، ونظم الآجرومية من 316 بيتا. وله في العروض منظومة في 238 بيتا.[3]

وفي نيجيريا لم تترك جهود الشيخ عبد الله بن فودي في الشعر التعليمي مجالا للعلماء بعده، إذ نظم لهم ما يغنيهم، فاكتفوا بذلك فجمدت أقلامهم عن إدراكه، أضف إلى ذلك وفرة المطبوعات العربية المستوردة من العالم العربي، وكثرة الإنتاج في لغة الهوسا، كل هذه من العوامل التي أسهمت في قلّة الإنتاج في هذا العصر لدى علماء نيجيريا.[4]

غير أن الشيخ علي بن حمزة النافطي[5] قد وضع " قطر الندى " في النحو، الذي كان يدرّسه في معهده بنافَطا في أوائل القرن العشرين، وكان يعد أيضا من المختصرات في 200 بيت.[6] وفي أواخر القرن نفسه يضع محمد المصباح الزيتوني[7] منظومة من 50 بيتا، أسماها " المنظومة الزيتونية في المبادئ النحوية ".

وبعض المعلّمين قد يضعون أبياتا تتناول موضوعا من مباحث النحو: كعلامات الإعراب عند الشيخ عباس صل السنغالي[8]، ومسألة التنوين عن لقمان ألاوي النيجيري[9]، والأسماء المؤنثة عند أحمد حيدر المالي[10].

ويعد الشاب أحمد بولي أفضل من أتى بشيء من الجديد في نظم مباحث النحو. إذ وضع ألفيته " ألفية بولي "[11] أثناء دراسته في الجامعة الإسلامية بالنيجر. وتكمن جدته في أنه هجر الرجز إلى بحر الكامل، ووضّح وأبان ما أجمله وأهمله ابن مالك في ألفيته ، أضف إلى ذلك حسن ترتيبه وتفريع فصوله إلى سبعين درسا. لمعرفة ذلك نقف مثلا عند فصل "نوني التوكيد " ، الذي أخره ابن مالك بعد حديثه عن بعض المنصوبات، وهو أتى به بعد حديثه عن الأفعال، وتناوله ابن مالك في 14 بيتا وهو تناوله في 17 بيتا، وأهمل ابن مالك ذكر اسميهما

---

(1) – ينظر المرجع السابق، ص 312/1.

(2) – ولد في قرية طِنْدِية وتعلم على الحاج مالك سي في تواون بالسنغال، وأكثر إنتاجه في الشعر التعليمي كما سنرى.

(3) – المصدر السابق، ص 353/1.

(4) – ينظر: غلادنثي، شيخو أحمد سعيد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 171.

(5) – هو تلميذ عمر الوالي في زاريا، عين قاضي قضاة غمبي بشمال نيجيريا، عاش في النصف الأول من القرن العشرين.

(6) – أبوبكر، الدكتور علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 300.

(7) – هو أحد خريجي مركز أغيغي للإلوري، أسس مدرسة ن والقلم في باديا إجورا، وله كتيبات كثيرة شعرا ونثرا.

(8) – غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص 16.

(9) – ألاوي، لقمان : أرجوزة مخطوطة من 12 بيتا، لاغوس ، نيجيريا.

(10) – حيدر، الشيخ أحمد : أسماء مؤنثة، قصيدة من سبعة أبيات نظمها في كانو بنيجريا من فقه اللغة للثعالي، وهو من سيقو.

(11) – وقد تشرفت بمراجعته مع أستاذي علي ليمان من النيجر، وكنت آنذاك أستاذاً بالجامعة المذكورة.

" الخفيفة والثقيلة " وهو أوضح ذلك منذ بداية أبياته فقال : [الكامل]

1 وإذا تــرد توكيــد فعــل فلــتكن ** بالنون للتوكيد ملتزمــا يهُــن
2 وإلى الخفيفة والثقيلــة تنقــسم ** قل (هل يقولنْ أو يقولنّ الأهم)
3 وكما أجازوا تين في أمــر بــلا ** شرط وقيد كــ (افهمنْ متــأمّلا
4 منعوا وقوعهما بمــاض فابحــث ** وهناك تفــصيل لــذاك الثالــث
5 وهو المضارع، ولتؤكّــده علــى ** وجه الوجوب إذا يكن مستقبلا
6 في مثبت بل في جــواب للقــسم ** لام الجواب موصل لم ينفــصم
7 فمثال ما استوفي كقــولك موقنا ** (فوربنا لأصرحــنّ بحقّنا)[1]

وقد جمع في هذه الألفية بين النحو والصرف اقتداء بسلفه في ذلــك، ولكــن بعــض المتأخرين تأثروا بلامية ابن مالك المختصة بفن الصرف، فراحوا ينــسجون علــى منوالــه منظومات صرفية : كنزهة الطريق وبغية الموضوع في التصريف الميداني، للشيخ أبي بكــر الصديق أبرغدوما[2]، في 150 بيتاً من مقدمة وثلاثة أبواب وخمسة فصول.[3]

وفي تنبكت بأقصى جنوب مالي نجد للشيخ محمد حمّاد بــن إملّــت[4] أرجــوزة فــي تصريف الأفعال الرباعية والثلاثية المزيد فيها. وقد جمع بين ضرب الأمثلة وشرح معانيهــا اللغوية، كمطلع باب فَعْلَلَ المعدي : [الرجز]

1 قرطبــه صــرعه قرضــبه ** قطعــه خــرفج عيــشُه لــه
2 وسّعــه فرطحــه وفلطحــه ** عرضــه دحرجــه لكردحــه[5]

واهتم الشيخ علي فيْ الغامبي بمعارضة لامية ابن مالك، لتــسهيل صــعابه وتقــويم أسلوب التقديم والتأخير فيه، وتوضيح مجملاته، هذا ما باح به في مقدمته، ثم أســماه " بحــر المحيط "، وجاءت أبياته في 316 بيتاً، ولا مراء في تهذيب أسلوبه في مثل قوله : [البسيط]

1 وللثلاثـــــي أوزان منوّعـــــة ** فتحاً وضمّاً وكسراً جاء من فعــلا
2 والكلّ من أوجه الأفعال قد بُنيــت ** وللصحيح بهــا مــا وزنــه عــدلا
3 وإن ترى حرف حلق غير أوّلــه ** عين المضارع فافتح تحتوي جــذلا
4 وإن خلا منه فالوجهان فيه سوى ** ضم وكسر كوزن صيغ مــن قــتلا
5 وربّما نبــذوا القانــون واتّبعــوا ** مسموعهم مثل بَيْعِ المرأ إذ دخلا[6]

---

[1] – بولي، أحمد عبد الله : ألفية بولي، مخطوطة بمكتبة المؤلف، بماكو، مالي، ص 10.
[2] – ولد في إلورن سنة 1915م، ولكن جاء من فوتاطور، تعلم على كثير من العلماء كمحمد البوصيري، وله منظومات شعرية.
[3] – ألابدون، عبد الحميد عبد الرحمن : الإنتاجات الأدبية في الفترة ما بين 1960–1988م فيما يعرف بولاية كوارا، رسالة الماجستير، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا، 1991م، ص 45.
[4] – أحد علماء تنبكت، جده الشيخ قطب ينتمي إلى قبيلة الأنصار.
[5] – الأنصاري، محمد حماد: أرجوزة في التصريف، بمكتبة مركز أحمد بابا بتنبكت، تحت رقم التصنيف 1144، ص 3.
[6] – فيْ، الشيخ علي : بحر المحيط، مطبعة المنار، تونس، لا.ط، لا.ت، ص 4.

بجانب العلوم اللغوية اهتم بعض العلماء بغريب اللغة، في نظم كلمات حوشية مع شرح معانيها، كي يتزوّد منها الطلبة بإثراء جعبتهم اللغوية، فيعينهم ذلك على إتقان اللغة العربية. وأهمية مثل هذه الأعمال كبيرة لدى كبار المعلّمين، كالحاج مالك سي في السنغال، الذي صدر منه "ري الظمآن " في الجمع بين الألفاظ المشتركة، وفي الوقت نفسه يثني على نبينا الكريم فضائل المدح. ومطلعه : [الوافر]

ألا يا دعد ويحك نبّئيني ** بذكر البان تهتان العيون

أفي بَيْنِ حبالك أم ببَيْنِ ** لعشاق برامة خبّريني(1)

وهذه النونية من قصائده المشهورة في القطر السنغالي، يغرّد بها الناس في المناسبات الدينية. وقد أتى في البيت الثاني بتكرار "بين "من أسماء الأضداد بمعنى القطع في الأول والوصل في الثاني. ولمواطنه الحاج أحمد دمْ بائية، ضمّنها غريب الألفاظ مع شرحها في الهامش.(2)

ولم يغب هذا النهج عن علماء نيجيريا، ففي ما خلّفه الشيخ سنوسي(3) أرجوزة في إيراد معاني " الوليمة " في اللغة.(4) وهذا يذكّرنا بتقفية محمد الأمير بن زبير لاميته في بيان معاني الخال الكثيرة، بلغت أبياته خمسة وعشرين بيتا.(5) وقد اشتهر عند النيجيريين ما يعرف بـ " نظم الأوابد " في إيراد غرائب اللغة، إما لإبراز العالم تضلّعه في اللغة أو لإفحام خصم له كطويلة الشيخ محمد جمعة اللبيب(6) في إبادن بنيجيريا : [الرجز]

2 وإن دنوتَ المذهب ** فقل لمن بالدرب

3 عثلجتني بشجرتي ** والعود عن عرجن بي

4 والفاق عن فلطح قل ** تمخر فلك الأدب

5 هل من فتى تدعوه ** يحل لي من شغرب

6 إن شئت سل حطحطه ** رجرج قول الأربي

7 كبكب كب إليه ** مقعد حال الوصبي(7)

وربّما يعدّ الحاج المختار الكبير الغيني ممّن بلغ شأواً رفيعا في عنايته الدقيقة بأسماء الأدوات من الأواني والحِرَف والأغذية ، وبأسماء الحيوانات والطيور وأصواتها، وبأسماء الأشجار، لسدّ الثغرات التي كان تقصر عنها باع العلماء القدماء، إذ يخطئون كثيرا في تفسير بعض تلك الأسماء من الكتب الفقهية واللغوية بأشياء أخرى في إفريقيا لا يناسبها.ويكفينا الآن

(1) – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 73.

(2) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 370/1.

(3) – هو الشيخ سنوسي برهان الدين ألكا (ت 1992م) أحد أواخر علماء إبادن، وصاحب معهد كبير. له شيء من الشعر التعليمي.

(4) – فازازي، أحمد:المختارات من الأغراض الشعرية العربية لعلماء إبادن، الماجستير، بكلية الآداب، إلورن، نيجيريا،ص203.

(5) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 310–311.

(6) – أحد علماء مدينة إبادن في بلاد اليوربا بنيجيريا، له كثير من الآثار الأدبية نثرا وشعرا.

(7) – الإلوري، آدم عبد الله : مصباح الدراسات الأدبية، مطبعة الثقافة الإسلامية، لاغوس، الطبعة الثانية، لا.ت، ص109–110.

أن نورد بعض النماذج من بنات قريحته النادرة : يقول عن كنى الحيوانات: [الرجز]

*1 أما كنى الحيوان يا ذا البال ** فأمّ عرّيط أبــو المختـــال*

*2 أبـــو ثمامـــة أبـــو زيـــاد ** أبو فراس وأبـــو حمّـــاد*

*3 أبو هبـــــيرة أبـــو وثّـــاب ** وكنّ بالهيثم عن عقاب* [1]

وعن أطفالهنّ يسوق الكلمات الآتية :   [الرجز]

*1 أولادهـــا جــديٌ خنـــوص شــبل ** حمل وخشف قـــشة وعجــل*

*2 وعفـــو جحـــش فرعـــل وحسل ** جرو وهرماس حوار رأل* [2]

اكتفى المؤلف بسرد الكلمات مجرّدة من أي أسلوب يربط بينهنّ، ومن غير أن نفهـم معاني الكلمات في السياق، وهذا مما يعاب على مثل هذا النهج، وقد استدرك الثغرة في تناول أصوات أشياء متباينة فقال :   [الرجز]

*1 أصـــواتها جرجـــرة البعيـــر ** طنطنـــة الأوتـــار والخنزيـــر*

*2 قباعهـــا نقنقـــة الدجاجـــة ** صرصرة الصقر خوار العانـــه*

*3 خشخشة الثوب نهيق الحمـــر ** حمحمة الفرس نشيش القـــدر*

*4 صلصلـــة الحديـــد والزئـــير ** للأســـد ثم المـــاء للخريـــر* [3]

2)- في الأدبيات :

عني العلماء بالشعر وما يخدمه من علوم كالعروض والقافية والبلاغة. وقلما اهتمّـوا بنظم بعض الكتب الأدبية القديمة ــ كما سنرى في الشرعيات ــ غير أن محمد الزيتوني شذّ عن ذلك في نظم كتاب شيخه آدم عبد الله الإلوري " لباب الأدب" وأسماه " مصباح الذهب في نظم لباب الأدب "، وهو كتاب في تاريخ الأدب العربي لا في الأدب العربي الإفريقي. [4]

فما أكثر الذين نظموا في علم العروض أبياتاً بل قصائد، وقبل الوقوف عليها، يلفتنـا محمد الأمين بن زبير السنغالي إلى الشروط التي يجب أن تتوفر في المتعلم الحريص علـى قرض الشعر فيقول في بائيته الموجهة للحاج بلّ فودي :   [الطويل]

*7 يقولون إن الشعر صـــعب منالـــه ** وأن ليس يسدي نسجها غير غالـــب*

*8 وإن يأتيهـــا ســـوى كـــل مقـــتن ** بعلم العـــروض والقـــوافي النجائـــب*

*9 ومتقن علـــم النحـــو ثـــم بيانـــه ** ومتقن تـــصريف اللغـــات الغرائـــب*

*10 ويأتـــي معانـــي هـــذه وبديعـــها ** جميعا مقيسا عن أصـــول المـــذاهب*

---

(1) – جابي،محمد الأمين:الشاعر والأديب الغيني،أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي،بالجامعة الإسلامية بالنيجر،عام2002م،ص51.
ما عثرت على معاني هذه الكلمات في المعاجم كلسان العرب والقاموس المحيط غير " أم عريط " أي العقرب.

(2) – المصدر نفسه. وأمهاتها على الترتيب : للماعز، والخنزير، والأسد، والنعجة، والظبي، والقردة، والبقرة، والعفو والجحش للحمار، والهرماس للنمر، الحوار ولد الناقة، والرأل للنعام.

(3) – المصدر السابق، ص 52.

(4) – الكتاب من 16 صفحة بحجم صغير (12 x 17) ومن فصوله: الأدب لغة واصطلاحا، أنواع الأدب، أغراض الشعر.

11 فقلت بلــى لكنّــني قــلتُ معلــنا ** بأني لهــذا الكــل لســت بكاتب [1]

يبدو من هذه الشروط أن الشعر مجرد وضع كلمات في الوزن ملتزما بقوانين النحو، لتهميشه الخيال والعاطفة ؛ وإن كان قد أشار إلى أن هذه الشروط لا تكفي لكتابة الشعر.

في القطر السنغالي يعكف الطلبة على " مبين الأشكال في العروض " للقاضي مَجَخَتِ كَلَ، إذ كان من المنظومات التعليمية التي أثرت في المراكز العلمية، قبل أن يشتهر بجانبه ما ألفه معاصره الحاج مالك من قصيدتين داليتين: إحداهما فصل فيها القول في بحور الشعر بعد أن نمّق الحديث عن أحكام الزحاف والعلة، وفي الثانية ابتكر أسلوباً في الجمع بين العــروض والتصوف، رغم ما بين العلمين من بون شاسع، ولا غرو في ذلك لأنه عالم جليــل وشــيخ تجاني مربي، فامتزج عقله مع روحه فأنتج ما أبهر العلماء. اقرأ معي هذه الأبيات: [الطويل]

7 صلاة بهــا إبــرام أســباب حُبّــه ** وإثبات أوتــادي إذا الكــرب هيــدا

8 صلاة بهــا فــكّ الفعــال وقطعــه ** وتصريع بيت عن رضى الله أقعــدا

9 صلاة بها نظمي وشملي دوائر الــ ** ــبحور القوافي سنة البدر أحمدا [2]

وقد زاوج المؤلف في استعمال هذه الكلمات الآتية : أسباب، وأوتادي، وتصريع بيت، ودوائر البحور القوافي، بين معاني التصوف والعروض. لذا اضطر إلى شرح الأبيــات فــي الحواشي. وربّما أثّر في تلميذه الغامبي علي فَيْ ، الغني قلمُه في النظم، الذي وضع ما أسماه " توضيح الطلاب في معرفة أوزان العروض " في 266 بيتا. [3]

إذا كان هذان قد كرّسا جهودهما في التفصيل والتوضيح، فقد أتى بعدهما مــن عنــوا بوضع قصائد في أوزان البحور، وهي محاولات ترمي إلى معرفة الأوزان الشعرية من غير ذكر أنواع عروضها وضربها. لقد شطّر الشيخ يعقوب دوكوري لكل بحر شطرا كقوله :

رَمَــلا غنّتــه تــلك المنشــدا ** فاعلاتن فاعلاتن فاعلات [4]

ولامية محمد المنذوي النيجيري تلخيص لعلم العروض في ذكر مصطلحاته التي تحتاج إلــى شرح وتفصيل.[5] غير أن لمواطنه جميل عبد الله قصيدتان، إحداهما لا تختلف عن نمط هــذا البيت السابق سوى أن لكل بحر بيتين. وفي قصيدته الثانية تأثر بالشهاب في ذكر الأوزان مع الآيات التي تناسبها بعد أن استبدل ما أورده هذا العالم في ميزان الذهب[6]، كقوله :

1 طويل احتمال أحمد الخير واذكــروا ** حديبية والصلح مــرّ وقــد نُفــذْ

2 فعولن مفاعيلن فعولــن مفاعلــن ** "لقد رضي الله عن المؤمنــين إذْ"

---

(1) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 315/1.

(2) – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 84.

(3) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 353.

(4) – دوكوري، الشيخ يعقوب : البستان، ص 85.

(5) – المنذوي، الشيخ محمد السنوسي: قصيدة مخطوطة في 34 بيتا من الوافر، كانو، نيجيريا.

(6) – راجع : الهاشمي، السيد أحمد : ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، مؤسسة الكتب الثقافة، ط 2، 1995م، ص 92–94.

*قضبــوا قـــــوم أنعمــا ** إذ أحبّــوه مهتـــدين*
*فاعــلات مســتفــعلــن ** "ثلّـــة مـــن الأوّلـــين"* [1]

إتيان الآيات موافقة للأوزان الشعرية ليست بدعة من الشاعر، بل سبقه الكتاب العرب كعباس محمود العقاد[2] في مؤلفه " اللغة الشاعرة "، حيث أورد آيات كثيرة وافقــت بعــض الأوزان الشعرية، مثل تين الآيتن: ﴿ **وجفان كالجواب ** وقدور راسيات** ﴾ [للرمل المجزوء]
﴿**ويخزهم وينصركم عليهم ** ويشف صدور قوم مؤمنينا**﴾ [للوافر] [3]

وتعد البلاغة أقل العلوم الأدبية عناية، إذ كانوا يرونها علماً معقّداً والطريق إليه وعر ذو أشواك، بل إن دراستها لم تكن في متناول الجميع. ربما هذا ما شجّع محمد كاولو[4] ، ثاني شعرائنا في توغو، إلى بذل محاولات في نظم بعض مباحثها، وقبل إيراد نماذج منـــه أودّ أن أشير إلى سرنج امبكي عبد الرحمن السنغالي[5] ، الذي اكتفى بتنويه " تبصرة الأذهان في نكت علم البيان "[6] بعد تعلّمه، بل أشاد بهذا العلم في مقطّعة شعرية : [البسيط]

1 *إن البلاغة يا إخــوان فـــي الـــدين ** روض ملـــيء بـــأنواع الريـــاحين*
2 *فنونهــا تجتلـــي الأنـــوار ســـاطعة ** وتنبـــئ الـــذهن أســـرار المكـــانين*
3 *تبـــدي معجـــز الآيــــات موجـــزة ** طوراً، ومطنبة بعـــض الأحايين* [7]

وأما الأستاذ محمد كاولو فقد تناول جميع مباحث البلاغة الثلاثة، وتعدّ محاولته يتيمة في المنطقة في هذا الشعر التعليمي، وممّا قاله في باب التشبيه في علم البيان : [الطويل]

1 *فحــــذف الأداة والوجـــوه بليغـــة ** وذكـــر الأداة مرســـل فـــي بيانهـــا*
2 *وحذف ا لأداة فـــي مؤكّـــدنا فيمـــا ** يكـــون المـــشبه عيـــون لمـــا بهـــا*
3 *فذكر وجوه الشبه فيـــها المفصـــل ** وحذف الوجوه مجمل في بيـــانها* [8]

وفي علم المعاني أشار إلى مباحث الإنشاء والقصر والوصل والفصل والإيجاز والإطناب. وفي مباحث البديع أورد أبياتا في بعض فنونه كقوله في الجناس والاقتباس والتورية :

1 *تـــشابه لفظـــان بلفـــظ ولا معنـــى ** جنـــاس أتانـــا بنجـــوم جمالهـــا*
2 *ففي التام شكل حـــرف ترتيـــب اعـــداد ** وغير تمام فـــي اخـــتلاف بواحـــدها*
3 *وفي إقتباس جاء ما ليس مـــن قـــولي ** بقـــرآن أو شـــعر كـــذلك نثرهـــا*
4 *وفي معنيين القرب والبعـــد تأتـــينا ** بتوريـــة فيـــها خفـــيّ مـــرادها* [8]

---

(1) – عبد الله ، جميل : إبداعات عروضية، مخطوطة عند الشاعر ، كانو، نيجيريا.
(2) – أحد أعلام الأدب العربي ونقده خلال القرن العشرين، أسس مدرسة الديوان مع المازني وشكري. له آثار في النثر والشعر.
(3) – العقاد، عباس محمود : اللغة الشاعرة ، نهضة مصر، القاهرة، لا.ط، 1995م، ص 30-31.
(4) – هو مالم محمد كاولو من علماء قرية تشامبا بجنوب توغو، ولم أعثر على غيره من الذين يحاولون في الشعر والنظم.
(5) – ولد عام 1964م في طوبى،حيث درس،ثم تخرج في معهد المعلمين،وعين مدرسا في الثانويات الفرنسية.وله ديوان مخطوط.
(6) – ألفه العلامة المختار بن بونة الجكني (ت 1220هـ/1805م) ، أحد علماء موريتانيا،
(7) – عبد الرحمن، سرنج امبكي : فضل البلاغة، مقطعة مخطوطة عند الشاعر، طوبى، السنغال، ص 29.
(8) – كاولو، مالم محمد : علوم البلاغة، منظومة مخطوطة بمكتبة الشاعر، قرية تشامْبا، توغو.

3)- في الشرعيات :

لم يشتهر في المنطقة كتاب شرعي مثل ما اشتهر كتاب الأخضري في الفقه المالكي، الذي يدرس في جميع المجالس العلمية، وهذا ما حرّك مشاعر عالمين إلى نظمه لإفادة طلابهما، أحدهما الشيخ أحمد بمبا (ت 1927م) في السنغال فأسماه " الجوهر النفيس في عقد نثر الأخضري الرئيس "، والثاني الشيخ موسى محمد سُنْغ[1] من نيجيريا تحت عنوان " اقتباس النور القمري في نظم مختصر الأخضري ".

ويبدو أن أسلوب الأول أقرب إلى الإيجاز المركّز والسلاسة من أسلوب الثاني، الذي ينقصه إحكام الصياغة وحسن تخيّر الألفاظ، وإن شككتَ في ذلك فقارن بينهما في ما أتى به كلاهما في باب الطهارة مثلا، إذ يوجز الأول فصل الطهارة في ستة أبيات : [الرجز]

1 *إن الطهــارة طهــارة الحــدثْ ** بلا خــلاف وطهــارة الخبــثْ*
2 *والكــلّ منهمــا بمــاء طــاهر ** مطهِّر يــصلح عنــد المــاهر*
3 *وهو الــذي لــم يتغيــر صــونُه ** أي طعمه أو ريحــه أو لونــه*
4 *بمــا يفــارق بغُــرف كدســمْ ** وودك ٍ ومــا كــزرنِيخ نعــمْ*
5 *والوسخ والزيــت وكالــصابونِ ** والسمن قلْ ونحوهــا لا طــينِ*
6 *أو خــزٍّ أو سبخــةٍ أو تــرابٍ ** أو طُحْلَب المــاء بلا ارتياب*[2]

ويسهب الثاني القول في الفصل نفسه إلى أحد عشر بيتا، وشتّان ما بينهما : [الرجز]

1 *طهــارة أقــسمْها إلــى قــسمين ** حدثيــة مــا لا تُــرى بــالعين*
2 *خبثيــة هــي التــي لهــا يُــرى ** عينٌ وأثر ما عدا مثل الكــرى*
3 *ولم يــصحّ كــل نــوع منهمــا ** زوالـــه إلا بمـــاء حُكمـــا*
4 *عليـــه بـــالطهور قـــد تطهّـــرا ** وكان من آبار أو بحــر جــرى*
5 *وهــو الــذي لــم يتغيّــر لونُــه ** أو طعمُــه ولا يفــوح شــمُّه*
6 *أو التغيـــر الـــذي أصـــابه ** لـــيس مـــؤثّرا بمـــا ينقلـــه*
7 *عمّـــا عليـــه غالبـــا فحكمـــه ** حكم الطهور عند مــن يعرفــه*
8 *إلا إذا كالزيـــت قـــد تغيّـــرا ** والسمن والدسم فكن من حذّرا*
9 *كـــذلك الـــصابون والأوســـاخ ** وكلّ ما في نوعها افهم يا أخي*
10 *لا بـــأس بالحمّـــاة والتـــراب ** والـــسبخات مـــشرب الـــدواب*
11 *ءاجـــرّنا ونحـــوه طهـــور ** ولا يضـــرّ إن عـــلا ظهـــور*[3]

---

[1] – كان قاضي المحكمة الاستئنافية الشرعية العليا بأبوجا، العاصمة الفيدرالية الجديدة لنيجيريا. لم أعثر منه على غير هذا النظم.

[2] – بمبا، الشيخ أحمد : الجوهر النفيس ، مكتبة أحمد بنب، طوبى ، السنغال، لا.ط، لا.ت، ص 14-15.

[3] – سنغ، موسى محمد : اقتباس النور القمري في نظم مختصر الأخضري، طبعة محلية ، لا.ت، ص 13 – 14.

وقد التزم كلاهما في نظمهما بفصول كتاب الأخضري لأداء الأمانة العلمية. وبعد نظم الأخضري وضع الشيخ أحمد بمبا مؤلفه الجامع بين التوحيد والفقه والتصوف، ويغني عنوانه " تزوّد الصغار إلى جنان الله ذي الأنهار" عن معرفة من يوجّه إليه هذا النظم.

وعلى منوال مثل هذه المنظومات وضع شاعران آخران من غامبيا نظما من قريحتهم يروي غليل الطلاب، أحدهما الشيخ علي فَيْ ، الذي طالما أشرنا إلى منظوماته الكثيرة في هذا المبحث، فله أبيات في بعض المسائل الفقهية : كمسائل النكاح (80 بيتا)، وهداية الأزواج إلى حقوق الأزواج (50 بيتا)، وسيف الأنوف في البيوع والأسعار (99 بيتا)، وجواب لسؤال عن مدة الحمل (41 بيتا)، وخلاصة البرهان في ذم الدخان (113 بيتا)، وتبشرة المريد في أحكام المسجد (66 بيتا)، وله أعمال أخرى في الدينيات.[1]

غير أن مواطنه بامين محمد سري جايْتي تناول في مؤلّفه " معوان الطلاب في معرفة قواعد دين الله الوهاب " أحكام الشعائر التعبّدية، منتهجا أسلوب السؤال والجواب، لذا يقول في الفصل الرابع والعشرين عن الزكاة : [الرجز]

1 ***كم قد تجب فيه الزكاة من ذهب ** أو فضّة أو غيرها فرتّب***

2 ***تجب الزكاة في نصاب الذهب ** عشرون مثقالا صفا من ريب***

3 ***في الفضّة فمائتان درهما ** فزكّ بعد حولها لتسلما***

4 ***يخرج اثنان ونصف قطعاً ** من كلّ مائة فهاك الشرعا***[2]

وعن العمرة في الفصل الثالث والثلاثين يقول : [الرجز]

1 ***بين لنا العمرة في الإسلام ** وهل تجوز في جميع العام***

2 ***عمرتنا في الإصطلاح حجّنا الـ ** ـأصغر فاستمع كلامي المجمل***

3 ***هي عندنا لسنة مؤكّدة ** وقد تجوز في جميع السنة***

4 ***إلا بأيام من الحج ومن ** قد كان مشغولا بحجّ فافهمنْ***[3]

كان منهج التعليم التقليدي يذكي حركة النظم في الشعر التعليمي بالقطر السنغامبي. ولم يختلف الأمر عنه لدى علماء نيجيريا، وخاصة عند كبار المعلّمين ذوي جماعة من طلبة العلم ، أمثال أحمد تجاني عثمان[4] الذي كان يدرّس تلامذته مؤلّفه " مشرب الينبوع في نظم كثيرة الوقوع "، وقد ضمن قصائده كيفية الصلاة، ما يدل على اهتمامه البالغ بغايته التعليمية[5] وكأنه كان متأثرا بأحد قدمائه الشيخ عبد الله الثقة[6]، الذي أثر في الدراسات الدينية بمنظومته

---

(1) – ينظر: صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 1/353–354.

(2) – جايتي، بامين محمد سري : معوان الطلاب، مخطوط بمكتبة المؤلف، بركاما، غامبيا. ص 25–26.

(3) – المصدر نفسه، ص 33.

(4) – عاش في كنو(1916–1997م) وتعلم على علمائها كأبوبكر مجنيوا،ومحمد سلغ،كان زعيم التجانية في عصره، وله 14 كتابا.

(5) –كبر،حافظ شروما:الشعر الإسلامي لدى علماء كنو،الماجستير،قسم العربية،كلية الآداب،جامعة بايرو،نيجيريا،1995م،ص 107

(6) – يبدو أنه من علماء القرن 19م، ولقب بالثقة لثقة الناس بحفظه للكتب الستة في الحديث.ولمنظومته 40 قصيدة في 1457بيتا.

" عطية المعطي". وقد فقد الشعر التعليمي الفقهي أهميته على يد المتأخرين في نيجيريا، خاصة لدى الشباب الشعراء، وشذّ عن هذا الحكم داود عبد الباقي من مدينة إيوو بجنوب غربي نيجيريا، الذي تميّز ديوانه بنظم مسائل فقهية وأصولية، وهل قصد تقييدها لتيسير حفظها عليه، لأنه طالب في الدراسات العليا أو أنه دعوة إلى بعث الشعر التعليمي من جديد في أواخر القرن العشرين. قف معي متأملا في هذه المسألة الأصولية التي تتلخص في اختيار المكلف بين المطلق والمقيد، أو المطلق مع المقيدين : [الرجز]

1 *إن ورد الخطاب مطلقا بلا ** مقيد يترك قطعا مرسلا*
2 *وإن يرد في غيره مقيد ** يحمل عليه، ذاك ما يؤيّد*
3 *وإن يرد إطلاقه في موضع ** وثم قيدان تضادا فاتبع*
4 *ما قيل في ذلك من مسالك ** أرجحها القياس عند مالك*
5 *ممّن يرى الإبقاء من نفى القيا ** س حجة ومن يرى التنافيا*
6 *وما الذي يختاره المكلّف ؟ ** يختار خير ما عليه السلف*(1)

إن التواصل الثقافي بين أرجاء المنطقة السودانية، يتيح فرصة التقاء العلماء حول مسائل متماثلة، كمؤلفي " أرجوزة الولدان " و " روضة الصبيان "، الأول للعالم الغاني يحيى محمد الأمين، والثاني للشيخ سليمان أبي بكر النيجري، وكلاهما تناولا مسائل الإسلام والإيمان والإحسان، كأنهما يشرحان حديث جبريل عليه السلام المشهور، ولم يتعرضا للمسائل الفقهية إلا على سبيل الوعظ والتوعية، ولوقوفهما على المسائل العقدية سنرجئ تناول النماذج منهما لاحقا.

اهتم قلة من العلماء بباب آخر من الشرعيات هو علم الفرائض، هذا العلم المهجور لدى الكثيرين إما لصعوبته وإما لعدم شيوع تطبيقه في حياة المسلمين بهذا القطر الإفريقي. وقد كرّس له الحاج مالك سي السنغالي جهده الجهيد في تدريس مريديه بمنظومته المعروفة بـ " الكوكب المنير ليل الفرائض للمستنيرين" في 146 بيتا موزعا بين مقدمة وأربعة فصول. وفي مالي أوجز شيخ مجلس فانا محمد إسماعيل الذكي(2) لطلابه مسائل الفرائض في 47 بيتا مقسما بين مقدمة وخمسة فصول، ومن منهجه المبتكر ما يقول في أهل الفروض : [الرجز]

1 *"هَبَادَ بَزْ " أهل الفروض كلّهم ** الهاء أهل النصف أنثى جلّهم*
2 *"هَبَادَ بَزْ " أهل الفروض الهاء ** نصف وجل أهله نساء*
3 *البنت بنت الإبن أخت لا لأمْ ** منفردات ثم زوجاً بعد أُمْ*
4 *والباء أهل الربع زوج إن نقلْ ** بولد ونجله هبه سفلْ*
5 *كزوجة أو جمعها بحث لا ** فرع بدا للميت أعني مسجلا*

---

(1) – عبد الباقي، داود : ديوان أبي نجاة، مخطوط عند الشاعر، إيوو، نيجيريا، ص 5.

(2) – عالم جليل وشاعر مفلق،كان نيّر الذهن والذكاء حتى لقب بـ "أكليدوما" بمعنى العبقري.تجاني ومؤسس مجلس كبير في فانا.

6 والألف الثمن لها هذا ولو ** تعدّدت في نقلها كما حكوا
7 والدال في الرمز هي الثلثان ** لكلّ ذات النصف خُذْ بياني
8 في كثرة والباء بعد الدال ** رمزٌ لأهل الثلث في المثال
9 للأم حيث لم تكن منقولة ** وإخوة من صوبها محصولةْ
10 والزاي أهل السدس للحفيدةْ ** معْ بنت صلب قد بدتْ وحيدةْ
11 كذا لأخت مع شقيقة لأبْ ** والوالدين حيثما النقل وجبْ
12 ثم أخ للأم جدّة بذا ** معْ ولد أو نجله جدّ خذا [1]

وقبله قال الحاج مالك سي في كوكبه ما يدل على سلاسة أسلوبه في ما نقتطفه من فصل ذكر الحجب والإسقاط : [الرجز]

1 الحجب قسمان فللحرمان ** كذاك حجب النقل والنقصان
2 فحجب إسقاط فلا يلحق من ** بنفسه للميت يعزى حيث عن
3 وذاك كالآباء أمهات ** زوجين والبنين والبنات
4 بالابن فرع الابن في التحجب ** أما انحجاب الجد يعزي للأب
5 إذ كل من أدلى بشخص يحجب ** لدى حضور من إليه ينسب
6 واستثن إخوة لأم وهم ** تحضر أمّهم وما قد حرموا [2]

وثالثهما ممّن عنوا بهذا العلم وتبحّروا فيه : العالم الغاني محمد الأمين يعقوب الفرضي، الذي ألّف حديثاً شرحا وافيا لآيات المواريث.[3] وأما عنايته بالفرائض ففي نظم بعض مسائله العويصة، أو حل بعض المسائل اللغزية التي لها علاقة بأحكام الفرائض، كالمسألة الغراسية التي يطرح أحيانا لحل مسألة متعلقة بمسألة الغراء التي تركت فيها امرأة زوجها وأمها وأختها لأبوين أو لأب، وجدّها : [الطويل]

1 أتيتك بالغراسية اعلم بأنها ** شبيهة غرّاء وهاك مثالها
2 مضيفان جاءا بالغراسة عددها ** ثمانية أكلا مع الضيف كلها
3 لواحدهم خَمس ثلاث لآخر ** وعند ارتحال جاء بالمال مثلها
4 فصاحب خَمس قال: لي صاح خمسة ** من المال هذا الحكم عدل فخذ بها
5 فلم يرض صاحبه وهذا التشاجر ** إلى حَكَم أفضى فسلْ عن مصيرها
6 رءوس الألى أكلوا الطعام ثلاثة ** ضربناه في المأكول (جحدك)[4] رمزها
7 ثلاثته مضروبة في ثلاثة ** فتسعة أجزاء له بعد ضربها
8 فمأكوله منها أخيّ ثمانية ** فلم يبق إلا جزء ما قد أتى بها

---

[1] – كوليبالي، محمد إسماعيل: عقد الفرضي، مخطوط بمكتبة المؤلف، فانا، مالي.

[2] – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 66.

[3] – لقب بالفرضي لتمكّنه في هذا العلم، وعنوان مؤلفه هو : فتح المنان في تفسير آيات المواريث في القرآن.

[4] – جحدك رمز إلى حساب الجمل : أي جـ 3 x حـ 8 = دك 24.

9 ***فجــزء الــذي أبقـى لـضيف أتاهمــا ** إذن ما لــه فــي المـال إلا بقــسطها***
10 ***وخمسة هــذا صــرن خمــسة عــشرةً ** فمأكولــه أيــضا ثمانيــة منهـــا***
11 ***ومأكول هــذا الــضيف منهــا فــسبعة ** له سبعة في المال لا تعـدون عنهـا***
12 ***وذاك الــذي لــم يــرض إلا بأربعــة ** أتــانــا بدينــار كفـاك نظامــها***[1]

لولا الإطالة لفصلنا القول في عناية العلماء بالشعر التعليمي المتعلق بالقرآن وتفسير آياته، أو نظمها في أبيات شعرية، كما تولى ذلك عبد العزيز الزكوي النيجيري، فنظم السور القصار من الناس إلى الأعلى، فقال مثلا في نظم سورة النصر: [الطويل]

1 ***إذا جاء نصر الله والفتح يــا فتــى ** بما قد رأيت النــاس آتيـك قنّتــا***
2 ***فــسبّح بحمــد الله ربــك شـــاكرا ** لنعمتــه واسـتغفر الله يــا فتـــى***
3 ***لأنك لم تعلم متــى العمــر ينقــضي ** ولا ما عليـك الله يقـضي تثبّتــا***
4 ***إلى ربك التواب تب ثــم ثــق بــه ** سواه ســراب لا يــدوم إذا أتـــى***
5 ***تباهي بفــوج بعــد فــوج إذا هــم ** أتوك بهم تغترّ هــذا إلى متى؟***[2]

إذا عرفنا أن الشاعر أحد طلبة الشيخ آدم عبد الله الإلوري، ومدير مركز علمي في لاغوس حيث زرتُه شخصيا، فينبغي أن نحسن به الظن أن محاولته هذه ليست سوى شرح معاني القرآن، ولا قصد له غير ما يجنيه الطلبة من الحفظ السريع لمعاني كتاب الله، وهذا ينفي ما قد يتهمه متّهم بتحويل القرآن الكريم إلى الشعر، وحاشا أن يكون شعرا، ولكن يرجى أن يكتفي بالسور القصار فلا يذهب به الطموح إلى تعميم جميع سور القرآن على هذا النمط.

ولم يكن ذلك بدعة منه،فقد اقتدى بأمير زاريا كوسَوْ محمد[3] الذي وضع أرجوزتين : إحداهما في تفسير بعض آي الذكر الحكيم بعنوان " نزهة الأسير"، والأخرى في قصة أهل الكهف.[4] وفي محاضر موريتانيا عرف كتابان بعنوان " منظومة في القرآن " أحدهما لمحمد عبد الله بن عوينات الجكني، والآخر للشيخ محمود المحجوب بن الطالب الفاضل المسومي.[5]

غير أن الشيخ سعيد الشعراء السنغالي قد أتى بما هو أشمل للتعريف بالقرآن الكريم : بأجزائه وأحزابه، وأرباعه وأثمانه، وبسوره وسجوده، وبعدد آياته ومتشابهاته، وبمميزات مكياته ومدنياته، وبوقفاته وأوراده الأسبوعية. ومن هذا المنهل كان يجني الطلبة دروسا علمية، لذا كان حريا به أن يطلق عليه عنوان " مورد الظمآن لمبتغي تلاوة القرآن "، فَاتْلُ معي هذه الأبيات لتعرف مدى إروائه غليل القارئ في سجدات القرآن الكريم: [الرجز]

1 ***يا سائــلا عــن عــدد السجــود ** أيّ بأمـــر سيّــد الوجــود***

---

[1] – بمبا، محمد الأمين يعقوب الفرضي: المسألة الغراسية ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، إجورا ، غانا.

[2] – الزكوي، عبد الرحمن عبد العزير: مع القرآن، مركز ضياء العلوم العربية والثقافة الإسلامية،لاغوس، ط1، 2002م، ص 3.

[3] – كان أمير زاريا إلى سنة 1902م عام عزله ونفيه إلى لوكوجا، وقد يكون نظم هذه الأشعار في منفاه.

[4] – أبوبكر، الدكتور علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 299–300.

[5] – ينظر: النحوي، الخليل : بلاد شنقيط المنارة والرباط، ألكسو، تونس ، 1987م، لا.ط، ص 590 و595.

2 في سورة الأعراف لفظ يسجدون ** رعدٍ بالأصال ونحل يـومرون
3 خشوعا الإسـراء، بُكيّـا مـريم ** حجّ يشا نفـور فرقـان سـما
4 نمل العظيم سـجدة يـستكبرون ** أناب صاد فصلت قل تعبـدون
5 بوجـه الفانـي قـل سجـدتُ ** لوجهك الباقي وقد قصـدت[1]

وغير هؤلاء من عني بشيء آخر يتعلق بالقرآن هو علم التجويد، كالشيخ محمد المنذوي، أحد القراء المهرة، الذي له لامية في أصول القراءات المتفق عليها من 13 بيتا،جاء فيها:[الرجز]

3 أولها الإظهار والإدغـام والـ ** إخفاء والإقلاب والـصله كـلا
4 والمدّ والتوسّـط والقـصر يلـ ** لي الإشباع والتحقيق والتسهلا
5 والبدل والإبـدال أسقـط وانقل ** تخفيفـه والفتـح والممـيّلا[2]

<u>4)- في العقيدة والتصوّف :</u>

كان لاهتمام العلماء بنظم الكتب الدراسية أولوية، قبل أن ينتجوا محاولاتهم الخاصة. بل يكتفي البعض بنظم الكتب بغية تسهيل تدريسه لطلابه، وهذا ما قام به الشيخ فودي سيدي كـانْتي[3] من غينيا، حيث نظم كتاب التوحيد، المعروف بـ "ستة وستون "، المتداول آنذاك بين طلبـة المراكز العلمية، وهو حول الواجب والمستحيل والجائز من صفات الله ، مع أركان الإيمان :

13 واجبة لـه الحيـاة ** والممات عنه كـذب
14 واجبة له الـسمع ** والصمام عنه كـذب
37 وإيمان لنا بالرسل ** وما أتانا بهـا كتـب
38 من إيمان الملائكة ** والكتاب بـلا ريـب
40 هذه ست وستـون ** من وعاها فلا خيب[4] [؟؟]

على هذا الأسلوب التقريري مع عدم الالتزام بالأوزان العروضية المعروفة يسير إلى نهاية نظمه. ويبدو أن العناية بنظم الكتب العقدية لكبيرة، لأنه علم يحتاج فيه الطلبة إلى حفظ أركانه وأقسامه. وكان ذلك شائعا في محاضر موريتانيا، حيث مكث الشيخ أحمد بمبا في منفاه فوقف على كثير من هذه المنظومات عن الكتب الدراسية، وهذا ما يعلّل اهتمامه بنظم كتـاب الشيخ محمد الديماني في مؤلّفه " مسالك الجنان في جمع ما فرّقه الديماني "، ويكملـه نظمـه المسمى " مواهب القدوس في نظم نثر شيخنا السنوسي"، لذا قال في مقدمة الأول :[الرجز]

11 وبعـد فالتوحيـد للقـسمين ** منقـسم فـصار توحيـدين
12 فـأولٌ تكلّـمٌ والثـاني ** تعـرُّف لا تنكـرن بيـاني

[1] – الدمدمي ، جيرن سعيد الشعراء : مجموع الخرائد ومنظوم الفرائد، دكار ، السنغال، لا.ط، لا.ت، ص 182.
[2] – المنذوي، محمد السنوسي: لامية أصول القراءات، مخطوطة بمكتبة المؤلف، كنو، نيجيريا.
[3] – هو ابن الشيخ عثمان كانتي في كنكان، كان أعلم أبناء أبيه، وله محاولات في الشعر، وكان موته مبكرا حوالي سنة 1935م.
[4] – كانتي، فودي سيدي : ست وستون، منظومة مخطوطة عند آل المؤلف، حي فراكو، كنكان، غينيا.

13 وذاك للعمـــوم يُنـــسب كمـــا ** كان إلى الخصوص ذا قد انتمى
14 وصـــاحب العمـــوم مـــا تقـــدّما ** كلامنـــا فيـــه كتابـــا نظمـــا
15 وهـــو الـــذي نثـــره الـــسنوسي ** سبط رســـول ربّنـــا القـــدّوس
17 أما الذي حوى الخصوص فهْو ما ** نأتي به أيضا هنـــا منتظمـــا(1)

وهو أقرب إلى التصوف منه إلى دروس في العقيدة، ولكن مؤلَّفه " تزود الصغار" من أهم ما يوجِّه به طلبتَه في أركان التوحيد التي أفرد لكل ركن منها فـــصلا. وتنـــاول الـــشيخ سليمان أبو بكر في النيجر الأركان نفسها، حيث يقول في فصل الملائكة : [الرجز]

9 والصدق بالملائك الكـــرام ** عشرة جبريـــل ذو الإلهـــام
10 ميكال إسرافيل ذو النقور ** يتلوه عزرائيل ذو الثبور(2)

وقد جمعوا في أشعارهم التعليمية بين العقيدة والتصوف، لما بين العلمين من أهـــداف مشتركة ومبادئ روحية، لذا جاء تعريف الشيخ أحمد بمبا الخديم ــ مؤسس المريدية بالسنغال ــ للتصوف في هذه الأبيات الموجزة الرشيقة : [الرجز]

2 إن كنت سائلا عن التـــصوف ** لكي تعـــدّ مـــن ذوي التعـــرف
3 فللتـــصوف أصـــول تعـــرف ** تسعة أشياء لدى مـــن يعـــرف
4 أولهـــا تـــلازم الكتـــاب ** وسنة المختـــار ذي الـــصواب
5 وترك الأهواء وترك البـــدع ** كذاك تبجيل الـــشيوخ الخـــشّع
6 رؤية أعـــذار لكـــلّ خلـــق ** إدامـــة الورد لوجـــه الحـــق
7 وعدّ منها ترك جملة الرخص ** وترك تأويل فذا زروق نـــص(3)

وهذا ما يعلّل كون علماء المنطقة معلمين للعلوم ومربين للقلوب، فزاوجوا بين نظـــم مبادئ العلوم وآداب التصوف، ربّما اهتموا بتخميس بعض الكتـــب فـــي تربيـــة الأرواح أو تربيعها، كتربيع الحاج عمر كركي الغاني لكتاب الزهد والوصية ــ للشيخ علي زبن العابدين بن حسين ــ المشهور تدريسه في الزوايا المختلفة بالمنطقة، وهو يتألف مـــن قـــصائد علـــى حروف المعجم في رويّها، فهذا مطلع حرف الثاء : [الوافر]

1 "لمن يا أيها المغـــرور تحـــوي" ** بما يغويك فـــي يـــوم البحـــاث
2 ولا تبخـــل بمـــا جمعـــت يـــداك ** "من الوفر المـــوفّر والأثـــاث"
3 "ستمضي غير محمـــود فريـــدا" ** ويقسم في الذكور وفي الإنـــاث
4 وتطمر في اللحـــود بلا فـــراشٍ ** "ويخلو بعل عرسك بالتراث "(4)

(1) – بمبا، الشيخ أحمد : مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديمان، مكتبة الشيخ أحمد بنب، طوبى، السنغال، لا.ط، لا.ت، ص 3.
(2) – الزرماوي، الشيخ سليمان أبوبكر : روضة الصبيان ، نيامي ، لا.ط، لا.ت، ص 6.
(3) – صمب، عامر : الأدب ا السنغالي لعربي، ص 277/2.
(4) – كركي، الحاج عمر بن أبي بكر : تربيع الزهد والوصية ، لا.ط، لا.ت، ص 180.

أو نظم بعض مؤلفات سابقيهم، كنظم الشيخ إبراهيم بشير لكتاب " سبيل النجاة " الـذي ألفه الشيخ عبد الله بن فودي في التربية الروحية للطريقة القادريـة[1]، قبـل أن يـضعوا بعـض المنظومات من قريحتهم كإنتاجات الشيخ علي فَيْ : كنز الأكوان في معرفة رجال الغيب فـي 186بيتا، ونصيحة الإخوان في التوسل بالشيوخ في 30 بيتا، وسلاسل علي فَيْ في 75 بيتا، وبيان شرائط الطريقة التجانية في 44 بيتا.[2]

ويلفتنا هذا المؤلَّف الأخير إلى كثرة محاولات العلماء التجانيين في نظم شروط طريقتهم وأورادها وآدابها : كشمسية الإخوان في الورد التجاني للشيخ محمد سَلْغَ النيجيري، كـديواني روح الأدب ونوادر الحكم للشيخ إبراهيم انياس السنغالي، وسلاح حزب الله للشيخ علي بوبديم الغيني، ويسجل إبراهيم غُشيغُ الغاني في القصيدة السابعة من ديوانه الورد التجاني قائلا:

*16 فبدأ الورد عـوذ الله ** بـسم الله الرحمـان*

*17 وثالثها صلاة علـى ** نبيّـك خيـر عـدنان*

*18 ورابـع لا إلـه إلا ** إلـه الكـون الربـان*

*19 وخامس جوهر الكما ** ل قد كملـت بميـزان*

*20 وهذا الـورد منكـره ** يبوء بسخط رحمـان*[3] [مجزوء الوافر]

ولكن ميلهم إلى النظم في الآداب الصوفية أكثر من غيره، لأنها من الدروس التي يمرّ بها كل مريد في الزوايا، وخاصة في مركز كبار العلماء الصوفية، كالحاج مالك سي السنغالي الذي نظم " قنطرة المريد " لمريديه في مركز تواوُن، فجمـع فيـه بـين الآداب الـصوفية وسلوكيات المتعلم،[4] وسار على النهج نفسه الشيخ عباس صل السنغالي، في مركزه بمدينـة لوغا، في ديوانه " تصفية القلوب لعلام الغيوب "[5]، ولكن الذي عني بالتربية الروحية علـى حساب التربية العقلية بمؤلفاته هو الشيخ أحمد بمبا، الذي ألّف : منور الصدور لدى المنـازل وعند الدور في 212 بيتا، ونهج قضاء الحاج فيما من الأدب إليه المريد يحتاج في 277 بيتا، وملين الصدور أو مذكّر القبور في 266 بيتا، وفي هذا الأخير يقول عن تطهير القلب:[الرجز]

*1 القلـب كالملـك فـي الأعـضاء ** مهما يمل تمـل بـلا امتـراء*

*2 وإن ترد إصلاح الأوصـال معـا ** فاعتبر الإصـلاح للقلـب معـا*

*3 وطهّـر القلـب مـن الرذائـل ** جميعها فاحـذ ذوي الفـضائل*

*4 كالعجـب والحسـد والريـاء ** والشحّ والكبر مع البغضـاء*[6]

---

[1] – أبوبكر ، الدكتور علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 162.

[2] – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 353/1.

[3] – غشيغ، الشيخ إبراهيم : ديوان شعر، ص 15.

[4] – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 31 – 62.

[5] – غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله، ص 204.

[6] – بمبا، الشيخ أحمد الخديم : ملين الصدور، مكتبة الشيخ أحمد بنب، طوبى، السنغال، ص 10–11.

ويرى أكثر المتصوفين أن المريد بين يد شيخه كالميت في يد غاسله، وعليه ربى مريديه الذين ضحّوا بحياتهم في خدمته[1] وخدمة خلفائه من بعده باعتقاد بعضهم أنها عبادة، يقول: [الطويل]

6 ***وإن ساعد المقدور أو ساقك المنى ** إلى شيخ حقّ في الحقيقة بارع***

8 ***وكن عنده كالميت عند مغسّل ** يقلّبه ما شاء وهو مطاوع***[2]

ولا شكّ أن هذا يجمّد فكر المريد، فلا يسعه أن يتعرف على حدود الشرع في هذه الخدمة، بل كان هذا بابا لانحرافات كثيرة بين الصوفية،إذ يستبعد أن يكون كل شيخ متصوف على بصيرة من الحقيقة، بل إن خلفاء الشيوخ قد لا يصلُحون كما صلُح أسلافهم، لذا بالغوا في آدابهم حتى رفعوا حقّ المربي على حقوق الوالدين ، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الخديم نفسه : [الطويل]

1 ***أرى أوجب الأشياء حقّ معلّم ** وآكده حقّا على كل مسلم***

2 ***فقد حقّ أن يهدى إليه كرامة ** بتعليم حرف واحد ألف درهم***[3]

وللصوفية القادرية، وإن قلّوا في القرن العشرين بالمنطقة ، إلا أن شهرتهم في نيجيريا لم يأفل نجمها، وشيخهم في مدينة كنو محمد الناصر الكبرى قد سجل في " الديوان المبارك " شعراً تعليمياً للتعريف بالقادرية : أورادها، وشيوخها، وفروعها العامة، وفروعها الخاصة في نيجيريا التي قال عنها : [الطويل]

1 ***وفي أرضنا من تيك خمس طرائق ** تلألأ في أقطارنا الحوسوية***

2 ***طريقة أهل البيت وهي طريقة ** من المرتضى بحر العلوم الغريرة***

3 ***فورد من الكنتي تبزغ شمسه ** وشنجيط دار السادة الفاضلية***

4 ***وورد لعثمان ابن فودي انتمى ** ولكنّها في الأفق غير شهيرة***

5 ***وورد من السمان أعني محمد ** وورد له من سادة المنزلية***

6 ***فهذي بحمد الله خمس سلالم ** إلى نفحاة الحضرة الأقدسية***[4]

ومن علوم التصوف " علم الأوفاق " بل هو علم الأسرار بالخواتم، وهو منتشر بين علماء الطرق الصوفية، إلا أنهم يحتكرونه لأنفسهم ولا يطّلع عليه إلا المقرَّبون إليهم، وبها يقضون حوائج العوام بمقابل المكافآت المادية، وفي نيجيريا وضع أستاذان فيه كتابين : منهل الظامئين لسليمان أديبايو في 149 بيتا، وثمانية أوراق في علم الحروف لمحمد ثوبان الإلوري في النثر. والذي يهمّنا هنا أولُهما، لأنه نظم تعليمي لمعرفة الخواتم، وأصول الأوقات الثمانية، واستخراج الطبع والطالع، وكلها مبنية على حسابات الجمل للحروف الأبجديّة، ولنقف مثلا على الفصل الأخير في استخراج البخور من الأوفاق : [الرجز]

---

(1) – حتى انحرف بعض جماعة منهم يعرفون بـ "بايْفالْ" يرون اقتصار الدين على خدمة الشيخ، فلا صلاة ولا صوم عليهم.

(2) – بمبا، الشيخ أحمد الخديم : نهج قضاء الحاج، ص 35.

(3) – المصدر نفسه ، ص 34.

(4) – الكبرى، محمد الناصر : الديوان المبارك، ص 24.

1 لكـــلّ أوفــــاق بخــــور لازم ** في كلّ أقطــار عليــه نظمــوا
2 كيفيـــة العرفـــان فيمـــا قلنـــا ** خذ عدد الطالع أخـذا أحسـنا
3 ثلاثـــــة ثلاثـــــة فاطرحـــــه ** في كل طــرق أسـهلا تجـده
4 إن بقــــــي فـــــالبخور ** من حيــوان عنــدنا مــشهور
5 إن كـــان إثنـــين مـــن المعـــادن ** ثلاثة من النبـات الكامــن(1)

5)- في علوم أخرى :

لم يقتصر الشعر التعليمي لدى القوم على العلوم العربية والدينية، بل شمل كثيرا من العلوم الإنسانية الأخرى ، وما زال بعض المتأخرين يرون ضرورة توظيف الشعر في تقييد بعض العلوم الحديثة لضبط أقسامها الفرعية، وهذا دليل تأثير القدماء على المحدثين، لأن الصراع بين القديم والحديث لم يكن نقطة خلاف بين شعراء المنطقة وعلمائها.

يعد تاريخ الممالك والقبائل والأنساب من أكثر ما عني به شعرهم التعليمي، وقد جاء من ذلك لديهم في قصائد طويلة وقصيرة. وأمام أصحاب المطوّلات يتقدم الشيخ عمر كركي الغاني، الذي وظّف شعره في تقييد تاريخ المسلمين لا في غانا فحسب، بل في غرب إفريقيا، ولكنني ، وإن بدا في أسلوبه التزامه بالسرد القصصي فإن النظم التاريخي يغلب على منهجه، إذ كان شيخ علماء غانا، وكان تلامذته بحاجة إلى مثل هذه الدروس التاريخية، واشتهرت من أعماله ثلاث قصائد : رائيتان إحداهما في الملك الكشناوي في نيجيريا من 102 بيتا، والأخرى في ملك زونْغو بمدينة كوماسي في غانا من 152 بيتا، أما ثالث أعماله فميمية من 211 بيتا في تاريخ الاستعمار بغرب إفريقيا.

انظر كيف يعدّد لنا محاضر المدن الثقافية التي سقطت في مخالب الاستعمار:

32 ولـــم أر بقعـــة للهـــرب مـــنهم ** إذا رمنـــا الفـــرار إلـــى الـــسلام
33 ألـــم أنهـــم ملكـــوا الأرض ** نواحيهـــا وجـــافوا كالجهـــام
34 ومن (سنسند) قل (صغ) ثم جب ** وفي (صغ) قاتلوا أهـل الزحـام
35 وأما (جــب) جاءوهــا بجــيش ** فقائــــدهم جهـــنم ذو الأثـــام
36 ومن (ديــب ســننغر) يــا أولاء ** كـــذلك (بنبـــر) أرض الطعـــام
37 إلى (يور) و(فوت جل) و(تــور) ** مدينة (مـــايي) غطــت بالقتــام
38 و(شنجيط) و(تنبكت) و(طــوبى) ** و(ماســن) أنهـــا أرض الكـــرام
39 و(بنجغر) و(دنس) كذا (قــريش) ** و(سرفر) ســوق ملــح للطعــام
40 وقد مكثــوا (سفــار) وما يليــها ** وقائدهــم عقــيب ذو المــلام(2)

(1) – أديبايو، سليمان : منهل الظامئين لجميع الطالبين، طبعة محلية، إيادن، نيجيريا، لا.ط، لا.ت، ص 50.

(2) – Muhamed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 124

ولا شكّ أن هذه المنظومات التاريخية هي التي وجّهت الشيخ إبراهيم غُشِيغ (ت 1989م) إلى وضع مثلها في تاريخ ملوك دغومبا بشمال غانا، وله رائية مشهورة في ذلك من 179 بيتا، وكان مولعاً بذكر أسماء الملوك مبيّنا تواريخ توليتهم ووفاتهم أكثر من الإشارة إلى أعمالهم، لذا افتتحها بقوله : [الوافر]

1 حمدت الله ربي إذ هداني ** على بعض التواريخ بالحصار [1]

وفي شعر الحاج محمود سانوغو نتثقّف بأسماء ولايات الممالك في بوركينا فاسو في منظومة قصيرة من 15 بيتا، وهذا مطلعها : [الوافر المجزوء]

1 " فَكُنْغوسي لبَمْ " أتى ** وكَمْمسر لبازيغا
2 وجيبوغو لبوغْربا ** وتَنْكدُغو لبُلْغُو أتى
3 وكودوغو لبُلْكمْدي ** وبَنْفُورا كُمُوي لنا
4 وزوروغو لغَنْزُرْغو ** وبُوغَنْدي إلى يَنْيَا
5 فداً غُرُما إلى غُرُما ** بَبُوجولا لوي انتمى
6 وغادوغو لكاجوغو ** وكَاجُوغُو فيا لها [2]

وبجانب ذكر الولايات يعنى الآخرون بتعداد أسماء العلماء، مشيرين أحيانا إلى مكانتهم المرموقة أو إلى مؤلفاتهم، وهذا واضح في أرجوزتي الحاج عبد الرحمن باه في ذكر أعلام العلماء والأولياء،وفي أرجوزة ثالثة ذكر منشأ الفلانيين ودخول الإسلام في فوتجلون.[3] فلنقتطف من قصيدته " أسماء بعض الأشياخ الذين اشتهروا بالعلم والولاية في فوت": [الرجز]

22 ومنهم الشيخ عليّ " الصوفي " ** شيخ حليم ورع عطوف
23 والشيخ بوبكرْ هو السيْلي ** سماحه وعلمه مروي
24 دام " لجرن جاو" دام النصر ** دام لشبليه العلى والفخر
25 هما الولي " عابد القدّوس " ** و"جرن إبراهيم " ذو التدريس [4]

وعلى النهج نفسه يسرد لنا الشيخ يحيى أسماء الدولة الكنوية الفلاتية في شمال نيجيريا، وذلك في قصيدة قصيرة من 16 بيتا، مطلعها : [الرجز]

ولسليمان ثلاثة عشرْ ** عاماً ببدء الأمر سائس الزمرْ [5]

وكأن الشيخ أبوبكر عتيق تأثر به فوضع أرجوزته في الموضوع نفسه بعنوان " تزيين السلوك بتاريخ ما لحصن كنو من الملوك" في 160 بيتاً، انظر إليه ماذا يقول في الملك رُنْفا: [الرجز]

---

(1) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : تاريخ الملوك ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، تمالي، غانا.

(2) – سانوغو، الحاج محمود : منظومة ولايات بوركينا فاسو، مخطوطة عند الشاعر، بوبوجولاسو، بوركينا فاسو، ص 73.

(3) – ينظر : باه ، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 63 – 69.

(4) – المصدر السابق، ص 70

(5) – النيجيري، الشيخ يحيى : نيل البغيا، ص 78.

58 أقام رُنْفا ملكاً مشتهرا ** سبعاً ثلاثون تليها تترا
59 وهو الذي كان بنا ذي الدار ** منه أتى فنعم صاحب الجدار
60 وهو الذي وسّع سور الحصن ** وسوق كرُمي منه يا صاح بني
61 وهو الذي قد سنّ نعلا فيه ** ريش نعامة لمقتفيه
62 له أمور هو قد أحدثها ** وهي إلى الآن استمع وانتبها [1]

ونجد مثل هذا الأسلوب العلمي على المنهج التاريخي عند العاجي محمد بدر الدين واترا، الذي نظم تاريخ نشأة مدينة " بُنْدُكُو" في شرق ساحل العاج، وحدثنا عن مؤسّسها وعن قبائلها: كمكايا، ودُصُو، وكارجولا، وكملا، وملاك، ثم ينتهي بدعاء لهذه المدينة العلمية العريقة. انظر ماذا يقول عن " كارجولا " قبيلة أرباب الخطابة : [الخفيف]

15 لم يماثل قناعة " كارجولا " ** لا وفاقوا فصاحة في الكلام
16 لا تحقر صغيرهم فخطيب ** كلهم فائق بكل مقام
17 هم سعاة بين الورى بصلاح ** وبخير فهم بذا في الدوام [2]

وقد يسجّل بعضهم أنسابهم شعرا ليظل سائرا بين الناس، وافتخارا بشرف نسبهم، وخاصة إذا كان يتصل بالرسول ﷺ على حدّ زعمهم،كما في أرجوزة الشيخ الشريف حسن في 23 بيتا.[3]

بعد الشعر التاريخي يظهر اهتمام العلماء بعلم الفلك، الذي كان يدرس في بعض المراكز العلمية، وإن كان علماؤه قلة في المجتمع، ومنافعه المتصلة بالزراعة والعبادات لم تنتشر بين الناس فقلّ إقبال الطلبة عليه، وربما كان علماء السنغال أعلم به من غيرهم في المنطقة، لكثرة منظوماتهم فيه : كمنظومة " كاشفة الحجاب " للشيخ أحمد دِمْ الذي تم تأليفه سنة 1921م/1340هـ.[4] وأرجوزة جرنو أحمد ألفا سِهْ الفوتي[5] في "حساب العدد أو علم النجوم " ــ كما يطلق عليه عند علماء فوتاطور ــ لمعرفة ميقات الفصول الأربعة.[6]

وفي فوتاجلون بغينيا اشتهرت منظومة " قنطرة الحساب " بين جميع المراكز العلمية، نظمها الشيخ أبو مروان بَكْر[7] في 239 بيتا : من مقدمة وسبعة عشر فصلا وخاتمة، ويقول في مقدمته إنه وضعها ليهتدي المريد إلى صوب القبلة، لكنه تعمق في التنجيم بعد ذلك فانصرف عن هدفه السابق،انظر مثلا إلى فصله "في باقية الدراري وتصاريفها في المجاري":

(1) – عمر، محمد الأمين : الشيخ أبوبكر عتيق وديوان هدية الأحباب والخلان، ص 95.
(2) – الواتري، بدر الدين محمد : اللؤلؤ المسلوك في تاريخ بندكو، تحقيق محما واترا ، الجامعة الإسلامية بالنيجر، ص 26.
(3) – ينظر: صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 466.
(4) – ينظر: صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 370/1.
(5) – ولد سنة 1907م في بدور بشمال السنغال، كان علما في علم الفلك والنحو، وله فيهما مؤلفات نثرا ونظما.
(6) – المصدر نفسه، ص 406/2.
(7) – هو ابن الفقيه عثمان بن عبد الله، من قرية سيلان، كان معلما كبيرا ، خرج كثيرا من العلماء.

156 عطارد يقيم سبعة عشر ** ج كلّ برج وبذا الحكم اشتهر
157 وبيته العذراء والجوزاء ** ويومه يقال أربعاء
158 ستّ وعشرون لنجم الزهرة ** ويومها المرعن يوم الجمعة
159 وبيتها فالثور والميزان ** شرّفها بذنيك الرحمان
160 مرّيخُها في البرج قد يقيم ** خمساً وأربعين يا عليم
161 وبيتها الحمل وعقرب تُرى ** ويومه الثلاث فيما أثرا
162 والمشتري في البرج قد يُكَمَّل ** تمام عام ثم منه يرحل
163 وبيته قوس وحوت يُرْوَى ** ويومه يوم الخميس يُنْوَى
164 وزُحَل تمكث ج الشهور ** أعني ثلاثين على المشهور
165 والجدي والدلو له من بيت ** ويومه المعلوم يوم السبت[1]

والعلامة الفلكي هو الشيخ محمد الهادي توري، الذي لقّب بـ " العبقري" لتمكّنه في هذا العلم، والذي وضع فيه مؤلفا كبيرا أسماه " تحقيق المقال على ظل الزوال "، لكنه ضاع في مصيبة احتراق دار المؤلف بمدينة كبمير Kebemer. وقد طرق العبقري مسائل كثيرة واهتدى إلى تحقيق بعضها من غير سبق في المنطقة : كالساعة الفلكية التي خطّطها بالخشب والإسمنت في ساحة داره لمعرفة الأوقات، وكيفية التوفيق بين التقويمين الهجري والميلادي، وكيفية معرفة أوائل الأشهر القمرية.

كان يعلّم طلابه جميع هذه المسائل الفلكية في منظومات شعرية، معتمداً على حساب الجمل الأبجدي. فلنتأمّل في نظمه لكيفية معرفة العام الكبيس المعروف في علم الفلك:[الرجز]

1 سطِّحْ بـ (قال) ماضي (عشق) واقسم ** باللام ، وانف الكبس إن ينقسم
2 وإن يكن كسر فُوَيْق (كَوْ) ودون ** (يوٍ) فلا كبس وإلا فيكونْ [2]

« أي خذ التاريخ الهجري المستهدف، واطرح منه عدد (عشق = 1170 أو شفس = 1380) والباقي من الطرح اضربه في (قال= 131) وحاصل الضرب اقسمه على اللام (30) فإن انقسم دون باق فالعام كبيس، وإن انكسر، وكان الكسر أقل من (يو = 16) أو كان أكثر من (كَوْ = 26) فلا كبس. أما إذا كان الباقي ما بين 16 و26 فالعام كبيس أيضا ».[3]

وكان لهذه الدراسات تأثير كبير في علماء سنغامبيا، وهذا ما جعل الشيخ علي فَيْ الغامبي يضع منظومته بعنوان " تقريب المفهوم في علم الفلك ".[4] وقد انفردت هاتان الدولتان

[1] – عثمان ، أبو رضوان بكر : قنطرة الحساب، منظومة مخطوطة بمكتبات فوتاجلون الخاصة، غينيا.
[2] – غاي، شيخ تجان : هذا العبقري محمد الهادي توري، ص 109.
[3] – المصدر نفسه، ص 109، والعام الكبيس هو العام الزائد بيوم.
[4] – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 354/1.

بالنظم في هذا العلم خلال القرن العشرين، غير أن لعلماء نيجيريا في القرن التاسع عشر الميلادي جهودا ، كـ " مفهم البليد علم النجوم" للشيخ عمر الوالي (ت 1898م) وله كذلك في المنطق " مفتاح المغلق في علم المنطق ".[1]

غير أن إحياء حركة النظم في المنطق والجغرافيا قد أتى على يد النيجيري عبد الوهاب بن عبد السلام الإباجوي، وأسمى نظمه في الأول بـ " الطريق المستقيم إلى المنطق السليم " في 158 بيتاً، وفي الثاني بـ " الوسيلة الدنيا إلى فن الجغرافيا " في 254 بيتاً. وهو يتميز فيهما برشاقة أسلوبه، ودقة إيجازه، وحسن تنظيمه للفصول والدروس.

في الفصل السادس من كتابه الأول يوجز لنا خلاصة التعريف بالمدركات الذهنية والمفهوم والماصدق : [الرجز]

1 المدرك الذهني تعليمهم ** نوعان حسب العرف في تقسيمه
2 إذن يدرك المفرد فالتصوّر ** مثاله زيد ، حمار ، فهر
3 أو قيل جاء الزيد أو نال الهدى ** أو وعظ الواعظ بعد ما اهتدى
4 فذاك تصديق بلا إشكال ** وشأنه ـ في كل حال ـ عال
5 وكل ما ينطبق المفهوم ** عليه فالمأصدق المعلوم
6 فالناطقية والحيوانية ** أكبر أوصاف بإنسانية
7 زيد وزينب يصدقنه ** في الوصفين صاح حققنه [2]

وفي فن الجغرافيا يقيد المجموعة الشمسية في تسعة أبيات من الدرس الثاني : [الرجز]

1 مجموعة شمسية كواكب ** عدّتهن تسعة فحاسبوا
2 وكلهن أبدا طائفة ** بالشمس والشمس لها وارفة
3 وقيل كل كوكب ـ فعالم ** كعالم الأرض ـ له معالم
4 فهذه المجموعة الشمسية ** تأتي بها منظمتي الدرسية
5 عُطارد فَزُهرة بعدهما ** أرض ومرّيخ حبيبيّ افهما
6 المشتري، زُحَل كذا أورانس ** نبتون، فبلتو، كلّها نفائس
7 فهذه جملتها رتبُتُها ** حسب اقتضاء النظم قد هذّبتها
8 فبعضها يردفها أقمار ** أو قمر يُرى لها أدوار
9 وبعضها قد يختلي عن قمر ** سبحانك اللهم يا ذا القدر[3]

---

[1] – ينظر : أبوبكر ، الدكتور علي : الثقافة العربية في نيجيريا، ص 296.

[2] – الإباجوي، الطريق المستقيم إلى المنطق السليم ، منشورات المنهل، لاغوس، نيجيريا، الطبعة الأولى، 2003م، ص18.

[3] – الإباجوي، عبد الوهاب عبد السلام : الوسيلة الدنيا إلى فن الجغرافيا، منشورات المنهل، لاغوس، نيجيريا، 2004م، ص 12.

وأخيرا نقف عند منظومة سياسية، وإن كانت ليست من إنتاج الشاعر، لأنها محاولة منه لنَظْم أحد الكتب السياسية، تميز بانتقاداته الموضوعية للنُظُم السياسية المعاصرة، كما تميّز بتقديم حلّ وسطي لكل ما ينتقده من المبادئ الديمقراطية الغربية، ألّفه الثائر ا لمسلم معمّر القذافي وأسماه بـ " الكتاب الأخضر"، وأطلق الناظم على عمله عنوان " المسك الأذفر في نظم الكتاب الأخضر " الذي جاء في 13 قصيدة من 917 بيتا.

من الحري أن نختار نموذجين من انتقاداته وحلوله : تناول المجالس النيابية بإبطال صلاحيتها في تمثيل الشعب، لما في ذلك من تناقض حيث يتّخذ نواب المجالس بعض القرارات ما يثير المظاهرات والإضرابات في الشوارع ، كما نشاهد من حين لآخر في الدول الغربية، لأن " الديمقراطية " بمعنى سلطة الشعب، فكيف يتّخذ النوّاب قرارات في غياب الشعب، إذ لو كانت تلك المجالس تنوب عن الشعوب بمعناها الصحيح ، فكيف يثور الشعوب ضد قراراتها، وهذا ما نظمه لنا عادل محمود [1] في أرجوزته :

1 ***فهذه المجالس النيابيةٌ ** ظلّت بنا في السرّ والعلانيةٌ***
2 ***فهي العمود الفقري في المثالْ ** إلى خداع الشعب في كل مجالْ***
3 ***فالحل فيها ظاهر التلفيق ** وحكمها يضرّ في التطبيق***
4 ***على أساس غير ديمقراطي ** بكل تفريط وبالإفراط***
5 ***واعلم بأن المجلس النيابي ** في كل حال حكمه غيابي***
6 ***إذ لا نيابة عن الشعوب ** في حكمها الجميل والمرغوب***
7 ***وإنما السلطة للشعوب ** لا كتلة تسوم في العيوب***
8 ***فكل مجلس بلا ارتياب ** معناه أن الشعب في غياب***
9 ***إذ كل تمثيل أخي تدجيل ** وكل تدجيل أخي تضليل***[2]

ثم يقدّم بعد ذلك حلا سياسيا في " المؤتمرات الشعبية " التي تُشْرِك جميع أفراد المجتمع في اتخاذ القرارات من غير تمييز بين الأفراد رجالا ونساء ، شبابا وشيوخا: [الرجز]

1 ***مؤتمرات الشعب في المجال ** هي الوسيلة بكل حال***
2 ***إلى الديمقراطية الشعبيةٌ ** بما لكل الشعب من مزيةٌ***
3 ***وإن تقم خلاف هذا الأسلوبْ ** أي نظام كان في حق الشعوبْ***
4 ***فلم يكن ديمقراطياً أبداً ** على أساس منه فيما قد بدا*** [3]

---

[1] – هو ابن محمد بن الشيخ ، شاعر معاصر من إروان قرب تنبكتو بجمهورية مالي، وله محاولات أخرى في المدائح والمراثي.

[2] – محمد ، عادل محمود : المسك الأذفر في نظم الكتاب الأخضر، لا.ط، لا.ت، ص 21–22.

[3] – المصدر نفسه ، ص 71. والصواب في وزن البيت الثالث أن تحذف الهاء من " هذا ".

« الملحمة : قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التي تبوّئهم منزلة الخلود بين بني وطنهم، ويلعب الخيال فيها دورا كبيرا، إذ تحكي على شكل معجزات ما قام به هؤلاء الأبطال، وما به سمَوْا عن الناس». [1]

استقى الدكتور محمد غنيمي هلال هذا التعريف من كتاب أرسطو " فن الشعر" الذي فرّع الملحمة إلى بسيطة ومركبة وأخلاقية وانفعالية، اعتمادا على ملاحم شعراء[2] اليونان[3]. وإن كانت الملحمة مما تميز به الأدب اليوناني، فإن خصائصها لا ينبغي أن تكون معياراً للملاحم في آداب سائر الأمم، كما أن خصائص الشعر اليوناني ليست معيارا للشعر في الآداب العالمية، لذا تميزت ملحمة الفرس عن اليونان، كما تميزت ملحمة الأدب العربي عن غيرها.

وعليه فإن هناك خصائص عامة للملحمة تميّزها عن أنواع الشعر الأخرى، ولذا ندّعي وجودها في الشعر العربي الإفريقي لوجودها في الأدب الشعبي الإفريقي كذلك[4]، رغم مخالفة الذين يريدون عدم إقحام هذا الفن الأدبي في الشعر العربي. ومن تلك الخصائص العامة :

أ. السرد القصصي شعراً من خصائص أسلوبها.
ب. تتميّز حكاية أحداثها بالطول عن سائر أنواع القصص.
ج. تستقي الملحمة أصول موضوعها من الأحداث التاريخية الشعبية.
د. تخلط حكايتها بين الحقيقة والخيال، أو بين الواقع البشري وخوارق العادات.
ه. تشتبك شخصياتها البشرية بالجان من جهة ، وبالآلهة المتباينة في قواها تارة أخرى.
و. تدور أحداثها حول فكرة ما، لحلّ عقدة على يد بطل ذي شخصية تاريخية وأسطورية.

لقد تراءى لنا توفّر هذه الخصائص لدى بعض الشعراء ، تناولوا في دواوينهم السيرة الذاتية للرسول ﷺ ، لكونه أكبر أبطال التاريخ، كما أنصف له الكاتب البريطاني توماس كارلايل Thomas Carlyle [5] في مؤلفه الشهير " الأبطال وعبادة البطل "[6]، وقد صدق الشاعر الغيني محمد الأمين جابي حين سجّل عبقريته في هذه البلاغة الموجزة : [الطويل]

---

[1] – هلال، الدكتور محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 93.

[2] – وأشهر هذه الملاحم : الإلياذة والأوديسة لهوميروس.

[3] – ينظر : أرسطوطاليس : فن الشعر، ترجمه عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، لا.ط، 1973م، ص 67.

[4] – كملحمة سونجاتا عند قبائل ماندي في مالي وغينيا، وملحمة الحاج عمر الفوتي عند محمد تشام لدى الفلانيين في السنغال.

[5] – مؤرخ وفيلسوف اسكتلندي (1795–1881م) أحد المفكرين الغربيين الأحرار، ولكان لكتابه صدى في أوروبا حين صدوره.

[6] – السباعي، محمد : "عظمة النبي محمد كما يراها توماس كارلايل" ، مجلة التواصل، طرابلس، ليبيا، العدد الخامس، السنة الثانية، مارس 1373و.ر/2005م، ص 201–202.

إذا قيل من تأثيره كـــان شـــاملا ** عميقا مدى التاريخ ؟ قلتُ محمّد ﷺ

لكل عظيم فـــي الحيـــاة مواقـــف ** تعدّ، وأعلاهـــم مقامـــا محمّـــد ﷺ

لقـــد كـــان أميـــا فأنـــشأ أمـــة ** وكـــان يتـــيم الوالـــدين محمّـــد ﷺ

وكان وحيـــدا ثم أسّـــس دولـــة ** وما غيّر التاريـــخ إلّا محمّد ﷺ (1)

ولست أدري كيف وردت كلمة " الملحمة " على يد شعراء المنطقة في دواوينهم، رغم بعدهم عن الثقافة الأدبية الحديثة ما يجعلهم على دراية بأدب الملحمة، فقال الشيخ عمر كركي الغاني في إحدى قصائده : [الرجز]

أزكى الصلاة لنبـــي الملحمـــة ** محمـــد بنـــاؤه لا يهدمـــه (2)

ويقول الشيخ بدر الدين محمد العاجي (ت 1982م) في حديقته : [البسيط]

محمد مرسل المولى بملحمـــة ** كما هو الرحمة العظمى لمغتنم (3)

وفي تائية الشيخ أبي عتيق من نيجيريا : [البسيط]

رسول ملحمة وهي الملاحم من ** أتي بسيف قتال أهل الضلالات (4)

وربما كان المعنى اللغوي يغلب عليهم في استعمال الكلمة هنا التي تدل في أصلها على موضع التحام الحرب، و«*على الوقعة العظيمة القتل*».(5) ولكن البطولة الحربية، وأحداث المعارك في الغزوات، من أشهر مميزات الملحمة الأدبية أيضا.

أضف إلى ذلك : معجزاته التي تقابل خوارق العادات، والتزامَ الـــشعراء بالأســـاليب البيانية ما تحقّق الخيال الأدبي، وتدخُّلَ الله تعالى والملائكة والجان في أحداث رسالته النبويـــة شبيه بتدخل الآلهة في أحداث معارك أبطال الملاحم اليونانية مثلا، و غايـــة قـــصة رســـالته البطولية ترمي إلى الانتصار على الشياطين والمشركين بعقيدة التوحيد.

فكلّ هذه وتلك مما يجعلنا نعد " الملحمة النبوية " من أنواع الشعر الملحمي الأدبـــي، وإن اختلفت عن الملاحم الأدبية بمعناها اليوناني، فإن فيها ما يقابل تلك الخـــصائص العامـــة للملحمة في الآداب العالمية.

وللتحقق من هذا الادعاء فعلينا أن نتأمل في روائع الشعراء في حسن صياغتهم لهـــذه الملحمة النبوية، فلنرجع أولا إلى الشيخ بدر الدين العاجي الذي جمع بين رونـــق الأســـلوب والصياغة التاريخية عند تناول ولادة بطل هذه الملحمة ﷺ الطريقة فقال : [البسيط]

36 ***محمـــد مكـــة البطحـــاء مولـــده ** ســـلْع مهـــاجره ذو النخـــل والـــسلَم***

37 ***ودُلدُل هـــي فـــي الهيجـــاء بغلتُـــه ** وعنده الناقـــة العـــضباء فـــي الـــنعم***

---

(1) – جابي، محمد الأمين : الخماسيات المحمدية ، مخطوطة عند الشاعر ، كنديا، غينيا، ص 9.

(2) – Muhamed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 134

(3) – الوتري، بدر الدين محمد ين يعقوب : حديقة الأزهار في مدح النبي المختار، ص 19.

(4) – عتيق، الشيخ أبوبكر : هدية الأحباب والخلان ، ص 204.

(5) – ينظر : الفيروزآبادي، مجد الدين محمد : القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1407هـ/1987م،ص 1493.

38	وجـاء فـي ليلـه جمـع بألويـة	**	ثلاثـة ثلثاهـا عنـد ذا الحـرم
39	والأخر المسجد الأقصى قرارتـه	**	وجـيء تبـشيره فيـه بـذي الأُرَم
40	وقـد ترادفـت الأقـدار معجبـة	**	والأمّ شـاهدة للكـل لـم تـنم
41	والحور تزدان والأبواب قد فتحتْ	**	والشهب مشتبك في الجـوّ كالرضـم
42	أتت لها مـريم العـذراء يتبعهـا	**	بالإنس آسـية الغـراء فـي العِصم
43	وحينمـا حملـت بـالنور آمنـة	**	ذي القدر في رجب شهر من الحـرُم
44	نـادى منـاد بـأمر الله يـسمعهم	**	مـن الـسموات للأرضـين بـالنّغَم
45	ألا ألا إن نـور الـصدق منتقـل	**	لأمـه فابـشروا بـالخير والكـرم
46	فصاح إبلـيس ملعـونا لمَخبـره	**	يوحي شياطينه بالأمر مـن سدَم(1)

وقد وُفِّق في اختيار بحر البسيط لهذه الملحمة؛ لأن الملحمة، حتى في الأدب اليوناني، لا تروى إلا في الأوزان الشعرية ذات المقاطع الطويلة لتناسب طـول الـنَفَس فـي حكايـة الأحداث الطويلة(2)، لذا بلغت أبيات هذه الملحمة 285 بيتا. وهذا مما يؤكّد مرة أخرى اتسامها بخصائص الملحمة الأدبية.

وإذا رجعنا إلى القدماء في أوائل القرن العشرين فيمكن أن نقف عند الحاج مالك سي، الذي تركت ملحمته عن سيرة النبي ﷺ صدى في المراكز العلمية بالقطر الـسنغامبي، فبلـغ صيتها لدى العوام لولوع المرتّلين لها بالغناء، ولتعلق العلماء بها في تخميسهم لها وشروحهم لكلماتها ومعانيها، فأسماها بـ " خلاص الذهب في سيرة خيـر العـرب ﷺ "، تـضمنت 28 قصيدة في 1060 بيتا من بحر البسيط أيضا.

نقتطف منه ما يروي لنا نشأة هذا البطل العظيم ﷺ يتيما يتنقل من كفالة أمّه الـسيدة آمنة إلى جناب جدّه عبد المطلب فعمّه أبي طالب الذي سافر به إلى الشام : [البسيط]

220	وعـام أربعـة أو سـتة هلكـت	**	أمّ النبـيّ بـأبواء أو الـزحم
222	كانت تريد إلى الأخـوال زائـرة	**	وفي الإياب القضا آت مـن الحكـم
225	وأم أيمـن بعـد الأم تحملـه	**	لجدّه شيبة الحمد الرضـى العظـم
226	في سابع العام والهادي أتاه بـه	**	فيـا لـه رمـد فـي شـدّة الألـم
227	هدي إلى راهب طبّ يقـول لـه	**	دواءه ريقه فـارجع إلـى الحـرم
232	فيه غدا لجناب العـمّ عبـد منـا	**	ف من وصية جـدّ مـشفق رحـم
233	في حبه عمّه قد راح معـه إلـى	**	شام لأن بلغا بـصرى ذوي عـصم
234	لمّا رآهم بحيـرا قـام يكـرمهم	**	وكان ليس يبـالي فـي مـرورهم
235	تخلف البدر عنهم فـي رحـالهم	**	فقال فادعوه فـالتخليف لـم يقـم

(1) – الوتري، بدر الدين محمد بن يعقوب : حديقة الأزهار في مدح النبي المختار، ص 5-6.

(2) – ينظر : أرسطوطاليس : فن الشعر، ص

236 ***فقام منهم فتى إيّـاهم محتـضنا ** وقـائلا إن ذا لـؤم مـع القـزم***
237 ***لمّـا رآه بحيـرا قـام يلحظـه ** لحظا شديدا ونظـارا إلـى الأمـم***
238 ***وقـام يـسأله والبـدر سـيدنا ** ينير تلـك الـدياجي غيـر معتـتم***
239 ***لمّا تحقّق ما قد ظـنّ قـال لعمـ ** ـمه اردنه فأهل المكر في همم***[1]

وقد تأثر به نجله وخليفته الشيخ أبو بكر سي في هذه الملحمة، فنظم همزية بعنوان " بدرة للعيداء وزبرجد البيضاء " في 10 فصول من 174 بيتا[2]. والتحق بهما الشيخ محمد الخليفة انياس (ت 1959م) في تصوير سيرة خير المرسلين من ولادته إلى وفاته، في ديوانه " خاتمة الدرر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر" من فصول متلاحقة. [3]

وبعده عرفت ملحمة الحاج أحمد إبراهيم دات (ت 1987م) في إقليم فوتاطورو تحت عنوان " تنوير الفؤاد في مدح خير العباد ".[4] وهو لم يختلف عن سابقيه في تنظيم ملحمته النبوية إلى أبواب ذات وحدة موضوعية.

وأمّا الشيخ عباس صل السنغالي (ت 1990م) المتأخر فله في شعره ثلاثة دواوين اتّسمت بخصائص الملحمة : مهر الحور العين في مدح قائد الغرّ المحجّلين في تسعة فصول من 322 بيتا، ونهاية الأماني في مدح النبي العدناني في عشرة فصول من 898 بيتا، وريّ الظمآن في مدح سيّد الأكوان في أحد عشر فصلا مع الخاتمة من 336 بيتا[5].

ربما يعني ذلك أن عناية الشعراء السنغاليين كانت أكبر من ذويهم، وإن ظهرت هذه الحقيقة في ذكر هذه الإنتاجات السابقة، فإن عصر القرن التاسع عشر في السنغال لمفتقر إلى مثل هذه الإنتاجات الزاهرة، والعكس معروف في تاريخ الأدب العربي بنيجيريا، لأن رواد الدولة الإسلامية بصكتو لم يتركوا للمتأخرين بابا للإنتاج والإبداع لكثرة ما أنتجوا في صنوف المعارف الإسلامية.

غير أن شاعرين معاصرين عارضا بردة البوصيري : أحدهما عبد الواحد أريبي في نيجيريا أسمى نظمه "بردة العجم " في 186 بيتا، والآخر حبيب عبد الله كانْ من مالي عنون نظمه بـ " الوردة على نهج البردة " في 174 بيتا. ولم يلتزما بالسرد القصصي للسيرة النبوية، بل سارا على منوال الإمام البوصيري، الأمر الذي يجعلني أرجئ الحديث عنهما في غرض المدح من الباب الرابع، لكونهما أقرب إلى الشعر الغنائي منه إلى أدب الملحمة.

وآخِر من نلتقي به من أصحاب الدواوين في الملحمة النبوية هو جرنو علي بوبديم الغيني، الذي له "درة الأبرار" في 32 فصلا من 1247 بيتاً. ولكن أسلوبه التقريري في أكثرِ فصوله أفقدَه

---

(1) – سي، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 287 – 290.

(2) – سي، أبوبكر الخليفة : مقتطفات من بعض المنظومات لأبي البركات، ص 107.

(3) – انياس، الحاج محمد الخليفة : خاتمة الدرر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر ، ص 19 – 71.

(4) – صمب، عامر : الادب السنغالي العربي ، ص 335/2.

(5) – صل، الحاج عباس صل : نفحات ربانية ، ج 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،لا.ط،1986م، ص 11، و27 ، و89.

القيمةَ الفنيّة، التي تصنّفه من روائع أدب الملحمة النبوية، بل إنه أقرب إلى الشعر التعليمي التاريخي، لخلوّه من الأساليب البيانية، إلا في تصويره مثلاً مبارزة المجاهدين مع الكفار في غزوة بدر، حيث ينبغي أن ينمّق أسلوبه : [الرجز]

43 وبارز الوليد سيدي علي ** فشقّ رأسه بحد الصيقل
44 وشيبة مع عبيدة اختلف ** بضربتين الكل سيفه وقف
45 فكرّ حمزة وصنوه على ** شيبة أجهزاه ثم احتملا
46 أخاهما لصحبه واشتبكا ** حزب الهدى أعداءهم واعتركا
47 واستعر الهيجاء والرؤوس ** تطايرت وحمى الوطيس
48 وناشد الرسول جدا ربّه ** يسأله بأن يعين صحبه
49 فأنزل الرحمن أملاك السما ** على الخيول البلق قد تعمّما
50 الكلّ بالعمامة البيضاء ** وارتفع الغبار للسماء[(1)]

وإنّ الرجز الذي استوعب أبياته قد حطّ من جمالها ورشاقتها، بخلاف ما نجده في ملحمة "ري الظمآن" للشيخ عباس صلْ، حيث يصور الموقف نفسه من غزوة بدرٍ على بحر الطويل :

216 وسلْ أُحداً سلْ خندقاً سلْ مُريْسعاً ** ووادي القرى سلْه وللأسد الحَمْرا
217 تخبِّرْك عن قوم أشدّا على العدى ** ضراغيم غيل لا يطاق بهم سوْرا
218 ولا سيّما يومٍ ببدرٍ تلاطمتْ ** بحار الوغى من بينهم زُمَرا صُبْرا
219 لهم حمَلات في الغُداة غرائب ** تغادرهم صرعى صوارمُهم غُبْرا
220 وهم فئة كانوا لديهم قليلة ** فجاءت جنودٌ لم يُرَوْا بينهم سفْرا
221 ملائكة الرحمان جبريل بينهم ** لإنجازه للمجتبى الوعْد والنصرا
222 فآبوا وبيت الكفر خاوٍ عروشُه ** فطابت قلوب بالقليب وبالأسرى[(2)]

لم تلق سيرةٌ اهتمام الشعراء مثل ما نالت السيرة النبوية على هذا النمط الملحمي،رغم ما وجد من الأبطال المجاهدين ضد الاستعمار، أو العلماء المجاهدين بتأليفهم وتعليمهم. وأستثني من ذلك سيرة الشيخ الإلوري على يد محمد الزيتوني بعنوان "وُلِدَ الهُدَى"، وسيرة عثمان القلنسوي (ت 1986م) في نيجيريا، التي أيقظت همم أحد تلامذته فنظم سيرته في ديوان " جوهرة الرثاء وشاشة أهل الصفاء "، وقد لا يكون من الأمانة أن نعدّهما من أدب الملحمة، لافتقارهما إلى أحداث بطولية في السرد القصصي وجودة الأسلوب الخيالي، كقول الثاني مثلا : [الطويل]

89 أتعلم من تفسيره صار منهجا ** يفيدك من فحواه فهما ومخرجا
90 أتعلم شيخا لو تعلّمت عنده ** يصير لديك العلم بيتا مسرَّجاً
91 أتعلم من للدين كرّس جهده ** فما راعه في ذاك تعب ولا وجا[(3)]

---

(1) – بوبديم ، جرنو علي : ديوان شعر، ص 34–35.

(2) – صل، الحاج عباس : نفحات ربانية ، ص 37.

(3) – الغسوي، محمد قني: جوهرة الرثاء وشاشة أهل الصفاء، طبعة محلية، لا.ط، لا.ت، ص 14.

كما أستثني كذلك الأرجوزة الملحمية للشيخ عمر كركي، حيث صوّر أحداث بعض ملوك شمال غانا، وكيف عاشوا حتى انقلب الدهر عليهم فخسروا سلطتهم إثر غزوات مريرة، فبلغت أبياته 245 بيتاً من أربعة فصول، وقد وفّق إلى حدّ ما في جمعه بين السرد القصصي والأسلوب الفني البياني، قف مليّا على تصويره لفساد هؤلاء السلاطين : [الرجز]

62 ***تراهم فوق الخيول ركـضا ** للسوق في الظلم وذاك روضا***
63 ***لا يتقون واحدا في البلـد ** لأنهم كانوا لهم عبيدا***
64 ***ويأكلون مالهم بالظلم ** ويسرقون بقرهم والغنم***
65 ***ويغصبون الدسم من إماء ** يحملقون بينهم كبراء***
66 ***ولا يخافون وعيد الله ** لأنهم كانوا ذو اشتباه***
67 ***ويشربون الخمر يرقصون ** ويبدلون القول يسرفون***
68 ***ويجعلون الناس كالكلاب ** ولا يخافون عقاب الرب***
69 ***ألا ويفعلون ما يشاءون ** في بلدهم بل إنهم سواه***(1)

وبقي أن نقف عند بعض القصائد التي حاول أصحابها الالتزام بخصائص أدب الملحمة كالسرد القصصي، وتغطية مراحل حياة النبي ﷺ من الميلاد إلى الوفاة، وتصوير أهم أحداثه الكبرى، غير أن " الحجم الطولي " أساس في خصائص الملحمة، لذا فإنني أعدّها وأمثالها من الشعر القصصي، كرائية الإمام أبي بكر كويار المالي (2) في السيرة النبوية.

وأخيراً فإن نونية محمد طاهر ليمان من نيجيريا في حرب بيافرا بين قبيلة إيبو الجنوبية والحكومة الفيدرالية خلال الستينات، وهي قصيدة طويلة من 140 بيتا، صوّر الشاعر في أحد فصولها الخمسة عشر بسالة أبطال الجيش الفيدرالي، الذين ناضلوا من أجل إقرار الوحدة الوطنية، غير أن فصولا كثيرة مال فيها الشاعر إلى التنديد بمواقف الدول الغربية والإفريقية، التي أيدت هذه الحركة الانفصالية أو اعترفت بها، ثم حث المواطنين على الوحدة ودعاهم إلى التضامن.(3)

وكل هذه الاستطرادات عوّقت السرد القصصي، وافتقرت هذه النونية إلى الشخصية البطولية تدور حولها أحداث الحرب، وتلك أهم خصائص الملحمة، وهذا ما حملني على مخالفة من أراد أن يعدّها ملحمة أدبية، بل هي حماسة في غرضها الشعري، وقد يختلط على البعض أن يجعلوا الحماسة صنو الملحمة ، وشتّان ما بينهما ، لأن الملحمة من أنواع الشعر بمقابل الشعر الغنائي الذي من أغراضه " الحماسة " إذا التزم الشاعر في قصيدته بوصف الحرب وتصوير بلاء الأبطال في ساحة الوغى.

---

(1) – Muhamed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 102

(2) –هو ابن الهادي كويار في مدينة جني العريقة،إمام ومدير مدرسة خالد بن الوليد،غير أني لم أجد من شعره غير هذه الرائية.

(3) – ينظر : عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 353-359.

ليس الشعر القَصصي غير سرد الأحداث حول فكرة ما، يسعى بطل إلى تحقيقها بعد اختبارات مرتبة، في أسلوب أدبي فني[1]. بل لا فرق بينه وبين الملحمة سوى قِصَر حجمه عنها، ولا يميّزه عن القصة القصيرة غير التزام أسلوبه بالصياغة الشعرية، وهو شديد الالتزام بالوحدة العضوية لما يربط بين أبياته من عنصر قصصي، وخاصة إذا كان تاريخيّاً.[2]

وتراءى لي تقسيم هذا الجنس الشعري في الأدب العربي الإفريقي إلى ثلاثة أنواع، نظراً إلى موضوعاته تارة، وإلى شخصياته تارة أخرى :

شعر قصصي ديني :

يعدّ هذا النوع من أبرز معالم الشعر القصصي، وذلك لطغيان العنصر الديني عليه. وتأتي " القصة النبوية " في مقدمة أنواع هذا الشعر، لتأثر العلماء بالملحمة النبوية من جهة، وبالشعر التعليمي من جهة أخرى، إلا أن بعضهم تميّزوا بإيجاز مراحل السيرة النبوية في قصيدة واحدة قصيرة، كما وقف الآخرون على مشهد من مراحلها لتصويره في قصيدة أدبية قصيرة.

ولهذا الإيجاز، وروعة أسلوبه الفني، أدرجنا هذه " القصة النبوية " ضمن أنواع الشعر القصصي، لتوفّر العناصر القصصية فيها كما توفرت في الملحمة النبوية السابق ذكرها، وتعد رائية الأستاذ بامين محمد سري من أحسن نماذجها، وهي في 45 بيتا، تحدث عن مراحل الميلاد ونشأة شبابه إلى بعثته، وصراعه الدعوي مع قريش إلى هجرته حيث يقول: [الكامل]

31 ***هل ما ترى زعما قريش إنتدوا ** وتألّبوا بشؤون ذي الإيثار***
32 ***هم يمكرون ويمكر المولى ولا ** يخزيه قطّ الربّ للكفّار***
33 ***نجّى الإله رسولَه وصحابه ** كيد العدى ساروا لخير ديار***
34 ***هي يثرب قد قوبلوا من أهلها ** بالبشر والتصديق والإقرار***
35 ***وبنى بمسجده هناك ودلّهم ** بمكان إحدى روض دار قرار***
36 ***للـه درّ محمّد أدّى رسا ** لة ربّه للكون دون قصار***[3]

والمراد بالقصة النبوية هنا هي ما التزم فيها الشاعر بالسرد القصصي لمراحل السيرة الذاتية لا غير، أما جمعها مع غيرها من سير الصحابة ﷺ والتابعين والفقهاء فهذا خروج عن

[1] – ينظر: حمدان ، محمد صايل : قضايا النقد الحديث، دار الأمل، أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1991م، ص 44-47.

[2] – ينظر: هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 405.

[3] – جايتي، بامين محمد سري: بهجة العاشق، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، بركاما، غامبيا، ص 14.

عناصر القصة الفنيّة ؛ وهذا ما نجده مثلا في نونية الأستاذ عبد الله دظو النيجيري، التي بلغت 101 بيت، والتي تبدأ بقوله " حمداً لربي خالق الأكواني"[1]. وقد وُفِّق الأستاذ الحسن بَكِ الغاني في ميميته التي لخّص فيها السيرة في 12 بيتا، من مولده ﷺ الشريف إلى انتشار رسالته السمحة شرقا وغربا، وبعدها جاء بنونيتين : إحداهما في دعوته السرية في مكة، والأخرى في هجرته إلى المدينة المنورة.[2]

وتذكّرنا هاتان النونيتان بتصوير مشهد معيّن من مشاهد السيرة لتكون قصة مستقلة، وهذا ما قام به الشاب البنيني سليمان آل هارون من تصوير للإسراء والمعراج في 22 بيتا. وهذا نمط آخر ممّا نجده في شعر أدباء المنطقة.

ويلحق بالقصّة النبويّة ما فكّر فيه البعض في ذكر تاريخ الأنبياء عليهم السلام، ولكن الاهتمام بمدحهم والتوسل بهم أكثر من تصوير حياتهم في حكاية قصصية، ولكن للحسن بَكِ أبيات في دالية له يحكي فيها قصة النبي عيسى عليه السلام في مثل قوله : [الكامل]

1 ميلاد عيسى كان أغرب حادث ** ويعدّ أمراً معجباً لم يوجد

2 كان المسيح (ببيت لحم وضعه) ** حملته أم لم يجئ من والد

3 فإذا به يعظ الجموع بمهده ** ويقول إني عبد رب موجد[3]

ومن الشعر القصصي الديني ما يقصه بعض الأدباء عن رؤية دينية لظاهرة معينة، فهذا جرنو إبراهيم إنجبيل سِهْ[4] يحكي لنا قصة من غفر له الله من أجل مشاركته في أجر قارئ القرآن الكريم، وفكرة فضل الذكر الحكيم هي محور هذه القصة ومغزاها: [الرجز]

1 قال عطاء ابن أبي رباح ** جعلنا المولى أولي الفلاح

2 قد كان عند سالف الأزمان ** شخص الذنوب مفسد البلدان

3 فمات ثم أتّه رآه ** سأله عن أمره العطاه

4 فقال إني قد عصيت ربّي ** رمز فد من السني حبّي

5 لكنّني حضرت في حياتي ** تقسيم أجر مقرئ الآيات

6 ثم دفعت قدر كاف درهما ** في عون أجر المقرئ المكرما

7 فقال لي ربي بعد موتي ** غفرت ما عصيت فاسمع صوتي

8 لأنّي علمت قد بذلت ** عشرين درهما فما بخلت[5]

---

[1] – دظو، عبد الله موسى : نونية تاريخية، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كادونا، نيجيريا.

[2] – بك، الحسن : كتاب سلسلة العربية لطلبة إفريقيا، الطبعة الثالثة، لا.ت، ص 102.

[3] – المصدر نفسه ، ص 101.

[4] – ولد ومات في هايرى لاو (1917–1976م) من فوتاطور، حافظ وقارئ، له شعر كثير، كما له كتاب في القراءات.

[5] – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 346/2.

شعر قصصي من الواقع :

هناك تجارب مرّ بها الأدباء في حياتهم، وحاولوا تقييدها في حكاية قصصية لتظلّ سجلاً في ذاكرة الأجيال. وأكثر ما تناولوه من نوعه ما يتعلّق بمشهد من مشاهد أحداث حياتهم، وإن كان قلة منهم مالوا إلى الحكاية عن " سيرتهم الذاتية "، إما جزئيا موجزا في ذكر أسماء المدارس التي تنقّلوا بينها في طلب العلم، وتصوير مواقفهم مع شيوخهم ومعلّميهم كما نجد في أرجوزة الشيخ عبد الرحمن صلْ البناجي[1] من 109 بيتا.[2]وإما كاملا مفصّلا كما في رائية الشيخ محمد الأمين يعقوب الغاني، الذي صوّر دقائق سيرته في 99 بيتاً، وإليك مطلعها من ولادته في غانا إلى وصوله في نيجيريا للدراسة : [الطويل]

4 ولدتُ غريبا عاجزا ومفردا ** بعاصمة معروفة عندنا أكرا
5 بها قد نشأت عند أمي ووالدي ** إلى أن بلغت السنّ من عمري العشرا
6 فمن ثم أرسلني أبي لتعلم ** ببلدتنا معروفة عندنا إجْرا
7 قرأت بها القرآن والعلم في الصبا ** فمنها إلى "تَمَلِي" كذا ربنا أجرى
8 ختمت بها القرآن من فضل خالقي ** فأحمده من لم يزل يرزق الخيرا
13 مكثتُ بإجْرا تسعة متفرقة ** وفي "تَمَلِي " سبعا كذلك لا ضيرا
18 لذا هام قلبي للتعلّم سرمدا ** بذلتُ له جهدي ولم أختش الحقرا
19 أتاح لي الباري انتقالي إلى كنو ** مدينة خير العبد لا زلت في الذكرى
20 فإنّي لا أنساك دوما بلا مرا ** لكونك باب الخير للعبد لا فخرا
21 بها قد رُزِقْتُ العلم من فضل خالقي ** بها قد رزقت الكتب من فضل من أدرى
23 بها جاءني الفتح الكبير بمدة ** رزقت بها ما فات حدا كذا حصرا
24 مكثتُ بها للعلم سبعا كواملا ** فنِلْتُ بها ما لم ينلْ من أتى مصرا[3]

هكذا مكث بمدينة كنو، وتعلم صنوف العلوم ثم آب إلى مسقط رأسه، للقيام بواجب نشر العلم، فلاقى في سبيل ذلك ما لقي من صعوبات وعراقيل. ولم يختلف عنه الشاعر السنغالي لامين ديانْغ الذي له ميمية من 40 بيتا يحدثنا فيها عن سيرته الذاتية من تعلّمه في مسقط رأسه إلى أن ارتحل إلى مصر لمتابعة الدراسة في الأزهر الشريف.[4]

ومن غير السيرة الذاتية يتوجه البعض إلى تصوير أحداث تجاربهم الخاصة، وما تثقّفوا به من واقع بعض الظواهر الاجتماعية. وأودّ في هذا الصدد أن أشير إلى رائية شيخ تجان غاي الذي تخرج في الجماهيرية الليبية، وتأثر بسياسة ثورة الفاتح، فأراد أن يصوّر لنا قيامها

(1) – ولد عام 1901م في بناج ، ويعد أحد علماء فوتاطور، تخرج على يد جرن التلري الكجلي وحمى بابا، وله شعر كثير.
(2) – ينظر: صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي ، ص 351/2-355.
(3) – بمبا، محمد الأمين يعقوب الفرضي: رائية الهجرة، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، إجرا، غانا.
(4) – ينظر: ديانغ، لامين : الشاعر السنغالي يتحدث عن نفسه، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، تواوون، السنغال.

على يد قائدها الأخ معمّر القذافي، بداية من نشأة فكرة التحرير إلى تحقيق الأمل الكبير في تأسيس هذه الثورة الإسلامية : [الطويل]

12 ***تتلمذ فــي (سَـبْهَا) يقــود تظــاهرا ** يــدين احــتلالا ســاءه فتــأثرا***
15 ***تجنّــد بابــا للوصــول إلــى اقتنــا ** عتاد به يقوى على الأمر مبصرا***
16 ***إلى نضج تخطيط ، وتــدبير مــسلك ** سليم إلى إنجاح ما كان أضــمرا***
17 ***وسافر غصبا عنه فــي بعثــه إلــى ** ديار النصارى، ما صبا، ما تغيرا***
18 ***وما أفلحت (لنــدن) بتغييــر فكــره ** ولا زيه الديني الذي عزّ مظهــرا***
19 ***تحقــق فيهــا أن تعجيــل ســعيه ** يحتمه الغدر السياسي الذي يرى***
20 ***فآب ونــضج الفكــر قــد كــان زاده ** فصمّم في التنفيذ شكلا وجــوهرا***
21 ***بفاتح (أيلــول) أتــى الفــتح ثــورة ** مخلصة شــعبا مهيــضا مخــدّرا***
22 ***فأضحى شعار الشعب حرية مع اشــ ** ــتراكية في وحدة لــن تقــصرا***
23 ***وأطلق حرّ القول في مسرح النهــى ** فأصبح قصر الشعب للكل منبرا*** (1)

وبعد ذلك مضى إلى وصف الثورة في شريعتها وأفكارها السياسية ونتائجها، ثم انتهت القصيدة بمدح قائدها الكبير الثائر المسلم، قبل أن يختتم بوصف جمعيــة الــدعوة الإســلامية العالمية التي حققت في العالم للدعوة ما قصرت عنه المنظمات الإسلامية الدولية بمجموعها.

وإذا بقينا في السنغال لنرى مدى إفاقة شعرائها في تناول مثل هذا الشعر القصــصي، سنجد أن الشعراء الشباب بدؤوا يحركون عجلة التطوير بإنتاجهم، وخاصة في ديوان المرحوم محمد الأمين عاجْ الذي خلّف ثلاث قصائد شعرية : أولها في قصة أسعد أيامه، عاشــها مــع حبيبة، لكن الحب الطريّ تحول إلى هجر من غير سبب، فأوجزها في 18 بيتا(2). وفي قصيدة أخرى غزلية يحكي فيها فشلَه في الزواج من فتاة أمام غنيّ ، كان قد ســبقه إلــى خطبتهــا، وسنقف عندها في باب الأغراض.(3)وأما قصيدته الثالثة فهي حكاية عن أحد أعياد الأضحى، قضاه الشاعر في المغرب أيام كان طالبا. أترك القارئ ليستنتج ما يرمي إليه الشاعر:[البسيط]

1 ***عيدي بمغــرب لا تحكيــه أعيــاد ** ولا يرى مثله، في العمــر، أفــراد***
2 ***فالعيــد بــشر وأنغــام وأطعمــة ** يرضي القلوب وتزهو فيه أجــساد***
3 ***لكن عيــدي بهــذا العــام مهزلــة ** ترديدها لذوي الإحــساس إجهــاد***
4 ***أضحيتي قهــوة صــفراء بــاردة ** وخبزة بعض أصحابي بهــا زادوا***
5 ***والأنف يجذب ريح اللحم في شغف ** لكن جيراننا ــ للحم ــ مــا نــادوا***
6 ***قد قرّبــوا قطــع الأكبــاد مشويــة ** في حين تحرق ــ بالأحزان ــ أكباد***

(1) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 55-56.

(2) – ينظر: عاجْ، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 25.

(3) – المصدر نفسه ، ص 31-32.

7 أين الإخاء وأين الدين إن زعموا ** بأنّنا كلّنا لله عبّاد
8 فوحدة القارة السمراء تجمعنا ** وكلنا لأبي " الإنسان " أحفاد
9 قد قال قوم لا نحتاط قبل غد ** وبعضنا قال: لا ، في ذاك إلحاد
10 وسوف نحظى بأكوم اللحوم إذا ** جمع المضحين من تعييدهم عادوا
11 من الصباح لوقت العصر ما شبعت ** بطون إخواننا في مثل ما اعتادوا
12 عيد الجوى ليس عيد الهوى أبدا ** بل ذكره لضروب الحزن إيجاد [1]

هكذا يحكي الشاعر بعض ذكرياته المأسوية من غير تعميم الظاهرة للشعب المغربي المعروف بفضائله الاجتماعية. وهكذا يسجل بعض الشعراء مآسي تجاربهم ، ونجد مثل ذلك في وطن الشاعر نفسه، إذ يصوّر أحد نظرائه، وهو الشاعر سرنج امبكي عبد الرحمن ، حضوره لوليمة، فلم يسمح له بالعَشاء لأنّ له بطاقةَ دعوةٍ عامةٍ لا بطاقةَ عَشاءٍ، فاندهش الشاعر من هذه الظاهرة الغريبة في وطنه، فقيّد هذه التجربة المؤسفة : [البسيط]

13 فكان شيئا غريبا هزّ كلكلنا ** وأسقط الكل صرعى الضحك في الحين [2]

وقبل هؤلاء كان الشيخ محمد جولْدِ قد نحى هذا المنحى في شعره ، إذ صوّر مكر أحد الأوغاد أراد أن يغصبه أرضه، ولما انكشف الأمر تميّز غيظا حتى همّ بقتله ، فقال في ذا : [الوافر]

16 فكدتُ أموتُ غيظا من سفيه ** ينازعني بممسود الحبال
17 فلولا ما حُذرْتُ بلوم خالي ** طعنت وريده بظبي النبال
18 تراه كأنّه ضبع طريح ** بمزبلة يجر على الرمال [3]

وفي غامبيا يستفيق الأستاذ بامين محمد سري بمبادرة إلى شعر قصصي غير معهود به عند ذويه،غير أن يتيمته في هذه المبادرة لا تروي المتعطش ولا توقظ همم البسطاء إلى روح هذا التجديد الثقيل خطواته في النمو، فقال يصوّر صديقا له تزوج من امرأة لمالها: [البسيط]

3 فقد تزوج للأموال امرأةً ** تدعى هلاليّة تدعو لنيران
4 منفّذ لأوامرها وليس له ** أمرٌ ونهيٌ على القاصي ولا الداني
5 عليه جهراً وفي سرّ مسيطرةٌ ** لا يملكنّ بتاتا كل أزمان
6 فبالعلاج إلى أورُبّا تأمرُه ** غصباً فيحصل منها كلّ أدران
7 عجبا لرأس كأقدام مغبّرة ** على الثرى غاية الأسوا لذي شان
8 عملتْ وأولادها ضدّاً له أبدا ** تقول أُخرجْ هنا لي كلّ بنيان
9 منامه في فناء الدار مثل غريـ ** ـب ليس يرغب فيه كلّ إنسان [4]

---

[1] – المصدر السابق، ص 40.

[2] – عبد الرحمن، سرنج امبكي : بطاقة عشاء، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، طوبى، السنغال.

[3] – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 326/1.

[4] – جايتي، بامين محمد سري : صديق صويلح، مخطوطة عند الشاعر، بركاما، غامبيا.

وقد بدا لي أن الشيخ عمر كركي قد انفرد بمثل هذا الشعر بين شعراء غانا، إذ له قصيدتان : إحداها سينية من 135 بيتا يسرد فيها حكاية من ادّعى العلم ويخطّئ العلماء في مدّهم للام لفظ الجلالة.[1] وفي ثانيتها يحكي قصة موسى كنكع الذي كان قد ادعى الولاية في غانا، فلا يأكل ولا يشرب،ويشفي المرضى بالسياط، فقد صوّر مراحل تطور دعوته إلى نهاية أمره على يد المستعمرين، وذلك في بائية طويلة بلغت 153 بيتا، فقال عن فراره: [الخفيف]

84 بل نصارى (كماش) هم ** أزجروه ليرعبا
85 راع منهم فقهقرا ** حائرا ثم خائبا
86 غر غوغاء قومه ** قائلا كنت آئبا
87 بعد أيام ستة ** إنه كان علهبا
88 فرّ موسى فرار من ** لا يعود إلى (ظبا) [2]

وفي مالي ظهرت معالم العناية بمثل هذا الشعر على يد الشيخ أحمد حيدر، الذي لم يلتزم بعناصر القصة بقدر التزامه بتصوير مناظرته مع راهب، في سينية من تسعة أبيات.[3]

وأما مواطنه أبو رضوان مدني تيام فإنه يصور لنا أحد رفقائه، أخذه هيجان الفرح في الانقلاب على موسى تراوري، رئيس مالي الأسبق، حتى تحرك في زمرة المظاهرين وهمّ بسرقة كيس، فإذا بطلقات الجنود تجرحه : [شعر غير موزون]

1 إن يوم وقوع قبض رئيس ** كان يوماً شقيّا لعثمان
2 خرج عندي مع أخيه رفيق ** وقلبُه في أوانه فرحان
3 وصلا جنب قوت أرز كثير ** ثم صاح رفيقه حيران
4 قال تالله هذا يوم سعيد ** لآخذن كيساً ولو صعبان
5 شرعا السير بهدوء سكين ** وفجأة أطلق الجند طلقان
6 فرام عثمان تحت مياه عميق ** وعن قريب أتى وهو زعلان
7 ثم بدأ يشكو من جرح كبير ** قائلا بطني من ماء مليان [4]

وأخيراً نلتقي بالشيخ هارون أرغنغ من نيجيريا، صاحب مصيبة في إحدى حوادث السيارة، صوّرها في 60 بيتا، من محلّ حادثته إلى جدران المستشفى ، وكيف خاط الطبيب رأسه المشجوج ، فأصبح مظهره فظيعا، حتى لما رآه ذووه همّوا بالصياح : [الرجز]

40 كادوا يصيحون بكاء لما ** رأونني في تلك الحالات [5]

---

(1) – Muhamed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 144 -145

(2) – Ibid, p 141 ، وكلمة " كماش " بمعنى مدينة كماسي.

(3) – حيدر، أحمد محمد : حوار مع راهب، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، سيقو، مالي.

(4) – تيام، أبو رضوان مدني : عثمان ابن أبي بكر المدير، قصيدة مخطوطة عند الشاعر، سيقو، مالي.

(5) – الأمين، يحيى محمد : مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن العشرين، جامعة بايرو، نجيريا، ص 310.

شعر قصصي خرافي :

لقد أولع الشيخ يعقوب دوكوري صاحب " البستان " في مالي بهذا النوع من الشعر، وهذا جديد كل الجدة في الشعر العربي الإفريقي، وينبغي أن يحتذى بحذوه، ولكن مثل هذا الفن بحاجة إلى صبغة فنية رصينة ترتفع عن أدب الأطفال، الذي خضع له مؤلف البستان، إذ وضع هذه الأبيات لتلامذته الأطفال. وعلى أية حال، فيمكن الإشارة إلى قصيدتين منها:

- o قصة العصفور الصغير (عندما يتعلم الطائر الطيران) في ثمانية أبيات، ثم أعادها مع ازدياد أبياتها إلى 18 بيتا.[1]
- o الثعلب الجوعان، في عشرة أبيات. ولولا تقليده لغيره وعدم فخامة ألفاظه لكانت قصته هذه أرقى إلى مستوى الأدب الرفيع ، وإليك أبياتها الآن : [الرمل المجزوء]

1 ***إنّنـــا يومـــا رأينـــا ** ثعلبا يمشي الهوينـــا***
2 ***بكـــرة جوعـــان لمّـــا ** لم يجد صـــيدا فأنّـــا***
3 ***أبـــصر الـــديك يـــصيح ** عاليَ الغصن ســـمينا***
4 ***قـــال إنّـــا قـــد ســـمعنا ** الأذان فقـــــــدمنا***
5 ***ديك هيّا اهـــبط نـــصلّي ** إن آن الفـــرض آنـــا***
6 ***قـــال أيقـــظ أوّلا ذا ** ك إمـــام العابـــدينا***
7 ***كان خلف الجـــذع كلـــب ** نائم يرعـــى المكانـــا***
8 ***مـــذ رأى الكلـــبَ تـــولّى ** هارباً يبغـــي الأمانـــا***
9 ***قـــال أبطلـــتَ وضـــوئي ** فانتظر آتيـــك الآنـــا***
10 ***لا تثـــق بالمظهـــر الخـــا ** دعِ فالمكّـــار مانـــا***[2]

رغم ميله إلى أدب الأطفال، فإن الفكرة المحورية شـريفة، والعناصـر القصـصية موفورة، والحوارات فيها موفَّقة.

وقد يطرح السؤال نفسه عن أوّلية هذا النوع من الشعر في الأدب الإفريقي ؟
لا شكّ أن ظهوره متأخر جدّاً إلى أواخر القرن العشرين، وما وقفت على نماذجه سوى مـن هذا الأديب المالي، غير أن أسبقية أدباء نيجيريا إلى فن القصة القصيرة والرواية فـي النثـر الفني بالعربية، يوحي إلى أسبقيتهم إلى هذا الشعر القصصي، وإن قصرت يداي عن العثـور على نماذج منها لدى أدبائهم سوى الشاعرين الآتيين، رغم شموليتي في جمع أشعارهم لهـذا المؤلف، فإن براعة النماذج الآتية دالة على رسوخ الأدب النيجيـري فـي الـشعر العربـي وأنواعه.

---

[1] – دوكوري، الشيخ يعقوب : البستان، ص 20، و70.

[2] – المصدر نفسه، ص 27.

في دالية قصيرة للشاب عبد الرفيع أسليجو من نيجيريا جاءت أحد عشر بيتا في تصوير قصة بين الأسد والفأرة، ختم بها الشاعر قصيدته التي يعاتب فيها صديقا له لم يعف عن أخيه، ولولا عفو الأسد عن هفوة الفأرة، لمّا خلّصتْه الفأرة بقطع حبائل الفخ الذي وقع فيه الأسد.[1]

وعلى يد جميل عبد الله نلاحظ نموّا فنيا، وبراعة أدبية، في هذا الشعر القصصي، حيث عثرنا من قريحته الشعرية على ثِنْتَينِ : إحداهما أسماها " لحم بين الكلاب "، يرمز كيف تتكالب الكلاب على لحم من يد قطة، ينشنه من كل جانب، وهي قصة رمزية ترمز إلى تنافس الساسة الأفارقة وتكالبهم على السلطة.[2]

وفي قصيدته الثانية " الحرية " صوّر قصّة الفأرتين، إحداهما في الغابة والأخرى في المدينة ، فانظر كيف تنتهي صداقتهما القصيرة : [الخفيف]

1 ***التقت في فناء بيتٍ أنيق ** فأرتان بغير عهد عتيق***
2 ***ثوت الغاب هذه بعناء ** فطواها الطوى بكلّ شقاء***
3 ***وثوت تلك في القرى بثراء ** ناعم عيشها بكل رخاء***
4 ***عقدا خلة وأمنا وحبا ** وأفاضا الحديث مرحا ورحبا***
5 ***سألتْ ابنة المدينة : أختي ** كيف حال الصحراء من حيث قوت***
6 ***فأجابت : والحمد لله عيشي ** من أراكٍ وورقة وحشيش***
7 ***صرخت ابن المدينة : عجبا ** إنّني مذ خلقتُ ما ذُقتُ وصباً***
8 ***فطعامي اللحوم من غير تعب ** وشرابي العسول من غير وصب***
9 ***فتعالي نعيش عيشة رغد ** في رخاء ويسرة دون نكد***
10 ***فإذا صرخة تعجّ ، وضرب ** من ذوي الدار من وراء يدب***
11 ***اقتلوا السارقين دون توانٍ ** كم أصابا طعامنا بشنّان***
12 ***صاحتا للنجاة : هيّا وهيّا ** فرّتا للحياة جرياً وجرياً***
13 ***قالتا الحمد للإلة نجانا ** من هلاك ، وقد هدانا الأمانا***
14 ***وتولّت بنت الصحراء وقالت ** آن أن ترجع البدا حيث جاءت***
15 ***لا تطيب الحياة في غير غابي ** تحت جحري أبيت أو فوق صابي***
16 ***إنني حرة أعزز نفسي ** عن صغار وأن تصاب بدنس***
17 ***وحياة الأمان في ظل فقر ** أحلى من يسارة تحت ذُعر***[3]

---

[1] – ينظر : أسليجو، عبد الرفيع عبد الرحيم : " وأن تعفو أقرب للتقوى"، شعر بمجلة الحكمة، المنظمة الوطنية لطلاب العربية والإسلامية، فرع جامعة إلورن، العدد 2 ، 1423هـ/2002م، ص 13.

[2] – ينظر : عبد الله ، جميل : لحم بين الكلاب، قصيدة بائية مخطوطة، من 28 بيتا، كنو، نيجيريا.

[3] – عبد الله ، جميل : الحرية ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا.

الفصل الثاني

بناء القصيدة

المبحث الأول : مطلع القصيدة : أنواعه وخصائصه

المبحث الثاني : طبيعة خاتمة القصيدة

المبحث الثالث : معمارية القصيدة

المبحث الرابع : مقطعات شعرية

المبحث الأول : مطلع القصيدة، أنواعه وخصائصه

ربّما يعدّ مطلع القصيدة عند النقاد أهمّ عنصر في هيكل القصيدة، لأنه أول ما يشدّ انتباه الناس، وجودته تدل على براعة الشاعر وقوّة قريحته، لذا اشترطوا أن يكون فخماً واضحاً في شيء من الابتكار الأسلوبي والمعنوي، كما سنقف على خصائصه في آخر هذا المبحث.

إذا كانت الطلل أهم عنصر حامت حوله مقدمات القصيدة العربية، فإن هناك موضوعات أخرى : كالطبيعة والدهر والموت والخمريات ...الخ، كلها كانت مدار مقدمات بعض الشعراء في قصائدهم.[1] وهذا التنوّع في فواتح القصيدة ظاهرة اهتمّ بها شعراء المنطقة، فقلّدوا الجاهليين في بكائهم على الأطلال، وعارضوهم تارة، وراح الآخرون يتنوعون في شتى الموضوعات تارة أخرى بين تجديد للقديم وابتكار من رؤية واقعية.

أ. المقدمات الطللية :

تعرف هذه المقدّمة بأنّها تعبير « *عن رحيل المحبوبة وفراقها والوقوف على أطلالها، ووصف لهذه الأطلال ، والبكاء عليها، ودعوة الركب أو الصحب إلى التعريج نحوها، وقد يتبعها استرجاع لذكرى الرحيل ووصف للرحيل، وتتبّع للراحلين من مكان إلى مكان وتصوير ما أحدثه الرحيل في النفس من لوعة وحزن* ».[2]

وبهذا المعنى التزم جل شعراء المنطقة، وعليه أسّسوا قصائدهم تقليدا وابتكارا، وهم في ذلك يحذون حذو الشعراء العرب القدماء ، أمثال كعب بن زهير في بردته اللامية، والبوصيري في بردته الميمية، تلك المصادر التي أثّرت في اتّجاه الشعراء الأفارقة. وإن كان البعض قد خرجوا على هذه المقدمة الطللية فإن الآخرين يرونها ضرورية وخاصية أساسية في القصيدة، لذا جاؤوا بها في جميع أغراضهم الشعرية.

إن التزام الشعراء بذكر الأسماء الرمزية، أمثال هند ودعد وسلمى وسليمى وليلى ولبنى وسعاد وأسماء ورباب وميّة وأميمة، من مميزات تقليدهم للشعراء العرب الجاهليين، وجاء أسلوبهم في ذلك جاهليا في فنيّته ومعناه، كقول الشاعر الغيني عبد الرحمن باه في نونيته يمدح بها صديقه فودي المرساسي[3]: [الوافر]

1 أيا سلمى إلام تقاطعيني ** وأيم الله حبّك قد براني

2 وطالت بي ليالي واعترتني ** هموم هيّجت لي ما أعاني

---

[1] – الزواوي، الدكتور خالد:تطور الصورة في الشعر الجاهلي،مؤسسة حورس الدولية،الإسكندرية،مصر،ط2000،1م،ص 182.

[2] – علي، محمد عثمان: في أدب ما قبل الإسلام، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ليبيا، ط 4، 1994م، ص 114.

[3] – أحد علماء فوتاجلون، كان من أخلص أحباء أبناء الشيخ علي بوبديم، وله من الشعر قليل، لم نقف عليه.

3 دعــي هــذا التــدلل تعــف عنّــي ** وإن أزمعــتِ صــرمي وامتهــاني
4 فهل لي مطمع في الوصــل يومــا ** فيصفو الجوّ فــي نيــل الأمانــي[1]

ويستفتح ذو النون الشاعر السنغالي رائيته في مدح الشيخ أحمد بمبا بمقدمة طويلة مـن ثمانية عشر بيتا، جاء في مطلعها هذا البيت : [الكامل]

1 مغنى سعــاد عفته هــوج العِثْيَر ** وسقته واكفــة الغمــام الممــطر[2]

وفي مقدمات الشيخ يحيى النفاخ النيجيري في ديوانه " نيل البغيا " يكثر ذكر "أسماء " بدلا من سلمى وسعاد مثلا، ثم تراه متمسّكا بحب حبيبته الخيالية، حتى ليربط بين حبها وحب الرسول ﷺ ، ثم يحسن التخلص من حب أسماء إلى حب نبيه الكريم ﷺ في مثل قوله : [المتقارب]

19 عليك بها ثم دع ما سواها ** وفيــها حياتــك يا مسلم
20 ألا بالمحبّة تحلو القلوب ** وتخشــع للــه لو تفهــم[3]

وقد لا يذكر البعض أسماء الحبيبة ثم يطيل وصف رحلتها، ويفصل القول في ذكــر أمــاكن مرورها واستراحها، كما نجد في فاتحة لامية الشاعر النيجري المحمود[4] محمد السوقي.[5]

وعند البعض يأتي ذكر كثير من تلك الأسماء في مقدمة واحدة كما في رائيــة الحــاج عمــر كركي الغاني[6] التي يمدح بها أمير المسلمين في كوماسي حسين صلو[7]، حيث ذكر " هنــد، وسليمى، ودعد، وليلى ". وقد تندر هذه الظاهرة عند الشعراء الجاهليين، الذين يكتفون عــادة بذكر اسم واحد في مقدمة القصيدة، وهذا ما التزم به الحاج كركي في بعض قصائده أيضا.[8]

وفي مالي نجد عند بعض الشعراء ظاهرة تعداد أسماء الحبيبات في مقدمة القصيدة، كما فــي دالية طاهر دكري مادحا شيخه محمد المنصور، وفي رائية الشيخ محمد الهاشمي[9]:[الخفيف]

1 أنــستني وتيّمتنــي فتــاة ** ازدرت ازدرت مهــاة المعــاره
2 فرمتني بسهمها وســبتني ** رقّة اللفظ يا لها مــن نــضاره
3 ليت شعري حبّها قد سلونا ** واقتفينــا خليلنــا وازدهــاره
4 قد تلظّى في القلب نار غرام ** وهيــام ولوعــة وحــراره
5 أذهلتني أيامه عــن سعــاد ** وربــاب وميّــة بإشــاره[10]

---

(1) – باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 37.

(2) – مجموعة من الباحثين : كتاب دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم، طوبى، ط 1، 1985م، ص 21.

(3) – النفاخ ، الشيخ يحيى : نيل البغيا، ص 17، وانظر كذلك صفحة 35.

(4) – من الشباب الطوارق الشعراء بصحراء النيجر، له شعر قليل، كان يمدح بهذه اللامية الشيخ عيسى بن علي الكدالي.

(5) – السوقي، المحمود محمد: مدح الرجل الفاضل، قصيدة مخطوطة من 24 بيتا، بمكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(6) – Muhammed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 110

(7) – كان أمير المسلمين في زنغو، فقامت بينه وبين أشانتي أحداث كثيرة تدخل فيها الاستعمار، وذلك في 1919م.

(8) – Ibid, p 114 & 119

(9) – هو ابن الشيخ محمد المنصور أحد شيوخ التجانية بمدينة سيقو، وهو خليفته ومن أتباع إبراهيم انياس السنغالي.

(10) – حيدرا محمد لهاشمي : قصيدة مجيبة للسيد خليل العقل اللبناني، مخطوطة، سيقو، مالي.

وقد حاول البعض تجديد هذه الظاهرة التقليدية في ذكر الأسماء الواردة في الشعر العربي الجاهلي، فراحوا يستبدلون بها أسماء من نساء بيئتهم الاجتماعية، أمثال زينب ومريم، ولا أعرف ورودهما مثلا في مقدمات شعراء العرب،انظر مطلع بائية عبد الرحيم فال[1]:[البسيط]

1 أسرى بقلبك طيف زينب كاعبا ** من بعد ما ولّيت عنها تائبا[2]

وفي مطلع ميمية محمد الأمين كيمورن[3]، أحد علماء غامبيا، يهوى ذكر مريم :[الطويل]

1 تذكّرت دوراً مقفرات لمريما ** غدون كناساً للمهاة ومجثما

2 ومريم كانت تغتدي وتروح في ** رعابيب غنج من رآهن تيّما[4]

وقد تكون هذه الأسماء لزوجات الشعراء أنفسهم، كما هو الحال في ميمية عنترة في ذكر عبلة. وهذا واضح لدى أحد شعراء غامبيا هو الأستاذ سرنج مودو كاه في ذكر زوجته "إشراقة " السودانية، التي تركها في الخرطوم بعد الزواج منها خلال فترة دراسته هناك.[5]

ولم يكونوا مولعين بالبكاء على الأطلال بقدر اهتمامهم بذكر النساء ووصفهن، فأوقفوا صحبهم وتأمّلوا في الأطلال وبكوا فأبكوا، وهذا ما نلمسه في هذه المقدمة : [الكامل]

1 عجْ نحو أجزاع الأحبة من مد ** واشرب من الأمشاج ماء الأجود

2 وافض الدموع على مرابعهم بها ** وانفس الصدور من الغموم الأسود

3 قف عندها سائلا بها فعسى ترد ** سوداء أو بيضاء تشفي من صد

4 وإذا مررت بحرث الحيّ حيّهم ** وانثر فرائد لؤلؤ وزبرجد[6]

جاءت هذه الفاتحة في قصيدة الشيخ هارون الرشيد مادحاً بها شيخه الحاج إبراهيم انياس. هكذا نجد حرص الشعراء على الالتزام بهذه المقدمة الطللية، حتى نرى الشيخ طاهر[7] يفرضها على تلميذه الشيخ عباس صل، إذ ردّ مدحته النبوية لخلوّها من المقدمة الطللية، ولكنه أورد "مقدمة سلبية " فأعرض عن النسيب، ربّما لأنه كان يتوسل لشفاء حليلته : [الوافر]

1 ألا خلّ التغزل والتصابي ** وداو الداء بالقلب المصاب

2 وعد عن المعاهد خاليات ** عن السكان في طلل يباب

3 وغض الطرف عن سلمى وسعدى ** وعن هند وجارتها الرباب[8]

وصار هذا الإعراض عن النسيب ظاهرة عند كثيرين، لأن العلماء يترفّعون عن " التغزل

---

(1) – هو ابن محمد يوسف، وتلميذ محمد الأمين زبير، عالم في جنوب السنغال، وله شعر كثير.

(2) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 444.

(3) – هو ابن إبراهيم خليل (ت 1975م)، من شيوخه: عمه با لامين جايتي، ويحيى سيلا، له شعر قليل. وعلّم علماء كثيرين.

(4) – كيمورن، محمد الأمين: تسلية الفؤاد في مدح خير العباد، مخطوطة بمكتبة محمد بامين سري جايتي، بركاما، غامبيا.

(5) – ينظر: إلى قصيدته الدالية في المدحة النبوية، المخطوطة بمكتبته الخاصة ، بنجول، غامبيا.

(6) – مادغو، هارون الرشيد: هناءة الفيضة الإبراهيمية ، أكرا ، غانا، لا.ط، لا.ت ، ص 2-3.

(7) – هو أحد الشيوخ التجانيين الموريتانيين، وهو الذي أمر الشيخ عباس صل بمدح رسول الله ﷺ، فجرى على لسانه دواوين.

(8) – ينظر : غاي، شيخ تجان : الشيخ عباس صل التجاني حياته وأعماله ، ص 146.

الإيجابي " الذي تبدو فيه جديتهم، وإن أجادوا فيه فسرعان ما ينصرفون عنه لصالح الممدوح الفاضل، وخاصة في مدائح النبي ﷺ والشيوخ الصوفية، كميمية كرامو طلبي الغيني في مدحته النبوية : [الوافر]

1 أيا سلمى فما لكِ في الأيامى ** ملابسهن يصبي بالحليم
2 يملن الجيد في غالي النظام ** كأن رؤوسهن زها الأكام
3 ترائبهنّ ينشقها عقاص ** يسوّر بالمحارم كالسنام
4 ففوتك ما أويت لما ألاقي ** كأنكِ في التغافل كالبعيم
5 أبيت أبيت أن أفشي بحالي ** فما لي بدّ عن قدر الحكيم
6 فدع سلمى ولا تبخع غراما ** لمن يغويك فاقصد ذا الذمام
7 أحبك يا وسيلتنا الكريمة ** عليك صلاة رب مع السلام[1]

وربّما كان هذا الإعراض يجعلهم يخلطون بين ذكر الغواني مع أشياء أخرى في الطبيعة، فيبدو المطلع حينئذ غير محكَم في صوره الشعرية، انظر فاتحة هذه النونية:[البسيط]

1 ألاح لي قمر من نحو طوبانا ** أم أومض البرق تحت الغيم لمعانا
2 أم وجه سلمى بدا من نضو برقعها ** أم أشرقت لي شمس صبحها ازدانا
3 إن كان وجهكِ يا سلمى بدا بزغا ** فطالما يتوارى الوجه أزمانا[2]

ويشير الشيخ أحمد بن المصطفى امبكي[3] (ت 1988م) إلى مدينة "طوبى"، عاصمة الطريقة المريدية في السنغال، وقد حاول أن يجمع في هذه المقدمة بين النسيب الجاهلي ومنهج البوصيري في ذكر البرق. وإذا كان ذلك فرارا من ذكر الغانيات فقد أحسن الشيخ حامد الفوتي [4] التصريح بهذا الإعراض الذي لا يترك شكّاً في دعوته إلى هجر النسيب:[البسيط]

1 عن الغواني وعن ترجيع قيناتي ** نكّبْ وعن ذكر ألحان ورنّات
2 وعن شباب وعن كأس المجون وعن ** ذكر المعاهد حول العائديّات
3 وعن غزال وعن عهد الشباب وعن ** وصل الحبيب وإعمال المطيّات
4 وما لأسماء من ثغر ومن شنب ** ووصلها في الليالي المُدلَهِمات
5 وسلِّ قلبك عن ليلى وهندَ وعن ** سلمى ولبنى وتكليف النجيبات
6 ولا تكن بلوى حُزْوَى أخا طرب ** ولا بذكرة آرام بمومات
7 ولا تكن بربوع الزرق ذا كلف ** ولا بتذكار أزمان الصبابات
9 واثن العنان إلى من طاب محتده ** غوث البرية مصباح الدُجنات[5]

---

[1] – طلبي، كرامو: قدوة المولود ، ص 63.

[2] – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 324/2.

[3] – هو حفيد الشيخ أحمد بامبا وسميه،كان له طموحات عالية في تطوير المريدية، كاتب وشاعر وسياسي في اتجاهه الإصلاحي.

[4] – هو ابن الشيخ عثمان،أحد علماء فوتاطور،وصاحب محضرة كبيرة تخرج فيها على يديه علماء كثيرون. وله ديوان مخطوط.

[5] – مجموعة من الباحثين : دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم، ص 90.

وقد لبّى الشعراء هذه الدعوة المستوحاة إلى نبذ النسيب فصرّح بذلك بعضهم، كهذا الشاعر الشيخ سليمان ميسونا من أقصى شمال بنين : [الكامل]

1 دع وصف سعدى والرباب وزينب ** واصرف عنانك للمديح محمد[1]

ومال الحاج عبد الرحمن باه إلى هذه الدعوة في بعض قصائده : [الرمل]

1 خلّ عن هند وعن دعد وميْ ** والبكا في طلل أو ذكر حيْ

2 وانح نهج البوصري في مدح من ** هو من أولاد كعب ولؤيْ[2]

وكأنه كان يعزّز دعوة أبيه الشيخ علي بوبديم قبله الذي نادى إلى ذلك أكثر من مرة في مطالع قصائده حيث يقول في مطلع خائية ثم في مطلع دالية أخرى : [البسيط]،[الطويل]

1 خل ادكار الطلول العافيات إلى ** مدح النبي تذق أذواق أشياخ[3]

1 دع الخيل والأطلال وامدح محمدا ** وقل فيه خير المرسلين محمد[4]

وتطبيقاً لهذه الدعوات، ورغبة في هجر الالتزام بما لا يغنيهم، راحوا يجدّدون هذه المقدمة التقليدية، أو يضفون عليها ما يقرّبهم إلى واقع حياتهم. فوقف بعضهم على أماكن بيئتهم الواقعية إذا اقتضى المقام لذلك، كوقفة الغامبي بَكِّ كَهْ [5] على الضريح وهو يرثي جدّه :

1 قف بنا قبلة الضريح نناجي ** واهب الفضل للعباد الكرام[6]

وأوقف الأستاذ محمد المختار من نيجيريا[7] إخوانَه على نعي أحد شيوخه ليبكي ويستبكيهم.[8] بل يرون ضرورة البكاء حتى أضحى لفظ " حُقّ البكاء " في مطالع مقدمات مراثيهم، وقد اشتهرت بعض قصائدهم بهذه العبارة،كما يروى عن إرسال القاضي مجخت كَلَ هذا اللفظ إلى تلميذه أحمد بامبا ففهم قصد أستاذه، فدبّج به قصيدة رائعة اشتهرت بـ " حق البكاء":[البسيط]

1 حقّ البكاء على سادات أموات ** تبكي الأراضي عليهم كالسماوات[9]

فقال القاضي علي ساغ على غراره : [البسيط]

1 حقّ البكاء على روح الهدى سُرِبا ** من بالمعارف والأنوار قد شربا[10]

وفي مطلع مرثية أحمد تجان انجاي للشيخ دنب واكي : [البسيط]

1 حقّ البكا لذوي الإسلام للحزن ** إذا فات شيخ شيوخ العصر والزمن[11]

---

[1] – ميسونا، سليمان محمد : عقد ثمين في مدح النبي الأمين ، مخطوط بمكتبته الخاصة، جوغو، بنين، ص 2.

[2] – باه ، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 31.

[3] – بوبديم، الشيخ علي : ديوان شعر، ص 98. [4] – **المصدر نفسه، ص 132.**

[5] – هو ابن محمد بن معاذ كاه، يعد جده هذا أبرز علماء غامبيا، الذي أسس مدينة "معاذ كاه " فجعلها منارة للطلبة.

[6] – كه، بَكّ : الشيخ رثاء معاذ كاه، مخطوطة عند سرنج مودو كاه، من 58 بيتا، بنجول، غامبيا.

[7] – هو ابن محمد جبيا،أحد المعاصرين من علماء مدينة غسو، اشتهر بلقب"بطن برا "،كان تلميذا للشيخ أبي بكر نيابو رغر مالم.

[8] – ينظر : ثاني، عبد القادر: فن الرثاء عند علماء غسو من سنة 1967–1997م،جامعة باير،كنو، نيجيريا،1998م ص 174.

[9] – صمب،عامر: الأدب العربي السنغالي، ص 63/2. وامبكي، محمد البشير: منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم، ص172

[10] – ساغ، القاضي علي بن عمر: فقيد الإسلام الحاج سربا قَسَمَ ، مخطوطة، سيريكوندا، غامبيا.

[11] – ديارا، سيدي : شخصية المرحوم دنب واكي وآثاره ، ص 21.

وعلى هذا المنطق أوقف حبيب عبد الله كانْ على منازل الخليج في رائيته عن حرب الخليج الأولى. وقد دبّت روح التجديد في النيجري محمد عثمان فوقف على البحر :[البسيط]

1 حدث عن البحر لا فخر ولا حرجا ** واشرب بحافته إياك واللججا

2 وانظم لئالئه فـي سلـك مدحتـه ** وانثر مآثره واستنشق الأرجا (1)

وكأنهم انقادوا لطلب الحاج المختار الكبير الغيني من شعراء الأطلالِ نبذ التقليد : [الطويل]

5 أرى شعراء الحين من سوء حظّهم ** من الشعر يختـارون ذكـر المعاقـل

7 يتيهون في ليلى وربـات دورهـم ** حلائل من سـود الكعـوب العواطـل

11 فما الشعر إلا ذكر ما أنـت أهلـه ** وإلا فشعـرور لـدى كـل عاقـل(2)

ب. <u>المقدمات الانفعالية :</u>

أقصد بهذا النوع من المقدمة تلك لوعات الشوق والحزن التي تتصدر بعض القصائد، دون أن يكون لها أدنى علاقة بالمقدمة الطللية ، وإن كنتُ أرى مصدرها منها، لأن ذكريات الأطلال تُحْدِث في القلوب لوعات الحب والحزن ، فربّما استعاروا هذه اللوعات لأشياء أخرى، فصدّروا بها قصائدهم.

ومن جهة أخرى تعد هذه الظاهرة خروجاً على صفة الأطلال، التي لا يجدون لها ضرورة في مغزاها المعنوي والفنّي، كما كان يراها أبو نواس والمتنبي في شعرهما، وقد قال أولهما : ***دع الأطلال تسفيها الجنوب ** وتبلى عهد جدّتها الخطوب***(3)

وقد أكثر الشيخ محمد الخليفة انياس ذكر لوعات الشوق، واستقاها من البكاء على الأطلال،إلا في مثل قوله حيث جمع بين الشوق والطرب، وبين البرق وغناء الحمام:[الطويل]

1 لمقلتـه دمـعٌ علـى الخـدّ يُسـكَب ** وللقلب شوق في الجوانح يلهب

2 مدى الدهر ما لاحت بروق على الحمى ** وغنّى حمام في الأفانين مطرب(4)

ولأخيه الشيخ إبراهيم انياس أسلوب متفنّن في ذكر لوعات الشوق والحب في أكثر قصائد دواوينه، انظر إلى هذه الأبيات المختلفة في مطالع قصائده :

1 برى القلبَ حبُ الهاشمـي محمد ** تخوّف نومـي بالغرام المسهّد(5)

1 لقلبي من الأشواق ما حيّر الفكرا ** وأفنيت فيه السجع والنظم والنثرا(6)

1 ظعنتُ وحبّ الهاشمـي أحافـظ ** إلى الحضرة العليا وربّـي حافظ(7)

1 ملا القلبُ حبُّ الهاشمـي فلم أنم ** بباريس حولي الراقدون ولم أُلَمْ(8)

---

(1) – السخو، عيسى علي: الحياة الأدبية في قبيلة كدالة، كلية اللغة العربية ، الجامعة الإسلامية بالنيجر، 2000م، ص 27.

(2) – جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني، ص 28–29.

(3) – ينظر : حمدان ، محمد صايل : قضايا النقد الحديث، دار الأمل، أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1991م، ص 22.

(4) – انياس، الشيخ محمد الخليفة : خاتمة الدرر على عقود الجوهر، ص 89.

(5) – انياس، الشيخ إبراهيم : الدواوين الست، ص 44.

(6) – **ا لمصدر نفسه ، ص86.**

(7) – المصدر نفسه ، ص 164.

(8) – **المصدر نفسه، ص 199.**

ولا غرو أن نعثر على هذه المعاني عند الشاعر الغامبي محمد غوث فاس جابي في قوله:

2 ساقنا الشوق نحو رحب فناكم ** إذ جميع الكمال فيك تناهى (1)

لذا نرى الشيخ يعقوب دوكوري يصدّر قصيدتيه "زرنا القرية " و " زرنا المدينة" في بستانه بهذه المقدّمة الشوقية نحو القرى والمدائن.(2) وقد يرد نادرا في شعر أدباء نيجيريا، ولكن توارد الخواطر تجعل أحدهم يبتكر العشق والشوق للنفس في هذا المطلع :[الكامل]

1 النفس تعشق جنسها المألوفا ** والقلب كان بحبّه مشغوفا (3)

وبهذا العشق الشوقي يطرب القلب وترقص المشاعر، فتغني لها طيور التفاؤل، وهذا ما افتتح به مهدي معاذ من النيجر بائيته في مدح أهل "جرمة " الأثرية بليبيا : [الطويل]

1 حمامة صحراء بجرمة فاطربي ** وطيري سرورا في أمان ومطرب

2 فإنّك فِي قوم تكاثر خيرهم ** وأخلاقهم كالشهد والمسك أطيب (4)

هكذا تصبح الحمامة رمز الشوق والطرب والفأل لكثير من الشعراء، الذين يلتزمون بمثل هذه المقدمات الشوقية،كنواح الحمامات التي تهيج المشاعر في مطلع ميمية عمرو ساغو المالي.(5)

وقد سبق أن أشرتُ إلى مقدمة المرحوم عمر ساخو في لاميته الوعظية حيث يربط بين أوتار كبار المغنّين الغينيّين وأغاريد العصافير المطربة.(6)

وتكثر أنواع الطيور بأسمائها، كتنويعهم ذكرَ أسماء النساء، وكلها مطربة، كما في مطلع الحاج يونس كه(7) من رائية ينصح بها إخوانه : [الطويل]

1 أيطربك القمريّ فوق النواضر ** تساعفه ليلا شمال الدياجر

2 وقد هدأ الليل البليل الذي به ** يلوح لنا ضوء النجوم الزواجر

3 تميل به ميلان بانة شمأل ** لذكراك ربات الحجال الغرائر(8)

إن في هذه الأشواق القلبية شفاء للأدواء النفسية كما يراها أحد شعراء "البنينيات"(9). وهذا ما يدلّ على لوعات الحزن التي يعاني منها بعض الشعراء فيصدّرون قصائد بإبرازها، متشائمين من أغاريد الطيور التي تقلقهم بدلا من أن تُسليَهم؛ فتتحول ألحانها إلى صيحات

---

(1) – جابي، الشيخ محمد السنوسي غوث فاس : ديوان شعر، مخطوط بمكتبته الخاصة، سريكوندا، غامبيا، ص 67.

(2) – ينظر : دوكوري، الشيخ يعقوب : البستان ، ص 59 – 60.

(3) – الإلوري، عبد الواحد جبريل سليمان الفلاني الأدبي : لولا رسوخ العزم في طلب العلا، مخطوط، إلورن، نيجيريا.

(4) – معاذ، مهدي الحاج : قصيدة في جرمة ، مخطوطة ، نيامي ، النيجر.

(5) – ينظر: ساغو، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط، ص 60.

(6) – ينظر إلى صفحة 151 من هذا المبحث.

(7) – هو ابن محمد بن معاذ كه،أحد العلماء النجباء والشيوخ التجانيين في غامبيا، ورث عن جده هذه المكانة الاجتماعية المرموقة.

(8) – فودي، الشيخ الحاج محمد : نصيحة الإخوان فيما تحصل به مرضاة الرحمان، لا.ط، لا.ت، ص 71.

(9) – ينظر: نخبة من شعرا ء نيجيريا الشباب : البنينيات، ص 29.

تثير الشجون، كمطلع قصيدة " أنا الغريب " للشاعر الغامبي محمد الإمام سامبو غساما.[1] وكما في مطلع إحدى قصائد حبيب عبد الله كانْ المالي في بردته.[2]

ولم يقتصر التعبير عن الأحزان على طنطنة الطيور، بل قد تشاركه أصوات الحيوانات الأخرى، كنواح الكلب وغيره، وهذا ما افتتح به محمد جرى إحدى مرثياته : [الطويل]

1 عوى الكلب أم ناحت حمائم أيكة ** أم البرق يمحو الشمس من عين مقلتي[3]

وقد تأتي هذه اللوعات القلقة خالية من أي ارتباط بالطيور، ومن هنا نشاهد استقلالا عن كل ما يتعلق بالمقدمة الطللية، ولا شكّ أن في ذلك تجديدا عند هؤلاء الذين يتّجهون نحو أسلوب جديد من مطالع القصائد، وهذا ما نلمسه في مقدمة هذه المدحة النبوية المسماة بـ " بغية المستهام في مدح خير الأنام " من الشاعر الغامبي محمد غوث فاس جابي: [الطويل]

1 لعلّي بعد اليأس أظفر بالرجا ** فقد آن صبح القرب أن يتبلّجا
2 أبيت وتبريني الكآبة والأسى ** وأضحى وترميني البلابل في رجا
3 إذا يئست نفسي يقول لها الرجا ** فكم بعد يأس فاز راجٍ بما رجا[4]

وإن قلّ مثل هذا النوع في المدائح النبوية فإنه يكثر لدى الشعراء في قصائد الحنين ، تمثّله قصيدة " المغترب " عند الشاعر الغامبي امبايْ كاهْ،[5] وفي شعر الوداع تمثله قصيدة " الوداعية " عند الشاعر النيجري علي تاسع إذ يقول : [المتقارب]

1 صحوتُ ولي دمعة جارية ** بخدّي من مقلة باكيةْ
2 جلست أكفكف سيل الدموع ** أتتْني بمأساتها الداميةْ
3 وذلك من سوء حال دهاني ** فأضحت قواي له واهيةْ[6]

ولكنه في مرثيات الشعراء أكثر وأوفر، فاقرأ مثلا مطلع حائية المرحوم محمد الأمين عاجْ لترى كيف يتعذب بالسهاد من ألم فراق عمّه.[7] قبل أن تقف على مطلع رائية الوزير جنيد في تفنّن تعبيره عن أحزانه وشجونه في فقد الشيخ أبي بكر بوبي : [الطويل]

1 أثارت هموم القلب بعد هدوها ** مصائب كادت أن تحلّ عرى الصبر
2 نعم هُدّ ركن الصبر إذ عظم البلا ** وضاقت صدور الخلق من شدّة الذعر
3 وطارت عقول عن صدور كأنها ** طيور أطارتها الصقور عن الوكر
4 وسالت دموع عن عيون كأنها ** إلى النحر ميزاب يصبّ على النهر

---

[1] – ينظر : غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 8.
[2] – ينظر : كانْ، حبيب عبد الله : الوردة على نهج البردة، ص 34.
[3] – جرى ، محمد شفيع : ترثية الحاج حاميد سدبي، مخطوطة عند الشاعر ، مدينة موبْتي، مالي.
[4] – جابي، الشيخ محمد السنوسي غوث فاس : ديوان شعر، مخطوط، ص 72.
[5] – ينظر: كاه، امباي بن كيبا : ديوان شعر، مخطوط عند الشاعر، سريكوندا، غامبيا، ص 12.
[6] – تاسع، علي : الوداعية ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.
[7] – ينظر: عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، ص 14.

5 وذابت قلوب من لظى الهم والأسى ** كما ذاب من جمر اللظى قطعة التبر
6 وأظلمت الآفاق واشتد خوفنا ** وضاقت علينا الأرض في البر والبحر
7 وعزّ اصطبار واستمرت وساوس ** وليس يفيد الصبر والقلب في الجمر
8 ولا بدّ أن تعشو العيون تحيّرا ** لقد غربت شمس الفضائل بالسحر
9 ولا بدّ أن تسودّ أقطار أفقنا ** لقد غاب بدر الأفق يا ظلمة القطر
10 ولا بدّ أن تزورّ خوفاً قلوبنا ** لقد هدّ ركن الحصن يا خيفة الضير [1]

وعند دراستنا للأغراض الشعرية سنقف على نماذج كثيرة من هذا النوع، والذي بجانبه وصل الشعراء إلى ما يمكن أن نطلق عليه بـ " المقدمات الزهدية "، وسنكتفي بإيراد قليل من نماذجها، لأن لنا وقفة طويلة معها في تناولنا غرض الرثاء في الباب الرابع الآتي.

انظر إلى هذه الأبيات الفاتحة للقصائد التي تأخذ الموت كأنه رمز أساسي إلى الزهد من مختلف الشعراء في بحور متباينة :

1 فحوض الموت أمره أي أمر ** وزيد في وروده مثل عمر [2]
1 المرء ينتخب الثمين لنفسه ** كالموت يختار النفيس ويحصل [3]
1 صفات المنايا وصفها في المعاجم ** شتات وأحزان وهدم المعاقم [4]
1 يا من يشمت عند موت عدوّه ** هل أنت تخلد يا غبي بزعمه ؟! [5]
1 الحتف ثوب وكل الناس لابسه ** إن طال مدّته حتماً يردّيه [6]

وإذا كان في هذه المطالع ميل إلى العزاء فإنها دعوة إلى الزهد في الدنيا، وقد يصرّح بعض الشعراء هذه الدعوة في توسلاتهم ومراثيهم، وإن قلّ ذلك في أغراض أخرى، وإليك هذه الفواتح للقصائد المختلفة :

1 لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ** تأمّل ترى أيّامها كضيافة [7]
1 إن الحياة أصاحبي لبلاء ** يأتي إليها المرء ثمّ يبيد [8]
1 ما هذه الدنيا بما فيها سوى ** يوم عبوس قمطرير فان [9]

وتجرّنا هذه الزهديات في مطالع القصائد إلى الحديث عن ميل الشعراء إلى المقدمات الدينية.

---

(1) – جنيد، الوزير : ديوان شعر، مخطوط بمكتبة نجله أ.د سمبو ولي جنيد، صكتو، نيجيريا، ص 15–16.
(2) – الأمين ، التجاني بن محمد : رثاء باب وانكر بن سرمي ، مكتبة أحمد بابا في تنبكت، تحت رقم : 5325.
(3) – ولالي، محمد : رثاء الشيخ أبي بكر تيام، مخطوطة ، سيقو، مالي.
(4) – غانامي، ساليفو : مرثية الحاج آدم عبد الحميد ، مخطوطة ، بوبو جولاسو، بوركينافاسو.
(5) – تيجاني،فضل كهندي: دراسة نقدية للشعر العربي لأحمد البوصيري،الماجستير،كلية الآداب،جامعة إلورن،نيجيريا،ص79.
(6) – نخبة من الشعراء، عبد السلام بللو : البنينيات، ص 18.
(7) – سي، الحاج عبد العزيز الخليفة : مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني، ص 579/1.
(8) – أسليجو، عبد الرفيع : محمود محمود بكل فعاله، دار Al-Mudeef، لا.ط، لا.ت، ص 3.
(9) – باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 54.

ج. *المقدمات الدعائية :*

أعني بهذه المقدمة تلك المطالع التي تتحلى بصبغة دينية، لافتتاحها بالبسملة أو بجميع الألفاظ التي تدل على تعظيم الله تعالى وتمجيده وتسبيحه، ثم الصلاة على النبيﷺ...الخ، ولكن للبسملة نصيب أوفر، انظر إلى هذه المطالع من مختلف قصائد الشعراء :

1 بدأت قوليَ باسـم الله ذي الطـول ** ثنّيتـه حمـدَه لنعمـه الحفِـل
2 ثلّثتـه للحبيـب بالـصلاة كمـا ** أتي بها الأمر من حكيمٍ فـي الأزل [1]

1 ببسم الله ربـي الجلال ** أقدم ما نطقت على التوال [2]

1 بإسم الله بدئي للرثاء ** لشيخ شيوخنا بدر التمام [3]

1 ببسملة ابتدائي بالدوام ** وصلعمة على خير الإمام [4]

وانظر إلى غير البسملة من فواتح التسبيح والتحميد في مطالع قصائد مختلف شعراء المنطقة :

1 سبحان من خلـق الخليـق بمـاء ** حيوانـه وجمـاده بـسواء [5]

1 الحمد لله بلا انتهـاء ** مدير أفلاك على الرخاء
2 ثم صلاة الله والسلام ** عمّهـما البقـاء والدوام [6]

1 فتبـارك الخـلّاق ذو الآلاء ** رب البريـة موهـب النعـماء [7]

ويمكن أن ندرج تحت هذه المقدمة الدعائية تلك القصائد التي تتصدر بتبليغ سلام الله على الناس، بما فيها أنواع التحيات كما في هذه الأبيات الآتية من قصائد متباينة :

1 سـلام مـن الله العزيـز علـيكم ** سلام على أهل العلـي والمكـارم [8]

1 على الشيخ ديم مني سلام مزعفـر ** يطير بـه للبيـد المـسكُ الأزفـرُ [9]

1 حمامة وادي الأيك بـالله اسـجعي ** سلام على حبّي (عمر با) فرجّعـي [9]

1 سلام كريح المسك بل فاقه نـشرا ** أو الروض إذ زادت به مزنُه زهـرا [10]

1 أيا صاحبي إمّـا وصـلتَ المدينـةَ ** فبلّغ إلـى خـير البـرايا تحيّـتي
2 ضجيـعا رسـول الله بلّغ إليـهما ** سلامي وقد فازا بأفضل عصمـة [11]

---

(1) – طلبي، كرامو : قدوة المولود ، 40. من بحر البسيط

(2) – إبراهيم، ناصر مرتضى:المدائح النبوية عند بعض علماء زاريا،الماجستير،كلية الآداب،جامعة بايرو،نيجيريا،2000م ص 54

(3) – دوكوري، الشيخ يعقوب : ترثية الشيخ عمر كنْ إمام مدينة كاي، مخطوطة، سيكاسو، مالي. من بحر الوافر.

(4) – ساغو، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، ص 53. من بحر الوافر.

(5) – عبد الرزاق، علي أبو لاجي: داء الأفارقة ، مخطوطة، إبادن، نيجيريا. من بحر الكامل.

(6) – جالو، أبو مروان بكر بن عثمان : قنطرة الحساب، مخطوطة ، لابي، غينيا. من بحر الرجز.

(7) – Muhammed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 117

(8) – كاكاكي، أحمد إبراهيم : الوسام الذهبي للمنتخب النيجيري، مخطوطة ، إلورن ، نيجيريا.

(9) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 443.

(10) – نخبة من الباحثين " الحاج أحمد انجاي مابيي" : دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم، ص 89.

(11) – جرا، محمد الشفيع : إلى المدينة ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، موبتي، مالي.

د. ***المقدمات الفخرية :***

في صدارة معلقة عنترة :

هل غادر الشعراء من متردّم ** أم هل عرفت الدار بعد توهّم

لا شك أن هذا المطلع من نوادر مقدمات الشعر العربي في عصره الجاهلي، بل في ما يلي ذلك من العصور الأدبية، ولكن شعراء المنطقة فهموا منه ما ينطوي عليه من فخر على " الطريقة العنترية "، وتأثروا به أيّما تأثر، وخاصّة عند هذا الشاعر النيجيري عبد الرافع شيث[1] وهو يهنّئ الدكتور زكريا حسين لترقيته إلى الرتبة الأستاذية : [الكامل]

1 الشعر أغلى ما يكون لدى الفتى ** والعيب أن يعطى لكل مذمّم

2 سيظلّ يُمْسكني وأمسك فمّه ** حتى أنال به كريم معلم

3 وهناك أطلق بالعنان سراحه ** وهناك يعذرني لمدح مكرّم

4 وإليك جئت حسين مهنّئا ** أصبحت أستاذا بفضل الأعلم[2]

لقد عوّل بعضهم على روح التواضع من ظاهر أسلوب عنترة، فتظاهروا بالتواضع مفتخرين بشعرهم، وإليك نسوق جملة من هذه المطالع : أولا من مطلع ميمية عيسى أبو بكر ألبي، الشاعر الكبير في بلاد اليوربا، وهو يرثي الشيخ يحيى مرتضى[3] : [الكامل]

1 ماذا يضيف إلى العقول كلامي ** دفن الكلام فكسّروا أقلامي

2 ماذا أطيق من البيان فقد هوى ** ركن البيان ومطعم الأفهام

3 يا أرض أنتِ جريئة وأهيمة ** تطوين فيك مزيِّن الأعلام[4]

وللشاعر نفسه رائية مصدّرة في رثاء الشيخ أحمد البدوي[5] بأسلوب شبيه بهذا المطلع. واقرأ مثل هذا الأسلوب في مطلع قصيدة " أعط زمام الأمر للخبراء " لعثمان الكنكاوي ، الذي يرى أن الشعر صعب المنال، ثم يأتي بما يدل على براعته وعلى طبعه الشعري.

وبمنطق توارد الخواطر نجد الشعراء السنغاليين يثيرون المعاني نفسها في مطالع قصائدهم، ولكنهم أقرب إلى تصوير واقعهم، حيث قلّ الشعر واستخفّ الناسُ بالأدباء، وهذا الشعور يتصدّر ميمية الحاج بَكِّ بُصُ[6] في مدح شيخه أحمد بامبا : [الطويل]

1 أراك تعاطي الشعر والقلب هائم ** على زمن فيه الفصاح بهائم

2 على زمن فيه البلاغة آفة ** وأكسد سوقا مخجل الدرّ ناظم

---

(1) – من شعراء نيجيريا الحديثة، ورئيس قسم اللغة العربية بكلية اللغة العربية الحكومة، وإمام جامع الشيخ تاج الأدب بإلورن.

(2) – الثقافي، عثمان عبد السلام محمد : الوزيريات ، ص 21. وكسر الوزن ملحوظ في صدر البيت الأخير.

(3) – أحد كبار العلماء في إلورن حيث كان مديرا لمركز التعليم العربي، توفي في ذي الحجة 1415هـ/11-05-1995م.

(4) – ألبي، عيسى : دفن الكلام، قصيدة مخطوطة من 21 بيتا، إلورن ، نيجيريا.

(5) – كان هذا الشيخ إماما لجامع غنبرى في مدينة إلورن، يعد من العلماء الكبار في عصره، توفي 11 / 08 / 2002م.

(6) – هو محمد البصو بيْ هو من شعراء المريدية في السنغال، وله ديوان مخطوط.

3 فـلا شـاعر تُلفـى لـه أريحيـة ** ولا بـاذلٌ ترجـى لديـه المكـارم
4 فـأوفر حظّـاً جاهـل وأخـسّهم ** لدى الناس قدراً في المحافـل عـالم
8 ووا أسفى للشعر غـارت نجومـه ** ولم يبق عـرف للبداهـة ناسـم[1]

وربّما هذا ما جعل مواطنه الشاب الشاعر يفتخر بأسلوب التحيّر في كونه شاعراً، وهو لامين ديانغ أحد المجدّدين للشعر العربي الإفريقي في السنغال : [الطويل]

1 يقول ضميري لي هل أنت شاعر ** كما قال " ميغا " أم من النظم شاغر[2]

وقد استفاق بعض الشباب الشعراء من وهم التواضع وسبات الحيرة، فافتتحوا قصائدهم بمفاخر قريحتهم ، معجبين بفروسيتهم الشعرية، والشاعر النيجيري علي أبو لاجي يمثّلهم : [الكامل]

1 بحـر القـريض لـديّ لا يتفجّـر ** إلا بعاصـفة تمـوّج فيزخـر
2 وكـذا البـراعم لا تفتّـق زهرهـا ** إن لـم تنـل غيثـا يجـود فيفغـر
3 سبحان من وهب القريض لـشاعر ** متـألّق فـي جـوّ عـزّ يبهـر
4 أبخل بـه مـن شاعـر بقريضـه ** عند السفاسـف لا تـراه يصـفّر[3]

ولكي تدرك مدى تطلع شباب شعراء نيجيريا إلى مثل هذا التجديد فعليـك أن تقـف متأمّلا في الأبيات الفاتحة لقصيدة علي عبد القادر يهنئ أستاذه عبد الباقي شعيب أغاكا بترقيته إلى الرتبة الأستاذية، مطالبا إطلاق عنان شعره لينثر على ممدوحه درر الفضائل : [الطويل]

1 دعوا الشعر يهتف بالمـآثر عاليـا ** دعـوه يغنّـي بالمقـادير سـاريا
2 دعـوه يقـرّ عالمـا ويـوقّر ** دعـوه يـشيد بالمحاسـن شـاديا
3 دعـوه إذا عـدّ الكـرام مشخّـصا ** خبيـرا عـدولا ينتقـيهم توازيـا
4 أبى الشعـر إلا أن يلـين مقـوليا ** ليفصح عن آثار شيخـي موافـيا[4]

لا شك أنّ هذا خروجٌ على المقدمة الطللية، التي لم يعد المرء يشعر بمكانتهـا لـدى هؤلاء الشعراء الشباب، على خلاف الشيوخ العلماء ومن ظلّ يقتفي آثارَهم في إحيـاء هـذه المقدمة التقليدية. ومن شعر بهذا التيار الجديد فإنه يحاول أن يجمع بين الفخر بشعره والغزل، كأنه ينسج خيوطا بين القدماء والمحدثين، وهذا في مطلع هذه البائية في مدح النبيﷺ:[الطويل]

1 هلمّـوا إلى إصغاء شعر مهذّب ** جميل كعقد الدرّ في جيد زينب
2 مصوغ على أمداح أفضل مرسل ** محمد خـير العالمين المهذّب[5]

---

[1] – نخبة من الباحثين : دواوين الشعراء السنغاليين، ص 3 – 4.
[2] – ديانغ، لامين : ديوان الشباب ، ص 5. يبدو لي كسر في صدر هذا البيت.
[3] – عبد الرزاق، علي أبولاجي : بحر القريض، قصيدة مخطوطة من 30 بيتا، إبادن ، نيجيريا.
[4] – العسلي، علي عبد القادر : أستاذية أغاكا، قصيدة مخطوطة من 19 بيتا، إلورن، نيجيريا.
[5] – جايتي، بامين محمد سري : هدية الفقير الأثيم بين يدي نجوى الرسول الكريم، مخطوطة من 43 بيتا، بركاما، غامبيا.

هـ. مقدّمات متنوّعة :

في فواتح القصائد تأتي أنواع أخرى متباينة، التزم بها الشعراء وإن لم تكن ذات كثـرة بقدر المقدمات السابقة ، ولكنها تدل على أن هناك التزاما عند جل شعراء المقدمة.

وأولاها " المقدمة التعريفية ":التي تتصدّر للمنظومات التعليمية، فيعرّف الناظم بشخصه وبمذهبه الفقهي والعقدي وطريقته الصوفية، وبموضوع نظمه وعنوانه، والهدف الذي يرمـي إليه في هذا النظم التعليمي. وعهد شعراء المنطقة بهذه السنة لدى ابن مالك نـاظم الألفيـة، وغيره من الناظمين العرب، الذين اعتُمِدَتْ منظوماتُهم في مناهج المراكز العلمية بالمنطقة.

وهذه ظاهرة ملحوظة لدى الشيوخ العلماء، وعليه أسوق هذه الأبيات اسـتدلالا علـى صحّة دعواي :

1 يقــول أحمــد البكــيّ المرتجــي ** من ربّه عفــوا وفــتح المرتجــي[1]

1 قال ابــن عثمــان الفقيــر الحــاج ** يقــضي لــه مــن الإلــه الحــاج [2]

1 يقول نجل " مــايرى " الــسوداني ** المغربـــي المـــالكي التجـــاني [3]

1 قــال ابــن إســماعيل ذا محمــد ** حفظـــه رب الأنـــام الـــصمد [4]

1 يقــــول أفقــــر الــــورى لله ** ابــن محمــد علــي اللاهـــي[5]

1 قال محمد الأمين المشتهر ** ببامن الراجي برحمى المقتدر

2 ابن المربي شيخنا محمد ** سرى الشهير باتووكبا الندى[6]

وإن كثرت هذه المقدمة في فواتح المنظومات العلمية فإنها تأتي قليلا في صدارة بعض الدواوين النبوية ، كما نلاحظ ذلك في مطلع " بحر الأنوار " للشيخ ألفا محمود كابا الغيني.[7]

وثانيتها " المقدمة الخمرية " : وإن أخفق أبو نواس أمام الشعراء فـي ثورتـه علـى المقدمة الطللية ، ودعوته إلى المقدمة الخمرية بقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم ** واجعل صفاتك لابنة الكرم[8]

فإن شعراء التصوف انقادوا لهذه الدعوة لفظاً لا معنى، واستعاروا السكر لأحوال الفناء، ونشوتها للجذب. وهذا ما يفسر علة التزام بعض الشيوخ الصوفية بها في صدارة قـصائدهم الصوفية. وإن لم يكن هذا الالتزام شائعاً فإن اهتمامهم بالخمريات الصوفية يؤكّد ضرورة

---

(1) – بامبا، الشيخ أحمد الخديم السنغالي : ملين الصدور أو مذكر القبور، ص 2.

(2) – سي، الحاج مالك بن عثمان : نظم الحزب اليماني وغاية الأماني في ديوان شعر، ص 2.

(3) – صل، الشيخ عباس بن مايرو السنغالي : كفاية الطلاب، ص 1.

(4) – كوليبالي، محمد بن إسماعيل : عقد الفرائض، مخطوط من 47 بيتا، فانا، مالي.

(5) – بوبديم، الشيخ علي بن محمد الغيني : سلاح حزب الله على نحور أعداء الله في ديوان شعر، ص 195.

(6) – جايتي، بامين محمد سري : معوان الطلاب في معرفة دين الله الوهاب، مخطوط، بركاما، غامبيا، ص 6.

(7) – ينظر : الكبوي، الشيخ أفا محمود : بحر الأنوار، ص 5.

(8) – ينظر : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 159.

وجود غرض " الخمريات " في الشعر العربي الإفريقي الذي سنتناوله في الباب الرابع لاحقا. انظر كيف تأتي هذه الخمرية في الهمزية النبوية من قريحة الخليفة عبد العزيز سي:[الخفيف]

1 يا عذولي فما لهندٍ نصيب ** في فؤادي دعني ولا ميلاء

2 إن حبي لمثلهن حرام ** فأرحني حالي غير خفاء

3 قد سقاني كأس المحبة ربي ** من فيوضات خاتم الأولياء[1]

واقرأ مثلها في مقدمة إحدى بائيات عبد العزيز سار السنغالي في المدائح النبوية، ومثلها في مقدمة رائية محمد أحمد عبد الرزاق في مدح شيخه أبي بن هاشم خليفة التجانيين في النيجر.

ولكن بعض الشعراء الشباب ضمّنوا معاني أخرى لهذه " المقدمة الخمرية " لا صلة لها بالروح الصوفية، إذ لم يسكرهم حب إلهي ولا نبوي، بل شيء آخر، كسكر علي سيدبي المالي بتقنيات اللاعبين المنتخبين، لذا افتتح قصيدته المسماة "مالي مدرسة الكرة " بهذا:[غير موزون]

سكرت ما بالخمر والله أسكر ** لكن من سحر أقدام اللاعبين[2]

و. <u>مقدمات عارية :</u>

ربّما ليس من الضرورة عقد هذا العنوان لأن القصائد الخالية من المقدمات غير مقصودة هنا في هذا المبحث. ولكن الذي يبرّره أن نقف على مدى خروج الشعراء على ظاهرة تصدير القصائد بالمقدمات ، إذ طالما نادى النقّاد إلى نفي أهميتها وعدم ضرورتها، بعد فشل محاولات كثيرة في تفسير تلك المقدمات.

وأكثر الشعراء الذين لم يلتزموا في تصدير قصائدهم بأي نوع من أنواع المقدمات هم من الشباب المحدثين، الذين تمتاز أشعارهم بتصوير واقع حياتهم أكثر من اهتمامهم بالمدائح النبوية، بخلاف الشيوخ الصوفية الذين التزموا بشيء من تلك المقدمات السابق ذكرها.

ومن هؤلاء الشباب في السنغال نذكر من الدواوين : " من وحي المجتمع " في 45 قصيدة للمرحوم محمد الأمين عاجْ ، و " من وحي الواقع " في 83 قصيدة لشيخ تجان غاي، و" ديوان الشباب " في 33 قصيدة للامين ديانغ، وفي ديوان سرين امبكي عبد الرحمن في 85 قصيدة.

وقد مهّد بعض الشيوخ السنغاليين لهؤلاء الشباب درب هذا الاتجاه : أمثال الشيخ أحمد التجاني سِهْ في ديوانه من 38 قصيدة، وأحمد جي في ديوانه من 121 قصيدة مرتبة قوافيها على حروف المعجم.

ولولا الإطالة لسقتُ نماذج كثيرة لكل شاعر، ولكن أكتفي بمطلع لكل منهم كي نقف

---

(1) – سي، الحاج عبد العزيز : مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني ، ص 335/1.

(2) – سيدبي ، علي : مالي مدرسة الكرة ، قصيدة مخطوطة من 26 بيتا، بماكو، مالي.

على تنوّعات المقدمات العارية في الشعر العربي السنغالي :

1 ***لا يستوي راحل يوما ومــن قعــدا ** فالماء بالجري يصفو لا إذا ركــدا***[1]

1 ***عزلتــــك بـــاريس اعتـــزل ** ســـلّم مهامـــك وارتحـــل***[2]

1 ***إذا قـــام البنـــاء فبالعمـــاد ** فـــلا مبنـــى يقـــوم بـــلا عمـــاد***[3]

1 ***هو الذكر دســتور وميثـــاق ديننـــا ** ولا نرتضي حكما سوى حكمه بنـــا***[4]

1 ***أيا خير من نادى بإذن أبـــي بكـــر ** وإذن حماة الضيم فالسادة الغـــرّ***[5]

1 ***كان ذا الكون فـــي ظـــلام العقيـــدهْ غارقاً، والنفوس أضـــحت عنيـــدهْ***[6]

ومن الشعراء الآخرين : ديوان محمد الأمين جابي الغيني فـي 37 قـصيدة، وديـوان " بنات القريحة " في 17 قصيد لمحمد الإمام سامبو غساما الغامبي، وفي ديوان علي تاسـع النيجري في 21 قصيدة، وديوان زكريا الرباني النيجري في 29 قصيدة، وشعر أبي جعفـر جباتي المالي في 11 قصيدة، وشعر محمد الشفيع جرا المالي في 33 قصيدة، وشـعر أبـي رضوان مدني تيام المالي في 26 قصيدة، وشعر أحمد حيدر المالي في 18 قصيدة ، وشـعر الشيخ محمد بشير جاو المالي في 34 قصيدة، وشعر الشيخ محمود سانوغو البوركيني، وشعر غانامي ساليفو البوركيني، وفي شعر سليمان محمد آل هارون البنيني.

وبناء على ذلك نقتطف من شعرهم بيتاً في مقدمات بعض قصائدهم المتباينة في أغراضها :

1 ***دع القول واعمل واترك الناس يعملوا ** فمـــا انقـــادت الأيّـــام إلا لعامـــل***[7]

1 ***ســـكن الفـــؤاد بـــشارة ورخـــاء ** والعيش عيـــشي غبطـــة وهنـــاء***[8]

1 ***هـــاج قلبـــي ذا الـــشجن ** جـــاء مـــن أهـــل الـــزمن***[9]

1 ***الحـــق يحمـــي عـــزّة الإحـــسان ** ويزيـــده نـــصراً علـــى العـــدوان***[10]

1 ***ســـراج مـــستنير قـــل غريـــب ** بَكـــاي كُنْتَـــا للأوليـــاء ربيـــب***[11]

1 ***ألا كـــيف الوصـــول إلـــى المـــرام ** وقـــد ســـدّوا الســـبيل إلى الكرام***[12]

---

(1) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، (مطلع قصيدة : إلى تونس الخضراء) ، ص 11.

(2) – غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، (مطلع قصيدة : عزل) ، ص 63.

(3) – ديانغ، لامين : ديوان الشباب ، (مطلع قصيدة : حنانية الأمين) ، ص 38.

(4) – عبد الرحمن، سرين امبكي : مطلع قصيدة "الدستور" ، مخطوطة ، طوبى ، السنغال.

(5) – سه ، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، (مطلع قصيدة رثاء صوري جوف)، ص 23.

(6) – جي، الشيخ أحمد : ديوان شعر، (مطلع قصيدة : هجرة الرسول من 52 بيتا) ، مخطوط بمكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

(7) – جابي، محمد الأمين : مطلع قصيدة " القادة " من 30 بيتا، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

(8) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات ا لقريحة ، (مطلع قصيدة : سكن الفؤاد بشارة) ص 6.

(9) – تاسع، علي : مطلع أبناء الزمن ، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(10) – الرباني ، زكريا : مطلع قصيدة العماد ، مخطوطة مكتبة الشاعر ، نيامي ، النيجر.

(11) – جباتي، أبو جعفر محمد : مطلع قصيدة في رثاء أحمد البكاي سفير مالي في مصر، مخطوطة، بماكو، مالي.

(12) – جرا ، محمد الشفيع : مطلع قصيدة كسر السدود عن وجهة الوفود ، مخطوطة مكتبة الشاعر، موبتي، مالي.

1 ألا إن فــي الــدنيا أشــكال لــذّة ** فصاحبْ بهــا مــرّا تــزاد تعمّــراً (1)

1 فهــد الــشريعة ســاندوه قبــيلا ** واتلــوا الكتــاب ورتّلــوا تــرتيلا (2)

1 نيــل المــآرب والمنــى بالمــال ** هــو ملجــأ للنــاس خيــر ثمــال (3)

1 عن العلم لا ترغب فلا شيء مثلــه ** وليس يضاهيه ســواه بــلا مــرا (4)

1 بحـــــقّ كتـــــاب خالقنـــــا ** أيـــــا شـــــعبا أناديكـــــا (5)

1 أغلى الأماني لدينا أن نــرى وفــدا لله زارونــــا والبــــر والأدب (6)

وأما في نيجيريا فيمكن الإشارة إلى أمثال هؤلاء : عبد الرحيم حمزة صـــاحب ديـــوان " شعر مفتوح " في 74 قصيدة، والدكتور عبد الباقي أغاكا في 10 قصائد له، والأستاذ عبــد الواحد جمعة أريبي في 54 قصيدة له، وعبد الرحمن الزكوي في 51 قصيدة له، وأبو حنيفة حامد بن زبير في 30 قصيدة له، والشاب عبد الواسع مدثر في 87 قصيدة له، ومحمد ثوبان الإلوري في 59 قصيدة له :

1 أرى للهـــواء أمـــورا كبـــارا ** لعلـــك كنـــت تراهـــا قـــرارا (7)

1 عهـــد الــــشباب صـــــفاء ** فمرحبـــــا يـــــا وفـــــاء (8)

1 بنيّ يأيهــا الأحنــاف يــا سـندي ** لأنــتم يــا عبــاد الله معتمــدي (9)

1 استمرّ الناس طعمي فــي الــورى ** إن خير الــشيء مــا قــد مُــرِّر (10)

1 أيهــا الإنــسان يــا مــن يــدّكر ** هذه الذكرى فهــل مــن مــدّكر ؟ (11)

1 أقول أنت مربــي كيــف تحزينــي ** عجبت منك لقول الجهل تــؤتيني (12)

1 بعـــت نفســـــي لحبــــــيب ** باعـــــني ذاك الحبـــــيب (13)

لاحظنا في شعر هؤلاء الشعراء وغيرهم خلو القصائد من أنواع المقدمات، وما جاء منهم أحيانا لا يعدّ التزاما منهم،كافتتاح بعض المراثي بالبكاء،وبعض المدائح بالثناء على الله تعالى.

---

(1) – تيام، أبو رضوان مدني : مطلع قصيدة الاحتذار ، مخطوطة مكتبة الشاعر ، سيقو ، مالي.

(2) – حيدرا، الشيخ أحمد : مطلع قصيدة فهد خادم القرآن، صحيفة الصداقة، العدد 37،أكتوبر 2002م/رجب1423هـ، ص7.

(3) – الجاوي، الشيخ محمد البشير : ديوان شعر، (مطلع قصيدة مرتبة المال والعلم) ، ص 6.

(4) – سانوغو، الحاج محمود : مطلع قصيدة آفات العلم ، مخطوطة عند تلميذه ساليفو غنامي، ص 62.

(5) – غنامي، ساليفو : مطلع قصيدة نبض قلوبنا، مخطوطة عند الشاعر، بوبو جولاسو، بوركينا فاسو.

(6) – آل هارون ، سليمان محمد : مطلع نغم الأوتار في ترحيب الأبرار، مخطوطة مكتبة الشاعر، باراكو، بنين.

(7) – حمزة، عبد الرحيم : ديوان شعر مفتوح ، (مطلع قصيدة الهواء) ، ص 85.

(8) – أغاكا، أ.د عبد الباقي شعيب : مطلع قصيدة الخدمة الوطنية، مخطوطة مكتبة الشاعر، صكتو، نيجيريا.

(9) – أريبي، عبد الواحد جمعة : مطلع قصيدة العالم الإسلامي يشكو، دار الهلال ، لاغوس، لا.ط،1422ه/2001م، ص 12.

(10) – الزكوي، عبد الرحمن عبد العزيز : مطلع قصيدة حوار بين الحق والزكوي، لا.ط، 2003م، ص 1.

(11) – زبير ، أبو حنيفة حامد : مطلع " رائية ابن زبير " ، باديا ، لاغوس، لا.ط، 2000م، ص 1.

(12) – أيلبينكي، عبد الواسع مدثر : مطلع قصيدة " مشكلة لن تحل أبدا ! " من 25 بيتا، مخطوطة ، إسيين، نيجيريا.

(13) – الإلوري، محمد ثوبان عبد الله آدم : مطلع ديوان " البائيات من قصائد اللبيب في عتاب الحبيب "، لا.ط، 2001م، ص2.

خصائص المقدمات العارية :

إذا خلا مطلع القصيدة من سمات المقدمات الملتزم بها، فإن لخلوّها سمات أخرى، معنوية ولفظية، أريد أن أستنتج صورها من نماذج شعراء المنطقة، واقتصرتُ على الآتي :

1. براعة الاستهلال :

أو براعة المطلع مما عني به علماء البديع، الذين يشترطون فيه التأنّق ما أمكن، وابتكار المعاني الشريفة، وقد وفّق بعض الشعراء بهذه الخاصية البديعية في ما سقنا من نماذج، وفي فواتح هذه القصائد :

*1 فمن مبلغٌ عنّي تحيّة جاذل ** تفوق تحيّات الورى بالفضائل*(1)
*1 فلكل دهر دولة ورجال ** ولكل قوم مرشد دلال* (2)
*1 حلف الزمان ليعطين ذوي الهدى ** شيخاً حنيفاً كالخليفة مرشداً* (3)
*1 إذا كنتَ لم تتركْ مجالا لعالِمِ ** تلام أخي بين الرجال اللوائم* (4)
*1 ألا عضّ الزمان بكلّ ناب ** وأضحى العلم مكلوم الجناب*(5)

تظهر براعة هذه المطالع في ربط الشعراء مطالع القصائد بأغراضها ، فأولاها كانت مدحا فجاء في تحيتها شيء من المبالغة، وفي الثانية نستشفّ حكمة شريفة لتقريظ كتاب أحد نوادر العلماء، وفي الثالثة انظر كيف فخّم الشاعر مدخل مدحته، وفي الأخيرتين أشار إلى صروف الدهر لما يقتضيه المقام في الرثاء.

2. تناسب معانيه :

من المعلوم أن المقدمة لا تقتصر على البيت الأول فحسب، لذا تظهر جودة المقدمة إذا جاءت أبياته متناسبة في ترتيب معانيها، وتلاؤم أفكارها، ووجود الوحدة العضوية بين أبياتها، كمطلع الشيخ عبد الله دظو النيجيري في ترحيبه بضيفه شريف عبد الرحمن حيدرا: [البسيط]

*1 هزّت بيَ الأرض يوما وهي تنتهمي ** فقلت مالك يوما كنت تنسجم ؟*
*2 أمن تذكر جنّات تحيط بنا ** سبقاً، فصرنا بها في عالم العدم ؟*
*3 أم من رياح هبّت تلقاء أوربة ** تعطي بنيها من الخدمات في هدمي؟*
*4 لا ذا وذاك فاسمعي الخبرا ** ألم تر الرقص في الأشجار والعنم؟* (6)

---

(1) – جابي، محمد الأمين : الشاعر الأديب الغيني الحاج مختار الكبير، أعمال ندوة ، الجامعة الإسلامية بالنيجر، 2002م، ص24.
(2) – فودي، الحاج محمد : نصيحة الإخوان، (مطلع قصيدة الشيخ عباس صل السنغالي في تقريظ الكتاب)، ص 79.
(3) – ساغ، القاضي علي : مدحة محمد الخليفة انياس، مخطوطة مكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا.
(4) – أولادوشو، عبد الغني عبد السلام : أضواء التهاني على أعجوبة الزمان ، لا.ط، 1992م، ص 4.
(5) – الأمين ، التجان بن محمد : رثاء شيخه القاضي سيد عال، مخطوطة مكتبة مركز أحمد بابا، تنبكت، تحت رقم:5042.
(6) – دظو، عبد الله موسى: مرحبا بشريف عبد الرحمن حيدرا، مخطوطة مكتبة الشاعر، كدونا، نيجيريا.

هكذا في خيال الشاعر الفني ترقص مظاهر الطبيعة لتقديم استقبال حار لهذا الضيف الكريم، ولا شك أن لتناسب المعاني تأثيرا في الجمال الفني لهذه الفاتحة الرائعة.

3. حسن التخلّص :

يجرّنا حسن التخلّص إلى الربط بين المقدمات الملتزم بها،وخاصة الطللية منها، وبين موضوع القصيدة، إذ لا بدّ أن يراعي الشاعر في أسلوبه كيف ينتقل من مقدمته إلى موضوعه بشيء من رسم الخيوط المعنوية بينهما،كهذه المقدمة التي صدّر بها الشيخ أبوبكر تيام مدحته النبوية:

*1 إلى متى الهجر لي يا ** سعاد هل من وصال*
*2 فلترحمي حال تيم ** ولو بلين المقال*
*3 غدا حليف نزوع ** يحنّ طول الليال*
*4 يا لائمي كن عذيرا ** ما لي سلوّ بحال*
*5 سعاد خود سبتني ** بحسنها والجمال*
*6 تمايل الردف منها ** لعقلة للعجال*
*7 لطيفة الكشح تفري ** بلحظها كلّ بال*
*8 تشوّقني في اتصال ** ووصلها في انفصال*
*9 إن التخلص منها ** يا صاح صعب المنال*
*10 فلست أسمع فيها ** لعاذل من مقال*
*11 نفسي دعي عنك هذا ** لمدح بدر الكمال*[1]

4. تصريع شطريه :

ممّا لاحظنا في المطالع أن يكون البيت مصرّعا، وقد التزم بذلك جلّ الشعراء في مقدمات قصائدهم، كما في النماذج السابق إيرادها إلا في هذه الأخيرة، وقد يمكن أن نعدّ ذلك من الشذوذ أو من الهفوات التي لم يتنبه لها الشاعر هنا مع التزامه به في قصائده الأخرى.

5. بين الطول والقصر :

وفي هذه الأخيرة تظهر المقدمة متوسّطة، وقد تطول المقدمات أكثر من ذلك في بعض القصائد، وكأن الشعراء يراعون في طولها وقصرها معمارية القصيدة ليكون بين فاتحة القصيدة وجسمها تناسباً.

6. فخامة ألفاظه :

وختاما فإن ألفاظ المقدمة مما عني الشعراء بفخامتها ورصانتها ورزانتها، وهذا جليّ في بعض تلك النماذج التي أوردناها، وإن جاءت ألفاظ بعضها بسيطة ومتواضعة.

---

(1) – تيام، الشيخ أبو بكر : مدحة الشيخ التجاني ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

المبحث الثاني : طبيعة خاتمة القصيدة

ربما لن نسهب الحديث عن خاتمة القصائد مثل إطنابنا في تناول مقدمتها، لأن عناية الشعراء بهذه غير عنايتهم بتلك، بل إن تصدير القصائد ألفى اهتمام النقاد أكثر ممّا أولوه بخاتمتها، ولم يعهد رجال الشعر العربي الإفريقي بعرفٍ يلتزم به في خاتمة شعراء العرب، لذا لا أكون بعيداً عن الحقّ إذا قلتُ : إنه لم يخطر ببالهم وجود خاصية فنية لخاتمة القصائد، فغلبت عليهم الروح الدينية في خواتم القصائد ، تبعاً لختام الكلام في المحادثات بين المسلمين، فذيّلوا أعمالهم الشعرية بالصلوات والمحامد.

1.) ***الخواتم الدعائية :***

وإن كان من النقاد من يكره ختم القصائد بالدعاء[1] ، فإن شعراء المنطقة ألفوا الخواتم الدعائية : من صلاة على النبيﷺ ، وثناء على الله تعالى ، ودعاء للممدوح أو المرثى... الخ. ولخلوّ مثل هذه الخواتم من الصناعة الفنية حاول الشعراء أن يعوّضوا عن هذه الثغرة بالتفنّن في الصياغة الفنية عن الصلاة على النبي ﷺ كما يتّضح ذلك في هذه الأبيات :

25 هنا ختمت كلامي بالصلاة على ** محمد سيد الكونين قد كملا [2]

5 صلاة وتسليم على أحمد الهدى ** مع الأهل والأشياخ كانوا وسائلا [3]

95 عليه صلاة الله ما دامت السما ** وما دام موج البحر يرغي ويزيد [4]

59 سلام على أشرف الأنبياء ** رسول أتانا بوجه أغر [5]

50 سلامان للمختار ما الوت في الدنا ** وما فيه تذكره لمن كان واعيا [6]

في مثل هذه التنوعات تظهر براعة فنية في التعبير عن دوام الصلاة على النبيﷺ، ومن وقف على خواتم قصائدهم يلف ما يتحفه من روائع المعاني. علماً بأن كثيرا من الشعراء الشباب لم يلتزموا بهذه الخاتمة الدعائية خلافا للعلماء والشيوخ الصوفية.

وما يتعلق بأنواع أخرى للخواتم الدعائية كما أشرتُ إليه آنفا، نجد المعاني تزدحم، وتزخر صورها الفنية بين الجودة والبساطة، وتتنوّع بتباين أغراضها كهذه النماذج الآتية :

---

(1) – ينظر : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 217.

(2) – أحمد، الشيخ محمد رشاد : قصيدة وعظية، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوماسي، غانا.

(3) – صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي، (مقطعة شعرية من جيرن شيخ دومق ور الفا في الزهد)، ص 399/2.

(4) – جابي، محمد الأمين : الخماسيات المحمدية ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا، ص 10.

(5) – أبو بكر، عيسى ألبي : فلسطين تناديكم، قصيدة مخطوطة ، إلورن، نيجيريا.

(6) – سانوغو، الحاج محمود : رثاء الإمام بامي جنيبو، مخطوطة، بوبو جولاسو، بوركينافاسو.

14 نمْ هادئا يا شيخ وادخل في العــلا ** في جنّــة الفــردوس والرضــوان[1]

23 لأمشي على نـهج سـليم يقـودني ** إلى خير ما أرجو بتحقيق بغيتــي[2]

20 ولــيحفظنّ رئيـسَنا مــع شــعبه ** ويديمـــه للخيـــر فـــي البلـــدان[3]

11 وتحيـــا الوحـــدة الإفـــرق فينـــا ** وعاش شــمالها وكــذا الجنــوب[4]

15 باخـــوان جمـــــيعا نرتجــــيك ** بغفــــران الكـــبائر بالكريــــــم[5]

انظر كيف دعا الأول للمتوفَّى، ومال الثاني إلى ربه يتضرع لنفسه ، وفي الثالث والرابع نجد دعاء سياسيا لرئيس غانا آنذاك في أحدهما وللوحدة الإفريقيـة[6] في الآخر، وأخيرا يشرك الشاعر جميع إخوانه في الاستغفار الختامي.

.2) الخواتم التعريفية :

يرى بعض الشعراء أن تختتم قصائدهم بشيء من التعريف ببطاقاتهم الشخصية، اسما ومذهبا وطريقة. وإن اكتفى بعضهم بذلك فإن الآخرين جمعوا بينها وبين الصلوات على النبيﷺ، كبعض شعراء نيجيريا مثلا[7] كما في خاتمة هذه القصيدة الهمزية : [الكامل]

25 لك في البداية والنهايــة ربَّــنا ** شكر ابن موسى شويعر القرناء[8]

وكرامو طلبي الغيني يختم طويلته الميمية بخاتمة طويلة في ذكر اسمه وأبيه وأمه وشيخه وطريقته[9]، وكان شيخ جاوندو من نيجيريا أوجز منه وأدل : [الطويل]

13 أيدوويّ مولودا، إلوريّ مسكنا ** فطوّل إلهي عمره أنت فاعل[10]

انظر كيف جمع بين التعريف والدعاء، منمّقا تعبيره بأسلوب التجريد البديعي.

وفضّل البعض في مثل هذه الخاتمة أن يعرّفوا بشعرهم، تذكيرا غيرهم ببحر القصيدة (ما أكثره عند محمد بشير جاو المالي)، وتاريخ نظمها وعدد أبياتها وغرضها، كما في الآتي:

74 تأليفه فـــي عــام جغفــش يــا أخ ** من هجرة الهادي النبــي محمــد[11]

15 كلن إذا أبت الشعــوب نصيــحتــي ** حق لــنا الشعــر الحزيــن رثاء[12]

---

(1) – جيتي، باكر كرنلا : رثاء محمد السنوسي بابا شيخ جابي، مخطوطة مكتبة الشاعر، بركاما، غامبيا.

(2) – راجي، عبد الغني : المجد متعب، قصيدة مخطوطة، كنو، نيجيريا.

(3) – بك، الحاج عيسى الحسن : كتاب سلسلة العربية لطلبة إفريقيا، (من قصيدة هجرة الرسول ﷺإلى المدينة) ص 104.

(4) – الجكني، الشيخ بن سيد عال:وصف زيارة الرئيس بورقيبة إلى تنبكت، مخطوطة بمركز أحمد بابا، تنبكت، مالي، رقم:7713

(5) – أحمد ، محمد توجه : الزجر على النميمة من أهل أقدز على العلماء، مخطوطة، نيامي، النيجر.

(6) – ولكن الشاعر اضطر تغيير هذا التركيب إلى " الوحدة الإفرقي " مع ما فيها من خطإ إملائي.

(7) – انظر مثلا :عثمان، خليل محمد: دراسة نقدية لشعر الشيخ محمد ميماسا النفاوي،كلية اللغة، جامعة إلورن، ص 114.

(8) – الفارسي، موسى سلمان : وصف الرحلة العلمية إلى إنغالا "كعبة الأدباء "، مخطوطة، إلورن، نيجيريا.

(9) – ينظر : طلبي، كرامو : قدوة المولود ، ص 66.

(10) – الثقافي، عثمان عبد السلام : الوزيريات، ص 45.

(11) – ميسونا، سليمان : درة الواعظين، ص 16. ويعنث عام جغفش: 1893 خطأ، ثم كتب نثرا بعده: 1383هـ/1963م

(12) – شفيع، محمد أحمد : حق لنا الشعر الحزين رثاء، قصيدة مخطوطة، نيامي، النيجر.

452 سطور الشعر "بنت" بالقوافي ** تجارى الشاعرين النابغينا [1]

وذهب هذا التعريف ببعضهم إلى الفخر بشعرهم، ربّما لمقابلته بالمقدمة الفخرية عند بعضهم، ولكن ذلك لا يعني أن المقدمات الفخرية في القصائد تنتهي دائماً بمثل هذه الخاتمة :

60 إن لان شعري فما حسّي بمرتعد ** والحسّ أصدق ميزانا من الكلم [2]

وقال آخر في آخر قصيدته :

20 ألا ليس شعري من ضروب تصنع ** فيشبه ذئبا كالح الوجه أبترا

21 ولكن شعري قام من لبّ خاطري ** يجول مع الأحزان حتى تفجرا [3]

3.) <u>حسن الختام :</u>

عني علماء البديع بهذا المصطلح، الذي يرادف المقطع عندهم، ويقابلونه ببراعة الاستهلال، ومن سماته الفنية : أن يأتي مؤنقا ، مؤذنا بتمام الكلام، مستحسنا عذبا[4]. ولكن هذه السمات ليست محدّدة، لذا يردّ أمرها إلى الذوق الأدبي، وعليه فلنتذوّق هذه النماذج :

60 الدين يسر وما الإرهاب ملّتنا ** سيعلمون غدا أصحاب سجين [5]

8 وجوه كمشكاة أمام الكواكب ** نجوم مضيئات ببدر ليالكم [6]

9 فأين الذنب حين أقول شعرا ** لإمرأتي تحنّ لكي تراني؟ [7]

28 عشْ بالأمان مكمّلا دين الهدى ** يا أيّها القطب الذي لا يُدْرَك [8]

15 فالملتقى خطوة كبرى تُحرزِنا ** روحاً وفكراً وتدعونا إلى الرشدِ [9]

ما أدل هذه الخواتم، وما أروعها في صلتها بموضوع القصيدة لمن يقف على عناوينها في الهوامش، وهي من القصائد النادرة التي لم يلتزم بها شعراؤها بخاتمة الصلاة على النبيﷺ.

وربّما في الشعر القصصي تظهر روعة الخاتمة في حسنها باستخلاص مغزى القصة في حكمة، أو بيان بيت تسكن فيه لوعة العاطفة وتهدأ، لذا نسوق مثل هذه الخواتم :

47 هذي نصيحتنا وتلك شكاتنا ** في أختنا نهديهما لوليّها [10]

7 فقد كان تسآلا لطيفا مباركا ** فيا ربّ ثبّتنا العقيد بلا مسّ [11]

---

[1] – الإباجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام : أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي، ص 30.

[2] – أريبي، عبد الواحد جمعة : المركزيات، (خاتمة قصيدة " في مركز النور ")، ص 21.

[3] – ديانغ، لامين : ديوان الشباب ، (خاتمة قصيدة " فتى كان التبسم دأبه ")، ص 9.

[4] – آل ناصر الدين ، الأمير أمين : دقائق العربية ، ص 227.

[5] – نخبة من شعراء نيجيريا : البنينيات ، ص 10.

[6] – لواني، شعبان الحسن : لقاء الخير، قصيدة مخطوطة، بورغو، بنين.

[7] – ماقاسوبا، أحمد : غزل زوج ، قصيدة مخطوطة، بماكو، مالي.

[8] – المشعري، الشيخ إبراهيم السنغالي :ديوان مدح الشيخ أحمد بامبا مؤسس الطريقة المريدية، ،طوبى،السنغال،ص 247.

[9] – الشفيع ، محمد أحمد : شكرا لشعب الجماهيرية، مخطوطة عند الشاعر، (ألقاها في ملتقى الشباب بمرزق)، نيامي، النيجر.

[10] – عاجْ، محمد الأمين : من وحي المجتمع، (قصيدة البضاعة)، مخطوط، ص 32.

[11] – حيدرا، الشيخ أحمد : حوار مع راهب، قصيدة مخطوطة، سيقو، مالي.

20 وإن تقتدر فاصفح فلا خير في امرئ ** فظــيظ غلــيظ القلــب ذو يتمــرّد [1]

34 خذها لقطــع أقاويــل الغبــي علـــى ** ما كان يهذي به إذ صـــار منحوســـا
35 الحمــد لله رب العالمــين موجــدهم ** ثم الصلاة على خير الورى ساسا [2]

البيت الأول في هذه المجموعة ختام لقصة خطيبة يصرفها أهلها مــن الــشاب الفقيــر المتقدم الأول لخطبتها لصالح الغني المتأخر. والبيت الثاني ختام دعائي في مناظرة دينية بين مسلم وراهب. والثالث نهاية قصة فأرة تنقذ الأسد جزاء لعفوه لها. والبيتان الأخيران اختــتم بهما الشيخ عمر كركي قصة من يدّعي العلم فيخطّئ العلماء على الجهل.

ويمكن تحديد بعض هذه السمات في الخواتم التي تقابل المقدمة في معانيها، وتعانقها في أفكارها، ومن وقف على مطالع هذه القصائد لا يشكّ في هذا التعانق بينها وخواتمها :

108 متـــى مـــا قـــال مـــشتاق هيامـــا ** ســـــــلام للـــــــديار الخاليـــــات [3]
117 وما خــتم الأبيــات قائــل شــيخنا ** مناقبـــه ليـــست تعـــد وتحـــصر [4]
15 أيا سيدي هـــاك الجـــواب لقائـــل ** على غرّة عرف المعمّى تضــوّعا [5]
10 واركـــــب العـــــزم وجـــــادل ** بـــــاللتي أحـــــسن قـــــال [6]
15 وإني بهــم حقّــاً أمــدّن بــشرّهم ** وصرتُ فتىً لا كالفتى في التظــاهر [7]
27 فــما طـــابت حيـــاة للبنـــات ** إذا كـــنّ الضـــحـايـا للهـنـــات [8]

في هذه الأبيات الثلاثة الأولى يبدو أن سمة التعانق لفظية ومعنويـــة، لأن الــشعراء أعادوا الكلمات نفسها التي افتتحوا بها قصائدهم، وكأنهم يوحون إلى القرّاء أنهم ينتهون حيث بدؤوا. وأما في الثلاثة الأخيرة فإن في ذلك شيئاً من السمات اللفظية، فإنه قــد غلــب علـــى شعرائها شرفُ المعاني التي تستكمل بها أفكار المقدمة أو تؤكدها أو تلخّصها.

ومن سماتها المحددة أن تكون موجزة قصيرة في حدود ثلاثة أو خمسة أبيات، خلافاً لبعض الذين مالوا إلى خاتمة طويلة، إما بكثرة الصلاة على النبي ﷺ المكــررة، أو الــدعاء، أو أن يحاول الشاعر ختم قصيدته بقضية أخرى قد تكون طويلة، فهي أنواع نجدها عند الشعراء.

---

(1) – أسليجو، عبد الرفيع : مجلة الحكمة، العدد 2، 1423هـ/2002م، ص 13.

(2) – Muhammed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 145

(3) – صمب، عامر : الأدب العربي السنغالي، ص 89/1. ومطلعها : سلام للديار الخاليات ** وأيام مضين مسوّمات.

(4) – عمر، محمد الأمين : الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان،ص 74.

(5) – جابي، محمد الأمين: الشاعر والأديب الغيني الحاج مختار الكبير، ص44. ومطلعها: على غرة عرف المعمى تضوعا **

(6) – السخو، عيسى، الحياة الأدبية في قبيلة كدالة، كلية اللغة العربية ، الجامعة الإسلامية بالنيجر، ساي، النيجر،2000م، ص 21.

(7) – المنتقى،حمزة الحاج:يا منكر التجانية،(مطلعها أتنكر هذا طريقة شيخنا**وللشيخ أبطال فحول فسل تدر) مخطوطة،تمالي،غانا

(8) – ساغو، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط، بماكو، مالي، ص 22.

إذا كانت مقدمة القصيدة وخاتمتها من أهم عناصر القصيدة، فإنهما تخدمان ما بينهما من مضمون، لأن براعة الشاعر تكمن في معالجة هذا المضمون الأدبي، الذي يستوعب الأفكار والمواقف في قلبه الفنيّ، وتتصارع المعاني المنطقية في أساليبه، بل إنه محل نزاع بين النقاد في كثير من القضايا الأدبية المتعلقة بالتجربة الشعرية، والوحدة العضوية أو الموضوعية، وما إلى ذلك من قضايا نقدية.

القصيدة تعرف بما يزيد عن سبعة أبيات إلى ما لا نهاية له، ومن هنا ظهرت قضية " الوحدة الطولية "، في معرفة مدى ارتباط جودة القصيدة بمقاسها الطولي ؟

وهذه مسألة لم يتنبه لها الشعراء في تاريخ الأدب العربي، بل لم تلق اهتمامَهم في العملية الشعرية، فجاءت قصائدهم قصيرة وطويلة، وإن كان لبعض الشعراء اتجاه إلى نوع من الالتزام بطول قصائدهم.

ويرى بعض النقاد الغربيين تحديد طول القصيدة بما يتراوح بين عشرين بيتا ومئة بيت قياسا على الوحدة الزمنية في المسرحية [1]. ولكن علماء البلاغة قد اهتدوا إلى أن الإيجاز والإطناب مرتبطان بمقتضى الحال، وإذا طبّقنا هذا المفهوم على الوحدة الطولية فإننا سنربط طول القصيدة وقصرها بملابسات غرضها ومقامها. ولكن ليس لكل قصيدة مخاطَب ومقام معيَّنان حتى نحدّد بهما مقاس القصيدة، الأمر الذي يجعلنا نردّ الأمر إلى حالة الشاعر وطبيعة موضوعه.

1.) *قصائد قصيرة أو متوسطة :*

سأتحدث قريبا عن المقطعات الشعرية، معلّلا هذه الظاهرة الأدبية في الشعر العربي الإفريقي. ولكنّ الذي يهمّنا الآن أن أحاول إجابة سؤال يطرح نفسه : متى يمكن أن نطلق على القصيدة أنها قصيرة أو متوسطة ؟ وفي ذلك خدمة لمنهجنا في هذه الدراسة النقدية.

من يتصفح دواوين الشعراء في المنطقة، محصياً أبياتَها، سيقتنع بما أدّعيه أن جلّ قصائد الشعراء تقل عن مئة بيت، وتزيد عن عشرة أبيات، وأكثرهم يفضّلون من القصائد ما تتراوح أبياتها بين عشرين وأربعين بيتا، وما دونها يمكن تصنيفها في القصائد القصيرة، وما زاد عن ذلك فقصائد متوسطة في الطول.

ولمعرفة هذه الظاهرة فإن لي وقفة متأنية على قصائد الدواوين المطبوعة، التي يمكن

---

(1) – ينظر : حمدان ، محمد صايل : قضايا النقد الحديث، ص 48.

أن يرجع إليها القارئ أكثر من القصائد التي مازالت مخطوطة في المكتبات الخاصة، أو حبيسة الحقائب.

ومنها : الدواوين الست للشيخ إبراهيم انياس، التي التزم فيها بتقفية قصائده على حروف المعجم، وربما هذا ما يفسر اقتصار قصائده في حدود أربعين بيتاً، وخاصة إن القصائد المقفاة بأحرف الصاد والضاد والغين والذال والزاي تأتي أقل من ذلك، قل مثل ذلك في ديواني الشيخ علي بوبديم الغيني " مقاليد السعادات في مديح سيد السادات " و " جلاد مدافع حزب القهّار على صدور الكفّار ".

وفي ديواني الشيخ محمد الخليفة انياس الكولخي " خاتمة الدرر على عقود الجوهر في مدح سيد البشر" و " الكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبر مولانا أحمد التجاني "، إن جلّ قصائدهما دون مئة بيت إلا بضعة منها، فأطولها في الأول قصيدة " نيل المرام في مدح سيد الأنام " في 307 بيتا[1]، وأطولها في الثاني قصيدة همزية في 123 بيتا[2].

وفي ديوان القرآنية للشيخ أحمد بمْبا السنغالي جاءت قصيدة واحدة منه في 114 بيتا[3] من بين 250 قصيدة، ويعلّل قِصَر قصائده أن أبياتها مقيدة أوائلها بحروف آيات قرآنية. وإذا أحصيت ديوان إبراهيم جوب المشعري في مدح شيخه أحمد بمبا تجد قصيدتين تزيدان عن مئة بيت، إحداهما ميمية في 114 بيتا، وأخرى عينية في 110 أبيات من بين 160 قصيدة[4].

وأما في مدرسة تواوُن بالسنغال فإن ديوان الحاج مالك سِهْ لم يشمل غير قصيدتين تزيدان عن مئة بيت، سوى منظوماته العلمية، إحداهما " زجر القلوب " في 128 بيتا، وأخرى أرجوزة في التوسل من 130 بيتا[5]. وفي ديوان نجله الشيخ أبي بكر الخليفة عثرنا على قصيدة يتيمة في 120 بيتا مقيَّدةً أوائلها بحروف صلاه الفاتح[6]. وفي ديوان الحاج منصور سِهْ عثرنا على قصيدتين في 119 بيتا و107 بيتا[7]. وفي ديوان الشيخ عبد العزيز سي عثرت على قصيدة واحدة في 100 سوى الأراجيز[8]. وأخيرا فإن أطول قصيدة في ديوان الشيخ أحمد التجاني سه في 90 بيتا[9]. وما سوى ذلك فقد جاءت قصائدهم دون مئة بيت.

وأما في دواوين الشباب الشعراء السنغاليين فلم يرد في ديوان " من وحي المجتمع " لمحمد الأمين عاجْ قصيدة تزيد على خمسين بيتا، وأطول قصائد شيخ تجان غاي في ديوانه :

---

(1) – ينظر : انياس، الشيخ محمد الخليفة : خاتمة الدرر ، ص 195.

(2) – انياس،الشيخ محمد الخليفة:الكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبر مولانا أحمد التجاني،مؤسس والفجر،ط2،1996م،ص10.

(3) – ينظر: بامبا، الشيخ أحمد : ديوان القرآنية، جمعية أتباع الشيخ الخديم، طوبى، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ص 1-8.

(4) – المشعري، إبراهيم جوب : ديوان مدائح الشيخ الخديم، بجمع نخبة من الباحثين، طوبى، لا.ط، لا.ت، ص 211 و277.

(5) – ينظر : سه، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 25 ، و212.

(6) – ينظر : سه، الشيخ أبو بكر الخليفة ابن الحاج مالك سه : مقتطفات من بعض منظومات أبي البركات، ص 71.

(7) – ينظر : سه، الحاج منصور ابن الحاج مالك سه : ديوان شعر، ص 28 ، و55.

(8) – ينظر : سي، الحاج عبد العزيز ابن الحاج مالك سه : مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني، ص 421.

(9) – ينظر : سي، الشيخ أحمد التجاني بن أبي بكر الخليفة : سلسلة المحاضرات، ص 14.

" من وحي الواقع " دالية في 68 بيتا[1]. واقتصر أطول قصائد ديوان الشباب للامين ديانغ " جلب التحضر وسلب التأخر" على 50 بيتا[2].

وفي غامبيا فإن ديوان " بنات القريحة " لمحمد الإمام سامبو غساما لم ينتج غير قصيدة في 40 بيتا، هي " أنا الغريب "[3]. وفي غانا نجد ديوان تحفة الأحرار ليحيى الأمين لا يطيل قصائده فوق 50 بيتا. وصاحب ديوان " البستان " الشيخ يعقوب دوكوري في مالي لم تزد قصائده عن 30 بيتا إلا بضعة منها. ولا تجد بين قصائد " بنات أفكاري" للحاج عبد الرحمن باه الغيني غير قصيدته في التوسل التي بلغت 164 بيتا[4]، وسوى ذلك دون مئة بيت.

وأما في نيجيريا فانظر مثلا ديوان "نيل البغيا" للشيخ يحيى لم تزد عن مئة بيت غير قصيدته "انتصاف النفس من النفس" في 158 بيتا[5]. وأطول قصيدة في ديوان "هدية الأحباب والخلان" لأبي بكر عتيق في 161 بيتا[6]. ولم تأت قريحة الشيخ محمد الناصر الكبرى في " الديوان المبارك " غير قصيدة وعظية في 123 بيتا.[7]

لم يلتزم الشعراء بهذه الظاهرة إلا بأسباب يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

1- اقتدوا في ذلك بالشعراء العرب في جميع العصور الأدبية، إذ إن أكثر قصائدهم تراوحت بين ما يزيد عن عشرات أبيات إلى قرابة مئة بيت.
2- لأن النقاد العرب لم يحدّدوا للقصيدة " وحدة طولية " للشعراء، الذين لم يجدوا بدّا من أن يعتمدوا على ذوقهم الخاص في ترجمة تجاربهم الشعرية عند اختيار مقاس قصائدهم.
3- إن التجربة الشعرية لدى الشعراء تفاوتت في طولها ومواقفها، لذا تفاوتت قصائد كل شاعر في الوحدة الطولية، وهذا ما يفسر الطبع الذي كان يعتمدون عليه في صناعتهم الشعرية.
4- ربما راعوا أحوال المستمعين أو القراء لقصائدهم، لأن طول القصائد قد يثير الملل في بعضهم عند فهم قصيدة طويلة، وما يحتاج ذلك إلى دقة وتدبّر.

2.) قصائد طويلة أو مطوّلات :

يمكن أن نعدّ قصائد الشعراء في المطوّلات إذا ما زادت أبياتها عن مئتي بيت. وفي هذه الحالة لا يشمل ذلك الأراجيز في المنظومات العلمية ، ولا الملاحم الشعرية في السيرة النبوية ، لأنها تنقسم إلى فصول وأبواب، وقلّما ترتبط أجزاؤها المعمارية بوحدة نفسية، لتشتّت مواقفها، بل جدير بأن تعدها قصائد متنوّعة لا قصيدة واحدة.

وإذا قصرنا المطوّلات في ما تزيد عن مئتي بيت فإنني عثرتُ على خمس قصائد تمثلها:

---

(1) – ينظر:غاي، شيخ تجان: من وحي الواقع،ص 51.
(2)–ينظر:ديانغ،لامين:ديوان الشباب، ص 30–32
(3) – ينظر : غساما، محمد الإمام سامبو: بنات القريحة،ص 8.
(4) –ينظر: باه،عبد الرحمن:بنات أفكاري،ص 75
(5) – ينظر : النفاخ، الشيخ يحيى : نيل البغيا ، ص16.
(6) – ينظر : عمر، محمد الأمين : الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان، ص 186.
(7) – ينظر : الكبرى، الشيخ محمد الناصر : الديوان المبارك ، ص 41.

1. ميمية الشيخ عمر كركي الغاني في 211 بيتا، يصف فيها تغلغل المستعمر في المنطقة، مستفتحاً بمقدمة دعائية قبل أن يتناول بسط بلاء المستعمرين النصارى، ونشر أدوائهم في أرجاء المنطقة بذكر مدنها وقراها وقبائلها،قبل أن يختمها متوسلا ببعض السور القرآنية[1]
2. وعينية الغيني محمد مختار ووري[2] في مدح ألفا محمد علي، وأسماها " فيْق الحلّاب" بلغت 262 بيتا، يفتتحها بالوقوف على بلاد سَلَمْبَنْدِ، ثم يشرع في المدح فيصف تلك البلاد، مستطردا بالوعظ ، ومختتما بوفاة الممدوح ، وطالبا من الشباب الاقتداء به.
3. تائية محمد غبريم التي ذيّل بها " النوافح العطرية " في المدح النبوي بلغت 264 بيتا، بدأ القصيدة متوسلا بالنبيﷺ وجامعاً بين الثناء عليه بالفضائل والمدائح.[3]
4. رائية الشاعر المالي حبيب عبد الله كانْ في 344 بيتا، يصف فيها حرب الخليج الأولى، مستنكراً اندلاعها، ومستهجنا تأجيجها من الغرب، ومتهجّما على صدام حسين ، ومستعرضا أسبابها، ومصوّرا آثارها في قتل النساء والصبيان، وله فيها استطراد طويل في تاريخ الخلافة الإسلامية، التي ما زال المسلمون يعانون من مشكلاتها التاريخية.[4]
5. نونية الشاعر النيجيري عبد الوهاب عبد السلام في 452 بيتا تحت عنوان " أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي "، يهجو فيها الغرب مستفتحا بوصف سموم الغرب ثم بقسمها إلى فصول ذات عناوين آتية : من مظاهر التسميم، وقوى الغرب الثلاث، وصورة الثورات الغربية على البلاد الإسلامية قديما وحديثا، ومجاراة الغرب، والترياق، والحضارة القرآنية، والشخصية الإسلامية، والمرأة الإسلامية ... الخ ، ثم الخاتمة.[5]
6. قافية الشيخ محمد الهادي توري السنغالي في 455 بيتا، يمدح فيها النبي ﷺ بعد مقدمة طويلة، شاملة للنسيب والفخر والوعظ والحكم، ذهبت بنصف القصيدة ؛ ثم بدأ المدح النبوي ﷺ في البيت الثامن والسبعين بعد مئتين، متحدثا عن شرف مولده وفضائله في معجزاته، وجاءت خاتمتها في التوسل بالنبي في عشرة أبيات.[6]

إن طول هذه القصائد مرتبط بموضوعاتها ذات الشجون،تتسع أطرافها إلى أفكار كثيرة، وخاصة إذا ما استعرضنا أسبابها ودوافعها ونموّها في تفاقُمها، وآثارها الاجتماعية، ونهايتها. وفي الخمسة الأولى يمكن الاستدلال على وحدة أجزائها لوحدة موضوعها، بخلاف الأخيرة التي يظهر فيها نوع من الاضطراب الفكري غير المنسجم. وسنرجع إليها في المبحث اللاحق عند الحديث عن قضية الوحدة العضوية والموضوعية والنفسية في هذا الشعر.

---

(1) – Muhammed, Abass Umar: Alhaj Umar Kete-krachie, p 123

(2) – أحد الشباب الشعراء في لابي، وأصله من شمال فوتاجلون، وله قصائد كثيرة وأراجيز في الشعر التعليمي وفي التاريخ.

(3) – ينظر: الداغري، محمد غبريم: النوافح العطرية، دار الفكر، الطبعة الثانية، لا.ت، ص 321–331.

(4) – ينظر: كانْ، حبيب عبد الله : حرب الخليج ، لا.ط، 1990م.

(5) – ينظر : الإباجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام : أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م.

(6) – ينظر : توري، الشيخ أحمد التجاني الهادي: سطور من حياة فقيد الإسلام محمد الهادي توري، ط2، 2003م، ص76–98.

والجدير بالذكر أن مثل هذه المطولات لا يتمّ نظمها إلاّ في طول من الزمان، يصعب على الشاعر أن يصوغها في أوقات غير متلاحقة، وفي هذه الحالة يضطرب التفاعل بين موضوعاتها الداخلية، وهذا ما نلاحظه في ما قدّمنا من خلاصة لموضوعات هذه المطوّلات.

3.) *هيكل القصيدة :*

ربما من الصعب بمكان أن أتحكّم في ضبط الأجزاء التي تتألف منها بنية القصيدة، إذ لم يلتزم شعراء المنطقة ببناء القصيدة الجاهلية، رغم اعتمادهم على شعراء المعلقات ، ورغم اتّخاذ الشعر الجاهلي نموذجا دالاًّ على براعة الشاعر وتمكّنه في اللغة العربية. ولكن الإسلام والنزعة الصوفية غلبت على أهوائهم، فطغت على الملكة الفنية، فراحوا يتذبذبون بين التمسك ببعض أجزاء القصيدة التقليدية وبين الالتزام بالروح الصوفية.

ولكن ذلك لم يمنعني أن أدقّق من النظر، وأستعرض النماذج الشعرية من مختلف الأغراض، لأحصرها في قوالب موضوعية متقاربة، كي أستنتج منها ما يمكن أن يصوّر لنا أجزاء مبنى القصيدة، أيّاً كان غرضها وموضوعها، وإليك ما اهتديت إليه من محتوى القصيدة في هذا الشعر العربي الإفريقي :

أ. ***الفاتحة :*** جاءت فواتح القصائد متنوعة، كما تناولناها في المبحث الأول السابق، وفضّلت هذا المصطلح " الفاتحة " لأنها قد تكون مزينة بالمقدمة الغزلية أو عارية منها فيهتمّ الشاعر ببراعة الاستهلال.

ب. ***إثبات الفضائل أو نفيها :*** إما بإضفائها على النفس إن كان الشاعر مفتخرا، أو على غيره في الأغراض الأخرى ، أو سلبها من المرء إن كان الشعر هجاء. وما أظن أن القصيدة تخلو من تلك الفضائل : الكرم والشجاعة والوفاء والذكاء وغزارة العلم والإخلاص والصدق والتقوى والعبادة والإيمان...الخ وما يقابل ذلك من الرذائل.

انظر كيف تزخر هذه الأبيات بتدفق الفضائل التي يرثي بها الشيخ إبراهيم الدامي[1] الغيني شيخَه جرنو علي بوبديم : [الطويل]

4 إمام همام طاهر العرض ظاهر الـ ** ـمآثر رحب الباب والدار والذرى
5 تقي نقي فاضل متواضع ** كريم حليم واسع الجود والقرى
6 ومن دون ما يعطي من أمتعة الدنا ** وزينتها فيض الغمام إذا جرى
7 فما جاءه أحد يروم عطية ** فيرجع إلا واجدا متبشرا
8 فما زال يعطي العين والعرض للعفا ** ة والخيل والأقوات والثوب والقرى[2]

بعد إضفاء الفضائل على شيخه بدأ يستعرض الأحداث اليومية للدلالة على صحة إطرائه.

---

(1) – هو ابن محمد جاو، تتلمذ متأخرا على جرنو علي بوبديم، ورثاه بقصيدتين منشورتين في ديوان شيخه المطبوع.

(2) – بوبديم ، جرنو علي : ديوان شعر، ص 232.

أما نفي الفضائل عن المهجو فنموذجه من قصيدة الشيخ عمر كركي في النصارى: [الرجز]

15 ونسأل الله تعالى الستر ** يدفع عنّا شرّه النصارى
16 ومن لقاء ظالم نميم ** ومن شقاء أشقا النصارى
17 إذا دخلت يا أخي في الأرض ** لا تشتغل لنظرة النصارى
18 خلقته كخلقة الشيطان ** إبليس في أحواله النصارى
19 إن النصارى فتنة للناس ** بقاؤهم مصيبة النصارى[1]

ج. ***إثبات الجمال الحسي أو نفيه :*** لا تخلو القصائد، بتباين أغراضها في وصف الممدوح أو المهجو أو الطبيعة، من استعراض جمال حسي مادي، وخاصة إذا تعلق الشعر بالمرأة فإن وصفها يبدأ من شَعْرِها إلى قدميها، وفي وصف العظماء يكتفون بهيبة وجوههم وبسطة أجسامهم نادرا، وعنايتهم بالفضائل أكثر وأكبر.

وأحسنْ بجمال حور العين في تائية الشيخ أحمد بمْبا التي بلغت أبياتها 114 بيتا : [البسيط]

14 حور لدى الله عين لا يقاربها ** حيض ولا درن دامت نقيّات
15 حور لدى الله أتراب مخدّرة ** تحت القباب من البوسى سليمات
16 فقن القناديل نوراً طيبها عبق ** يُخجِلن بدر يدٍ فوق السموات
17 لهن جسم وطيب خالص خضر ** ضوء الترائب جالٍ للدجنات
18 مرآة أزواجها أبدانهن نَعَمْ ** إذ نور أبدانها يزري السراجات
19 ما مسّهنّ لدن ذو العرش أنشأها ** شيء من الوصم في وصفٍ ولا ذات[2]

د. ***ذكر الأحداث :*** إن بعض الشعراء قد يلجؤون إلى بسط بعض الأحداث من ذكريات الممدوح ليكون دليلا على تحقيق الفضائل التي تحلّى بها في واقع حياتهم، وإن كان ذلك نادرا منهم فإنه يكثر في نتاج الشعراء الذين تتميز قصائدهم بالتجربة الشعرية أو بالثراء في المواقف الأدبية المتباينة. أما في الشعر القصصي أو في الملاحم فإن نصيبهما من ذكر الأحداث أولى وأعظم. ففي رائية الشاعر المالي حبيب كانْ يعنى بشيء من ذلك :[الكامل]

116 اليوم تشتغل الكويت وتلتظي ** واللهب فيكم غرّة الأسحار
119 مهلا يا صدّام كفى بلا ، ما لقى ** أتباع طه منك من أضرار
120 كم منكرات جئتها بضراوة ** دمعت لهنّ جلامد الأحجار
123 نهباً وسلباً بل وأعظم منهما ** هتكاً لعرض صواحبات خمار[3]

هـ . ***الخاتمة :*** لكل قصيدة خاتمتها وإن كانت بيتا واحدا، أو بحسن الختام في نهاية الشعر القصصي، كما تناولنا الحديث عنها في المبحث السابق.

---

(1) – كركي، الشيخ عمر : هجاء النصارى، أرجوزة مخطوطة، كوماسي، غانا.

(2) – بمبا، الشيخ أحمد الخديم : همت سليمى ، طبعة محلية ، طوبى، السنغال، ص 4 – 5.

(3) – كانْ، حبيب عبد الله : حرب الخليج، ص 18–19.

ويمكن أن نطلق على هذه الأجزاء " فصولا "، التي يجب أن تتألف منها كل قصيدة، لأن روعة القصيدة تقتضي ترتيبا دقيقا بين هذه الفصول،وتنظيما داخليا بين أبيات كل فصل[1] وقد التزمت أروع قصائد الشعراء بتناسق هذه الأجزاء، فجاءت أعمالهم الشعرية على نظام جمالي لا يترك شكّاً في نفس من يقرأها أن يعترف بذوقها الأدبي الرفيع. وهذا التناسق جليّ لمن يدقّق النظر في أبيات كل جزء من هذه الأجزاء.

هل يمثل هذا البناء بناء المجتمع الإفريقي كما علّل بذلك بعض النقاد وحدة القصيدة البنائية التقليدية ببناء المجتمع العربي القبلي الجاهلي ؟[2]

إذا كان مجرد التشابه بينهما يحقّق هذه الدعوى، فإن النظام القبلي في المجتمع الإفريقي لا يختلف كثيرا عن المجتمع العربي، ولكن أنّى لنا صحّة مثل هذا التعليل بين بناء هيكل القصيدة في هذا الشعر وبين النظام القبلي ؟! ولو كان في ذلك أدنى صحة للاحظنا تطوّرا في بناء القصيدة العربية بعد تغير نظام الحكم في ظل الخلافات الإسلامية ، ولم يحدث شيء من ذلك.

4.) أنواع بنية القصيدة :

بعد إمعان النظر في هذا التراث الضخم من القصائد الشعرية، يمكن أن أدّعي تنوّعها إلى مختلف الهيئات في بنائها المعماري، ولصحّة الدعوى يجدر بنا أن نعقب ذلك بأمثلة واضحة تحدّد معالمَها :

1. القصيدة الناقصة البنية :

وهذا ما أطلق عليه بعض النقاد بالقصيدة نصف الجزئية.[3] أعني بذلك تلك القصائد التي يتضخم فيها فصل في طول أبياته أكثر من سائر أجزائها الداخلية، لأن الشاعر يولي عنايته بتناول جانب مع إهمال سائر الجوانب من موضوع معمارية القصيدة، كأن يطنب المدح في الكرم أكثر من سائر الفضائل التي لا يشير إليها إلا خاطفة عابرة، أو تأتي المراثي في التعزية والدعاء أكثر من تأبين الميت، وما أكثرها في مراثي الشعراء.

فاقرأ مثلا قافية النيجيري محمد الماحي في رثاء شيخه عيسى شريح، التي بدأها بالدعاء مواصلا في ذلك، ثم مقتصرا تأبين المتوفّى على بيت واحد في أواخر القصيدة كقوله :

12 متفنن متبحر شيخي أجل ** قد حاز قصب السبق في الآفاق[4]

وفي قصيدة " دعوني مادحاً غرر المعالي " لم يشرع فيها شاعرها عمرو عبد اللطيف ساغو المالي في مدح أساتذته إلا بعد مقدمة طويلة في أربعة عشر بيتا ، وتنحصر القصيدة في سبعة

---

[1] – ينظر: عباس، د. إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 569–570.

[2] – ينظر : إسماعيل، د. عز الدين : الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، ص 264.

[3] – ينظر : قطوس، بسام : وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، ص 245.

[4] – ثاني، عبد القادر: فن الرثاء عند علماء مدينة غسو من سنة 1967–1997م، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا، ص 181.

وعشرين بيتا، فقد استغرقت المقدمة ما يزيد عن نصف أبياتها، الأمر الذي جعل القصيدة ناقصة في بنائها لعدم التناسق بين أجزائها،انظر ما يقول في البيتين الثالث عشر والرابع عشر

13 ورائحة العطور تفوح منها ** إذا ما الريح هبّت من شمال
14 فما كفرا فعلتُ ولا فسوقا ** ولكن الخيال هو امتثالي

قبل أن يشرع في المدح بالبيت الخامس عشر :

15 أساتذتي سماحتَكم أريد ** على وصفي مفاتين الغزال[1]

2. القصيدة البسيطة البنية :

لا يتصل هذا المصطلح بالوحدة الطولية للقصيدة، لكن بالوحدة الموضوعية، أي أن تنحصر أجزاء هيكلها في موضوع واحد، وقد تخدم بساطتَها قلّةُ أبياتها كي تتيح الفرصة للشاعر أن يتحكم في تبسيط صورها وتحقيق تناسق إيقاعي غير مضطرب، وهذا ما يفسر قلة أبيات قصائد بعض الشعراء كما نجد مثلا في ديوان " من وحي المجتمع " لمحمد الأمين عاجْ، وفي همزيات وبائيات الشاعر النيجيري محمّد ثوبان آدم عبد الله الإلوري مثلا.

وتكثر القصائد البسيطة في شعر الغزل، لخلوّها من المقدمة الغزلية غالبا، ولأن الشاعر في مثل هذه المواقف لا يجد أمامه غير موضوع واحد، وهذا ملحوظ في "ديوان الشباب" للشاعر السنغالي لامين ديانغ، وخاصة في المدائح النبوية لدى جلّ شعراء المنطقة، وفي كل قصيدة ذات وحدة موضوعية كما سنقف عليها لاحقا.

قف على دالية الشاعر محمد السراج بن معزوز لترى بساطة بنائها[2]، ثم قارنْها بهذه القصيدة في خريدة فوفانية (من قبيلة فوفانا) من قريحة الشيخ محمد اليدالي[3] :

1 ألا أيها الركب الفوفنيون عرجوا ** علينا فقد أمسى هوانا فراشيا
2 وحيّوا لنا سكان بير الدادي وانزلوا ** عليهم سويعات فذاك مراميا
3 لفاطمة السمراء بلّغْ تحيتي ** فرؤيتها عندي أجلّ مراديا
4 أصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها ** أثِنْتَيْنِ صلّيت الضحى أم ثمانيا
5 أغار على أعطافها من ثيابها ** أحنّ إلى لقياها طول زمانيا
6 لها علم لقمان وصورة يوسف ** ونغمة داوود إذا فاه تاليا
7 وناظرتا ظبي وعفة مريم ** وزينة نسوان حسان غوانيا
8 تراءت لنا كالشمس يوم طلوعها ** بسعد أضاءت في البلاد النواحيا
9 ودرّة أصداف بهيج غواصها ** متى ما يراها قد يهلّ مناديا

---

(1) – ساغو، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط، عند الشاعر، بماكو، مالي، ص 36.

(2) – ينظر: صالح، محمد عمر : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 488.

(3) – هو ابن الشيخ عبد القادر كرامو قطب (ت 1941م) في كوبيا بغينيا، مخلفا ذكريات خالدة في شهرته بالولاية وبروائع الشعر.

10 على رأسها سقط النصيف ولم ترد ** سقوط خمار من إتقاء المخازيا

11 تناولته خوف الرجال واتفت ** بكفّ لطيف كان حقّاً مواسيا

12 ولو أنها عرضت لأشمط راهب ** ليصبو إليها أو يحنّ مغاويا

13 لحى الله ساعات الفراق وبدلت ** مرابعها فيضا وسقياها قاسيا (1)

3. القصيدة المحكمة البنية :

وحدة منظمة في بناء موضوعاتها على تناسق متوازن، تتناسب أجزاؤها في الوحدة الطولية، وترتبط أبياتها بخيوط معنوية محكمة، لأنها تتّسم بالوحدة العضوية في هيكلها البنائي، وأرجئ التفصيل فيها إلى الفصل اللاحق، حيث سأتناول سماتها وأسبابها وصعوبتها. ولست أدري لماذا أطلق البعض على مثل هذه البنية بالقصيدة الفوضوية(2) ، لجفوة الملاءمة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

4. القصيدة المعقدة البنية :

يمكن أن نطلق هذا المصطلح على كل قصيدة ذات تركيبات معقدة في هيكلها البنائي، وذلك لأسباب منها : كثرة موضوعاتها، واضطراب الترتيب بين وحداتها الموضوعية، والعودة إلى موضوع في أواخر القصيدة بعد تناوله في أوائلها، وكثرة الاستطرادات بموضوعات لا صلة لها بالفكرة الرئيسة. ولنا وقفة مع هذه الأسباب لاحقاً، ولكن الذي يهمّنا الآن هو أن أؤكّد أنّ مطوّلات القصائد قد وقعت كثيرا في هذه الأسباب، ويمكن للقارئ أن يعود إلى ما استعرضناه آنفا من موضوعات المطوّلات في هذا المبحث، ليتأكد من زحمة الموضوعات التي يرجع إليها سبب تعقيد مثل هذه القصائد.

فلنتتبّع قافية الشيخ محمد الهادي توري السنغالي، التي بلغت 455 بيتا، ومطلعها(3) :

1 لمعان برق الليل نحو المشرق ** أبدى هوى قلبي بنور مشرق

ثم انظر كيف تخلّص من النسيب بعد ستين بيتا إلى الفخر ببسالته ليطيل هذه المقدمة :

67 قالت لإشفاق الهلاك علـيّ يا ** هذا ألا تحت السرير احرنبق

68 كثر الرجال على الطريق وكلّهم ** بطل غيور رمحه ذو ممرق

69 فأجبتها والله لستُ بفاعل ** وستعلمين بأنّني لم أخفق

بعد إسهاب طويل في الفخر بشجاعته وبشاعريته، وجّه مخاطبه بالنصائح واعظا إياه :

212 صاح اسمعن قولي وراع وصيتي ** ونصيحتي تصب الصواب وترفق

ولم يشرع في موضوعه الرئيس (المدح النبوي) إلا في الربع الثالث قبل ختامها بالتوسل :

278 إلا النبيّ الهاشمي محمد ** خير البرية بالعموم المطلق

---

(1) – اليدالي، الشيخ محمد : خريدة فوفانية ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوبيا، غينيا. **مع ملاحظة كسر الوزن فيما تحتها سطور.**

(2) – ينظر : قطوس، بسام : وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، ص 246.

(3) – ينظر : توري، الشيخ أحمد التجاني الهادي : سطور من حياة فقيد الإسلام محمد الهادي توري، ص 76، 79، 87، 90.

المبحث الرابع : مقطعات شعرية

1. مناقشة المصطلح :

إن المقطعات أو المقطوعات الشعرية، أو القصائد القصار، من الأنواع الشعرية التي شغلت بال النقاد عبر عصور تاريخ الأدب العربي، ولكن قلّما اتفقوا على تحديدها ؛ إذ يرى بعض علماء العروض أن ما دون سبعة أبيات تدخل في هذا المصطلح، وهذا هو الحدّ الفيصل بين المقطعات والقصائد.[1]

ولكن النقاد الأدباء لم يعتمدوا على عدد الأبيات بقدر ما اهتمّوا ببناء القصيدة، لأن مطوّلات فحول الشعراء تميزت بهيكل في بنائها الفنّي حيث تفتتح بنسيبٍ وتختتم بخاتمة، وبينهما أغراض كثيرة كوصف الفرس والطبيعة والصيد والوحوش ثم المدح فالفخر والحماسة، وما خلت عن هذا البناء فلا يمكن أن يعدّ قصيدة وإن زادت عن عشرين بيتا.[2]

وربما يستبعد الجمع بين الرأيين، وإن كان يمكن أن نبتغي بينهما سبيلا، ولا أرى مثلا بين ستة أبيات وعشرة أبيات، لأن الشعراء المقلين والمبتدئين يميلون إلى اقتصار أشعارهم على ما يتراوح بين البيتين إلى عشرة أبيات. وإذا ذهبت مذهب الرأي الثاني فإن جملة من قصائد الدواوين ستصبح كلها مقطعات، لأن الشعراء لم يلتزموا ببناء القصيدة، فقصائدهم خالية من النسيب والتصريع ومتّسمة بالوحدة الموضوعية، وهل يمكن أن نعد كل ذلك من المقطّعات[3]؟!! كلاّ ! لأن المقطعات دون مستوى القصائد من الناحية الفنية في مفهوم النقاد ، بل يرون أن المقطعات ليست من نتاج فحول الشعراء أحيانا.

ويبدو لي صواب الرأي الأول، لدقّته في التحديد، وباعتماده يمكن أن نفرّق بين المقطعات والقصائد في نتاج شعراء المنطقة، مع تقديرِ خروجِ الشعراء على بناء القصيدة التقليدية ثورةً أدبية في اتجاههم الفني .

وعليه يمكن أن نبحث عن أسباب هذه الظاهرة في الشعر العربي الإفريقي.

2. المقطعات بين أسبابها ومواضعها :

إن أوّل ما يفسر هذه الظاهرة يكمن في ميل الشعراء إلى الإيجاز، أصل البلاغة عند البعض. وقد سئل ابن الزِّبَعْرى[4] أحد شعراء صدر الإسلام عن سبب كثرة قصائده القصار

---

(1) – ينظر : الهاشمي، أحمد : ميزا ن الذهب، مؤسسة الكتب الثقافية، كنو، نيجيريا، الطبعة الثانية، 1415هـ/1995م، ص 23.

(2) – ينظر : علي، الدكتور محمد عثمان : في أدب الإسلام، ص 212.

(3) – كما سبق أشرنا إلى ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل.

(4) – هو عبد الله ابن الزبعرى الذي كان أسلم واعتذر إلى النبي ﷺ عن هجائه له، وحسن إسلامه الذي دافع عنه بشعره .

فقال :« *القصار أولج في المسامع، وأجول في المحافل*»[1]، وهذا ما كانت ظروف البيئة العربية أحوج إليه آنذاك لسيرورة الشعر بين الناس، ولكونه حديث الركبان والنوادي، بخلاف هذا العصر الذي حطّ من الشعر مكانته الاجتماعية.

أ.) فاتحة الدواوين :

إن كثيرا من الشعراء عهدوا أن يدبّجوا بضعة أبيات على الصفحات الأولى لدواوينهم أو مؤلفاتهم، والمقام يقتضي في هذه الحالة الإيجاز، والشاعر مضطرّ إلى الاقتصار على بيت مفرد، كهذا البيت الذي قيده محمد الأمين جابي تحت صورة صقر بفاتحة ديوان له: [الكامل]

1 سأطير مثل الصقر ليس يعوقه ** قيد ولا سد عن الطيران[2]

وفي هذا تلميح إلى معانيه الجديدة التي يطير إليها في آفاق الشعر من غير عيّ في التعبير.

وإن كان في هذا شيء من الفخر، فإن الغامبي بامين محمد سري يفضّل هذا التواضع:[الطويل]

1 لقد تمّ ديواني بخير عرضته ** لأعلامنا فاستحسنوه وجيّدوا

2 ولم يقفوا لفظا ومعنى وغيره ** على هفوة فيه الإله فأحمد[3]

وكأن الشاعر في هذه النتفة الشعرية يقدم إهداء لديوانه، رغم عدم توفّر شروط ذلك، ونجد عند غيره من يُعَنْوِنُ " الإهداء " وينظم تحته أبياتا قد تطول إلى سبعة أبيات كما هو مقيد في ديوان " من وحي المجتمع " للسنغالي محمد الأمين عاج، وهذا مطلعها : [البسيط]

1 أهدي لروحك يا عمّي تحيّاتي ** يختال في ثوبها ديوان أبياتي[4]

ولكن الشاعر المالي عمرو عبد اللطيف ساغو كان أروع منه أسلوبا، وأشمل معنى :[الوافر]

1 هداياي ديوان لصحبي معسجد ** فمبداه ذهب والختام زبرجد

2 سلام على صحبي تلاه التودّد ** فهذا لديوان لعمرو مخلّد

3 فإن لم تروني في الحياة فإنّني ** مجيد القوافي في ارتجال مقصِّد

4 قصائد في حسن النظام لفضّة ** كساها جمالا في العيون التوقّد

5 وتكفي أنيسا في اجتماع وخلوة ** فلا وحش يشكوه قريب ومبعد

6 تُوُفِّرَ بحرا في اللسان كحلوة ** وفي الأذن عصفور فصيح يغرّد

7 وتشبيب عمرو كامرئ القيس صبوة ** ومدحاً أبو طيب لسيف يمجّد

8 فإن جاءكم نعيي عليّ ترحّموا ** وقوموا على روضي الدعاء فردّدوا

9 فأسأل مولانا خلودا بجنّة ** وأشكره عقد الختام وأحمد[5]

---

[1] – القيرواني، ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحـ محي الدين، ط 2، القاهرة، 1384هـ/1965م، ص 187/1.

[2] – جابي، محمد الأمين : مختارات من قصائد الشاعر، مخطوط، كوناكري، غينيا، ص 1.

[3] – جايتي، بامين محمد سري : ديوان شعر، مخطوط، بركاما، غامبيا، ص 1.

[4] – عاجْ، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 1.

[5] – ساغو، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر، مخطوط، ص 2.

ب.) ***الأناشيد :***

في هذا اللون الشعري يلجأ الشاعر إلى قصر أبياته كي تصلح للغناء والألحان، وخاصة إذا كانت هذه الأناشيد موجهة إلى الصبيان كديواني البستان للشيخ يعقوب دوكوري في مالي والأناشيد المدرسية لموسى باباتندي في نيجيريا، لأن الغناء يصلح في القصائد القصار ذات الأوزان القصيرة أكثر من المطوّلات التي يجد التلاميذ حفظها صعباً عسيراً.

وقد يكون الموضوع صالحا لقصيدة طويلة ولكن الشاعر يضطر إلى إيجازه مادام ينحو منحى الأنشودة، كموضوع " أحب الجدّ " الذي اقتصره موسى باباتندي على أربعة أبيات، غير أن شاعرا كبيرا يمكن أن يسهب في المعاني في مثل هذا الموضوع : [مجزوء الوافر]

1 أحب الجدّ في العمل ** وأترك صاحب الكسل

2 وأكره كثرة اللعب ** لأبلغ غاية الأمل

3 وحين الدرس والعمل ** أفارق صاحب الهزل

4 وأعطي العلم حرمته ** وأطلبه بلا خجل[1]

ويذكّرنا هذا الموضوع بمضمون " نشيد الزرّاع " لعمرو عبد اللطيف ساغو، الذي لم يستطع أن يجاوز فيه تسعة أبيات كعادته في سائر الأناشيد في ديوانه السابقة الإشارة إليه آنفا.

ج.) ***الشعراء المبتدئون أو المقلّون :***

إن بعض المقطّعات التي تكثر أحيانا في بعض الدواوين فإنها قد تدلّ على المحاولات الأولية التي بها ابتدأ الشاعر قول الشعر، وإذا أكثر بعد ذلك فلا بدّ أن نردّها إلى إحدى الأسباب التي نحن في صدد تناولها. وجمعتُ شعر بعض المبتدئين فلم أرهم يجاوزون عشرات أبيات في ما يقرضونه، لأن ملكتهم ما زالت في سبيل نموّها، وقريحتهم الأدبية غير مصقولة، وقوّتهم الخيالية ضعيفة، وبضاعتهم الفنية مزجاة.

إن أوّل ما قرضه الحاج عبد الرحمن باه الغيني من الشعر ميمية ذات عشرة أبيات في مدح شيخه عمر الداري وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجابه شيخه بميمية في عدد الأبيات نفسه[2]، (وبهذا نعدّ الإجابات من أسباب وضع المقطعات لدى بعض الشعراء).

وشعبان لواني في بنين قليل الشعر، فهذا ما يفسر مقطعاته الشعرية. ولمّا جرّب يوسف محمد بابا من نيجيريا خطواته الأولى في الشعر أتى بمناجاة إلهية لم يتجاوز فيها سبعة أبيات، ولا تجد فرقا بين أبياته الفتية وبين شعر الشيوخ الصوفية في ابتهالاتهم : [الطويل]

1 يممتُك يا شافي لتشفي ما بيا ** من الداء والآلام فاشف إلهيا

2 أيا رب، يا رحمن ، يا شافي الأدوا ** لتشفي أدواء الردى واشف ما بيا[3]

---

(1) – باباتندي، موسى محمد عثمان : الأناشيد المدرسية في مزايا الحنيفية ، ص 8.

(2) – ينظر: باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 116–117.

(3) – بده، يوسف محمد بابا : يا شافي ، مقطعة شعرية ، مخطوطة ، كدونا، نيجيريا.

وهذا مرتضى محمد معاذ الغاني[1] ينجب أول باكورة قصائده في عاطفة حـــارة، لا يشكّ القارئ أن الشاعر قد غذّى ملكته بتجربة شعورية، وهذا ما يعلّل جودة مثل هذه الأعمال الأولية، التي عنونها بـــ " حبيبتي المجهولة " بعد طول تفكير وهو في سنة التخرج: [الطويل]

1 بفكري وقلبي قد نظمـت قـصيدة ** أداوي بهـــا حبّـــا بقلــب يـــؤجّج
2 عشقتُ ولا أدري على ما أعاشــق ** فصرت كمن يمــشي بليــل يــسرّج
3 شعوري يحدثْني بمن قــد تحبّنـــي ** على الرغم ما أخفي وقلبـــي ملجلــج
4 إذا لم يكن للحـب بـدّ فيــا تُــرى ** أ أختار بنتــاً وهـــي جـسم مــدبّج
5 وإن كان ذات الدين عنــدي مخيــر ** ولكنّ ميلـــي لا إلـــى الــدين ينــسج
6 متى نلتقي حتى تــذوب خـشونتي ** ويقضي على وحــشي لقـــاء مفــرّج
7 ولو أنّني شمتُ القلوب التـــي أرى ** لأدركت مـــن حبِّـــي بقلبـــي فنمـــزج
8 ولكـــن جهلـــي من يلاين فكـــرتي ** يزيد جمودي كلّما حـــان مخـــرج[2]

إن في كلمة " يحدثْني " في البيت الثالث كسر للـــوزن، وفـــي الخـــامس والـــسادس ضرورات شعرية في تذكير " ذات " وحذف تاء " وحشتي "، كلها أمور تدلّ علـــى خطواتـــه الأولية في عالم الشعر، ولا يشكّ أحد في حرارة العاطفة وعمق الخيال الفني لملكته الفنية.

هذا ، وهناك ميل بعض كبار الشعراء إلى المقطعات الشعرية رغم نضوج قريحتهم، وإن كانوا قلة بين شعراء المنطقة، على رأسهم الشاعر السنغالي دود سيك ابن المقداد[3] الذي نقل من شعره صاحبُ "الشعر السنغالي العربي" عشرين مقطّعةً شعريةً في ستة وخمسين بيتا وفي مختلف الأغراض الشعرية، منها هذه النماذج الآتية :

لما تمثّل شيخه الموريتاني بأحد أبيات البوصيري عند مفارقته له : [الخفيف]

فارقتُــه كرهاً وكان لديها ** ثاويا لا يملّ منـــه الثـــواء

فقال مرتجلا في جواب شيخه وهو يودّعه : [بسيط]

لا عـــيب للقـــوم إذا كـــان برّهـــم ** ينسي الغريب أهاليه وأوطانا[4]

وصادف أن جاءه أحد علماء موريتانيا ينوي زيارة الشيخ أحمد بمبا، وقد تاق هو كذلك إلـــى رؤية الشيخ نفسه بعد عودته من منفاه، فقال له مرتجلا : [الطويل]

ألا ذكّر الشيخ العهـــود ولا تنـــسى ** لدى الشيخ ذكرى أصبح الشيخ أو أمسا
فبلّغــه عّنـــي كلّ مـــا لاح وجهـــه ** ســـلام محـــبّ لا يريـــد بـــه فلـــسا[5]

وفي مثل هذه المواقف المرتجلة لا يستطيع الشاعر الكبير أن يطيل، فتقلّ أبيات قصائده.

---

(1) – أحد طلبة غانا في الجامعة الإسلامية بالنيجر حيث تخرج فيها سنة 2004م، يقيم في قلب غانا بمدينة كوماسي.

(2) – معاذ، مرتضى محمد : حبيبتي المجهولة، مخطوطة، كوماسي، غانا.

(3) – هو ابن المقداد الأصغر كان كاتبا ومترجما وسفيرا في الإدارة الفرنسية الاستعمارية، مثل جده ابن المقداد الجد.

(4) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 96/1.

(5) – **المصدر نفسه، ص 97/1.**

د.) مقطّعات كبار الشعراء :

لاحظت إيراد مقطعات شعرية في مختلف الأغراض لدى شعراء المنطقة، ويكفينا أن نسوق بعض النماذج من تلك الأغراض، من غير تناول كل غرضٍ على حدة، لأن لنا وقفة طويلة عن الأغراض في الباب الرابع.

إذا تأملنا في مناجاة أحمد في ديوانه " ديوان القرآنية " فنجد فيها 23 مقطّعة ، وللشاعر الغاني الحاج عيسى الحسن بَكِ مقطعات في مناجاته(1). وكأن الشعراء لا يجدون المكان واسعا للإطناب في مثل هذا الموقف أمام الهيبة الإلهية، حتى ولو كان من كبار الشيوخ الصوفية كالشيخ محمد اليدالي في غينيا، فجاءت مناجاته هذه في قطعة شعرية: [غير موزون]

1 ***وسيلتي وشيخي في الدارين ** الشيخ عبد القادر الجيلاني***
2 ***سلطان الأولياء محيي الدين ** الشيخ عبد القادر الجيلاني***
3 ***الباز الأشهب الشريف الغوث ** الشيخ عبد القادر الجيلاني***
4 ***قطب أقطاب الوجود حقّاً ** الشيخ عبد القادر الجيلاني***
5 ***يرحم مولانا ويرضى بالرضى ** الشيخ عبد القادر الجيلاني***(2)

وإن تكرار الشطر الثاني لدليل حرصه الشديد على الإيجاز الذي هو روح المقطعات الشعرية.

وفي مدائح بعضهم تأتي المقطّعات مقيدة أوائل أبياتها ببضعة أحرف معينة، وفي هذه الحالة فإن الشاعر مضطر أن يلتزم بإتيان أبياته حسب عدد تلك الأحرف، أو يتقيّد بخمسة أبيات مقفّاة على أحرف المعجم كما في ديوان " تسهيل المطالب وتقريب المآرب" للنيجيري " أبي بكر صديق تفكي ترا " في مدح الحاج محمد بلاربي بن عبد القادر.(3)

لقد مدح الشاعر السنغالي عبد العزيز سار شعب أندونيسيا بمقطعة شعرية، أ لِعُجالةٍ كان ذلك أم لقلّةِ معلوماته عن الشعب ؟ أو اجتمع عليه السببان في هذه الزيارة القصيرة التي قضاها هناك، فجاءت منه هذه الأبيات السبعة : [الكامل]

1 ***شعب تقدم للعلى بجهوده ** وبحبه للعلم والإعمار***
2 ***شعب تحرّر فاستردّ مكانه ** يهوى الحضارة والعراك الضاري***
3 ***عشق الشجاعة والبطولة قد بنى ** أبراجه ، هي آية الزوّار***
4 ***نهواك يا وطن الجمال صراحة ** فأتت تؤكّد شوقنا أشعاري***
5 ***فطبيعة خضراء فوق طبيعة ** فكأنها من جنّة الجبّار***
6 ***علّمت شعبكِ ما النظام فأصبح ** في جسمه حسّا قريبا جار***
7 ***فادع الشعوب لكي ترى ما عندك ** فلديك دين وازدهار سار***(4)

---

(1) – بك، الحاج عيسى الحسن : كتاب سلسلة العربية لطلبة إفريقيا، ص 100.

(2) – اليدالي، الشيخ محمد : التوسل بالجيلاني، مخطوطة ، كوبيا، غينيا.

(3) – الأمين،يحيى محمد:مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن 20 م،كلية الآداب،جامعة بايرو،1997م،ص238.

(4) – سار، عبد العزيز : زيارتي لأندونيسيا، مقطعة مخطوطة، تواون ، السنغال.

إذا وجدتْ بعض الأسباب لمثل هذه المقطعات المدحية، فإن تعليل بعضها يبقى عسيرا وغامضا لدى بعض الشعراء الكبار، الذين يزاوجون بين طول قصائدهم وقصرها، وأشهر من يستحق لقب " شاعر المقطعات " هو النيجيري عبد الرحيم حمزة الذي ضمّن ديوانه بمئة وأربع مقطعات،[1] وهذا بخلاف مواطنه عيسى ألبي الذي أتى بثلاث منها[2]، وقد يأتي في المرتبة الثانية محمد الناصر الكبرى بوضع 42 مقطعة في "الديوان المبارك".[3]

وربما الحاج إبراهيم انياس أكثر شعراء السنغال استعمالا للمقطعات لأن له 66 مقطعة في ديوانيه " الدواوين الست وجامع جوامع الدواوين"، ويأتي بعده الحاج عبد العزيز سي في 64 مقطعة، الذي يليه أبوه الحاج مالك سي في 35 مقطعة[4]، ثم أخوه أبو بكر الخليفة في 30 مقطعة، ثم نجل هذا الأخير الشيخ أحمد التجاني سي في 20 مقطعة[5]، ويأتي بعدهم أحمد عيان سِهْ في 19 مقطعة ثم ذو النون السنغالي في ست عشرة مقطّعة[6]، و الشيخ محمد الخليفة انياس في تسع مقطعات ، وسبع فقط عند القاضي مجخت كل. فشعراء السنغال أكثر عناية بالمقطعات من غيرهم.

وأما في غامبيا فنجد عند الحاج علي كانتي أربع عشرة مقطعة. وفي مالي نجد عند عمرو ساغو سبع مقطعات، وعند يعقوب دوكوري 32 مقطعة في بستانه. وفي بركينا فتسع مقطعات فقط في شعر محمود سانوغو. وفي غانا ست مقطعات عند عمر كركي.

وإذا حاولنا تعليل بعض المراثي التي جاءت في ثوب المقطعات فإن اضطراب النفوس في مثل هذه المواقف المؤسفة لأكبر سبب في قصر أبياتهم، وخاصة إذا كان المقام عند الدفن فإن الشاعر يضطر إلى أسلوب المقطعة، كرثاء دمبا واكي عند دفنه من أحد أبنائه:[الطويل]

1 ***دفنتم جديل الفقه والنحو والقضا ** وغيّبتم في الرمس كنز المذاهب***
2 ***لقد أدبر العرفان والزهد والتقى ** وأظلمت الأرجاء فوق المكاتب***
3 ***على النفس في الأكفان عاضت لحمله ** بحور علوم الدين من كلّ طالب***

ويأتي الغزل في المقطعات إذا كان الشاعر لا يتعاطاه كثيرا، إما لضعف قريحته في هذا الغرض، أو لغلبة الروح الدينية عليه كهذه اليائية التي أنجبتها قريحة محمد كبير يونس : [الطويل]

1 ***أنا إذ حول قريتك الليـ ** ـل جميلا سكونه عبقريا***
2 ***وغفا تحته الربا والأزاهيـ ** ـبر ونام الطيور نوما رضيّا***
3 ***وأطال السجود وسط سكون الليـ ** ـل طود يسبح الأ زليا***
4 ***أنا إذ ذاك دائما أدع النا ** س لأخلو مع الوجود مليّا***
5 ***ناظرا في السماء علّك تأتيـ ** ـن مع الليل في سكون إليا***
6 ***فانزلي كالملاك يا نور عيني ** عند ذاك الهدوء نخلو نجيّا*** [7]

---

(1) – راجع : حمزة، عبد الرحيم : ديوان شعر مفتوح.

(2)– ينظر: ألبي، عيسى أبو بكر: الرياض.

(3) – راجع: الكبرى، محمد الناصر: الديوان المبارك.

(4)– ينظر: سي، الحاج مالك: ديوان شعر.

(5) – راجع : سي، أحمد التجاني : ديوان شعر.

(6)–ينظر:صمب،عامر:الأدب السنغالي،ص102/1،و255

(7) – يونس،محمد كبير:إلى نور عيني،مقطعة مخطوطة،كنو،سنيجيريا.

وقلّما جاء وصف الكتب في تقريظ المؤلفات والدواوين في مطوّلات شعرية، ربما لأن الموضوع كهذا لا يتطلب هذا الإطناب ، كتقريظ الشيخ أحمد الموسوي[*] لديوان الشيخ إبراهيم غشيغ الغاني في مقطعة ذات خمسة أبيات، أقتطف منها هذين البيتين : [الوافر]

1 رأيت قصائد شتى لشيخ ** تقيّ إن تعدّ الأتقياء
2 فها هو شاعر الشعراء حقّا ** إذا ما عدّ صاح الشعراء[1]

وإذا عرفنا قلّة الوصف في نتاج شعراء المنطقة لن يكون غريبا لدينا أن تأتي في شعرهم مقطعات لوصف الضيافة[2] أو الفرس[3] أو المدينة[4] مثلا، وخاصة إذا كان موضوعها يتمحور حول " أتايْ " أي الشاي الأخضر، وما أظن أن الملكة الشعرية تسمح لشاعر أن يطيل الوصف في مثل هذا الموضوع :

يقول سليمان الحوات[5] المالي هذه المقطعة في وصف الشاي والحث على شربه:[الطويل]

1 وهيموا بشربكم " أتاي " فإنّه ** حلال وليس في الحلال ملام
2 وكونوا عليه مدمنين فإنه ** شفاء النفوس إن عراها سقام
3 يثير نشاطا يبسط الكفّ بالندى ** فمن ثمّ كل شاربيه كرام
4 إلى غير هذا من منافع جرّبت ** وقال بها في السالفين إمام[6]

ولم يقل الخليفة بن مصطفى[7] في وصفه غير هذه النتفة الشعرية : [الطويل]

1 إذا لم نجد إلا النميلة مشربا ** شربنا ولم نعبأ مقالة ذي عذل
2 فإن وجد المفتول قلنا لنملة ** مقالتها للنمل في سورة النمل[8]

لاحظت ظاهرة اقتصار الشعراء السنغاليين على بضعة أبيات يودعون بها أصحابهم[9]، أو يبلّغون بها التحية لذويهم أو يشكرون بها لمن أحسن إليهم. وقد اشتهر شعراء المريدية في السببين الأخيرين ، كما هو ملحوظ في شعر سرين امبكي عبد الرحمن[10]، ولدى الشيخ أحمد جو[11]، وما أكثره في شعر الشيخ أحمد بن سعيد[12] الذي يشكر شيخه في هذه النتفة: [البسيط]

(*) – أحد علماء دغومبا في تمالي بشمال غانا، كان من معاصري الشيخ غشيغ، ولم أعثر على غير هذه المقطعة من شعره.

(1) – ينظر : غشيغ، الشيخ إبراهيم : مجموعة القصائد في نصائح الإخوان ، مخطوط، ص 35. وفي النموذج كسر في وزنه.

(2) – ينظر : دراسة نقدية لشعر الشيخ محمد ميماسا النفاوي، كلية الآداب،الماجستير، جامعة إلورن، نيجيريا، 2001م، ص 107.

(3) – كوصف مجخت كل لفرسه في بيتين، ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 78/2.

(4) – كوصف أحمد مختار سيك لمدينة طوبى بالسنغال، ينظر : المرجع نفسه، ص 308/2.

(5) –كل ما نعرف عنه أنه أحد الشعراء من صحراء مالي،بضواحي تنبكت،ولم نجد منه غير ما أورده القاضي درامي في مؤلفه.

(6) – درامي ، الشيخ القاضي : صحراء جمهورية مالي وشعرها العربي ، مخطوط عند المؤلف ، بماكو، مالي، ص 202.

(7) – هو أحد شعراء صحراء مالي ، لم يترجم لحياته المرحوم القاضي درامي.

(8) – المصدر نفسه ، ص 202.

(9) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 179/1 و 232/1.

(10) – ينظر : امبكي، سرين عبد الرحمن: ديوان شعر، مخطوط، ص 5، و8، و47.

(11) – ينظر : نخبة من الباحثين : دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم ، ص 29.

(12) – كان من كبار أتباع الشيخ أحمد بمبا، مؤسس المريدية، وعند وفاته رثاه بروائع شعره.

1 ***يا شيخ جاءتك في ذا العيد عيــدان ** من أجل شــكر لأن الــشكر زيــدان***
2 ***يا فرد كن لي وكن للمحسنين وكن ** للمحسنات ومن بالدين قد دَانـــوا***

وقال تحيّة يبلّغها إلى شيخه أيضا بهذه الأبيات الأربعة : [المتقارب]

1 ***ســـلام جـــسيم كَكَـــرْدَنٍّ ** لسيد علا مــن عبيــد دنـــي***
2 ***لعبــد خــديم هــدى جــاهلا ** وحبرا ومــدحي لــه ديــدني***
3 ***هو البر والبحر أهــدي لــه ** مديحي لُغى عن لَغى صــدّني***
4 ***عليــه رضـــى من هداني به ** وكلّ هدى فاهتدى ودّنـــي***[1]

من المعلوم أن الحِكَم تأتي موجزة ومبثوثة في القصائد، وأما الذين وظّفوا الشعر فـــي وصية أبنائهم ، أو في نصح أتباعهم فلجؤوا إلى المقطّعات ، إما لسهولة فهمها أو حفظهـــا أو ليبقى صداها يرنّ في الآذان بعد سماعها. وينجلي ذلك في ديوان الشيخ عبد العزيز ســـي[2]، وفي ديوان أبيه الحاج مالك سي[3]، وانظر كيف يذم الشاعر الغامبي محمد غساما التعـــصب والتخلف في سبعة أبيات من ديوانه " بنات القريحة [4]"، ولنقف على شاعرين تناولا " الحسد والحسود " في نصيحتهما ، يقول أحدهما وهو الشيخ محمد رشاد من غانا : [مجزوء الرمل]

1 ***إن أردت أن تـــــسود ** فاطلب العلـــم تـــسود***
2 ***لا تحاســـد من يســـود ** فالحســـود لا يسود***[5]

وقال الشيخ البوصيري من نيجيريا : [البسيط]

1 ***الحسد يكــسب إضــلالا لــصاحبه ** ولن يسود الحسود فـــي الـــدنا أبـــدا***
2 ***ولا تكن حاسدا بالخلق ذي شـــرف ** إن الحسود لجمع النـــاس مطـــرودا***
3 ***وداخلا فـــي جحيـــم ذاك حاســـدنا ** والخسر يدركه من حيث ما وردا***[6]

وقد بثّ الأديب عبد الرحيم حمزة كثيرا من مقطعات الحكم في ديوانه " شعر مفتوح".[7]

وربّما تأتي الشكوى في صدارة بعض القصائد، وأما إذا ما أفرد الـــشعراء للـــشكوى أبياتا فقلّما أن يطوّلوا فيها، لأن الموضوع قد لا يتطلّب حـــديثا مـــسهبا فـــضفاضا، وإذا أراد الشاعر أن يلخّص شكواه في شعر فإنه قد يكتفي ببيت فريد كما لخّص أبوبكر تيام ما جـــرى بينه وبين معاصره الشيخ سعد توري عند حلّ مشاركتهما في شأن مدرسة أسّساها:[البسيط]

هنا كلام طويل الذيل نطويه ** والله سبحانه لا شكّ يبديه[8]

---

(1) – المصدر السابق، ص 58.
(2) – ينظر : سي، الحاج عبد العزيز : مقرب الأماني لكشف أنوار المعاني، ص 1/543-557.
(3) – ينظر : صمب، عامر : الشعر السنغالي العربي، ص 2/161.
(4) – ينظر : غساما ، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 33.
(5) – سليمان، الشيخ محمد رشاد : الحسود، مخطوطة، كوماسي، غانا.
(6) – تيجاني، فضل الرحمن: دراسة نقدية للشعر العربي لأحمد البوصيري،الماجستير،كلية الآداب،جامعة،إلورن،1997م،ص 47.
(7) – ينظر مثلا الصفحات التالية : 22، و34، و62 و118-119.
(8) – تيام، الشيخ أبو بكر : في شأن مدرسة سبيل الفلاح ، مخطوط، سيقو، مالي.

وقد يأتي بعضهم بالشكوى في شكل قصة، وإن كان له فرصة التطويل والإطناب، إلا أن الشاعر قد ينحو منحى المقطعات لإيجاز صور أحداثه، إمّا للدلالة على براعته أو لسبب في نفس يعقوب قضاه، انظر كيف يشكو الشيخ أحمد حيدر من حياة الطلبة في معهد البعوث الإسلامية في مصر : [البسيط]

1 *في موسم البيض للطلاب طابور ** كأنهم في بكورهم عصافير*
2 *من ساعة [6] تراهم نحو مطعمهم ** يهرولون وبعض منهم سهروا*
3 *فذ يغنّي ، وذا يرقص لبيضته ** وذاك يشدو كأن القوم قد سحروا*
4 *إذا سمعت صراخا حول مطعمهم ** فاغرب ، فأمرهم فيما أرى خطر*
5 *فهم على طبق للفول يقتتلوا ** وإنهم في سبيل البيض ينتحروا*
6 *فالفول نَحْوُهمُ، والبيض صَرْفُهم ** والعيش منطقهم، فكيف ينتصروا* (1)

يميل بعض الشعراء إلى نظم رسائلهم الإخوانية، وقد يصلح في النثر نوع من الإطناب لا يصلح في الشعر، فيضطرون إلى الإيجاز والقصر، فتأتي قصائدهم ذات دلالات محدودة حسب الحاجة، بعيدا عن ترجمة العواطف والمشاعر.

إن أكثر قصائد ديوان " من وحي الواقع " طويلة، كما سبق الحديث عنها، ولكن صاحبها شيخ تجان غاي لما أراد مراسلة شعرية إلى أحد شعراء موريتانيا بن عمر لي اكتفى بأربعة أبيات يصف فيها انطباعاته عن قصيدتي ذلك الشاعر، المنشورتين في أحد أعداد مجلة " الصحوة "، فأجاب الشاعر الموريتاني بأربعة أبيات أخرى.(2)

وهذا هو عبد الله دظو يتلقى من أحد زملائه خمسة أبيات دالية مادحا إياه، ومطلعها :

1 *فإنك فينا نجل موسى لأفصح ** من ابن أبي سلمى من الريح أجود* (3)

فأجابه على بحره ورويّه في تسعة أبيات : [الطويل]

1 *وكيف ! وفينا ابن يونس مفلقا ** فصيح لسان، والخطيب الأجود*
2 *حفظت أصول العلم جادا بفهمها ** فأنت لما صفت ابن يونس نشهد*
3 *أمسكين مثلي يوصف بصفاتكم ** وشأنكم بدر في الجميع أتجحد* (4)

ومن جهة أخرى نجد بعض الصور الشخصية من الشعراء على فاتحة دواوينهم، وتحتها أبيات مزخرفة بكلمات طريفة تذكّر وتشوّق، وفي هذه الحالة ليس للشاعر أي مبرّر أن يسهب لنا في مثل هذه المعاني التي جاءت كديباجة لكتاب الشيخ مرحبا " الفتاوى " من بوركينافاسو :

*ماض أنا والخالق الباقي إذا ** متُّ فصورتي لكم كمثلنا*

سطرها فوق صورة، وقف فيها ويده على كتب كثيرة ممسك بعصاه بيد أخرى، وتحتها قال :

---

(1) – حيدر،أحمد: في موسم البيض في البعوث الإسلامية، صحيفة الصداقة، يونيو 2003م/ربيع الثاني 1424هـ، العدد 43،ص7
(2) – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 137.
(3) – يونس، عبد الله المالي : رسالة مدحية ، مخطوطة ، غاو، مالي.
(4) – دظو، عبد الله موسى : أجبته ، مخطوطة ، كادونا ، نيجيريا.

لم يبق من جلّ هذه الناس باقية ** ينالها الوهم إلا هذه الصورة

وتحت صورة شمسية أخرى ذات وجه بارز سطّر ثلاثة أبيات يستندب فيها بعد وفاته: [؟؟]

1 أبكــوا عنّــي إذا مــا فقــدتموني ** واذكــروا خيراتــي بمــا أدركتمــوني

2 ما لأحد بقاء ولــو عــاش ألوفــاً ** والعمــل بــاق وعاملــه المــدفون

3 ولو عكس ما قلتُ لكــان الرســول ** حيّاً في أصحابه في مســاكن الهجون[1]

وفي كتاب " التحفة الثوبانية في مشاهير التجانية بجنوب نيجيرية " زيّنه مؤلّفه الأستاذ محمد ثوبان بن آدم عبد الله الإلوري بكثير من صور الذين ترجم لهم، تتصدّرها صورته ثــم تليها صورتا والده وشيخه الحاج إبراهيم انياس، وتحت كل هــذه الــصور أبيــات موحيــة بانطباعاته ومشاعره الفياضة، له ثلاثة أبيات تحت صورته الخاصة : [الخفيف]

1 هــذه صــورتي فخــذها وصــنْها ** ولــتكن بعــد غربتــي تــذكارا

2 وتُنبّــي عــن هيئتــي ووجــودي ** وتثيــــرن بنظــــرة أخبــــارا

3 ثم توحــي لــذي الفراســة وحــياً ** واضــحا ثم تكشــف الأســرارا[2]

ويبدو في الأبيات، التي تحت صورتي الشيخ الإلوري والشيخ إبراهيم انيــاس، مــن وزن واحد وروي كذلك، ولا فرق كبير في معانيها ، فمطلعهما متحد في المعنى :[الوافر]

1 فهذي صورة الشيخ الإلــوري ** حقيقتها يكــنّ بهــا ضــميري

1 فهذي صورة إبراهــيم شيخــي ** انياس الكولخي حبّ الصدور[3]

ويسجّل الشاعر الغاني الحاج عيسى بَكِ أربعة أبيات تحت صورته في أحد مؤلفاته، مطلعها:

يا إخوتي إنّي أقدّم صورتي ** لتكون رمز مودّتي لشقيقي[4]

وفي مقطّعة بعنوان "وقتي حياتي" لم أستطع أن أتناولــه فــي إســهاب، لأن طبيعــة موضوعها لا تتطلب في نظري إلا الإيجاز ، فقلت هذه الأبيات الستة : [الطويل]

1 حريص على وقتي ، جليل إرادتي ** شعاري علوم، والسلوك عبــادتي

2 تعال تنلْ قوتي لأبقى على الطوى ** وتأخذ ثيــابي كــي أســير بــآفتي

3 تعال تنلْ شربي أظلّ على الصدى ** وتحــظ بمــالي كــي ألازم فــاقتي

4 ولكنّ وقتــي لــن تنــالَ كثيــرَه ** سأبخل فيــه ، لا لبخــل ســلالتي

5 نهاري وليلي في بنــاء جلائــل ** بذاك شــعوري بالحيــاة وحــالتي

6 وإن شئتَ ترميني بحُمقٍ مُكابِــراً ** وإن شئتَ تُرضيني لحــفظ كرامتي

---

(1) – سانوغو، الشيخ محمد مرحبا : كتاب الفتاوى، مطبعة المنار، تونس، لا.ط، لا.ت، ص 31-32.

(2) – الإلوري، محمد ثوبان : التحفة الثوبانية في مشاهير التجانية بجنوب نيجيرية، ص 1.

(3) – المصدر نفسه ، ص 8-9.

(4) – بك، الحاج عيسى الحسن : كتاب سلسلة العربية لطلبة إفريقيا ، ص غلاف الكتاب.

الفصل الثالث

قضية الوحدة في القصيدة

المبحث الأول : الوحدة الموضوعية

المبحث الثاني : الوحدة العضوية

المبحث الثالث : الوحدة النفسية

توطئة :

إن قضية " وحدة القصيدة " لم تشغل بال النقاد القدماء بقدر ما أصبحت الآن أهم القضايا النقدية الحديثة، وإن كان البعض يردّها إلى تأثر القدماء برأي أرسطو في وحدة الأجزاء في المسرحية والملحمة، ولكن الدعوة إليها في العصر الحديث أصبحت معلما من معالم الآداب العالمية الحديثة، وإن كان الاختلاف ما زال قائما بين الأدباء في تعيين أول من دعا إليها في العصر الحديث.

« *يختلف الدارسون المحدثون في تحديد أول من نادى بوحدة القصيدة في نقدنا العربي الحديث : ففي حين يرى أحدهم أن حسين المرصفي*[1] *هو أول من دعا إلى وجوب تحقيقها، نجد باحثا آخر يعقد الزعامة للعقاد، وثالثا يحل مطران*[2] *في المحل الأول، ورابعا يجعل البداية الحقيقية لصاحبي الديوان (العقاد والمازني*[3] *) اللذين ارتضيا " الوحدة المعنوية " اسما للوحدة المطلوبة*[4] »

وإذا كان مصطلح " الوحدة المعنوية " مرضيا عند هؤلاء فإن غيرهم أتوا بمصطلحات أخرى : الوحدة الفنية، والوحدة البنائية، والوحدة الموضوعية، والوحدة العضوية، والوحدة النفسية، والوحدة الطولية... الخ.[5]

هكذا اختلفوا في الاتفاق على مصطلح واحد، فذهب كل واحد منهم إلى اعتماد أحد هذه المصطلحات ليشمل سائر معاني المصطلحات، فيقول أحدهم :« *ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة : وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية* ».[6]

ونجد هذا المفهوم عند غيره في حدّ المصطلحات الأخرى، لذا نرى تداخلا في مفاهيم هذه المصطلحات، الأمر الذي يجعلني أركّز على ثلاثة منها في المباحث الآتية، أراها أساسية وشاملة لقضايا المصطلحات الأخرى، وهي :

1. ***الوحدة الموضوعية ،***
2. ***الوحدة العضوية،***
3. ***الوحدة النفسية.***

---

(1) – هو ابن أحمد بن حسين (ت 1889م)، أديب مصري أزهري وضرير ، له الكلم الثمان، والوسيلة الأدبية. الأعلام 232/2.

(2) – هو خليل بن عبده بن مطران (ت 1949م) شاعر لبناني، عني بالتاريخ وترجمة روايات شكسبير وكورناي وراسين وهيجو من الكتاب الغربيين، كما عني بإنشاء المجلة المصرية والجوائب المصرية. لقب بشاعر القطرين. وفاته بالقاهرة. الأعلام 320/2.

(3) – هو إبراهيم عبد القادر المازني (ت 1949م) ، مولده وموته بالقاهرة، شاعر وكاتب ومترجم عن الانجليزية، حاول التحرر من قيود الأوزن والقوافي. وأصدر مجلة الأسبوع، وحرر في الأهرام. الأعلام 72/1.

(4) – قطوس، بسام : وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، دار الكندي، أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1999م، ص 59.

(5) – ينظر : حمدان ، محمد صايل : قضايا النقد الحديث، دار الأمل، أربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1991م، ص 42-43.

(6) – هلال، د.محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث، ص 394.

المبحث الأول : الوحدة الموضوعية

ينبغي أن يحصر هذا المصطلح " الوحدة الموضوعية " في إطار الموضوع الذي تتناوله القصيدة، أي أن يكون للقصيدة موضوع واحد تناولته أبياتها المرتبطة بفكرة واحدة، بغضّ النظر عن كون هذه الأبيات مرتبطة ارتباطا محكماً، أو ذات مشاعر موحّدة من مقدمة القصيدة إلى خاتمتها. وفي هذه الحالة يمكن أن نفرّق بينها وبين الوحدة العضوية التي تخصّ وحدة أجزاء القصيدة في أبياتها من جهة ، وبين الوحدة النفسية التي تختص بوحدة المشاعر في حرارتها وصدقها.

وليس بالضرورة أن تكون وحدة الموضوع بمفهوم وحدة الغرض، كما عند شعراء العصر الجاهلي، حيث كانت القصيدة ذات أغراض متعددة :من غزل للنسيب، ووصف للطبيعة والفرس، ومدح للممدوح، وفخر بالنسب والحسب، وهجاء للأعداء. وفي الوقت نفسه تعدّ ذات موضوعات متباينة بين الحديث عن الطبيعة وفضائل الممدوح ورذائل الأعداء في آن واحد. غير أن الشاعر الذي يتوسل بالنبي ﷺ وبالأنبياء، وبوسيلته الصوفية، وبالأولياء، فإن مثل هذه القصيدة ذات غرض واحد هو " التوسّل "، ولكنها قد تنقصها وحدة الموضوع.

ولكن الذي يهمّنا أن نؤكد وجود " الوحدة الموضوعية " في المقطعات الشعرية، التي قد لا يجد الشاعر متّسعاً لتنويع موضوعاته ، وإلا سيكون شعره في غاية من الإيجاز المخلّ، حيث تأتي أبياته مبتورة من غير أن تتضمّن الألفاظ الدالة على معان كاملة. وهذا واضح صدقُه لمن يرجع إلى المبحث الأخير من الفصل السابق.

وبصفة عامة، يبدو في قصائد شعراء المنطقة تنبّههم بوحدة الموضوع ، لالتزامهم ببعض العناصر الفنية أتاحت لهم ذلك :

1. عدم التزام شعراء المنطقة ببناء القصيدة العربية التقليدية، رغم كون معلّقات الشعراء الجاهليين ركيزة مناهجهم الدراسية. وإن تأثّر بعضهم بالنسيب، فإن تعدد الأغراض المؤدي إلى تنوع الموضوعات لم يكن من الخصائص الفنية التي استقوها من الشعر القديم. وهذا أعانهم أن تأتي قصائدهم ذات موضوع واحد كما نلاحظ عند أكثر من شاعر.

هذا الشيخ أحمد جي السنغالي يمدح الرئيس سيكو توري بقصيدة بائية من 40 بيتا، فلم يخرج عن إطار المدح الذي رسمه لنفسه ، ولم تتصدّر القصيدة بنسيب. ومن يقرأ مدائح

إبراهيم المشعري في إطراء شيخه أحمد بمبا لن يشكّ في توفيقه بوحدة الموضوع، ومن مدّاحي هذا الشيخ أيضا مَياسينْ جِنْكَ[1] الذي نقتطف أربعة أبيات من مختلف أجزاء لاميته ذات عشرين بيتاً في وحدة موضوعية : [الطويل]

1 أيا منبع الأحكام يا غوث ضـليل ** أيا قرم يا ناموس يا قطب ذا الجيـل

2 لنأخذ مديحا مثل دبـس مدكـدك ** بـسكر وراح غيـر قـول الأباطيـل

12 وكم مشكل من يمنه صار واضحا ** وكم من دقيق قـد جـلاه بتفـصيل

20 فهـذا ثنائـي هاكـه وأعذرنني ** مديحا عجيبا قد حوى كل تجميل[2]

وقد وضع النيجيري عثمان الثقافي رائية لتهنئة شيخه كمال الدين الأدبي بوسام العلوم والفنون، فجاءت قصيدته في 27 بيتا لم يستطرد الشاعر إلى موضوع غيره.[3] وفي النيجر يعدّ أمد بن محمدا ممن التزموا بوحدة الموضوع في شعره ، وخاصة في رائيته التي يمدح بها شيخه هاشم بن أبي بكر في 25 بيتا، إليك مطلعها وخاتمتها : [الطويل]

1 رويدكما أمر الخلافة صـائر ** إلى كوكب به استنارت بـصائر

25 فكم من خلافة وكم من ولاية ** بطير صراحة تليها مشاهر[4]

وفي غير المدائح نجد كذلك الشعراء في مراثيهم يلتزمون إلى حد بعيد بوحدة الموضوع، كما هو واضح في مراثي المالي الشيخ محمد كوليبالي الذكي، وخاصة في داليته من 33 بيتا التي يرثي بها أحد معاصريه، ومطلعها : [الخفيف]

صاح بشرى لطف اللطيف عتيد ** إنّ من لم يكن مريدا مريد[5]

وفي إحدى قصائد محمد السادس كيما من بنين مرثية من 24 بيتا في مصيبة حلّت بمن يحبّه، فجاء مطلعها إيذاناً بالوحدة الموضوعية : [الطويل]

فرقنا النبأ مؤسف من مصيبة ** أصابتك فاصبر قد أتانا غرارا[6]

2. يلتزم كثير من شعراء الدواوين بوضع "عناوين " لقصائدهم، ولا شكّ أنّ في مثل هذا العنصر الفنّي دليلا ملموسا لميول الشعراء وانتباههم لقضية الوحدة الموضوعية، لأن القصائد التي تقبل العناوين توحي بشمولية أبياتها على موضوع واحد. والشاعر المتبادر إلى ذلك ينطلق من شعور بحصر معانيه في خدمة فكرة واحدة ، تحوم حولها أبيات القصيدة.
وخير دليل على هذا الاتجاه نذكر دواوين محمد ثوبان الإلوري في همزياته وبائياته خاصة،

---

(1) – يعد من الشعراء السنغاليين الذين حاموا حول الشيخ أحمد بمبا، يطرون عليه مدائحهم المدبجة.

(2) – صمب، عامر : الأدبي السنغالي العربي، ص 321/2.

(3) – اثقافي، د. عثمان وآخران : أضواء التهاني على أعجبوبة الزمان ، لا.ط، 1992م، ص 12.

(4) – محمدا، أمد بن : رائية شيخ كيوت، مخطوطة ، مدينة كيوت، النيجر.

(5) – كوليبالي، محمد بن إسماعيل : رثاء الحاج أبي السراج محمد الماحي، مخطوطة، فانا، مالي.

(6) – كيما، محمد السادس هارون : النبأ المؤسف، مخطوطة، جوغو، بنين.

ومن عناوين هذه الأخيرة : بين قلبي ما يضيق الكون، ويعانينا ويحزننا. ومن عناوين قصائد زميله عبد الرحمن الزكوي : تهنئة المركز، في العربية وشكواها. ولمعاصرهما عبد الواحد جمعة أريبي: مآثر المجاهدين، ورسالة إلى العالمين.وفي ديوان الشيخ أبي بكر عتيق،وغيرهم من شعراء نيجيريا الذين ما فتئوا ينشرون قصائدهم في كتيبات أو في أوراق مطبوعة.

وفي ديوان " بنات القريحة " للشاعر الغامبي محمد الإمام غساما تظهر القصائد مزيّنة بعناوين ذات دلالات على مضمونها. وفي شعر مواطنه الدكتور امباي بن كيبا كاه سار على الظاهرة نفسها. وبين شعراء غينيا فإن لمحمد الأمين جابي حرصا كبيرا على توسيم قصائده بعناوين أدبية، تذوب خلابة وروعة، منها : المدّ والجزر ، ودعوا ما تبقّى !! ، وبنو السودان، والهوية المفقودة ، وخلفاء الأرض ... الخ.

وهذه الظاهرة واضحة في ديوان " البستان " للشيخ يعقوب دوكوري المالي.

وأدلّ من ذلك على هذا الاتّجاه أن نرى من يقسم ديوانه إلى موضوعات ، تحت كل موضوع يرتب فيه مجموعة من القصائد التي تثير قضية من قضايا ذلك الموضوع، وهذا ما نشهده في ديوان " من وحي الواقع " للشاعر السنغالي شيخ تجان غاي ، حيث فرّعه إلى هذه الموضوعات : الدينيات ، والمدائح ، وشعر المسابقات ، والسياسيات ، والاجتماعيات ، والمراثي، والثقافيات، ومتنوعات. وإلى هذا المنحى مال النيجيري عيسى أبو بكر ألبي ، حيث رتّب أبواب ديوانه " الرياض " إلى: المدائح والتهاني، والأخلاقيات، والوصف، والسياسة، والفخر، والغزل، والشكوى والعتاب، والمراثي.

لا شكّ أنهما خلطا في هذه التقسيمات بين اعتباريْ المضمون والغرض. وعلى أيّة حال فإن الشاعر سينطلق من مثل هذا التقسيم إلى ما يمكّنه من إضفاء مميزات وحدة الموضوع على قصائده.

وأكبر دلالة على هذا الاتجاه أيضا أن يفرد لكل موضوع أو لكل غرض ديوانا، كما نجد دواوين الشيخ إبراهيم انياس، حيث أفرد للمدح النبوي ما عرف من شعره بـ " الدواوين الست " ، وفي " جامع جوامع الدواوين " نجد ديواني " تحفة أطايب الأنفاس " و " طيب الأنفاس" في مدح الشيخ أحمد التجاني، وديوان " جلاد الصدور " في مدح شيوخ التجانية. وقد أفرد أخوه الشيخ محمد الخليفة انياس لكل من النبي ﷺ والشيخ أحمد التجاني ديواناً : خاتمة الدرر للأول، والكبريت الأحمر للثاني.

ولا أريد أن أطيل في سرد النماذج ، وما أكثرها في أعمال شعراء المنطقة .

3. وجاءت الوحدة الموضوعية كذلك في "الشعر القصصي"، وإن قلّ في شعر القوم ، فإن الذين مالوا إلى هذا النوع من الشعر لم يجدوا بدّا من أن يلتزموا بهذه الخاصية الفنية، لأن موضوع القصة يفرض ذلك ، ومسار الأحداث يقتضيه. وهذا واضح في الفصل الأول من هذا الباب حيث تحدثنا عن " الشعر القصصي " في مبحثه الثالث.

4. إن قصائد الغزل في نتاج شعراء المنطقة تميزت بوحدة الموضوع، لأنهـا ليـست بحاجة إلى نسيب مثل سائر الأغراض، ولم تظهر للشعراء ضرورة دمج الغـزل بموضـوع آخر، ولقصر قصائد الغزل التي لا تزيد غالبا عن أربعين بيتا.

ويبدو هذا الالتزام في شعر السنغاليين، وخاصة في " ديوان الشباب " للامـين ديـانغ، الذي أكثر من شعر الغزل دون أن يخرج إلى موضوع آخر، واقرأ أيضا في شعر ذي النون السنغالي[1] ، ولِنَسُقْ هذا النموذج من شاعر آخر يدعى " جبريل غاي "[2] : [الكامل]

1 *منـــي إليـــك تحيّـــة معـــسولة ** فيهـا كـلام مـن فـؤاد مغـرم*
2 *تلـــك التحيـــة لا تحيّـــة فوقهـــا ** عندي ومالي الذنب إن لم أعلـم*
3 *تلـــك التحيـــة عرفهـــا متعطّـــر ** من خير طيب جنان ربّي الأعظم*
4 *لا غرو فيها إذ توجّه نحـــو مـــن ** شغل الفـؤاد وتـاركي كـالأبكم*
5 *ذات الجمال مع السكينة والحجى ** بتواضـــع فكأنّهـــا لـــم تعلـــم*
6 *وأضف إلى ذاك الجمال ذكـــاءها ** وسخـــاءها من غير فتـــح للفم*[3]

وبعد أربعة عشر بيتا، ختم بما يؤكد على التزامه بالموضوع نفسه على هذا المنوال :

21 *أخديجتي لو طالبوا منّي المنـــى ** قد كان ضمّك في الفؤاد المغـرم*
22 *لمّـــا التقينـــا والحيـــا متهطّـــل ** كنّـــا نـــودّ بأنّـــه لـــم يختـــم*
23 *كيما تظلّي طول عمـــري قربَنـــا ** أهوي عليك بقبلـــة حـــول الفـــم*
24 *وصلتْ رسالتك العزيـــزة عنـــدنا ** لنضمّها فـــوق الفـــؤاد الأرحـــم*
25 *هذا الجواب لها وإن لم ترفضـــي ** وافـــاكِ آخـــر بالكـــلام الأقـــوم*

هكذا نجد قصائد الغزل عند كثير من شعراء المنطقة : كميمية شعيب علي الكنكـاوي التنتماوي التي عنونها بـــ " يا دار سلمى " من نيجيريا[4]، وسينية الشيخ محمد بـن سـوس السوقي من النيجر، التي مطلعها :

*أم واحورار البيض بيض القراطس ** ورقص عوالي الخطّ بين الأباخس*[5]

وأردف الغزل بغرض " التقريظ " للكتب، لما فيه من عناية الشعراء به، حيث يتيهـون في فلك ذكر قيمة الكتاب وفضائل كاتبه، وما يترتب على ذلك من المكانة المرموقة التي يمكن أن يحظى بها الكتاب في إقبال العلماء والباحثين والطلبة على دراسته.

---

(1) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 262/1-273.

(2) – ولد 1952م، شقيق شيخ تجان غاي صاحب ديوان "من وحي الواقع"، يتميز شعره بالغزل. تخرج في جامعة المدينة.

(3) – غاي، جبريل : جواب من متيّم ، مخطوطة، لوغا، السنغال.

(4) – ينظر : نخبة من الطلبة الشعراء : البنينيات، ص 43.

(5) – السوقي، محمد بن سوس : بنت قسّ ، مخطوطة ، نيامي، النيجر.

ورغم جدة هذا الغرض في الشعر العربي ، كما سنتناوله في البـاب اللاحـق ، فـإن الشعراء استطاعوا أن يبرهنوا على ملكتهم الشعرية باستيفاء خصائصه، كما في هذه البائيـة التي يقرّظ فيها الدكتور عيسى ألبي كتاب " المأدبة الأدبية" للوزير زكريا حسين:[مجزوء الكامل]

13 ***إني تـصفّحت الكتـاب ** فكان حلـوا كالـضرب***
14 ***كالروض تكنفه الـورو ** د وفيه أطيـار الطـرب***
15 ***كالعطر لا يدري الحـدو ** د وليس يمنع من غضب***
16 ***يرضيك بالشعر الجميـ ** ـل يثير حسك والخطب***
17 ***ممـن نقـر بفـضلهم ** وحديثهم شـهد عـذب***
18 ***ما جـاء فيـه مغربـل ** يبقى صحيحا لا يسب***(1)

مبررات خلوّ القصائد من الوحدة الموضوعية :

من الجدير بالذكر ألا نهمل الإشارة إلى خلوّ بعض القصائد من الوحدة الموضوعية، مع محاولة تعليل أسبابها التي تفرض على الشاعر أن يذهب هذا المذهب في تنوّع موضوعاته وتشرّد معانيه وتشتّت أفكاره.

يبدو أن قصائد الوعظ والإرشاد هي التي تخضع لهذه الظاهرة ، لأنها غنية بالنصائح الشاملة في حث الناس على الشعائر التعبدية، وبالفضائل المختلفة، بالرذائل المتباينة التي ينفّر منها الناس. إذ يستبعد أن يبني الشاعر وعظه على موضوع واحد: كالـصدق، أو محاربـة الزنى مثلا ، لأنه يتوخّى أن تكون قصيدته دروسا عامة، وسائرة بين الناس، وباقية في ذاكرة الأجيال.

تكثر نماذج مثل هذه القصائد عند الشيوخ الصوفية، الذين لهم أتبـاع كثيـرون. لـذا تشتهر بعض تلك القصائد بين هؤلاء الأتباع، حتى تصبح من المناهج الدراسية لدى التلاميذ، الذين يتخذون مثل هذه القصائد مصابيح لمعرفة الطريق المستقيم فـي حيـاتهم الاجتماعيـة والروحية.

إن أرجوزة الشيخ إبراهيم انياس في ديوانه " نوادر الحكم " لخير نموذج لهـذا التنـوع المخلّ بالوحدة الموضوعية حيث يبدأ الحديث عن الحث علـى التمـسك بالتجانيـة ويردفـه بالالتزام بالآداب مع الشيخ المربي، ثم يمضي إلى نصائح عامة : التخلي عن الحسد والكبـر والرياء والغضب وبغض المسلمين...، والتحلي بسلوكيات المريد : قيام الليـل، ومناصـحة الإخوان، والالتزام بالأوراد التجانية ...الخ، لذا بلغت أبياته 121 بيتا.(2)

ولكن بائية الحاج مالك سي، أكبر الشيوخ التجانية في السنغال، مشهورة، وموسومة بـ

---

(1) – الثقافي ، عثمان عبد السلام : الوزيريات ، ص 32.

(2) – انياس، الشيخ إبرهيم : جامع جوامع الدواوين ، ص 169 – 176.

"زجر القلوب عن حب الدار الخلوب "، وإن طال حديثه عن الموت والزهد في الدنيا، فسرعان ما تناول أمراض القلوب : الكبر والعجب والرياء والغرور وسوء الظن والغضب، قبل أن ينتقل إلى الصبر على نوائب الدهر، ثم مال في الخواتم إلى الحث على ملازمة الذكر، انظر إلى هذه الأبيات المقتطفة منها : [الطويل]

1 هل الدهر إن طاب الغراب يطيب ** وجاء رسول الموت بعد ينوب
2 أراك نسيت الموت والموت مورد ** فللكل من بحر الممات نصيب
18 ولا تك ممّن غرّ من بعد غفلة ** ويوم ازدحام العالمين عصيب
34 أفي كل يوم تأمر الناس ناسيا ** لنفسك ذا عار عليك يعيب
64 جناحي رجا والخوف طر نحو مالكي ** كفاك الردى باري الأنام حسيب
65 لسانك إن أطلقت يأكلك إنه ** كليث السرى العادي الجريء وثوب
91 ولا تك جساسا ولا ترض فعله ** لذاك متى جاء القتوت وجوب
92 وإياك ضحكا ثم لهوا دعابة ** ويانف من هذه الخصال حسيب
94 فعلك لا تعجب ولا تتكبرن ** لأنك في شكّ هديت يريب
98 وإياك سوء الظن يوما إلى الورى ** ولا سيما الرحمان فاز منيب[1]

وهذه الخصائص واضحة في "رائية الشبان" للشيخ محمد الأمين الفرضي الغاني، وأرجوزة الشيخ محمد الغالي من نيجيريا،[2] ورائية الشيخ دمبا واكي المالي.[3]

وتعد " مناجاة الرب "، ذي النعماء، من الموضوعات ذات الشجون، يصعب على الشعراء أن يلتزم فيها بوحدة الموضوع، لأن نعمة رب العالمين ذات ألوان وأشكال، فمن يناجيه فلا بدّ أن يشكره على أكثرها، وله كذلك صفات كثيرة فلا بد أن يتناولها، ومن ثمّ تظهر قصيدته في غاية من الاختلاط بين الموضوعات المترامية أطرافها في جمع المعاني الشاردة.

انظر كيف يناجي الشاعر الغيني محمد كاسو جابي ربّه في ما سماها "معاقد الإيمان" : [الكامل]

1 بمعاقد الإيمان محكمة العرى ** قسما عليك ، وبالوجود وبالقدم
2 وبأعظم الآيات ، بالعرش الذي ** من بابه طرق المعارف تنقسم
3 بفنائه الأرواح طائفة ، به ** ركن يقبّله الوجود ويستلم
4 بإرادة، وبقدرة، قامت بها ** سنن الحياة ، وما لهنّ من النظم
5 دلّت على عظم الرحيم ، فإنه ** يعطي بلا عوض ويوجد من عدم
6 فبها خلقت الكون ، ثم قهرته ** فإذا بمصنوع بديع منتظم
32 أنت الذي حمّلتنا ، وحملتنا ** عنّا ، فلا رأس تقلّ ولا قدم

---

(1) – سه، الحاج مالك : ديوان شعر، ص 213-217.

(2) – جامع، علي محمد: الشيخ محمد الغالي ومساهمته الأدبية في بلاد اليوربا، كلية الآداب، جامعة إلورن، لا.ت، ص 55-56.

(3) – ديارا، سيدي : شخصية المرحوم دنب واكي وآثاره، ص 46.

33 ***شكرا بأنفاس الخواطر سـيدي ** بسناك أفـواه الـضمائر تختـتم***

34 ***شكرا يساعد للرقـي وتنطوي ** فيه المراقي والمعارف تنتظـم***[1]

ومن يقف على قصائد الشيوخ الصوفية تتبيّن في مناجاتهم هذه المعاني المتكاثرة التي قد يصعب على المرء ـ في مثل هذه الحضرة الإلهية ـ أن يناجي ربه في نقطة محـصورة من تلك الموضوعات الشاردة :

وقد انتهج الشيخ يحيى النفاخ هذا النهج في مناجاته المختلفة، وخاصة تلك التي تضرع فيها بجميع أسماء الله الحسنى[2]، وفي مناجاة شيخ القادرية بكنو محمد الناصر الكبـرى فـي " الديوان المبارك "[3]، وتائية الشيخ محمد كبير يونس النيجيري التي مطلعها :

أناجي إله العرش بالزفرات ** واسكب في محرابي العبرات[4]

ولم يشذّ الشعراء الآخرون عن مثل هذا النهج الذي نلاحظه في شعر الشيخ أحمد بمبا المكثار في المناجاة لمن له أدنى معرفة باتجاهه الروحي ، ونونية شاعره أحمد مختار سِكْ[5]، وللشيخ سعيد الشعراء السنغالي نونية أخرى في منتهى روعة المعاني، مطلعها : [الكامل]

1 ***فحمـدتك اللهـمّ إذ سـوّيتني ** بشراً سويّا سـالما صـوّرتني***

2 ***صوّرتني ربـي وثـم خلقتنـي ** بالرفق أو للرفق قد أبرزتنـي***

3 ***وعلى اختيارك سيدي أبرزتنـي ** ولأكل رزقك في الدنا أوجدتني***

4 ***أوجد تني لا عاجـزا أو مكـرها ** وبقـدرة وإرادة سوّيتـنـي***[6]

وكم من شاعرٍ يدمج بين المناجاة والدعاء، كما هو ملحوظ في يائية عبـد الـرحمن الزكوي، من نيجيريا، التي نسوق منها هذه الأبيات الدالة على مختلف أمور يتضرع إلى ربه من أجل قضائها بين الأمور الدنيوية والأخروية : [مجزوء المتدارك]

9 ***كن لحاجاتنا قاضـيا ** واعف عن ذنبنا ماحيـا***

15 ***أرْدِ مَن قد بدا طاغيا ** نحونـا لـلأذى راميـا***

17 ***أمّني قد ترى حاليا ** أننـي لـم أزل خاشـيا***

19 ***دائما للأسى حـاويا ** ربَّـنا أبهـج الآسـيا***[7]

وقد تأتي بعض قصائد القوم من غير التزام بالوحدة الموضوعية، لا علاقة لها بهـذه الأسباب، وفي هذه الحالة يعاب على الشاعر تقصيره في أن بضاعته الفنية مزجاة.

---

(1) – جابي،محمد الأمين:الشاعر محمد كاسو جابي،حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر،العدد السابع،1422هـ/2001م،ص124.

(2) – النفاخ، الشيخ يحيى : نيل البغيا ، ص 24، و84، و97.

(3) – الكبرى، محمد الناصر : الديوان المبارك، ص 100، و111.

(4) – يونس، محمد كبير : أناجي إله لعرش ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا.

(5) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 309/2.

(6) – الدمغوي، جيرن سعيد شعراء : مجموع الخرائد ومنظوم الفرائد ، ص 145.

(7) – الزكوي، عبد الرحمن : حسبنا ربنا، مخطوطة، لاغوس، نيجيريا.

المبحث الثاني : الوحدة العُضَويَّة

لهذا المصطلح أسماء أخرى عند الأدباء : الوحدة الشعرية، والوحدة الشعورية ، والوحدة العاطفية ، والوحدة الفنية، والوحدة الداخلية[1].

أدّى اختلافهم في التسمية إلى الاختلاف في حدّ المصطلح المسمّى، فلم يتّفقوا على مدلول معين للوحدة العضوية، بل جاءت تعريفاتهم متداخلة بين مفاهيم الوحدة العضوية والموضوعية والنفسية، فهي عند بعضهم اقتصار القصيدة على تجربة واحدة أو عاطفة واحدة. ويرى النويهي[2] : أن الوحدة العضوية لا تحجز الشاعر عن تعدّد التجارب والعواطف في القصيدة ، إنما يشترط أن تكون جميعها متجانسة المغزى. ويذهب محمد زكي العشماوي[3] أنها ليس إلا وحدة الصورة التي هي وحدة الإحساس بالصورة.[4]

لا يفرق هؤلاء بين الوحدة العضوية والوحدة النفسية، رغم ما يبدو بينهما من فرق في الظاهر اللغوي، لأن وحدة القصيدة في أعضائها غير وحدتها في نفسيتها، وإن كان الانسجام بينهما ضروريا إلى حدّ بعيد، لأنّ القصيدة تستكمل عناصرها الداخلية بالتنسيق مع عناصرها الخارجية، أو كما يستكمل شكلها الفني بقوّة روحها العاطفية.

ربّما هذا ما يعنيه النقاد القدماء ، إذ يقول الجاحظ : « *إن أجود الشعر ما رأيته متلاحمَ الأجزاء* »[5]، ويقول ابن طباطبا[6]:« *وينبغي للشاعر أن يتأمّل تأليفَ شعره وتنسيقَ أبياته*[7]» ويرى الحاتمي[8] : « *مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله...*» [9] .

رغم حرص النقاد القدماء على الدعوة إلى الوحدة ظلّت القصيدة عند الشعراء في صورة غير متلاحمة أجزائها، لذا أصبح النقاد المحدثون أشدّ إلحاحاً على المطالبة بها، سواء أكان ذلك من أدباء المهجر أم من أدباء مدرسة الديوان في مصر.

---

(1) – ينظر : حمدان ، محمد صايل : قضايا النقد الحديث ، ص 49-50.

(2) –محمد النويهي ولد 1917م،أديب مصري،تلميذ طه حسين،ودرس في بريطانيا، له:نفسية أبي نواس. معجم المؤلفين،ص300/3

(3) – محمد زكي مبارك (ت1952م) أديب مصري، أزهريّ درس في السوربون، له: النثر الفني. معجم المؤلفين، ص 9/10.

(4) – المصدر نفسه.

(5) – الجاحظ : البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، 1968م، ص 50/1.

(6) – وأبو محمد عبد الله بن أحمد، ينتهي نسبه إلى الإمام علي، توفي 348هـ. ينظر : للذهبي: سير أعلام النبلاء، ص 496/15.

(7) – العلوي، محمد بن طباطبا : عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1982م، ص 124.

(8) – هو أبو علي محمد البغدادي، كان إماما في اللغة والأدب، توفي 388هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء: للذهبي، ص 499/16.

(9) – الحاتمي، أبو علي محمد : حلية المحاضرة، تحقيق جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، 1979م، ص 225.

وكان العقّاد، من مدرسة الديوان ، أوضح منهجاً وبيانا لمدلول الوحدة العضوية، لأنه يشبّه القصيدة تارة بصورة التمثال في أعضائه وأجزائه، وبالجسم الحي تارة أخرى حيث يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته. لذا يطلق محمد مندور على الوحدة العضوية باسم " التصميم الهندسي " للقصيدة. [1]

وبهذا المفهوم الشكلي يتبيّن الفرق بينه وبين الوحدة الموضوعية من جهة، وبين الوحدة النفسيّة من جهة أخرى، ولكن لا دلالة للجمال الشكلي هنا إذا لم تكن الأبيات مرتبطة بترتيب معانيها وأفكارها ترتيبا فنيّا ومنطقيّا.

وهذا الترتيب الذي يخيط بين أبيات القصيدة لا بدّ أن تخضع لآليات فنية تخدم هذه الوحدة، لتظهر القصيدة في غاية من الانسجام والتنسيق، حتّى يتعذّر وضع بيت مكان الآخر، وإلا لاختلّت الوحدة في القصيدة. وأعظم هذه الآليات (العنصر القصصي).

« *وقد يكون للقصيدة عنصر قصصي تاريخي أو غير تاريخي، وحينئذ تكون وحدتها شبيهة بوحدة المسرحية* [2]» ذات أجزاء مترابطة ومتسلسلة، لا يمكن أن يتقدم جزء على آخر، وهذا لا يكون إلا في الشعر القصصي الذي تناولنا أنواعه في الباب السابق.[3] ولكن الشعر القصصي قد يكون حكاية عن قصة حبّ، وإن لم تكن قصة مغامرة غرامية، كهذه القصيدة التي أنجبتها قريحة الشاعر السنغالي محمد الأمين عاجْ فقال بعد بيتين نعدّهما مقدمة: [البسيط]

3 ***أحببتها وأحبّتني ولي ولها ** من ضرمها في سواء حرّ بلبال***
4 ***يا ليتها لازمتني في دماثتها ** طول الليالي بأيّامي وأجيالي***
5 ***قلنا لجِيلَيْ غداة البين في كمد ** ألا تخافين ربّ الناس في حالي***
6 ***غادرتني بعد علم أنّني ولع ** وذو هوى فيك من روحي وأوصالي***
7 ***أين العهود وأين الحب آنستني ** وأين وعدك لما رمت إقبالي ؟***
8 ***قالت وتذرف دمعاً كالسيول هوى: ** " إنّي لمجبورة في كل أحوالي***
9 ***لأنت أدرى مدى حبّي تجاهكمو ** هلاّ تقول إذا عاتبتَ : يا خالي "***
10 ***ماذا فهمتهم بهذا القول هل صدقت ** فيما ادّعت أنّها مجبورة البال***
11 ***لو أنها صدقت في حبّها ثبتت ** رغم العوائق إذ أن الهوى صال***
12 ***إنّي إذا كنتُ ذا حبّ لآنسة ** يوما، فذا الحبّ يقى الدهر لا سال***
13 ***إذا أعاقد أنشوطة عقدي ** أوفي بعهدي ووعدي دائما غال***
14 ***إن جار يوما على الجار أعرض عن ** علاّته، وأغضّ الطرف عن قالي***
15 ***فجودة الرأي حالت دون أخطائي ** وسيمة الفضل زانت كلّ أفعالي***

---

[1] – ينظر : هلال ، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 403.
[2] – المصدر نفسه، ص 405.
[3] – ينظر صفحة 280–287 مما سبق.

16 يا راكبا خـذ كتـابي للفتـاة وقـل: ** " هذا سلام من المجـروح بالبـال
17 قـد خطّـه بدموع القلـب فـي طلل ** قد كان يلقاكِ فيه بعض آصـال " [(1)]

وقد لعبت الحكاية القصصية دورا أساسيا في وحدة أعضاء هذه القصيدة، ونجد مثلها عند شعراء المنطقة: كالشاعر النيجيري عمر يونس في قصيدته الموسومة بـ " سوني الحبيبة "[(2)]. وكالشاعر الغاني محمد الأمين بمبا الفرضي في قصيدته التي يحكي فيها عن حبّه لحليلته الثالثة قبل القران ، نقتطف منها هذه الأبيات : [الطويل]

1 دهتني فتاة طولها وابتسامها ** سباني أوان الشيب منهـا غرامهـا
6 فلمّا درت أني شغفت بحبهـا ** فمالت إلى الـدنيا سـباها سـرابها
8 فقلت لها إنّ التـي تتبعينهـا ** سـراب بقيـع مثـل مـاء خيالهـا
10 وقلت لها حقّا بليـتُ بحبّـها ** ولكـنّ حبّـي اللهَ ليـس كحبّـها [(3)]

وقد ازدادت روعة هذه القصيدة لما فيها من جرس موسيقي بصوت الهاء الناتج بفنّ لزوم ما لا يُلْزَم. وعنصر الحكاية القصصية ليس مقتصرا على قصة الحبّ، بـل لأمـور أخـرى : كحكاية الشاعر السنغالي أحمد جي عن نضاله الدعوي بتائية رائعة[(4)]، وحكاية عبد الواسع مدثر عن مسابقة قرآنية نظّمتها مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي.[(5)]

ويبدو لي في هذه النماذج شيء آخر من آليات الوحدة العضوية هو " عنصر الحوار " الذي يجعل قصائد المناظرات والمحاورات والاحتجاج ذات وحدة عضوية، كقصيدة " حـوار بين الحقّ والزكوي" للأديب النيجيري عبد الرحمن الزكوي، و" حوار مع الـنفس" لمعـروف مصطفى أحمد من نيجيريا، و" حوار مع راهب " لأحمد حيدر المالي.

وفي شعر وصف الرحلات تتحكّم الوحدة العضوية، لأن الشاعر ملزم بمراعاة تسلسل مراحل الرحلة وأحداثها. وهذا يكثر في شعر الشيخ إبراهيم انياس كقصائده:" نيل المفاز " في رحلتـه إلى الحجاز،و" ذيل نيل المفاز" في رحلته إلى موريتانيا، و"الكوناكرية " في زيارته لغينيا.[(6)]
أضف إلى ذلك شعر المراسلات كالرسالة الشعرية من الشيخ محمد جمعة إلى صديق له.[(7)]

وتأثر بالشيخ إبراهيم انياس بعض أتباعه في مختلف دول المنطقة،وخاصة النيجيريون منهم، فنظم أحمد التجاني عثمان الكنوي رحلتين : سمّى إحداهما بـ" الفتوحات العلويـة فـي السياحة الكدوية "، وأخرى بـ " النفحات الإلهية في الرحلة الكولخية " التي مطلعها : [الرجز]

---

(1) – عاجْ، محمد الأمين : من وحي المجتمع ، ص 5.
(2) –محمد، معاذ:الشعر العربي لدى الشباب في ميدغري(من 1980–2000م)،كلية الآداب،جامعة بايرو،كنو،سنة 2002م،ص220
(3) – بمبا، محمد الأمين : دهتني فتاة، مخطوطة، إجُرا، غانا.
(4) – ينظر: جي، أحمد: ضحية هذا العلم ، مخطوطة من 26 بيتا، ومطلعها " غرامك بالإعدام في الحكم لي بتّا"، كولخ، السنغال.
(5) – ينظر: إيليينكي، عبد الواسع: المموّل، مخطوطة من 10 أبيات مطلعها " أثني على رب كريم خالق، إسيين، نيجيريا.
(6) – ينظر:ميغيري،محمد الطاهر:الشيخ إبراهيم انياس السنغالي حياته وآراؤه وتعاليمه،دار العربية،بيروت،ط1، 1981م،ص255.
(7) – ينظر: هارون،سلمان أينلا:حياة الشيخ محمد جمعة جبجي وإنتاجاته، كلية الآداب، جامعة إلورن،نيجيريا، 2002م، ص 69.

الحمد لله على الفـــرار ** إليه من توهم الأغيـــار
أشكره إذ جعل الفرارا ** لكامل العصر لـه فراراً[1]

أي إن سفره إلى مدينة كولخ في السنغال كان فراراً من الشيطان إلى الله تعالى كما لقّنه شيخه إبراهيم انياس في كتاب السر الأكبر : " والفرار إلى الله هو الفرار إلى كامل العصر".

ولتلميذه الحاج عثمان القلنسوي[2] منظومة في رحلته إلى كولخ بعنـــوان " الـــروائح العنبرية في بيان القلنسوية ".

هكذا بدأ أدب الرحلات يشتهر بين الأدباء، وقد بادر الوزير جنيد في رائيته الرائعـــة إلى وصف رحلته الجوية من النيجر إلى السودان[3]، وهذا يذكّرني بخمس قصائد للحاج عبـــد الرحمن باه في رحلاته المتلاحقة إلى الأراضي المقدسة، حيث يقول في إحداها : [الطويل]

8 بداخل طـــائرة " البوينــق" مبــسملا ** على بركـــات الله أســعى لحجّتــي
9 ولمّـــا دخلناهـــا تحرّكـــت المحـــــ ** ــرّكات ودارت في المطار بـــسرعة
10 إذا نحن فـــي جـــوّ محـــيط ومظلــم ** نراعي النجــوم والـــسحاب بعبـــرة
11 إلى أن وصلنا في الصباح مطار "جـــ ** ــدّة " حامدين الله في كلّ لمحـــة[4]

ومن آليات هذه الوحدة أن تأتي القصيدة مراعاةً للتسلسل التاريخي في مدح الأجـــداد فالآباء، ولا يسع للشاعر إلا أن يلتزم بذكر الأقدمية في الأسماء، الأمر الذي تجعـــل أبيـــات القصيدة خاضعة لترتيب غير قابل للتعديل. وللحاج مختار الكبير جابي عينية في مدح أجداده وآبائه من علماء مدينة طوبى العريقة في فوتاجلون.[5] وللشاعر النيجري محمود الـــسوقي[6] دالية يفتخر فيها بنسبه الشريف المتسلسل إلى سيدنا علي كرم الله وجهه :

5 فأنا محمـــد نجـــل أحمـــد ركبـــت ** مرجيـــــه مـــــن قبلهـــــا بمحمـــــد
6 وهو ابن أحمد بانضمام الدال فـــي ** حالاتـــــه بـــــن محمـــــد بـــــن محمـــــد
7 نجل الهمـــام محمـــد بـــن محمـــد ** بالفتح نجـــل أخـــي المكـــارم أحمـــد
8 نجل الأغـــرّ محمـــد بـــن ربيعـــة ** صنو الهزبر أبي الهدى بـــن محمـــد

إلى أن قال :

17 حسن ســـليل علـــي بـــن محمـــد ** وهن إلى الحسن بـــن جعفـــر أحمـــد
18 وانسبه للحسن بن سبط المصطفى ** الحسن بـــن حيـــدرة الإمـــام الـــسيد

---

(1) – ينظر :ميغيري،محمد الطاهر:الشيخ إبراهيم انياس السنغالي حياته وآراؤه وتعاليمه،دار العربية،بيروت،ط1، 1981م،ص255.

(2) – من علماء نيجيريا توفي عام 1986م، ويعد من شيوخ الصوفية التجانية ومن كبار أتباع إبراهيم انياس. له ديوان ضخم.

(3) – ينظر :غلادنثي، شيخو أحمد: حركة اللغة العربية وآدابها، ص 153، وقد نحلها يوسف منكيلا لعلي تاسع في الشعر العربي في النيجر، ص 240.

(4) – باه، الحاج عبد الرحمن : بنات أفكاري، ص 104–105. ولو قال : بداخل طائر البُيِنْقِ مبسملا ، لاستقام الوزن.

(5) – ينظر : جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي، ص 47.

(6) – هو قبيلة الطوارق في طاواه، ولد 1939م، درس على علماء مسقط رأسه حتى فقه وشعر، وله ديوان في مختلف الأغراض.

19 ذاك الإمام المرتضى سيف الهدى ** علم الندى قمع العدو المعتدي
20 أعني عليا من تواتر أنه ** غير الإله مليكه لم يعبد[1]

والجدير بالذكر أن المقطعات منقادة للوحدة العضوية في أكثرها، لا لقلة أبياتها فحسب،بل لأن الشاعر قد لا يعاني كثيرا في مراعاة إحكام بناء أبياته، إذ لا يجد القارئ حينئذ ثغرة فيها، فاقرأ مثلا عن مدح المالي الشيخ التجاني بن سيد[2] لأستاذه سيد أحمد الإرواني[3] :

1 إذا ارتحل الكبير فما شؤون ** رعيّته وكيف لها سكون
2 كبير لاح في الظلماء بدراً ** وحقّا لا تداخله الظنون
3 فكم وغدٍ تراه قد سقاه ** ومنه انقاد للوغد الفنون
4 وأعجم طِحطمي قد أتاه ** ففاق الوائلي فهو المجون[4] [الوافر]

وممّا تجعل الوحدة العضوية محقّقة في القصائد أن تُصنَّف المعاني بل الأفكار في نسق مقبول، وإن كانت أبياتها قابلة للتعديل والتغيير، فإن ذلك لا يخلّ بالوحدة، لأن الصورة التي بنى عليها الشاعر مستقاة من رؤيته الفنية وتجربته الخاصة. وإذا ما وقفنا على ميمية جرن يُر بال[5] السنغالي في رثاء الشيخ مود محمد[6]، نجدْ أبياتها ذات دلالات مرتبة : البكاء على الميت ، نيل المتوفى العلم الغزير، البكاء عليه مرة ، ثم الدعاء له.[7]

وإذا جاءت معاني الشعر مرتبة من الكل إلى الجزء، فإن قصيدته تتحلى في هذه الحالة بالترتيب المنطقي، كما نلاحظه في دالية محمد شفيع جرى ، يفتخر بالطريقة التجانية بداية من جذورها المتّصلة برسالة النبي ﷺ نزولا إلى عهد الشيخ أحمد التجاني. ويمكن ملاحظة هذا الترتيب في قصيدة " داء الأفارقة " لأبي لاجي علي من نيجيريا، وهي تحكي قصة خلق الله تعالى للسود والبيض، قبل أن تشير إلى ارتقاء البيض على السود عبر القرون حتى عصر التكنولوجية، لذا يتساءل أخيراً عن سرّ ذلك على هذا النمط : [الكامل]

10 ألأنّهم وهبوا ذكاء خارقا ** لم نعطه فتقدّموا بذكاء
11 أو عدل ربي يقتضي أن يرتقوا ** ونظلّ نخدمهم بكلّ ولاء
14 والبيض لا من غير طين السود أبـ ** ـدعهمُ إلهي فالجميع بماء[8]

وقل مثل هذا القبول لوحدة أبيات قصيدة " رحيلك فجأة خطب أليم" لمحمد الإمام غساما.[9]

---

(1) – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 88-89.

(2) – الشيخ التجاني بن سيد محمد(ت 1947م) كان عالما وتقيا، له ديوان ضخم. ينظر: الأرواني، أحمد:السعادة الأبدية ص 139.

(3) – هو سيد المك، كان فقيها ورعا، توفي 1927م. ينظر: الأرواني، أحمد:السعادة الأبدية ص 113.

(4) – قصيدة التجاني بن محمد الأمين بمكتبة مركز أحمد بابا ، تحت رقم 5051، تنبكت، مالي.

(5) – هو جرنو حامد آن بن أحمد (1889–1956م)،أحد كبار العلماء الفلانيين بالسنغال،تلميذ سعد بوه الموريتاني،له ديوان ضخم.

(6) – أحد كبار علماء فوتاطور بشمال السنغال، توفي سنة 1314هـ/1896م، ورثاه أكثر من شاعر بقصائد رائعة، هذه إحداها.

(7) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 179/1.

(8) – عبد الرزاق، علي أبولاجي : داء الأفارقة، مخطوطة مكتبة الشاعر، إبادن، نيجيريا.

(9) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 26.

يمكن أن نردّ خلوّ القصيدة من الوحدة العضوية إذا ما قصّر الشاعر في تحقيق العناصر الفنية السابق ذكرها، كما يمكن أن نردّ خلوّها إلى أسباب أخرى منها ما يلي :

1.) أن يتوخى الشاعر مدح جماعة من العلماء أو الأمراء أو رثائهم من غير أن تكون هناك ضرورة الالتزام بالتسلسل التاريخي، وفي هذه الحالة تأتي الأبيات حسب ذوق الشاعر قابلةً كلَّ تعديل وتغيير. وقد ندرك ذلك في دالية الشيخ عمر كركي الغاني حيث سرد الأمداح من غير ترتيب لمحمد سلغ (أو صلغا)، ومحمد بدماصي، إبراهيم، وعثمان بن عفا، وسليمان...الخ. إذ لا ضرورة منطقيّة تفرض الترتيب بين هذه الأسماء في القصيدة.

2.) أن تتوالى المعاني من الفضائل أو الرذائل من غير حاجتها إلى ترتيب منطقي، كما يظهر في أبيات هذه القصيدة التي يرثي بها الحاج محمود سانوغو من بوركينافاسو الشيخَ بامُويْ جينيبو كبيرَ علماء مدينة " بوبو جولاسو " :

1 لقد بات دين الله بالحزن باكيا ** بموت الذي قد كان للدهر هادياً

2 إمام وقد كان تقيّا وعابدا ** كما كان للدين رجاء وحاميا

3 إمام تراه دائما متورّعا ** ولم ير يوما في المكاره ثاويا

4 إمام بغير العلم والدين ما اعتنى ** وما زال في العمر إلى الله داعيا

5 إمام كتاب الله كان أنيسه ** يدارسه دوماً نهارا لياليا[1]

ورغم توفيق الشاعر في جمال أسلوبه الفني، فإنّ القارئ قد يرى ترتيبا آخر لهذه الأبيات وإن كان ذلك لا يخلّ بهذا الجمال، وقد يصعب على الشاعر أن ينسج خيوطاً من الوحدة العضوية بين مثل هذه المعاني. كما صعب على أحمد مختار سكْ في رثاء الشيخ إبراهيم صمب في نونيته الرائعة.[2] وكما وجد الشيخ محمد البشير تيام[3] صعوبة في ميميته القصيرة في تهنئة أهل مدينة " دكانا سنة " الموريتانية.[4] وقل مثل ذلك في همزية بامين سري جايتي الغامبي الموسومة بـ " القذافي ابن إفريقيا البارّ "، ومثله في إحدى مراثي أحمد الرفاعي النيجيري.[5]

3.) تداخل معاني الابتهالات بالتوسلات أثناء تناجي الشاعر ربّه في شعره. وهذا أبلج ظاهرة في شعر الشيخ أحمد بمبا السنغالي.[6] أو التداخل بين المدح والمناجاة كما يتبين في أبيات قصيدة " ترياق الأنفاس " للشيخ أبي الفتح اليرواوي :

1 لقد جاء خير الخلق بالنور والهدى ** رسولا من الله الكريم به هدى

---

(1) – سانوغو، الحاج محمود : رثاء الشيخ باموي جينيبو، مخطوطة، بوبوجولاسو، بوركينافاسو.

(2) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 306/2. والممدوح هذا هو والد عامر صمب الكاتب الشهير.

(3) – ولد سنة 1911م، نشأ يتيما، ودرس على كثيرين في السنغال حتى أصبح من العلماء البارزين، وله ديوان ضخم من الشعر.

(4) – ينظر : صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 500.

(5) – ينظر: فازازي، أحمد: المختارات من الأغراض الشعرية العربية لعلماء إيادن، كليةالآداب، جامعة إلورن،1998م، ص54.

(6) – ينظر له مثلا هذه القصائد المشهورة : مواهب النافع في مدائح الشافع، ومقدمات الأمداح في مزايا المفتاح.

2 قـــوي بمـــولاه محمّـــد مـــصطفى ** عطوف لكلّ الخلق في الأرض والسما
3 درى الخلق أن الله أعطـــاه رتبـــة ** وفاق جميـــع العـــالمين بهـــا عـــصا
4 جميل المحيّا سـيد الخلـق كلّهـا ** جليل بمولاه بـه الخلـق قـد عـلا
5 أنادي رسـول الله، حبِّـي محمـد ** وخذ بيدي والحال منّـي فهـا تـرى
6 أناديـه بالحـب وبالـشوق دائمـا ** يغيث ضـعيفا والـدموع بـه همـى
7 كريم النجار هادي الخلـق سـيدي ** محمد عبد الـذات حـام لمـن أتـى
8 محمّـد عبـد الله مختـار خَلقِـه ** سراج منير ناصر الحق بالهـدى[1]

لو رتّب البيت الثامن بعد الأول، ولو جاء البيت السابع بعد الرابع، لتتوالى الصفات وليتـأخر التوسل في البيتين الخامس والسادس. إن مثل هذا التداخل يخلّ بالوحدة العضوية بين الأبيات.

4.) قد تكون القصيدة خالية من الوحدة العضوية لأسباب يصعب إحصاؤها، ونذكر منها: أن تكون معانيها مرسلة ، لعدم دلالة منطقية في ترتيب أبياتها، كرائية الوزير جنيد فـي تفـسير بعض المفردات اللغوية، على هذا النمط : [الطويل]

1 أيـا طالبـا تفـسير مـا كـان مـشكلا ** عليـه ورام الحفـظ خُـذْ مـا تيـسّرا
2 فظميـاء أنثـى زيـن فوهـا بـسمرة ** ولثتهـا فـافهمْ وكـن مـن تبـصّرا
4 ظُبا السيف معـروف وما ألـذي ترى ** بأسنان هنـد اسمـه الظَّلْـمُ لا مـِرا[2]

ونجد الخاصية نفسها في أشعار الدعاء أو الشكر، حيث تأتي صفة تلو أخرى من غير نـسج منطقي، كما في قصيدة محمد الحبيب كانْ السنغالي[3] يشكر فيها لجنة مسلمي إفريقيا: [الوافر]

2 فكـم بأسـاً رفعـتِ وكـم كروبـا ** وآلامـاً كـشفتِ وكـم رزيّـةْ
3 وكـم بئـراً حفـرتِ لـسقي قـوم ** وكـم عُريـاً أزكـتِ وكـم بليّـةْ
4 وكم شخصـاً عنيـتِ بـه فأضحـى ** لـه فـي النـاس مرتبـة سنيّـةْ[4]

5.) وفي القصائد المخمّسة، سواء أكانت في المدح أم في الرثاء، فإن الشاعر قد لا يراعـي الوحدة بين الأبيات، لأن الصفات التي يسردها ويضفيها على صاحبه قد لا يفكّر في حياكتها بخيوط منطقية في ترتيب المعاني، كرائية إبراهيم الدامي[5] التي خمّسها عمر الداري :

49 يظل ويضحي واهبا متبسّما ** ويجهد فـي تعليمـه متعلّمـا
50 وينهل في حالاتـه متحزّما ** " يروح ويغدو في العبادة مثلما
يبيت ويضحي حين ظلّ وأنهرا" [6]

---

(1) – اليرواوي، أبو الفتح أحمد : نتائج الأسفار في الصلاة على سيدنا محمد النبي المختار، لا.ط، 1981م، ص 11.

(2) – جنيد، الوزير : ديوان شعر، مخطوط مكتبة نجله سمبو ولي جنيد، صكتو، نيجيريا، ص 61.

(3) – ولد عام 1957م في كولخ،حفظ القرآن، وأخذ الشعر من محمد الأمين عاجْ، يقيم في بوركينا لتحفيظ القرآن، له ثلاثة دواوين.

(4) – كانْ، محمد الحبيب بن محمد الأمين: تهذيب القول في خطاب أهل افضل، مخطوط مكتبة الشاعر، وغادوغو، بوركينا،ص1.

(5) – أحد تلامذة الشيخ علي بوبديم (ت 1927م) من قرية بجري في فوتاجلون،عالم جليل وشاعر كبير، عاش في القرن العشرين.

(6) – بوبديم، الشيخ علي : ديوان شعر، ص 241.

المبحث الثالث : الوحدة النفسية

لا شكّ أن نفسيّة الأدباء تتّصل بهذه القضيّة وتتنوّع في الوقت نفسه، أثناء أداء رسالاتهم الفنيّة، بين ضعف التجربة الشعورية وقوتها، وبين سطحيتها وعمقها، وبين إجمالها وتفصيلها، وبين برودتها وحرارتها.

والمقصود بهذا المصطلح أن تأتي القصيدة في جوّ نفسي متّزن، بحيث يحافظ فيها الشاعر على إحساسه وشعوره العاطفي أثناء تنقله من فكرة إلى أخرى، وبهذه تظهر قدرته الفنية في تحقيق وحدة عاطفية بين أفكاره وأجواء انفعالاته النفسية.

لقد رأينا في المبحث الأول تضارب آراء الأدباء والنقّاد في حدّ هذه المصطلحات: الوحدة الموضوعية،والوحدة العضوية، والوحدة النفسية،والوحدة الفنيّة،والوحدة الداخلية...الخ. ولا تفسير لهذا التضارب وتداخل المفاهيم إلا ما يمكن ملاحظته في حاجة كل مصطلح إلى آخر، أو بعبارة أخرى : في خدمة بعضها بعضا، لأن وحدة موضوع القصيدة مثلا بحاجة إلى دلالة أبياتها على معان متقاربة، بحيث تتّصل هذه الأبيات بعضها ببعض، فتنشأ الوحدة العضوية، وهذا الانسجام بين معاني الأبيات المترابطة والمرصوصة لا يتحقّق إلا بقدر ما تنسج بينها قوّة الشعور في حالة نفسية متواصلة.

لذا نرى أن القصيدة كلّما توحّدت معانيها حول موضوع واحد ازدادت أبياتها ترابطا كالبنيان، وكلّما تراصّت أبياتها في بنائها الفنّي تمكّنت من بقائها على وحدة جوّ عاطفي ضعفاً أو قوّة، ولكن الوحدة النفسية لا تنال جودتها إلا أن تظهر في مظهر القوّة والحرارة الحادة، والشعور العميق.

وتتميّز القصائد بقوّة حرارتها إذا ما كانت نتيجة تجربة شعورية جريحة، لأن القلوب إذا ما جرحت في انفعالاتها فإنها تفرز حرارة ملتهبة وعاطفة قويّة، وهذا بيّن في هذه الوصية التي بلّغها الحاج منصور سي أخاه الخليفة عبد العزيز سي السنغالي، عند دنوّ أجله، وعند ما شعُر بآثار نيران الخلاف التي اشتعلت في أسرتهم المالكية أعقاب الانتخابات السياسية سنة 1957م، فقال قصيدة طويلة من 39 بيتا، أسوق إليك مقدمتها : [البسيط]

1 عبد العزيز أعرني القلب أوصيكا ** وصية عنك تشفي كلّ ما فيكا

2 في ذا الزمان الذي عمّ الفساد به ** ولا ترى أحدا فيه يصافيكا

3 فغضّ طرفك لا تفحص أخي أبدا ** ولا تكونَنْ تعادي من يعاديكا

4 لا ترفعنْ خطوة إلا وترفعها ** إلى الذي كان عنه البرّ يجزيكا[1]

---

[1] – سي، الحاج محمد منصور بن الحاج مالك سي : اليواقيت العرفانية من الفيوضات الربانية ، ص 13.

هكذا تملي عليه عاطفته هذه الوصايا التي تتجبها شدة الحرص على الروح الأخوية، كي يسود الوئام والوحدة في زاويتهم التجانية. وكون الكاف رويّاً للقصيدة لدليل على شدّة حرص الشاعر على قبول وصاياه من المخاطب. وفي رائية الشيخ أحمد بمْبا " أسير مع الأبرار" التي تلتهب نقمة على المستعمرين ورغبة في تقرّبه إلى مولاه، عاطفتان ترافقانه في منفاه إلى جزيرة في الغابون.[1]

لا شكّ أن هجوم صدام حسين على الكويت ألهب مشاعر بعض الغيورين على وحدة الأمة الإسلامية، أمثال الشاعر النيجيري عيسى ألبي، فندّدت قريحته الفنية بهذا الغزو العراقي في رائية تغلي عاصفة عاطفية، وخاصة في هذا المطلع الدال على الوحدة النفسية : [الكامل]

1 ندّد بشرّ مدمّر جبّار ** ذبح العباد بمدية الجزّار

2 ما للعراق يديره هدامه ** يزجي بنيه إلى لهيب النار

3 إن العراق سفينة ملاحها ** صدّام، هل تنجو من التيّار؟[2]

وليست الوحدة النفسية قاصرة على المشاعر الملتهبة الناتجة عن التجارب الشعورية، بل إن المشاعر السارّة، والعواطف المطربة لمن أكبر ما يدل على وحدة انفعالات الشاعر، إذا ما أحسن التعبير عن نفسيته، هكذا نجد أحدهم يفرح باجتماعه مع الأحباب يوم العيد : [الكامل]

2 في العيد تلتئم النفوس محبّة ** وتعبّ من شرب المنى الدفّاق

3 في العيد كنّا نرتوي بمعينكم ** نسقى بكأس مِ الفهوم دهاق[3]

خوفا من الإطالة لا أسوق جميع أبيات القصيدة التي تتبيّن فيها الوحدة النفسية أكثر من هذه المقتطفات، ولكن ما في هذا الإيجاز يغني اللبيب ويروي غليل القارئ بما فيها من الشعور.

نعم ، إن المشاعر تطرب إذا ما أشبعت النفوسُ رغباتِها، ولكنها تشتد حرارتها إذا ما حُرِمَتْ منها، في مثل القصائد ذات أغراض " الحنين " ، حيث تستثير الأشواق قلوبَ الشعراء وتجعلها تحلق في أجواء الأحلام والخيال بغية تحقيق رغباتها النفسية. فلنقرأ ما تملي علينا مشاعر الشيخ محمد الأمين بمبا الفرضي من غانا ، وهو يحِنّ إلى زيارة مكة : [الطويل]

1 إلى مكّة شوقي شُغفتُ بحبّها ** وهل أظفرن يوماً برؤية نورها

2 وهل أظفرَنْ يوماً برؤية صدرها ** وهل أظفرن يوما برؤية قلبها

3 وهل أظفرن يوماً برؤية عنقها ** وهل أظفرن يوما برؤية وسمها

4 وهل أظفرن يوما برؤية طرقها ** شوارعها ، أنفاقها ، وجبالها[4]

ولا يدلّ طول القصيدة (133 بيتا) إلا على طول الشوق المفعَم به قلبُ الشاعر، فيحلم بأن

---

[1] – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 255/2.

[2] – عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 386، وديوان الرياض ، ص 168.

[3] – حيدر، الشيخ أحمد : الأرائك ، مخطوطة مكتبة الشاعر، من 10 أبيات ، سيقو، مالي.

[4] – بمبا، الشيخ محمد الأمين الفرضي : شوقي إلى مكة المكرمة، مخطوطة مكتبة الشاعر، ص 2.

يزورها يوماً، كما قال في مقدمتها نثراً : " أتسلى بها وأبرد حرارة قلبي بها ". ولبيان مدى هذه الوحدة التي نسجتها حالاته النفسية، انظر إلى الأماكن المقدسة التي تشدّ أشواقه، وإلى تكرار " وهل أظفرنْ " لتتأكّد من الحرارة الشعورية التي يمرّ بها الشاعر في القصيدة :

123 إلى مكة شوقي، حنيني لمائها ** مساجدها، أصواتها وخيامها

124 صفاها، ومروتِها، مقامِ خليلها ** مطاف، ومسعاها، وركن يمانها

125 مناها، وعرفاتٍ، ومرمى جمارها ** وجمعٍ ومشعرها، ومسجد حيفها

126 سبتني وأنستني سواها ظرابها ** كذاك بطاحٌ شاق قلبي خباؤُها [1]

وانظر إلى تكرار " ها " في جميع هذه الأبيات، ومرجعها إلى " مكّة " تأكيدا على شدة الشوق، وتدليلا على الخيوط الرابطة بين حالاته النفسية، أضف إلى ذلك حسن ألفاظها المتخيَّرة.

ويكثر التعبير عن مثل هذه الأشواق نحو الأراضي المقدسة عند شعراء المنطقة، وخاصة عند الذين لم يجدوا فرصة زيارتها ، كالشيخ عمر بن الزبير السنغالي، الذي بخلت قريحته بشعره، فلم تنجب إلا قصيدتين، إحداهما رائيته في الحنين إلى الحج حيث يشهق فيها وجداً بدموعه المدرارة ، كما يبرز ذلك في هذا المطلع : [البسيط]

1. ما بال عينيّ طول الليل قد سهرا ** فوجنتاي بدمع منهما غزرا [2]

وإذا كان هذا الحنين تحرّكه هذه الحرارة العاطفية التي تغذيها رغبة دينية، فإن هناك حنيناً أعم وأشمل يشترك فيه كل البشر، لأن موضوعه معلم من معالم الأدب العالمي، هو "حنين الغريب إلى وطنه "، كما في قافية القاضي أبي بكر غمي[3] وهو يحنّ إلى وطنه "نيجيريا" أيام كان مغترباً بالسودان.[4] وفي " رسالة إلى الوطن " للشاعر الغامبي امبَايْ كَاهْ الذي وفّق في نسجه بين عاطفتي غرامه بوطنه وحزنه على نأيه عنه، لذا أستحسن براعة الاستهلال من مطلع قصيدته : [البسيط]

1. الشوق يملأ أعماقي ووجداني ** ذكراكِ تعزف أوتاري وأشجاني [5]

وإذا وقفتَ على خاتمتها لن تشكّ في هذه الوحدة النفسية التي أحكمتها قريحة هذا الشاعر :

18 و(غمبيا) في سماء المجد عالية ** و(غمبيا) في سجلّ الذكر عنواني

19 افتح ذراعيك يا حبّي ويا وطني ** وضمني وامسحن وجدي وأحزاني

20 وقبل الخد إني صرت في وَلَهٍ ** ولهفة يحرق الأحشاء تحناني

21 أماه إنّي إلى لقياكِ مرتقب ** يا فرحتي حينما تعدو وتلقاني [6]

---

[1] – المصدر السابق.

[2] – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 383.

[3] – هو ابن محمود غمي، درس في السودان، وصار قاضي قضاة أهل الشمال بنيجيريا، له شعره جيد وكثير.؟؟؟؟

[4] – ينظر: غلادنثي، شيخو أحمد : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص 262.

[5] – كاه، د. امباي كيبا : ديوان شعر، مخطوط ، ص 16.

[6] – المصدر نفسه،

والجمع بين العاطفتين ظاهرة يتغنى بها شاعر آخر من مالي، محمد الشفيع جرا، إذ يطـرب ويبكي حبّا وحنينا إلى نبيه الكريم ﷺ : [الطويل]

3. أشمّ الثرى حبّاً بريّا نبيّنــا ** وأجثو لدى الرحمان أدعو وأندب

4. يكاد فؤادي يتمزّق بالهوى ** نرتمي أعاني الشوق أبكي وأطرب [1]

والشوق إذا كان غزلا، كما في قصائد الشعراء الشباب، يتميـز بـالعمق والرسـوخ والجاذبية النفسية، وهذه من العوامل التي تحقّق الوحدة الانفعالية في القصائد، كما تدل علـى ذلك غزليات الشيخ محمد جولد السنغالي، وخاصة بائيته التي تفتتح بهذا المطلع : [الطويل]

1 خليليّ عوجا عند مأوى الأقارب ** تحيي على الأتراب ميض الترائب [2]

ونلحظ كذلك في غزليات ذي النون، أحد كبار شعراء الغزل في السنغال، وهو يبني وحدتـه النفسية بدموع الجوى والهوى تشدّ شجون الأحشاء بعضها بـبعض، وخاصـة فـي يائيتـه المشهورة[3]، التي تختلف عن يائية القاضي مَجَخَتِ كَلَ، شيخ الشعراء السنغاليين، المبنية على الصور الوصفية التي يضفيها الشاعر على حبيبته : [الطويل]

4 وثوباً كظبي مرتع مــن خميلــة ** وريع بمصطاد قد أخطـأ راميـا

5 حوافر ضاهتها العقاب ومـسمع ** كما أنت حرفت اليراعـة باريـا

6 فمشي كفلك صار في اليمّ ماخرا ** وعدو كطير طار في الجو ماضيا

7 وأنت متـى أمسكتـه بعنانـه ** ينازعـك فيـه وهو يعلّك ثانيا [4]

وغير هذه الصور الشكلية فإن لوعات الحب أعمق في النفوس وأرسخ، وأدقّ في نسج الوحدة النفسية من غيرها، كما يتحفنا شريف إبراهيم[5] من نيجيريا بأبيات من تائيته : [الطويل]

4 لقد جفّ جلدي في العظام اشتياقها ** ينوء الرى عن حمل بعـض بليّتـي

5 غرامي بها ما عشت غير مزحزح ** تمكّـن فـي الحـب بالأمكنيـة

6 أهيم بها في اليوم والأمس والغـد ** ضحاي ومـسئي ذكرهـا وعـشيتي

7 وقد شاب فودي يافعا من ودادهـا ** كأني أرى صبحـي قبـيل غديّتي [6]

وقد تأتي الصور مرسومة في الأغراض الأخرى، لتنسج خيوط هذه الوحدة، كما في " الشيخ المبجل " لعمرو ساغو المالي[7]؛ وكذلك وفي رائية القاضي علي ساغو من غامبيا يرثي بها مصطفى لوح السنغالي، وقد مات سجينا بعد تهمته بالانقلاب على الرئيس سنغور.

---

[1] – جرا، محمد الشفيع : فوز الحقائق في مدح خير الخلائق ، موبتي، مالي. وكسر الوزن فيما تحت سطر.

[2] – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 325/1.

[3] – المصدر نفسه ، ص 262/1. ومطلع القصيدة: فما بال دمع العين أصبح جاريا ** إذا ذكرت هند فيرتاع باليا.

[4] – المصدر نفسه ، ص 77/2.

[5] – هو ابن الأستاذ أحمد مقري سعيد، أحد الشعراء الشباب في زاريا بشمال نيجيريا، لم نعثر على كثير من أشعاره.

[6] – إبراهيم، ناصر مرتضى: المدائح النبوية عند بعض علماء مدينة زاريا، كلية الآداب، جامعة بايرو، نيجيريا،2000م،ص 62.

[7] – ساغو ، عامر عبد اللطيف : ديوان شعري على وافرية الشاعر ، ص 51.

وكما في هجاء الحاسدين للشيخ محمد البشير جاو المالي بهذه الأبيات : [الوافر]

1 رأيت الحاسدين هم الكلابا ** يعضّون الأفاضل والصحابا

2 ويختصمون أهل الفضل بغضاً ** ويغتابونهم حضرا غيابا

3 وعرضهم الحميد يمزّقونا ** عليهم يكذبون أجلْ كذابا

4 هم الخُصَما للباري الذي قد ** حبا الفضلا الفضيلة والصوابا [1]

وقد يتّخذ بعض الشعراء التدرج سلّماً في رسم صورهم الشعرية، وكأنّ هذه الخطوات المتأنّية والمتتابعة في الوقت نفسه، تفسح المجال أمام النفس لتقتنع أكثر فأكثر بهذه الوحدة التي توطّدها هذه الصور في حذاقة ماهرة، تأمّل في همزية الشاعر النيجيري داود أديكلنيكن في " الحكومة العمياء" حيث ينتقد الحكومة متدرّجا من سياستها المالية فالاجتماعية والسياسية.

وفي بائيّة العاقب السوسي المالي يتدرج انفعال البهجة من النسيب إلى الطرب بأحاديث الأحباب، ثم إثارة الأشواق بملاحة الشعر المهذّب، قبل أن يصل إلى حدّ الفناء في السُّكْر بمدح الشيخ أحمد التجاني.[2]

وفي هائية شيخ تجان غاي في رثاء شيخه محمد الهادي توري، يتدرج من بكاء إقليم الكجور، فالبلاد أي الأقاليم الأخرى، فالسنغال بأسرها، قبل أن ينحو إلى تعليل هذا البكاء في بيان مكانة هذه الشخصية العظيمة.[3]

ويمكن أن نعد تفاصيل البكاء في المراثي من آليات الوحدة النفسية، بل هي خيوط متينة للمشاعر، ومن ألوان ذلك تكرار البكاء في هذين البيتين من رثاء عمر بارو[4] للحاج عمر بابلي كَنْ [5] : [الوافر]

16 بكاك الدرس والجمع المنابر ** بكوا حتفا وحزنا جا شطوفا

17 بكاك فطاحل العلماء طرّا ** بكوا لمماتكم دمعا وكيفا [6]

وفي لامية محمد يتي إبراهيم النيجري[7] نلحظ التزاماً بتكرار المعاني، حيث يحوم حول بكاء العلم على جثمان أستاذه سيد عمر[8]، وهذا واضح في هذه الأبيات : [البسيط]

1 ليل العلوم دجى إذ بدره أفلا ** والعلم باك على بدرٍ سناه علا

2 والدين حارَ متى بنيانه انهدما ** لما لمرصوصه قد صار مرتحلا

---

(1) – جاو، الشيخ محمد البشير : رأيت الحاسدين، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

(2) – السوسي، الشيخ محمد العاقب : الشيخ أحمد التجاني ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

(3) – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 110.

(4) – هو ابن أبي بكر بارو، من أسرة علمية في مدينة كايْ بمالي، ما أظنه مكثارا في قرض الشعر، ولكنه جيد. ترثي هنا شيخه.

(5) – من العلماء الفلانيين في مدنية كاي، التي أسس فيها أكبر محضرة علمية استقطبت طلبة العلم، وتخرج عليه علماء وباحثون.

(6) – بارو، عمر : رثاء الشيخ بابلي، مخطوطة مكتبة الشاعر، كاي، مالي.

(7) – هو من قبيلة كدالة في صحراء النيجر، شاعر مفلق ، له ديوان غير مطبوع، تكثر المراثي والمدائح في أغراض شعره.

(8) – هو ابن سيد علي الكنتي،من شيوخ القادرية في صحراء النيجر، كان عالما جليلا، تخرج على يده كثير من العلماء والشعراء.

3 والعلم صار غريبا لا أنيس لـه ** إذ من يؤنسه قد غاب وانفصلا[1]

وفي " أم الحزينة " يرمز محمد الإمام غساما الغامبي إلى مآسي تخلف إفريقيا، وهنا بكاء من اليأس لا من الموت، وبيان من الجروح لا من الدموع، وتفاصيل دقيقة لهموم أبناء القارة.[2]

ولا يتحقق عنصر " التفاصيل " إذا لم تكن للشاعر قدرة فنية على تتابع المعاني، لتأتي الانفعالات على نسق موحّد، رغم ألوانها وأنماطها، كما في " الرد على بعض المتعصّبين" ميمية الشاعر السنغالي أحمد بن سعيد يهجو المنكرين على الطريقة المريدية ويمدح في الوقت نفسه مؤسسها الشيخ أحمد بمْبا.[3]

ولتتبين لنا هذه الظاهرة الفنية (فن التفصيل وتتابع المعاني) نسوق أبياتاً من دالية أحمد توجه النيجري حيث يفخر بنصرهم على الأعداء في إحدى الحروب القبلية : [الوافر]

1 حمدتُ الله ربّي ناصرينا ** إلهي قاهراً ربّ العباد

2 بتشتيت البغاة الطائغين ** قطاع للطريق ذوي الفساد

3 وعاروا أرض أَقْدِزْ يأسرون ** ذوي الإسلام ظلما للعباد

4 يكرّون يفرون العتاق ** يجرون التروس في البواد

5 يصيحون عن الأحداث الشيوخ ** ذوي الأقدار من برّ مجيد[4]

ويعجب المرء بميمية الشاعر المالي حبيب عبد الله كانْ الموسومة بـ " الحق في كنه القوم "، وقد صدّر عشرين بيتا بكلمة " الحق "، وكرّر " أنّهم " ثماني عشرة مرة، وبنى القصيدة على أسلوب الخبر الوصفي، ونخلص من ذلك إلى أن الشاعر يتمتّع بوعيٍ عميق بحسن استخدام آليات الوحدة النفسية في هذه القصيدة.

وفي ديوان " الله أكبر وحْيُ الأذان في تكبير رب الأكوان" يسير شاعره النيجيري محمد ثوبان آدم الإلوري على الأنماط نفسها، إذ جاء بوصف دقيق للكون يخلله لفظ " الله أكبر" كخيط متين ينسج القصائد في مختلف البحور التي نقتطف منها مطالعَها هنا :

1.أقول إذا ما النور قد سطح الدجى ** لدى الفجر والإشراق " الله أكبر "

1. لبّيتك اللهم في الحج الذي ** نادى إليه نبيّك العدناني

1. الله أكبر في الأولى وفي الأخرى ** الله أكبر في عسر وفي يسر

1. نظرت نحو السماء ** وما بها من ضياء

2. من أنجم في الفضاء فقلت الله أكبر[5]

---

(1) – السخو، عيسى علي : الحياة الأدبية في قبيلة كدالة ، الجامعة الإسلامية بالنيجر، 2000م/ 1421هـ ، ص 75.

(2) – ينظر : غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 18.

(3) – ينظر : نخبة من الباحثين : دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم، ص 59.

(4) – منكيلا ، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 97.

(5) – الإلوري، ثوبان بن آدم عبد الله : ديوان الله أكبر...، مركز العلوم أوتب، لاغوس،1999م، ص 3، و6، و10، و18.

وبقي أن نشير أخيرا إلى الأحاسيس النفسية التي تتحقق بها الوحدة النفسية من غير أن تظهر لها آليات واضحة، لأن روعة القصائد ترد أحيانا إلى (صدق العاطفة) أو إلى قوّة الخيـــال، بل هي لغة الانفعالات الشعورية، لذا لا يشك قارئ هذين البيتين في مثل هذا الجـــوّ النفـــسي الذي بنى عليه الشاعر الغامبي محمد السنوسي غوث فاس جابي لاميته النبوية : [الطويل]

1 بمدحك يا خير البرايا أرتّـــل ** عجائب ما يوحى إليّ ويرســـل

2 فإنّ مديحاً غير مدحك سيّدي ** محـــال وزورٌ مـــا له متأوّل[1]

وفي " اعترافات " للشيخ محمد كاسو جابي الغيني نرى نفسا ذليلة تتكسر أمام هيبـــة الحضرة الإلهية في هذه المناجاة، التي تأسّست على روح قوية من الوحدة الشعورية: [الكامل]

1 حار الفؤاد ، ولا قنــوط ، وإنّنـــي ** مـــسكين بابـــك لا أقـــول خـــذلتني

2 ودعـــوتني فـــضلا إليـــك وإنّنـــي ** ضـــيف عليـــك ولا أقـــول أهنتنـــي

3 عوّدتني كرمـــا وواصـــلت الـــذي ** عـــوّدتني إذ لا أقـــول حرمتنـــي

4 أوجدتَ لي مـــا كـــان معـــدوما ولا ** يعييـــك إذ أنـــت الـــذي أوجـــدتني

5 أوليتني الإحـــسان منـــذ خلقتنـــي ** وذكرتنـــي فـــيمن ذكـــرتَ وزدتنـــي

6 ربّيتنـــــي بمناســـــبات جمّـــــة ** وعلـــى مناهجهـــا لقـــد رقّيتنـــي

7 أنـــت الـــذي آتيتنـــي ورزقتنـــي ** ورحمتني وغفـــرتَ لـــي وهـــديتني

8 سلّمتـــني مـــن حـــادثات لـــم أزل ** رهنا لمـــوجبـــها فـــما أسلمتنـــي[2]

وهي شبيهة بقصيدة سعيد الشعراء السنغالي التي أوردنا أبياتا منها في المبحث الأول من هذا الفصل[3]. وربّما يعدّ ذلك من توارد الخواطر بين شعراء المنطقة.

ويمكن أن نلمس الروح نفسها في سينية جميل عبد الله من شباب نيجيريا، ويبـــدو أن شاعرها قد تأثر بسينية البحتري المشهورة، لا في رويّها فحسب بل في بحرها وألفاظها، ولا يشك القارئ في دعواي إذا ما قرأ هذا المطلع :

1. ليت شعري من لي بعودة أمس ** وحياة لمن توارى برمس[4]

وفي قصيدة أبي لاجي التي عنونها بـــ " توحّدوا أيّها المسلمون تسودوا " يشعر المرء بهيمنة عاطفة كراهية (اختلاف المسلمين) على نفسية الشاعر، لذا نـــراه لا يجامـــل فـــي معاتبـــة المسلمين قاطبة، آملاً في الوقت نفسه في النصر بشرط وحـــدة صـــفوف المـــسلمين، وهـــذا الموضوع من أهم ركائز الوحدة الفنية والنفسية في هذه اللامية الرائعة التي مطلعها :

إلى أين الذهاب أيا رجالي ** بلا زاد المطي ولا النصال

---

(1) – جابي، الشيخ محمد السنوسي : نيل المرام في مدح خير الأنام، مخطوطة مكتبة أسرته، سريكوندا، غامبيا، ص 75.

(2) – جابي، محمد الأمين : الشاعر محمد كاسو جابي، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد السابع، 2001م، ص 128.

(3) – ينظر صفحة 338 من الكتاب.

(4) – عبد الله ، جميل : نيجيريا تنادي ! ألا هل من مجيب ؟ مخطوطة، كنو، نيجيريا.

عيوب أمام الوحدة النفسية :

إن بعض القصائد تأتي باردة في انحطاط عاطفتها الشعورية، ينحلّ منها ذلك النسيج الانفعالي الذي يحقّق الوحدة النفسية، وقد يقع ذلك من قرائح بعض كبار الشعراء، ولذا أودّ أن أقدم تعليلا لذكر أسبابه وألوانه من بعض النماذج التي نقتطفها من نتاج الشعراء.

إن أول ما لفت نظري إلى انحلال الوحدة النفسية يكمن في طول القصيدة، التي تزيد أبياتها عن مئة بيت ، فيصعب قرضها في آن واحد على حالة نفسية واحدة، فإذا جاءت في أوقات مختلفة ستتبعها حالات عاطفية متفاوتة في القوة والحرارة، ومن هنا تنحلّ الوحدة النفسية، وهذا ما يلاحظه معي القارئ في قصيدة " أفاعي الغرب "ــ لعبد الوهاب عبد السلام من نيجيريا ــ التي بلغت أبياتها 452 بيتا، وخاصة لتباين موضوعاتها وعدم ردّ أسباب تخلف المسلمين إلى الغرب، كما في فصل " مع العلماء " حيث يندّد بالتحاسد والمعاداة والتخاذل السائدة بين المسلمين.(1) قل مثل ذلك في طويلة المالي حبيب عبد الله كانْ في حرب الخليج. ولم تخل " الميمية الإبراهيمة " للشيخ يهوذا بن سعد الزكزكي من نيجيريا، رغم حرصه على وحدة المدح والعاطفة في بدايات القصيدة الخماسية، فانحطّت الوحدة النفسية بكثرة الاستطرادات، فجاءت العاطفة فيها باردة وهادئة.(2)

ولبرودة العاطفة أسباب أخرى، كخلوّ القصيدة من الصور الشعرية، وارتكازها على الأسلوب التقريري، كما هو شائع في الشعر التعليمي، وفي غيره قد تسقط قريحة الشاعر في اهتمامه بالمعنى على حساب الخصائص الفنية، كما وقع للشيخ أحمد جي، كبير الشعراء السنغاليين المعاصرين، إذ يقول في لاميته "نداء إلى الجهاد" في حرب أمريكا للعراق:[الخفيف]

1 باسم ربّي هو المعين تعالى ** وعلى المصطفى سلاماه حالا

2 أيها المسلمون شرقا وغربا ** وجنوبا فلتسمعوا وشمالا

3 إن أمر الجهاد أصبح حقّا ** فرض عين على الجميع قتالا

4 قد أتاكم من العراق شيوخ ** بالفتاوى، وقد أجابوا السؤالا

5 أربع من مئات أشياخ علم ** بل ودين أفتوا، وليس ارتجالا(3)

ولمعرفة الاضطراب في الوحدة النفسية للقصيدة نسوق للقارئ هذه الأبيات من مرثية الشيخ محمد التاسع من النيجر عند وفاة شيخه أبي بكر عتيق، فيفتح القصيدة بحيرته عند سماع نعيه، ثم يثنّي ذلك بتأبينه بفضائل جمة، ثم يعود في البيت الثامن إلى وصول خبر الموت مرة أخرى، ثم لا يلبث أن يعود إلى حيرته، فالحديث عن قدرة الله المطلقة : [الكامل]

(1) – الإباجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام : أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي ، ص 22.

(2) – الزكزكي، يهوذا بن سعد: الميمية الإبراهيمية، مخطوط، زاريا، نيجيريا.

(3) – جي، الشيخ أحمد محمد : نداء إلى الجهاد، مخطوط مكتبة الشاعر، كولخ، السنغال.

1 ***حيّرت وطارتْ فكر نفسي يا أخي ** من نعي جاء لفقد شيخ الأمجد***

2 ***شيخ الشيوخ له فضائل جمة ** شاعت على كل القريب وأبعد***

8 ***قد جاءنا خبر موت معيننا ** في يوم جمعة عند باب المسجد***

11 ***بل لست أدري ما الجواب أقوله ** إلا البكاء وزفرتي تتصعّد***

13 ***ولقد علمت الله فاعل ما يشا ** في خلقه من مذعنين ومرّد*** [1]

ولن يخفى مثل هذا التعليل في رائية الشيخ نوح بن عباس الغاني يمدح بها شيخه إبراهيم انياس.[2] ويلاحظ هذا الاضطراب في انحلال الوحدة النفسية في قصائد المناجاة، والتي تتميز أيضاً بالأسلوب التقريري كذلك، ولامية كمال الدين علي المبارك[3] أوضح نموذج لذلك، إذ لا ينتهي من ذكر السماء حتى يعود إليها بعد الأرض والجبال، بل يجمع أحيانا بين مظاهر كثيرة في مثل هذا البيت : [المتقارب]

بحار الأراضي، نجوم السماء ** وأشجار غاب، رواسي الجبال [4]

وقد تضطرب الوحدة النفسية إذا اشتبهت على القارئ عاطفة الشاعر بأخرى قد تكون أظهر، كما في مطلع هذه اليائية :

1 ***جمال في السجية زان يَيّاَ ** وحسن كان مغتبطا غنيّاً***

2 ***إذا ذكر الفؤاد ربوع يَيّاَ ** وأيّام الوصال غدا شجيّاً*** [5]

لا يماري القارئ في أن الشاعر المالي يعقوب دوكوري يتغزل هنا بحبيبة له، فإذا هو في مرثية لأمّه " قُنْبَي صيبِي" الملقّبة بـ " ييّهْ "، وهذا الاضطراب من نتيجة عدم وضوح العاطفة لدى القارئ.

ولولا اضطراب في مقدمة ميميّة الشيخ محمد الهاشمي، في رثاء سيد محمد العربي[6]، لكانت قصيدته في منتهى الروعة، إذ جاءت هذه المقدمة بالوقوف وبحتمية الموت، وبموت النبي ﷺ. وأخيرا نلحظ عنصرا آخر يخل بالوحدة النفسية إذا جاءت القصيدة في برودة الأحاسيس التي قصرت الألفاظ نقلها في صدق وحرارة، كمطلع لامية معروف شئث[7] من بنين : [الوافر]

1 ***ومالي عن إجابة الشوق مالي ** محايدة لدعوته لمالي***

2 ***ألحّ عليّ طولا لا يزال ** يطالبني قضاء غير مالي***

3 ***غريم الشوق لا يحظى بأمن ** حتى يقضي مطالبه بحال*** [8]

---

(1) – التاسع، الشيخ محمد : مرثية الشيخ عتيق، مخطوطة مكتبة ابن الشاعر علي التاسع، نيامي ، النيجر.

(2) – ينظر: ابن عباس، نوح : قصيدة بث الشوق والحب في مدح غوث الورى، لا. ن، لا.ط، 1371هـ/1951م.

(3) – من قبيلة اليوربا في جنوب غربي نيجيريا، وأحد الشعراء المعاصرين في ولاية كوارا، لكن شعره قليل.

(4) – ألابدون، عبد السلام عبد المجيد : الإنتاجات الأدبية في الفترة ما بين 1960–1988م فيما يعرف بولاية كوارا، ص 118.

(5) – دوكوري، الشيخ يعقوب : اليائية في ترثية يية، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيكاسو، مالي.

(6) – هو ابن سيدي العلامة إبراهيم، من علماء مالي وأحد الشيوخ الصوفية التجانية، توفي ليلة الثلاثاء 3–8– 1392هـ/1972م.

(7) – ينتمي إلى قبيلة اليوربا في شرق بنين ، ومن الشباب الشعراء، لكن شعره قليل، تخرج في الجامعة الإسلامية بالنيجر.

(8) – شئث، معروف : جولة في مالي، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوتونو، بنين.

الفصل الرابع

القصيدة بين الالتزام والاتجاهات الأدبية

المبحث الأول : القصيدة بين الحرية والالتزام

المبحث الثاني : القصيدة بين المثالية والواقعية

المبحث الثالث : القصيدة بين الكلاسيكية والرومانسية

المبحث الرابع : القصيدة بين الاتجاهين الثوري والرمزي

« إن كانت الحرية تشكّل ما للأديب من " حقوق المهنة " فإن الالتزام يشكّل ما عليه من " واجبات المهنة " ، ومن الواضح أن الحقوق تقابلها الواجبات دائما » (1)

وإن كان في هذه العبارة ما نرمي إليه من خلاصة، فإن جملة من تساؤلات تطرح نفسها في هذا الصدد :

- هل كان شعراء المنطقة على وعي بهذه القضيّة ؟
- ما هي أهم العوامل لميل الشعراء إلى الالتزام ؟
- هل اتّخذ الشعراء لشعرهم اتجاهاً شعريّاً أو مذهبا أدبيّاً ؟

وقد نلتقط إجابات عن هذه التساؤلات في قصائد بعض الشعراء ، الذين حاولوا أن يتحدثوا عن شعرهم وخصائصه وقيمته ودوافعه وأهدافه في هذا النتاج الأدبي، ويبدو أن جلّهم من نيجيريا، ربما للنهضة الشعرية التي تشهدها الثقافة العربية في هذه الدولة العملاقة بكثافة سكانها، وبكثرة طلبتها المستعربين، والتي لا تقارن بأي دولة أخرى في غرب إفريقيا.

وإن كان تركيز عيسى ألبي في ميميته الموسومة ب"قيمة الشعر"على شروط العروض في جودة الشعر،فوصف جميع البحور مراعاة لمناسبة حفلة تقديم كتاب في العروض، ومع ذلك صدّرها ببيتين يدلان على دور العقل والقلب في الشعر فقال ما نصّه: [الخفيف]

1 قيمة الشعر أن يكون حكيماً ** ينشئ العقل بالحجا وسليما
2 مستقيم الأوزان يحيي به القلـ ** ـب وقد كان قبل ذاك سقيما (2)

ولكن معاصره ومواطنه من شمال نيجيريا أكثر تصريحا منه في بيان موقفه الأدبي ومدى التزامه بشعره، وهو الشيخ محمد كبير يونس في قصيدته "شعري" نقتطف منها الآتية:[الطويل]

1 قريضي به الإسلام يعلو وينصر ** ويعتزّ فوق الكافرين ويفخر
2 أذود به عن حوزة الدين والتقى ** وأهدم صرح الكفر بل وأدمر
3 إذا مدح الجهال مالا وثروة ** فإنّي بدين الله أسمو وأفخر
6 وأبكي بشعري أمّتي وأحوطها ** بعطف إذا حلّ البلاء المقدر
7 وأفرح إن نالت مناها وعزّها ** أغنّي على أفراحها وأحبر (3)

---

(1) – أبو بكر، محمد أول : محمد النويهي والنقد الأدبي ، ص 86.

(2) – ألبي، عيسى أبوبكر : الرياض، ص 154.

(3) – يونس، محمد كبير : شعري، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا.

وإن بدا في شعره التزامه بدينه الإسلامي فإن ذلك لا يقدح بحريته الفنية، بل يعني أنه يسلك طريقا واضحا في تغذية مواقفه الأدبية بالدين، كي يحظى بالنصر في رفع شأن الإسلام الذي يكمن فيه حلّ جميع القضايا البشرية.

وفي ذلك صراع ، أيما صراع، يخوضه بسلاح ذي حدين، في تخفيف آلام النوائب عن الأمة عند الضرّاء وفي تسلية النفوس بالطرب عند السراء. وقد يتّفق معه أحد الفتية الشعراء المتحمسين في التنويه بدور القوافي في هذا الصراع الإنساني جليّا في هذه الأبيات: [الكامل]

18 إن القوافي في الوغى مثل القنا ** وجروحها تبقى إلى أبناء

19 ومديحها في الحرب نحو صحيفة ** تتلى بكلّ أمانة ووفاء

20 ولكم يمدّ السيف ضدّ تخلّف ** حدّ القوافي وهي رعد بلاء

21 فخذوا بني الآداب من أجدادكم ** درر البيان حصائد الحكماء(1)

هذه الهمزية من قريحة عبد العزيز محمد سلمان(2)تحت عنوان "الشعر موهبة"، ولزميله منصور عبد الوهاب ألابدن مثلها بعنوان " للشعر قيمته الكبرى ".(3) وقد يرى البعض شمولية كبرى لهذا الالتزام يجاوز حدود شعره إلى حياته بأسرها، كما يعبّر عن ذلك الشيخ يونس عبد الله(4) أحد علماء ولاية كوارا بنيجيريا : [الطويل]

حياتي وموتي كلها لرسالة ** من الله ذاك الفعل أعلى وأفضل(5)

ولكن الموقف الأدبي (إطار الالتزام) يجب أن يكون محدّدا بقضية معينة، مرّت بالشاعر في حياته اليومية، ويهدف إلى تغييرها أو إصلاحها أو لمجرد إظهار موقفه، وإلا لأصبح كل شاعر ملتزما بأدبه الفني، والأمر بخلاف ذلك.(6)

وإن كان شعراء نيجيريا قد صرّحوا تصريحا بوعيهم بقضية الالتزام، فإن نظراءهم في الدول الأخرى قد عبّروا عن هذا الوعي تعبيرا عمليّا، إذ خاضوا معركة الحياة حاملين قوافيهم على كواهلهم، يحمون بها أعراضهم، ويطفئون بها نيران الرذائل في بيئاتهم الاجتماعية، لأن شعرهم لم يبق بمعزل عن معاني الوجود وقضايا الناس وظروف الحياة، ولم يشعروا بضيق الأفق ولا بتقييد حريتهم في بيان مواقفهم الأدبية.

ويمثّلهم في السنغال الشيخ أحمد جي، الشاعر المناضل، الذي جاوز الضوء الأحمر في حملته الشعرية ضدّ التصوّف،بل ضد استغلال الشيوخ الصوفية للشعب في خدمتهم حيث صار التصوّف أفيونا للشعب السنغالي، ولم يكن أحد غيره يتجرأ على مثل هذا النقد:[الكامل]

---

(1) – نخبة من الشعراء : البنينيات ، ص 12.

(2) – من قبيلة يوربا في ولاية كوارا بنيجيريا، وتخرج بفرع كلية الدعوة في بنين، وله خمس قصائد منشورة في البنينيات.

(3) – ينظر : المصدر نفسه ، ص 1.

(4) – ولد عام 1941م في أوكيتي، والتحق بمركز أجيجي عام 1955م، ثم تخرج من جامعة بايرو بكنو. له شعر لا بأس به.

(5) – ألابدون، عبدالسلام : الإنتاجات الأدبية في الفترة ما بين 1960–1988م فيما يعرف بولاية كوارا ، ص 72.

(6) – ينظر : هلال ، محمد غنيمي : قضايا معاصرة في الأدب والنقد، ص 130.

8 لا : ما الطريقة أبتغي متعلّقا ** بذيول شيخ يغتذى بعطائي
9 لا أسلكنْ طرقا رسولُ الله لم ** يك ـ قطّ ـ يعرفها مع الرفقاء
10 لا أعرفنْ إخدام شخص جاثم ** فوق الأريكة طامعا لجدائي
11 لا أخدمنْ، لا أزرعنْ، لا أهدينْ ** لشيوخ فلسٍ عسجد ورعائي
12 لا أخضعن أبدا لشيخ بالوعى ** متعصّبا لطريقة الغوغاء
13 وهل التصوّف سنة يا صاحبي ** وهل الطريقة منهج الخلفاء ؟
14 كلاّ ! وكلاّ ! فاعلمن بنباهة ** أن الشريعة منهل الصلحاء
15 ما القادرية، ما التجانة أرتضي ** قل للطريقة راغبا كدرائي
16 أما البقايا فاعلمن لا أشتهي ** من بيضنا أو سودنا آبائي
17 فلقد كفتني سنّة المختار بعـ ** ـد كتاب خالقنا بلا إنشاء[1]

وله ميمية طويلة في الموضوع نفسه، كما له قصائد أخرى : منها ميمية مقيدة أوائل أبياتها بحديث الرسول ﷺ ﴿*خيركم من تعلم القرآن وعلّمه الناس*﴾ [2] يؤكّد فيها عزمه على التضحية بحياته للتعليم وفتح المدارس في كولخ وضواحيها، كما له رائية يردّ على الذين يغرونه بالتجارة ويجرحون ميوله إلى العلم، فمن المطلع نفهم مدى وعيه بالالتزام : [الطويل]

رجال زماني فافهموا لي المشاعر ** أبيّن ما عندي من العقد شاعراً[3]

إن الحرية في المجتمعات الإفريقية أهمّ عوامل هذا الالتزام ، الذي فسح لهم مجال النقد للظواهر الاجتماعية، والأوضاع السياسية، فحاول أكثر الشعراء أن يدلوا بدلوهم في معالجة أمراض المجتمع : كتبرّج البنات المسلمات اللائي رفضن الحجاب وتشبّهن بالغربيات في لباسهنّ وعاداتهن ، فعقد لهنّ السنغالي محمد الأمين عاج قصيدة " بنت الزمان "، فلبّى دعوته مواطنه سرين امبكي عبد الرحمن بمقطّعة أسماها " إلى مواطنتي ": [الوافر]

1 مواطنتي ، ألا عودي إلى ما ** تعوّدتِ من الخلق العظيم
2 فكنتِ القدوة المثلى صلاحا ** وحب الخلق والخير العميم
3 تعوّدت السلامة من نفاق ** وتربيةً على الدين القويم
4 فما لك قد تخلّت عنك هذي ** وهل يشرى حميد بالذميم
5 تخلّى عن تبرّجك الأروبي ** وعودي للحجاب وللفطيم
6 وهل من مهنة أعلى وأولى ** بحوّاء من العمل الأمومي[4]

---

[1] – جي، الشيخ أحمد : لا : ما الطريقة أبتغي ، مخطوطة مكتبة الشاعر ، كولخ، السنغال.
[2] – البخاري، محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري، تحت رقم 4639، ج 15، ص 439.
[3] – جي، الشيخ أحمد : رجال زماني ، مخطوطة مكتبة الشاعر الخاصة ، كولخ، السنغال.
[4] – امبكي، سرين عبد الرحمن : ديوان شعر، مخطوط، ص 18.

وإذا اهتمّ هذان السنغاليان بالفتيات فإن النيجيري محمد كبير يونس يوجّه الفتية بتائية إلى القيام بمسؤوليتهم تجاه المجتمع، كي يحقّقوا آمال الأمة في استعادة مجدها، ولا يتأتّى لهم ذلك إن لم ينبذوا التعصب والتفرقة كما يراها الغامبي محمد الإمام سامبو غساما في قصيدته " أفتى الزمان " حيث يقول في مطلعه : [الكامل]

1 ما بال قوم بالغوا وتبرّموا ** وتعصّبوا وتمسّكوا بقشور ؟

2 ودّوا الرجوع إلى حياة قد خلت ** في عصر كشف حقائق وأمور[1]

لذا يندّد بالطائفية التي مزّقت صفوف المسلمين في قصيدة أخرى أسماها " هذا هو الإسلام".[2]

ومن تلك الأمراض الاجتماعية تعاطي الخمر والمخدّرات التي تفشّت بين ناشئة المجتمع، ويصوّر عبد الرفيع أسليجو النيجيري أحد هؤلاء السكارى السفهاء : [الرمل]

15 عينه محمرّة كاللهب ** تخرج الأقذار تجري بالقذى

16 مشيه مشي المجانين الألى ** مسهم شيطانهم يوم البلا

17 لا أظن أنه يدري ابن من ** هو في ذاك المقام ، لا افترا

18 ليتني ما كنت ألقاه فآ ** ها له أنتن من جيف الفلا

19 فاقتربت منه شبرا قائلا : ** كيف تسعى في جنون يا فتى ؟

20 كبرت كلمته تخرج من ** فيه بل قال كلام الأغبيا

21 فتعاطي الخمر والمخدّرا ** ت لعمري أم آثام الورى[3]

وشاعر آخر من نيجيريا يندّد بظاهرة قراءة القرآن الكريم للكفار، في قضاء حوائجهم مقابل أجر زهيد، وهذا الشاعر هو الشيخ مرتضى عبد السلام :

وفي كل جمعة يقرون كتابه ** لدى الأمراء المشركين الأزانب

أضعتم كتاب الله في رفعه إلى ** مكان به الأنجاس من كل جانب[4]

ومن يتصفّح ديوان " من وحي الواقع " يدرك وعي شاعره شيخ تجان غاي السنغالي بقضية الالتزام، إذ رتّب بعض قصائده في " السياسيات " فخاطب رئيسه الأسبق ليوبولد سيدار سنغور على منبر الشعر بثلاث قصائد لاذعة وهي : عزل، وتناقض، ومفارقة[5]. كما رتّب تحت "الاجتماعات" قصائد أخرى في بيان مواقفه لبعض الظواهر الاجتماعية،وخاصة قصيدته " سكارى "[6] التي يرى فيها أن سفهاء الفسق والفساد أشدّ سكرا من السكارى الخمّارين.

---

(1) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 33.

(2) – المصدر نفسه ، ص 21.

(3) – أسليجو، عبد الرفيع عبد الرحيم : كيف تسعى في جنون يا فتى !!! ، مخطوطة، إلورن، نيجريا.

(4) – فازازي، أحمد فوزي هادي : المختارات من الأغراض الشعرية العربية لعلماء مدينة إيادن، ص 177.

(5) – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 63 – 65.

(6) – المصدر نفسه ، ص 82.

ولكن نونيته " سحق المساكين أو نقص الرواتب " التي عبّر بها على لسان الموظفين عندما خفضت مرتباتهم في أغسطس عام 1993م، أيام سلطة الرئيس عبده جوف[1]، وأبياته الأولى أشد قصفاً على الحزب الحاكم لو كان لرجال السلطة آذان لسماعها : [البسيط]

*1 يا راتباً ضعْفُه ما كان يكفيني ** ما بال خُمْسُك مقطوع بسكين*

*2 كأن نصف فؤادي قد هوى معه ** في هوة عمقها سحق المساكين*

*3 هذي الحكومة تاهت في تَخَبُّطِها ** ونال من وعيها مسّ الشياطين*

*4 كانت مغطرسة يحدو بها بذخ ** نالته من جرّ تهريب الملايين*

*5 وعند ما سكرت من راح ما اكتنزت ** راحت تجوّع في ضرّ وفي هون*[2]

وبقية الأبيات أشبه بمعاني " الحكومة العمياء " لدى الشاعر النيجيري داود أَدِيكِلِينْكُنْ، وأشبه بهما وإن لم تبلغ شأوهما في التنديد ميمية عبد الواسع مدثر التي أسماها " رسالة إلى أمراء بلاد يوربا " حيث جاء فيها هذا البيت كأنه خلاصة للقصيدة بأسرها : [الوافر]

*5 عجبنا للكثير ، وكم أمير ** إمارته فساد أو ظلام*[3]

وإن هذه النزعات السياسية، وتلك الأمراض الاجتماعية ، لمن أهمّ العوامل التي فرضت على الشعراء أن يتّجهوا نحو الالتزام بنفعية الشعر، كي يترجموا تجاربهم في مواقف أدبية، علّها تُسَجَّل في ذاكرة التاريخ ويتناقلها الأجيال وتناقشها الأبحاث.

هكذا حاول بعض هؤلاء الشعراء أن يسهموا بأدبهم في حل القضايا الاجتماعية، إذ في أعماق نفوسهم أن الشعر " نقد للحياة " كما يذهب إليه الأديب الإنجليزي ماثيو أرنولد[4] Mathieu Arnold ، ولكن هذا الأخير لم يناد بالالتزام كما لم يناد شعراؤنا بذلك، وإن شعروا به في تكريس قصائدهم لإثباته.[5]

وبهذا المنطق وجدت اتجاهات لدى شعراء المنطقة، يمكن تصنيفها حسب المذاهب الأدبية، ولكنني أوثر مصطلح " الاتجاه " على " المذهب " لأنهم لم يدعوا إلى المذهبية، ولم يتثقّفوا بمعايير تلك المذاهب الأدبية الغربية، ولم يشعروا بتيّاراتها الفنية كما كان الحال لدى الشعراء العرب المحدثين. ومع ذلك لا مانع من استعمال " الكلاسيكية " بدلا من " الاتباعية "، والرومانسية بدلا من التأثرية أو الذاتية، لأنها أضحت من المصطلحات الأدبية العامة، مع التنبيه إلى أن خصائص شعرائنا في الكلاسيكية ستختلف بلا شك عن خصائص الكلاسيكية الغربية،لأن أدبنا إسلامي يختلف في جذوره التاريخية والفكرية عن كنه تلك المذاهب الغربية.

---

[1] – هو ثاني رؤساء السنغال من 1980 إلى 2000م، كان رئيس الوزراء في عهد سنغور، وهو الآن الأمين العام للفرنكفونية.

[2] – المصدر السابق، ص 85.

[3] – إيليينكي ، عبد الواسع مدثر : رسالة إلى أمراء بلاد يوربا، 42 بيتا،

[4] – أديب إنجليزي (1822–1888م) اشتهر بدعوته إلى أن للشعر غاية اجتماعية ووظيفة تربوية.

[5] – ينظر: هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 485.

المبحث الثاني: القصيدة بين المثاليّة والواقعيّة

1)- مثالية هذه القصيدة :

من المعلوم أن " المثالية " ليست من المذاهب الأدبية والنقدية، ولكن قد نؤيد الرأي القائل : " *إن الأدب والفن ــ في جميع مذاهبه ــ مثالي* [1]" إذا ما أردنا أن نثبت للمثالية مكانة أكثر مما تستحقّ في عالم الأدب، خلافاً لما لها في عالم الفلسفة من عناية فائقة بتعريفها لدى كبار فلاسفة الغرب، الذين تضاربت آراؤهم في تحديد مفهومها بين من يراها أفكارا ملهمة من الله لفهم العالم المادي كالفيلسوف الفرنسي مالِبرانش Malebranche[2]، وبين من يذهب كالفيلسوف باركيلي Barkely[3] إلى أنّها أفكار ممثَّلة في الأذهان تفوق ما يعقلها الإنسان من العالم المادي. ولكانْط Kant الألماني[4] رأي يؤيدهما قائلاً : إن مبادئ العلم مبنية على أساس الحواس المحددة بمثالية عقل الإنسان.[5] والخلاصة أنّ المثالية هي الخير يغلب على الشر في الحياة، والخير طبع البشر وأصل العالم .

رغم ما نجد من تقارب بين هذه الآراء وما يرمي إليه شعراء المنطقة في قصائدهم من أفكار مثالية، فإن الفرق بين النظرتين شاسع، لاختلافهما في جذورهما الفكرية والعقدية، وتباينهما في رؤيتهما الحياة والكون، وفي هدفهما في تغيير العالم والمجتمع البشري.

وأهم ما يمثّل هذا الاتّجاه المثالي لدى شعراء المنطقة هو شعرهم في المدائح النبوية، حيث يضفون الفضائل المثالية على الرسول الكريم ﷺ ، ومن تلك المدائح تظهر الرؤية المثالية للحياة التي طابت برسالة هذا النبي ﷺ ، لذا أطلق الشيخ محمد غبريم[6] على إحدى قصائده بـ " سعد السعود في مدح سيد الوجود " التي جاءت منها هذه الأبيات : [الكامل]

19 شمس على فلَك الكمال مضيئةً ** بدرٌ على فلك العُلى ديمومُه
20 حَبْر على علم الإله معلَّم ** فاللوح ينفُذ ما نغاه نهيمُه
21 بل هو روح الكون بل هو عينُه ** إنسانُها هو حيُّه قيّومُه
22 أوج التعاظم مركز العزّ الذي ** لجناب كعبته الأنام تحومه
23 والكون منه كائن وبرصفه ** قام الزمان وغاب عنه تُخومُه [7]

---

[1] – ينظر : هلال، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 292.

[2] – هوالفرنسي نيكولا مالبرانش(1638–1715م)، ولد في باريس، وأصبح قسيسا، كان ينكر العالم المادي، ويؤمن بنظرة إلهية.

[3] – هو جورج باركيلي، إنجليزي من أصل إيرلاندا (1685–1753م)، يرى عدم فهم المادة بلا عقل الإنسان.

[4] – هو عمانويل كانط (1724–1804م) هو مؤسس الفلسفة النقدية التي كان له صدى بعيد المدى بين الفلاسفة الغربيين.

[5] – مادة " idéalisme " في موسوعة " Encarta 199 ".

[6] – هو الداغري ، أحد علماء نيجيريا، شرح ألفاظ " العشرينية" بعنوان "النوافح العطرية"، وذيلها بقصيدتين له في المدح النبوي.

[7] – الداغري، محمد غبريم: النوافح العطرية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، لا.ت، ص 309.

ومن يقرأ في شعر كبار الشيوخ الصوفية بدول المنطقة يلتقط درراً ناضرة من هذه الحقيقة المحمدية، التي لا تجد نفوس الشعراء لها حدوداً ولا حجماً، وفي ذلك منتهى الاتجاه المثالي.

وفي أشعار التوسّل بهذا النبي ﷺ وبسائر الأنبياء عليهم السلام والصالحين تزول جميع هموم الدنيا، وتتفتح زهرة الدنيا ببهجتها ، لتعمّ السعادة أهلَ الطاعة والصلاح، ويعدّ ذلك سُلّم الشيوخ الصوفية يترقّونه إلى الحضرة الإلهية، وحتى الشعراء الشباب تأثّروا بهذا المنحى، وخاصة إذا كانوا من الواصلين كعمر انجاي السنغالي[1] يتوسّل بمن أفعم حبُّه قلبَه : [الطويل]

149 كنز العوارف واللطائف والمنى ** يمناه تزري الزاخر المتلطّما

150 كهف الأرامل ملجأ الأيتام والـ ** ـغرباء عصمة من أتى مستعصماً

151 يا رحمة الدارين يا سند الورى ** يا من هو النفحات تحيي الأعظما

152 يا عُدّتي يا عُمدتي يا ذُخرتي ** يا من أروم به الجدى والمغنما

153 يا من به في النائبات توسُّلي ** يا من به همّي يصير محطَّما

154 يا من أضاء الكونَ شمسُ وجوده ** من بعد ما اسودّ الزمان وأظلما

155 طه ويا ياسين يا قطب الرحى ** يا سيّد المحراب يا حامي الحمى

156 ها قد وقفت عليك كلّي أستقي ** من عذب جودك شُربة تنفي الظما[2]

وهذا يكثر في الديوان المبارك للشيخ محمد ناصر الكبرى، وفي هدية الأحباب والخلاّن لأبي بكر عتيق، وكلاهما من نيجيريا، وفي الدواوين الست للشيخ إبراهيم انياس، وفي مقاليد السعادات للشيخ علي بوبديم الغيني.

وتأتي مدائح الشيوخ الصوفية ذيلا للمدائح النبوية لينظر بها الشعراء إلى الحياة نظرة مثالية، لأنهم سعدوا بوسيلتهم إلى ربّهم، فراحوا يتغنّون بهذه السعادة الروحية التي أزالت عنهم هموم نوائب الدهر، وهذا أكثر ما نجده عند الشيوخ التجانيين، الذين اعتادوا أن يدبّجوا الدواوين في مدح الشيخ أحمد التجاني : كديوان الشيخ أبي بكر الخليفة سهْ الذي جلّ قصائده في الشيخ التجاني، وكالكبريت الأحمر للشيخ محمد الخليفة انياس قائل هذه الأبيات: [الطويل]

49 بمدح الشيخ أجلو كلّ رين ** وأكشف غمة الكرب الشدادي

50 فيُفصِح حين أمدحه لساني ** ويصفو حين أذكره فؤادي

51 له خضع الرقاب بلا نزاع ** من الأقطاب كلاّ بانقيادي

52 خليفته تلقّى منه فيضا ** فقلّد بالجواهر كلّ نادي

53 وروّى من سلافته صدانا ** كما يجلو الزلال غليل صادي[3]

هكذا تتجلي خيرية الحياة عند التجانيين في خدمة هذا القطب المكتوم، فلا شرّ ولا هموم بعده.

---

[1] – هو ابن الشيخ أحمد انجاي العروض،من قرية بشرى قرب كولخ، وهو أشعر أولاد أبيه، وله قصائد كثيرة. ولد عام 1969م.

[2] – انجاي، عمر : حداء الطريق إلى خير الرفيق، مخطوطة مكتبة الشاعر، قرية بشرى، محافظة كولخ، السنغال.

[3] –انياس،الشيخ محمدالخليفة:الكبريت الأحمر في مدائح القطب الأكبرأحمد التيجاني،مؤسسة والفجر،السنغال،ط1996،2م،ص180

وعلى كل متصوّف أن يعتقد هذه النظرة المثالية في شيخه، الذي اتخذه وسيلة في سلكه التجاني، فتبارى الشعراء السنغاليون في تدبيج مثل هذه المدائح للحاج مالك سهْ، كما تسابق الآخرون من سائر دول المنطقة في مدح الشيخ إبراهيم انياس، وخاصة من أهل نيجيريا وغانا. وقل مثل ذلك في نظرة شعراء القادرية إلى الحياة برؤيتهم المثالية في الشيخ عبد القادر الجيلاني كما هو شائع في شعر الشيخ محمد ناصر الكبرى، وعند شعراء طوبى بغينيا.

ومردّ ذلك كلّه إلى التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (1)، وهذا أعم وأشمل كما يؤكد مطلع هذه القصيدة من أبي رضوان مدني تيام من شعراء مالي : [غير موزون]

1 زمن فقيره وغنيّه يشتكي ** ومريحه ورع تدابر عن هوى

2 ومن استقلّ نعمة يلتقي ** ضرر الزمان ولا يغار على ربا (2)

وقد تغلب هذه الروح الصوفية على الأتباع حتى يحصروا الرؤية المثالية في زاوية طريقتهم، أو في مدينتها، معتقدين أنها منبع خيرية الحياة بأسرها، وهذه النظرة الضيقة للمثالية قد نجدها عند عامة الصوفية ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (3)، فيردّ عامة التجانيين إلى مدينة فاس مصدر النفحات الإلهية، لذا يحنّ كثير منهم إليها كمطلع نونية هارون الرشيد من غينيا بيساو في مدح الشيخ أحمد التجاني : [الكامل]

1 شوق يسوق إلى البقاع الحاويا ** ت لمعدن الإيمان والعرفان (4)

وقال مثل ذلك الشيخ يهوذا(5) بن سعد في مطلع أرجوزته :

1 خليلي حبيبي ذا الأنس ** فقم وانهض إلى فاس (6)

وفي الوقت يقول مثلها في مدينة كَوْلَخْ، التي يعتقد فيها أتباع الشيخ إبراهيم انياس أنها منبع الفيضة التجانية لتعم السعادة الروحية للبشرية الجمعاء : [الطويل]

وكولخ دهري مسرى هويّ ** وساحتها بدت ملقى عصيّ

لها شيخ سعادة مقلتيَّ ** "أروم إليه أن يأخذ يديّ

ويدخلني فراديس النعيم" (7)

ولشعراء الطريقة المريدية في السنغال الاتجاه نفسُه نحو مدينة "طوبى"، فيقول أحدهم فيها:

13 طوبى لـ "طوبى" ومن فيها لأنّ بها ** جار الإله فعقبى أمرها رُتَبٌ

14 جند من الملإ الأعلى حراستُها ** حقّا على الله وعداً منه يقترب (8)

---

(1) – الآية : 13 من سورة الحجرات.

(2) – تيام، أبو رضوان مدني : لزمن ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

(3) – الآية : 53 من سورة المؤمنون.

(4) – صالح، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية ، ص 408.

(5) – أحد كبار علماء زاريا في شمال نيجيريا، وكبير أتباع الشيخ إبراهيم انياس (1886–1956م)، له قصائد ومؤلفات كثيرة.

(6) – إبراهيم، ناصر : المدائح النبوية عند بعض علماء زاريا، كلية الآداب، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا، 2000م، ص 53.

(7) – الزكزكي ، يهوذا بن سعد : الميمية الإبراهيمية ، مطبعة محلية ، زاريا، نيجيريا ، لا.ط، لا.ت ، ص 18.

(8) – امبكي، مصطفى بن الشيخ صالح : هدية مصطفى بن عبد القادر، مخطوطة، طوبى، السنغال.

إن الالتزام الأخلاقي الذي يغلب على اتجاه بعض الشعراء، قد طبعت رؤيتهم المثالية بطابع رسالة تحمل نماذج خيرية في طيات أبياتها الشعرية، وهي تدعو إلى الطرق التي تفتح أمام المجتمع البشري سبل الوصول إلى المثالية في الحياة،وتظهر هذه العناية أحيانا في عناوين القصائد ذات هذا المنحى، كقصيدة "من الجدير بالمصاحبة؟" للشاب أحمد بولي:[الكامل]

1 ***يا صاح صاحبْ أيّ شخص قد حوى ** حسن السجايا، أي فرد ما التوى***
2 ***ورعا تقيا ناصحا، بل ما غوى ** متنئيّا عن كل سوء والهوى***
3 ***متطهرا عن كل زيغ، بل نوى ** للغير خيرا ، بل مزيحا للطوى***
4 ***من ليس يرغب في المجون وما هوى ** للغير خيبا ، بل مدّن للنوى***
5 ***ومن الذي نحو الحقائق قد أوى ** وأزال ما بالمستعين من الجوى***
6 ***فأعانه وأغاثه حتى استوى ** وقضى المآرب كلّها ثم اقتوى***(1)

إنها من تمنيات الشباب في الحلم بمثاليةِ تغيير المجتمع إلى حياةٍ جديدةٍ، ولكن الأسلوب هنا تقليدي متأثر بأساليب شعر الشيوخ الصوفية في المواعظ والإرشادات وبيان آداب المريد. وعلى النهج نفسه يكتب شاب نيجيري هذا التساؤل " طريقتنا المثلى إلى نيل سعادتنا العظمى " وهي نونية يجيب عن ذلك الطريق المثالي بالذكر، أي الالتزام بالأوراد الصوفية(2).

ولكن هذه الأحلام " اليوطوباوية " تزكو لدى شيوخ شعر المناجاة عند ما يستحضرون مقام الحضرة الإلهية، فيتعمّقون في وصف تلك الصفات المثالية التي يطلبونها من الله أن يلبسهم إيّاها حتى يذوقوا السعادة الأبدية، أو يشكروا الله على ذلك، بعد تحقيق الأمل كما في هذه الأبيات من ميمية الشيخ عمر رافع جالو الغيني: [البسيط]

1 ***مُلكي ومِلْكي في الدارين إخدامي ** من حُبِّه ، قد كفى إزلال أقدامي***
2 ***نفي لغيري إلهي كلَّ مفسدة ** بالمصطفى ومحا من قبل إسقامي***
6 ***أنالني الله في المختار فوق مُنى ** صلّى عليه بتسليم وإكرام***
7 ***لي سخّر البحر والأعداء معتليا ** وكبّ ربّي ذوي ظلم وإجرام***(3)

والشكر أحد جناحي شعر المناجاة والتوسل المتّصلين بالتضرع إلى المولى في نيل المنى. وقد يكون هذا الشكر هو طلب المنى ذاته إذا ما غلب على الصوفي أن رجاءه قد تحقّق قبل لفظه به، لحسن ظنّه بربّه ألاّ يخيّب له طلبا، " لأن حسن التوبة يوجب القبول " ، عند من يرى ذلك.

ويتجاوز شعراء المثالية هذه الحدود إلى تعميم رؤيتهم المثالية في كل ممدوح، إذ الحياة بخير لوجود مثل هؤلاء الذين يمدحونهم، وخاصة إذا كانوا من شيوخهم الصوفية، لأنهم

---

(1) – بولي، أحمد عبد الله : من الجدير بالمصاحبة ؟!! ، مخطوطة، بماكو، مالي.
(2) – ينظر : نخبة من الشعراء النيجيريين : البنينيات، ص 36.
(3) – جالو، عمر رافع : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، قصيدة مخطوطة بمكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

مصدر الفضائل ، بل إن حبّه ينشئ راحة أبدية في النفوس، كما يقول هذا الشاعر السنغالي المقيم في واغادوغو ببوركينا فاسو، محمد حبيب كانْ، في مدح الشيخ يوسف التجمي:[الكامل]

4 من فيه للأحباب كل مسرّة ** وتواضع وتكرم وقار

5 من وعظه يشفي الصدور ويرتقي ** بحديثه وسكوته الأبرار

6 من في فؤادي راحة أبديّة ** ومودّة في طيّها الإكبار

7 من وجهه للناظرين سعادة ** وكرامة إجلاله ويسار

8 أرضاه بل يرضاه كل أحبّتي ** شيخاً كريما فيضه المدرار

9 إذ ربنا أعطاه كل فضيلة ** ينأى بها عن حوزة الأشرار [1]

وقد تكثر هذه المعاني المثالية لدى الشعراء الماليين في مدح الشيخ محمد منصور، خليفة التجانيين في مدينة سيقو، فمدحه سيدي كسم بن عبد الرحمن[2]، والعاقب السوسي، والسيد محمد الحبيب[3] الذي جعله في مطلع عينيته مجلب السعادة لأتباعه : [الكامل]

1 أمحمد المنصور شيخ زمانه ** أنت المعدّ لكلّ أمر فاظع

2 أنت المعيل فنحن حولك عالة ** خدّام حضرتكم بكلّ تدافع

5 أعني به المنصور من حاز الخلا ** فة والعلا رغما لكلّ مخادع[4]

ويبقى أن نشير إلى أن الشعراء إذا افتخروا فينسون مآسي الحياة، بل يشعرون بسعادة أيما سعادة، لأنهم يظهرون في لباس الملوك والشجعان والعلماء متفائلين بخيرات كثيرة ستعمّهم في الحياة، نفهم ذلك كلّه في هذه الأبيات : [البحر الكريم]

1 لبسنا حُلى العلم جمالا ** رزقنا من الحفل زلالا

2 نهنّئ في الحفل كراما ** وُهِبنا من الحمد هلالا

3 من الأمل إنا كالملوك ** تزيّى بنا اليوم جلالا

4 رشفنا من النور بحارا ** تزيد مع الجيل نوالا

5 وذقنا من الذكر لذيذا ** تمنّع أن ينسى طِوالا

6 وسرنا على الحق زمانا ** ننادى يميناً أو شمالا [5]

في كلّ ما سبق يظهر لنا لون الاتجاه المثالي عند شعراء المنطقة، المتفائلين بخير الحياة وسعادتها، وكان الدين أكبر جذور هذه السعادة، والتصوف أهم محرّك لهذا الاتجاه.

[1] – كانْ،محمد حبيب محمد بن محمد الأمين:جوالب الفلاح في مدح أهل الصلاح،مخطوطة مكتبة الشاعر،وغادو،بوركينا،ص 4.

[2] – هو أحد الشعراء التجانيين في مالي، كان من كبار أتباع الشيخ منصور ، وله قصائد لم نعثر إلا على قليلة منها.

[3] – هو ابن سعد الأنوكندري، كان تلميذا للشيخ منصور، وهو شاعر مقل أو لم يصل إلينا من شعره إلا قليل.

[4] – الأنوكندري، السيد محمد الحبيب : مدح المنصور، قصيدة مخطوطة، بمكتبات العلماء الخاصة، سيقو، مالي.

[5] – أريبي، عبد الواحد جمعة : المركزيات، دار Saoleks ، لاغوس، نيجيريا، الطبعة الأولى، 2000م، ص 27.

2)- واقعية هذه القصيدة :

تستقي " الواقعية " جذورها المذهبية من الأفكار الفلسفية، المناقضة للمثالية لأنها ترى أصل الحياة شرّاً ووبالا ومحنة، وما الخير فيها إلا أحلام عابرة، إذاً فهي تفسير الحياة وكشف أسرارها وتصوير مآسيها اعتمادا على رؤية متشائمة، لا على موضوعية.[1]

وليست المدرسة الواقعية تصويرا دقيقا لواقع المجتمع المعيش، كما يتوهّم الذين يعتمدون على لفظها اللغوي من غير الوقوف على اصطلاحها الأدبي، ولكنها تستقي من واقع الحياة التجاربَ الإنسانية والظواهر الاجتماعية لتعليلها وتفسيرها، حسب ما تقتضيه الأسس الفكرية التي ينطلق منها أدباؤها، الذين يختلفون أحيانا في استخدام تلك الأسس، وخاصة بين أدباء غرب أروبا في فرنسا وانجلترا وبين أدباء شرقها في روسيا حيث عرفت " الواقعية الاشتراكية " التي تتفاءل لمقاومة الشر الذي هو أصل المجتمع البشري لتغيير الحياة على ما ينبغي أن تكون عليه.[2]

وإذا كانت تلك الأسس الفكرية فلسفية عند الغربيين، فإنها دينية عند أعلام الشعر العربي الإفريقي، علما بأنهم لم يخطر ببالهم ما ورد في الأدب الغربي من تلك الأسس الفكرية الفلسفية، إلا عند قلة من الشعراء الشباب في أواخر القرن العشرين الميلادي.

إن النزعة الصوفية التي تتمسّك بـ " الزهد " في الحياة، وتهذّب النفوس على الفرار من الدنيا إلى الآخرة لقريبة من هذه الواقعية، غير أن الفرق شاسع بين رؤيتهما للحياة لأن غايتهما متباينة. وقد نتجت من الزهد معاني روح التشاؤم لدى الشيوخ الصوفية في المنطقة.

يقول جيرن شيخ دومق ور الفا عن غرور الدنيا الناس لأن أصلها باطل : [الطويل]

1 ألا كانت الدنيا غرورا وباطلا ** فكن حذرا منها ولا تك غـافلا

2 فغرّت رجالا جمّة ونسـاءهم ** فصاروا لخسران وشرّ حبائلا[3]

ويكثر أسلوب التحذير عندهم، كما في تائية الشيخ محمد جبجي[4]، وأرجوزة محمد الغالي.[5] وكثيرا ما علّقوا هذه " الواقعية الزهدية " ــ إن صح التعبير ــ بالموت، حيث أصبح المتفائل لسعادة الحياة كالمغرور الذي سيقضي عليه الموت وعلى كل مظاهر سعادته: [الطويل]

1 إذا ما كنـت غرتـك الحيـاة ** فعش ما شئت آخرك الممات

2 أيا مغرور بالدنيا لها اعمـل ** كما تهوى سـتأتيك الوفـاة

3 وفيها ابنِ القصورَ بما تشاء ** ستحـويك الضرائح والفلاة[6]

---

[1] –مندور،محمد:الأدب ومذاهبه،نهضة مصر،لا.ط،لا.ت،ص91. (2) – المصدر نفسه ، ص 100-104

[3] – صمب، عامر: الشعر السنغالي العربي، ص 399/2.

[4] – هارون، سلمان: حياة الشيخ محمد جمعة جبجي وإنتاجاته في الأدب العربي في مدنية إلورن، جامعة بايرو، نيجيريا.ص 51.

[5] – جامع، علي محمد: الشيخ محمد الغالي ومساهمته الأدبية في بلاد اليوربا،كلية الآداب،جامعة إلورن، نيجيريا،لا.ت، ص 55.

[6] – جاو، الشيخ محمد البشير : المغرور بالحياة ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

هكذا يصوّر الشيخ محمد البشير جاو المالي نهاية الإنسان بالموت، نهاية شرية تقلّب السعادة الدنيوية رأسا على عقب، لذا يرى في سينية له "*ألا استراحة في الدنيا لمن عقل*"، والمعنى نفسه تولّده لامية الشاب عبد الواسع مدثر في وصف الدنيا بدار الفناء المقابلة لدار البقاء[1].

كل من يتصفّح شعر شيوخ المنطقة لا يجد عناء في التقاط هذه المعاني الزهدية، لشيوعها في مختلف الأغراض الشعرية، وخاصة في قصائد المواعظ والحكمة والمراثي..الخ، ولكن تربيع الشيخ عمر كركي الغاني لكتاب الزهد والوصية يروي كل غليل في هذا الباب.

وفي مقدمات المراثي اعتاد الشعراء أن يعلنوا عن أحاسيسهم نحو الدهر، الذي أصبح مصدر الشر والشقاوة والبؤس لقضائه بالموت على حياة البشر، موتٌ يكدّر صفوة الحياة بمرارته ومأساته، هكذا يفتتح سرين امبكي عبد الرحمن السنغالي مرثيته لأبيه : [مجزوء الوافر]

1 تكدّرت الدُنا علنا ** وحيّرت الورى شجنا

2 وصرنا كالمغازل من ** ضوى والحزن يقلقنا

3 ولم نستعذب العذبا ** وكاد الموت يرشقنا[2]

وعبارة " تكدرت الدنيا " مبثوثة في نتاج شعراء السنغال، فنجدها أيضا عند الشيخ المصطفى امْبَك[3]، الذي يشعر بهموم المسلمين بمأساة الحياة فيتضرع إلى ربه لكشف الكرب: [الطويل]

1 تكدرت الدنيا وضاقت على الورى ** فما منهم إلا أخو البؤس والضرّا

2 يحنّ إلى صغرى المآرب ثم أن ** نحوّل جنبا قد يئنّ من الكبرى

3 فيا خالق الدنيا وضرتها معا ** وما فيهما بدّل لنا العسر ذا يسرى

4 وفرّج هموم المسلمين وغمّهم ** وفكّ أساراهم وعجّل لنا البشرى[4]

ونرى غيره كابن زبير يصوّر الدهر خائنا في مقدمة تائيته التي رثى بها الشيخ إبراهيم انياس.[5]وتأتي قصيدة الشاعر المالي حبيب عبد الله كانْ المسماة بـ" دار" لتصوّر هذه الخيانة أروع تصوير، وصوّر طول نفَسه بتقييد أوائل أبياته بلفظ " دار" على هذا النمط : [الكامل]

5 دار متى ما وسعت لك برهة ** تأتي بضيق الحال جلّ أوان

6 دار متى ما أسعدت حينا فتى ** ستريه بعد شقاوة الأحيان

7 دار متى ما أيمنت فأل الفتى ** تأتي له من بعد بالنحسان

8 دار متى ما أكرمت يوما فتى ** تأتي له بالذل يوما ثاني[6]

---

[1] – إيليينكي، عبد الواسع مدثر: صفة الدنيا، لامية مخطوطة من عشرة أبيات، إسيين، نيجيريا.

[2] – عبد الرحمن ، سرين امبكي : رثاء، مخطوطة مكتبة الشاعر، طوبى ، السنغال.

[3] – هو ابن الشيخ أحمد بمبا(1889–1945م) وخليفته الأول، درس على عبدالرحمن لو، وإبراهيم امبك، وله شعر جيد.

[4] – صمب، عامر: الأدب السنغالي العربي، ص 304/2.

[5] – المصدر نفسه ، ص 320/1.

[6] – كانْ، حبيب عد الله : الوردة على نهج البردة ، ص 42.

ثم تجده يصبّ لعناته على الدهر في مرثيته لفيصل ابن الملك فهد، حيث يسهب بترداد " تبّاً لها " لمسح دموع الحزن والشجن، وبهذا يحتل مكانه بين شعراء الواقعية في المنطقة: [الكامل]

24 ما دار دنيا غير لفّة أشرط ** تبّاً لها من صيهد مطرود
25 تبّاً لها طيف سراب بقيعة ** خلاّفة لم توف قطّ وعودْ
26 تبّاً لها تبّاً لها تبّاً لها ** أصطمّة الأكدار أجن ورودْ
27 ما سحّ قطّ لآمل منها الحيا ** فسماؤها برقا فقط برعودْ
28 تبّاً لها من دارة غدّارة ** لعّابة بدفوفها والعود
29 تبّاً لها ، تبّاً لها ، تبّاً لها ** أحلامها تأتي كآل البيد[1]

ولما كان الموت سببا محرّكا لهذه المشاعر المتشائمة نحو الحياة، فيمكن القول إنها صيحات على الموت أكثر من كونها للحياة، لذا أصبح الموت محور هذه الرؤية الواقعية التي انتهت إلى أن " السعادة الفانية " غرور في أصلها، لأن السعادة ينبغي أن تدوم وتبقى، فلذا يرسل الكاتب الغاني عثمان برايما باري خواطره عن المنية والدهر : [الطويل]

1 حكم المنية في البرية جار ** ما هذه الدنيا بدار قرار
3 فاقضوا مآربكم عجالا إنما ** أعماركم سفر من الأسفار
5 فالدهر يخدع بالمنى ويغصّ إن ** هنا ويهدم ما بنى ببوار[2]

هكذا نصل إلى الرؤية الشخصية للحياة ، بعد أشواط من الزهد والمراثي والموت، وإن كنّا نلاحظ عدم تطابق بين تلك الزهديات وأسس المدرسة الواقعية في صورها الدقيقة، فإن شعر بعض الشباب يحقّق هذا التطابق، كلامية عبد الغني أتندا راجي[3] الذي لا أشك في ثقافته الأدبية للمذاهب الأدبية الغربية، لدقة تصويره للدهر في كيده بالإنسان : [الطويل]

1 أأهل النهى عند السؤال أريدكم ** لتحليله إنّي جهلت له حلا
2 لم الدهر كان الخصم لم يَرْعَ ذمّة ** لذي همّة بل لا يراعي له إلا
3 أفي كل يوم يجمع الدهر جيشه ** من الهمّ تمزيقا لذي همّة شملا
4 فيخذل مظلوما وينصر ظالما ** ويخفض ذا جاه وينزله سهلا
5 نمدّ له حبلا من السلم مؤمنا ** لجنباته لكن يبادلنا نبلا
6 ونعطي له جودا ونجزل رفده ** ويعطي لنا شحّا ويجزلنا بخلا
7 ونوسعه حلما ونحمل ثقله ** ويوسعنا جهلا ويرهقنا ثقلا
8 ونمنحه حبلا من الودّ محكما ** ويمنحنا حبلا ويرخي له فتلا
9 وقد صار هذا منه دوما سجيّة ** فهل من فتى عدل يرد له كيلا[4]

---

[1] – كانْ، حبيب عبد الله : كلمات رثاء، مخطوطة مكتبة الشاعر، ألقاها أيام كان طالبا في السعودية.

[2] – باري، عثمان برايما : جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي،دار الأمين،القاهرة،الطبعة الأولى،2000م، ص:" ب ".

[3] – ينتمي إلى قبيلة اليوربا، وأستاذ بكلية دار الكتاب والسنة، وأما شعره فيصنف من روائع الشعر العربي المعاصر في المنطقة.

[4] – راجي، عبد الغني أتندا : أأهل النهى، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا.

إنها صراخ محنة ذاقها الشاعر في مدينة كنو، عندما أخرج من داره الفسيحة إلى غرفة ضيقة حرمته من لذة المطالعة وتحضير الدروس، فتولدت في نفسه هذه النظرة الواقعية للحياة.

وإذا ما وقفنا عند الشاعر المالي، أبي رضوان مدني تيام، فتغمرنا نظرتــه الخاصــة لعصره، وإن كان يحاول تعميم تشاؤمه لعالم الجنّ لزمانه لا للحياة عامة، فيقول :

1 إنّ هذا الدهر ليس كمثله ** إنسُه في طمع وجنّه يكذب[1]

يظهر في أبياته متبرّماً من المال،ومتهكّماً من البشر الذين شقّوا جميع الطرق ــ خيرا وشرّاً ــ بحثا عن المال، وله قصيدتان أخريان (الدنيا) و (يا عصري لِمَ) يبذل فيهما جهده الجهيد في بيان مظاهر الشر في أهل زمانه برؤيته المتشائمة الخاصة بعصره ومحيطه.

وهذا يفتح لنا بابا على مصراعيه للشعراء الذين لم يرتضوا بشرِّيَةِ أصل الحياة بــل بشرِّيَةِ زمانهم، فكأن الدهر انقلب رأسا على عقب، أو أدبر لهم بذيله الخبيث، وتولّى بمُحَيَّـاه البهيّ الناضر، ولكن أساليبهم ما زالت مصبوغة بطابع التعميم للدهر والدنيا، وإن كان يحرص الآخرون باستعمال " أبناء الزمن " للأستاذ علي تاسع ، و" زمن الكآبــة " لزكريــا الربــاني، وكلاهما من النيجر، وإن كان أولهما يركّز على رذائل أهل زمانه، فإن الثاني قيد أوائل أبياته بلفظ (الزمن) الموصوف بجميع أنواع الرذيلة المنتشرة مع حداثة العصر: [الكامل]

1 زمن الكآبة والإخاء البــالي ** زمن النفاق وموت ما هو عالي
2 زمن البغاء وكل ما هو ساقط ** لا فضل فيه ولا الرضى والغــالي
6 زمن انتشار الكفر والبغضاء ** في المدن والأرياف بالإجمــال
7 زمن التقاتل والتناحر غفلــةً ** كــلّ يريــد الحكــم للأمــوال
10 زمن التشرّد والضياع أقولــه ** للطفل مع قســاوة الأعمــال[2]

ولكن مواطنه الشيخ محمد أحمد الشفيع أكثر تصويراً لواقع هذا الزمن، الذي تظهــر سجايا البشر فيه شريرة، يتفنّنون في طمس مظاهر الفضائل، هذا ما تصوّره همزيته: [الكامل]

1 وطني لقد فــسد الرجــاء وســاء ** يا ليت شعري هل يطيب مساء ؟
2 ثوبَ العــداوة والتعــصّب نرتــدي ** كل يفــضّل مــا يحــبّ وشــاء
3 ضعفت عرى الإيمان لا أدري متى ** نبقى على صدق المقــام وفــاء
4 عجبــا لمــا نخفيــه عنــد لقائنــا ** نبــدي المــودّة بيننــا أعــداء
5 وتخالنــا البنيــان كــلاّ ! ســرّنا ** ــ شتّى القلوب ــ طبائعا ودماء
6 بلغ بنا السيل الربــى ومن الــذي ** يشفي الصدور ويصلح الأرداء[3]

---

[1] – تيام، أبو رضوان مدني : الدهر المغترّ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.
[2] – الرباني، زكريا محمد : زمن الكآبة، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي ، النيجر.
[3] – الشفيع، محمد أحمد : حقّ لنا الشعر الحزين رثاء ، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

هكذا نجد " نظارة " الواقعية المتشائمة تكبّر دائما الرذائل بتهميش الفضائل وتفخّمها. بل يحدّق بعضهم بـ " نظارتهم الواقعية " صوب المدن، لتكبير صور بيوت الدعارة والحوانيت وتناحر الماديين في ابتكار وسائل المكر والغش هذا ما نقرأه في قصيدتي سرين امبكي عبد الرحمن (عاصمة العصيان) و (خيبة) لمدينة سان لويس العاصمة الأولى للسنغال.

تأمّل في هذه الأبيات من قصيدته الأولى عن مدينة دكار عاصمة السنغال : [الوافر]

*6 ذووها بين شيب قد فنوا في ار ** تياد للمعاصي واحتيال*
*7 وبين نسا خفاف الأزرومح ** محبّات الدعارة لا البعال*
*8 يعبن الدين في ما قد أتى من ** قويم النهج متّضح اعتدال*
*9 ويستبدلن قانونا خليعا ** به متبرّجات في الحلال*
*10 وشبّان من الجنسين شبّوا ** بتربية مهدّمة الخصال*
*11 تراهم بالشوارع في انطلاق ** إلى الشهوات هيما كالجمال*
*12 وليس لهم بغير الشرب والرقـ ** ـص والتدخين من أيّ اشتغال*
*13 مدارسهم بيوت لاقتراف ال ** ـ مناهي ، من بغاءٍ والخلال*[1]

وإذا ما سئلوا عن سرّ هذا الفسادِ المنتشرِ، والشرِّ المنتثر، وشَرَرِ الفسق المشتعل كالنجوم في السماء، سيجيب عنهم امباي كيبا كاه، الشاعر الغامبي، في قافيته الموسومة بـ " العقد المفقود" أن الزمان قد فقد سراجه، فانغمس الناس في ظلام دامس : [الكامل]

*4 أين الذي ملأ الوجود عدالة ** باتت جيوش الجور منه تفرّق*
*5 أين الذي حفظ الورى من روعهم ** حتى الظعينة في الفلا لا تقلق*
*6 أين الذي عرف الزمان وجوده ** لي مطمع في عوده وتعلق*
*7 لأرى السعادة في الربوع مليئة ** والكل من عرف الشذا يتنشّق*
*8 إنا نعيش زماننا في وحشة ** منذ احتجبت ، وجمعنا يتمزّق*
*9 وشبابنا من أمرهم في حيرة ** من طول بعدك، والقلوب تحرّق*[2]

وكذلك يجيب الشيخ محمد البشير جاو عن سرّ هذه الرؤية الواقعية، التي لا يرضى أن ينسب فسادها إلى الدهر بل إلى الناس، وإهمال الشريعة سبب هذا الفساد : [الوافر]

*1 يقول الناس قد فسد الزمان ** وهم فسدوا، فما فسد الزمان*
*2 ألم تر أنهم تركوا شريعة ** فدين الله عندهم مهان*[3]

---

(1) – عبد الرحمن ، سرين امبكي : عاصمة العصيان ، مخطوطة مكتبة الشاعر، طوبى، السنغال.
(2) – كاه، الدكتور امباي كيبا : ديوان شعر، مخطوط مكتبة الشاعر، ص 17.
(3) – جاو، الشيخ محمد البشير : تنبيه أهل الزمان ، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي ، ص 7.

وهذا ما جرّه إلى القول بِفكرة خبث طبائع النساء التي هي محور ميمية له :

2 طبيعتكنّ المكر والكيد في صحا ** بكنّ فإنّ الغدر فيكنّ جسيم

وتتبلور الفكرة نفسها في همزية محمد الشفيع جرا حيث يردّ جذور البلاء إلى النساء :

4 نجانا الله من شرّ النساء ** فهنّ الأصل في كل البلاء(1)

لذا كان الشاعر النيجيري مدثر عبد الوهاب محقّا في عنوان نونيته بـــ " جاهلية القرن العشرين "، وإن كان قد استوحى ذلك من عنوان أحد مؤلفات المفكر الإسلامي محمد قطـــب. وانظر كيف يترجم مواطنه هذه الجاهلية في هذه الأبيات النونية التي أسماها " دمعـــا تُـــسيل لحالنا العينان " لشاعرها مرتضى عبد السلام الحقيقي : [الكامل]

1 دمعـــاً تـــسيل لحالنـــا العينـــان ** مـــن حرقـــة البأســـاء والحرمـــان

2 خضع الأنـــام لـــصولة البهتـــان ** لـــبس الرجـــال ملابـــس الغربـــان

3 فنرى النساء مع الرجال تعهّـــرا ** مثـــل الكـــلاب بطاعـــة الكفـــران

4 جعلوا المكارم والفـضائل كلّهـــا ** يـــا ليـــتهم فـــي دعـــوة الطغيـــان

5 وعقولهم بتباعهـــا " تتـــأمرك " ** تـــسعى وراء تجـــارة الخـــسران

6 والجاهليـــة لا تـــزال شـــعارَهم ** وتقـــودهم بـــسلاسل الـــشيطان

7 ويل لقـــوم يجعلـــون الشريعـــة ** خلف الظهـــور لنهضـــة البهتـــان(2)

ويرد آخر أصل هذا الفساد إلى مأساة الخلاف بين العلماء المسلمين وتكفير بعضهم بعضاً، وهذا ما عاتب به الشاعر النيجيري داود أديكيليكن نظراءه في إحدى ندواتهم بإبادن : [الرجز]

خاصم بعض البعضَ منّا حول أمـــ ** ـــرٍ تافـــه بـــسبب الأوهـــام

وكفّـــر الأخ أخـــاه جـــاهلا ** بـــلا هـــدى مـــن آيـــة الأحكـــام

وشغل بعضـــنا جـــدال الســـوء ** مـــن غيـــر فهـــم وبـــلا استفهام(3)

ولكن ذا النون ، الشاعر السنغالي، يرى أن طبقة الشباب هم أصل هذا الفساد، بل هم أشرار الحياة، لذا يعاتبهم بهذه النغمة الجريحة : [المتقارب]

1 شبابك فـــرّ ** وشيبك كـــرّ

2 وعمـــرك مـــرّ ** فـــأين المفـــرّ

3 ذيولا تجـــرّ ** كأنك عمـــر

4 وعيشك صـــبر ** وخيرك ضـــرّ

5 تهيم لبكـــر ** لدى أنت بدر

6 وريقـــك خمـــر ** وثغـــرك درّ

7 للهو تخـــرّ ** وما لك فكـــر

8 وحلوك مـــرّ ** كأنّـــك غـــرّ(4)

---

(1) – جرا، الشيخ محمد الشفيع : همزية النساء ، مخطوطة مكتبة الشاعر، مدينة موبْتي، مالي.

(2) – الحقيقي،مرتضى عبد السلام:دمعا تسيل لحالنا العينان،مخطوطة ، كنو، نيجيريا. **مع ملاحظة كسر الوزن لما تحته سطر.**

(3) – أديكيليكن، الدكتور داود : ميمية نصيحة العلماء، مخطوطة مكتبة الشاعر، إبادن، نيجيريا.

(4) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 275/1.

ويعزّز مواطنه أحمد التجاني سهْ موقفه هذا بهمزيته التي يقول في مطلعها :

*1 يا سنغال بكيت كل بكاء ** لتوغّل الشبّان في البأساء*[1]

هكذا تظهر " الواقعية "، عند شعراء المنطقة، بهذه الصبغة الدينية لتشخيص معاناة البشر من الأمراض الاجتماعية أولا ، ثم لإصلاحها ثانياً بشعر المواعظ والوصايا والحكمة، كما نجد المرحوم عمر ساخو في لاميته متصدّيا بمعاتبة المنحرفين في هذا الزمان: [الطويل]

*20 وتنفق في إنشاء بيت لملعب ** ألوفا وفي بيت المكاتب تبخل*

*21 ترى سنة الهادي لدنياك شؤمة ** على سنة الهادي هواك تفضّل*

*22 وجهلا ترى أن التقدّم في الذي ** أتيتَ وما سنّ المهيمن مخذل*

*26 وتطمع في دار الفناء معمّرا ** وعمّا قريب ضدّ ظنّك ترحل*[2]

لذا يرى الشاعر النيجيري عبد الواسع مدثر أن " المال بلاء "، عنوان إحدى قصائده، التي يصوّر فيها شقاوة الناس بالمال لا سعادتهم، وإن كان أسلوبه متواضعا غير فنّي: [الخفيف]

*1 ما أرى المال ولكن كالبلاء ** أكثر الناس به نال الشقاءْ*[3]

وقد يتّخذ اتجاههم الواقعي أسلوب النوعية في إظهار ما تكنّ صدور من شرّيّة النفوس البشرية ، ولنا أن نتأمّل قليلا في هذه المواعظ من أبي الفتح اليرواوي من نيجيريا: [البسيط]

*1 صَفِّ فؤادك من حقد ومن ضغَنِ ** طهّر ثيابك من وسخ ومن دَرَن*

*2 نقّ سريرك من عُجْب، ومن حسد ** وامش الهُوَيْنا ولا تبغ على القُنَن*[4]

وبمثل هذا الأسلوب يدعو الحاج منصور سهْ ذويه إلى التمسّك بالله تعالى للنجاة من مخالب الأشرار في هذا الزمان الذي قتل جميع نبضات الخير في ضمائر الناس: [الطويل]

*5 وكن يا أخي عبدا لمولاك تسترح ** من الدين والدنيا سواه يبور*

*7 أراك إذا ما كنت تختار غيره ** تكن عبدَ غير فالضلال جدير*

*9 وإنّي جلبت الدهر شطريه لم أنل ** به راحةٌ والقلب عنه تفور*

*10 ثلاثة أشيا في الزمان عديمة ** مريد وحبّ صادق ووزير*

*11 وإن رمتَها رمت المحالةَ فاستعن ** بربّك ، إن العون منه يسير*

*13 زمان أناس في مكاثرة الثرى ** تمالوا وبثّ العلم فيه غرور*

*14 وتنكيث عهد والأمانة دأبهم ** وتأويل أقوال تشفّ صدور*[5]

---

[1] – سه، الشيخ أحمد التجاني بن أبي بكر الخليفة : ديوان شعر، ص 39.

[2] – ساخو، الشيخ عمر : النصحية والوعظ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

[3] – إيليينكي، عبد الواسع مدثر : المال بلاء، مخطوطة مكتبة الشاعر، إسيين، نيجيريا.

[4] – اليرواوي، أبو الفتح أحمد علي : صف فؤادك، مخطوطة تلميذه عبدالله موسى دظو، كدونا، نيجيريا.

[5] – سي، الحاج محمد منصور ابن الحاج مالك سي : اليواقيت العرفانية من الفيوضات الربانية ، ص 22–23.

وبهذا المنطق، يمكن القضاء على الشرّ رغم تفشّيه في المجتمع البشري، ويطلق على ذلك " الواقعية الاشتراكية " التي تدعو إلى ما يمكن أن يكون عليه البشر، بعد تفسير أشرارهم في الحياة. ولذا ينادي الشيخ إبراهيم غُشِيغُ بالصبر للقضاء على جميع أنواع الآفات بما فيها الخصومات والنزاعات التي تعمّ حياة الناس في هذا الزمان : [البسيط]

27 فلا تخاصم على من كان يطلبه ** فصبر أولى لمن قد كان ذا حزم[1]

ورغم تحلّي طبيعة النفس البشرية بالحقد فإن حصاد عمله رهين ما يزرعه، كما يؤكد ذلك هذا الشاب المالي أحمد بولي من داليته القصيرة : [البسيط]

3 فليس يحصد خيرا غير زارعه ** صفّ فؤادك من حقد ومن حسد[2]

ولتطبيق هذه " الواقعية الاشتراكية " يستقي شاعر ديوان " أفاعي الغرب " نماذجه البشرية من صفوف الصحابة، الذين ينبغي أن تكون حياتهم مرآة لأشرار هذا الزمان : [الوافر]

1 لنتخذ الصحابة أهل فضل ** مثالا إنهم لمميّزونا

2 فسعيهم حلال يعتريه ** صفاء القلب ليسوا مغزينا

3 فإن أكلوا فعن صحن حلال ** وإن شربوا فهم متعفّفونا

4 وما أكلوا الربا من أي وجه ** وذي الزكوات كانوا يخرجونا[3]

وهذا ما يطالب به الواقعيون الاشتراكيون، رغم بُعْدِ المجتمع البشري عن هذا الواقع، وإن كانت مدائح الشعراء مليئة بالفضائل والخيرات التي تُنْسَبُ إلى الناس من غير صدق أحيانا.

وهذه المطالبة ملحّة من " العالم الإسلامي يشكو" ــ عنوان قصيدة عبد الواحد أريبي ــ آلامه، ويؤكد رجاءه من أهله الذين ينبغي أن يغيّروا العالم بالحق والوحدة : [البسيط]

1 بنيّ يا أيها الأحناف يا سندي ** لأنتم يا عباد الله معتمدي

2 عشتم يعيش سلام العالمين معاً ** شبابكم لو طغى الإلحاد هم عضدي

3 أهيب والحزن يدمي كلّ جارحتي ** أن عاث فيّ ضعاف الروح كالزبدي

4 أهيب كل غيّور القلب صادقهِ ** أن ارفع الخُلفَ عن شعبي فيتّحِد

7 في العالمين صراع لا حلول له ** وفيّ حبلٌ وأسبابٌ إلى الأحد

13 وصوتي الحقُّ لا كلّت زواجره ** فافتح لها منفذاً في الروح تتّقدي

22 من ذا يداوي جروح الذلّ توجعني ** ممّا أعاني فأعفى كاملَ الجَلَد

25 لو أن جسمي وحيدا ذاق منقصتي ** لهان خطبي ولا أبكي على أحد

26 لكن قلبي مصاب ليت جرحَته ** تُعطى ذكاء بُعَيْدَ الجُرح والأَوَدِ[4]

---

[1] – غشيغ، الشيخ إبراهيم : مجموعة القصائد في نصائح الإخوان، ص 26.

[2] – بولي، أحمد عبد الله : الدنيا ساعةْ فاجعلها طاعةْ ، مخطوطة مكتبة الشاعر، بماكو، مالي.

[3] – الإباجوي، عبد الوهاب بن عبد السلام : أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي ، ص 21.

[4] – أريبي، عبد الواحد جمعة : لخير الصوم نتدر " أربع قصائد إسلامية " ، دار الهلال، نيجيريا، 2001م، ص 12.

هذا، وقد ظلّت القصيدة تتراوح بين الاتجاهين المثالي والواقعي، ولم تعرف التزاما بأحدهما عند الشعراء، بل كانت تتحدد بأحدهما حسب الأغراض الشعرية والظروف التي تقتضيها، وهذا ما يدل على أن الشاعر الإفريقي لمّا يتحرّر من " الشعر الالتزامي" إلى اختيار اتجاهه الأدبي بين التيارات المذهبية التي لم تشهدها الحركة الأدبية والنقدية في المنطقة.

ومن يحصر البحث في ديوان شاعر ما، سيلقى قصائد ذات الاتجاهين معاً، كما هو الحال في ديوان الوزير جنيد، إذ يصبح في نونيته عن الزمان ذا نبضات واقعية : [الكامل]

*1 هذا الزمان يحيّر الإنسان ** جدّاً ويمسي قلبه ولهان*

*3 زمن بدا المعروف فيه منكرا ** والمنكر المعروف فيه بان*

*6 زمن تعزّ به الأباطل عزّة ** ويذل فيه الحقّ مهمي كان*

*7 زمن يسرّ به الأراذل والطغا ** ت الأشقياء تدرّعوا البهتان*

*8 زمن ترى الإدبار للخيرات فيـ ** ـه دائماً يا عظمة خسران*[1]

وله مرثية في شيخه عبد القادر، لا يبتعد عن هذه المعاني المتشائمة لأصل الزمان الذي يعيشه، لكنّه يخفّف حدّة التشاؤم من الزمان في حائية له لأنه في مورد الوعظ : [الطويل]

*5 فلا تخش من جور الزمان وكيده ** فما زال قدما بالرجال يناطح*

*6 فما كان في الدنيا فليس بدائم ** فبينا روى يحلو إذا هو صالح*

*7 وإلا فأين الأولون وما بنوا ** وهل بقي المرجوح منهم وراجح*

*8 كفاك اتعاظا يا أخي فلا تكن ** كمن يشتكي الإظلام والصبح واضح*[2]

بل قد تظهر نبضات الاتجاهين معاً في قصيدة واحدة، حيث يحاول الشاعر أن يوازن بينهما لأن الحياة هكذا تبدو له ظواهرها الاجتماعية. تأمّل في أبيات مهدي معاذ النيجري : [الكامل]

*1 إن الحياة مواقف ومخاطر ** والحال بين تراجع وتقابل*

*5 وإذا نظرت إلى الحياة أجد لها ** عدم الثبات لحالها المتداخل*

*6 لولا تقلّبها لكانت حلوة ** أو مرّة عند اللبيب العاقل*

*7 لولا تحرّكها لصارت عزّة ** أو ذلّة في ثوبها المتناول*

*8 فالأمر بين تقدّم وتطوّر ** وتأخر وتقلّص وتضاؤل*[3]

لذا يطمئن أحد شعراء نيجيريا كلّ منغمس في النظرة الواقعية للحياة قائلا :

*1 أيا كاره العيش لا تحتضر ** عسى أن يزول جميع الخطر*[4]

---

[1] – جنيد، الوزير : ديوان شعر، مخطوطة مكتبة نجله البروفيسور سمبو ولي جنيد، صكتو، نيجيريا، ص 69.

[2] – المصدر نفسه، ص 12.

[3] – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر ، ص 117.

[4] – عثمان ، حمزة أدغن: المختارات من قصائد المناسبات في إلورن، قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، نيجيريا، ص 22.

المبحث الثالث: القصيدة بين الكلاسيكيّة والرومانسيّة

1)- كلاسيكية هذه القصيدة :

إنّ الكلاسيكية، أو الاتجاه الاتباعي، تعد أقدم المذاهب الأدبية التي تردّ جـذورها إلـى العصر الإغريقي، وقد طغت على اتجاهات الأدباء الغربيين في القرن الثامن عشر المـيلادي خاصة. ويمكن تطبيق مبادئها العامة على سائر الآداب العالمية، لذا كان الأدباء العرب محقّين في إطلاق " الكلاسيكية بل الإتباعية " على أدب العصر الجاهلي، باختلافهم في تفضيل أحـد المصطلحين على الآخر.

وتتلخّص هذه المبادئ في ما يلي(1) :

1. *جودة الصياغة اللغوية باستخدام الألفاظ الجزلة والفخمة من لغة القدماء.*
2. *فصاحة التعبير المباشر، في غير تكلف ولا زخرفة لفظية.*
3. *الاعتماد على الخصائص الفنية، والأساليب البيانية القديمة.*
4. *وضوح الأفكار في تفضيل المعاني القديمة.*
5. *المحافظة على تقاليد المجتمع ، عاداته وأعرافه.*
6. *والدعوة إلى القيم الإنسانية، ليكون الأدب ذا رسالة أخلاقية.*

ومن المعلوم أن الثلاثة الأولى تتّصل بالأسلوب، كما تتصل الثلاثة الأخيرة بالمضمون.

يعد الشعر الجاهلي ، وبالأخصّ المعلّقات الست، أهم مصدر عـوّل عليـه شـعراء المنطقة، وكانت محاولة قرض الشعر دليلا على تضلّع العالم في اللغة والعلم، ولهـذا وذلـك أضحت " جودة الصياغة " عنصرا أساسيا لكثير من العلماء الذين نحَوا هذا المنحـى، حتـى ليفاخر بعضهم بشاعريته التي لا يبارى فيها، كما في رائية عثمان كوصا الغيني : [الكامل]

6 والشعر ملّكني الإلـه زمامـه ** مهما أشأ تفعيلـه يتيـسّر

7 أنى أردتُ توجّهاً ينقـاد لـي ** فمذَلَّل لي صعبُه ومسخّر(2)

ونسمع من السنغالي أحمد عيان سهْ مثل هذا الفخر في قوله : [الخفيف]

12 إن نسج القريض طوع جنـاني ** ولـساني وكاغـدي وبنـاني

13 وخفيف القريض عندي خفيف ** وطويل القريض طوع لساني(3)

(1) – ينظر:هلال،محمد غنيمي:النقدالأدبي الحديث،ص 293. ومندور،محمد: الأدب ومذاهبه، نهضة مصر،لا.ط، لا.ت، ص 49.

(2) – جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني ، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي ، ص 17.

(3) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 116/1.

إن متانة التعبير في هذه الأبيات، ومعانيها الفخمة لتدل على وعي هؤلاء الشعراء بأن " الشعر النموذجي " هو ما سار على نهج القدماء المحافظين في بلاغة صياغته وسبك سياقه، لذا يبكي أحد الشعراء المعاصرين من السنغال ــ الحاج بكّ بُصُو ــ على كساد سوق الجمال الشعري بغياب الفصاحة لدى الشعراء : [الطويل]

*1 أراك تعاطي الشعر والقلب هائم ** على زمن فيه الفصاح بهائم*

*2 على زمن فيه البلاغة آفة ** وأكسد سوقا مخجل الدرّ ناظم*

*3 فلا شاعر تُلفى له أريحيةٌ ** ولا باذل تُرجى لديه المكارم*

*4 فأوفر حظّاً جاهل وأخسّهم ** لدى الناس قدرا في المحافل عالم*(1)

من هذه المعاني يوحي الحاج بكّ بُصُو إلى مطالبة الشعراء بجودة البلاغة والفصاحة، بل هي دعوة إلى الاتجاه الكلاسيكي الذي هو معيار الشعر الجيد عند الشيوخ، الذين يمكن أن نعدّ شعرهم ضرباً من الشعر الجاهلي أسلوباً وغرضاً، ومن الشعر الإسلامي معنى وفكرة، وكلاهما لا يخرج عن إطار " الشعر التقليدي " الذي يحافظ عليه أرباب هذا الاتجاه.

وقد وفّق الشيوخ في تطبيق جودة الصياغة إلى أقصى البراعة الفنية، حتى لا يخيّل لقارئ دواوينهم أنه يقرأ في الشعر الجاهلي، وما زال بعض الشباب الشعراء من جيل أواخر القرن العشرين يحرصون على انتهاج هذا الاتجاه، كمحمد الشفيع في موبتي بمالي : [الطويل]

*1 ألا ليت قصدي والمساوي عوائقي ** تثبّطني نيل المنى والموامق*

*2 أبيت بحبّ الهاشميّ مسهّدا ** أعاني ولوعا وهي أحلى لعاشق*

*3 ضريما غليلا مرملا طاوي الحشا ** قطيف الخطى يبغي دنوّ الطرائق*

*4 سقيما يحار الطبّ عن كنه دائه ** وليس لداء الحب غي تعانق*

*5 يهيج دائي ذكر أرجاء طيبة ** فإني هنا والقلب بين الحدائق*

*6 أيطمع مثلي في جوار محمد ** ويدنو إليه من نواح بواسق*(2)

ويعرف هذا الاتجاه عند الشعراء بـ " التعبير المباشر غير المزخرف "، وهذا العنصر من أهم عناصر الشعر عند النيجيري محمد ثوبان آدم الإلوري،وخاصة في ديوانيه: الهمزيات والبائيات. وكذلك في شعر النيجيري المحمود محمد السوقي، الذي يتحفنا بلاميته في (عيد استقلال وطنه النيجر) حيث ابتعد عن الألفاظ المزخرفة مع الاحتفاظ بجمال الصياغة:[الكامل]

*9 من أجل يوم فكّ فيه عقالهم ** وتحرّروا بجهود قوم كمّل*

*10 وبه استقلّ شعوبنا ، وبلادنا ** قد أثمرت بالعلم لا السنبل*

---

(1) – نخبة من الباحثين : دواوين الشعراء السنغاليين في مدح الشيخ الخديم، ص 3.

(2) – جرا، محمد الشفيع : الحب المحمدي ، مخطوطة مكتبة الشاعر، موبتي، مالي.

11 وبه استطاع النـاس أن يتمتّعـوا ** برفاهـة وسـعادة لـم تفـشل
12 وبه اسـتطاع القـوم أن يتنهلـوا ** مـاء زلالا صـفوها لـم يركـل
13 فلقد شهدت الجمع جمـع براعـة ** وقريحـة وبداهـة وتعقّـل
14 يتميّـزون بفضلـهم وخـصالـهم ** وجميعـهم عن عرضـه لم تغـفل(1)

وتعتمد كلاسيكية هذه القصيدة على " النسيب والبكاء على الأطلال " الذي التزم به شعر الشيوخ ، وإن تخلّى عنه بعض الشعراء الشبّان، ولكنه ما زال مطلبا للشعر الجيد، ومعلما للأدب الرفيع في نتاج شعراء المنطقة.

وقد تفنّن في هذه المقدمة الفنية شعراء المنطقة، وتباروا فيها، وأقاموا على حسن صياغتها حتى برعوا في جودتها على مذهب شعراء العصر الجاهلي، وقد أسهبنا القول فيه عند تناولنا للفصل الأول من هذا الباب، ولا مانع أن نسوق مطلع هذه البائية عند السنغالي الشيخ محمد الخليفة انياس ليؤكّد روح الاتجاه الاتباعي عند شعراء المنطقة : [الطويل]

1 دعاك الشوق من ربـع خـراب ** كخـطّ الـوحي فـي طـيّ الكتـاب
2 وقفـتُ بـه أسـائله زمانـا ** ولـم يمـسح بمرجـوع الخطـاب
3 فلو أن الربـوع تجيـب سـؤلا ** لكنـتُ لديـه أحـرى بـالجواب
4 شربتُ به كؤوس الوصل دهـراً ** معتّقـة بمعـسول الرضـاب
5 وأقتـنص الظبـاء العُفـرَ فيـه ** بميـدان الـشبيبة والتـصاب
6 وكـلّ مليحـة الخـدّيـن تبـدو ** كقرن البـدر لاح مـن السحـاب(2)

وإذا وقفتَ على خصائص أغراضهم الشعرية تجدهم قد راعوا العناصر الفنية في صياغتهم للمدح والفخر والغزل، وقلّدوا فيها الأساليب البيانية والصور الشعرية، ناهيك عن التزامهم بالبحور الخليلية التي يمتاز بها الشعر العربي التقليدي.

وقد استطاعوا أن يضمّنوا في تلك الخصائص معانيَهم الدينية والصوفية، لذا يمكن أن نلتقط في شعر الشيخ أحمد زروق جابي الغيني خصائص الفخر والمدح معاً في هذه العينية التي يرسم فيها لوحة فنية لمآثر علماء عشيرته : [الطويل]

6 إذا شرفت نفس الفتى كان قلبـه ** مطيّتـه يـسطو عليهـا وينجـع
7 لقد كرمت قبلي أوائـل أسـرتي ** وإنـي بتقبيـل المكـارم مولـع
8 مكارم عرفـان وزهـد وتوبـة ** شُـغفتُ بهـا علّـي بهـا أتبرقـع
9 كأجدادنا أعني المفـسّر سـيدي ** محمّـد بالتفـسير مـا زال يـصدع

(1) – السوقي، المحمود محمد أحمد : لامية عيد الاستقلال، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

(2) – انياس، الشيخ محمد الخليفة : خاتمة الدرر ، ص 78-79.

10 ***أتى بمعان في التفاسير لم يقل ** بأمثالها في العرب ، والله مسمع***

11 ***وسيدنا الغطريف ألحاج سالم ** لأخمصه أهل العلوم تضعضعوا*** [1]

وفي نتاج ذي النون السنغالي " شاعر الغزل الحسي " يمكن أن نلتقط دررا تتلألأ صور جمالها كوصف فحول المعلقات ، ولا يشكّ في ذلك من يقف على هذه النونية من قريحته : [الطويل]

1 ***لمن باللوى اولرقمتين مغاني ** عفاها سحاب دائم الهميان***

2 ***مغاني بها القينا يلهي كرانها ** مثالثها مشفوعة بمثان***

3 ***فرقرقن [لي] الجانا وأرقن أعينا ** وأنزلن كلّ الشوق كلّ جنان***

4 ***مغازفها تشجي القلوب رنينها ** فتهتزّ أغصانا قد ود غوان***

5 ***ودمعي قبيل اليوم أبيض ناصع ** ولكنّه في اليوم أحمر قان*** [2]

انظر كيف رمز إلى مواضع البيئة الإفريقية بأسماء معارة من العصر الجاهلي، وقد تخدع ألفاظُه المستعملة من يجهله أنه يقرأ شعر أحد الشعراء الجاهليين. واستحقّ ذو النون صفة " شاعر الغزل الحسي" لما في شعره من صور شتّى على الاتجاه التقليدي، الذي سار عليه مواطنه الشاعر سير امْبَيْ [3]، إذ يمدح امرأة بقوله : [البسيط]

1 ***كالزهر في شفتي كمّ جلت فترى ** كالبدر ليل تمام البدر إن ظهرا***

2 ***ريم إذا برزت أسناء غانية ** ريح تفوح من الريحان منتشرا***

3 ***كحلاء مقبلة عجزاء مدبرة ** كأنها اللؤلؤ المكنون بل بدرا***

4 ***موج يموج سابغ حسن ** مشط عوارضها ألوانها دررا*** [4]

ومازال من الشباب الشعراء من يعنى بالمدائح النبوية في شعره على النمط التقليدي، وإذا مدحوا شيوخهم ينسجون على المعاني التقليدية نفسها برسم الصور الشعرية القديمة، كلّ ذلك تعبير عن الروح التقليديّة التي ما زالت توجّه ملكات الشعراء. وتتجسّد كلاسيكية القصيدة لديهم بهذه الأساليب البيانية، التي سيكشف لنا البابُ الخامس أكثرَ صورها وأنواعها من كنوز دواوين الشعراء.

و يجرّنا هذا إلى الحديث عن خاصية أخرى من مبادئ الكلاسيكية، هي وضوح الأفكار الذي يعد أهم عنصر في خصائص مضمون الشعر التقليدي. إذ كان الشعر لديهم أدبا ملتزما يستهدف إفهام الناس وتعليمهم، لذا تعد المدائح دروسا وعبراً، فكان لا بدّ أن يجوّدوا صياغة أفكارهم في وضوحٍ كبيان مدح أبي بكر أبرغدوما[5] للشيخ آدم عبد الله الإلوري : [الطويل]

---

(1) – جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني ، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي ، ص 46.

(2) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 263/1.

(3) – هو الضرير الذي اشتهر باسم " دود الله فجور " ، كا شاعرا مقلا، أشار عامر صمب إلى مقطعتين شعريتين له.

(4) – المصدر نفسه ، ص 373/2.

(5) – أحد علماء إلورن (1914–1967م)، تلميذ محمد البوصيري، خرج كثيرا من العلماء، كان صوفيا تجانيا،وله شعر غير قليل.

1 فـــآدم عبـــد الله منطيـــق أنـــــه ** بمنطقـــه يخـــشي قلـــوب المنــــافق
2 وأصواته كالجرس في كلّ مجلس ** لكــــل ســــلاطين وكــــل صـــعالق
3 جريء شجاع حيثما كان يجلـــس ** وليس يخـــاف ما بقلـــب يخـــارق(1)

ويكون وضوح الأفكار مطلبا من الشاعر إذا كان سيلقي قصيدتَه على المـــسامع فـــي المحافل كأشعار التهنئة في كتاب الوزيريات الذي يضمّ في دفّتيه تهاني الشعراء للبروفيـــسور زكريا حسين بعدما عيّن وزيرا لأمير مدينة أوتشي بولاية أيدو في نيجيريا، أو كنتاج شـــاعر الشيخ أحمد بمبا ــ إبراهيم جوب المشعري ــ الذي كان يدوّي بمدائحه في المحافـــل عنـــدما يتكأكأ الناس على باب شيخه فيقول : [الطويل]

1 أتيـــت إلـــى أبـــوابكم بقـــصيدة ** يلوح بهـــا صـــبح الفــــلاح ويـــسفر
2 عروسا إلى حضراتكم قد زففتهـــا ** وبالفوز في الدارين يا شـــيخ تُمْهَـــر
3 أتيتك يا شيخي ذليـــلا ومعســـرا ** وإني الغـــداةَ بامتداحـــك موسِـــر(2)

وكتائية تَبارَ صوري (ت 1968م) الغيني، في مدح شيخه كرامو طلبي (ت 1962م): [الطويل]

1 ويا منبع الأنوار صافي المـــشارب ** ويا مخزَن الأسرار معـــدن نجحـــة
2 ويا من هو المطلوب للدين والهدى ** ومن قوله رشـــدٌ لأهـــل الـــضلالة
3 مهدّ قصور البغـــي شـــاد المنـــارة ** وسالي سجى الأهفان في أهل ملّة
4 ويا واصل الأرحام قـــولا ومنفعـــاً ** مزيل القذار عن طريق القرابـــة(3)

هكذا تأخذ قصائد القوم طابع الكلاسيكية في وضوح أفكارهم، وقد يعنى به بعـــضهم حتى يأتي شعرهم في أسلوب تقريري، كبعض منظومات السير النبوية التي أشرنا إليها سابقا، ويمتاز بهذه الخاصية بعض قصائد الشيخ عمر كركي الغاني وديوان الشعر المفتوح لحمـــزة عبد الرحيم،وشعر مالم بلّو نمالم محرز مفرا(4)، وشعر عبد الواسع مدثر، وثلاثتهم من نيجريا.

ويتّصل " وضوح الأفكار " بالرسالة الشعرية التي رفع لواءهـــا الكلاســـيكيون، لأن الأدب الرفيع ما يمتّ بالمجتمع بصلة، محافظاً على التقاليد والعادات والأعراف، وهذا ما آمن به شعراء الاتجاه الاتباعي في المنطقة، فهذا أحد شعراء صحراء مالي ــ سليمان الحـــوات(5) ــ يصف الشاي المشهور بـــ " أتايْ " الذي يدمنه الناس في النوادي : [الطويل]

1 وهيمـــوا بـــشربكم أتـــاي فإنـــه ** حلال وليس في الحلال مـــلام
2 وكونـــوا عليـــه مـــدمنين فإنـــه ** شفاء النفوس إن عراها سقام

(1) – عبد السلام، محب الدين جامع: المدح والرثاء في قصائد الشيخ أبي بكر الصديق أبر غدوما، جامعة إلورن،2003م،ص73.
(2) – جوب، إبراهيم المشعري : ديوان شعر في مدح الشيخ الخديم، ص 30.
(3) – طلبي، كرامو : قدوة المولود ، ص 50.
(4) – توفي سنة 1987م مخلفا تراثا من الشعر، ورجالا أدبهم في مجلسه العلمي، وقلوبا أرشدها بمواعظه في ليالي رمضان.
(5) – أحد شعراء صحراء مالي كان عالما لغويا وفقيها وشاعرا مفلقا، عثرنا على بعض أشعاره، وما أعلم له ديوانا.

3 يثير نشاطا يبسط الكفّ بالنـدى ** فمن ثَمّ كـل شـاربيه كـرام

4 إلى غير هذا من منافـع جرّبـتْ ** وقال بها في السالفين إمام[1]

وتراعى تقاليد المجتمع في جميع الأغراض الـشعرية ، وخاصـة فـي المـدح، إذ لا يمتدحون إلا بما يؤمن به المجتمع في الممدوح، كي يؤدي الشعر رسالته، ناهيـك بـشعر المواعظ والحكم ، كديوان نوادر الحكم للشيخ إبراهيم انياس، وكـ " رسالة إلـى العـالمين " لعبد الواحد أريبي، وكدالية الشيخ مُمّر صاصُم السنغالي[2] في مخاطبة مريده : [الطويل]

2 فكن واثقـاً بـالله وأعلـم بأنّمـا ** فعال جميل يوجـب العـزّ والرفـدا

3 ولا تترك الإحسان والتوبـة التـي ** تبعّد عنك السوء والـشرّ والجهـدا

6 يد الجود خير من يد البخل يا أخي ** فـأعط لوجـه الله ولتـذكر اللحـدا

7 ولا تجعل النفس التي فيك تختفـي ** أحب من الشيخ الذي يعلـم الوردا[3]

وانظر إلى البيتين الأخيرين كيف يدعو جماعة المريدين والأتباع إلى خدمـة الـشيخ بالعطاء والهدايا التي يعيش عليها الشيوخ في وطنه الذي شاع فيه هذا العرف بين الـصوفية. بل في مدائح الشيوخ أكبر رسالة إلى الأجيال فيوضّح فيها الشعراء الفضائل التي يتسابق إليها الناس ، كما في لامية الشيخ طاهر دكري في مدح الشيخ منصور حيدر بمالي: [الطويل]

10 إلى ابن جلا من نـوّر الله قلبَـه ** مبين الهدى بين الرجـال القماعـل

11 فتى بـذّ فتيـانَ الـبلاد بنبلـه ** ونـال وسـام المجـدين الفطاحـل

12 وأضحى به شمل اللئـام مجنـدلا ** مهانا مذاداً عـن حيـاض المناهـل

13 له من دقيق الفهم مـا دلّ أنّـه ** لقد فاق حسن السبك سحبان وائل[4]

ونستلهم كذلك الدعوة إلى التأسي بفضائل الوزير محمد البخاري في رائية أبي بكر بوبي.[5]

وتعظم رسالة الشعر في مثل هذه المراثي التي يعزّي بها الشاعر أهل الفقيد بدعوتهم إلى الإيمان بالقدر، كمقدمة الشيخ باكر كبا[6] الغامبي في رثاء أخيه الحاج غوث : [الطويل]

4 والقلم بالقدر يجري في الصباح إلـى ** وقت الرواح علـى قرطـاس قـسطاس

5 والقدر في الغيب من رب النفوذ فمـا ** في حكمه منعـة يفجـى بـه الناسـي

6 والأجل لا يـستزاد لـه الكتـاب ولا ** يستنقص الأجل يقطـع رغبـة الجـاس

7 والكمد في الكبد شمع في الشواظ به ** يفحل إذا عظم في وسط الحجى الآسي[7]

---

(1) – درامي ، الشيخ قاضي : صحراء جمهورية مالي وشعرها العربي، ص 202.

(2) – هو ابن القاضي مجخت كَلَ، وأستاذ محمد الهادي توري، (ت 1945م)، جل شعره ذو طابع صوفي وإرشاد وعظي.

(3) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 90/2.

(4) – دكري، سيدي طاهر : الحضرة المنصورية، مخطوطة مكتبة زاوية الشيخ منصور، سيقو، مالي.

(5) – ينظر : الأمين، يحيى محمد : مساهمة بعض علماء كبي في الشعر العربي في القرن 20م،جامعة بايرو،1997م،ص206.

(6) – هو ابن الحاج إبراهيم خليل، تعلم على أخيه محمد كيمورن، كان مستجاب الدعوة في شفاء المجانين، له ديوان كبير.

(7) – كبا ، باكر كنتور : رثاء الحاج غوث، مخطوطة مكتبة الشيخ محمد بامين سري، بركاما، غامبيا.

والدعوة إلى الفضائل التي نستلهمها من تلك الأبيات ترشدنا إلى " الأدب الأخلاقي " لهذه القصيدة، وتتضح معالمها عندما يحوّل البعض الشعر إلى " خطبة منبرية " توجيهية، وخاصة عندما يقصد بذلك شريحة الفتية والفتيات في اللقاءات الدعوية والندوات الثقافية، وفي هذه الحالة يمكن القول بأن القصيدة قد بلغت ذروة الكلاسيكية عند أمثال هؤلاء الشعراء.

ولم يعد أسلوب الشعر تعبيرا عن المشاعر المجردة، بل تحريض في أسلوب خطابي على الفضائل الأخلاقية، مثل ما يحرك الشيخ أغلس[1] شباب تبوراق في النيجر : [الطويل]

16 يا سليلي الكرام أنتم حماة ** ووعاة فعوا عهود اليراعةْ

17 مثل ما كانت الجدود تراعي ** حقَّها فاعتلوا لحسن الصناعةْ

18 حرّقوها وحرّكوها تنالوا ** ما تمنّيتم وصيت الإشاعةْ[2]

وللعلماء المربين في مالي مثل هذه التوجيهات الشعرية : كدالية العاقب السوسي في إحدى لقاءاته مع الشباب[3]، وقصيدة شبان الوطن للشيخ أبوبكر تيام التي مطلعها :

1 يا شباب الوطن دونكم روضة ** فاقطفوا نورها ترتقوا للقنن[4]

وللشاعر السنغالي سرين امبكي عبد الرحمن مثل هذا العنوان " إلى الشباب السنغالي " في قصيدة عينية طويلة، ثم يثنّيها بأخرى عنوانها " تشجيع " يوجهها إلى فتاة متعلّمة، ولكن نظرة عبد الوهاب الإباجوي إلى حجاب " المرأة الإسلامية " في ديوانه أفاعي الغرب كانت أدقّ[5]. ويمكن أن نعدّ بائية الحاج عثمان الثقافي جمعت بين حجابهن وتعلّمهن : [الكامل]

1 أبناتنا أنتنّ مدرسة لنا ** فابحثن من قبل البيان صوابا

2 أنتنّ أجدر بالمكارم والهدى ** فاقرعن في طلب الهدى الأبوابا

5 كم من رجال الغرب حين تكلّموا ** في حجبكنّ تناقشوا الجلبابا

7 فأزلّهم علماؤنا بعلومهم ** في شأنكنّ وأوضحوا الأسبابا

10 فاجهدن في طلب العلوم فإنّها ** خير المطالب كلّهنّ حسابا[6]

والجدير بالذكر أن الاتجاه الكلاسيكي الاتباعي معلم من معالم هذا الشعر، وقلّما أن يخلو نتاج شاعر من مبادئه، ولكن ذلك لم يمنع الشعراء أن يغرفوا ــ ولو غرفة واحدة ــ في الاتجاهات الشعرية الأخرى باعتبار ما ، الأمر الذي يدل على تنوع ميول الشعراء بل على عدم وعيهم الدقيق بالاتجاهات الأدبية، وقد يدل ذلك على فقدان حرص بعضهم على التمسّك بأحد المذاهب الأدبية لأن الثقافة الأدبية في المجتمع ضيقة قاصرة عن التيارات الأدبية الحديثة

---

[1] – هو ابن الشيخ اليماني، أحد علماء صحراء النيجر، كان عالما جليلا وشاعرا مفلقا، ولم نعثر على غير هذه القصيدة منه.

[2] – اليماني، الشيخ أغلس : حفظ العلم ، مخطوطة مكتبة الشاعر، نيامي، النيجر.

[3] – كه، بشير إبراهيم: حوار مع الأستاذ محمد العاقب السوسي ، مجلة " ميدان الجمهورية " ، رقم 58، وزارة الإعلام، ص 38.

[4] – تيام، الشيخ أبو بكر : النصيحة لشبان الوطن، مخطوطة مكتبة أبنائه، سيقو، مالي.

[5] – ينظر : الإباجوي، عبد الوهاب عبد السلام : أفاعي الغرب وغرب الأفاعي، ص 19.

[6] – الثقافي، الدكتور عثمان : تنبيه البنات إلى حقوقهن، مخطوطة مكتبة الشاعر، إلورن، نيجيريا.

2)- رومانسية هذه القصيدة :

كانت الحركة الرومانسية أو الرومانطيقية ثورة عارمة على الكلاسيكية في أروبا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، فقلب أنصارها جميع مبادئها رأسا على عقب، ليصبح الأدب إبداعا ذاتيا لا اجتماعيا، خروجا على تقاليد المجتمع، فرارا من بهجة الحياة إلى التغني بالأحزان والآلام، إعراضا عن واقع البشر إلى عالم الطيور وأجواء الطبيعة والكون.

وإذا كان أدباء مصر وتونس والمهجر المعاصرون قد استوردوا الرومانسية ــ بعد انحسار نهضتها بأروبا ــ إلى بيئاتهم، وبعثوا فيها روح الحركة، ولم يتّفقوا على تعريف محدّد لها، بل جاءت إنتاجاتهم تصويرا وفق مفاهيمهم لهذه الحركة الأدبية المستوردة، لذا فلا غرو أن نرى شعراء غربي القارة السمراء يشقّون "طريقتهم الرومانسية " في التعبير عن رؤاهم نحو الحياة والكون والطبيعة وعالم الأطيار والحيوانات.

ولكن هل كانوا على وعي بهذه الرومانسية مذهباً أدبيّاً أو أسلوباً من أساليب التعبير ؟

فالاحتمال الثاني أقرب إلى الصواب، لأن النماذج التي سنسوقها هنا ليست من نتاج شعراء تمذهبوا بهذا الاتجاه الأدبي ، بل حاولوا أن يعبّروا بأسلوب آخر فاهتدوا إلى صور من أنماط الرومانسية. والذين كانوا على وعي بهذا المذهب الأدبي لم يلتزموا به ، بل لم يلمّوا بخصائصه الفنية، وإن كان جلّهم قد وُفّقوا إلى حدّ بعيد في تجديد الشعر العربي الإفريقي بطابع من صور الحركات الأدبية العالمية.

نبدأ بالشاعر الغيني محمد الأمين جابي، الذي لم تقصر ثقافته الأدبية عن فهم الرومانسية، ولكنه ليس في شعره غير هذه القصيدة " الليل الطويل " التي تعبر تعبيرا صادقا عن خلجات نفسه في تلك الليلة الليلاء التي ظلت عيناه تعدّ نجوم السماء من السهاد، فخاطب ليلته الطويلة بهذه النعرات الحزينة : [الرمل]

9 أيها الليل ألا تخبرني ** بالذي فيك ، بمأساة الحياة
10 ربّ دمع سال من عيني فقير ** ربّ نفس فيك فاضت في الفلاة
11 ربما تحمل سرّا غامضا ** سرَّ مظلوم ، وشكوى يائس
12 ربما تطرق بابا موصدا ** بهموم في صباح بائس
13 ربما تمسح دمع بائس ** كابد الحياة مقروح الفؤادْ
14 ربما طفتَ على ذي كُربة ** فسلا الهمَّ وأفضى للرقادْ
15 واقعي الحالي لا أرضى به ** رغم ما فيه من العيش الرغيدْ
16 كلما أوهمتُ نفسي بالرضى ** تاقت النفس إلى أفق بعيدْ
17 هذه النفس التي أحملها ** بين جنبيّ أذاقتني البلايا
18 أرهقت جسمي بما ليس يطيقْ ** فهي لا ترضى بما دون الثريّا (1)

(1) – جابي، محمد الأمين : الليل الطويل من ليالي ساي عام 1991م، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

هكذا تجيش هذه الآلام والشقاوة في صميم نفس الشاعر، على غرار الشاعر التونسي "الشابي "[1] الذي قال : " إن قلبي هو منبع آلامي في هذا العالم "[2]. ولا يتمالك السنغالي أحمد المصطفى امْبَكِّ[3]عن البكاء على هذه الآلام،فتسيل منه زفرات في جداول هذه الأبيات:[البسيط]

1 بكيت ليلا بكاء بين أجناس ** وما أصاخوا لزفراتي وأنفاس

2 ليس البكاء على مال تضيع لي ** ولا على اليأس من لغياي ربّاس

3 بل البكاء على الأخلاق ثم على ** الماضي من العمر في لبس وأدناس

4 يا نفس توبي فإن الموت هجرته ** <u>مرمى أشل أخي طيش عن أقراس</u>

5 وإن عصيت سلي الرحمان مغفرة ** وإن أطعت فما عليك من بأس[4]

إن للشاعر نفساً تتعذّب ألماً وتنتحب بكاء، لا لشقاوة داخلية بل خارجية. وهذا ما يدل على أن الشاعر لا تسليه ذاته عن مجتمعه، ولكنه ينطلق من ذاته ليقيم ثورة على ما يثير في نفسه من آلام خارجية، لذا يتحول انتحاب الغامبي محمد الإمام سامبو إلى صرخات ثائرة في رائيته " ثورتي"،[5] ويتضوّر الشاعر البِنيني سليمان محمد آل هارون من دموع لوعاته على حال الشباب المأسوية : [المتقارب]

8 تفيض دموعي إذا ما رأيتُ الـ ** ـشباب وهم كشتات الدِّيَمْ

9 فحال الشباب استحقّ الرثاء ** فأين القران وأين القيمْ

10 تأسّوا بمن يعبدون الحياة ** فصاروا جميعا عديمي الذممْ

11 لبسنا لباس المعاصي وعشنا ** بلا عظة فسلبنا النعمْ[6]

ولضياع الشباب تتضخم الهموم النفسية وتتفاقم إلى يأس من مستقبل الأمة الإسلامية، ومتى يستعاد مجدها التليد ؟! فتحاول قصيدة " أخبريني " لداود عبد الباقي النيجيري الإجابة عن هذا السؤال ، الذي ما زال يحيّر الشعراء، وتزيد همومهم بلة عندما يبحثون عن أسبابه. فوجد أحدهم من تلك الأسباب أنها " سموم " بثها الغرب في أجواء العالم الإسلامي ، هذا ما ركّزت عليه مقدمة ديوان " أفاعي الغرب" لعبد الوهاب الإباجوي : [الوافر]

2 سموم دسّها الأعداء فينا ** بأن كنّا فقط متعبِّدينا

3 سموم مضنيات قاتلات ** تموت بها نفوس المسلمينا

4 سموم أهلكت بعضا وأبقت ** بداعي الكيد بعضا سالمينا

---

(1) – هو أشهر شعراء تونس المعاصرين باتجاهه الرومانسي، توفي في 26 من عمره(1909–1934م)،بعد أن خلف ديوان كبيرا.

(2) – الجابري، محمد صالح : الشعر التونسي المعاصر، الدار العربية للكتاب، لا.ط، 1989م، ص 210/1.

(3) – هو حفيد الشيخ أحمد بمبا (1913–1988م)، كان زعيم النزعة الصناعية في المريدية، وكاتبا وشاعرا وثائرا على الحكومة.

(4) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 324/2. **مع ملاحظة كسر الوزن لما تحته سطر.**

(5) – غساما ، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 31.

(6) – آل هارون ، سليمان محمد : متى نرتدي العزّ والفحش طمٌ ؟ ، مخطوطة مكتبة الشاعر، باراكو، بنين.

7 سموم ليس يرقيهنّ شـــيء ** سوى إقدام قــوم مخلــصينا
8 سموم ليس يُفلت من أذاها ** سوى قوم يــرون مقاومينـــا
9 سموم سوف تردينا جميعا ** إذا دمنـــا لهـــا متـــسالمينا
10 سموم يعجز التريـــاق عنها ** ويعجز أمرها المتخصّصينا [1]

وقد سبق أن استقينا من هذا الديوان نموذجاً لــ " الواقعية الاشـــتراكية "، ودل ذلـــك على تعدد الاتجاهات الأدبية في ديوان واحد.

وقد ترتبط رومانسية بعضهم بفشلهم في تجربة ما في حياتهم، كمأساة السنغالي عبـــد العزيز سار في قصيدته " العشقة "، وكهموم السنغالي شيخ تجان غاي في " مهنة التـــدريس" التي هي عنوان قصيدة له[2]، وكمأساة تخلف السود أمام تطور البيض في قصيدة " غريب جدا " للشاعر المالي أبي رضوان مدني تيام[3]، وكخلو البركة من المال والملك والبنين عند محمد الزيتوني[4]، وكظلمة الدنيا على فقد عزيز في عينية سليمان عبد الـــرحيم أيغـــورو[5] لرثـــاء المرحوم عثمان أيليينلا،[6] وكآلام وحشة الغربة التي مرّ بها النيجيري محمد كبير يونس فـــي قضاء عيده، وثلاثتهم من نيجيريا، ونسوق من آخرهم هذه الأبيات : [الطويل]

1 غريب عن الأوطان شطّت به النوى ** كثير هموم القلـــب منـــشعب الفكـــر
2 أدور فـــلا ألقـــى أنيـــسا موافقـــا ** يخفّف عنّي ما ألاقي مـــن الـــضجر
3 وأخلو وحيدا في القفـــار فـــلا أرى ** سوى الشجر الملتف والنبت والزهر
4 وورقاء في غصن تنـــوح حليلهـــا ** بصوت شجي يوقد النار في الـــصدر
5 طيور وألحـــان أهاجـــت صـــبابتي ** فجنّ جنوني واستطير لـــه صـــبري
6 أعيّد في قفر من الأرض مـــوحش ** بعيد عن الأصحاب والمنظر النـــضر
7 أيا عيد لو أمهلـــت قلبـــي هنيهـــة ** إلى يوم جمع الشمل في فرحة الشكر
8 إلى يوم ألقاهـــم : بنـــيّ وأسرتـــي ** وأهل صفائي في حبور وفي يسر [7]

هكذا يتقاسم الشاعر فرحته مع الطبيعة، أشجارها وأطيارها، ليجرّنا إلى وجه آخر من الرومانسية في ائتلاف الشعراء بالطبيعة حيث يودعون عندها همومهم ليسلوا بها عن واقـــع البشر ومأساته التي تتجدّد من حين لآخر، وفي ذلك يشعرون بجودة الشعر كما يقول الشابي : «إن الشعر ، يا صاحبي، هو ما تسمعه وتبصره في ضجّة الريح وهدير البحار، وفي بسمة

---

(1) – الإباجوي ، عبد الوهاب عبد السلام : أفاعي الغرب أو غرب الأفاعي، ص 3.
(2) – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 140.
(3) – ينظر : تيام، أبو رضوان مدني: غريب جدا ، مخطوطة من 18 بيتا، سيقو، مالي.
(4) – ينظر : الزيتوني، محمد المصباح إبراهيم : فاطرقوا باب السماء، دار النور للطباعة، لاغوس، 1997م، ص 4.
(5) – من تلامذة الشيخ كمال الدين الأدبي، وهو الآن أستاذ في إلورن. أما شعره فهو من الشعراء المقلين.
(6) – لجنة من أصدقاء المرحوم : المرحوم عثمان أبوبكر أيليينلا في السطور ، ص 17.
(7) – يونس، محمد كبير : عيد في الغربة ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا. **مع ملاحظة كسر الوزن لما تحته سطر.**

الوردة الحائرة، يدمدم فوقها النخل، ويرفرف حواليها الفراش، وفي النغمة المفــردة يرســلها الطائر في الحقل الفسيح، وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقــول... وفـــي مطلــع الشمس وخفوق النجوم» (1) .

وإلى هذه الطبيعة عهد الشيخ أحمد التجاني سهْ سرّ حياته، إذ لولاها لقضى نحبه على حد قوله في بائية رائعة ختمت بهذه الأبيات : [الطويل]

9 ولولا حفيف المورقات بروضــها ** وشجو حمام الأيك إذ جــاوب التربــا

10 ورقص مياه المجــريين إذ أتـــى ** يصفّق أعلاها من الــريح مــا هبــا

11 وبعض ابتسامات النجوم التي بها ** يؤانس من لم يلــق أنــساً ولا حبــا

12 وسرّ جمــال الكائنـــات بأســرها ** وما فـــي جمـــال الكائنـــات إذ جبــا

13 لَمتُّ كما قد مات سقراط عامــدا ** وغادرتُ دارا لا أرى كسبــها كسبا (2)

لذا حلّقت روح محمد كبير يونس في أجواء الكون كي يشعر بالوجود في ما أســماها بـــ " أشواق الروح ".

وبعد هؤلاء الذين عمّموا جميع مظاهر الطبيعة، نرى الآخرين يخصّصون أو يقفــون أمام جداول الأنهار وهدير البحار في محادثة كأنها مناجاة ابتهالية ، وأعذب قصيدة في الشعر السنغالي من هذا النوع ما قاله الشيخ أحمد بمبا عندما كان في منفــاه بإحــدى الجــزر فـــي جمهورية الغابون : [الطويل]

1 ليَ اشهدْ بكوني عبد من يغفر الــذنبا ** وكوني خديم المصطفى بحر " مائِنْبَا "

2 ولي اشْهدْ بــأني لا أداهــن مــشركا ** خلــيلا حبيبــا للــذي كــرّم الجنبــا

9 أيــا بحــر وحّــد لا تثلّــث فربّنــا ** تعالى عن التثليــث أكــرم بــه ربّــاً

10 فكن ذا اضطــراب مزيدا من مجافــة ** من الله واشهد أنّني عبــده صبّــاً (3)

وأَجْمِلْ بمحاورة السنغالي عبد العزيز سار لنهر النيل إذ زاره أيام دراسته بالسودان. ثم يتحوّل الشيخ عثمان سو السنغالي إلى سدرة، يتخذها رمزاً لأشجار الطبيعة : [البسيط]

1 يا سدرة نبتت من قبــل مولــدنا ** عنـــد الــولي أمـــامي ذي المزيّـــات

2 كم كم قطعتــك إصــلاحا لبنيتنــا ** وكــم بقيــت لتحيـــي كــلّ ســاعات

3 سقاك والدنا من بئــر زمـــزم أو ** من حوض كوثر أو فيض الولايــات

4 كانت تغني طيور تحت ظلّك مثــ ** ـــل الــذاكرين لبــار فـــي العبــادات

5 كنّا ننازع أثمــارا بــساقك هــل ** من جنّــة الخلــد حلــواً ذات لــذّات

6 كم في عروقك أســرارا مكتمــة ** فيها شــفاء وفيهــا كــشف غمّــات

(1) – الجابري، محمد صالح : الشعر التونسي المعاصر، ص 207/1.

(2) – سه، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 19.

(3) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 2/260–261.

7 كم نال فوزا عباد بعد ما غسلوا ** من غسل أوراقك الخضرا ومنّات

8 لولا الملمات نبقيك مدى زمن ** تسبّحين لرحمان البريّات [1]

ويبدو في كثرة استقاء النماذج من شعراء السنغال أنّهم أكثر رومانسية من غيرهم، بل أكثر فلسفة، ولكن ينبوع بعضهم من القرآن الكريم، كما نجد في محاورة أحمد جي الأرض في سبب رفضه للأمانة في قوله تعالى : ﴿إن عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن تحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ [2] : [البسيط]

1 يا أرض رافضة الأمانةْ ** الرفض منك هو الحصانهْ ؟

2 أرفضتِها عاما بأن ** ن الحمل يعني الاستكانةْ ؟

3 أم قد رفضتِ لأنّها ** لا تستطاع مع الصيانةْ ؟

4 أم قد رفضتِ تجنّب الـ ** ـمسؤوليات عن الأمانهْ ؟

5 قولي ... فإني قد أرى ** هذا السكوت من الإهانةْ ؟

6 إن كان رفضكِ فطنة ** لم لا تعيرين الفطانةْ ؟ [3]

ألا تعني هذه الرومانسية أن مصدرها من التفكير القرآني لا الغربي، ومن الاتجاه الديني لا الأدبي، بل زاوج بين فنّه ودينه ليصنع رومانسية على طريقته الخاصة، هكذا يمكن أن ندّعي أن رومانسية مخاطبة الطبيعة وعالم الحيوانات والطيور من تلك القِصص القرآنية التي اندمجت عوالم البشر والنمل والهدهد والجنّ في محاورة عادية، ثم إن كل ما في السموات والأرض وما بينهما لتسبح لله سبحانه وتعالى، كأنها بشر وملائكة كما في الآيات :

﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله وهم داخرون، ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابّة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ [4] ثم قال أيضاً :

﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً ﴾ [5].

ويخصّص الغامبي محمد غساما محاورته مع " إفريقيا " التي يسألها عن أحزانها ولوعاتها ليعرف كيف ضيّع أبناؤها الأمانة التي أنيطت بأعناقهم، فتخلّفوا عن مواكبة الحضارة :[الكامل]

1 أمي سألتُ وفي الجوانح جمرة ** ما لي أراك خطيرة الأجراح ؟

2 ما لي أراك حزينة مغمومة ** ما أعجبتك معيشة الأفراح ؟

---

(1) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 2/378-379.

(2) – الآية 72 من سورة الأحزاب.

(3) – جي، الشيخ أحمد : يا أرض ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كولخ ، السنغال.

(4) – الآيتان : 48-49، من سورة النحل.

(5) – الآية 44 من سورة الإسراء.

3 قالــت وبــين المقلتــين هوامــع ** من دمعهــا المــسيال فــي إلحــاح
4 عجباً أتنتظــرون غيــر تعاســتي ** وبنـــي ليـــسوا طيّبـــي الأرواح
12 فبني فــي غابــات جهــل جاهــل ** في غفلــة هــم دائمــا يــا صــاحي
13 هذا هو الخطب الجليــل ألــمّ بــي ** فأخـــذت أثلـــج فلـــذتي بنيـــاح
14 فإذا بكيــت دمــا وزدتُ بهــم أذى ** فلأنهـــم ضـــلّوا طريـــق فـــلاح
15 إني أعــيش حيــاة خــزي إنّنــي ** أبكـــي مـــصائب مـــأتمي المجتــاح
16 حتى أرى جيلا جســورا صامــدا ** من أمّــتي ينحــو سبــيل نجــاح(1)

وكان الشاعر مُحقًّا في عنوان القصيدة بــ (أمي الحزينة) ، وابتعد الآخرون عن هذه النظــرة العامة التي توحي إلى قضية " الوحدة الإفريقية " التي تشغل بال المثقفين، فراحوا يخــاطبون أوطانهم، كمقطعات (عشتَ يا وطني) و (يا وطن) و (يا بلادي) التي وضعها يعقوب دوكوري المالي على ألسنة التلاميذ.(2) ثم شغلت اهتمامات البعض بمدنهم الوطنية، إما لكونها تاريخيــة كمدينة "انْدَرْ أو سانْ لويس " التي خاطبها الشيخ أحمد التجاني سه، لذا افتتحها بقوله : [الكامل]

خير الجزيرة ما أجلّ سماكِ ** في قلب كل مؤرّخ يغشاكِ(3)

وشاعر نيجيري ــ عبد الغني راجي ــ يعتذر لبلدته لغيابه عنها واتّخاذه "كَنو" إقامة: [الطويل]

1 أ بلدة "غاما" رحّبــي بــي فإنــه ** دعتني إلى رحماك في المجــد رغبتــي
2 بها نشأتي لكــن لطــول تغرّبــي ** وبعــديَ عنهــا أصــبحت دار غربتــي
3 فوافيتها من بعد عشرين حجّــة ** وســـتة أشـــهار وعزمـــي وعـــدّتي
4 مدينة "كــانو" لا تلــومي فإنــه ** نـــصيبيَ مـــن حـــزن أشـــدّ وحِـــصّتي
5 فليس بسهل تــرك قــوم أبثّــهم ** سروري وأحزاني ويسري وعســرتي(4)

ويعدّ عالم الطيور مأوى الرومانسيين، ويجدون فــي محــاورتهم للبلبــل والحمامــة والغراب أحلى الأجوبة عن تساؤلاتهم لشفاء همومهم. استمع إلى هذه الهمسات التي ناجى بها الشاعر الغامبي امْبَايْ كاه بُلْبُلا متغرّدا في هذه الدالية بعنوان " همس في أذن البلبل" : [الكامل]

1 غرّد فكم شــغف القلــوب مغــرد ** فاصدع لكي يبقــى الــصدى يتــردّد
2 غرّد فقد أرخــى الزمــان ذيولــه ** وبدت بلابــل فــي الريــاض تغــرّد
3 جاء الربيع الطلــق ينــشر زهــره ** وإلى الربيــع الطلــق كنــتَ تــودّد
4 كم كنتَ تصدح في الربيع إذا أتــى ** كم كنتَ تهتف في الــصباح وتنــشد

---

(1) – غساما، محمد الإمام سامبو : بنات القريحة ، ص 18.

(2) – دوكوري ، المعلم يعقوب : البستان ، ص 37–39.

(3) – سه، الشيخ أحمد التجاني: ديوان شعر، ص 45 ، وصمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 173/2.

(4) – راجي، عبد الغني : المجد متعب ، مخطوطة مكتبة الشاعر، إلورن، نيجيريا.

5 كم كنتَ تنشد لي قصائد في الضحى ** كم زحتَ من همّ طغى يتجمّد
6 كم سقتَ من حُلل تزفّ بها الندى ** فلقد يهون لدى الكريم العسجد
7 فتهلّلت نفسي الحزينة وانزوت ** زفراتها وغدا الشجا يتبدّد [1]

وقبل أن يسأل الوزير جنيد، أحد كبار شعراء نيجيريا، طيورا عن أحوال بلاده، فإنه التفت يمينا شمالا فلم ير غير حرباء على عود، فشرع يخاطبها ليعرف أسباب مأساة بلاده : [الكامل]

6 صارت مراتعَ للوحوش بُعيد أن ** كانت مقاصد حاضر أو باد
7 أقوتْ فلست ترى بها أحدا سـ ** ـوى الحرباء لائذة على الأعواد
8 قامتْ تخاطبني فعزّ كلامُها ** فلكم سكوتٌ معلنُ بمراد
9 وتدير عينيها تشير بذاك دو ** ر الدهر غيّر ما ترى في النادي
10 وتلوّنتْ ففهمتُ منه تلوّن الـ ** أحوال في الدنيا فعزّ رقادي [2]

ثم أخذ الشاعر ينادي بين أطيار طلول أحبّته ليعرف كيف يشاطرْنَه الأحزان : [الكامل]

11 لم لا أنادي في الطلول وهذه ** الأطيار فوق غصونهنّ شوادي
16 لما سكتُّ دنت إلي حمامة ** مغبرّة تبدو كلون رمادي
17 فسألتُها أين الذين عهدتهم ** قالتْ : لقد بلغوا على الميعاد
18 قلتُ أخبريني من تخلّف بعدهم ** قالت : تخلّف دولة الأكراد
19 ما لي أرى دول الكرام وضيعة ** قالت : علتها دولة الأوغاد
20 فسألت ما خُلق الذين تخلّفوا ** قالت : ذوو فحش ذوو أحقاد
21 لا تكذبيني يا حمامة واكشفي ** قالت : ذوو حسد ذوو إفساد
22 هل يحسد الرجل الكبير صغيرَه ** قالت : فذلك عادة الأكراد
23 فسألتها ما لي أراكِ هزيلة ** قالت : لكثرة لوعتي وسهادي
24 ما بال لونكِ مغبرّا متغيّرا ** قالت : لبست عليّ ثوبَ حِداد
25 ماذا وقوفكِ ها هنا في وحشة ** قالت : لأندبهم على الأوتاد
26 هلاّ قفوت إليهم آثارهم ** قالت : قعدتُ لقلّة الأوتاد [3]

ومن صور رومانسيتهم أن يقرضوا قصائد على ألسنة العلم والمعاهد العلمية واللغة العربية والدين والموت...الخ،فهذا الشاب المالي أحمد بولي يبكي لديه العلم فقْدَ رجاله:[الطويل]

1 ظهر العلم لي بمطلع عام ** وعليه أمارة الآلام
2 يتبكّى ودمعه مستفيض ** قائلا " قد أُضعْتُ " بين الأنام
3 ورموني ولم يبالوا بحقّي ** فمضوا بين غيبة ومدام

---

(1) – كاه، الدكتور امباي بن كيبا : ديوان شعر، مخطوط ، ص 14.

(2) – جنيد، الوزير : ديوان شعر، مخطوط، ص 9–10، وغلادنثي، شيخو أحمد : حركة اللغة العربية وآدابها، ص 158.

(3) – المصدر نفسهما : ص 10–11، و ص 159.

4 *فأصيبوا بحيــرة وغمــوم ** واضطراب النفوس تحت القتام*[1]

إنه بكاء وصرخات الدراسة العربية في إفريقيا تحت وطأة الدراسة الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية، التي عنيت بها الحكومات ليصبح رجالها وزراء بخلاف نجباء الدراسة العربية. وأصبحت المدارس العربية تتضوّر من جوع وحشتها وهجرانها في همزية رائعة دبّجها عبد الواحد أريبي النيجيري، تكفينا مطالعها لنعرف مدى ما فيها من آلام مخزية : [الوافر]

1 *تعالت حـدّة البلـوى رغـاء ** فشقّت رايتي وحسبْتُ داء*

2 *أدار الكون وجه الجهد عنـي ** كأنّي لا أمدّ لهـم عطـاء*

3 *كأني فـي حضارتهم إسـار ** يعيق خطى ثقـافتهم بـلاء*

4 *هُجِرْتُ كأن أرحامي رِقــاق ** تهين فلا تقي فيهم إخاء*[2]

وقد بدأت تزول هذه الهموم بفضل فرص الدراسات الجامعية التي انفتحت أمام المستعربين، كالجامعة الإسلامية بالنيجر ، وفروع كلية الدعوة الإسلامية في تشاد والسنغال وبنين، وفي هذا الصدد يقول أحد طلبة فرع بنين، عبد العزيز محمد من نيجيريا، على لسانه بائية طويلة مطلعها يبشر بخير المستقبل رغم العراقيل والهموم التي تعوق الدراسة العربية :

1 *رغم الظنــائن قد هُذِّبتُ ألبابا ** رغم الضغائن قد أبدعتُ إعجابا*[3]

ويعود عبد الواحد أريبي ليرسم على لسان " القرآن الكريم " شكايات تخلّي الناس عنه في قصيدة أسماها " أنا الظلّ الظليل". وفي هجر القرآن الكريم إهانة فادحة للدين الذي ذاق بدوره مرارة الطعن في عرضه حتى آمن الشباب بما يردّده الغرب " كل متديّن متخلف " : [الوافر]

10 *فصاح الدين : أين ضمير قومي؟! ** علام الصمت، هل نفع الهوان ؟!*

11 *ملايين الشباب بغير علمي ** حيارى أسرةٍ، أين الضمان ؟!*

12 *وما عيب الرجال بعين دينٍ ** فإنصافًا وإن سلف العوان*

13 *يصان العِرضُ في شرف نسيب ** بفضلي إن نصحتُ فكم أهانوا ؟!*

14 *إذا حسن التبرّج والمجون ** فهيهات السلام إذًا ومزن*[4]

إنها صرخات رسمتها ألوان شاعر بوركينافاسو، غانامي ساليفو، كي يتحف الناس بلوحة فنية لمأساة الدين في بيئته التي هي رمز لسائر بقاع المنطقة. ولشاعر النيجر محمد السوقي أن يكتفي بالمجد التليد الذي تمتعت به العربية في قصيدة على لسان لغة الضاد.[5] ومن أجل هذه المأساة يذكّر يعقوب دوكوري ذويه بنونية بعنوان "المقبرة ولسان حال الموتى".

---

[1] – بولي ، أحمد محمد : العلم يدعو رجاله قديما وحديثا ، مخطوطة مكتبة الشاعر، بماكو، مالي.

[2] – أريبي، عبد الواحد جمعة : المركزيات ، ص 30.

[3] – نخبة شعراء نيجيريا : البنينيات ، ص14.

[4] – غانامي ، سلليفو : لباب الأخبار في سيرة الشيخ أبي بكر ميغا، طبعة محلية ، ط1، 1996م، ص 11.

[5] – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر، ص 86–88.

1)- الاتجاه الثوري للقصيدة :

من المعلوم أن " الثورة " ليست من المذاهب الأدبية في شيء ، لأنها من الأنظمة السياسية التي تسلّح بها معظم الساسة الأفارقة من (أرباب الاستقلال) لقمع تيارات الإمبريالية والرأسمالية، أعني هؤلاء الرؤساء الذين استقلت بلادهم على أيديهم من مخالب الاستعمار في الستينات، وفي هذا العقد أثّر نظام " الثورة " في عقلية الشعب فكراً وثقافةً وأدباً وفنّاً وديناً.

ومن هنا نفهم تأثّر الأدباء المستعربين بهذا الاتجاه السياسي، فضلا عن الأدباء الكتّاب باللغات الأروبية، الذين تسلّحوا بأكثر المذاهب الأدبية لمجابهة الغزو الفكري الغربي. نتيجة لذلك ثار بعض الشعراء ثورة شعرية ببعض القصائد ، أو أعلنوا شعراً عن مواقفهم الثائرة ضد بعض الأزمات السياسية أو القضايا الفكرية أو الظواهر الاجتماعية.

من تلك الظروف السياسية في السنغال مثلا : تولية ليوبولد سيدار سنغور رئاسةَ الدولة رغم نصرانيته بين شعب يمتاز بنسبة ما يزيد عن 95% من المسلمين، فأعلن الشيخ أحمد جي ثورته على هذا الموقف بقصيدة رائعة أشرنا إليها في الباب الثاني ومطلعها :

1 ضلّوا الصواب وأخطأوا التقدير ** إذ عيّنوا رأس البلاد سنغورا

وهناك رائية أخرى من الشاعر مختار بوسو[1] الذي يثور ثورة عارمة، على الأوضاع السياسية التي كانت الدولة تقطعها أثناء سلطة الرئيس سنغور، في صرخات أشد دويّا من الرعد ، لو فقهها الساسة آنذاك : [الكامل]

1 الشعب أجمع والبلاد بأسرها ** سئما تماما منك يا سنغور
2 فبرشوة ووشاية وخديعة ** بددتَ شملَ الشعب يا مثبور
3 ولأنت أفّاك أثيم معتد ** وكما يقال مخنَّث مشهور
4 شهد الجميع بأن حكمك جائر ** ما فيه قانون ولا دستور
5 علموا بأنك خائن ومراوغ ** ومكاشح للشعب دكتاتور
6 أما الذين يساعدونك كلّهم ** فثعالب يحدو بها خنزير
7 فعن الهوى تملي عليهم ما تشا ** ما إن لهم رأى ولا تفكير
8 وتقودهم بسياسة رجعية ** أعطاكها من قبل " إتكافور"
9 المجلس الوطني أمسى ملعبا ** يدعو إليه رئيسه العصفور
10 ما أشبه النوّاب حين تجمّعوا ** ليبرّروا ما قرّر المبتور
11 بقنافذ حمق يقود زمامها ** جشع عجوز ظنّه مغرور[2]

---

[1] – هو ابن ماسمبا ولد سنة 1962م،ودرس في طوبي،وأحد الشعراء الشباب في الطائفة المريدية،وله قصائد كثيرة لم أعثرعليها.

[2] – بوسو، مختار : سياسة سنغور، مخطوطة مكتبة الشاعر، طوبى ، السنغال.

وقبل هذا الشاب أعلن الشيخ أحمد التجاني سِهْ ثورته على طغيان حكومة سنغور برائية أشرنا إلى بعض أبياتها، وفيها يثور على سكوت الشيوخ وانقيادهم لهذه الحكومة : [الكامل]

8 إن التشيّخ في الزمان تزلّق ** وكذا التكسّر لا يفيد لمن درى[1]

وله ميمية أخرى في الموضوع نفسه أطول نفسا وأشد نعرة : [الكامل]

1 يا دولة نــصبت لهــا الأعــلام ** غرّتك ساعة صبحها الأحــلام

2 فرددت طرفك عن هلاك واضح ** وغفلت عن تعــس لـــه إلمــام

3 فلأنــت شــؤم للطبــائع كلّهــا ** شقيت بك الأشــجار والأقــوام

4 أفسدت ما بنت الحياة لأهلهــا ** ونقضت ما قد أثبــت الأحكــام

5 وبقيت دولــة مستبــدّ جائــر ** صرعته في غلــوائه الآثــام[2]

ولأحمد تُوجِهْ النيجري دالية ثائرة ثورة حماسية على الذين أوقدوا نيران الحرب على منطقة أقدز، إقليم الطوارق بصحراء النيجر، إذ يقول : [الوافر]

1 حمــدت الله ربــي ناصــرين ** إلهــي قــاهرا رب العبــاد

2 بتــشتيت البغــاة الطــائغين ** قطاع للطريــق ذوي الفــساد

3 وعاروا أرض أقدز ليأسرون ** ذوي الإسلام ظلمــا للعبــاد

4 يكــرون يفــرون العتـــاق ** يجرون التروس في البواد[3]

وأمام نفوذ هوسا تشعر قبائل يورُبا بالتهميش في نيجيريا، لذا ثار بعــض شــعرائها كمحمد الزيتوني في مقصورته المذيلة بمقالته المنشورة بعنوان " نيجيريا اليوم "، وخاصة عبد الرحمن الزكوي الذي يحرص على غرس روح التغيير في نفوس بني جنسه برائية :[الوافر]

16 إلى أبنــاء يوربــا أجمعــين ** أمنكم من يبيّن لي أمــورا ؟

17 ففــي نيجيريــا أمــم ثــلاث ** لنعرض ذكرها فورا جــديرا

18 وأولاهــا وأكثرهــا هؤوســا ** ويوربا، إيبو آخرها ظهيــرا

19 أبــت أولاهــا إلا أن تكــون ** رئيسا بــالتجبّر بــل أميــرا

20 وكانت قــوم إيبــو بالنيابــهْ ** وكانت يوربا شــيئا حقيــرا

21 تصبّرنا على الأحداث قــسراً ** ويتّخذون من قومي وزيــرا

22 بقينـــا أمّـــة مـــستعمَرين ** علام نعيش يا قومي حؤورا؟

23 إذا ظهر المحرّر بين قومــي ** يقوموا ضدّه حســداً نكيرا[4]

وقد يتحرّر بعض الشعراء من التقيد بقضايا أوطانهم إلى ما هو أشمل للقارة السمــراء،

---

(1) – سه، الشيخ أحمد التجاني : ديوان شعر، ص 8.

(2) – المصدر نفسه ، ص 9

(3) – منكيلا، يوسف : الشعر العربي في النيجر ، ص 97.

(4) – الزكوي، عبد الرحمن : إلى أبناء يوربا أجمعين ، مخطوطة مكتبة الشاعر، لاغوس، نيجيريا.

حيث ينطلق المالي أحمد حيدر من حرية استقلال البلاد الإفريقية، ليضفي على هــذه القــارة ثوب الكرامة والعز والمجد أمام زملائه الأفارقة أيام كان طالباً في الأزهر: [البسيط]

1 تبّ التسلّط ، فُـكَّ القيـد وانــدثرا ** بالسيف والفأس ثار الشعب فانتصرا

9 أرض البطولة تحيــا حــرة أبــدا ** نحن الشباب أتينــا نــدرس العبــرا

11 أرض الخصوبة لا خوف ولا ضجر ** إنّ الجفــاف تولّى أن يعــود ورا[1]

وهو يشير إلى قضية الاستعمار التي ما زال الأفارقة ينسبون إليها أهم أسباب تخلّــف القارة، لذا فهي قضية قديمة تتجدّد من حين لآخر، وينفضّ الشعراء الرماد عن جمراتها فــي النفوس، كي ينطلقوا منها لغرس الثورة ضد التيارات المستوردة من الغرب المستعمِر.

هذا ما يشير إليه محمد الزيتوني من نيجيريا في همزيته : [مجزوء الرمل]

7 ويح غربٍ قــد أضــلّوا ** ثم صدّوا عن سناء

8 راوغوا باســم الحضارةْ ** حاربونا بالذكــاء[2]

ولكي تتجدّد هذه الثورة على الأروبيين في النفوس الملتهبة يصرّ بعض الشباب على إعادة النظر في ظاهرة النِّخاسة التي لعب فيها الاستعمار دورا خطيرا، ولا ننسى أن الظاهرة نفسها كانت أهم سلاح لأرباب نظام الثورة السياسية، فلذا يقول أحد شــباب مــالي يوســف جغوراغا في هذه النونية التي تضع جمرات الشجون في المشاعر: [الكامل]

1 أنستكم أكل الرغيف عن الوغى ** أم صرتُم خشبا، فيــا محنــي

2 ونــسيتم أســلافكم وأصــولكم ** يبكــيكم الأجــداد بالــشجن

3 ونسيتمُ مينــاء بحــر الأحمــر ** وتجــارة الأحــرار تــدمعني

5 باعوا أسود جنودنــا بــدراهم ** كادت جوى الأحشاء تقتلنــي

6 قتلوا الجهابذة الكرام وشــنّقوا ** عمرا وقومي في الكرى وهن

7 كم أرملوكــم يتّــموا أشبالــنا ** تكبيل ساموري ليكمــدنـي[3]

وإن كان مثل هذا الموضوع قد تقادم عليه العهد، وأكلته قصائد الشعراء قديما، كميمية الشيخ أبي بكر غمي[4]، ولكن تناول آثاره وما يطلق عليه بالاستعمار الجديد أو الغزو الثقافي، كلها تغذي الموضوع حيوية جديدة بمثل قصيدة (كيف نقوم ضد الفساد المعاصر) لعبد الواسع مدثر الشاعر النيجيري، وتائية مواطنه عثمان الثقافي في مثل قوله : [الكامل]

14 إن الأجانب أصبحوا لبلادكم ** مستعمرين بقــوّة المتعــاتي

15 جاؤوا لتبديل الأمور بأمرهم ** فرضيتمو تغيير كــل حيــاة

---

(1) – حيدر، أحمد محمد : إفريقيا أرض البطولة، مخطوطة مكتبة الشاعر، سيقو، مالي.

(2) – الزيتوني، محمد المصباح : فاطرقوا باب السماء ، ص 2.

(3) – جغوراغا، يوسف : السود والاستعمار، مخطوطة مكتبة الشاعر، بماكو، مالي.

(4) – عثمان، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا، ص 331.

16 نسخوا تقاليد البلاد جميعها ** بالمحدثات ونحن كالنعجات

17 ودعوكُمُ عُمياً وبُكْماً كافةً ** فقبلتم الدعوى بلا إثبات

18 منحُوكُمُ حريّة ببلادكم ** فأتاكم الفوضى بظلم ولاة[1]

وبعد وقوف مواطنه محمد كبير يونس على تشخيص هذه الأدواء للعالم الإسلامي يسأل الأمة عن سكونها وقعودها عن القيام بواجبها من المقاومة الثائرة : [الكامل]

3 ما لي أراك تقاعدين عن العلى ** ما لي أراكِ ضعيفة الصولان

4 طال السبات وليس هذا حينه ** هذا أوان الجدّ والجيشان[2]

وقد أدلى الشعراء دلوهم في تناول مثل هذا الموضوع لإيقاظ الأمة من هذا السبات العميق، ومن روائعهم في ذلك : (إرشاد الأمة إلى علاج الغمة) لعبد الله جبريل سليمان ، و(الإسلام والمؤامرات الغربية) لعبد المؤمن أجيبولا، و(التنبيه من النوم) للشيخ أحمد بوصيري، وثلاثتهم من نيجيريا ، وأضف إليهم قصيدة الغامبي (ماذا ترى لو بالمدافع يهجم) لامباي كاه. ولنقف عند رائية النيجري علي تاسع بعنوان (العالم الإسلامي) حيث يثور:[الطويل]

1 أيا عالم الإسلام أنت بصير ** يخيّل لي الآن أنت ضرير

2 أما زلت في نوم عميق وغفلة ** وأرضك تحت الكافرين تمور ؟

3 أيا أمة الإسلام قومي تحرّكي ** أفيقي فإن الأمر جدّ خطير

5 وكنّا ملوكا نحكم الأرض كلّها ** لماذا علينا الدائرات تدور ؟

6 تلاشت قوانا بعد عزّ ومنعة ** جيوش العدا من كل صوب تغير

7 وفي كل أقطار البلاد مذابح ** وفي البوسنة والشيشان ذاك كثير[3]

هكذا اتخذ الشعراء " الثورة " سلاحا أدبيّاً، وبه يجاهدون مع إخوانهم في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان ، كما أشرنا إلى قصائدهم في الفصل الثالث من الباب الثاني.[4] وأروعها طويلة عيسى ألبي(فلسطين تناديكم) التي بلغت 59 بيتا،نقتطف منها ما يلي:[المتقارب]

3 أشعب يُمزّق في أرضه ** ويحيا شريدا أمام الخطر ؟

17 دماؤكم سوف تروي الترا ** ب فينبت منه حماة الوُكَر

18 وتستنهض القوم كي يعلموا ** (يفكّ القيود غلاظٌ جُسُر)

25 أبيدوا اليهود بإيمانكم ** كما أهلكوا الرسل فيما غبر

34 فلسطين دوما تناديكم ** فلبّوا بما يفعل المقتدر

43 إلى القدس سيروا هي الملتقى ** ومسجدِها رغم سقم وضرّ

---

(1) – الثقافي ، عثمان عبد السلام : تنبيه الأمة والإسلامية ، ص 7 – 8. **مع ملاحظة كسر الوزن لما تحته سطر.**

(2) – يونس، محمد كبير : يا أمة الإسلام، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو ، نيجيريا.

(3) – تاسع، علي : العالم الإسلامي، مخطوطة مكتبة الشاعر ، نيامي ، النيجر.

(4) – ينظر صفحات 202 – 209 من هذا البحث.

44 لتطهــير مــن فســــاد اليــهو ** د أهل الخنا والجناة الفُجُــر[1]

وهناك مواقف متنوعة من الشعراء : منها قضية سلمان رشدي الملعــون، صـــاحب " الآيات الشيطانية "، الذي أثار ضجة كبرى في العالم أجمع، فثار عليه علماء المنطقــة فـــي دورهم بخطب صاعقة وقصائد لاذعة ، منها مقطّعة القاضي علي ساغ من غامبيا : [الطويل]

1 أعينوا ببذل النفس كــلّ مجاهــد ** يصول علـــى هــذا العــدوّ المعانــد
2 هو الكافر المرِّيد سلمان حــسرة ** نجاسة كــل الــدين شــر المفاســد
3 هو الوزغ الملعون قوموا لقتلـــه ** بكل سلاح واقعــدوا في المراصــد[2]

والطلاب في جامعاتهم لا يسكتون غالباً عن مشاكلهم ومعانـــاتهم، فيعبــرون عنهـــا بالإضرابات والمظاهرات ، وقد يلعب الشعر في إثارة مشاعرهم ، وهــذا مـــا حــدث فعــلا بالجامعة الإسلامية بالنيجر، أيام رئاسة عبد العلي الودغيري لها، حيث توتّرت العلاقة بــين الإدارة والطلاب، فأعلن أكثر من شاعر مواقفهم الصارمة تجــاه اســتبداد رئــيس الجامعـــة بقراراته الغاشمة، منهم الشاعر المالي يوسف جغوراغا في ميميته التي منها ما يلي:[الوافر]

7 وحُقَّ لكم مطالبــة حقــوق ** وثوروا كالجراد بلا لجــام
8 علــيكم بالتــشمّر للهجــوم ** على ضفر القرارات الظلام
9 فلا ترضوا مفاوضة الخئين ** ولا تخشوا مهايبة الخصام
17 وعذّبـــه إلهـــي بـــالهوان ** لعـــين مـــستعين باللئـــام
22 ويا راشي ويا ذيل العروب ** نهايته قريــب بالحِمــام[3]

وللشاعر الغيني عمر رافع جالو ثورة ضد المشيخة الذين يعيشون على صنع التمائم، وقضاء حوائج الناس بالأسرار القرآنية، وعلى ضمان الشفاعة لزبائنهم يوم الحشر : [الكامل]

1 قل للذي اتّخذ المشيخة حرفــة ** أقصرْ فإن الــدين لــيس بمتجــر
2 أجعلتَ إسم الله ســلعة تــاجر ** متــصرّفا فيهـــا تبيـــع وتــشتري
3 تعطي وتمنع من تريــد كأنّـــه ** مِلْكٌ لــديك لقــد بغيــتَ فأقْــصرِ
19 يا من يبيع شفاعة في قومـــه ** هل أنت مالك أمرنا فـــي المحــشر
20 كـــلاّ وربّــك إنّـــها أكذوبـــة ** لا ريب أنّك تندمنْ في المحشـــر[4]

انظر كيف آمن الشعراء بشعرهم ، أن له صوتا مسموعا، فلذا ثاروا به لإحداث التغيير، الذي لا يتحقّق إلا بالثورة والمقاومة، كما آمن شيخ تجان غاي بدوره في (يا شعب قاوم)[5].

---

[1] – ألبي ، عيسى أبو بكر : الرياض ، ص 171.

[2] – ساغ، القاضي علي : سلمان رشدي، مخطوطة مكتبة الشاعر، سريكوندا، غامبيا.

[3] – جغوراغا، يوسف : الحماسة والهجاء ، مخطوطة مكتبة الشاعر، بماكو، مالي.

[4] – جالو، عمر رافع : المشيخة ، مخطوطة مكتبة الشاعر، كوناكري، غينيا.

[5] – ينظر : غاي ، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 20.

2)- الاتجاه الرمزي في القصيدة :

« *ولا تزال الرمزية حيّة في الشعر الغنائي في مختلف آداب العالم الكبرى* »[1]، وهي تعبير عن المعاني المجردة برسوم الأشياء المادية التي تتوقف عندها البرناسية، وهي تـوحي بصورها إلى معان نفسية وجدانية قد تعجز اللغة المعجمية التعبير عنها. لذا تلـبس معانيهـا العميقة ثوبا من الغموض والإبهام ، قد يصل إلى حد اللغز والتأملات الصوفية.

وللقِصص الرمزية جذور في الأدب الشعبي الإفريقي، إذ تعد الخرافـات الحيوانيـة والحكايات التقليدية نوعا من الرموز الأدبية لنقد الحياة اليومية للبشر، وقد سبق أن أشرنا إلى قصيدة (الفأرة مع الأسد) لعبد الرفيع أسليجو، وقصيدة (الحرية) ــ قـصة الفـأرتين ــ لجميل عبد الله. ولهذا الأخير قصيدة (لحم بين الكلاب) في قصة تزوير الانتخابات الرئاسية بنيجيريا، أكثر دول غرب إفريقيا انقلابات عسكرية ، يرمز اللحم إلى (الرئاسة)، والكلاب هم الساسة، وقد عثر على هذا اللحم قِطّ جائع فأكل منه، ثم هبّت رياح عاصفة ــ هي التيـارات الديمقراطية ــ حملت اللحم إلى الكلاب تكالبت على انتهاشه، فاندلعت بينهم حرب مسعرة لـم تهدأ حتى الآن ، وهي تشمل 28 بيتا نقتطف منها هذه الأبيات : [مجزوء الرمل]

11 أكـل القـط قلـيلا ** كانزا بـاقي الرغـاب
15 وإذا اللحـم نهـاب ** واغتنـام واسـتلاب
16 غار جيش من كلاب ** نابـه عـين المـصاب
17 غصب اللحم ومـادى ** ظافرا وافـي الغـلاب
18 أوسعوا اللحم انتهاشاً ** واسـتمدوا الأنيـاب
19 وتبـاروا وتـعـادوا ** ثـم لاذوا بالإيـاب[2]

ومن أشكال هذه الرموز الشعرية تشبيه الدنيا بالمرأة، تسبي قلوب الرجال، وتعـرض عنهن ليتعذّبوا من أجلها،ويمثل هذا الاتجاه الغاني الشيخ إبراهيم غشيغ، الذي يـشبه "الـدنيا" بهندٍ، ثم يزجر من يحاول أن يخطبها، لذا أسمى عمله " زواجر خاطب هند ": [مجزوء الخفيف]

7 إنهـا لعجـوزة ** تخضب اليـد بالحنـا
8 تكتحـل بإثـمدِ ** كـي تغـرّ رجالنـا
9 تتلـوّن دائمـا ** كـي تغـرّ بحـسنها
10 مثل حربـاء أمرُهـا ** لا تدوم على الـصفا
11 مثل سـراب ماؤهـا ** لا يقي المرأ من ظما
12 مثـل حيّـة سـمُّها ** تفتنـك بلـدغها

---

[1] – هلال ، محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث ، ص 451.

[2] – عبد الله ، جميل : لحم بين الكلاب، مخطوطة مكتبة الشاعر، كنو، نيجيريا. **مع ملاحظة كسر اوزن في ما تحته سطر.**

13 تقتل الزوج بعد مــا ** قاتلــت ذا بــسحرها
14 وتبـــدّل غيــــره ** تلك حــالات هنـــدنا
15 نحن سكرى بحبّهــا ** لا نفيـــق بغــدرها
16 كــل رجــل إذا رأى ** هند يرجو زواجَها[1]

وإن كان تأنيث العجوزة من أجل الوزن، فإن كسر الأوزان ملحوظ في عامة شــعره. وينسج على منواله من صوّر " المال " ظبية بل غادة ترفع الجهلاء وتضع العلماء، وهذا فـــي رائية محمد المصباح الزيتوني من نيجيريا : [البسيط]

1 بظبية يبتلــى الإنــسان قاطبــة ** مكحولة يــشتهيها القلــب والبــصر
4 إن الحياة وإن الموت فـــي يـــدها ** وتحت أقــدامها الخيــرات والــسرر
6 وقد تراها مرارا ترفــع الجهــلا ** وتخفــض العلمــاء صــفوها الكــدر
7 فيا لك المال إذ ما أنــت مالكــنا ** إنّا عبيــد ، إليــك الكــلّ يفتــقــر[2]

ولابن زبير قصيدة رائعة في مدح الحاج عباس صل ، فيصور خياله عروسا بنى بها في ليلة قصيرة.[3]ويعد المادح والممدوح من الشيوخ الصوفية الذين ليس لهم إلمام بالمــذاهب الأدبية، ولكن نضج الملكة الفنية يهديهما إلى مثل هذا الابتكار،وقبلهما قال مواطنهما السنغالي الشيخ محمد الهادي توري عن دكار حين زيارته لها، فاندهش من انحلال الأخلاق : [الكامل]

1 ومن العجائب في دكار لمبــصر ** كــون الأســود يــصيدها الغــزلان
2 واها لظبي إذ يــصيد غــضنفرا ** بــل للغــضنفر إذ عــراه هـــوان
3 أين الفراش الليث فـــي غاباتـــه ** أيـــن النيـــاب وبطـــشه والـــشان
4 كيف السلامة في زمان هكــذا ؟ ** فالطــفْ بنــا مــولاي يا رحمــان[4]

لا غرو في مثل هذه الرموز الوحشية، لأن الشاعر كان مريدا يعيش بين مزرعة شيخه الحاج مالك سِهْ وزاويته بإقليم كجور. ونلتقط الرموز نفسها عند النيجيري عمر إبراهيم الذي يـــرى أن العالم قد تحوّل إلى غابة أثناء الحرب العالمية الثانية، في مثل قوله بهذين البيتين: [الكامل]

16 وارجع ببصرك في الوحوش فلا ** تلقى ســوى ذا الكــر والفــر
17 الذئـــب يفتـــك بالشيــــاه إذا ** بالدب يكسر أعظــم القــدر[5]

ولإعجاب البعض بالطبيعة، يرمزون بمظاهرها إلى معانيهم، بعيــدا عــن المنحـــى الرومانسي، كزكريا الرباني الذي يرى أن شهر المولد النبوي الشريف هو فصل الربيع بين

---

(1) – غشيغ، الشيخ إبراهيم : مجموعة القصائد في نصائح الإخوان ، ص 12–13. **مع كثرة كسر الأوزان فيما تحتها سطر.**
(2) – الزيتوني ، محمد المصباح إبراهيم : فلسفة البركة على ضوء الكتاب والسنة، دار النور، ط 1، 1997م ، ص 47–48.
(3) – ينظر : صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي، ص 319/1.
(4) – غاي، شيخ تجان : هذا العبقري الشيخ محمد الهادي توري ، ص 46.
(5) – عثمان ، عبد السلام محمد : الحماسة في الشعر العربي في ديار نيجيريا ، ص 335.

فصول السنة في جماله وحب الناس له، فعنون ميميته بـــ " شهر الربيع" وقيّد أوائل الأبيـــات العشر الأولى بهذا العنوان. ولما أراد السنغالي محمد الأمين عاجْ أن يصور تجربته الفاشـــلة في الحبّ حين أصيب بداء العشق، أطلق على سينيته "الوردة الذابلة "[(1)]، ونجد العنوان نفسه " زهرة ذابلة" عند الشاعر المالي علي سيدبي يعبر عن التجربة ذاتها وعن فشله الذريع :

1 في الصيف غرستُ أرضـــاً ** شجرة من شجر الأوحـــال
2 في جوّ الـــصيف ســـقيتها ** ماء نابعاً وســـط الجبـــال
3 لمّا أتى الربيـــع أزهـــرت ** فأعطت ثمـــاراً بالأرطـــال
4 لكن غيري جنى ثمارهـــا ** وإن كنت حامـــل الأثقـــال
5 وكـــان نصيبي من غرسي ** قد غرف ماء بغربـــال[(2)]

وهو أحد الشعراء الذين لا يلتزمون بالأوزان الخليلية، كما باح لي بذلك، وإن التزم بالقافية. ولم يقتصر إبداعهم على الطبيعة، بل قد ينفرد شاعر بأسلوبه الخاص في الرمز إلى معانيـــه، ككبير شعراء المدح في السنغال إبراهيم جوب الذي قسم دَيْنَه إلى خمسة أقساط بين النبـــيﷺ وخلفائه الأربعة﵃،ثم عرضه على الناس في قطعة شعرية علّ ينال عونا على قضائه:[الكامل]

1 فعليّ ديْن أخـــوة قـــسّمتها ** بين الكرام لعـــلّ أن يقـــضوها
2 فعليك يا مختار أول قـــسمة ** وعليـــك يـــا صـــديقنا ثانيهـــا
3 وعليك يا فاروق ثالث قسمة ** وعليـــك يـــا عثماننـــا تاليهـــا
4 وعليك يا ليث الكتائب يا أبا الـــ ** ـــحسنين نوري ديننـــا باقيهـــا
5 أنتم كرام لا يلـــوذ بجـــاهكم ** شاكي النوائب فانثنى شاكيها[(3)]

فوصل بعد تعب وكدّ إلى الشيخ أحمد بمبا ، ولما عرض عليه قضى جميعهـــا، لـــذا تحوّل من التجانية إلى المريدية، وصار أكبر مدّاح لهذا الشيخ الذي لم يكن ليؤثر قسط أحد من هؤلاء الخمسة على آخر، لأنه اهتدى إلى ما يوحي إليه الشاعر من معان شوقية ورمزية.

ونقف عند سنغالي آخر، تناولنا شعره كثيرا، هو شيخ تجان غاي الذي له قـــصيدتان رمزيتان ، هما (الموؤدة الحية) و (خبز الغرب)، والأسلوب الرمزي أدق في عنوانه أكثر من أبياته التي لم يكد ينطلق فيهما من إيحاءات رمزية حتى يعود إلى أسلوبه الكلاسيكي فـــي سرد انتقاداته للفكرة الدينية التي توأد تحت وطأة الرأسمالية والاشتراكية كما في أولاهما، وفي الثانية يصوّر تناحر حكام الشرق وتسابقهم في موالاة الغرب.[(4)]

---

(1) – عاج، محمد الأمين : من وحي المجتمع، ص 6.

(2) – سيدبي، علي : زهرة ذابلة ، مخطوطة مكتبة الشاعر، بماكو، مالي.

(3) – صمب، عامر : الأدب السنغالي العربي ، ص 233/2.

(4) – ينظر : غاي، شيخ تجان : من وحي الواقع ، ص 24.

إن " الوسام " رمز إلى نجاح العلماء في حياتهم الثقافية، لذا يصدّر الشاعر النيجيري عبد الجليل عبد الرفيع أبايومي بالحديث على لسانه في تهنئة شيخه وسَمِيّه عبد الجليل الألاوي بعد تكريمه بوسام من "مدرسة عباد الله " بلاغوس، موحيا إلى جدّه ومثابرته : [الطويل]

1 لقيت الوسام بين مرج الخمائل ** فقلتُ له أين تقرّ لآمل

2 وقلت له أُنْشُرْ جناحيك وانْطق ** بما تختفي تحت لسانك حائل

3 وقال مقرّي قعر بحر تحيطه ** ليوث غيور نابضات الأنامل

4 وقلت له : كيف الوصول لنيله ؟ ** فأضحى به ملكاً لكل المناهل

5 وقال: أُخَيّ هل تظنّ جواهري ** تنال بغير الجهد أو بالتخامل

6 فإني وسام مدركي غير ميسّر ** ولست ثماراً تجتنى للمآكل[1]

وبقي أن نقف عند " حروف رمزية " يعبر بها بعض الشعراء عن كلمات تتألف من تلك الحروف، وهذا ما انتهجه الشاعر الغيني كرامو طلبي عمر في همزيته النبوية : [الطويل]

1 بابَ حِبّ ذي الجلال ** دقّ عينٌ ميمٌ راءٌ

4 داره عينٌ وضادٌ ** ثم ميم ثم هاء

5 ما له للسائلين ** إن أتوه غير هاء

6 لفظه حاء وكاف ** ثم ميم ثم هاء[2]

يرمز الشاعر إلى أحرف اسمه "عمر"، وإلى دار النبي ﷺ حِبّه يرمز بكلمة "عضمة" أو عصمة ، أي أنها دار معصومة، والهاء ترمز إلى جوده ، ومنطقه " حكمة ".

ولكن الشعراء كثيرا ما يرمزون بالأحرف الأبجدية إلى الأرقام في ما يعرف بحساب الجمل[3]، يؤرّخون به تواريخ الوفاة والولادة والرحلات، كما يرمزون بها إلى الأعداد في الشعر التعليمي. ومن أروعه من أحصى كتاب جواهر الإكليل فوجد ألفاظ " تأويلان " 142(بمق) مرة، و " قولان " 134(دلق) مرة، و" بَلْ " 32 (بل) مرة ، ولفظ خلاف 33 (جل) مرة ، فقال الشيخ عبد الرحيم محمد فالْ السنغالي : [الطويل]

1 وتأويلان في خليل " بمق " ** قولانه هاك به قل " دلق "

2 و" بل " تردّد ، و" جل " خلاف ** وهكذا قال لنا الأسلاف[4]

وقد اعتمد أبو بكر عتيق عليها في قصائده التي يشرح فيها استخراج اسم الله المكنون.[5]وهذا يجرنا إلى الرموز الصوفية التي استخدمها الشيوخ الصوفية في هذا الشعر.

---

(1) – نخبة من الشعراء : من أجل وسام الألاوي ، ص 4. مع ملاحظة كسر الوزن لما تحته سطور.

(2) – طلبي، كرامو : قدوة المولود ، ص 3.

(3) – وهي نوعان : شرقية أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضغظ ، وغربية : أبجد هوز حطي كلمن صعفض قرست ثخذ ظغش. وهما تعبير عن الأرقام من 1 إلى 10، ثم العقود من 20 إلى 100، ثم المئات من 200 إلى 1000.

(4) – صالح ، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية بالغرب الإفريقي ، ص 440.

(5) – ينظر : عمر ، محمد الأمين : الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان ، ص 137 – 143.

ونلتقط في شعر الشيخ أحمد بمبا حروفا مخصوصة، عسير على المرء فهم قصده منها، لأنه لجأ إلى ذلك لتعمية بعض معانيه الصوفية، حيث يقول في أرجوزته (الله محمد غيري) :

*1 إلـــى ســـواي أبـــداً تقليـــب ** عنه نُهيتَ وامّحى التقليـــب*

*2 لوجه من مني اشترى لَجْ تشكر ** كليّتي خير كريم يذكـــر*[1]

وجاء في رائيته "يا مكرم الضيف " لفظ (كح) الذي اشترى منه الله تعالى في شهر رمضان:

*8 منه اشتر الله (كح) حيث انتحت أبدا ** كما له قاد ما يهواه أو طارا*[2]

إنها ضرب من الألغاز الرمزية التي تكثر في كتابات الصوفية، وخاصة إذا ما عرفنا أنه شيخ طريقة جديدة ، هي المريدية التي انفرد بها عن سائر الشيوخ الصوفية في المنطقة.

وللآخرين عبارات أشبه بشطحات الرواد الصوفية الأوائل، كالصفات الثنائيـــة التـــي أضفاها الشيخ هارون الرشيد جلو، من غينيا بيساو، على روحه وجسمه إذ يقول : [الكامل]

*1 يا ليتني مذ كان لـــي شـــوقان ** قد كان لي جسمان أو روحـــان*

*2 أو كان لي قلبـــان أو صـــبران ** أو كان لي عقـــلان أو دمعـــان*

*3 شوقان يزدحمان في قلبي وما ** لي حيلة فتنـــازع الشـــوقان*[3]

وتأويل هذه الازدواجية أيسر من هذه المعضلات الشطحية التي يقف عنـــدها الغينـــي كرامو طلبي ، حيث نجده في أعمق الابتهالات الإلهية يناجي ربّه : [الوافر]

*35 إذا الزمار ماس علـــى الأزقـــةْ ** ففي قلبـــي مناجـــاة الكـــريم*

*36 ولِم لا أنت روحٌ روح روحـــي ** وجودك في الخلائق كالـــديوم*

*37 ولِم لا أنـــت سرٌّ ســـرّ ســـرّي ** ونورك كالسداة علـــى الأنام*[4]

عند الوصول إلى الحضرة الإلهية فإن الكلمات تفقد أصالتها الطبيعيـــة، كمـــا تـــذهل النفوس عن كنهها العادي. والتعبير نفسه يظهر لدى المريد الذي يصل إلى حـــضرة وســـيلته وشيخه ليغترف غرفة من بحار نفحاته، فيجني ما لا يمكن وصفه من الأحوال، هكذا كان حال الشيخ يوسف تال البوركيني مع (فيضة) الشيخ إبراهيم انياس : [الوافر]

*4 بفيضته اســـقني دوم الـــدوام ** شـــؤون الحـــق فـــي كـــل الزمـــان*

*16 رجوتكمُ رجوتكـــم رجـــوت ** رجوتُ الفيض فيضان التجانـي*[5]

وللصوفية ذوق في التعبير عن رياضاتهم الروحية، في تلك الخلوات التي ينقطعون فيها فراراً من العالم الدنيوي إلى العالم العلوي، وأحيانا يدمجون بين المصطلحات المختلفة، كدالية

---

(1) – بمبا، الشيخ أحمد : المواهب الإلهية والمزايا المحمدية، طوبى، لا.ط، لا.ت، ص 27.

(2) – بمبا، الشيخ أحمد : يا مكرم الضيف، طوبى، لا.ط، لا.ت، ص 2.

(3) – صالح ، عمر محمد : الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، ص 407.

(4) – طلبي، كرامو : قدوة المولود، ص 67. **مع ملاحظة كسر الأوزان في ما تحتها سطور.**

(5) – تال، الشيخ يوسف : الرحلة الكولخية، مخطوطة مكتبة الشاعر، واغادوغو، بوركينا فاسو.

الحاج مالك سِهْ في الدمج بين مصطلحات التصوف والعـروض[1]، وكهائيـة الـشيخ علـي الكماسي[2]في دمجه بين التصوف والنحو والمنطق في وصف خلوته الرياضية:[مجزوء الكامل]

2 وادخل في بحـر حقيقـة ** واغرق في البحر وموجها
4 واغسل غفلاتـك كلّهـا ** بميـاه الـذكر وكأسـها
5 وامحُ الأغيـار جـواهرا ** أعراضـها وجـسومها
6 واحذف مرفوع صفاتـك ** وانصـب ودم محفوظها [3]

أظنّ أنّ في عبارة " دم محفوظها " خطأ من النساخ، بل " ضمّ مخفوضـها" ، مـع ملاحظة كسر الأوزان في ما تحتها سطور. ومعنى هذا البيت : أن تتواضع بحذف الـصفات المتعالية مثل الكبر، والصفات الوضيعة تنصب وتضم بالتربية.

وللصوفية إيحاءات رمزية في صناعة الوصف، ويرسم لنا الشيخ نور الدين حكيم، من علماء إلورن بنيجيريا، كتاب العلم (أي قلب الصوفي) في هذه الصورة الرمزية : [الطويل]

1 أخي هاك قلب العلم ركز جوفـه ** ودونك فهم صـدره مـن إلهيـه
2 ألا أن لـبّ اللـب داخـل ** وكسر له بالعكس والله ها هيـه
3 كتابي كتابي ليس لي فيه نقطـة ** وليس جميع الكتب فيـه كتابيـه
4 أيامي أوراق ، شهوري فصولها ** وأبوابها الأعـوام هـذا كتابيـه
5 وأول أوراق فيـوم ولادتـي ** وآخرهـا يـوم اللقـاء بربيـه
6 وألوان تي الأوراق سـود وبيضها ** وحمر وخضر ثم بيض لسريه [4]

إن هناك صورا رمزية ذات قيمة دلالية، تنتجها قرائح الصوفية المخلـصون، وهـي خالصة من التكلف لأنها نتيجة تجربة صادقة ، وتحمل معاني حيوية، وهذا ما يجعـل الأدب الصوفي في جميع الآداب العالمية ذا قيمة إنسانية.[5]

ولذا فإن للشعراء الصوفية تفسيرهم الخاص للمقدمات الغزلية التـي يـصدّرون بهـا قصائدهم، وقد تكون الغانيات فيها رموزا إلى الدنيا، والتي تُصَوَّرُ في صورة ظبية جميلة عند الآخرين.[6] وقد تكون بعض تجاربهم عويصة كما يقول الغيني الشيخ محمد كاسو: [البسيط]

1 أمسيتُ في مأزم أُصطاد من أُرَف ** بـادي التحيّـر والأهـوال زوّاري
2 وألبس التيهُ قلبي ثوبَـه وكفـى ** تيهاً مسيـري بوادٍ غيـر ذي وار [7]

---

[1] – ينظر ص 257 من هذا البحث، وديوانه ص 84.

[2] – ولد عام 1915م بكوماسي في غانا، وهو من أصل نيجيري، كان عالما صوفيا وشاعرا ، له 22 مؤلفا، وديوان.

[3] – أبوبكر ، محمد الأول : الشيخ علي الكماسي، مجلة دراسات عربية، كلية بايرو الجامعية،كنو،عدد 2،سنة 1976م،ص 122.

[4] –يوسف، شريف الدين: الأشعار الصوفية في إلورن،شعبة اللغة العربية،قسم الأديان،كلية الآداب،جامعة إلورن،2001م،ص 73.

[5] – ينظر:هلال، محمد غنيمي: دراسات في نماذج في مذاهب الشعر ونقده، نهضة مصر، لا.ط، لا.ت، ص 147.

[6] – ينظر : سه، الحاج منصور ابن الحاج مالك سه : اليواقيت العرفانية، ص 55.

[7] – جابي، محمد الأمين : الشاعر والأديب الغيني، أعمال ندوة من أجل أدب إسلامي، ص 18.

وللحب الصوفي نيران تلتهب بالأذى، على حدّ مضمون الصورة التي يرسمها الحاج مالك سهْ التجاني في بيتين له[1]، فيصدّقه شيخ القادرية بنيجيريا محمد الناصر الكبرى في بائية تغلي فيها شرر شوقية بحب نبيه المصطفى ﷺ : [الوافر]

3 تأجّج نار حبّك في فؤادي ** فها هي في اضطرام واشتباب
4 متى تخبو وحبي في ازدياد ** وجسمي في اهتزاز واضطراب
5 متى أسلو ونار الشوق تزكو ** فها هي في اتّقاد والتهاب
6 أكاد من الصبابة أقض نحبي ** فيرحمني الغرام على التراب[2]

وإذا طغت هذه النيران الشوقية على قلب السالك الصوفي، فإن قلبه يمتلئ هيبة ، لا يجد للحقيقة المحمدية حدودا، فترتسم على قلبه لوحة عظيمة من التجربة الرياضية، لذا تكثر صور مختلفة للتعبير عن هذا الحب المحمدي اللامحدود كما عند النيجيري أبي بكر عتيق : [الطويل]

5 هو سيّد الرسل الكرام وخيرهم ** هو أصل كل الخلق بالإطلاق
6 هو قبضة النور الإلهي الذي ** من قبل آدم قاسم الأرزاق
7 من نوره الأكوان طرا كونت ** أصل الأصول وخاتم السباق
8 هو عين عين الحق طلسمه الذي ** هو غوثنا بمعينه الخفاق
9 هو زيته مشكاته مصباحه ** وزجاجه المخفي عن الأرماق
10 بل هو مغناطيسه الجذاب من ** جذب القلوب لحضرة الخلاق[3]

ولم تقتصر هذه الرموز على شعر الشيوخ الصوفية، بل إن بعض الشباب ينحون المنحى نفسه معوّلين على أساليب الاستعارات. وقد لاحظت ذلك في مقدمات قصائد شاعر توغو مصطفى موسى غلاديما [4]، إذ يصدّر تهنئته بمولودة في هذا البيت الرمزي: [الكامل]

1 سين السنا والياء دال قد سما ** بمجيء هذا الخير من خلّاق[5]

وفي وصف المنتدى الإسلامي إحدى المنظمات الخيرية يفتح ميميته بهذه الاستعارة الرمزية:

1 بزغ الصباح بعيد ليل مظلم ** وبدا الضياء على ظلام قاتم
2 شمس السعادة والسلامة أشرقت ** فلنسع فيها للبناء الأقوم[6] [الكامل]

---

[1] – سه ، الحاج مالك : ملحق بديوان شعره ، ص 13.
[2] – الكبرى، الشيخ محمد الناصر : الديوان المبارك، ص 95-96. <u>**يبدو أن " أقض " محذوف الياء لضرورة شعرية.**</u>
[3] – عمر، محمد الأمين : الشيخ أبوبكر عتيق وديوانه هدية الأحباب والخلان ، ص 169.
[4] – هو من مدينة ديباغو، ولد سنة 1976م، وتخرج في الأزهر الشريف بمصر، وهو حاليا مشرف تربوي في مدرسة ثانوية.
[5] – غلاديما، مصطفى : تهنئة مولودة سيد علي، مخطوطة مكتبة الشاعر ، لومي، توغو.
[6] – غلاديما، مصطفى موسى : نور بدا ، مخطوطة مكتبة الشاعر، لومي ، توغو.

فهرس موضوعات المجلد الأول

فهرس الموضوعات

الباب الأول : دراسات ممهّدة

الباب الأول : دراسات ممهّدة

الباب الثاني :

مضامين الشعر العربي الإفريقي

الباب الثالث :

قضايا نقدية في الشعر العربي الافريقي

الفصل الثـــاني : بنـــاء القـــصيدة..................................288